بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القـــرى
كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : أحمد بن صالح بن حسن الزهراني كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : العقيدة والأديان
الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجستير في تخصص : العقيدة
عنوان الأطروحة : ((آراء الإمام ابن حبان في المسائل الاعتقادية (عرض ونقد)))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٥ / ٧ / ١٤١٩هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللّجنة

المشرف	المناقش الدّاخلي	المناقش الدّاخلي
الاسم : د / عبدالشكور بن محمد أمان العروسي	الاسم : د / أحمد البناني	الاسم : د / عبدالعزيز المرشدي
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع : ....

يعتمد

رئيس قسم العقيدة

الاسم : د / أحمد بن عبداللطيف آل عبداللطيف

التوقيع : ....

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

المملكة العربيّة السّعوديّة
وزارة التّعليم العالي
جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة
كلّيّة الدّعوة وأصول الدّين ــ قسم العقيدة

آراء الإمام ابن حبّان في المسائل الاعتقاديّة

عرض ونقد

بحث مقدّم لنيل درجة الماجستير في العقيدة

إعداد الطّالب :
أحمد بن صالح بن حسن الزّهراني

إشراف الدّكتور :
عبدالشّكور بن محمّد أمان بن عبدالكريم العروسي

١٤١٨هـ

ملخّص الرّسالة

تتناول هذه الرّسالة المضمون العقدي في تراث أحد أئمّة الحديث، وهو الحافظ محمّد بن حبّان البستي، الّذي كان له دور بارز في خدمة السّنّة النّبويّة على صاحبها أفضل الصّلاة والسّلام.

وكان رحمه الله موضع اختلاف بين النّاظرين في كتبه، بين من يصنّفه أشعريّ العقيدة، وبين من يصنّفه من أهل السّنّة.

وقد سطّر في كتبه بعض الآراء الّتي كانت مدعاة للعجب، لانفرادها وبعد استدلالاتها أحياناً، واكتنف كثيراً من ألفاظه الغموض، خصوصاً في باب الأسماء والصّفات.

فتتبّعت آراءه الاعتقاديّة في ثنايا كتبه الموجودة جمعاً وعرضاً على الكتاب والسّنّة مقارنةً بمنهج أهل السّنّة والجماعة وأقوال السّلف الصّالح رحمهم الله.

وقد كانت نتيجة البحث في آرائه الاعتقاديّة في أكثر أبواب العقيدة أنّه متّبع لا مبتدع وأنّه يعتمد الكتاب والسّنّة ومنهج الصّحابة أصولاً يأخذ منها آراءه واجتهاداته، وأنّه شديد التّحمّس للسّنّة والاتّباع مفارقاً لأهل البدع كالمعتزلة والجهميّة والرّافضة ومن شاكلهم.

إلاّ إنّه لم يسلم من الخطأ شأنه شأن سائر البشر، فوقع له اضطراب في باب الأسماء والصّفات سبّب جنوحه إلى التّأويل في بعض الصّفات.

وتبنّى أيضاً آراء في بعض المسائل تخالف الرّاجح من مذهب أهل السّنّة وتخالف مذهب الجمهور منهم كالتّبرّك بذوات الصّالحين، وتفسير الفطرة، وحديث خلق الله آدم على صورته، ووقع أيضاً في بدعة قصد القبور من أجل الدّعاء عندها رجاء الاستجابة.

إلاّ أنّ هذه الأخطاء -الّتي ما نظنّه وقع فيها إلاّ اجتهاداً منه في إصابة الحقّ فهو بين أجر وأجرين إن شاء الله- لا تخرجه عن دائرة أهل السّنّة، ولا تبرّر عدّه من ضمن الأشاعرة بإطلاق، لأنّه خالفهم في أكثر المواضع، والعبرة بالأغلب لا بمطلق الموافقة.

اسم الطّالب	المشرف	عميد كلّيّة الدّعوة وأصول الدّين
أحمد بن صالح بن حسن الزّهراني	د. عبد الشّكور بن محمّد أمان العروسي	د. محمّد سعيد بن محمّد حسن

آراء الإمام ابن حبّان في المسائل الاعتقاديّة

عرض ونقد

شكر وعرفان

اعترافاً بالفضل لأهله ، وشكراً لنِعَم المُنْعِم ، أشكر الله العلي القدير ، على ماأنعم علي من إتمام هذه الرسالة وتوفيقه لي وسلوكه بي درب طلاب العلم .

ثم أشكر بعد شكر الله تعالى فضيلة شيخي وأستاذي الدكتور : عبدالشكور العروسي ، المشرف على الرسالة ، الذي ما بَخِل علي بوقتٍ ولا علمٍ ولا جهد ، مع ما كنت أسبّبه له من تعب ، واختلافي عليه آناء الليل وأطراف النهار ولم أر منه السآمة ولا الملل جزاه الله خيري الدنيا والآخرة .

كما أشكر صاحبي الفضيلة المناقِشَين على ماتحملاه من عناء قراءة الرسالة وإبداء الملاحظات عليها لتتم الفائدة للباحث وللقارىء جزاهما الله خيرا .

وأشكر وأدعو الله تعالى لكل من أعان على إتمام هذه الرسالة وهم كُثُر لاأوفيهم الشكر ولا أستطيعه ، وقد وكلت الله في مثوبتهم وهو أكرم من أعطى وأجزل من أثاب .

وشكري في الختام للقائمين على هذا الصرح العلمي على ماقدموه ومـا يقدمونه من خدمة طلاب العلم مادياً ومعنوياً ،،،

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ با لله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا ، من يهده ا لله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلاهادي له ، وأشهد أن لا إله إلاّ ا لله وحده لاشريك له ، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله صلّى ا لله عليه وسلّم .

﴿ **ياأيّها الّذين آمنوا اتّقوا ا لله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون** ﴾ : آل عمران ١٠٢، ﴿ **ياأيّها النّاس اتّقوا ربّكم الّذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، واتّقوا ا لله الّذي تساءلون به والأرحام إنّ ا لله كان عليكم رقيباً** ﴾ النّساء ١ ، ﴿ **ياأيّها الّذين آمنوا اتّقوا ا لله وقولوا قولاً سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع ا لله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً** ﴾ [(1)] : الأحزاب ٧٠-٧١ ، أمّا بعد :

فإنّ أعظم نعم ا لله علينا أن هدانا للإسلام ، وأنزل علينا أفضل كتبه ، وأرسل إلينا خير رسله ، محمّد بن عبدا لله صلّى ا لله عليه وسلّم ، أرسله والنّاس في جاهليّة جهلاء ، وفي ضلال وعماء ، فهجر الرّقاد ، ولازمه السّهاد، ودعا إلى ا لله الإنس والجنّ ، وعاداه لأجل دينه القريب والبعيد ، دعا النّاس باللّسان والبيان والسّنان ، بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة ، وجاهد في ا لله حتّى أتاه رسول ربّه فأجاب صلّى ا لله عليه وعلى آله وأصحابه إلى يوم الحساب .

ثمّ حمل الأمانة من بعده صحبه الكرام ، الّذين لم يبخلوا على هذا الدّين بمال ولا نفس ، نشروا الدّين في العالمين ، وجاهدوا في سبيله الكافرين والمنافقين ، حتّى عمّ الإسلام أرجاء المعمورة ودخل النّاس فيه أفواجاً .

(1) هذه خطبة الحاجة الّتي كان النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم يستفتح بها كلامه وخطبه ، أخرج حديثها أبو داود في النّكاح باب في خطبة النّكاح والتّرمذي في النّكاح باب ما جاء في خطبة النّكاح والنّسائي في النّكاح باب مايُستحبّ من الكلام عند النّكاح وابن ماجة في النّكاح باب خطبة النّكاح عن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه .وحسّنه التّرمذي ، وللشّيخ الألباني رسالة صغيرة جمع فيها طرقها وتكلّم عن أسانيدها بشيء من التّفصيل .

ثمّ حمل الرّسالة بعدهم التّابعون ومن بعدهم من العلماء ، الّذين جابوا الأرض تعلّماً وتعليماً ، يبلّغون دين الله تعالى ، ويبثّون في النّاس العلم ، مصداقاً لوعد الله ووعد رسوله صلّى الله عليه وسلّم .

لكنّ التّاريخ الإسلامي شابه في بعض فتراته أزمات فكريّة وسياسيّة عكّرت أجواءه ، واختلط فيها الحقّ بالباطل ، واشتعلت الحروب الفكريّة بين أهل السّنّة وبين أهل البدع من جهة ، وبين أهل البدع أنفسهم من جهة أخرى ، ممّا جعل الحقّ عند بعض النّاس باطلاً والباطل حقّاً ، والسّنّة بدعةً والبدعة سنّة.

ولكنّ الله قيّض لهذا الدّين في كلّ عصر من العصور علماء أفذاذاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، فمنهم من انكبّ على كتاب الله تفسيراً وتجويداً واستنباطاً ، ومنهم من جعل همّته جمع حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من بطون الكتب والمسانيد ومن أفواه الرّجال ، ومنهم من انكبّ على تفسير حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم واستنباط الأحكام الشّرعيّة منه ، ودراسة المشكل والغريب والمختلف ونحو ذلك ، ومنهم من انكبّ على فقه الشّريعة وجمع أقوال الرّجال وتحرير الفقه على ما يتّفق له من الكتاب والسّنّة ، ومنهم من جرّد لسانه وبنانه للرّدّ على أهل البدع وجدالهم وثلبهم وكشف عوارهم وكلّهم على ثغرة وكلّهم له ممّا عمل نصيب .

ولما تقدّم كان دراسة تراث الأئمّة ـ وخاصّةأولئك الّذين عاشوا في فترات قوّة شوكة أهل البدع وظهورهم ـ من الأهمّيّة بمكان للأسباب الآتية :

ـ أنّ كثيراً من أولئك العلماء يكتنف كثيراً من جوانب شخصيّاتهم وفكرهم الغموض .

ـ أنّ بعض أولئك العلماء قد تأثّروا بالأجواء الّتي عاشوا فيها ممّا جعلهم يتبنّون مناهج وآراء مخالفة للكتاب والسّنّة .

ـ أنّ بعض أولئك العلماء تضاربت أقوال النّاس فيهم : هل هم من أهل السّنّة أم لا .

ـ أنّ بعض الأئمّة كان له جهود مشكورة في بيان عقائد أهل السّنّة والذّبّ عنها والثّلب لأهل البدع ، ومع ذلك لم يُبرز ذلك الجهد ويُبيّن .

وانطلاقاً من هذه الأسباب توجّه اهتمامي في اختيار موضوع بحث الماجستير لعدّة شخصيّات علميّة ، ووقع اختياري على الإمام الحافظ أبي حاتم محمّد بن حبّان البستي رحمه الله تعالى ، صاحب التّقاسيم والأنواع والثّقات وغيرهما [1] ، ذلك أنّ هذا الإمام توافرت فيه كلّ الأسباب الّتي تقدّم ذكرها ، والّتي حفزتني للبحث في ثنايا كتبه عن آرائه الاعتقاديّة ، خصوصاً وأنّ المشهور عن ابن حبّان أنّه أشعريّ العقيدة ، فأحببت أن أدرس منهجه في سائر أبواب العقيدة حسب ماأجده عنده ، واستشرت بعض المختصّين في ما عزمت عليه فما زادوني إلاّ تشجيعاً .

عندئذٍ يمّمت وجهي إلى تراث الإمام ابن حبّان وما هو متوفّر منه ، وقد وجدت له خمسة مؤلّفات هي كلّ ما وُجد له من المصنّفات ، وهي كتابه الصّحيح ، والثّقات وكتاب المجروحين ومشاهير علماء الأمصار ونزهة العقلاء، وقد وجدت في هذه الكتب ماأردت حيث بيّن ابن حبّان رأيه ومعتقده في كثير من مسائل العقيدة ، وجمعت منها مادّة علميّة جيّدة ، خصوصاً كتابه الصّحيح الّذي أودع فيه تراجم وتعليقات على الأحاديث ، كانت مصدراً مهمّاً لمعتقده رحمه الله .

وقد قسّمت الرّسالة إلى مقدّمة و ثمانية فصول وخاتمة :

المقدّمة : وذكرت فيها سبب اختياري الموضوع وخطّة البحث والصّعوبات الّتي واجهتني في كتابته .

الفصل الأوّل : ابن حبّان وعصره ، وفيه مبحثان :

المبحث الأوّل : تكلّمت فيه عن العصر الّذي عاش فيه ابن حبّان بشيء من الاختصار ، وبيّنت الحالة السّياسيّة والاجتماعيّة والعلميّة الّتي سادت العصر الّذي عاش فيه .

[1] يأتي الكلام عن هذه المصنّفات في الفصل الأوّل .

المبحث الثّاني : تكلّمت فيه عن شخصيّة ابن حبّان : اسمه ومولده وطلبه العلم وشيوخه ومؤلّفاته وتلامذته وآراء العلماء فيه ثمّ أخيراً وفاته رحمه الله.

الفصل الثّاني : منهجه في العلم والتّلقّي ، وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :

المبحث الأوّل : منهجه في التّلقّي عن القرآن .

المبحث الثّاني : منهجه في التّلقّي عن السّنّة .

المبحث الثّالث : منهجه في الاستدلال بالإجماع .

الفصل الثّالث : مسائل التّوحيد عند ابن حبّان ، وفيه تمهيد وستّة عشر مبحثاً :

المبحث الأوّل : عقيدته في الخوف والرّجاء .

المبحث الثّاني : عقيدته في الإخلاص .

المبحث الثّالث : عقيدته في صرف العبادة لغير الله .

المبحث الرّابع : عقيدته في الحلف بغير الله .

المبحث الخامس : عقيدته في التّشريك في المشيئة .

المبحث السّادس : عقيدته في الطّيرة .

المبحث السّابع : عقيدته في العدوى .

المبحث الثّامن : عقيدته في الرّقى والتّمائم .

المبحث التّاسع : عقيدته في اتّخاذ القبور مساجد .

المبحث العاشر : عقيدته في الصّور والتّصوير .

الحادي عشر : عقيدته في اللّو .

المبحث الثّاني عشر : عقيدته في الهام والغول.

المبحث الثّالث عشر : عقيدته في التّنجيم .

المبحث الرّابع عشر : عقيدته في التّوكّل .

المبحث الخامس عشر : عقيدته في التّبرّك بالصّالحين .

المبحث السّادس عشر : عقيدته في قصد القبور للدّعاء عندها .

المبحث الخامس : عقيدته في ردّ القدر بالدّعاء أو (المحو والإثبات)

الفصل السّادس : موقف ابن حبّان من الفرق المخالفة ، وفيه تمهيد وخمسة مباحث :

المبحث الأوّل : موقفه من الخوارج .

المبحث الثّاني : موقفه من المعتزلة .

المبحث الثّالث : موقفه من النّواصب .

المبحث الرّابع : موقفه من الرّوافض .

المبحث الخامس : موقفه من الصّوفيّة .

الفصل الثّامن : عقيدة ابن حبّان في الإمامة والأئمّة ، وفيه مبحثان :

المبحث الأوّل : عقيدته في حقوق الأئمّة .

المبحث الثّاني : عقيدته في إمامة الخلفاء الأربعة : وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأوّل : عقيدته في إمامة أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه .

المطلب الثّاني : عقيدته في إمامة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه .

المطلب الثّالث : عقيدته في إمامة عثمان بن عفّان رضي الله عنه .

المطلب الرّابع : عقيدته في إمامة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

الخاتمة :

وذكرت فيها أهمّ النّتائج الّتي خلُصت إليها في البحث ، وأهمّ التّوصيات .

طريقتي في البحث :

أوّلاً : لم أعتمد في آراء ابن حبّان إلاّ ما صرّح به أو صحّحه من المذاهب ، أو أشار إليه ، أمّا مجرّد إيراده حديثاً يدلّ على مسألة فلا .

ثانياً : رجعت في كلّ المسائل الّتي بحثتها إلى مصادر أهل السّنّة والأصول ، إلاّ ماندر ممّا لم أستطع العثور عليه في مصدره ، كما استعنت كثيراً في المسائل الّتي بحثها معاصرون بتلك الأبحاث من رسائل علميّة وغيرها ، ولكن لم أسجّل في المراجع سوى ماأحلت عليه في الحاشية أو نقلت منه نصّاً .

ثالثاً : في تخريج الأحاديث : فقد خرّجت كلّ حديث أو أثر يمرّ بي إلاّ ما زاغ عنه البصر ، أمّا الأحاديث الّتي يذكرها ابن حبّان مستشهداً بها فلا أتوسّع في التّخريج وذلك لكونها مخرّجة بتوسّع في الكتاب المحقّق بجهد الأستاذ شعيب الأرناؤوط ، وقد استعنت به و لم أعتمد عليه ، وأمّا الأحاديث والآثار الّتي لم يوردها ابن حبّان أو كانت من إيرادي فقد خرّجتها بجهدي مستعيناً بدراسات أهل هذا الشّأن ، من المتقدّمين أو المعاصرين وحكمت عليها بما أدّى إليه اجتهادي ترجيحاً لاابتكاراً ، مع ملاحظة أنّ ما كان في الصّحيحين أو أحدهما اكتفيت بالإحالة إليه لإجماع العلماء على صحّة مافيهما [1] ، وأمّا خلاف ذلك فإنّي أكتفي بالكتب السّتّة والمسند والموطّأ والمستدرك على الأغلب وإلاّ فقد أتوسّع أحياناً للحاجة ، والتزمت التّخريج بالإحالة إلى الكتب والأبواب في الكتب المرتّبة على الكتب والأبواب ، مراعاة لاختلاف الطّبعات ، ولاألتزم ذكر رقم الحديث ، وأمّا خلافها فأحيل إلى أرقام الصّفحات أو إلى رقم الحديث أو كليهما .

رابعاً : أحياناً أقدّم الكلام عن المسألة لإعطاء صورة واضحة عنها قبل نقل كلام ابن حبّان ، وأحياناً أقدّم كلام ابن حبّان ، فلم ألتزم طريقة واحدة في ذلك ، ولكن غالباً ماأقدّم للمسألة إن كانت تحتاج إلى شرح لغوي أو تقسيم اصطلاحي أو كان فيها لبس .

خامساً : أعلّق على كلّ مسألة بما تحتاجه من الإيضاح بحسب غموضها ووضوحها ، وكذلك بحسب استدلال ابن حبّان وغالباً أميل إلى عدم التّوسّع في التّعليق حتّى لايكبر حجم الرّسالة ولا أخرج عن موضوعها .

سادساً : في التّراجم اكتفيت بترجمة من أظنّ خفاءه ، ولذلك لم أترجم غالباً لمشاهير الصّحابة والأئمّة ، وأكتفي بالإحالة إلى الإصابة لابن حجر إن كان المُترجم من الصّحابة ، وإلى سير أعلام النّبلاء للذّهبي إن كان فيه .

سابعاً : ذيّلت البحث بفهارس للآيات والأحاديث والآثار والأعلام والأماكن والبقاع والفرق والجماعات والألفاظ ، إضافة إلى فهرس المصادر

---

[1] إلاّ أحرف يسيرة بيّنها العلماء ، انظر النّكت لابن حجر ١ / ٣٧٩ .

والمراجع ، وراعيت في ترتيبها الحرف الأوّل دائماً ، والثّاني غالباً ، وذلك لقلّة عدد المواد المفهرسة ،وفي الأعلام والأماكن والألفاظ لم أحل إلاّ على الموقع الّذي ترجمت فيه للعلم أو شرحت اللّفظ أو عرّفت بالمكان، فلم أذكر كلّ المواقع الّتي ترد فيها المادّة المفهرسة .

مصاعب في طريق البحث :

بحمد الله تعالى لم أجد أثناء كتابتي لهذا البحث أيّة صعوبات محسوسة تعوق دون إتمامه ، اللّهمّ إلاّ بعض المتاعب ناتجة من ثلاثة أسباب : **الأوّل** : علم قليل وبضاعة مزجاة ، وحيلة ضعيفة .

والثّانية : قلّة ترجمة ابن حبّان في المصادر وندرة النّصوص عنه ، ممّا سبّب غموضاً نوعاً ما في شخصيّته وحال دون الكشف القويّ عن مصادر ما وقع له من المحن والعداوات ، وكذلك ماوقع منه من مخالفة مذهب أهل السّنّة اجتهاداً منه رحمه الله وهو قليل بحمد الله تعالى .

الثّالثة : أسلوب ابن حبّان الّذي كثيراً ما يعتريه غموض وعدم وضوح ، ممّا يسبّب الإشكال في فهمه وصرفه لمعنى من المعاني .

ولكنّ الله أعان ووفّق فله الحمد أوّلاً وآخراً ، فهو وليّ كلّ نعمة عزّ وتبارك وتقدّس ، ماكان من صواب هُديت له فما هو إلاّ توفيقه جلّ شأنه ، وماكان من خطأ أو زلّة فجهل نفسي ومزالق الشّيطان وأستغفر الله ..

وصلّى الله على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم .

(الفصل الأوّل)

ابن حبّان وعصره

.. وفيه مبحثان :

الأوّل : عصر ابن حبّان

الثّاني : ترجمة ابن حبّان

المبحث الأوّل : عصر ابن حبّان

تمهيد :

درج الباحثون في الرّسائل العلميّة في مثل موضوعنا على إيراد صورة عن الأحوال السّياسيّة والاجتماعيّة على أنّها من المؤثّرات الّتي تدخل في تكوين وصياغة الشّخصيّة الّتي تعيش في ذلك العصر ،كما أنّ لتلك الأحوال في بعض الأحايين تأثيراً كبيراً على آراء من يعيش فيها ، وكم كانت المؤثّرات البيئيّة سبباً في تشدّد بعض أهل العلم في جوانب معيّنة وتساهل آخرين فيها ، وللأسف فقد قصّرت المصادر كثيراً في ترجمة ابن حبّان ، فغاب عنّا الكثير من أخبار نشأته وحياته ، ممّا سبّب بعض الغموض في شخصيّته ، وقلّل من أهمّيّة دراسة أحوال العصر الّذي عاش فيه ، ومن هذا المنطلق فإنّي سأوجز الكلام عن الحالة السّياسيّة والاجتماعية في عصر الإمام ابن حبّان وبالله التّوفيق .

أوّلاً : الحالة السياسية :

عاش ابن حبّان في نهاية القرن الثّالث إلى نصف القرن الهجري الرابع، تقريبا من سنة ٢٧٠ هـ إلى ٣٥٤ هـ وبالنظر إلى الخارطة في هذه الفترة نجد أن العالم الإسلامي كان يمتد من طبرستان وبلاد ماوراء النهر شرقا حتى أقصى بلاد المغرب العربي وبلاد الأندلس غربا شاملا بلاد فارس والشام والعراق والجزيرة العربية ومصر و بلاد المغرب .

وفي هذه الفترة كانت تمر بالعالم الإسلامي موجة من التفكك والانقسام وانعدام المركزية في دولة الخلافة بسبب ضعف منصب الخليفة وتغلب الأمراء عليه ، خصوصا من الأتراك والبويهين(١) الذين بلغ تسلطهم واستبدادهم بأمور الخلافة أن كان أمرهم يقارن أمر الخليفة ، بل كان دور الخليفة في أغلب الأحايين التوقيع على أوامرهم لمجرد إضفاء الصبغة الرسمية

(١) نسبة إلى بني بويه وهم ثلاثة إخوة أبناء أبي شجاع بويه بن قباخسرو الفارسي وهم الذين أسسوا دولة بني بويه وكان ابتداء أمرهم الوزارة ، انظر البداية والنهاية ١١ / ١٨٤ .

عليها ، فلم يبق من منصب الخلافة في أكثر الأوقات إلاّ الصّورة ، وأما المعنى والتأثير فلا .[1]

وأمّا الدّويلات الإسلامية فقد أطلّ عليها القرن الرّابع للهجرة وهي في صراعات دمويّة من أجل الملك والحكم ، وكلٌّ يريد السّيطرة على ماتحت يديه من الأرض والنّاس ، كما كانت تلك الممالك والدّويلات تطحنها الصّراعات الدّاخلية بسبب استيلاء أهل الرّيب والفساد على مقاليد الأمور وعبثهم بالأموال العامّة وبأحوال النّاس ، مما سبّب الثّورات وقيام العامّة عليهم بين حين وآخر .

وبالنّظر إلى خريطة العالم الإسلامي نجد أنّه كان في العالم الإسلامي وقتئذٍ ثلاثةٌ كلهم يدّعي الخلافة وهم :-

* الخليفة العباسي الشرعي في بغداد .
* الخليفة الاموي في الأندلس .
* الخليفة الفاطمي في مصر .[2]

وأمّا سائر الدّويلات والممالك الأخرى فكانت منفصلةً حقيقةً ، إلاّ أنّ الولاء والدّعاء كان للخليفة العبّاسي في بغداد ، فكان الدّعاء على المنابر يوم الجمعة للخليفة العبّاسي ، وكانت الألقاب والولايات تُشترى منه ، والهدايا تبعث إليه ، وهو ولاءٌ صوري كما قلت ، إذ أنّ مركز الخلافة بلغ من الضّعف درجة فقدان السّيطرة على بغداد وماحولها ، ممّا أغرى أعداء الإسلام بالتحرش بالمسلمين مستغلين حالة الضعف التي يمر بها العالم الاسلامي وحدث في ذلك من الحوادث ما الله به عليم[3] ، وفي الحقيقة لم تكن لابن حبّان أيّة مشاركات سياسيّة تُذكر، اللّهمّ إلاّ ماذُكر من تولّيه القضاء في سمرقند[4] .

---

[1] انظر مثلاً البداية والنّهاية حوادث سنة ٣٢٤ ج١١ / ١٩٥ وانظر التّاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ٦ / ١٢ - ١٥ ، ٤٩ -٥١

[2] في الحقيقة أنّه لايجوز إطلاق لقب الخليفة على غير الخليفة الشّرعي الّذي يجمع عليه المسلمون وهو الخليفة العبّاسي وأمّا من سواه فهم مدّعون للخلافة وبناءً عليه أطلقنا عليهم لقب الخلافة أي بحسب دعواهم .

[3] انظر بتوسّع البداية والنّهاية الجزء الحادي عشر حوادث السّنوات ٢٧٠ وما بعدها .

[4] تذكرة الحفّاظ ٣/ ٩٢١ .

ثانياً : الحالة الاجتماعية :

لايُتوقّع بالنّظر إلى الأوضاع السّياسية في ذلك العصر أن تكون الأوضاع الاجتماعيّة أحسن حالاً ، بل هي في الغالب تبعٌ لها ، فإنّ الضّعف السّياسي يخلق ضعفاً في الأحوال الاجتماعية بحسبه .

وقد ذَكر المؤرّخون أنّ مستويات المعيشة في أنحاء الدولة قد تدنّت ، وانتشر الفقر والعوز ، وحصل الجدْب والقحْط في أكثر البلاد ، وغلت الأسعار جداً ، وزاد عدد اللصوص وانتشرت أمراض اجتماعية أخرى كالغش والتدليس وقطع الأرحام وتطفيف المكاييل [1] ، كل هذا في مقابل الترف الزائد والبذخ الذي كان يسري في قصور ذوي السلطان وكبار التجار وأتباعهم الذين عادةً مايعيشون على دماء العامة ويترفّون في الدنيا على حساب غيرهم ممّا يؤكد أنّ ذلك الضّعف والانشقاق وتسليط العدو له ارتباط وثيق بغياب أحكام الدّين وتفشّي الذّنوب والمعاصي ... والله المستعان .

ثالثاً : الحالة العلميّة والثقافيّة :

على عكس الحالة السّياسيّة فقد كانت تلك الفترة وهي القرن الثّالث والرّابع من أزهى عصور الإسلام في النّاحية العلميّة والفكريّة ،[2] فإنّ العلوم الإسلامية الموروثة عن أجيال الصّحابة والتّابعين ومن بعدهم كانت بمثابة الجذور العميقة التي أوصلت إلى جيل هذا القرن من التّراث العلمي كمّاً هائلاً مجموعاً في أسفار ودواوين عظيمة ، وكانت عصور الجمع والتدوين قد انتهت تقريباً فأعمل أهل القرن الثّالث والرّابع فيها أفكارهم وابتكاراتهم ، وكانت مادّة كتبهم منها ، إلا أنّهم عملوا فيها بالتّرتيب والتّصنيف والتّهذيب والانتخاب والاستدراك ، مما أثرى السّاحة العلميّة بثروة ثقافية ضخمة ، فلا

---

(1) انظر المنتظم لابن الجوزي ١٣ / ١٩٤،٣٣٥ ، ١٤ / ٢٦،٢٧ ، ٤٢، ٤٣ ، ٤٤ ، ١١٤ ، ١٣٩ ، ١٥٥ .

(2) انظر كتاب تدوين السّنّة لمحمّد مطر الزّهراني ص٩٣ ومابعدها و ص١٤٥ ومابعدها ، وانظر كذلك بحوث في تاريخ السّنّة المشرّفة لأكرم العمري ص ٢٣٤ - ٢٣٩ .

تكاد تجد عالماً عاش في ذلك العصر إلاّ وله مصنّف أو أكثر في أكثر من فن وعلم.

وممّا ساعد على انتعاش الحركة العلمية : التوسّع الذي حصل في النّسخ، وكثرة النّسّاخ والورّاقين ، والمكاتب الموقوفة[1] وتشجيع بعض الخلفاء العلم والعلماء كالرّشيد والمأمون والمعتصم وكذلك نقل علوم اليونان والرومان على مافيها من الانحراف والفساد، وتنشيط حركة التّرجمة من اللّغات الأخرى إلى اللّغةالعربية كما فعل المأمون ، مما أدّى إلى دخول علوم كثيرة على المسلمين فتوسّعوا فيها جداً وازدهرت الفنون وزادت أعداد المتعلّمين وانتشرت الرّحلة بين أهل العلم فتلاقت العلوم وتلاقحت الأفكار، وهذا الذي ذكرته ينبيء عنه كثرة المصنّفات والمؤلّفات في هذين القرنين ، وبروز كثير من العلماء والجهابذة في كل فنّ[2] ، وكان من نتاجها أن برز صاحب الترجمة الإمام الحافظ أبو حاتم ابن حبّان البستي.

---

[1] منها على سبيل المثال مؤسّسة جعفر بن محمّد بن حمدان الموصلي الفقيه الشّافعي وهي خزانة كبيرة للكتب في جميع العلوم وكان يجلس فيها بنفسه ، وكذلك جامع المنصور ببغداد وهو من أشهر مراكز التّعليم في الدّولة الإسلاميّة وكذلك دار الحكمة بالقاهرة ومثلها مكتبة ابن حبّان البستي وفي كلّ هذه الدّور يتوفّر للقاصدين ما يحتاجون من الأرزاق والكتب والإعانات الماليّة وغير ذلك ، انظر الحضارة في القرن الرّابع لآدم متز ١ / ٣٢٩ وما بعدها نقلاً عن مقدّمة الفقيهي في تحقيق كتاب الإيمان لابن مندة ١ / ١٨ .

[2] كالإمام أحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه والخلاّل وابن خزيمة والدّارقطني وأبوداود والنّسائي وابن ماجة وغيرهم .

المبحث الثّاني : **حياة الإمام ابن حبّان**

أوّلاً : اسمه ونسبه:

ساق الذّهبي[1] نسب الإمام ابن حبّان فقال : هو محمّد بن حِبّان بن أحمد بن حبّان بن معاذ بن معبد بن سهيد - بالمهملة - بن هديّة بن مرة بن سعد بن يزيد بن مرة بن زيد بن عبدا لله بن دارم بن حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة بن تميم التميمي الدارمي البُستي أبو حاتم .[2]

وقد يختلف هذا السّياق اختلافاً يسيراً عند غير الذهبي في الأجداد بتقديم أو تأخير وهو اختلاف لايضر .

فهو تميمي : نسبةً إلى تميم القبيلة العربية المعروفة .

وهوبُستي : نسبةً إلى بُست ، مدينة من أعمال كابل كما في معجم البلدان[3] وهي المدينة التي ولد فيها .

وكنيته :باتفاقهم أبو حاتم فهو عربي الأصل أفغاني المولد .

ثانياً : مولده ونشأته:

وُلد الإمام ابن حبّان في مدينة بست كما تقدم باتّفاق من ترجم له ولكن لم يذكر أحد سنة ولادته على وجه التحديد، سوى ماجاء في النّجوم الزّاهرة أنّه وُلد سنة ٢٦٠هـ و لم أره كذلك إلاّ هناك [4] ، وقد ذكر الذّهبي رحمه ا لله أنّه وُلد لبضع وسبعين ومائتي سنة من الهجرة [5] .

---

(1) هو مؤرّخ الإسلام شمس الدّين أبو عبدا لله محمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبدا لله الذّهبي من أسرة تركمانيّة وهو تميمي بالولاء من أشهر المصنّفين في التّاريخ والحديث تتلمذ على ابن الصّابوني ومحبّ الدّين الطّبري وشيخ الإسلام **ابن تيمية** وغيرهم ، من أشهر كتبه تاريخ الإسلام وسير أعلام النّبلاء توفّي سنة٧٤٨ هـ انظرالدّررالكامنةلابن حجر ٣/٤٢٦ طبقات السّبكي ٩/١٠٠ والبداية والنّهاية لابن كثير ١٤/٢٤٣ .

(2) سير أعلام النّبلاء ١٦ / ٩٢.

(3) معجم البلدان١ / ٤١٤.

(4) النّجوم الزّاهرة ٣ / ٣٤٢ .

(5) السّير ١٦ / ٩٣ .

والّذي يظهر من رحلاته فيما بعد وأعماله في البلاد الّتي حلّ بها أنّه كان من أسرة غنية ميسورة الحال وهذا مايسر له كثيراً قيامه بالرحلة الواسعة في طلب العلم والتعليم .

ثالثاً : طلبه للعلم وسيرته العلمية:

يظهر من قول الذهبي : (طلب العلم على رأس الثلاثمائه)[١] أنّ ابن حبّان بدأ طلبه للعلم بعد أن جاوز العشرين من عمره ، وقد كان ذا همّة عالية في طلب العلم والرّحلة إلى مظانّه وحيث يوجد العلماء ، فرحل رحلات متتابعة إلى شتّى البلاد الّتي كانت مقصداً لطلاّب العلم ، فما يكاد يسمع عن بلد فيه عالم مقصود إلاّ شدّ رحاله إليه ، وقد وصف هو هذه الرّحلة الطّويلة فقال : (لعلّنا قد كتبنا عن أكثر من ألفي شيخ من أسبيجاب[٢] إلى الإسكندريّة)[٣] وهي رحلة طويلة طرفاها أقصى الشّرق وأقصى الغرب ، ماترك بلداً عُرف فيه العلم إلاّ قصده فشملت رحلته سجستان[٤] والأهواز[٥] والبصرة وبغداد والكوفة والموصل ونصيبين[٦] و الرّقّة[٧] وأنطاكيّة وطرطوس[٨] وحمص ودمشق وبيروت وصيدا والرّملة وبيت المقدس ومصر ، وغيرها من البلاد ممّا يدلّ على همّة ابن حبّان وعظيم صبره وحبّه للعلم ، همّة لا تعرف الفتور والملل .

ولا شكّ أنّ هذه الرّحلة الواسعة تنمّ عن شخصيّة قويّة عالية مستعلية على سفاسف الأمور ، متطلّعة إلى كبارها :

وإذا كانت النّفوس كباراً ... تعبت في مرادها الأجسام

---

(١) ميزان الإعتدال ٣ / ٥٠٦ .

(٢) هي بلدة كبيرة من أعيان بلاد ماوراء النّهر في حدود تركستان وكانت ثغراً عظيماً من ثغور المسلمين حتّى إنّها كانت تُعفى من الخراج، معجم البلدان ١ / ١٧٩.

(٣) الإحسان ١ / ١٥٢ .

(٤) بكسر أوّله وثانيه ولاية كبيرة بينها وبين هراة عشرة أيّام إلى الجنوب منها ، أرضها رمليّة لاجبال فيها ، المعجم ٣ / ١٩٠.

(٥) وكان اسمها الأحواز وإنّما غلب عليها لفظ الفرس ولاية كبيرة أشهر مدنها سوق الأهواز ، المعجم ١ / ٢٨٤.

(٦) مدينة عامرة من مدن الجزيرة العربيّة بينها وبين الموصل ستّة أيّام ، المعجم ٥ / ٢٨٨.

(٧) بفتح الرّاء والقاف مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حرّان ثلاثة أيّام ، المعجم ٣ / ٥٨ .

(٨) بلدة بالشّام مشرفة على البحر قرب المرقب وعكّا ، المعجم ٤ / ٣٠ .

ولذلك لم يقنع ابن حبّان بفنٍّ واحد بـل كـانت سعة أفقـه وتنوّعـه في الفنون كسعة رحلته وطولها .

فقد برز في فنون وعلوم كثيرة ، حتّـى قـال عنه الحـاكم أبـو عبـد الله صاحب المستدرك [١] : (كـان ابـن حبّـان مـن أوعيـة العلـم في الفقـه واللّغة والحديث والوعظ)[٢] وقال الإدريسي [٣] : (وكان من فقهاء الدّين وحفّـاظ الآثار ، عالماً بالطّبّ وبالنّجوم وفنون العلم) .[٤]

وقد ساق ياقوت الحموي في معجـم البلـدان أسمـاء كثير مـن الشيوخ الذين أخذ عنهم ابن حبّان العلـم والبلـدان الـتي كـانوا فيهـا وبلـغ بهـم ثلاثـةً وسبعين شيخاً[٥] ، وأنّى له أن يستوعب ألفي شيخ !! .

وكان من أشهرهـم :

١ـ الإمام الحافظ الثبت الحسن بن سفيان بن عامر بـن عبدالعزيـز أبـو العبـاس الشّهباني الخُراسـاني النّسـوي صـاحب المسند كـان مقدّمـاً في الثّبـت والكثرة والفهم والفقه والأدب توفي سنة ٣٠٣هـ .[٦]

٢ـ الإمام العلامة المحـدث الأديـب الأخبـاري أبـو خليفـة الفضـل بـن الحُبَاب الجُمَحي البصري توفي سنة ٣٠٥هـ .[٧]

٣ـ الإمام الحافظ الفقيه أبو محمـد عبدا لله بـن محمـد الأزدي القرشـي المطّلبي النيسابوري عرف بابن شيرويه توفي سنة ٣٠٥ هـ .[٨]

٤ـ الإمام المحدث الحافظ أبو اسحاق عمران بن موسى بن مجاشع الجرجاني السختياني توفي سنة ٣٠٥هـ .[٩]

---

(١) تأتي ترجمته ضمن تلامذة ابن حبّان .

(٢) السّير ١٦ / ٩٤ .

(٣) هو الحافظ الإمام المصنّف أبو سعد عبدالرّحمن بن محمّد بن محمّد بن عبدا لله بن إدريس الإدريسي الأستراباذي محدّث سمرقنـد ، له تاريخ سمرقند واستراباذ وغيرها ، وثّقه الخطيب وغيره ، تاريخ بغداد ١٠ / ٣٠٢ ، والسّير ١٧ / ٢٢٦ .

(٤) السّير ١٦ / ٩٤.

(٥) انظر المعجم ١/ ٤١٥ ـ ٤١٦ .

(٦) انظر السّير ١٤ / ١٥٧.

(٧) السّير ١٤ / ٧ .

(٨) السّير ١٤ / ١٦٦ .

(٩) السّير ١٤ / ١٣٦.

٥- الحافظ العلامة عبدان:عبدالله بن أحمد بن موسى بن زياد الجواليقي الأهوازي صاحب التصانيف توفي ٣٠٦هـ .[١]

٦- الإمام الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي محدث الموصل انتهى إليه علو الإسناد وازدحم عليه أصحاب الحديث وأجمعوا على توثيقه وديانته وهو صاحب المسند توفي سنة ٣٠٧هـ .[٢]

٧- الإمام المحدّث الكبير أبو العباس محمد بن الحسن بن قتيبة اللخمي العسقلاني مُسنِد أهل فلسطين توفي سنة ٣١٠هـ تقريباً .[٣]

٨ - الإمام المحدّث الفاضل أبو محمد عبدالله بن محمد بن سَلْم المقدسي الفِرْيابيّ توفي سنة ٣١٠هـ تقريباً .[٤]

٩- الإمام المحدث الحافظ أبو علي الحسين بن عبدالله بن يزيد القطان الرّقى رحّال مصنف توفي سنة ٣١٠هـ .[٥]

١٠- الإمام المحدث البارع الحافظ شيخ الإسلام أبو جعفر أحمد بن يحي بن زهير التّستُري الزاهد توفي سنة ٣١٠ هـ .[٦]

١١ - الإمام المحدّث العابد أبو بكر عمر بن سعيد بن أحمد بن سعد بن سنان الطائي المنبجي .[٧]

١٢- الإمام الحافظ الثبت الجوّال أبو حفص عمر بن محمد بن بُجَير الهمداني محدث ماوراء النهر كان من أوعية العلم توفي سنة ٣١١ هـ .[٨]

١٣- إمام الأئمة الحافظ الحجة الفقيه شيخ الإسلام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السُّلمي النيسابوري الشافعي توفي سنة ٣١١هـ .[٩]

---

(١) السّير ١٤ / ١٦٨.

(٢) السّير ١٤ / ١٧٤.

(٣) السّير ١٤ / ٢٩٢.

(٤) السّير ١٤ / ٣٠٦.

(٥) السّير ١٤ / ٢٨٦.

(٦) السّير ١٤ / ٣٦٢.

(٧) السّير ١٤ / ٢٩٠.

(٨) السّير ١٤ / ٤٠٢ .

(٩) السّير ١٤ / ٣٦٥.

١٤- الإمام المحدث الحافظ أبو الحسين محمد بن عبدا لله بن عبدا لله بن جعفر بن عبدا لله الجنيد الرازي توفي سنة ٣٤٧ هـ .[١]

وغيرهؤلاء كثير ، لكنّ الذين ذكرتهم هم أكثر من لازمهم وتأثّر بهم وأكثر عنهم ، خصوصاً محمد بن إسحاق بن خزيمة الذي عُرف عن ابن حبّان شدة تأثّره به في الأسلوب والتصنيف وقد أخذ عنه الفقه والحديث .

رابعاً : آثاره العلمية :

لم يكن ابن حبّان حاطب ليل ، بل كان مصنِّفاً غزير التّصنيف محرِّراً مدققاً ناقداً ، له بصر نافذ وعقليّة لايُستهان بها ، صنّف فأكثر ، وأبدع وابتكر، وقد ذكر له ياقوت في معجمه أكثر من أربعين مصنفاً ، إلاّ أنّ هذه المصنّفات ضاعت وفُقدت على مرّ الزمان ، وليس ذلك شيئاً حادثاً بل منذ زمنٍ بعيد جداً ووجود هذه المصنفات عزيز، قال مسعود بن ناصر السّجزي[٢] بعد أن ذكر هذه المصنّفات : (وهذه التّواليف إنّما يوجد منها النّزر اليسير وكان قد وقف كتبه في دار ، فكان السّبب في ذهابها مع تطاول الزّمان ضعف أمر السلطان واستيلاء المفسدين)[٣] وبهذا أجاب الخطيب البغدادي لّما سأله : (أكُلّ هذه الكتب موجودة عندكم ومقدور عليها ببلادكم ؟)[٤] ، ولم يُوجد له الآن من المصنّفات سوى خمسة مصنفات ، وهي كما يلي :

١- كتاب الثّقات ، في الرّجال ، وشرطه فيه ذكره في مقدّمته ، وهو عند علماء الحديث من المتساهلين في التّوثيق ، وسبب ذلك أنّه يوثّق مجهول الحال ، ويقول : إنّ المسلم على البراءة حتّى يظهر لنا باطنه ومن لم يُجرح

---

(١) السّير ١٦ / ١٧.

(٢) أبو سعيد مسعود بن ناصر ابن أبي زيد عبدا لله بن أحمد السّجزي الرّكاب ، قال الدّقاق : لم أر في المحدّثين أجود إتقاناً ولا أحسن ضبطاًمنه ، توفّي سنة ٤٧٧ هـ ، السّير ١٨ / ٥٣٢ .

(٣) السّير ١٦ / ٩٥ .

(٤) معجم البلدان ١ / ٤١٨ ،والخطيب هو الإمام الأوحد الحافظ النّاقد أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي خاتمة الحفّاظ ،صاحب التّصانيف ومنها تاريخ بغداد توفّي سنة ٤٦٣ هـ ، السّير ١٨ / ٢٧٠ .

فهو عدل [1] ، وقد بيّن المعلّمي رحمه الله درجة توثيق ابن حبّان ومنزلة توثيقه عند علماء الحديث بياناً شافياً ،[2] وهذا الكتاب من أمّهات كتب الرّجال ، لايستغني عنه طالب حديث ، وقد طُبع لأوّل مرّة في الهند في مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة بحيدر آباد الدّكن سنة ١٣٩٣هـ، ومازالت دور النّشر تصوّر عنها .

٢ـ **كتاب المجروحين** وهو أيضاً في الرّجال من رواة الحديث بيد أنّه في الضّعفاء ومن تُردّ روايته ، ذكر في مقدّمته أنواع المجروحين والضّعفاء فبلغ بهم عشرين نوعاً ، وهو من الكتب المعتمدة في معرفة الضّعفاء .

وجرْح ابن حبّان مقبول معتمد عند أهل هذا الفنّ ، وقد طُبع بتحقيق محمود إبراهيم زايد تحقيقاً لابأس به في ثلاثة أجزاء .

٣ـ **كتاب مشاهير علماء الأمصار** ، قصد فيه كما يقول ذِكر مشاهير العلماء من الثّقات ممّن أُخذ عنهم العلم وحُملت عنهم الرّواية ، وهو مجلّدٌ لطيف ، طبع لأوّل مرّة بتحقيق المستشرق فلايشهمر طبعةً رديئة سنة ١٣٧٩هـ ، ثمّ طُبع مؤخّراً بتحقيق مرزوق علي إبراهيم عن مؤسّسة الكتب الثّقافيّة .

٤ـ **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء** ، وهو كتاب في الأخلاق والآداب والفضائل وما يجب على المؤمن التّحلّي به في حالاته وأيّامه ، طُبع بعناية محمّد محيي الدّين عبدالحميد ورفاقه .

٥ـ **التّقاسيم والأنواع** ، وهو أجلّ كتبه الموجودة وأكبرها وأعظمها ، سطّر فيه ما فتح الله به عليه ممّا تحمّله من الرّوايات والأحاديث والآثار المحمّديّة على صاحبها الصّلاة والسّلام ، كتابٌ أبهر وأعجز من بعده ، إلاّ أنّ أصله للأسف تاه وضاع كما ضاع كثيرٌ من تراث هذه الأمّة، وقد وُجد الكتاب في هيئة غير الّتي كتبه صاحبه عليها ، ذلك أنّ ابن حبّان رتّبه ترتيباً

---

[1] انظر مقدّمة الثّقات ١ / ١١ ـ ١٣.

[2] التّنكيل ٦٦٧ ـ ٦٦٩والمعلّمي هو عبد الرّحمن بن يحيى بن علي بن أبي بكر المعلّمي العُتْمي اليماني ولد سنة١٣١٣ هـ باليمن من أشهر رجال القرن الماضي ومن علماء السّنّة والحديث ألّف ودرّس ورحل وله هذا الرّدّ على المبتدع الضّال زاهد الكوثري نصر به السّنّة وأهلها توفّي رحمه الله سنة ١٣٨٦ هـ ، انظر ترجمته في التّنكيل ص١٦٥، والأعلام للزّركلي ٣ / ٣٤٢ .

عقليّاً صعباً للغاية ، فتصدّى لتسهيله وإعادة ترتيبه الأمير علاء بن بلبان[(١)] فرتّبه على أبواب الجامع وأحسن أيّما إحسان حينما أبقى على تعليقات ابن حبّان وتراجمه فلم يزد و لم ينقص ، ممّا جعل الكتاب مصدراً مهمّاً لمعرفة فقه ابن حبّان وعقيدته ، وطريقته في الاستنباط والتّوجيه والتّوفيق بين الآثار ، وقد طُبع الكتاب بترتيب ابن بلبان كاملاً ، بتحقيق الأستاذ شعيب الأرناؤوط سنة ١٤١٢ هـ عن مؤسّسة الرّسالة .

وهذه الكتب تنبيء عن سعة علم هذا الإمام وتمكنه مما يكتب ويحرّر، وتدلّ أيضاً على استقلاليته الفكرية ونبذه للجمود والتقليد ، فليس بحاطب ليل لايدري مايجمع ولكنّه محرّر ومحقّق ، لايكاد يمر بمسألة فيها خلاف إلاحرّرها وذكر رأيه فيها مؤيّداً بالدّليل والتّعليل .

وقد كان ابن حبّان بارعاً في الحديث وعلومه فقيهاً متميزاً مما مكنه وأهّله لتولي القضاء في أكثر من بلد [(٢)] وهو منصب لايتولاّه عادة إلاّ الفقيه المقدَّم على أقرانه العدل في تصرفاته ، كما كان عالماً باللّغة ومتونها والطب والنجوم، وقد برع أيضاً في علم الكلام ، ولعلّ ذلك هو ماسبّب له بعض الانحراف عن الجادة ، يظهر ذلك من أسلوبه في تقسيم كتابه[(٣)] وكذلك من استدلالاته وتنويع الاعتبارات في شروحه لبعض الاحاديث والمسائل مما يدلّ على ملكةٍ قويّة في هذا العلم .

خامساً : تلاميذه :

كان ابن حبّان ناشراً للعلم لايحلّ ببلد إلاّ كان له آثارٌ في نشر العلم والعناية بطلاّب العلم ، إمّا تعليماً وإمّا بالإعانات المالية ، وإمّا بنسخ الكتب أو وقفها على المتعلمين، قال أبو عبدالله الحاكم : (أبو حاتم ابن حبّان داره الّتي هي اليوم مدرسة لأصحابه ومسكن للغرباء الذين يقيمون بها من أهل

---

(١) هو الأمير علاء الدّين أبو الحسن عليّ بن بَلبان بن عبدالله الفارسي المصري المحدّث الفقيه الحنفي النّحوي أخذ الفقه عن ابن التّركماني وأبي العبّاس السّروُجي من أشهر أعماله ترتيبه لصحيح ابن حبّان ، توفّي سنة٧٣٩هـ انظر الدّرر الكامنة لابن حجر ٣٨/٤ ، والنّجوم الزّاهرة ٣٢١/٩ .

(٢) انظر معجم البلدان ١ / ٤١٧ والسّير ١٦ / ٩٤ .

(٣) انظر مقدّمة التّقاسيم والأنواع في الإحسان ١ / ١٠٠ وما بعدها .

الحديث والمتفقّهة ، ولهم جرايات يستنفقونها دارة[١] ، وفيها خزانة كتبه في يدي وصيٍّ سلّمها إليه ليبذلها لمن يريد نسخ شيءٍ منها في الصفّة من غير أن يخرجه منها ، شكر الله له عنايته في تصنيفها وأحسن مثوبته على جميل نيّته في أمرها بفضله ورأفته)[٢] ، ومن كان ذلك شأنه فلابد أن يكون له عقبٌ من التّلاميذ الذين يحملون عنه علمه وأسلوبه ومنهجه ، فمن تلامذته رحمه الله:

١ـ الإمام الحافظ أبو عبدالله الحاكم النيسابوري محمّد بن عبدالله بن محمّد بن حمدُوْية الضّبيّ صاحب المستدرك على الصحيحين توفي سنة ٤٠٥ هـ.[٣]

٢ـ الإمام الحافظ أبو عبدالله محمد بن أبي يعقوب إسحاق بن محمد بن يحي بن مندة العبدي الأصفهاني صاحب كتاب التّوحيد والإيمان وغيرها توفي سنة ٣٩٥هـ .[٤]

٣ـ الإمام العلاّمة علم الحفّاظ وإمام الجهابذة النّقاد أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي الدّارقطني ، من أئمة الدنيا في الحفظ والفهم والورع وهو صاحب كتاب السّنن وكتاب العلل توفي سنة ٣٨٥هـ.[٥]

٤ـ العالم الرحّال الحافظ أبو علي منصور بن عبدالله بن خالد بن أحمد الذّهلي الخالدي الهروي توفي سنة ٤٠١ هـ .[٦]

٥ـ الأديب أبو عمر محمد بن أحمد بن سليمان بن غيث النوقاتي صاحب التصانيف توفي سنة ٣٨٢هـ .[٧]

٦ـ المحدث أبو الحسن محمد بن أحمد بن هارون الزوزني ،[٨] وخلق كثير سواهم .

---

(١) هكذا في معجم البلدان و لم أعرف المراد منها .

(٢) معجم البلدان ١ / ٤١٨.

(٣) انظر السّير ١٧ / ١٦٢.

(٤) السّير ١٧ / ٢٨.

(٥) السّير ١٦ / ٤٤٩ .

(٦) السّير ١٧ / ١١٤.

(٧) السّير ١٧ / ١٤٤.

(٨) المشتبه للذّهبي ٥١.

سادساً : أقوال العلماء فيه:

تظافرت نصوص العلماء على اعتبار ابن حبّان من الأئمّة المشهود لهم بالعدالة والصّدق والحفظ والإتقان والإبداع ، فكان رحمه الله من أئمّة الإسلام إذا عُدّ الأئمة ، ومن علماء الدّين إذا ذُكر العلماء ، ومن فقهاء الملّة إذا طُلب الفقهاء ، يستوي في الشّهادة له بذلك معاصروه وتلامذته ، وحتّى من ترجم له ممّن أتى بعده .

قال ياقوت[١] في معجمه : (الإمام العلاّمة الفاضل المتقن ، كان مكثراً من الحديث والرّحلة والشيوخ عالماً بالمتون والأسانيد، أخرج من علوم الحديث ماعجز عنه غيره، ومن تأمّل تصانيفه تأمل منصفٍ علم أنّ الرجل كان بحراً في العلوم ، سافر مابين الشاش* إلى الإسكندرية ، وصارت تصانيفه عدةً لأصحاب الحديث غير أنها عزيزة الوجود)[٢] .

وقال تلميذه أبو عبدالله الحاكم : (كان من أوعية العلم في اللغة والفقه والحديث والوعظ ومن عقلاء الرجال ، صنف فخرج له من التصنيف في الحديث ما لم يسبق إليه . . . وكانت الرحلة بخراسان إلى مصنفاته).[٣]

وقال عبدالله بن محمد الاستراباذي[٤] (كان من فقهاء الدين وحفّاظ الآثار المشهورين في الأمصار والأقطار ، عالماً بالطب والنجوم وفنون العلم)[٥] .

وقال الخطيب البغدادي : (كان ابن حبان ثقةً نبيلاً فهماً) .[٦]

(١) الأديب الأوحد شهاب الدين الرومي مولى عسكر الحموي السفار النحوي والإخباري المؤرخ كان من الأذكياء توفي سنة ٦٢٦ هـ ، انظر السير ٢٢ / ٣١٢.

* بلدة من أعيان بلاد ما وراء النهر متاخمة لبلاد الترك ، معجم البلدان ٣ / ٣٠٨ .

(٢) المعجم ١ / ٤١٥.

(٣) المعجم ١ / ٤١٧.

(٤) لم أجد له ترجمة .

(٥) المعجم ١ / ٤١٨.

(٦) السير ١٦ / ٩٤.

وقال الذّهبي : (الإمام العلاّمة الحافظ المجوّد شيخ خراسان أبو حاتم محمد بن حبّان) ، وقال أيضاً : (هذا مع ماكان عليه من الفقه والعربيـة والفضائل الباهرة وكثرة التصانيف).[1]

وهذ الذي ذكرته ما هو إلاّ نموذج من ثناء العلماء عليه .

وأمّا النقد الذي وُجّه إلى ابن حبّان فهو نوعان : نوعٌ خرج مخرج الحسد والهوى مخالفاً ماتواتر واشتهر به اسم ابن حبّان ، فهذا مردود على صاحبه ، ومن ذلك قول أبي علي الحسين بن علي[2] وذكر كتاب المجروحين لأبي حاتم:(كان لعُمر بن سعيد بن سنان المنبجي ابنٌ رحل في طلب الحديث وأدرك هؤلاء الشيوخ وهذا تصنيفه ، وأساء القول في أبي حاتم)[3] وهو قول مُطَّرح ولاشك ، فإنّ مواهب ابن حبّان وعلمه ورحلته تؤهّله لأن يصنف أضعاف كتاب المجروحين ، وليس اتّحاد الشيوخ بدليل على سرقة كتاب وإلا كان جميع الأقران متهمين ببعضهم ، ولذلك عقّب أبو عبدا لله الحاكم على هذا الرأي بقوله : (أبو حاتم كبير في العلوم وكان يُحسد لفضله وتقدّمه).[4]

وكذلك قول أحمد بن علي بن عمرو السليماني[5] : (أبو حاتم محمد بن حبّان قدم علينا من سمرقند سنة ٣٣٠ فقال لي أبوحاتم سهل ابن السري[6] : لاتكتب عنه فإنّه كذاب فقد صنّف لأبي الطيّب الصعبي[7] كتاباً في القرامطة[8] حتّى قلّده قضاء سمرقند فلمّا أُخبر أهلُ سمرقند بذلك أرادوا أن يقتلوه فهرب ودخلَ بخارى وأقام دلاّلاً في البزازين حتى اشترى له ثياباً بخمسة

---

(١) السّير ١٦ / ٩٤.

(٢) أبو علي الحسين بن علي بن يزيد بن داود النّيسابوري الحافظ النّاقد قال الحاكم : كان باقعة في الحفظ توفّي سنة ٣٤٩ هـ ، السّير ١٦ / ٥١ .

(٣) المعجم ١ / ٤١٩.

(٤) المعجم ١ / ٤١٩.

(٥) الحافظ المعمّر أحمد بن علي بن عمرو بن حمد بن إبراهيم السّليماني البيكندي البخاري أحد الأئمّة له التّصانيف الكبار توفّي سنة ٤٠٤ هـ ، السّير ١٧ / ٢٠٠ .

(٦) لم يتبيّن لي من هو .

(٧) لم يتبيّن لي من هو .

(٨) من فرق الباطنيّة الّذين جعلوا لكلّ ظاهرٍ باطناً ، تُنسب إلى حمدان بن قرمط ويذكر المؤرّخون أنّ غرض فرق الباطنيّة كالقرامطة والإسماعيليّة وغيرها الدّعوة إلى دين المجوس بالتّأويلات الّتي يذكرونها للنّصوص ، انظر الملل والنّحل للشّهرستاني ٢٩/٢ وما بعدها والفرق بين الفرق للبغدادي ٢٦٥ وما بعدها .

آلاف درهم إلى شهرين وهرب في الليل وذهب بأموال النـــاس) ، وقـــال أيضاً لأحد تلامذته : (كتبت عن أبي حـــاتم ؟ فقـال : نعـم فقـال : إيّـاك أن تروي عنه فإنّه جاءني فكتب مصنّفاتي وروى عن مشايخي ثـم إنّـه خـرج إلى سجستان بكتابه في القرامطة إلى ابن بابو[1] حتى قبله وقلّده أعمال سجســتان قال السليماني : فرأيت وجهه وجه الكذّابين وكلامه كلام الكذّابين) وحكـى عنه أنّه كان يقول له : (اكتب يابنيّ : أبو حـاتم ابـن حبّـان إمـام الأئمـة)[2] يشير إلى أنّه كان مغروراً .

وهذا الكلام فيه تحامل شديد ومن عرف ماتقدّم عن الحاكم من أن ابن حبّان كان محسوداً لم يعجب من التحذير منه ، ولكـن أن يُنسـب إلى السـرقة والنّهب فهذا لايصلح عن مسلمٍ ظـاهره الصّلاح ، فكيـف عـن إمـامٍ متبـوع معروف بالإنفاق في وجوه الخير سواء من علمه أو من مالـه وهـل يصـح هـذا إلا في لصٍّ مشهور؟! وحاشا ابن حبّان مما ذكر ولكنّـه الحسـد والهـوى، وقـد قال الذهبي عن السليماني هـذا : (رأيـت للسـليماني كتابـاً فيـه حـطٌّ علـى كبار، فلايسمع منه ماشذ فيه) .[3]

وإذا عرفنا أنّ ابن حبّان خاض حروباً فكرية مع الأحناف ومع كثير من المبتدعة في ردوده عليهم وحطّه على أئمتهم ، فلا غرو أن يتعـرّض لمثـل هـذه الاتهامات ، خصوصاً من الأحناف الذين تعرّض لإمامهم أبي حنيفة بكثير من التّجريح والنّقد سواء في حفظه أو في معتقده حتـى إنّـه صنـف في أبـي حنيفـة كتباً مستقلة [4] .

---

(1) لم يتبيّن لي من هو ، ويظهر أنّه أبو الطّيب المذكور آنفاً .

(2) انظر ما تقدّم في المعجم ١ / ٤١٩ .

(3) السّير ١٧ / ٢٠٢.

(4) ذكر منها ياقوت : كتاب علل مناقب أبي حنيفة ، ومثالب أبي حنيفة ، وعلل ما استند إليـه أبـي حنيفـة ، المعجـم ١/٤١٧ ، وأبو حنيفة تكلّم أهل الحديث في حفظه ، وتجاوز بعضهم إلى معتقده بسبب قوله في الإيمان وفي القرآن ، والّـذي عليـه عامّـة أهل العلم أنّه من الأئمّة المشهود لهم بالفقه والدّيانة والورع ، وفي حفظه شيء ، مع اجتهاده في باب الإيمـان ممّـا خـالف فيـه أهل السّنّة خلافاً أكثره لفظي ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيميّة ، انظر السّنّة لعبدا لله بن أحمد١/١٨٠.

وأما النّقد الموضوعي الـذي ربّمـا كـان للإنصـاف منـه محلاً فمنـه قـول الحافظ أبي عمرو بن الصلاح [١] رحمـه الله : (ربمـا غلـط ابـن حبّـان الغلـط الفاحش في تصرفاته)[٢] قال الذهبي : (صدق أبو عمرو) .[٣]

والمتتبّع لتصانيف ابن حبّان وخصوصاً تعليقاتـه علـى بعـض الأحـاديث يستبين مدى دقّة ابن الصلاح في تعبيره ، فإنّ أخطاء ابن حبّان مع قلّتها إلاّ أنّه يصدق فيها أحياناً أنّهـا أخطـاء فاحشـة ، وذلـك لبعـد مأخذهـا وتفـرده بهـا وتناقضها فيما بينها أحياناً ، وقد ذكر الإمام الذهبي نماذج من ذلك في ترجمتـه في السّير فينظر هناك ، حتـى قـال رحمـه الله : (وإن كـان في تقاسـيمه مـن الأقوال والتّأويلات البعيدة والأحاديث المنكرة عجائب) .[٤]

ومن ذلك أيضاً أُخذ على ابن حبّان قوله : (النبوّة العلم والعمل) وهذه الحكاية مع أنّ الذهـبي اسـتغربها إلا أنّهـا مرويّـة في كتـاب ذم الكـلام لشيـخ الإسلام الهروي [٥] حيث روى عن محمد بن محمد[٦] قوله : (أنكروا على ابن حبّان قوله : النبوة العلم والعمل ، فحكموا عليه بالزّندقة ، و هجر وكُتب فيه إلى الخليفة فكتب بقتله) .[٧]

وسير هذه الرواية يوحي إليك أن النّقل والتكفير والحكم بالزندقة أحكام غيابية صدرت ضد ابن حبّان ممـا يوحـي بأنّهـا مُختلقـة عليـه ، وإلا لـو كـان حاضراً وأصرّ على قوله لقتله السلطان ، وهذا ممّا يضعف النّقل عنه بها ، وقد أوّلها الذهبي تـأويلاً حسـناً ، ويـأتي مزيـد بسـط لذلـك عنـد ذكـر مذهبـه في النّبوّات .

---

[١] الإمام الحافظ تقي الدّين أبو عمرو عثمان بـن المفـتي صـلاح الدّيـن عبدالرّحمن بـن عثمـان بـن موسـى الكـردي الشّـهرزوري الموصلي الشّافعي صاحب الطّبقات وعلوم الحديث وغيرها ، من كبار فقهاء الشّافعيّة توفّي سنة ٦٤٣ هـ ، السّير٢٣ / ١٤٠

[٢] السّير ١٦ / ٩٤.

[٣] ميزان الإعتدال ٣ / ٥٠٧ .

[٤] السّير ١٦ / ٩٧.

[٥] الحافظ القدوة الإمام أبو إسماعيل عبدا لله بن محمّد بن أحمد بن علي بن جعفر الأنصاري الهروي صاحب كتاب ذمّ الكلام كان آية في الذكر والوعظ وممّن نصر السّنّة ، توفّي سنة ٤٨١ هـ ، السّير ١٨ / ٥٠٣ .

[٦] الظّاهر أنّه محمّد بن محمّد بن يوسف الطّوسي الشّافعي صاحب المستخرج على صحيح مسـلم فإنّـه معـاصر لابـن حبّـان ومـن طبقة شيوخ الهروي ، توفّي سنة ٣٤٤ هـ . السّير ١٥ / ٤٩٠.

[٧] السّير ١٦ / ٩٦.

كما أُخذ عليه أيضاً إنكار الحدّ لله تعالى [١] ، وهذا معتركٌ بين كثير من المتكلّمة وأهل السّنّة وهو أمر لم يتكلم فيه السّلف الصّالح و لم يأت فيه أثر عن الله تعالى ولا عن رسوله صلّى الله عليه وسلّم ،وكون الحق مع ابن حبّان أو مع من أنكر عليه يأتي إن شاء الله ضمن آرائه في ثنايا الرسالة ونكتفي هنا بقول الذهبي رحمه الله : (الخوض في ذلك ممّا لم يأذن به الله ومن حسن إسلام المرء تركه مالايعنيه) .[٢]

ثامناً : وفاتـــه :

بعد حياةٍ حافلةٍ بالعطاء والعلم والتعلّم والتّعب في التّحصيل والبذل طوى الموتُ أبا حاتم ، ففي ليلة الجمعة لثمان ليالٍ بقين من شوّال سنة ثلاث مئة وأربع وخمسين للهجرة أذِن الله لملك الموت أن يصعد بروح الإمام الحافظ النّاقد محمّد بن حبّان ، وقد صُلّي عليه يوم الجمعة ودُفن بعد الصّلاة في الصّفّة الّتي ابتناها قرب داره في بُست مسقط رأسه ، رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى آمين .

---

[١] السّير ١٦ / ٩٧ ، ومعجم البلدان ١ / ٤٢٠ .

[٢] السّير ١٦ / ٩٧.

(الفصل الثّاني)

منهج ابن حبّان في التّلقّي والاتّباع

..وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :

المبحث الأوّل : منهجه في التّلقّي عن القرآن .

المبحث الثّاني : منهجه في التّلقّي عن السّنّة .

المبحث الثّالث : منهجه في الاستدلال بالإجماع .

تمهيد :

[منهج أهل السّنّة والجماعة في التلقي والاتباع]

كان الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم يتلقون العلم والإيمان من معينه الصافي وينبوعه الزاكي المبلِّغ عن الله تعالى رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم .

ولما كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على قيد الحياة كانت السّنّة تصل إليهم مباشرة لايعكّر صفوها نسيان ناسٍ ولا افتراء مفترٍ ، وكان الوحي ينزل غضاً طرياً ، ينزل به جبريل عليه السلام ويبلغه عليه الصّلاة والسلام إلى أصحابه ، فلا تكاد تجد في ذلك العصر الذهبي أثراً لأي جدلٍ أو خصومات في الدين ، وماوجد فسرعان ماينزل الوحي للفصل فيه، والصّحابة رضوان الله تعالى عليهم في ذلك كلّه لا يلتفتون عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حكماً ومرجعاً لايتجاوزونه إلى غيره أبداً ، ممتثلين في ذلك قول الله عزّ وجلّ: **{ فإن تنازعتم في شيءٍ فردّوه إلى اللهِ والرسولِ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر } : النساء ٥٩** ، وقوله : **{ فلا وربّك لايؤمنون حتى يُحكّموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيتَ ويسلّموا تسليماً } : النساء ٦٥.**

إذن فقد كان مصدر التلقي عند الصّحابة رضي الله تعالى عنهم هو الكتاب والسّنّة .

ثم مات النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبقي صحابته من بعده لايشكل عليهم شيء إلا كان مردّهم إلى كتاب الله تعالى وسنة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأوضح مثالٍ على ذلك أوّل خلاف نشأ بعد وفاته عليه الصّلاة والسلام ، حيث اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة لاختيار الخليفة بعدرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ولمّا علم أبو بكر وعمر بالأمر توجّها إليهم ، ودار بينهم نقاش وطُرح عدد من الحلول والآراء فيمن يتولى الأمر ، فلما تكلّم أبو بكر وذكر من فضائل الأنصار ماذكر ومن سابقة المهاجرين وفضلهم ثم عقب

بذكر ماسمعه من النبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم أنّه قال : (**إنّ هذا الأمر في قريش ماأطاعوا ا لله واستقاموا على أمره**)[١] فلمّا سمعوا ذلك أذعنوا لأمره صلّى ا لله عليه وسلّم وكانت الخلافة في قريش .

وبقي الحال على ذلك ، حتىّ بدأ نجم عصر الصّحابة بالأفول وقلّ في الناس سوادهم ، فاهتمّ التابعون اهتماماً كبيراً بنقل فتاويهم وأعمالهم وأقوالهم فزادت مصادر التلقي حيث أصبحت الكتاب والسّنّة ولكن على منهج الصّحابة رضي ا لله عنهم وفهمهم لها، وليس ذلك بدعاً من القول فإن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم نبّه إلى ذلك بقوله : (**وعليكم بسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عَضّوا عليها بالنواجذ**)[٢] وقال : (**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**)[٣] فالصّحابة هم الذين عاصروا نزول الوحي وكان رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم شاهداً حياً بين أظهرهم ، فهم أعلم الناس بالكتاب والسّنّة ومراد ا لله ورسوله منهما، فما أجمع عليه الصّحابة لم يكن لمن بعدهم أن يتعدّاهم فيه إلى غيرهم، وما اختلفوا فيه تخيّر من أقوالهم الأقرب للكتاب والسّنّة، وليس له الخروج عن مجموع أقوالهم ، وهذا هو منهج الجماهير من الأئمة والعلماء قال ابن القيم رحمه ا لله : (وكان التّلقي بلا واسطة حظّ أصحابه الذين حازوا قصبات السبق واستولوا على الأمر، فلا طمع لأحد من الأمّة بعدهم في اللحاق بهم ، ولكن المبرّز من اتبع صراطهم المستقيم ، واقتفى منهاجهم القويم والمتخلف من عدل عن طريقهم ذات اليمين وذات الشمال فذاك المنقطع التائه في بيداء المهالك والضلال ، تا لله لقد وردوا رأس الماء من عين الحياة عذباً صافياً زلالاً ، وأيّدوا قواعد الإسلام فلم يدعوا لأحد بعدهم مقالاً ، فتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان ، والقرى

---

(١) البداية والنّهاية ٥ / ٢٣٢ - ٢٣٦ والحديث صحيح رواه الجماعة وهو في صحيح البخاري كتاب الأحكام باب الأمراء من قريش عن محمّد بن جبير بن مطعم ، وانظر صحيح مسلم كتاب الإمارةباب النّاس تبع لقريش.

(٢) صحّ من حديث العرباض بن سارية رضي ا لله عنه رواه أبوداود ، كتاب السّنّة باب في لزوم السّنّة ح ٤٦٠٧ والتّرمذي كتاب العلم باب ماجاء في التزام السّنّة واجتناب البدع ح ٢٦٧٦ وابن ماجة في المقدّمة باب اتّباع سنّة الخلفاء الرّاشدين ح٤٣.

(٣) أخرجه البخاري كتاب فضائل أصحاب النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم باب فضائل أصحاب النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم ، ومسلم كتاب فضائل الصّحابة باب فضل الصّحابة ثمّ الّذين يلونهم ثمّ الّذين يلونهم ح ٢٥٣٥ عن عمران بن حصين رضي ا لله عنه

بالجهاد بالسّيف والسّنان وألقوا إلى التابعين ماتلقّوه من مشكاة النبوة صافياً وكان سندهم فيه عن نبيهم عن جبريل عن رب العالمين سنداً صحيحاً عالياً) [1] .

ثم بدأ الاهتمام بالإجماع وهو ثالث ثلاثة من مصادر التلقي عند أهل السّنّة والجماعة ، امتثالاً لقوله تعالى :﴿**ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبيّن له الهدى ويتّبع غير سبيل المؤمنين نولّه ماتولّى ونُصْلِه جهنّم وساءت مصيراً** ﴾ : **النساء ١١٥**، واستدلالاً بقول رسولنا صلّى ا لله عليه وسلّم : (**لاتجتمع أمّتي على ضلالة**)[2] ، وهذان النصّان يجعلان الإجماع مصدراً مهماً من مصادر التلقي والاستدلال عند أهل السّنّة والجماعة ، وهو موافقٌ لوصيّة رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم في الأمر بلزوم الجماعة والسواد الأعظم في الجملة ، وعلماء أهل السّنّة قاطبة على حجيّة الإجماع وإنما خلافهم في إمكانيته وفي تفاصيله وأمّا من حيث هو فلا نزاع بينهم في ذلك .

هذه هي مصادر التلقي عند أهل السّنّة والجماعة باختصارٍ شديد ،وهي المصادر الأساسية والمعوّل عليها في إقامة الحجة على العباد، وهناك مصادر ثانوية تتبع هذه المصادر ولاتستقل بنفسها كالعقل والفطرة ، ذلك أن العقول تتفاوت والفطرة يطرأ عليها الفساد ، ولكن الأصل : أنّ العقل الصحيح والفطرة السليمة لايمكن أن تخالف نصاً ثابتاً من كتاب ا لله أو من سنة رسوله صلّى ا لله عليه وسلّم .

وهذا ماأكّده كثيراً شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه ا لله وألّف فيه كتابه: (درء تعارض العقل والنقل) ، قال رحمه ا لله : (ويعلمون ـ أي أهل السّنّة والجماعة ـ أنّ أصدق الكلام كلام ا لله وخير الهدي هدي محمد صلّى ا لله عليه وسلّم ويؤثِرون كلام ا لله على كلام غيره ويقدمون هدي محمد على

---

[1] إعلام الموقّعين١ / ٣٢ .

[2] أخرجه أبو داود كتاب الفتن باب الفتن ودلائلها ح٤٢٥٣ والتّرمذي كتب الفتن باب ماجاء في لزوم الجماعة ح ٢١٧٦ عن عبدا لله بن عمر بسياق أطول وأخرجه ابن ماجة كتاب الفتن باب السّواد الأعظم ح ٣٩٥٠وابن أبي عاصم في السّنّة ١ / ٤١ عن أنس بن مالك رضي ا لله عنه مرفوعاً وكلّ أسانيد هذا الحديث لاتخلو من مقال إلاّ أنّ الشّاهد من الحديث ثابت لمجيئه من عدّة طرق، انظرالتلخيص الحبيرلابن حجر ٣ / ١٤١ والسّلسلة الصّحيحةللألباني ٣ / ٣١٩ .

هدي كل أحد وبهذا سُمّوا أهل الكتاب والسّنّة ، وسُمّوا أهل الجماعة : لأنّ الجماعة هي الاجتماع وضدّها الفرقة ، والإجماع هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين ، وهم يَزِنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ماعليه النّاس من أقوال وأعمال باطنة وظاهرة ممّا له تعلق بالدين، والإجماع الذي ينضبط هو ماكان عليه السّلف الصّالح إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة)[1].

---

(١) الفتاوى ٣ / ١٥٧ .

منهج ابن حبّان في العلم والتلقي

الإمام ابن حبّان من جملة المحدثين الملتزمين بالنّص ، وقد أوتي رحمه الله فهماً وعلماً وسعة في الرواية مكّنته بفضل الله من لزوم منهج أهل السّنّة في التلقي والاتباع ، وذلك أنّه كان معظِّماً لكتاب الله وسنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم والاقتداء بسبيل المتقدمين من الصّحابة ومن بعدهم ممن سلك سبيلهم واقتفى أثرهم .

المبحث الأوّل : التلقي من كتاب الله تعالى

أما القرآن الكريم فقد كان رحمه الله معظّماً لكتاب الله تعالى شأنه في ذلك شأن أهل الحديث ، ومن ذلك قوله مترجماً لحديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عندما قال له النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : (**ياحذيفة عليك بكتاب الله فتعلّمه واتّبع مافيه خيراً لك**)[1] قال رحمه الله : " ذِكرُ الإخبار عمّا يجب على المرء من تعلّم كتاب الله واتّباع مافيه عند وقوع الفتن خاصة"[2] .

كما حذّر رحمه الله من عدم الاكتفاء بكتاب الله تعالى وعدم الاستغناء به عمّا سواه فقال : " ذِكرُ الزّجر عن أن لايستغني المرء بما أوتي من كتاب الله جلّ وعلا " [3] واستدل بحديث سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه مرفوعاً : (**ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن**) [4] وقد اختلف العلماء في المراد من هذا الحديث على قولين :

أحدهما : ماذكره ابن حبّان أن المراد الاستغناء بالقرآن عما سواه وهو مروي عن سفيان بن عيينة[5] ووكيع بن الجراح[6] وارتضاه أبو عبيد

---

(1) أخرجه أحمد ٥ /٣٨٦ ، ٤٠٦ وأبو داود كتاب الفتن باب ذِكر الفتن ودلائلها .

(2) الإحسان ١ / ٣٢٣.

(3) الإحسان ١ / ٣٢٦.

(4) أخرجه البخاري كتاب التّوحيد باب قول الله عزّ وجلّ ﴿ **وأسرّوا قولكم أو اجهروا به** ﴾ عن أبي هريرة مرفوعاً.

(5) ابن أبي عمران :ميمون الهلالي أبو محمّد الكوفي ثمّ المكّي ثقة إمام حافظ فقيه توفّي سنة١٩٨ هـ ، السّير ٨ / ٤٥٤.

(6) ابن مليح الرّؤاسي أبو سفيان الكوفي ثقة حافظ عابد ، له كتاب الزّهد ، توفّي سنة ١٩٧ هـ ، السّير ٩/ ١٤٠.

القاسم بن سلاّم [1] وروي عن بعضهم أنّه استغناء خاص بمعنى الاستغناء بما فيه من أخبار الأمم السابقة وقيل : هو عام أي استغناء به عن الدنيا وعن هدي غيره و كل ماسواه .

والقول الثاني : أنّ المراد من الحديث التغنّي بالقرآن أي ترتيله وتحسين الصوت به ويُستدلّ له بحديث : (**ماأذن ا لله لشيء ماأذن لنبيّ حسن الصوت يتغنى بالقرآن**)[2] وقوله عليه الصّلاة والسلام : (**زينوا القرآن، بأصواتكم**) [3] وقوله : ماأذن : أي ماستمع .[4]

وأياً كان الصواب من القولين فلابن حبّان سلف في قوله، وكلامه ـ وهذا هوالشّاهد ـ يفصح عن اهتمامه بالمنهجية السّلفية في التلقي عن المصدر الأوّل كتاب ا لله تعالى والتحذير من عدم الاستغناء به عمّا سواه ، وهو ماكان عليه سلف الأمة من لدن محمد صلّى ا لله عليه وسلّم الذي قال: (**وانا تاركٌ فيكم ثقلين ، أوّلهما : كتاب ا لله فيه الهدى والنّور فخذوا بكتاب ا لله واستمسكوا به**) وفي رواية : (**من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة**)[5] .

ثمّ هو رحمه ا لله ينزّه القرآن أن يكون مجالاً للجدل والخصومات فيقول: " ذِكرُ الزّجر عن مجادلة الناس في كتاب ا لله تعالى مع الأمر بمجانبة من يفعل ذلك "،ثم يسوق حديث عائشة رضي ا لله عنها قالت : قرأ رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم هذه الآية : ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكمات هنّ أمُّ الكتاب وأُخرُ متشابهات ...**﴾ **إلى قوله** : ﴿ **أولوا الألباب** ﴾ : **آل عمران ٧** ، فقال رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**إذا**

---

[1] البغدادي الإمام المشهور ثقة فاضل مصنّف ، له غريب الحديث ، توفّي سنة٢٢٤ هـ ، السّير ١٠ / ٤٩٠ .

[2] أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب من لم يتغنّ بالقرآن ، ومسلم في صلاة المسافرين باب استحباب تحسين الصّوت بالقرآن عن أبي هريرة مرفوعاً .

[3] أخرجه أحمد ٤ / ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٣٠٤، و أبوداود كتاب الصّلاة باب استحباب التّرتيل في القراءة ح ١٤٨٦ والنّسائي كتاب الافتتاح باب تزيين القرآن بالصّوت وابن ماجة كتاب إقامة الصّلاة باب حسن الصّوت بالقراءة ح ١٣٤٢ عن البراء بن عازب رضي ا لله عنه مرفوعاً .

[4] انظر فتح الباري ٩ / ٨٦ ـ ٧٢ وكتاب فضائل القرآن لابن كثير ص١٧٩.

[5] صحيح مسلم كتاب فضائل الصّحابة باب من فضائل عليّ بن أبي طالب رضي ا لله عنه ح٢٤٠٨.

رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى ا لله فاحذروهم) . . . قال مطر — أحد رواة الحديث ـ حفظت أنه قال : **(ولا تجالسوهم)**[1] .

فهو يرى أنّ الواجب ترك الجدل والخصومات في كتاب ا لله عز وجل ومجانبة أهل الجدل في القرآن ، وأنهم هم الذين وصفهم ا لله بالزيغ في قلوبهم وحذّر منهم رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم .

ثم يوجّه المسلم إلى المنهج الصحيح في العمل بالقرآن فيقول : " ذِكرُ الزّجر عن تتبّع المتشابه من القرآن للمرء المسلم "، ويسوق حديث عائشة المتقدم وحديث أبي هريرة مرفوعاً : **(أُنزل القرآن على سبعة أحرف والمراء في القرآن كفر ـ ثلاثاً ـ ماعرفتم منه فاعملوا به وماجهلتم منه فردوه إلى عالمه)**[2] ثم قال : " قوله : ماعرفتم منه فاعملوا به، أضمر فيه الاستطاعة يريد : اعملوا بما عرفتم من الكتاب ماستطعتم وقوله : فردّوه إلى عالمه ، فيه الزّجر عن ضد هذا وهو أن لايسألوا من لايعلم "[3] .

ثم عقّب بترجمة توضح مقصود النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم فقال : " ذِكرُ العلة التي من أجلها قال النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم : (فردوه إلى عالمه)" وساق حديث : **(أُنزِل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن)**[4] أي أن سبب قوله ذلك أن لكل آية من القرآن ظهراً أي تفسيراً يُعلم من ظاهر اللغة وبطناً أي معاني لاتدرك إلا بالاستنباط .

---

(1) الإحسان ١ / ٢٧٧ ، والحديث ، أخرجه البخاري في التّفسير باب منه آيات محكمات ومسلم في كتاب العلم باب النّهي عن اتّباع متشابه القرآن ح ٢٦٦٥.

(2) الإحسان ١ / ٢٧٤ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٢ / ٣٠٠ ، ٣٣٢ عن أبي هريرة رضي ا لله عنه مرفوعاً .

(3) الإحسان ١ / ٢٧٦ .

(4) الإحسان ١ / ٢٧٦ ، والحديث ، أخرجه بهذا اللّفظ أيضاً الطّبراني في الكبير ح ١٠١٠٧ وفي الأوسط ح ٧٧٣ والطّبري في التّفسير ح١٠ والبزّار كما في كشف الأستار ح ٢٣١٢ من طرق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود مرفوعاً ، قال الأستاذ شعيب الأرناؤوط: (إسناده حسن إن كان أبو اسحاق هو الهمداني كما ذكر المؤلّف وهو السّبيعي ، وليّن إن كان إبراهيم بن مسلم الهجري كما رواه الطّبري في تفسيره) الإحسان ١ / ٢٧٦ ، والّذي ترجّح عندي وا لله أعلم أنّه أبو إسحاق السّبيعي وذلك أنّ الرّاوي عن أبي إسحاق في سند ابن حبّان هو محمّد بن عجلان ، قال البزّار : (لم يروه هكذا غير الهجري ولا روى ابن عجلان عن الهجري غيره ولا نعلمه من طريق ابن عجلان إلاّ من هذا الوجه) ٣/٩٠ ومحمّد بن عجلان من الرّواة عن أبي إسحاق السّبيعي و لم يُذكر ضمن من روى عن إبراهيم بن مسلم ممّا يدلّ على أنّه خطأ من أحد الرّواة ، كذلك فإنّ الطّبراني روى الحديث بزيادة (**ولو كنت متّخذاً خليلاً لاتّخذت أبا بكر خليلاً**) عن عبدا لله بن أبي الهذيل عن أبي الأحوص وروى هذه الزّيادة الأخيرة لوحدها في الأوسط ح١٣٩٣بإسناده عن أشعث بن سوار عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص وأشعث بن سوار من الرّواة عن أبي إسحاق السّبيعي و لم يُذكر ممّن روى عن إبراهيم بن مسلم ،ويغلب على

وممّا تقدّم يمكن إعادة ترتيب ماذكره ابن حبّان وإجماله في النّقاط التالية:

١ ـ القرآن هو المصدر الأوّل للتلقي والاتباع عند المسلم .

٢ ـ وجوب الاستغناء والاكتفاء به عن غيره مما يخالفه في المصدر .

٣ ـ على المؤمن أن يتعلم كتاب الله تعالى وأن يتبع مافيه عند الفتن خاصّة.

٤ ـ تحريم الجدل والمراء في كتاب الله تعالى .

٥ ـ الإيمان بالمحكم والعمل به قدر الاستطاعة .

٦ ـ الإيمان بالمتشابه وعدم تتبعه ، والمتشابه نوعان : نوع لايعلمه إلا الله ، ومن ذلك حقائق ماذكر الله عن صفاته وعن الجَنّة والنّار وغير ذلك ، وهذه الأمور لايعلمها إلا الله فالواجب الإيمان بها وتفويض علم حقيقتها إلى الله تعالى .

والنّوع الآخر : المتشابه النّسبي وهو : مايكون جلياً عند بعض النّاس ،خفياً متشابهاً عند آخرين ولكنّه معلوم في الجملة ، إذ قد يعلمه العلماء ويجهله العامه ومن هذا الباب جعل ابن حبّان من الواجب على المسلم :

الظّن أنّ الحديث واحد ،فيبقى إسناد ابن حبّان حسناً لذاته ،وإعلال البزّار له بأنّه من رواية الهجري مرجوحة بما جزم به ابن حبّان خصوصاً أنّ رواة الإسناد كلّهم ثقات وليس هناك مايدعو للإعلال لأنّ محمّد بن عجلان سمع من السّبيعي وهو أولى من تخطئة الثّقات ، وقد أورد الطّبراني متابعاً لأبي إسحاق ، فروى في الكبير عن واصل بن حيّان عن عبدا لله بن أبي الهذيل عن أبي الأحوص عن عبدا لله بن مسعود مرفوعاً : (**لو كنت متّخذاً خليلاً لاتّخذت أبا بكر خليلاً ، وأنزل القرآن على سبعة أحرف**) ح ١٠١٠٧ والّذي يظهر أنّ أبا الأحوص كان تارة يختصر الحديث وتارة يزيد فيه ، وجملة الشّاهد ثابتة و لله الحمد ، قال الأرناؤوط: (وأخرجه الطّبري من طريق محمّد بن حميد الرّازي حدّثنا جرير بن عبدالحميد عن مغيرة عن واصل بن حيّان عمّن ذكره عن أبي الأحوص ، وقال : هذا سند ضعيف لجهالة الواسطة بين واصل بن حيّان وأبي الأحوص) الإحسان ١ / ٢٧٧ ، وفيه علّة أخرى وهو أنّه من رواية محمّد بن حميد الرّازي وهو ضعيف بالاتّفاق ، ومع ذلك فقد تبيّنت الواسطة في اسناد الطّبراني وهو عبدا لله بن أبي الهذيل ثقة من رواة الجماعة ، ويبقى عندنا إسناد الطّبري وفيه عن سفيان عن إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص ، وهذا لايخالف الأسانيد المتقدّمة لأنّه من رواية متّصلة فإبراهيم سمع من أبي الأحوص وربّما يكون هذا هو الّذي سبّب الوهم وإن كان في روايته لين فإنّها تتقوّى بمتابعة أبي إسحاق السّبيعي له ، وبرواية سفيان بن عيينة عنه ، روى المزّي في تهذيب الكمال عن سفيان قوله :(أتيت إبراهيم الهجري فدفع إليّ عامّة كتبه فرحمت الشّيخ فأصلحت له كتابه قلت : هذا عن عبدا لله ، وهذا عن النّبيّ ، وهذا عن عمر) ٢ / ٢٠٢ قال ابن حجر :(القصّة تقتضي أنّ حديثه عنه صحيح لأنّه إنّما عيب عليه رفعه أحاديث موقوفة وابن عيينة ذكر أنّه ميّز حديث عبدا لله من حديث النّبيّ ، وا لله أعلم) تهذيب التّهذيب ١ / ١٦٦ لكن لايُفرح بمثله فإنّها عند الطّبري من طريق محمّد بن حميد الرّازي وهو ضعيف لايصلح في المتابعات وكان ممّن يقلب الأسانيد والمتون ، وخلاصة القول أنّ أسانيد الطّبري لاعبرة بها لضعف محمّد بن حميد ، فيبقى إسناد ابن حبّان حسناً لذاته على الرّاجح من أنّ أبا إسحاق هو السّبيعي ، ويرتقي إلى الصّحّة بمتابعة عبدا لله بن أبي الهذيل عند الطّبراني وا لله أعلم بالصّواب .

٧ ـ سؤال العلماء عما تشابه عليه من معاني القرآن والعمل به على علم وبصيرة ، وذلك لأنّ :

٨ ـ لكل آية من كتاب الله ظهر وبطن كما جاء في الحديث وهو يوميء بذلك إلى معنى ماروى عن العلماء في تفسير ذلك ،كما قال الطبري رحمه الله عند إيراده الحديث قال : (ظهره الظاهر في التلاوة وبطنه مابطن من تأويله)[1].

وبهذا فإن ابن حبّان رحمه الله التزم منهجاً نبوياً على الحقيقة إذ مامن مسألةٍ منها إلاّ وهي مدعومة بآية من كتاب الله تعالى أو بحديث صحيح ذكره هو أو غيره .

---

(١) جامع البيان ١ / ٥٥ .

المبحث الثّاني : منهجه في التّلقّي عن السنّه

السّنّة لغةً : الطّريقة ، وتختلف مدلولاتها في الاصطلاح بحسب المصطلحين، فهي عند الفقهاء غيرها عند المحدّثين والأصوليّين ، والمراد هنا السّنّة بمعناها الأصولي : أي من حيث هي مصدر رئيس من مصادر أدلّة الفقه .(*)

وقد كان ابن حبّان من أهل الحديث الذين لايقدّمون على قول الرسول صلّى الله عليه وسلّم قول أحد كائناً من كان وإنّما إذا صح الحديث لم يعده إلى سواه أبداً .

قال رحمه الله : " ذِكرُ مايجب على المرء من لزوم سنن المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وحفظه نفسه عن كل من يأباها من أهل البدع وإن حسّنوا ذلك في عينه وزيّنوه "(1).

وقال أيضا: " ذِكرُ مايجب على المرء من ترك تتبّع السّبل دون لزوم الطريق الذي هو الصّراط المستقيم " (2) وساق تحت الترجمتين حديثاً واحداً هو حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : (**خطّ لنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خطاً فقال : (هذا سبيل الله) ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال : (وهذه سُبُل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه) ثم تلا قول الله تعالى ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً ...﴾(3): الأنعام١٥٣.**

وقال كذلك: " ذِكرُ الإخبار عمّا يجب على المرء من لزوم هدي المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بترك الانزعاج(4) عما أبيح من هذه الدنيا بإغضائه " ،ثم ساق حديث عثمان بن مظعون رضي الله عنه عندما شكت

(*) انظر أصول الحديث لمحمّد عجاج الخطيب ص١٧ .

(1) الإحسان ١ / ١٨٠ .

(2) الإحسان ١ / ١٨١.

(3) أخرجه أحمد ١ / ٤٣٥ ، ٤٦٥ والدّارمي في المقدّمة باب في كراهية أخذ الرّأي ح٢٠٦ والطّبري في تفسيره ح١٤١٦٨ والبزّار ح٢٢١٠ كما في كشف الأستار من طرق عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

(4) المراد به الابتعاد والإقلاع ، تهذيب اللّغة ١ / ٣٤٥ ، القاموس ١ / ٤٠١.

زوجته لعائشة أن عثمان لايبالي بالنساء ، فذكرت عائشة ذلك للنبيّ صلّى ا للهّ عليه وسلّم فقال لـه : (**ياعثمـان إنّ الرّهبانيـة لم تُكتب علينـا، أمـا لـك فيّ أسوةٌ حسنة ، فوا لله إني لأخشاكم لله وأحفظكم لحدوده**)[1] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار عما يجب على المرء من تحري استعمال السّنّة في أفعاله ومجانبة كل بدعة تباينها وتضادّها "، وساق بعده حديث جابر رضي ا لله عنه قال : كان رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم إذا خطب احمرّت عيناه وعلا صوته ...ويقول : (**أمّا بعد فإنّ خير الحديث كتاب ا لله وخير الهدي هدي محمد صلّى ا لله عليه وسلّم وإن شر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة**)[2] .

ثم هو يحذّر من مجانبة السّنّة وترك العمل بها فيقول : " ذِكرُ الزّجر عن الرغبة عن سنن المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم في أقواله وأفعاله جميعاً"، وساق تحته حديث الرهط[3] الذين سألوا أزواج النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم عن عمله في السّر ، فقال بعضهم : لاأتزوّج ، وقال بعضهم : لاآكل اللحم ، وقال بعضهم : لاأنام على فراش ، فلمّا علم النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم بأمرهم قام فحمد ا لله وأثنى عليه ثم قال : (**مابال أقوام قالوا كذا وكذا ولكنّي أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النّساء فمن رغب عن سنّتي فليس مني**)[4] .

وقال في ترجمة : " ذِكرُ نفي الإيمان عمّن لم يخضع لسنّة رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم واعترض عليها بالمقايسات المقلوبة والمخترعات الداحضة "،وساق حديث الزبير والأنصاري في شراج الحرة[5] التي يسقون منها النّخل

---

[1] الإحسان ١ / ١٨٥ ، والحديث أخرجه أحمد ٦ / ٢٢٦ والطّبراني في الكبيرح٨٣١٩ من طرق عن معمر عن الزّهري عن عروة عن عائشة به ، ورواه أبوداود كتاب الصّلاة باب مايؤمر به من القصد في الصّلاة ح١٣٦٩ وأحمد ٦ / ٢٦٨ باختلاف في السّياق عن أبي إسحاق حدّثني هشام بن عروة عن أبيه به ، وانظر إرواء الغليل للألباني ح٢٠١٥ .

[2] الإحسان ١ / ١٨٦، والحديث أخرجه أيضاً مسلم كتاب الجمعة باب تخفيف الصّلاة والخطبة ح٨٦٧ .

[3] الرّهط بتسكين الهاء وتحريكها مابين الثّلاثة إلى العشرة من الرّجال لا واحد له من لفظه ، القاموس ٢ / ٥٣٤.

[4] الإحسان ١ / ١٩٠ ، والحديث أخرجه البخاري في النّكاح باب التّرغيب في النّكاح ومسلم في النّكاح باب استحباب النّكاح لمن تاقت إليه نفسه ح١٤٠١.

[5] الشّرجة : مسيل الماء من الحرّة إلى السّهل وجمعها شراج ، النّهاية لابن الأثير ٢ / ٤٥٦ وتهذيب اللّغة ١٠ / ٥٣٤ .

وماكان من الأنصاري لّماحكم النّبيّ صلّى ا الله عليه وسلّم للزّبير، حيث قال : يارسول ا الله أن كان ابن عمتك ؟ فغضب النّبيّ صلّى ا الله عليه وسلّم ، قال الزبير : فوا الله لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك : ﴿ **فلا وربّك لايؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم** ﴾ : **النساء** ٦٥.[1]

وقال أيضاً : " ذِكرُ الخبرالدال على أن من اعترض على السّنّة بالتأويلات المضمحلّة و لم ينقد لقبولها كان من أهل البدع " ، وساق حديث أبي سعيد الخدري رضي ا الله عنه مرفوعاً : (**سيخرج من ضئضيء هذا قوم يتلون كتاب ا الله لايجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**).[2]

ثم يذكر أنّ جزاء موافقة السّنّة والانقياد للنبي صلّى ا الله عليه وسلّم هو الجنة فيقول : " ذِكرُ إيجاب الجنة لمن أطاع ا الله ورسوله فيما أمر ونهى " وساق بعده حديث أبي سعيد الخدري رضي ا الله عنه مرفوعاً : (**والذي نفسي بيده لتدخلُنّ الجنة كلكم إلا من أبى وشرد على ا الله كشراد البعير ، قالوا : يارسول ا الله ومن يأبى أن يدخل الجنة ؟، قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى**).[3]

ثم يبيّن أنّ السّنّة حجّةٌ شرعيةٌ مستقلّة ، وأنّها كالقرآن ، إذ هي وحيٌ من ا الله تعالى فيقول : " ذِكرُ الخبرالمصرِّح بأن سنة المصطفى صلّى ا الله عليه وسلّم كلّها عن ا الله لامن تلقاء نفسه " ،ثم ساق حديث المقدام بن.......

---

[1] الإحسان ١ / ٢٠٣ ويقال : حجّة داحضة أي باطلة ، القاموس ٢ / ٤٨٦ ، والحديث أخرجه البخاري في المساقاة باب سكْر الأنهار ومسلم في الفضائل باب وجوب اتّباعه صلّى ا الله عليه وسلّم ح٢٣٥٧عن الزّبير رضي ا الله عنه .

[2] الإحسان ١ / ٢٠٥ ، والحديث أخرجه البخاري في الأنبياء باب قوله تعالى : ﴿ **وإلى عادٍ أخاهم هوداً** ﴾ ومسلم في الزّكاة باب ذِكر الخوارج ح١٠٦٤ عن أبي سعيد الخدري رضي ا الله عنه .

[3] الإحسان ١ / ١٩٦ ، وحديث أبي سعيد رواه أيضا الطّبراني في الأوسط ح٨٠٨ عن خلف بن خليفة عن العلاء بن المسيّب عن أبيه عن أبي سعيد مرفوعاً وإسناده على شرط مسلم وله شاهد من حديث أبي هريرة عند البخاري في الاعتصام باب الاقتداء بسنن رسول ا الله صلّى ا الله عليه وسلّم .

معديكرب[1] مرفوعاً : (**إنّي أوتيت الكتاب ومايعدله . . .**)[2] .

ثم يبين أنّ اتّباع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والاقتداء بسنّته لايقتصر على أقواله بل أفعاله أيضاً إذ يقول : " ذِكْرُ البيان بأنّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم كان يأمر أمته بما يحتاجون إليه من أمر دينهم قولاً وفعلاً معاً "، ثمّ ساق حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم رأى خاتماً من ذهب في يد رجل فنزعه وطرحه وقال : (**يعمد أحدهم إلى جمرة من النّار فيجعلها في يده**).[3]

وهو يرى أنّ السّنّة حُجّة بنفسها ، وأنّها حاكمةٌ لامحكومٌ عليها بالعقل كما يدعي ذلك أهل البدع فقال بعد سياق حديث حجة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "هذه الاخبار التي ذكرناها في إفراد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الحج وقرانه وتمتّعه مما تنازع فيها الأئمّة من لدن المصطفى صلّى الله عليه وسلّم إلى يومنا هذا ، ويشنّع به المعطلة وأهل البدع على أئمتنا وقالوا : رويتم ثلاثة أحاديث متضادة في فعل واحد ورجل واحد وحالة واحدة ، وزعمتم أنّها ثلاثتها صحاح من جهة النّقل ، والعقل يدفع ماقلتم ، إذ محال أن يكون النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في حجة الوداع كان مفرداً قارناً متمتعاً ، فلما صحّ أنّه لم يكن في حالةٍ واحدة قارناً متمتعاً مُفرِداً صحّ أنّ الأخبار يجب أن يُقبل منها مايوافق العقل "[4] ثم بدأ يوفّق بين الروايات ويجمع بينها ، فانظر كيف جعل ذلك من سيما أهل البدع المعطلة .

وقد بين مراراً وتكراراً أنّ منهج العمل بالنصوص الذي يرتضيه هو أن تُجمع الأخبار في الباب الواحد والمسألة الواحدة فيحمل العام على

---

(1) ويقال أيضاً المقداد بن معديكرب بن عمرو بن يزيد أبو يحيى صحابي جليل توفّي سنة ٨٧هـ ، الإصابة ٦ / ٢٠٤ .

(2) الإحسان ١ / ١٨٩ ، والحديث أخرجه أحمد ٤ / ١٣١ ، ١٣٢ وأبوداود في السّنّة باب لزوم السّنّة ح٤٦٠٤ والتّرمذي في العلم باب مانُهي أن يقال عند حديث النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ح٢٦٦٤ وابن ماجة في المقدّمة باب تعظيم حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ح١٢ وصحّحه الحاكم والذّهبي .

(3) الإحسان ١ /١٩٢ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم كتاب اللّباس والزّينة باب تحريم خاتم الذّهب على الرّجال .

(4) الإحسان ٩ / ٢٢٨ ، والمنهج العقلي من أخبث المناهج الّتي دخلت على المسلمين وبلغ بأصحابه أن صاروا يوجبون على الله تعالى ويجيزون له وعليه ولا يجيزون ، وقد تصدّى لهم شيخ الإسلام ابن تيميّة في كتابه العظيم درء تعارض العقل والنّقل ، وقد ذكر ابن القيّم رحمه الله روايات حجّة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ووفّق بينها وأبان الخطأ من الصّواب في كتابه زاد المعاد ٢ / ١٣٦وما بعدها.

الخاص ، والمطلق على المقيد ، والمبهم على المبيّن ، والمجمل على المفصّل، ويُعرف المتقدم والمتأخر ويعمل بالنسخ .

وهو يرى أنّ من الخطأ المنهجي أن يُؤخذ الحديث لوحده فيعمل به قبل عرضه على باقي النصوص ، قال بعد حديث سهيل بن بيضاء [1] مرفوعاً **(من شهد أن لاإله إلا ا لله حرّمه ا لله على النّار وأوجب له الجنة)** : " هذا خبر خرج خطابه على حسب الحال والخبر إذا كان خطابه على حسب الحال لم يجز أن يحكم به في كل الأحوال ، وكل خطاب كان من النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم على حسب الحال فهو على ضربين: **أحدهما** :وجود حالة من أجلها ذكر ماذكر لم تذكر الحالة مع ذلك الخبر .

الثاني : أسئلة سُئل عنها فأجاب بأجوبة فرويت تلك الأجوبة من غير تلك الأسئلة ، فلايجوز أن يُحكم بالخبر إذا كان هذا نعته في كل الأحوال دون أن يُضمّ مجمله إلى مفسره ومختصره إلى متقصّاه "[2] .

ثم هو يرى ضمن ذلك أنّه ليس من الضروري أن يكون أمر النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم مُفسراً معقولاً من ظاهر الخطاب ، بل قد يكون فيه إجمال أو إبهام فيطلب تفسيره وتفصيله من فعله عليه الصّلاة والسلام فقال: " ذِكرُ الخبرالمدحض قول من زعم أن أمر النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم بالشيء لايجوزإلا أن يكون مفسراً يعقل من ظاهر الخطاب " ،وساق بعده حديث أبي هريرةمرفوعاً في السّهو في الصّلاة وفيه : **(...فإذا لم يدرِ أحدُكم كم صلّى فليسجد سجدتين وهو جالس)**[3] ، ثم ذكر كلاماً طويلاً مفاده أنّ أمره

---

[1] القرشي، وبيضاء أمّه واسمها دعد ، واسم أبيه وهب بن ربيعة بن عمرو القرشي أسر يوم بدر وشهد له ابن مسعود رضي ا لله عنه عند رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم فانفلت من الفداء والقتل ، مات في حياة النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم ، الإصابة ٢٠٨/٣.

[2] الإحسان ١ / ٤٢٩، وحديث سهيل أخرجه أيضاً أحمد ٣ / ٤٥١ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ والطّبراني في الكبير ح٦٠٣٣ ، ٦٠٣٤ من طرق لاتخلو من ضعف وإسناد ابن حبّان فيه انقطاع ، والحديث يصحّ بشواهده الكثيرة ومنها حديث معاذ المشهور **(مامن عبد يشهد أن لاإله إلاّ ا لله وأنّ محمّداً عبده ورسوله إلاّ حرّمه ا لله على النّار)** ، وحديث عبادة مرفوعاً : **(من شهد أن لاإله إلاّ ا لله وأنّ محمّداً رسول ا لله حرّم ا لله عليه النّار)** أخرجهما مسلم كتاب الإيمان باب الدّليل علىأنّ من مات على التّوحيد دخل الجنّة قطعاً .

[3] الإحسان ١ / ١٩٣، وحديث أبي هريرة أخرجه البخاري كتاب السّهو باب إذا لم يدر كم صلّى ثلاثاً أو أربعاً ومسلم في المساجد باب السّهو في الصّلاة والسّجود له ح٣٨٩ .

صلّى الله عليه وسلّم بالسجود لمن شكّ في صلاته أمرٌ مجملٌ تفسيره أفعاله التي وردت في السنّة فلا يجوز لأحد أن يأخذ أحد الأخبار التي فيها حالة من حالات سجود السهو ويعمّمها في كل الأحوال بل يعمل في كل حالة كما فعل عليه الصّلاة والسلام وما لم يرد في السنّة فيُردّ إلى مايشبهه من الحالات.[1]

وبيّن رحمه الله أنّ الواجب على المسلم قبولُ خبر الواحد والإذعان له لأنّه حجةٌ شرعية مُلزِمة للعمل والامتثال فقال في ترجمة : "ذكر الخبرالمدحض قول من نفى جواز قبول خبر الواحد "، وساق تحتها حديث أبي المليح[2] عن أبيه قال: أصابنا مطر بحنين ، فنادى منادي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : **(أن صلّوا في رحالكم)**[3] .

وهذا القول الذي رده ابن حبّان هو الذي رده علماء أهل السّنّة وبيّنوا زيفه، إذ اتّخذه أهل البدع حجّةً وذريعةً لردّ السّنّة الثابتة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فإذا مااحتج عليهم محتج بحديثٍ لم يجدوا إلى تأويله سبيلاً قالوا : إن العقيدة لاتؤخذ من حديث آحاد لايفيد إلا الظن .

إذا عرف ماتقدم فاعلم أن خبر الواحد لم تختلف كلمة أهل السّنّة في أنّه موجب للعمل وحجة في العلميات ، وإنما الخلاف بينهم فيما يفيده خبر الواحد هل يفيد الظن أم العلم النظري أم العلم القطعي الضروري ؟

فقال بعضهم ،كالنّووي ، والعزّ ابن عبدالسلام : إنّه يفيد الظن [4] ، لأنّ النّقلة يجوز عليهم الخطأ والنسيان ، ولايمكن في هذه الحالة أن نقطع بأنّه كلام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، إلاّ أن ذلك لايمنع الاحتجاج به في العبادات ولا العقائد إذ نحن غير مكلفين بأكثر من ذلك .

---

[1] الإحسان ١ / ١٩٣ ـ ١٩٤ باختصار .

[2] ابن أسامة بن عمير بن حنيف بن ناجية الهذلي اسمه عامر أوزيد تابعيّ ثقة وأبوه أسامة له صحبة ، توفّي سن ٩٨هـ تقريب التّهذيب ت٨٣٩٠ .

[3] الإحسان ٥ / ٤٣٦ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٥ / ٧٤ ، ٧٥ ، وابوداود في الصّلاة باب الجمعة في اليوم المطير ، والنّسائي في الإمامة باب العذر في ترك الجماعة ، وابن ماجة في الإقامة باب الجماعة في اللّيلة المطيرة .

[4] انظر تدريب الرّاوي ١ / ١٢٣ ـ ١٣٣ .

وقال آخرون : بل هو مفيد للعلم الضروري القطعي منهم ابن الصّلاح وإمام الحرمين[1] وأبو الخطاب[2] وابن حزم[3] ، وقال غيرهم : قد يفيد العلم النظري دون القطعي والضروري ، وذلك أنّ المتبحّر في علم الحديث قد يحصل له بالتتبّع و الاستقراء أنّ هذا الحديث صحيح عن رسول الله ويحصل عنده العلم بكونه من كلام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فخبر الواحد إذن قد يحتف به من القرائن مايجعل العلم حاصلاً بكونه من كلام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

وقد ذكر الحافظ ابن حجر[4] رحمه الله تعالى بعض أخبار الآحاد التي حصل العلم بصدقها فمن ذلك :

١) الخبر الذي تلقّته الأمة بالقبول سواء في ذلك تصديقه أو العمل بموجبه فإن ذلك ممّا يوجب القطع بصحته في نفس الأمر إذ الأمة لا تجتمع على ضلالة ومن ذلك أحاديث الصحيحين في الجملة .

٢) الأحاديث التي تلقّاها أهل العلم بالحديث بالقبول والتصديق فإن سائر الناس تبع لهم في معرفة الحديث فإجماعهم معصوم ، لايجوز أن يجمعوا على خطأ .

٣) الخبر المستفيض الوارد من وجوه كثيرة لامطعن فيها يفيد العلم النظري للمتبحر في هذا الشّأن [5] .

وأمّا إذا لم يوجد من القرائن مايفيد صحة الحديث وحصول العلم به فإن الحديث لايفيد إلا الظنّ ولانقطع بصحته في نفس الأمر ، هذا إذا لم يخالف أصلاً شرعياً و لم يكن في متنه نكارة ، ولكن هذا لايوجب رده بل

---

[1] أبو المعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني فقيه شافعي من أئمّة المتكلّمين المتأخّرين توفّي سنة٤٧٨ هـ سير أعلام النّبلاء ١١ / ٥٠٦ .

[2] محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوذاني الحنبلي صاحب التّمهيد في أصول الفقه توفّي سنة ٥١٠ هـ ، السّير ١٩ / ٣٤٨ .

[3] أبو محمّد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ناصر مذهب الظّاهريّة صاحب التّصانيف منها المحلّى والفِصَل في الملل والأديان والنّحل ، فقيه متكلّم بارع ، توفّي سنة ٤٥٦ هـ ، السّير ١٨ / ١٨٤ .

[4] أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني خاتمة الحفّاظ وشيخ الإسلام أمير المؤمنين في الحديث ، من أغزر المصنّفين وأجودهم وأكثرهم تحقيقاً ، أشهر مصنّفاته فتح الباري شرح صحيح البخاري ، توفّي سنة ٨٥٢ ، البدر الطّالع للشّوكاني ٨٧/١ ، ومعجم المؤلّفين ٢٠/٢ .

[5] انظر النّكت على مقدّمة ابن الصّلاح ١ / ٣٧١ - ٣٧٩ .

يجب قبوله والعمل به فإنّ الشّرع عوّل على خبر الواحد في العلميات والعمليات على السّواء ، كما ورد من إرساله صلّى الله عليه وسلّم معاذاً إلى اليمن وعلي بن أبي طالب وغيرهم من الرسل كلهم أرسلهم بالعقيدة والتّوحيد وهم آحاد ومادام الشرع عوّل عليه فلا وجه إذن لرده بحجة أن العقيدة لاتؤخذ إلاّ من طريق قطعي فما رضيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لنا رضيناه نحن لأنفسنا ولايكلّف الله نفساً إلاّ وسعها .

وقد أحال الشّرع في القضاء والأحكام الشّرعيّة ، على الظّنّ كما في اعتماد الحاكم في حكمه على الشّهود وهم آحاد ، وفي الإعلام بدخول وقت الصّلاة على المؤذّن وهو واحد ، وأشياء لاتحصى ، ولافرق في دين الله بين العقائد والأحكام الشّرعيّة من حيث التّكليف وهو مبلغ علم الإنسان وعلى المسلم أن يتّقي الله مااستطاع وهذا قدر الاستطاعة ، والله أعلم .[1]

ومما تقدّم نلخص ونرتب ماذكره ابن حبّان في منهجه في التعامل مع الآثار النبوية كما يلي :-

١) السّنّة حجةٌ شرعية ومصدر مستقل من مصادر التلقي والاتباع .

٢) السّنّة وحيٌ من الله تعالى .

٣) السّنّة لاتعرض على غيرها بل غيرها يعرض عليها ،من الآراء وكلام الناس .

٤) الأخبار التي تصح من جهة النقل عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لاتتهاتر أو تتعارض وإنّما قد تقصر الفهوم عن حقائق ماتدل عليه .

٥) وجوب العمل بالأخبار مجتمعة وحمل بعضها على بعض .

٦) السّنّة حجةٌ بقسميهاالقولي والعملي .

٧) أمر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد يأتي مجملاً وحينئذ يطلب تفصيله من أفعاله عليه الصّلاة والسلام .

٨) خبر الواحد حجّة يجب العمل به في العلميات والعمليات .

---

[1] انظر الفتاوى ١٨ / ١٦ - ١٧ ، ٤٠ ، ٤٨ والإحكام لابن حزم ١ / ١٠٣ وما بعدها والإحكام للآمدي ٢ / ٤٩ ومابعدها ، وتدريب الرّاوي للسّيوطي ١ / ١٣١ ، وتوضيح الأفكار للصّنعاني ١ / ٢٤ ، ولوامع الأنوار للسّفّاريني ١ / ١٩ .

وماذكرناه في الحقيقة منهج علمي سائر على منهاج المتقدمين من الصّحابة والتابعين في التلقي عن سنة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والتمسك بها وفهمها على مراد صاحبها عليه الصّلاة والسلام الذي قال: (**ألا إني أوتيت الكتاب ومايعدله، يوشك شبعان على أريكته أن يقول : بيني وبينكم هذا الكتاب فما كان فيه من حلال أحللناه وماكان فيه من حرام حرّمناه ألا وأنّه ليس كذلك**) [(١)] وقال : (**لاأعرفن الرجل يأتيه الأمر من أمري إما أمرت به وإما نهيت عنه فيقول : ماندري ماهذا ، عندنا كتاب الله ليس هذا فيه**) .[(٢)]

قال الشوكاني رحمه الله : (إنّ ثبوت حجية السّنّة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية ولايخالف في ذلك إلى من لاحظّ له في الإسلام)[(٣)] .

وكان من منهاج النبوّة الذي سار عليه السلف الصالح رحمهم الله الوقوف على الأثر ، وعدم تجاوزه امتثالاً لقوله عليه الصّلاة والسلام : (**من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد**)[(٤)] وكان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يقول : (اتّبعوا ولاتبتدعوا فقد كُفيتم ، وقال : عليكم بالأمرالأوّل) وقال: عليكم بالعتيق) .[(٥)]

وكان الأعمش رحمه الله يقول :(عليكم بملازمة السّنّة)[(٦)] وقال الشافعي رحمه الله : (كلّ شيء خالف أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

---

(١) تقدّم تخريجه ص ٣٠.

(٢) حديث أبي رافع رضي الله عنه أخرجه أبوداود في السّنّة باب في لزوم السّنّة ح٤٦٠٥ والتّرمذي في العلم باب مانُهي أن يقال عند حديث النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ح٢٦٦٣ وابن ماجة في المقدّمة باب تعظيم حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ح١٣والحاكم ١ / ١٠٨ وصححّه ووافقه الذّهبي .

(٣) إرشاد الفحول ص٦٩.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الصّلح باب إذا اصطلحوا على صلح جور ومسلم في الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ح١٧١٨ عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً .

(٥) الباعث على إنكارالبدع والحوادث لأبي شامة ص٦٥ - ٦٧.

(٦) قواعد التّحديث للقاسمي ص٥٠ ، والأعمش هو سليمان بن مهران تابعيٌّ جليل توفّي سنة ١٤٨هـ السّير ٦ / ٢٢٦ .

فهو سقط ، ولايقوم معه رأي ولاقياس فإنّ الله تعالى قطع العذر بقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم) .[1]

وقال الأوزاعي رحمه الله : (خمسٌ كان يقال :كان عليها أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والتابعون بإحسان ، لزوم الجماعة واتّباع السّنّة وعمارة المسجد وتلاوة القرآن والجهاد في سبيل الله)[2] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (سيأتي أناسٌ يجادلونكم بشبهات القرآن ، خذوهم بالسّنّة فإنّ أصحاب السّنّة أعلم بكتاب الله)[3] .

وهذه الكلمات قليلٌ من كثير ، وغرفة من بحر ، وابن حبّان ماهو إلا متّبع لمن تقدمه سالكٌ سبيلهم في توقير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم واقتفاء سنّته ،كما قال في مقدّمة التّقاسيم : " وإنّ لزوم سنّته تمام السّلامة ، وجماع الكرامة لاتُطفأ سرُجها ، ولاتُدحض حججها ، من لزمها عُصم ، ومن خالفها ندم ، إذ هي الحصن الحصين ، والرّكن الرّكين ، الّذي بان فضله ومُتنَ حبله ، من تمسّك به ساد ، ومن رام خلافه باد، فالمتعلّقون به من أهل السعادة في الآجل، والمغبوطون بين الأنام في العاجل "[4] .

---

(1) قواعد التّحديث للقاسمي ص ٥٣.

(2) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة ١ / ٦٤ .

(3) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة ١ / ١٢٣ .

(4) الإحسان ١ / ١٠٢ .

المبحث الثّالث : استدلاله بالإجماع

وأمّا الإجماع فقد أورد ابن حبّان رحمه الله حديث الحارث الأشعري[1] رضي الله عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مطولاً وفيه (**وأنا آمركم بخمس أمرني الله بها بالجماعة والسّمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله فمن فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه**)[2]، ثمّ قال أبو حاتم : "الأمر بالجماعة بلفظ العموم والمراد منه الخاص ، لأنّ الجماعة هي : إجماع أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم"، فهو يرى أنّ الإجماع المعتبر الذي جعله الله ورسوله حجة على العباد هو إجماع أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دون من سواهم، وهذا في الحقيقة مرويٌّ عمن تقدم ابن حبّان في الزمان والعلم والسّنّة ، فقد رُوي عن الإمام أحمد قوله : (من ادّعى الإجماع فهو كاذب مايدريه لعل الناس قد اختلفوا)[3] قال ابن تيميّة رحمه الله : (الذي أنكره أحمد دعوى إجماع المخالفين بعد الصّحابة أو بعدهم وبعد التابعين . .)[4] .

وهذا الكلام ليس مبناه على عدم إمكانية الإجماع ولا على عدم حجيّته ، بل المراد تعذّر الإجماع بعد الصّحابة إذ بعدهم كثر العلماء وانتشرت الروايات في البلاد الإسلامية مما يتعذّر معه غالباً العلم بإجماع مجتهدي ذلك العصر، قال ابن بدران[5] : (جعل الأصفهاني[6] الخلاف في غير إجماع الصّحابة وقال: الحق تعذّر الإطّلاع على الإجماع إلاّ إجماع الصّحابة حيث كان المجمعون وهم العلماء منهم في قلّة وأمّا الآن وبعد انتشار الإسلام وكثرة

---

[1] هو الحارث بن الحارث الأشعري الشّامي صحابيّ تفرّد بالرّواية عنه أبو مالك ، وزعم ابن حبّان أنّه الحارث بن مالك ، وهو وهم لأنّ أبا مالك متقدّم الوفاة مشهور بكنيته وهذا مشهور باسمه وتأخّر حتّى سمع منه أبو سلام ، الإصابة ١ / ٥٦٦ .

[2] الإحسان ١٤ / ١٢٦ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٤ / ١٣٠ ، ٢٠٢ والتّرمذي كتاب الأمثال باب ماجاء في مثل الصّلاة والصّيام والصّدقة .

[3] إعلام الموقّعين١ / ٦٠ .

[4] المسوّدة ص٢٨٣ ، وانظر شرح رأي الشّافعي في كتاب أصول الفقه لمحمّد أبوزهرة ص ١٩٩-٢٠١.

[5] عبدالقادر بن أحمد بن مصطفى الدّومي ثمّ الدّمشقي المعروف بابن بدران فقيه أصولي أديب مشارك في سائر العلوم عاش في دمشق وتوفّي بها سنة ١٣٤٦هـ من مؤلّفاته المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، الأعلام للزّركلي٤/ ٣٧ .

[6] الظّاهر أنّ المرادشمس الدّين محمود بن عبدالرّحمن بن أحمد الأصفهاني ، من أجلّة علماء الشّافعيّة له شرح منهاج البيضاوي في أصول الفقه توفّي سنة ٧٤٩هـ انظر طبقات الشّافعيّة للسّبكي ١٠ /٣٨٣ .

العلماء فلا مطمع للعلم به ، قال : وهو اختيار أحمد مع قرب عهده من الصّحابة وقوّة حفظه وشدة اطلاعه على الأمور النقلية)[1] .

وكلام ابن حبّان أنّ أدلة الأمر باتّباع الجماعة والإجماع خاصة بالصحابة ـ وهو ظاهر كلامه ـ مدلولٌ عليه من كلام النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم ، إذ قال في حديث الافتراق في رواية عند الترمذي والحاكم : (**كلّها في النارإلا واحدة قيل ومن هم يارسول ا لله قال : ماأنا عليه وأصحابي**)[2] وفي سائر الروايات قال: (**هم الجماعة**)، ففي هذا تفسير للحديث بالحديث والرواية الأولى في إسنادها ضعف ، ولها شاهد من حديث أنس كذلك عند الطبراني ولكن في إسناده متكلم فيه وهي وإن لم تكن قويّة من جهة الإسناد إلا أن معناها صحيح ولاشك بدليل أن أحداً ممن رواها لم يستشكلها من جهة المعنى وإنّما من جهة الإسناد .

ثم إنّ ابن حبّان مع كونه يجعل الإجماع الحجة هو إجماع الصّحابة إلا أنّه يرى أن الإجماع والجماعة بعد ذلك هي ماوافق الحق فيقول : " والجماعة بعد الصّحابة هم أقوام اجتمع فيهم الدين والعقل والعلم ولزموا ترك الهوى فيما هم فيه وإن قلّت أعدادهم لا أوباش[3] الناس ورعاعهم وإن كثروا " [4] ، وهو تصديق ما رُوي عن السّلف أنّ الجماعة هي الحق إذ ليس الاعتبار فقط

---

(1) نزهة الخاطر العاطر مع الرّوضة ١ / ٣٣٣ .

(2) حديث الافتراق صحّ من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه ، رواه أبوداود كتاب السّنّة باب شرح السّنّة ح٤٥٩٦ والتّرمذي كتاب الإيمان باب ماجاء في افتراق هذه الأمّة ح٢٦٤٠ وابن ماجة كتاب الفتن باب افتراق الأمم ح٣٩٩٢ وأحمد ٢ / ٣٣٢ وجاء بيان المرادبالفرقة النّاجية بقوله صلّى ا لله عليه وسلّم :(**هي الجماعة**) في حديث معاوية بن أبي سفيان رضي ا لله عنه رواه أبوداود كتاب السّنّة باب شرح السّنّة ح٤٥٩٧ وأحمد ٤ / ١٠٢ وكذلك في حديث عوف بن مالك رضي ا لله عنه رواه ابن أبي عاصم في السّنّة ح٦٣ وابن ماجة كتاب الفتن باب افتراق الأمم ح٣٩٩٣ وصحّحه الألباني ، وجاءت رواية السّواد الأعظم في حديث أبي أمامة الباهلي رضي ا لله عنه إلاّ أنّ إسنادها فيه ضعف وجهالة لكنّه جاء بإسناد آخر يتقوّى به عند الطّبراني في الأوسط ح٧٢٠٢ وفي سند ابن أبي عاصم قطن بن عبدا لله أبومري وهو مجهول الحال ، قال الألباني :(فإن كان الحديث عندهما ـ أي معجمي الطّبراني الكبير والأوسط ـ عن غير القطن هذا فهو حسن) السّنّة ١ / ٣٤ وهو كما قال فإنّه عندهما عن سلم بن زرير عن أبي غالب به ، ويشهد له رواية (**هي الجماعة**) فإنّها بمعناها وهي ثابتة كالشّمس ، وكذلك جاء الحديث برواية (**ما أنا عليه وأصحابي**) رواها الطّبراني في الأوسط ح٤٨٨٦ وقال :(لم يروه عن يحيى إلاّ عبدا لله بن سفيان) والعقيلي في ترجمة عبدا لله بن سفيان وقال : (لايتابع على حديثه) لكنّ معناها صحيح إذ يستحيل أن يخالف عامّة العلماء ماعليه الرّسول صلّى ا لله عليه وسلّم وأصحابه رضي ا لله عنهم ، وا لله أعلم بالصّواب .

(3) الأخلاط والسّفلة من النّاس ، انظر تهذيب اللّغة ١١/ ٤٢٩ .

(4) الإحسان ١٤ / ١٢٧ .

بالكثرة بل موافقة الشرع ، كما روي عن ابن مسعود رضي ا لله عنه قال : (إنّما الجماعة ماوافق طاعة ا لله وإن كنت وحدك)[1] ، وقال الأصبهاني[2] رحمه ا لله : (فالجماعة الّتي أمر رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم وأصحابه بملازمتهم هم الصّحابة والتّابعون والعلماء ، لا الجماعة الفسقة الجهلة الظّلمة المنتهكون لحرمة أصحاب رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم والمشوّهين لأقوالهم الوالجين دورهم وحرمهم ، الّذين يحمي ا لله بهم سقر ويصليهم نار جهنّم)[3] وقد قال ا لله عز وجل: ﴿**وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل ا لله**﴾ : **الأنعام ١١٦** .

هذا فيما بعد عصر الصّحابة رضوان ا لله تعالى عليهم ، أما الصّحابة فإجماعهم حجة على من بعدهم عند ابن حبّان ومن تقدمه من السلف الصالح لأنّهم مُعَدّلون من ا لله تعالى ورسوله صلّى ا لله عليه وسلّم وكفى بمن عدله ا لله ورسوله شرفاً .

وفيما ذكره ابن حبّان تقرير للمنهج السّلفي في الاقتداء بالصحابة وعدم التحوّل عن طريقهم ، واتخاذهم حجة في فهمهم وعلمهم إذ هم أعلم الناس بالكتاب والسّنّة فما أتفقوا عليه كان ديناً عند من بعدهم ، ومااختلفوا فيه لم يسع من بعدهم الخروج عن مجموع أقوالهم وهذا منصوص عليه من الإمام أحمد رحمه ا لله وغيره .

فإذا عُرف ماتقدم وتبين لنا أنّ مصادر التلقي عند ابن حبّان هي الكتاب والسّنّة وما أجمع عليه الصّحابة رضوان ا لله تعالى عليهم فإلى أيّ طائفة ينتمي ابن حبّان منهجياً ؟ وإلى أيّ المدارس ينتسب ؟.

إنّ الإجابة عن هذا السؤال هي بمثابة الختام لما تقدّم ، إذ ابن حبّان كما هو معروف عاش فيما بين نهاية القرن الثالث وبداية الرابع متتلمذاً على أجلّة

---

[1] شرح أصول أهل السّنّةوالجماعة ١ / ١٠٩ .

[2] الحافظ الكبير محدّث عصره أحمد بن عبدا لله بن أحمد بن إسحاق المهراني الأصبهاني صاحب كتاب الإبانة وحلية الأولياء وغيرها ، توفّي سنة٤٣٠هـ ، تذكرة الحفّاظ ٣/ ١٠٩٢ .

[3] الإمامة ص ٣٥٧، هكذا !، وقواعد النّحو تقتضي رفع كلمتيّ (المشوّهون) و (الوالجون) .

العلماء من أهل الحديث والأثر [1] ، وهي السبيل التي سلكها ابن حبّان متخذاً ذلك ديانة ومنهجاً ، فهم عنده المعنيّون في حديث رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم بقوله : (**لاتزال طائفة من أمتي منصورين لايضرهم خذلان من خذلهم حتى تقوم الساعة**) [2] .

فالطائفة المنصورة والعصابة القائمة بالحق حتى قيام الساعة هم أهل الحديث أصحاب السّنّة فهم أولى الناس بالحق وهم أقرب الناس إليه وهم أتبع الناس لرسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم .

قال رحمه ا لله : " ذِكرُ إثبات النّصرة لأصحاب الحديث إلى قيام الساعة"، ثم ساق حديث معاوية بن قرة عن أبيه[3] مرفوعاً : (**لاتزال طائفة من أمتي منصورين لايضرهم خذلان من خذلهم حتى تقوم الساعة**) [4] .

وهذا الذي ذكره من تفسير الطائفة المنصورة بأنّهم أهل الحديث مرويٌّ عن الإمام أحمد رضي ا لله عنه فقد روى ابن حبّان نفسه في المجروحين عن الإمام أحمد أنّه مرّ على نفر من أصحاب الحديث وهم يعرضون كتاباً لهم فقال : (ماأحسب هؤلاء إلا ممّن قال رسول ا لله : (**لاتزال طائفة من أمتي منصورين لايضرّهم خذلان من خذلهم حتى تقوم الساعة**)[5] .

فهو إذن ينتمي إلى طائفة أهل الحديث والأثر المتبعين لمن تقدمهم في العلم والعمل من الصّحابة والتابعين لهم بإحسان ، وتراه يقول عنهم بعد سياق قول الإمام أحمد المتقدم : "ومن أحقّ بهذا التأويل من قوم فارقوا الأهل والأوطان، وقنعوا بالكسر والأطمار في طلب السنن والآثار ، وطلب الحديث

---

(1) أهل الحديث مصطلح يُطلق على وجه الخصوص على المشتغلين بالحديث رواية ودراية ومنهجاً ، وعلى العموم على كلّ من يتبع السّنّة في علمه وعمله ولو لم يكن من المشتغلين بالحديث ، والمراد هنا المعنى الأوّل .

(2) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب ٢٨ عن معاوية بن أبي سفيان رضي ا لله عنه بلفظ مقارب ومسلم كتاب الإمارةباب قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**لاتزال طائفة من أمّتي على الحقّ**) ح١٠٣٧ .

(3) معاوية بن قرّة بن إياس بن هلال المزني أبو إياس البصري من خيار التّابعين وأبوه قرّة صحابيّ جليل قُتل في حرب الأزارقة آيّام معاوية رضي ا لله عنه سنة ٦٤هـ ، الإصابة ٥ / ٤٣٣ .

(4) الإحسان ١ / ٢٦١ والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٣ / ٤٣٦ ، ٥ / ٣٤ والتّرمذي في الفتن باب ماجاء في الشّام ، وابن ماجة في المقدّمة ح٦ .

(5) المجروحين ١ / ٨٩ والحديث تقدّم في الحاشية السّابقة .

والأخبار المتبعون لآثار السلف من الماضين ، والسالكون نهج محجة الصالحين وردّ الكذب عن رسول رب العالمين . ." [1] .

وملخّص ماتقدم : أنّ الإمام ابن حبّان على منهج أهل السّنّة والجماعة في العلم والتلقي والاتباع فهو يتلقى عن الكتاب والسّنّة متبع للسّلف الصالح من الصّحابة ومن بعدهم ممن تبعهم بإحسان وا لله تعالى أعلم .

[1] المجروحين ١ / ٨٩ .

(الفصل الثّالث)

مسائل التّوحيد عند ابن حبّان

..وفيه تمهيد وستة عشر مبحثا :

الأوّل : عقيدته في الخوف والرّجاء .

الثّاني : في الإخلاص .

الثّالث : في صرف العبادة لغير ا لله .

الرّابع : في الحلف بغير ا لله .

الخامس : في التّشريك في المشيئة .

السّادس :في الطّيرة .

السّابع :في العدوى .

الثّامن : في الرّقى والتّمائم .

التّاسع : في اتّخاذ القبور مساجد .

العاشر : في الصّور والتّصوير .

الحادي عشر : في اللّو .

الثّاني عشر : في الهام والغول .

الثّالث عشر : في التّنجيم .

الرّابع عشر : في التّوكّل .

الخامس عشر : في التّبرّك بالصّالحين .

السّادس عشر : في قصد القبور للدعاء .

مسائل التّوحيد

تمهيد:

التّوحيد مصدر وَحَدَ يُوحّد توحيداً ، جعله واحداً أي فرداً،ووحده قال : إنّه واحد أو قال: لاإله إلا الله، والواحد الأحد وصف الباري تعالى لاختصاصه بالأحدية [1].

وفي لسان الشّرع : توحيد الله هو إفراده تعالى بما لايستحقه إلا هو ، وهو اعتقاد تفرّده وتوحّده في صفات الربوبية كالخلق والرزق والإحياء والإماتة، وتفرّده بالألوهية فهو المعبود بحق وماسواه باطل ، إياه نعبد وإياه نستعين لاإله لنا سواه كما لارب لنا غيره .

وكذلك إثبات ماأثبته الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم لله من أسماء الجلال وصفات الكمال ونفي مانفاه الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم عن الله من صفات النقص والعجز، قال الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب[2] في تيسير العَزيز الحميد : (التّوحيد مصدر وَحَدَ يوحّد توحيداً أي جعله واحداً ، وسُمّي دين الإسلام توحيداً لأنّ مبناه على أنّ الله واحد في ملكه وأفعاله لاشريك له ، وواحد في ذاته وصفاته لانظير له ، وواحد في إلهيته وعبادته لاندّ له، وإلى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين الذي جاءوا به من عند الله وهي متلازمة كل نوع منها لاينفك عن الآخر، فمن أتى بنوع منها و لم يأت بالآخر فما ذاك إلا أنّه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب وإن شئت قلت : التّوحيد نوعان : توحيد في المعرفة والإثبات وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات وتوحيد في الطلب والقصد وهو توحيد الإلهية والعبادة)[3] .

---

[1] انظر تهذيب اللّغة ٥ / ١٩٢ ، وحاشية كتاب التّوحيد لابن قاسم ص١١.

[2] هو سليمان بن عبدالله بن محمّد بن عبدالوهّاب حفيد شيخ الإسلام محمّد بن عبدالوهّاب الإمام الشّهيد من أفراد زمانه ومن أئمّة الدّعوة كان حافظاً عالماً ، له تيسير العزيز الحميد ، وحاشية نافعة على المقنع توفّي سنة ١٢٣٣هـ قتلاً بالرّصاص على يد الطّاغية إبراهيم باشا ، علماء نجد خلال ستّة قرون للبسّام ١ / ٢٩٣ .

[3] تيسير العزيز الحميد ٣٢ - ٣٣ .

وقال في شارح نونيّة ابن القيم : (وهذا النّوع من التّوحيد ـ أي توحيد الأنبياء والمرسلين ـ ينقسم إلى قسمين ، **أوّلهما:** توحيد قولي اعتقادي لأنّه متعلق بأقوال القلوب الذي هو إقرارها واعتقادها ، وأقوال اللسان من الثّناء على الله وتمجيده ويُسمّى أيضاً التّوحيد العلمي الخبري وتوحيد الأسماء والصفات لأنّ مداره على إثباتها لله عزّ وجل ، ويدخل فيه توحيد الربوبية .

الثاني : توحيدٌ فعلي ، لأنّه متعلق بأفعال القلوب والجوارح ويسمى أيضاً بالتّوحيد الإرادي الطّلبي لأن المقصود منه إرادة الله بأنواع العبادة والإخلاص له فيها ، ويُسمّى كذلك بتوحيد الألوهية والعبادة لأنّه توحيد الله بأفعال العبيد وأن لا يُتّخذ من دونه شريك ولانديد [١])[٢] ، ونشير هنا إلى أهمّية الجانب التصديقي العلمي في توحيد الألوهية ، إذ لايكفي فيه مجرد توحيد الله بأنواع العبادة بل لابد من اعتقاد أنّه سبحانه المستحق لذلك دون ماسواه .

هذه هي أقسام التّوحيد الذي أرسل الله به الرسل وكلّم به الأنبياء ونزل به جبريل من عند الله تعالى ، فهو يتضمّن إفرادَ الله بكلّ ماهو من خصائصه دون سواه من الآلهة التي اتخذها النّاس ، وهو ماتقدم ذكره عن أهل السّنّة وهو الذي تواطأت عليه كلمة سلفنا الصالح من الصّحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم .

---

(١) النّدّ هو الشّبيه والمثيل ، تهذيب اللّغة ١٤ / ٧٠ .

(٢) شرح نونيّة ابن القيّم لمحمّد خليل هرّاس ص٥٦.

التّوحيد عند ابن حبّان

يظهر بالتّتبع والاستقراء لما ذكره ابن حبّان في صحيحه من التّراجم والتّعاليق والنّصوص ، أنّ أنواع التّوحيد عنده كما هي عند أهل السّنّة والجماعة ، فقد تكلم في توحيد الألوهيّة وتوحيد الربوبيّة والأسماء والصّفات ما شاء الله له أن يتكلم ، وأمّا خلاف هذا ممّا ذُكرعن أهل البدع من الصّوفيّة والجهميّة والقرامطة الباطنية[1] فلم يرد له ذِكرٌ في كلامه ، فهو موافقٌ لأهل السّنّة في الجملة من هذه الحيثية، أقول هذا لأن المعروف عن أهل السّنّة التأكيد على أنواع التّوحيد ولبِّ ذلك توحيد الألوهية الذي هو أوّل دعوة الرسل ، وفي تحقيقه كان جهادهم ونضالهم فما من أحد منهم إلا قال لقومه : ﴿**اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾ .

وأمّا أهل الأهواء المنحرفون عن منهج النبوّة فهم لايعقدون على هذا التّوحيد عقدةً ولايحلّون أخرى ، بل همّهم باللّيل والنّهار إثبات وجود الصانع ونفي الصفات التي يتوهمونها نقائص مفصّلة، ويعتبرون ذلك ذروة سنام التّوحيد والغاية التي ينتهي إليها الموحّدون، ويدّعون بناءً على ذلك أنّ أخصّ أوصاف الإله: القدرة على الاختراع، ويفسّرون شهادة التّوحيد بقولهم : لاخالق أو لاربّ إلا الله ، غاضين الطّرف عن تفسير السّلف لكلمة التّوحيد وفهمهم وتطبيقهم لها ، متناسين أنّ هذه الكلمة تتضمّن توحيد الإلهية مستلزمةً لأنواع التّوحيد الأخرى .

وقد ذكر ابن حبّان عدداً من أبواب توحيد الإلهية التي جاءت في النصوص عن سيّد البشر صلّى الله عليه وسلّم وعلّق عليها وترجم للأحاديث المتعلّقة بها بما أدّى إليه نظره واجتهاده ، وسيأتي ذكرها من غير تقيّد بترتيب ورودها في الكتاب ، والله المستعان وعليه التّكلان .

---

[1] تقدّم تعريف القرامطة ص١٤ ، والجهميّة أتباع جهم بن صفوان أبو محرز السّمرقندي ، رأس الجهميّة وأسّ الضّلالة ، كان يقول : الإيمان المعرفة بالقلب ولو تلفّظ بالكفر ، وقال بخلق القرآن وأنكر الأسماء والصّفات كلّها وقال بالحلول وأشياء أخرى أدّت إلى تكفير بعض الأئمّة للجهميّة ، السّير ٦/ ٢٤و انظر السّنّة لعبدا لله بن أحمد بن حنبل ١ / ١٠٦.

المبحث الأوّل : معتقده في الخوف والرّجاء

قال رحمه الله في ترجمة : " ذِكرُ البيان بأن على العالِم أن لايُقنّط عباد الله من رحمة الله "، وساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : مرّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على رهط من أصحابه وهم يضحكون فقال : (**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، فأتاه جبريل فقال : إنّ الله يقول لك : لم تُقنّط عبادي ، قال : فرجع إليهم فقال : سدِّدوا وقارِبوا وأبشروا**)[(١)] .

وقال أيضاً في ترجمة : " ذِكرُ مايجب على المرءِ من ترك الاتّكال على قضاء الله دون التشمير فيما يقربه إليه "، وساق حديث علي بن أبي طالب مرفوعاً : (**اعملوا فكلٌّ مُيسّر لما خلق له**) [(٢)] ، وكذلك ترجم بقوله : " ذِكرُ الإخبار عما يجب على المرء من ترك الاتّكال على القضاء النّافذ دون إتيان المأمورات والانزجار عن المحظورات " ، وساق تحتها حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما مرفوعاً : (**كل عامل ميسر لعمله**)[(٣)] .

وكذلك ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبه ما طمع في الجنة أحد** . .) ، وترجم له بقوله : "ذِكرُ الإخبار عمّا يجب على المرء المسلم من ترك القنوط من رحمة الله جلّ وعلا مع ترك الاتّكال على سعة رحمة الله وإن كثرت أعماله " [(٤)] .

---

(١) الإحسان ١ / ٣٢٠ ، والحديث أخرجه بهذا التّمام البخاري في الأدب المفرد باب الضّحك ص٤٠(ح١٩١ / ٢٥٤ : صحيح الأدب المفرد للألباني) ، ورواه البخاري في صحيحه دون ذِكر القصّة ، في كتاب الرّقاق باب قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم (**لو تعلمون ما أعلم**) عن أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما ، قال الحافظ : قد جاء لهذا الحديث سبب أخرجه سعيد في تفسيره بسند واه والطّبراني ثمّ ساق القصّة الفتح ١١ /٣١٩ ، وقد بحثت عنه في معاجم الطّبراني فلم أجده .

(٢) الإحسان ١ / ٣٢٠ ، والحديث أخرجه البخاري في التّفسير باب قوله تعالى: ﴿ **فسنيسّره لليسرى** ﴾ ومسلم كتاب القدر باب كيفيّة خلق الآدمي ح٢٦٤٧ عن عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه .

(٣) الإحسان ٢ / ٤٧ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في القدر باب كيفيّة خلق الآدمي ح٢٦٤٨ .

(٤) الإحسان ٢ / ٥٦ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الرّقاق باب الرّجاء مع الخوف ومسلم في التّوبة باب سعة رحمة الله ح٢٧٥٥ .

وترجمة أخرى يقول فيها : " ذِكرُ الإخبار عما يجب على المرء من لزوم الرجاء وترك القنوط مع لزوم القنوط وترك الرجاء " ، وساق بعدها حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : (**إنّ الرّجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنّه لمن أهل النّار**) .[1]

وقال رحمه الله : " ذِكرُ الأمر بالتّشديد في الأمور وترك الاتكال على الطاعات " ، ثم ساق حديث أبي هريرة مرفوعاً : (**مامنكم أحد ينجيه عمله فقال له رجل : ولا أنت يارسول الله ؟ ، قال: ولاأنا إلاّ أن يتغمدني الله برحمته**)[2] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ البيان بأن الواجب على المسلم أن يجعل له محجّتين يركبهما إحداهما الرّجاء والأخرى الخوف " ، وقال في ترجمة أخرى : "ذكر الإخبار عن ترك الاتّكال على الطّاعات وإن كان المرء مجتهداً فيها " ، وتراجم أخرى تدور حول نفس المعنى [3] .

تعليق:

هذه التّراجم التي ترجمها ابن حبّان رحمه الله ووضع فيها خلاصة فقهه وفهمه في أحاديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تدل دلالة واضحة أنّه موافقٌ لما كان عليه أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والتابعون لهم بإحسان في المنهج الذي يجب على المسلم انتهاجه في باب الخوف والرجاء وهو التوسّط بينهما بحيث لايطغى جانبٌ على آخر، خوف بلا قنوط ورجاء بلا تواكل وبلا أمن من مكر الله .

مع مراعاة أنّ هذا التّوازن عظيم ، وهو يسير على من يسّره الله عليه ، قال الله تعالى :﴿**والذين يُؤتون ماآتواْ وقلوبهم وَجِلةٌ أنّهم إلى ربّهم**

---

[1] الإحسان ٢ / ٥٧ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٦ / ١٠٧ ، ١٠٨ وله شواهد في الصّحيحين وغيرهما ، وترجمة المؤلّف يريد بذلك الموازنة بين الخوف والرّجاء ولكنّ تعبيره فيه اضطراب ، إذ استعمل لفظاً مذموم شرعاً بكلّ حال و لم يأمر الشّرع بالقنوط قط ولو سمّاه خوفاً لكان أولى وأفضل .

[2] الإحسان ٢ / ٦٠ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الرّقاق باب القصد والمداومة على العمل ، ومسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب لن يدخل أحد الجنّة بعمله ح٢٨١٦ .

[3] الإحسان ٢ / ٤٣٢ - ٤٤١ .

راجعون ﴾ : المؤمنون ٦٠ ، وقد فسّره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لعائشة رضي الله عنها لما سألته عنه فقال : (**لا يا ابنة أبي بكر ولكنّه الرجل يصوم ويصلي ويتصدّق ويخاف أن لا يقبل منه**)[1] ، كما أشار الله تعالى إلى هذا التّوازن كثيراً في القرآن فقال عزّ وجلّ : ﴿ **إن ربّك سريع العقاب وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾ : الأنعام ١٦٥** ، وقال : ﴿ **اِعلموا أنّ الله شديد العقاب وأنّ الله غفورٌ رحيم ﴾ : المائدة ٩٨**، وقال : ﴿ **نبّىء عبادي أنّي أنا الغفور الرحيم وأنّ عذابي هو العذاب الأليم ﴾ : الحجر ٤٩ ، ٥٠** .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : دخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على شابٍّ وهو في الموت فقال : (**كيف تجدك ؟ قال : يارسول الله والله إنّي أرجو الله وأخاف ذنوبي ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمّنه مما يخاف**)[2] ، وقال عليه الصّلاة والسلام : (**لا يموتنّ أحدُكم إلاّ وهو يحسن الظنّ بالله**)[3] .

وقد يَحسُن في بعض المواطن تغليبُ أحد الجانبين ، كما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله : (إذا رأيتم الرجل بالموت فبشّروه ليلقى ربه وهو حسن الظن به ، وإذا كان حياً فخوفوه بربه عز وجل)[4] .

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله : (ينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه وخوفه واحداً)[5] ، وقال الكرماني : (إنّ المكلّف ينبغي له أن يكون بين الخوف والرّجاء ، حتى لا يكون مفْرطاً في الرّجاء ولا في الخوف ، بل يكون وسطاً بينهما كما قال تعالى: ﴿**يرجون رحمته ويخافون عذابه**﴾)[6] .

---

[1] أخرجه التّرمذي في التّفسير باب ومن سورة المؤمنون ح٣١٧٥ وابن ماجة كتاب الزّهد باب التّوقّي على العمل ح٤١٩٨ ، وانظر تفسير الطّبري ٩ / ٢٢٥ .

[2] أخرجه التّرمذي كتاب الجنائز باب ١١ ح٩٨٣ ،، وابن ماجة في الزّهد باب ذِكر الموت والاستعداد له عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما .

[3] أخرجه مسلم في صفة الجنّة ونعيمها باب الأمر بحسن الظّنّ بالله تعالى عند الموت ح٢٨٧٧ .

[4] شرح السّنّة للبغوي ٥ / ٢٧٥ .

[5] مسائل ابن هانيء ٢ / ١٧٨ .

[6] فتح الباري ١١ / ٣٠٢ بتصرّف .

والخوف هو: هرب القلب واضطرابه من حلول المكروه عند استشعاره[١] ، والمراد بالخوف هنا هو الخوف المحمود وهو ماحال بين صاحبه وبين محارم الله فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط[٢] .

وقد ذكر الشّيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب رحمه الله ثلاثة اقسام للخوف :-

فالأوّل : خوف السّر وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما شاء من مرض ونحوه ، فهذا لايجوز تعلّقه بغير الله أصلاً ، لأنّ هذا من لوازم الإلهية فمن اتّخذ مع الله نداً يخافه هذا الخوف فهو مشرك .

والثّاني : أن يترك الإنسان مايجب عليه من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لالعذر إلا خوف الناس فهذا محرم والله أحقّ أن يُخشى .

والثّالث: خوف وعيد الله الذي توعّد به العصاة وهو الذي قال الله فيه:﴿**ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد** ﴾، وهذا الخوف من أعلى مراتب الإيمان ، ثمّ قال رحمه الله : (بقي قسمٌ رابع : وهو الخوف الطّبيعي كالخوف من عدوٍّ وسبع وهدم وغرق ، فهذا الّذي لايُذمّ ، وهو الّذي ذكره لله عن موسى عليه الصّلاة والسّلام في قوله : ﴿ **فخرج منها خائفاً يترقّب** ﴾ : **القصص ٢١**)[٣] .

وأمّا الرّجاء فهو الطّمع في رحمة الله تعالى مع الاجتهاد في العمل ، كما قال تعالى : ﴿**إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله** ﴾ : **البقرة ٢١٨** ، وهو خلاف التمنّي ، إذ التمنّي : الطمعُ في رحمة الله مع الكسل والتّواني وهو مذموم .

ولذلك فقد أجمع العلماء أن الرّجاء لايصحّ إلا مع العمل [٤] .

(والرّجاء ثلاثة أنواع فنوعان محمودان ونوعٌ مذموم : فأمّا المحمودان : فرجل عمل بطاعة الله يرجو ثواب الله ، ورجل أذنب ذنوباً فتاب منها

[١] انظر تعريفات العلماء للخوف في مدارج السّالكين ١ / ٥٤٩ .

[٢] مدارج السّالكين ١ / ٥٥١ .

[٣] تيسير العزيز الحميد ٤٨٤ - ٤٨٦ باختصار .

[٤] مدارج السّالكين ٢ / ٣٧ .

واستغفر فهو يرجو مغفرة الله ، وأمّا المذموم ، فرجل متمادٍ في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب) [1] .

قال ابن القيم : (القلب في سيره إلى الله عزّ وجلّ بمنزلة الطّائر فالمحبة رأسه ، والخوف والرجاء جناحاه ، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيّد الطيران) [2] .

إذن فقد كان ابن حبّان على منهج أهل السّنّة والجماعة في هذا الباب وبيّن رحمه الله أنّ على المؤمن التوسّط في هذا الباب الخطير وسلوك درب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيه ، طمعاً في رحمة الله مع لزوم الخوف من مكرِه ومن سوء الخاتمة ، ولايلتفتنّ إلى كثرة أعماله فإنما النجاة برحمة الله التي وسعت كل شيء ، وهو سبحانه أهل التّقوى والفضل والمغفرة .

---

(1) مدارج السّالكين ٢ / ٣٧ .
(2) مدارج السّالكين ١ / ٥٥٤ .

المبحث الثّاني : معتقده في الإخـلاص

تمهيـد:

(التّوحيد ألطف شيءٍ وأنزهه وأصفاه ، فأدنى شيءٍ يخدشه ويدنّسه ويؤثّر فيه ، فهو كأبيض ثوبٍ يكون ، يؤثّر فيه أدنى أثر كالمرآة الصافية جداً، أدنى شيء يؤثر فيها، ولهذا تشوّشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية ، فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضدّه وإلاّ استحكم وصار طبعاً يتعسّر عليه قلعه)[1]

و لهذا فإنّ العلماء يفردون الكلام عن الإخلاص ويضفون عليه مزيداً من الاهتمام مع أنّه من جملة التّوحيد، إلا أنّ الإخلاص يراد منه تصفية القلوب والإرادات تصفيةً حقيقيّة كاملة عن كلّ مامن شأنه أن يخدش أو يشوّش صفاء التوجّه إلى الله تعالى ، حتى يصبح توحيد المخلصين كماءٍ كثيرٍ تنغمر فيه تلك الآثار فلا تؤثّر فيه ولا في طهوريته .

ومعاني الإخلاص لغةً تدور حول التنقية والتّميز والنّجاة [2] ، ولهذا كانت تعريفات السّلف للإخلاص تدور حول نفس المعنى ، فمن قائل : (هو إفراد الحق سبحانه في الطاعة) ، ومن قائل : (هو تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين) ، ومن قائل : (هو استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن) ، وقيل : (هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق) ، والقصد واحد كما قال ابن القيم رحمه الله .[3]

والإخلاص من الأعمال القلبية التي هي من لوازم التّوحيد بل هي من شروط تحقيق الشّهادتين ، وهو مطلوبٌ في جميع الأعمال الصغيرة والكبيرة لقوله عليه الصّلاة والسلام : (**إنّما الأعمال بالنيّات ، وإنّما لكلّ امرىءٍ مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ،**

---

[1] الفوائد لابن القيّم ص٣٣٩ .

[2] انظر تهذيب اللّغة ٧ / ١٣٧ .

[3] انظر مدارج السّالكين ٢ / ٩٥ .

ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها،فهجرته إلى ماهاجر إليه)[1].

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله[2] في قوله تعالى:{**ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً** } : **الملك ٢** : قال : (أخلصه وأصوبه، قال: والخالص إذا كان لله عز وجل والصّواب إذا كان على السنّة)[3] .

وضدّ الإخلاص الرياء : أي إرادة غير الله معه بالعمل : وهو الشّرك الأصغر المقصود في الحديث المشهور : (**إنّ أخوف ماأخاف عليكم الشّرك الأصغر ، قالوا : ومالشّرك الأصغر يارسول الله؟ قال : الرياء . .**)[4] .

وكونه شركاً أصغر ، أي لايخرج صاحبه من الملة ، وقد يكون شركاً أكبر بحسب قصد صاحبه مثل رياء المنافقين ، قال الله عزّ وجلّ :{ **إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولايذكرون الله إلاّ قليلاً** } : **النّساء ١٤٢**.

(ولما كانت النّفوس مجبولة على محبّة الرّياسة والمنزلة في قلوب الخلق إلاّ من سلّم الله، كان هذا أخوف مايخاف على الصالحين، لقوّة الداعي إلى ذلك، والمعصوم من عصمه الله)[5] .

قال ابن رجب رحمه الله : (والرياء المحض : وهو الذي لايراد به سوى مرآت المخلوقين للغرض الدنيوي لايكاد يصدر عن مسلم في فرض الصلاة والصوم وقد يصدر في الزكاة أو الحج أو مايتعدى نفعه من العمل ، فإن الإخلاص فيها عزيز ، وهذا العمل لايشك مسلم في أنه حابط، وقد يكون العمل لله ويشاركه الرياء فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه .

---

[1] أخرجه البخاري كتاب الوحي باب كيف بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومسلم كتاب الإمارةباب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (**إنما الأعمال بالنيات**) عن عمر رضي الله عنه .

[2] هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر الإمام القدوة الثبت شيخ الإسلام أبو علي التميمي الخراساني توفي سنة ١٨٧ هـ السير ٨ / ٤٢١ .

[3] جامع العلوم والحكم ١ / ٧٢ .

[4] أخرجه أحمد ٥ / ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، والبغوي في شرح السنة ح٤١٣٥ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح٩٥٣ .

[5] تيسير العزيز الحميد ص١١٨ .

وإن كان أصله لله ثم طرأ عليه الرياء ، فإن كان خاطراً ودفعه فلايضره بغير خلاف ، وإن استرسل معه فقد اختلفوا في بطلان العمل من صحته ورجّح الطبري[1] والإمام أحمد أنّ عمله لايبطل بذلك بل يجازى على أصل نيّته.

وإن خالط العمل نيّة غير الرّياء كأخذ الغنيمة في الجهاد : فإنّ العمل لايبطل ولكن الأجر ينقص ، لقوله عليه الصّلاة والسلام: (**إنّ الغزاة إذا غنموا غنيمة تعجّلوا ثلثي أجرهم فإن لم يغنموا شيئاً تمّ لهم أجرهم**)[2] وهذا الّذي ذكره ابن رجب في استشهاده بحديث ابن عمرو كأنّه يرى أنّ نقص الأجر بالغنيمة إنّما هو إذا خالطت نيّتها نيّة الجهاد مع أنّ الحديث لم يقيّد بذلك بل فيه مايبطله وهو قوله : تمّ لهم أجرهم ، فإنّ النّيّة إذا خالطها ما يشوبها فقد نقص أجر صاحبها سواء حصل مقصوده أم لا، والصّحيح في شرح الحديث أنّ المراد أنّ الغنيمة جزءٌ من الأجر الّذي يؤجر به المجاهد الّذي أخلص لله جهاده ، فثوابه من الله إمّا أن يتمّ أجراً في الآخرة وإمّا أن يعجّل الله لهم ثلثيه في الدّنيا وهو الغنيمة ، وهذا هو الّذي رجّحه الإمام النّووي رحمه الله[3] .

الإخلاص عند ابن حبّان

وقد ذكر ابن حبّان الإخلاص والرّياء داعياً الى الأوّل محذّراً من الآخر ، فقال في ترجمة : " ذِكرُ الإخبار عمّا يجب على المرء من إصلاح النيّة وإخلاص العمل في كلّ مايتقرّب به إلى الباري جلّ وعلا ولاسيّما في نهاياتها "، وساق

---

(1) الإمام المحدّث المفسّر المؤرّخ أبو جعفر محمّد بن جرير بن يزيد بن كثير الطّبري صاحب التّفسير والتّاريخ وتهذيب الآثار وغيرها قال عنه الذّهبي : كان من أفراد الدّهر علماً وذكاء وكثرة تصانيف ، قلّ أن ترى العيون مثله ، توفّي سنة ٣١٠ هـ انظر السّير ١٤/ ٢٦٧ ، وتاريخ بغداد ٢ / ١٦٢ .

(2) جامع العلوم والحكم باختصار والحديث أخرجه مسلم كتاب الإمارةباب بيان قدر من غزا فغنم أو لم يغنم ح١٩٠٦ عن عبدا لله بن عمرو رضي ا لله عنها .

(3) انظر شرح مسلم ج ١٣ ص٥٢ .

تحتها حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما مرفوعاً : (**إنّما العمل كالوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله . .**)[1] .

وقال في ترجمة أخرى : "ذِكرُ الإخبار بأنّ من لم يخلص عمله لمعبوده في الدّنيا لم يُثب عليه في العقبى" ، وساق تحته حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن ربه تبارك وتعالى : (**أنا خير الشّركاء، من عمل عملاً فأشرك فيه غيري فأنا بريء منه**)[2] .

و قال في ترجمة أخرى : " ذِكرُ نفي وجود الثّواب على الأعمال في العُقبى لمن أشرك بالله في عمله " ، ثمّ ساق تحتها حديث ابن أبي فضالة مرفوعاً : (**إنّ الله أغنى الشّركاء عن الشّرك**)[3] .

ثم بيّن المراد من الشّرك في الحديث السّابق فقال : " ذِكرُ وصف إشراك المرء بالله جلّ وعلا في عمله " ، وساق حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه مرفوعاً : (**بشّر هذه الأمّة بالنّصر والتمكين ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدّنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب**)[4] .

وقال في ترجمة : "ذكر إثبات نفي الثّواب في العُقبى عن من راءى وسمّع في أعماله في الدنيا " ، وساق حديث جندب مرفوعاً : (**من سمّع يسمّع الله به، ومن راءى يرائي الله به**)[5] .

---

[1] الإحسان ٢ / ١١٨ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٤ / ٩٤ ، وابن ماجة كتاب الزّهد باب التّوقّي على العمل ح٤١٩٩ ، والطّبراني في الكبير ١٩ / ٨٦٦ .

[2] الإحسان ٢ / ١٢٠ ، والحديث أخرجه أحمد ٢ / ٣٠١ ، ٤٣٥ ، ومسلم في الزّهد باب من أشرك في عمله غير الله ح٢٩٨٥ بلفظ (**أنا أغنى الشّركاء**) وفي آخره (**تركته وشركه**) .

[3] الإحسان ٢ / ١٣٠ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٣ / ٤٦٦ ، ٤ / ٢١٥ ، والتّرمذي في التّفسير باب في سورة الكهف ح٣١٤٥ ، وابن ماجة في الزّهد باب الرّياء والسّمعة ح٤٢٠٣ ، وابن أبي فضالة هو أبو سعد : وقيل سعيد بن فضالة وقيل ابن أبي فضالة ذكره ابن سعد في طبقة أهل الخندق ، انظر الإصابة ٧ / ١٧٢ .

[4] الإحسان ٢ / ١٣٢ ، والحديث أخرجه أحمد ٥ / ١٣٤ والبغوي ح٤١٤٤ ، ٤١٤٥ وصحّحه الحاكم ٤ / ٣١١ - ٣١٨ .

[5] الإحسان ٢ / ١٣٣ ، والحديث أخرجه البخاري في الرّقاق باب الرّياء والسّمعة ومسلم في الزّهد باب من أشرك في عمله غير الله ح٢٩٨٧ ، وصحابيّ الحديث هو جندب بن عبدالله بن سفيان البجلي ثمّ العَلَقي أبو عبدالله يقال له : جندب الخير وجندب الفاروق ، توفّي بعد سنة ٦٠ هـ ، الإصابة ١ / ٥٠٩.

ثم قال أخيراً : " ذِكرُ البيان بأنّ من راءى بعمله يكون في القيامة من أوّل من يدخل النّار نعوذ با لله منها " ، وساق حديث الثّلاثة الّذين هم أوّل من تُسعّر بهم النّار يوم القيامة وهم قارىء ومجاهد ومُنْفِق [1] .

تعليق :

وهذه التّراجم التي ساقها ابن حبّان وماستدلّ به من النّصوص ، موضّحة ومبيّنة لما أراد ابن حبّان إيصاله إلى المتعلّم من وجوب إرادة الإنسان بعمله وجهَ ا لله ، وأنّ الإخلاص شرطٌ لصحّة العمل ، فإذا فُقد لم يترتب على العمل أثره من الأجر عند ا لله تعالى .

وكذلك فإنّه جعل الرياء من جملة الشّرك، بل وكل نيّة خلاف وجه ا لله تعالى فهي عنده من جملة الشّرك .

قال سهل بن عبدا لله التستري [2] : (ليس على النّفس شيءٌ أشقّ من الإخلاص لأنّه ليس لها فيه نصيب) [3] .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه ا لله : (وكلّما حقّق العبد الإخلاص في قول : لاإله إلاّ ا لله ، خرج من قلبه تألّه من يهواه وتُصرف عنه الذنوب والمعاصي ، كما قال تعالى :﴿**كذلك لنصرف عنه السّوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلَصين**﴾: **يوسف ٢٤** ، وقد ثبت في الصحيح عن النّبي صلّى ا لله عليه وسلّم أنّه قال : (**من شهد أن لاإله إلا ا لله مخلصاً من قلبه حرّمه ا لله على النّار**) [4] ، وذلك لأنّ الإخلاص ينفي أسباب دخول النّار فمن دخلها من قائلي : لاإله إلاّ ا لله لم يحقّق إخلاصها المحرِّم له على النّار بل كان في قلبه نوع من الشّرك الذي سبّب دخوله النار، والشّرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل ، ولهذا كان العبد مأموراً بقول : إياك نعبد وإياك

[1] الإحسان ٢ / ١٣٥ ، وحديث أبي هريرة المشهور أخرجه مسلم في كتاب الإمارةباب من قاتل للرّياء والسّمعة استحقّ النّار ح١٩٠٥ .

[2] سهل بن عبدا لله بن يونس التّستري أبو محمّد الصّوفي الزّاهد شيخ العارفين له كلمات نافعة ومواعظ حسنة توفّي سنة ٢٨٣ ، السّير ١٣ / ٣٣٠ .

[3] حامع العلوم والحكم ١ / ٨٤ .

[4] أخرجه مسلم في الإيمان باب الدّليل على أنّ من مات على التّوحيد دخل الجنّة قطعاً .

نستعين في كل صلاة، والشّيطان يأمر بالشّرك والنفس تلتفت إليه إما خوفاً وإما رجاءً فلايزال العبد مفتقراً إلى تخليص توحيده وتنقيته من شوائب الشّرك) [١] .

واهتمام ابن حبّان بالإخلاص بل وسائر الأعمال القلبية اهتمام ناتج عن سلفيته في باب الإيمان إذ أن أهل السّنّة يعدّون الأعمال القلبية من الإيمان بل ومن أصل الإيمان ، وأمّا المرجئة فليس للأعمال القلبية عندهم أدنى حظ من الاعتبار ، وهذا ماذكره ابن تيميّة في كتاب الإيمان حيث قال : (فإنّ الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب ، ولابدّ فيه من شيئين : تصديق القلب وإقراره ومعرفته ويقال لهذا : قول القلب ، قال الجنيد محمد[٢] : التّوحيد قول القلب والتوكّل عمل القلب ، فلابدّ فيه من عمل القلب مثل : حبّ الله ورسوله ، وخشية الله ، وحبّ ما يحبّه الله ورسوله ، وبغض ما يبغضه الله ورسوله ، وإخلاص العمل لله وحده وتوكّل القلب على الله وحده ، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من جملة الإيمان)[٣]

---

[١] الفتاوى ١٠ / ٢٦٠ - ٢٦١ .

[٢] هكذا في المطبوع من الفتاوى والظّاهر أنّه الجنيد بن محمّد بن الجنيد النّهاوندي ثمّ البغدادي القواريري شيخ الصّوفيّة توفّي سنة ٢٩٨هـ ، السّير ١٤ / ٦٦ .

[٣] الفتاوى ٧ / ١٨٦ .

المبحث الثّالث : عقيدته في صرف العبادة لغير الله

من ثوابت اعتقاد أهل الإسلام أنّه لا يجوز صرفُ شيءٍ من العبادات القوليّة والعمليّة والقلبية لغير الله ، قال تعالى : **{ ولقد بعثنا في كلّ أمّةٍ رسولاً أن اعبدو الله واجتنبوا الطّاغوت } : النّحل ٣٦** ، وقال: **{ أن لاتعبدوا إلاّ الله} : الأحقاف ٢١** ، وقال :**{ إيّاك نعبد و إيّاك نستعين } : الفاتحة ٤** ، وقال :**{ إنّه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة ومأواه النّار }: المائدة٧٢** ، وقال : **{ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء } : النساء ٤٨** ، وقال عليه الصلاة والسلام : (**لا يلقى الله عبدٌ مشرك إلا أدخله النّار**) [١] ، وقد رواه ابن حبان رحمه الله وترجم له بقوله: " ذكر استحقاق دخول النار لا محالة من جعل لله نداً " [٢] .

وهذا الذي ذكره ابن حبّان هو ملّة الإسلام ودين الأنبياء والرسل من لدن نوحٍ إلى محمدٍ صلّى الله عليهم وسلّم ، فإنّ التّوحيد هو أعظم معروفٍ جاءت الأديان بالأمر به ، والشرك بالله هو أعظم منكرٍ جاءت بالنهي عنه وأعظم ذنبٍ عُصي الله به ، ولذلك كتب أنه لايغفره لصاحبه إلا أن يتوب لقوله تعالى : **{ قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً }** وهذا في التائبين ، وأما مع عدم التوبة فكل ذنب داخل في المشيئة إلا الشرك عياذاً بالله .

وكذلك استدل ابن حبان بقوله صلى الله عليه وسلم : (**ليأخذنّ رجل بيد أبيه يوم القيامة يريد أن يدخله الجنة فينادى : إن الجنة لايدخلها مشرك إنّ الله قد حرّم الجنة على كلّ مشركٍ ، فيقول : أي ربِّ أي ربِّ أبي قال:**

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لاإله إلا الله .

(٢) الاحسان ١/٤٨٥ .

فيتحوّل في صورة قبيحة وريح منتنـة فيتركـه) [١] ، استدلّ بهذا الحديث لقوله : " ذِكرُ الخبرالدّال على أنّ الاسلام ضد الشّرك "[٢] .

فالإسلام كلّه توحيد، أوّلـه توحيد وآخره توحيد وأوسطه توحيد وضدّ ذلك كله شرك إمّا أصغر وإمّا أكبر ، وصرف شيءٍ من العبادة لغير ا الله شركٌ ـ بحسبه ـ ومن جعـل لله نـداً في ربوبيته أو ألوهيته فقد أتـى باباً من الشّرك يستحق به أن يكون من أهل النّار لامحالة إلا أن يتوب .

والنّد هـو الشّبيه والمثيـل قـال تعـالى: ﴿**فـلا تجعلـوا لله أنـداداً وأنتـم تعلمون**﴾ : **البقرة ٢٢** ، وهذا الذي تقدّم هـو معنـى كلمـة التّوحيد وهو تفسيرها والمراد منها : أي أنّه إفراد ا الله بالعبادة مع ترك الشّرك والبراءة مما سوى ا الله تعالى من كل حجر أو شجر أو بشر ، وا الله تعالى أعلم .

---

[١] أخرجه ابن حبّان من حديث أبي سعيد الخدري رضي ا الله عنه بسند صحيح والحديث أخرجه البخاري كتاب الأنبياء باب قوله تعالى : ﴿ **واتّخذ ا الله إبراهيم خليلاً** ﴾ من رواية أبي هريرة رضي ا الله عنه مصرّحاً فيه بأنّ الرّجل المذكور هو إبراهيم عليه السّلام .

[٢] الاحسان ٤٨٦/١ .

المبحث الرّابع : عقيدته في الحلف بغير الله تعالى

قال ابن الأثير رحمه الله : (الحلف : هـو اليمـين حَلَفَ يحلِفُ حلْفاً ، وأصلها العقد بالعزم والنّيّة) .[1]

والحلف أو اليمين أو القسم من العبـادات الـتي يتقـرّب المسـلم إلى الله تعالى بإفراده بها، والمراد من اليمين أو القسم توكيـد المقسَم عليـه بذكـر الله تعالى كما عند المسلمين أو بذكر مُعظّم عند المقسِم .

ولايجوز في دين الله أن يحلف العبـد بغـير الله تعـالى ، لقولـه صلّـى الله عليه وسلّم : (**من كان حالفاً فلا يحلف إلا با لله**)[2] ، والآثار كثيرة بمعناه ، لأنّ في الحلف والقسم من معاني التّعظيم مالايستحقّه إلا الله تعالى، ونصوص الكتاب و السّنّة دالّة على هذا الحكـم ، وهـو كراهـة الحلـف بغـير الله تعـالى كراهة تحريم .

وقد أكّد ابن حبّان هذا المعنى أيّما تأكيد فقال : " ذِكـرُ الزّجـر عـن أن يحلف المرء بشيءٍ سوى الله جـلّ وعـلا " ، وسـاق تحته قولـه عليـه الصّلاة والسلام : (**من حلَف بغير الله فقد أشرك**) [3] .

وقال أيضاً : "ذكر البيان بأنّ المرء منهيٌّ عن أن يحلـف بشـيءٍ غـير الله تعالى" ، وذكر حديث ابن عمر مرفوعاً : (**إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف با لله أو ليسكت**)[4] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار عمّا يجب على المرء من مجانبة الحلف بغير

---

[1] النّهاية ١ / ٤٢٥ .

[2] أخرجه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب أيّام الجاهليّة ومسلم كتاب الأيمان باب النّهي عن الحلف بغير الله تعالى ح١٦٤٦

[3] الإحسان ١٠ / ١٩٩ والحديث أخرجه أيضـاً أحمد ٢/ ٨٦ ، ١٢٥ والتّرمذي في النّـذور والأيمان بـاب ماجـاء في كراهيـة الحلف بغير الله ح١٥٣٥ وأبوداود في الأيمان والنّـذور بـاب في كراهيـة الحلـف بالآبـاء ح٣٢٥١ عـن ابـن عمـر رضـي الله عنهما.

[4] الإحسان ١٠ / ٢٠١ والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الشّهادات باب كيف يُستحلف ومسلم في الأيمـان بـاب النّهـي عـن الحلف بغير الله تعالى .

ا لله جلّ وعلا " [1] ، وساق تحته الحديث السابق .

وقال : " ذِكرُ الزّجر عن أن يحلف المرء بأبيه أو بشيءٍ غير ا لله جل وعلا" ، وساق حديث ابن عمر المتقدم[2] .

وقال أيضاً : "ذكر الزّجر عن حلف المرء بالأمانة إذا أراد القسم " ، وأورد قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**من حلف بالأمانة فليس منا**)[3] .

وقال : " ذِكرُ الأمر بالشّهادة مع التّفل عن يساره ثلاثاً لمن حلف باللاّت والعزّى " ، وقال أيضاً : " ذِكرُ الأمر بالاستعاذة با لله جلّ وعلا من الشّيطان لمن حلف بغير ا لله تعالى " ، وساق تحت الترجمتين حديث سعد بن أبي وقّاص أنّه قال للنبي صلّى ا لله عليه وسلّم : (إنّ العهد كان حديثاً وإنّي حلفت باللاّت والعزّى) فقال له الرسول صلّى ا لله عليه وسلّم : (**قل : لاإله إلاّ ا لله وحده ، ثلاثاً وانفث عن شمالك ثلاثاً ، وتعوّذ با لله من الشّيطان ولاتعد**)[4] .

تعليق:

وفي ماذكره ابن حبّان تلخيص لمنهج أهل السّنّة وتأكيد له بتحريم صرف شيء من العبادات لغير ا لله تعالى ومن ضمنها الحلف واليمين فإفراد ا لله تعالى به هو الواجب وهو من توحيد ا لله تعالى .

فعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾ قال : (هو أن تقول : وا لله وحياتك يافلان)[5] .

وكذلك ورد عن كعب قوله : (إنكم تشركون في قول الرجل : كلاّ وأبيك، كلاّ والكعبة كلاّ وحياتك وأشباه هذا، احلف با لله صادقاً أو كاذباً

---

[1] الإحسان ١٠ / ٢١٠ .

[2] الإحسان ١٠ / ٢٠٤ .

[3] الإحسان ١٠ / ٢٠٥ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٥ / ٣٥٢ والحاكم ٤ / ٢٩٨ ، وأخرج جملة الشّاهد أبوداود في الأيمان والنّذور ، باب في كراهية الحلف بالأمانة عن ابن بريدة عن أبيه ، وهو عبدا لله بن بريدة بن الحصيب الأسلمي أبو سهل المروزي تابعي ثقة وأبوه بريدة ، صحابيّ أسلم قبل بدر ، انظر التّقريب ،٣٢٢٧ ، والإصابة ١ / ٢٨٦ .

[4] الإحسان ١٠ / ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ١ / ١٨٣ ، ١٨٦ ، والنّسائي في الأيمان والنّذور باب الحلف باللاّت والعزّى وابن ماجة في الكفّارات باب النّهي أن يحلف بغير ا لله عن سعد بن أبي وقّاص رضي ا لله عنه .

[5] رواه ابن أبي حاتم في التّفسير عن ابن عبّاس رضي ا لله عنهما وإسناده حسن من أجل شبيب بن بشر البجلي وهو ثقة يخطيء كثيراً، تفسير ابن كثير ١/ ٦١ ، وانظر تهذيب الكمال ١٢ / ٣٥٩ .

ولاتحلف بغيره)[1] ، وجماهير العلماء على أنّ اليمين لاتكون إلاّ با لله أو بصفاته ، وعلى المنع من الحلف بغيره .

قال ابن مسعود رضي ا لله عنه :(لأن أحلف با لله كاذباً أحبّ إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً)[2] .

فإن قيل : قد أقسم ا لله تعالى بالمخلوقات في القرآن، قيل : ذلك يختصّ با لله تبارك وتعالى فهو يقسم بما شاء من خلقه ، وأمّا المخلوق فلا يقسم إلا بالخالق جلّ وعلا ، قال الشعبي [3] : الخالق يقسم بما شاء من خلقه والمخلوق لايقسم إلا بالخالق .[4]

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه ا لله : (وهذا بخلاف إقسامه سبحانه بمخلوقاته كاللّيل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى . .فإنّ إقسامه بمخلوقاته يتضمّن من ذكر آياته الدّالة على قدرته وحكمته ووحدانيّته مايحسن معه إقسامه، بخلاف المخلوق فإنّ إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها)[5] ، ثم قال : (والحلف بالمخلوقات حرامٌ عند الجمهور وهو مذهب أبي حنيفة وأحد القولين في مذهب الشافعي وأحمد وقد حكى إجماع الصّحابة على ذلك)[6] .

وقال البغوي[7] رحمه ا لله : (فإن قيل : أليس أنّ النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم قال في حديث الأعرابي الّذي سأله عن الإسلام، وقال بعد مابيّن له : لاأزيد على هذا ولاأنقص ، فقال عليه الصّلاة والسلام : (**أفلح وأبيه إن**

---

(1) أخرجه ابن أبي الدّنيا في الصّمت ٣٥٦ ، وابن أبي شيبة في المصنّف ١٢٢٩٤ ، وكعب هو ابن ماتع الحميري المشهور بكعب الأحبار ، ثقة مخضرم من أهل اليمن ، مات في آخر خلافة عثمان ، انظر الطّبقات لابن سعد ٦ / ٢٩٣ ، وتهذيب الكمال ٢٧ / ٥٨٦.

(2) أخرجه عبدالرّزّاق في المصنّف ٨ / ٤٦٩ والطّبراني في الكبير ح٨٩٠٢ ، قال الهيثمي : ورجاله رجال الصّحيح ، الزّوائد ٤/١٧٧.

(3) هو عامر بن شراحيل أبو عمرو تابعي ثقة مشهور فقيه فاضل ، قال مكحول : مارأيت أفقه منه توفّي بعد سنة ١٠٠هـ ، التّقريب ٣٠٩٢ .

(4) تيسير العزيز الحميد ٥٩٠ .

(5) قاعدة جليلة في التّوسّل والوسيلة ص٨٣ .

(6) قاعدة جليلة ص٨٥ .

(7) الشّيخ الإمام العلاّمة القدوة الحافظ شيخ الإسلام محيي السّنّة أبو محمّد الحسين بن مسعود بن محمّد الفرّاء البغوي الشّافعي المفسّر صاحب التّصانيف كشرح السّنّة ومعالم التّنزيل وغيرها ، توفّي سنة ٥١٦ هـ ، السّير ١٩/٤٣٩ .

صدق)[1] قيل : تلك كلمة جرت على لسانه على عادة الكلام الجاري على الألسن، لا على قصد القسم ، وكانت العرب تستعملها كثيراً في خطابها تؤكّد بها كلامها لاعلى وجه التعظيم ، والنّهي إنّما وقع عنه إذا كان ذلك على وجه التوقير والتعظيم له ، كالحلف با لله يقصد بذكر ا لله سبحانه وتعالى في يمينه التعظيم ، يدلّ عليه أنّ فيه ذِكر أبي الأعرابي ، ولايُحلف بأبي الغير تعظيماً ، وتوقيراً)[2] .

وعلى كلٍّ ، فإن كراهة الحلف بغير ا لله هي الأصل الذي لم يخالف فيه أحد من أهل السّنّة والجماعة وابن حبّان من جملتهم في هذه المسألة .

---

(1) أخرجه مسلم في الإيمان باب بيان الصّلوات الخمس ح١١ ، وهو في البخاري دون موضع الشّاهد في الإيمان باب الزّكاة من الإسلام .

(2) شرح السّنّة ١٠ / ٦-٧ .

المبحث الخامس : عقيدته في التّشريك في لفظ المشيئة

ومن الألفاظ الشّركيّة الّتي حذّر منها ابن حبّان ، إشراك الرّسول صلّى ا لله عليه وسلّم في لفظ المشيئة بواو العطف الّتي تقتضي المساواة .

قال رحمه ا لله : " ذِكرُ الزّجر عن أن يقول المرء في أموره : ماشاء ا لله وشاء محمّد " ، ثمّ ساق تحته حديث جابر بن سمُرة [1] رضي ا لله عنه في الرّجل من أصحاب النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم الّذي رأى في منامه حواراً مع قوم من اليهود وأنّهم قالوا له : إنّكم القوم لولا أنكم تقولون : ماشاء ا لله وشاء محمد فقال النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم لمّا ذُكِر له ذلك : (**كنت أسمعها منكم فتؤذونني فلا تقولوا : ماشاء ا لله وشاء محمد**)[2] .

وقد ورد عن ابن عباس رضي ا لله عنهما أنّ أحد الأعراب قال للنّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم : (ماشاء ا لله وشئت) فقال له رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**أجعلتني لله نداً ؟ بل ماشاء ا لله وحده**) [3] .

وفي حديث اليهودي الذي أتى النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم فقال له:(إنّكم تشركون تقولون : ماشاء ا لله وشئت ـ وتقولون ـ والكعبة) فأمرهم النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : (ورب الكعبة، وأن يقولوا: ماشاء ا لله ثم شئت)[4] ، (وهذا الحديث نصٌّ في أنّ هذا اللّفظ من الشّرك، لأن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم أقر اليهودي على تسميته بذلك ، ونهى عنه، وقال لمن قال ذلك : أجعلتني لله نداً : وأقرّ من سمّاه تنديداً، كما

---

(1) جابر بن سمرة بن جنادة السُّوائي أبو عبدا لله ، صحابي ابن صحابي مات بالكوفي بعد سنة ٧٠ هـ ، الإصابة ١ / ٤٣١ .

(2) الإحسان ١٣ / ٣٢ والحديث صحيح وموضع الشّاهد منه صحّ من حديث حذيفة عند أحمد ٥ / ٣٨٤ ، ٣٩٤ ، وأبي داود في الأدب باب لايُقال : خبثت نفسي ،وراه مطوّلاً عن الطّفيل بن سخبرة أحمد ٥ / ٧٢ ، وابن ماجة في الكفّارات باب النّهي أن يقال : ماشاء ا لله وشئت ، وهو وهم عن جابر بن سمرة ،.وجاء عن حذيفة من طريق عبدالملك بن عمير كما عند ابن حبّان والوهم من سفيان بن عيينة إذ لم يروه عبدالملك عن حذيفة كما بيّن الأئمّة ،وانظر تفصيل ذلك في الفتح ١١ / ٥٣٩ ، والسّلسلة الصّحيحة للألباني ١ ح١٣٧ .

(3) أخرجه أحمد ١ / ٢١٤، ٢٢٤ ، ٢٨٣ ، ٣٤٧ ، وابن ماجة في الكفّارات باب النّهي أن يقال : ماشاء ا لله وشئت ، وفي رواية : عدلاً بدل : ندّاً .

(4) أخرجه أحمد ٦ / ٣٧١ ، والنّسائي في الأيمان والنّذور باب الحلف بالكعبة ح٣٧٧٣ وغيرهم عن قتيلة بن صيفي امرأة من جهينة .

جاء حديث اليهودي بلفظ (إنكم تنددون) وأرشد إلى استعمال اللفظ البعيد من الشرك ، والعبد وإن كان له مشيئةٌ فمشيئته تابعة لمشيئة الله تعالى ، ولاقدرة له على أن يشاء شيئاً إلاّ إذا كان الله قد شاءه ، وقد نهاهم أن يقولوا ماشاء الله وشئت ، لما فيه من مطلق التسوية بين الخالق والمخلوق ، وأمرهم أن يقولوا: ماشاء الله وحده، ولاريب أن هذا أكمل في الإخلاص والتّوحيد وأبعد عن الشّرك ، وأفضل وأكمل من قول :ماشاء الله ثم شاء محمد مع جوازه ، لما فيه من التّصريح بالتّوحيد المنافي للتنديد من كل وجه فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال، في مقام التّوحيد والإخلاص) .[1]

[1] مختصر من حاشية التّوحيد ص٣٠٧ - ٣١٠ .

المبحث السّادس : **عقيدته في الطيرة**

قال في القاموس المحيط (. .الطِيَرة والطِيْرة والطُورة مايُتشاءم به من الفأل الرديء . .)[١] ، والتّسمية لها علاقة بالطّير، فإنّ أصل ذلك أنّ المشركين كانوا يتطيّرون أي يُنَفِّرون الطّير من مكانها فإن طار يمنةً تفاءلوا به وإن طار يسرةً تشاءموا به فيصدّهم ذلك عن مقاصدهم .[٢]

والطّيرة من مداخل الشّيطان ووسوسته وتخويفه ، ولذلك نهى عنها الشرع أشدّ النّهي لما فيها من ربط مقدّمات بنتائج لارابط بينها إلا مجرّد الظن الخالي من العلم ، ولما فيها من منافاة للتوكّل الواجب .

وقد ذمّها القرآن في غير موضع كما قال الله عن آل فرعون : ﴿ **وإن تصبهم سيّئةٌ يطّيّروا بموسى ومن معه ألاَ إنّما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لايعلمون** ﴾ : **الأعراف ١٣١** ، قال ابن جرير رحمه الله : (قوله تعالى : ﴿**يطّيّروا بموسى ومن معه**﴾ يقول : يتشاءموا بهم ويقولوا : ذهبت حظوظنا من الرّخاء والخصب منذ جاء موسى : ويقول تعالى : ﴿ **ألا إنّما طائرهم عند الله** ﴾ أي ما طائر آل فرعون وغيرهم من الرّخاء والخصب وغير ذلك من الخير والشّر إلاّ عند الله ، ولكنّهم لايعلمون ذلك ، فلجهلهم بذلك كانوا يطّيّرون بموسى ومن معه)[٣] .

وقد صحّ عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم النهي عن الطّيرة في قوله (**لاطيرة، وخيرها الفأل، قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم**)[٤] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : (**لاعدوى ولا طيرة والشؤم في ثلاث: المرأة والدار والدابة**)[٥] ،وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً

---

[١] القاموس ٢ / ١١٣ مادّة طيران وانظر تهذيب اللّغة ١٤ / ١١ .

[٢] انظر تيسير العزيز الحميد ص٤٢٠ ، وفتح الباري ١٠/ ٢١٢-٢١٣ .

[٣] تفسير ابن جرير ٦ / ٣٠ - ٣١ بتصرّف .

[٤] أخرجه البخاري في الطّبّ باب الطّيرة ومسلم كتاب السّلام باب الطّيرة والفأل وما يكون من الشّؤم ح٢٢٢٣ .

[٥] أخرجه البخاري في الطّب باب الطّيرة ومسلم في السّلام باب الطّيرة والفأل ومايكون من الشّؤم .

(**الطيرة شرك**) (١) .

قال الحافظ : (وإنّما جعل شركاً لاعتقادهم أنّ ذلك يجلب نفعاً أو يدفع ضراً فكأنّهم أشركوه مع الله تعالى) .(٢)

وابن حبّان رحمه الله وعى ذلك جيداً عن سنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فأجلب على الطِّيَرة والمتطيّرين مستنداً على ما صحّ عنده من كلام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

قال رحمه الله : " ذِكرُ الزّجر عن تطيّر المرء في الأشياء " ، ثّم ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : (**كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعجبه الفأل ويكره الطيرة**)(٣) .

وقال أيضاً : " ذِكرُ التّغليظ على من تطيّر في أسبابه متعرّياً عن التّوكّل فيها " ، ثمّ ساق حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : (**الطيرة شرك**)(٤) . وقال أيضاً " ذِكرُ مايجب على المرء من لزوم التفاؤل وترك التّطيّر اقتداءً برسول الله صلّى الله عليه وسلّم " ، ثم ساق حديث أبي هريرة مرفوعاً(**لاطيرة وخيرها الفأل**) (٥) .

ثم ذكر صفة الفأل الّذي يحبّه الله ورسوله بقوله : "ذكر وصف الفأل الّذي كان يعجب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم " ، وساق حديث أبي هريرة المتقدّم .(٦)

وقال أيضاً : " ذِكرُ الخبرالدّال على أنّ الطّيرة تؤذي المتطيّر خلاف ماتؤذي غير المتطيّر" ، وساق حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً : (**لاطيرة والطيرة على من تطير**)(٧) .

---

(١) أخرجه أحمد ١ / ٣٨٩ ، وأبوداود في الطّب باب الطّيرة والتّرمذي في السّير باب في الطّيرة وابن ماجة في الطّب باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطّيرة .وصحّحه التّرمذي وابن حبّان والحاكم ، انظر فتح الباري ١٠ / ٢١٣ .

(٢) فتح الباري ١٠ / ٢١٣ .

(٣) الإحسان ١٣ / ٤٩٠، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٢/ ٣٣٢ ، وابن ماجة في الطّبّ باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطّيرة.

(٤) الإحسان ١٣ / ٤٩١ والحديث تقدّم قبل حاشيتين .

(٥) الإحسان ١٣ / ٤٩٣ ، والحديث تقدم في الصّفحة السّابقة .

(٦) الإحسان ١٣ / ٤٩٤ .

(٧) الإحسان ١٣ / ٤٩٢ ، والحديث إسناده حسن ويشهد له حديث أبي هريرة المتقدّم وحديث ابن عمر بلفظه دون قوله : (**والطّيرة على من تطيّر**) أخرجه البخاري في الطّب باب الطّيرة ومسلم في السّلام باب الطّيرة والفأل .

قال ابـن القيـم رحمـه الله : (هـذا يحتمـل أن يكـون نفيـاً أو نهيـاً أي لاتتطيروا ، لكنّ قوله في الحديث (**ولا عـدوى ولاصفـر**)[1] يـدلّ أنّ المـراد نفي وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها، والنفي في هـذا أبلـغ مـن النهي لأن النّفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره ، والنهي إنّمـا يـدلّ علـى المنع منه ، ويشكل على هذا قوله (**الطيرة على من تطـير**) ، فظـاهره وقـوع الشّر على من تطيّر ، وجوابه أن يقال : المراد بذلك من تطيّر تطيّراً منهياً عنـه وهو أن يعتمد على مايسمعه ومايراه حتّى يمنعه ممّا يريده من حاجته ، فإنّه قـد يصيبه مايكرهه عقوبة له ، فأمّا من توكّل على الله ووثق به بحيـث علّـق قلبـه با لله خوفاً ورجاءً فإنّه لايضرّه ذلك . .)[2] .

والفأل : ضدّ الطّيرة وهو توقّع الخير والسّرور به ، وهو مأمور به علـى لسان المصطفى صلّى الله عليه وسلّم إذ هو من باب حسن الظـنّ بـا لله تعـالى قال ابن القيم رحمه الله : (ليس في الإعجاب بالفأل ومحبّته شيءٌ مـن الشّـرك بل ذلك إبانةٌ عن مقتضى الطّبيعة ومـن حـبّ الفطـرة الإنسـانيّة الّـتي تميـل إلى مايوافقها ويلائمها . .)[3] .

وقال الحليمي[4] : (وإنّما كان يعجبه الفأل لأنّ التّشاؤم سوء ظـنٍّ بـا لله بغـير سبب محقّق ، والتّفاؤل حسن ظنٍّ به ، والمؤمن مأمور بحسن الظّنّ بـا لله علـى كلّ حال)[5] ، قال ابن حجـر : (قـال الطّيـبي : معنـى التّرخّص في الفـأل والمنع من الطّيرة هو أنّ الشّخص لو رأى شيئاً فظنّه حسناً محرضـاً علـى طلـب حاجته فليفعل ، وإن رآه بضدّ ذلك فلايقبله بـل يمضـي إلى سبيله ، فلـو قبـل وانتهى عن المضيّ فهو الطّيرة التي اختصّت بأن تُستعمل في الشّؤم) .[6]

---

(1) أخرجه البخاري بلفظ: (**لاعدوى ولاطيرة ولاهامة ولاصفر**) في الطّب باب الفأل .

(2) باختصار من تيسير العزيز الحميد ص٤٢٧ ـ٤٢٨ .

(3) تيسير العزيز الحميد ص٤٣٥ .

(4) القاضي العلاّمة أبو عبدا لله الحسين بن الحسن بن محمّد بن حليم البخاري الشّافعي صاحب كتاب المنهاج في شعب الإيمان ،قال الذّهبي : كان متفنّناً سيّال الذّهن طويل الباع في الأدب والبيان ، توفّي سنة٤٠٣ هـ السّير ١٧/ ٢٣١ .

(5) فتح الباري ١٠ / ٢١٥ .

(6) فتح الباري ١٠ / ٢١٥ .

وقد قال ابن عباس رضي ا لله عنهما : (إن مضيت فمتوكّل وإن نكصت فمتطيّر) .[١]

وعلى العموم فإنّ الفأل وإن كان محبوباً ومطلوباً فإن ذلك لايدلّ على أنّ الشّرع يعلّق عليه خيراً ، كما أنّه لايعلّق على الطّيرة شراً ، وإنّما هو كما قلنا من باب حسن الظّنّ با لله، ولذلك ورد عن ابن عبّاس أنّه كان جالساً في نفرٍ من أصحابه فمرّ طير يصيح ، فقال رجل : خير خير، فقال ابن عباس:(لاخير ولا شر) .[٢]

وخرج طاووس[٣] مع صاحب له في سفر فصاح غراب فقال الرجل : خير ، فقال طاووس: (وأيّ خير عند هذا أو شر ؟ لاتصحبني)[٤] .

وقد تبيّن ممّا سبق أنّ ابن حبّان أصاب الفقه الصّحيح في مسألة التّطيّر بما مايوافق أصول ومنهج أهل السّنّة والجماعة .

---

[١] المصنّف لعبدالرّزّاق ١٠ / ٤٠٤ .

[٢] قال الحافظ : (أخرجه الطّبري عن عكرمة عن ابن عبّاس) الفتح ١٠ / ٢١٥ .

[٣] بن كيسان أبو عبدالرّحمن الفارسي ثمّ اليماني الحافظ الفقيه القدوة عالم اليمن من خيار التّابعين ولد في دولة عثمان رضي ا لله عنه ، توفّي سنة ١٠٥هـ ، السّير ٥ / ٣٨

[٤] مصنّف عبدالرّزّاق ١٠ / ٤٠٦ .

المبحث السّابع : عقيدته في العـدوى

العدوى في اللّغة: الفساد، وتدور معاني أصول الكلمة وهي العين والدال على الانتقال والمجاوزة ، ومنه قيل لانتقال المرض من شخص لآخر عدوى[1].

وقد جاءت النّصوص الشّرعية بذكر العدوى تارة تنفيها وتارة تثبتها بالنّهي عنها أو عن موجبها .

فقد صحّ عن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم أنّه قال :(**لاعدوى ولاطيرة**)[2] .

وصحّ عنه أيضاً عليه الصّلاة والسلام أنّه قال : (**لايُورد ممرض على مصح**)[3] .

وقد اختلفت أنظار العلماء لهذين الحديثين فحاول البعض ترجيح أحدهما وردّ الآخر ، والصّحيح مارآه المحقّقون من أنّ النّهي أو النّفي على الأصحّ منصبٌّ على اعتقاد أهل الجاهليّة في العدوى، وسنورد أوّلاً رأي ابن حبّان ثمّ نعقب بذكر أقوال أهل العلم فى ذلك :

ساق ابن حبّان حديث أبي هريرة مرفوعاً : (**لاعدوى ولاطيرة**)[4] ثم وهّم من ادّعى أنّ هذا الحديث منسوخ أو أنّه معارض فقال : " ذِكرُ خبر أوهم من لم يحكم صناعة الحديث أنّه مضادّ لقوله صلّى ا لله عليه وسلّم (لاعدوى) أو ناسخ له " ثم ساق حديث (**لايورد ممرض على مصح**)[5]، ثم قال بعده " ليس بين الخبرين تضاد، ولا أحدهما ناسخٌ للآخر، ولكنّ قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : **لاعدوى** ، سنّة تستعمل على العموم وقوله : **لايورد ممرض على مصح** ، أراد أن لايورد الممرض على المصح ، ويراد به الاعتقاد في

---

(1) انظر القاموس المحيط ٤ / ٤٢٥ والنّهاية لابن الأثير ٣ / ١٩٢ .

(2) تقدّم تخريجه ص ٦٤ .

(3) أخرجه البخاري في الطّب باب لاهامة ومسلم في السّلام باب لاعدوى ولاطيرة عن أبي هريرة رضي ا لله عنه .

(4) الإحسان ١٣ / ٤٨١ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في السّلام باب الطّيرة والفأل .

(5) الإحسان ١٣ / ٤٨٢ والحديث تقدّم تخريجه قريباً .

استعمال العدوى أن تضرّ بأخيه في القصد، وإن لم تضرّ العدوى "[1] ، وهذا الكلام فيه غموض ، ويُلمح منه أنّ نفي العدوى راجعٌ إلى معنى معيّن ليس لكلّ عدوى ، بمعنى أنّ انتقال المرض عن طريق المخالطة أمرٌ وارد ، لكنّ المنفيّ هو اعتقاد أنّ العدوى تضرّ بنفسها وتعليق الضّرر عليها لذاتها ، يدلّ على ذلك قوله بعد كلامه السابق :" ذِكرُ الزّجر عن قول المرء بالعدوى والصّفر الّذي كان يقول به أهل الجاهلية "، ثم ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (**لاعدوى ولا صفر ولا هامة**) فقال الأعرابي : يارسول الله فما بال الإبل تكون في الرّمل ، كأنّها الظّباء ، فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها ؟ قال :(**فمن أعدى الأوّل**)[2] .

إذن فمقصود الإثبات أنّها تعدي بقدر الله ، ومقصود النّفي أنّها لاتعدي استقلالاً بالضّرّ ، بل كلّ ضرّ ونفع فممّا قدّره الله تعالى على المخلوق.

وقال أيضاً : "ذكر الإخبار عن نفي جواز قول المرء بالعدوى" ، ثم ساق حديث أبي هريرة مرفوعاً : (**لاعدوى**) ، وقال بعده : "ذكر الزّجر عن استعمال المرء العدوى في ذوات الأربع "[3] .

وهذا المعنى إن كان هو ماقصده ابن حبّان فإنّ المحقّقين من أهل العلم على ذلك .

قال البيهقي[4] رحمه الله تعالى : "وأمّا ماثبت عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: (لاعدوى) فهو على الوجه الذي كانوا يعتقدونه في الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله، وقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به

---

(1) الإحسان ١٣ /٤٨٤ .

(2) الإحسان ١٣ / ٤٨٤ والحديث رواه أيضاً البخاري في الطّب باب لاهامة ومسلم في السّلام باب لاعدوى ولاطيرة .

(3) الإحسان ١٣ / ٤٨٧ ، والحديث تقدّم تخريجه قريباً .

(4) الحافظ العلاّمة الفقيه الثّبت شيخ الإسلام أبوبكر أحمد بن الحسين بن عليّ بن موسى الخسروجردي الخراساني ، صاحب التّصانيف ، ومنها السّنن الكبرى ومعرفة السّنن والآثار وغيرها ، توفّي سنة ٤٥٨ هـ ، السّير ١٨/ ١٦٣ .

شيء من هذه العيوب سبباً لحدوث ذلك ولهذا قال عليه الصّلاة والسلام :(**فرّ من المجذوم فرارك من الأسد**) وقال : (**لايورد ممرض على مصح**)[١] .

ويُفرّق بين الأمرين أنّ العدوى على اعتقاد أهل الجاهلية أمر حتمي، بمعنى أنّ إرجاع ذلك إلى غير مشئية الله يجعله أمر متحتّم عند من يقول به، وأمّا على قول أهل الإسلام فهو بمشئية الله، فإنّ الله وإن كان جعل الخلطة سبباً لانتقال المرض إلاّ أن ذلك بمشئية الله بمعنى أنّه قد يخالط المريض الصحيح دون حصول العدوى ، فالخلطة والعزلة ماهي الاّ أسباب موصلة للمسبّبات بمشئية الله تعالى فمن أيقن بهذا واعتقده فلا حرج عليه أن يقول بكليهما ، أي يوقن بأنّه لاعدوى ومع ذلك يحذر لنفسه من مخالطة من به مرض معد،وهذا هو امتثال قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم .

قال البغوي رحمه الله : (قوله : (**لاعدوى**) يريد أن شيئاً لايعدي بطبعه، وإنّما هو بتقدير الله عزّ وجلّ، وسابق قضائه ، بدليل قوله للأعرابي : (**فمن أعدى الأوّل ؟**) يريد أن أوّل بعير جرب منها ، كان جربه بقضاء الله وقدره لابالعدوى ، فكذلك ماظهر بسائر الإبل من بعد)[٢] .

قال في تيسير العزيز الحميد : (وأمّا أمره بالفرار من المجذوم، ونهيه عن إيراد الممرض على المصح، وعن الدّخول إلى موضع الطّاعون ،فإنّه من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله وجعلها أسباباً للهلاك والأذى ، والعبد مأمور باتّقاء أسباب الشر إذا كان في عافية، فكما أنّه يُؤمر بأن لايلقي نفسه في النّار لجريان العادة بهلاكه، فكذلك اجتناب مقاربة المجذوم والدّخول إلى بلد بها الطاعون ، فإنّ كلّ هذه أسباب للمرض والتّلف، والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبّباتها .

وأمّا إذا قوي التّوكّل على الله والإيمان بقضائه وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتماداً على الله ورجاءً منه أن لايحصل به

---

(١) نقله عن البيهقي الحافظ بن حجر في الفتح ١٠ / ١٦١ ، وحديث فرّ من المجذوم رواه البخاري تعليقاً في الطّب باب الجذام ، قال الحافظ : (وقد وصله أبو نعيم من طريق أبي داود الطّيالسي وأبي قتيبة كلاهما عن سليم بن حيّان شيخ عفّان فيه) الفتح ١٠/ ١٥٨ .وحديث لايورد ممرض على مصحّ تقدّم ص٦٨ .

(٢) شرح السّنّة ١٢ / ١٦٩ .

ضرر ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك، لاسيّما إذا كانت فيه مصلحة عامة أو خاصّة، وعلى هذا يُحمل الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أخذ بيد مجذوم فأدخلها في القصعة وقال : (**كل، ثقةً با لله وتوكّلاً عليه**)[1]وقد أخذ به الإمام أحمد ، ورُوي ذلك عن عمر وابنه وسلمان رضي الله عنهم ، ونظير ذلك مارُوي عن خالد بن الوليد من أكله السمّ[2] ومشي سعد بن أبي وقاص بالجيوش على متن البحر [3]) [4] .

وهذا الحديث الذي أشار إليه من وضع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يد المجذوم في القصعة رواه ابن حبّان وترجم له بقوله : "ذكر الإباحة للمرء مؤاكلة ذوي العاهات ضدّ قول من كرهه "[5] ، وهو حديث ضعيف لايثبت عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم .

والقول بالجواز وإن كان متحتّماً لكنّه مقيّد بالمصلحة كما تقدّم وأمّا باضطراد فهو مخالفٌ لمنهج أهل السّنّة من الأخذ بالأسباب دون الالتفات إليها والاعتماد عليها والله تعالى أعلم بالصواب .

---

(1) حديث ضعيف لايثبت عنه صلّى الله عليه وسلّم أخرجه أبوداود في الطّب باب الطّيرة والتّرمذي في الأطعمة باب ماجاء في الأكل مع المجذوم وابن ماجة في الطّب باب الجذام عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه مرفوعاً وإسناده ضعيف وآفته مفضّل بن فضالة ، قال ابن المديني : في حديثه نكارة ، وقال ابن عديّ : لم أر له أنكر من هذا ، يعني حديث جابر ، انظر تهذيب الكمال ٢٨ / ٤١٣ ، وميزان الإعتدال ٤ / ١٦٩ ، والسّلسلة الصّحيحة للألباني ٣ / ٢٨١، وفيه ترى أنّه صحّ موقوفاً من فعل سلمان الفارسي رضي الله عنه .

(2) أخرجه عبدالرّزّاق في المصنّف١٠ / ٤٠٤ ـ ٤٠٥ .

(3) انظر القصّة في البداية والنّهاية ٧ / ٦١ ، في قصّة فتح المدائن سنة ١٦ هـ ، وقد رُويت قصص أخرى شبيهة بها للعلاء بن الحضرمي صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبي مسلم الخولاني ، البداية والنّهاية ٦ / ٢٥٢ ـ ٢٥٥ .

(4) تيسير العزيز الحميد ص٤٢٧ .

(5) الإحسان ١٣ / ٤٨٨ .

المبحث الثّامن : عقيدته في الرّقى والتّمائم

الرّقى جمع رقية : وهي مايسمّى : العزيمة ، قال في القاموس : (الرّقية : العوذة) ،[١] وهي بمعنى التعويذ .

والتّمائم : جمع تميمة ، وهي خرزات كانت العرب تعلّقها على أولادهم يتّقون به العين في زعمهم [٢] .

والفرق بينهما أنّ الرّقى غالباً ماتطلق على اللّفظ الّذي يُعوَّذ به المريض وتكون مما قد أصاب ، وأمّا التّميمة فتكون مكتوبة وتعلّق حذراً ممّا يُتوقّع في المستقبل .

أمّا الرّقى فقد جاءت السّنّة بذكرها أمراً بها ونهياً عنها واستعمالاً لها وتقريراً لفعلها ، فقد صحّ عن النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام قوله في الرّقية : (**من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل**)[٣] .

وصحّ عنه أنّه كان يرقي بالمعوّذات وببعض الدعاء كقوله : (**امسح الباس ربّ النّاس بيدك الشّفاء لاكاشف له إلاأنت**)[٤] .

كما صحّ إقراره لأبي سعيد الخدري رضي الله عنه لما رقى اللّديغ بفاتحة الكتاب ، والحديث مشهور [٥] .

وأمّا النّهي فقد فهمه بعض العلماء من حديث السّبعين ألفاً الّذين يدخلون الجنّة بدون حساب ووصفهم بقوله : (**هم الّذين لايكتوون**

---

[١] القاموس المحيط ٤ / ٤٨٦ ، تهذيب اللّغة ٩ / ٢٩٢ ، وانظر فتح الباري ١٠ / ١٩٥ .

[٢] النّهاية لابن الأثير ١ / ١٩٧ وانظر تهذيب اللّغة ١٤ / ٢٦٠ .

[٣] أخرجه مسلم في السّلام باب استحباب الرّقية من العين والنّملة والنّظرة والحمة ح ٢١٩٩ .

[٤] أخرجه البخاري في الطّب باب رقية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ومسلم في السّلام باب استحباب رقية المريض ح٢١٩١ .

[٥] حديث أبي سعيد أخرجه البخاري في الطّب باب الرّقي بفاتحة الكتاب ومسلم في السّلام باب جواز أخذ الأجرة على الرّقية بالقرآن والأذكار ح٢٢٠١ .

ولايسترقون ولايتطيّرون ، وعلى الله ربّهم يتوكّلون)[1] ، وقوله عليه الصّلاة والسلام : (**من اكتوى أو استرقى فقد برِىء من التوكل)**[2] .

وأمام هذه النّصوص اختلفت أنظار أهل العلم ، والّذي عليه الجمهور من العلماء والمحقّقين منهم كشيخ الإسلام ابن تيميّة وابن القيم وغيرهما أنّ الرّقى جائزة بثلاثة شروط :

الأوّل : أن تكون بكلام الله تعالى وبأسمائه أو صفاته .

الثاني : أن تكون باللّسان العربي المفهوم معناه [3] .

الثالث : أن يُعتقد أنّ الرّقية لاتؤثّر بذاتها بل بتقدير الله تعالى [4] .

وهذا الذي ذكرناه عن العلماء هو مالخّصه ابن حبّان في تعليقاته وتراجمه على الأحاديث التي أوردها .

قال بعد إيراده حديث : (**من اكتوى أو استرقى فقد برىء من التوكّل)** ، وبعد حديث السبعين ألفاً الّذين يدخلون الجنّة بلا حساب : "العلّة في الزّجر عن الاكتواء والاسترقاء هي أنّ أهل الجاهليّة كانوا يستعملونها ويرون البرء منهما من غير صنع الباري جلّ وعلا فيه ، فإذا كانت هذه العلّة موجودة كان الزّجر عنها قائماً ، وإذا استعملهما المرء وجعلهما سببين للبرء الّذي يكون من قضاء الله دون أن يرى ذلك منهما كان ذلك جائزاً "[5] .

وقال بعد ذلك في ترجمة : "ذكر التّغليظ على من قال بالرّقى والتّمائم متّكلاً

---

[1] أخرجه البخاري في الطّب باب من اكتوى أو كوى غيره وفي الرّقاق باب ومن يتوكّل على الله فهو حسبه ، ومسلم في الإيمان باب الدّليل على دخول طوائف من المسلمين الجنّة بغير حساب ح٢٢٠ .

[2] أخرجه أحمد ٤ / ٢٤٩ ، والتّرمذي في الطّب باب ماجاء في كراهية الرّقية وابن ماجة في الطّب باب الكي وقال التّرمذي: حديث حسن صحيح ، وصحّحه ابن حبّان والحاكم ٤ / ٤١٥، انظر السّلسلة الصّحيحة للألباني ج١ح٢٤٤ .

[3] اشترط العلماء هذا الشّرط احترازاً من الكلام الّذي لا يُفهم حذراً من الرّقى الّتي تتضمّن ألفاظاً شركيّة ، وبناءً عليه لابأس أن تكون الرّقية بغير اللّغة العربيّة إذا كانت مفهومة لدى الحاضرين ، ماعدا الآيات ونحوها فيجب أن تكون باللّغة الّتي نزلت بها والله أعلم .

[4] انظر فتح الباري ١٠ / ١٩٥ ، وتيسير العزيز الحميد ص١٦٧ .

[5] الإحسان ١٣ / ٤٥٦ .

عليها " ، وساق حديث عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**إنّ الرّقى والتّمائم والتّوَلة شرك**)[1] .

ثم بيّن أنّ ذلك إنّما ينصبّ على الرّقى الّتي تشتمل على الشّرك فقال : " ذِكرُ الخبرالدّال على أنّ الرّقى المنهيّ عنها إنّما هي الرّقى الّتي يخالطها الشّرك با لله جلّ وعلا ، دون الرّقى الّتي لايشوبها شرك " ، وساق حديث أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة عن جدّته الشّفاء بنت عبدا لله [2] أنّه عليه الصّلاة والسلام قال لها لّما استأذنته في الرّقية : (**ارقي مالم يكن فيها شرك**)[3] .

ثم قال : " ذِكرُ استعمال المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم الرّقية الّتي أباح استعمال مثلها لأمّته " ، وقال أيضاً : " ذِكرُ إباحة استرقاء المرء للعلل الّتي تحدث بما يبيحه الكتاب والسّنّة " [4] .

ثمّ يردّ على المانعين منها فيقول : " ذِكرُ الخبرالمدحض قول من نفى جواز استعمال الرّقى للمسلمين " ، وساق حديث عبدالرّحمن بن السّائب ابن أخي أمّ المؤمنين ميمونة رضي ا لله عنها أنّها قالت له : (ياابن أخي ألا أرقيك برقية رسول ا لله ؟ قلت : بلى : قالت :باسم ا لله أرقيك...)[5] .

وقال أيضاً : "ذكر الخبرالمصرّح بإباحة الرّقية للعليل بغير كتاب ا لله مالم يكن شركاً " ، وساق تحته حديث عائشة رضي ا لله عنها أنّ رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم دخل عليها وعندها امرأة ترقيها أو تعالجها فقال : (**عالجيها بكتاب ا لله**)[6] ، ثمّ قال ابن حبّان : " قوله عليه الصّلاة والسلام :

---

[1] الإحسان ١٣ / ٤٥٦ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ١ / ٣٨١ ، وأبوداود في الطّب باب تعليق التّمائم وابن ماجة في الطّب باب تعليق التّمائم ، وغيرهما وفي بعض الرّوايات ذِكرُ قصّة اختلاف زوجة عبدا لله زينب رضي ا لله عنه إلى رجل يهودي ليرقيها ، وهي ضعيفة لاتثبت ، انظر السّلسلة الصّحيحة للألباني ٦ / ص١١٦١ .

[2] هي الشّفاء بنت عبدا لله بن عبدشمس بن خلف القرشيّة العدويّة ، من فضليات الصّحابيّات ومن المهاجرات الأول ، وكان رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم يزورها ويقيل عندها وكان عمر يقدّمها في الرّأي ويرعاها ، وأبو بكر ابن بنتها وهو عبدا لله بن حذيفة العدوي المدني ثقة عارف بالنّسب ، انظر الإصابة ٧ / ٧٢٧ ن والتّقريب ت٧٩٦٧ .

[3] الإحسان ١٣ / ٤٥٨ ، والحديث أخرجه أيضاً الحاكم ٤ / ٥٧ ، وهو حسن بشواهده .

[4] الإحسان ١٣ / ٤٦١ .

[5] الإحسان ١٣ / ٤٦٢ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٦ / ٣٣٢ والطّبراني في الكبير ٢٣ / ح١٠٦١ وفي الأوسط ٣ / ح٣٢٩٤ ، قال الهيثمي : (رواه الطّبراني في الأوسط وفي الكبير وفيه عبدا لله بن صالح كاتب اللّيث وقد وثّق وفيه ضعف ، وعلى كلّ حال إسناده حسن) المجمع ٥ / ١١٦ .

[6] الإحسان ١٣ / ٤٦٤ والحديث إسناده صحيح .

(عاجليها بكتاب ا لله) أراد عاجليها بما يبيحه كتاب ا لله، لأنّ القوم كانوا يرقون في الجاهليّة بأشياء فيها شرك، فزجرهم بهذه اللّفظة عن الرّقى إلاّ بما يبيحه كتاب ا لله دون مايكون شركاً "[1] .

ثمّ يبيّن أنّ استعمال الرّقى لاينافي الرّضا بقدر ا لله ولا ينافي ماسَبقَ في علم ا لله فيقول : " ذِكرُ البيان بأنّ استرقاء المرء عند وجود العلل من قدر ا لله". وذكر حديث كعب بن مالك [2] أنّه قال : يارسول ا لله، أرأيت دواءً نتداوى به ، ورقىً نسترقي بها، وأشياء نفعلها هل تردّ من قدر ا لله ؟ قال: **(ياكعب، بل هي من قدر ا لله)**[3] .

قال الخطّابي[4] رحمه ا لله : (وكان عليه السّلام قد رقى ورُقي وأمر بها وأجازها ، فإذا كانت بالقرآن أو بأسماء ا لله تعالى فهي مباحة أو مأمور بها، وإنّما جاءت الكراهية والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفراً أو قولاً يدخله الشّرك ، قال : ويحتمل أن يكون الذي يكره ماكان على مذاهب أهل الجاهليّة التي يتعاطونها ، وأنّها تدفع عنهم الآفات ويعتقدون ذلك من قبل الجنّ ومعونتهم)[5] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه ا لله : (وفي الصّحيح عنه صلّى ا لله عليه وسلّم أنّه قال : (**لابأس بالرّقى مالم تكن شركاً**)[6] فنهى عن الرّقى الّتي فيها شرك كالّتي فيها استعاذةٌ بالجنّ، ولهذا نهى العلماء عن التّعازيم والأقسام الّتي يستعملها بعض النّاس في حقّ المصروع وغيره ، الّتي تتضمّن الشّرك بل

---

(1) الإحسان ١٣ / ٤٦٤ .

(2) كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين الأنصاري السّلمي أبو عبدا لله ، شهد بيعة العقبة وأحداً ، وهو أحد الثّلاثة الّذين خُلّفوا في غزوة تبوك ، توفّي في خلافة عليّ وقيل في خلافة معاوية ، الإصابة ٥ / ٦١٠ .

(3) الإحسان ١٣/ ٤٦٥ ، والحديث في إسناده مقال ، ولم أجده من مسند كعب إلاّ عند ابن حبّان ، وقد رُوي الحديث بنفس اللّفظ عن أبي خزامة رضي ا لله عنه ، أخرجه التّرمذي في الطّب باب الرّقى وابن ماجة في الطّب باب ماأنزل ا لله داء إلاّ أنزل له شفاء ،وقد اختلف على الزّهري فيه ، فقيل عن ابن أبي خزامة عن أبيه ، وقيل عن أبي خزامة عن أبيه ، وقد رجّح التّرمذي وابن عبدالبرّ الأخيرة ، وسكت الحافظ عن التّرجيح ، ومع ذلك فالحديث صحيح وا لله أعلم انظر الإصابة ٧ / ١٠٦ ، وتهذيب الكمال ٣٣/ ٢٧٩ ، والمصنّف لعبدالرّزّاق ١١/ ١٨ ، والمستدرك للحاكم ٤ / ٤٠٢ .

(4) الإمام العلاّمة الحافظ أبو سليمان حمد بن محمّد بن إبراهيم بن خطّاب البُستيّ صاحب التّصانيف ومن أشهرها معالم السّنن أخذ الفقه على مذهب الشّافعي ، توفّي سنة ٣٨٨هـ ، السّير ١٧ / ٢٣ .

(5) تيسير العزيز الحميد ص١٦٦ .

(6) أخرجه مسلم في السّلام باب لابأس بالرّقى مالم يكن فيه شرك عن عوف بن مالك رضي ا لله عنه .

نهوا عن كلّ مالايُعرف معناه ، خشية أن يكون فيها شرك، بخلاف ماكان من الرّقى المشروعة فإنّه جائز)[1] .

وفي تيسير العزيز الحميد عن عليٍّ رضي الله عنه قال : (إنّ كثيراً من هذه الرّقى والتّمائم شرك فاجتنبوه)[2] .

هذا بالنّسبة للرّقى ككل، وأمّا الاسترقاء والاكتواء وهو طلب الرّقية وطلب الكي لغرض العلاج ، فإنّ القول بالإباحة لاشكّ فيه وإن كان بعض العلماء قد كرهه، لكن مع القول بالإباحة تركُه مستحب وهو الأولى، توكّلاً على الله ، وفيه فضلٌ عظيم تقدّم في حديث السبعين ألفاً الّذين يدخلون الجنّة بغير حساب .

ثم إنّ الرّقية من باب اتّخاذ السّبب الموصل إلى النّتيجة فالأخذ بها موافق لأصول الشّرع ولمنهج أهل السّنّة في العمل بالأسباب ، بل إنّ الأخذ بالأسباب مع تفويض الأمر لله هو حقيقة التوكّل ، ولذلك قال عليه الصّلاة والسلام للّذي سأله : يارسول الله أرسلها وأتوكّل ؟ قال له : (**اِعقلها وتوكل**)[3] .

وإذا كان كذلك فإنّه لاينافي الإيمان بالقدر والرّضا به أن يتّخذ المؤمن الأسباب الموصلة للنّتائج المشروعة ، ولذلكَ لمّا عدل عمر رضي الله عنه عن دخول عمواس لّما حلّ بها الطّاعون وقال له أبو عبيدة رضي الله عنه :(أفراراً من قدر الله ياأمير المؤمنين؟ قال له عمر : نفرّ من قدر الله إلى قدر الله)[4] .

وبهذا نخلص إلى أنّ الرّقى جائزة باتّفاق العلماء إذا قُيّدت بالشّروط الثّلاثة المذكورة سالفاً .

---

(1) قاعدة جليلة ص٢٧٣ .

(2) ص١٦٦ ، ولم أجده في شيء من المصادر الّتي وقفت عليها.

(3) أخرجه ابن حبّان ٢/٥١٠ والحاكم ٣/ ٦٢٣ ، والقضاعي في مسند الشّهاب ح٦٣٣ عن عمرو بن أميّة الضّمّي ، ورواه التّرمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه في صفة القيامة باب٦٠ واستغربه عنه ، كما رمز له الشّيخ الألباني بالحسن في صحيح الجامع، والمقصود في الحديث ، النّاقة أي : أرسلها من دون قيد وأتوكّل على الله في حفظها ؟ .

(4) أخرجه البخاري كتاب الطّب باب مايُذكر في الطّاعون ومسلم في السّلام باب الطّاعون والطّيرة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما .

وأمّا التّمائم فقد قال ابن حبّان : "ذكر الزّجر عن تعليق التّمائم الّتي فيها الشّرك بالله جلّ وعلا " ، وساق حديث عقبة بن عامر[1] رضي الله عنه مرفوعاً : (**من علّق تميمة، فلا أتمّ الله له، ومن علّق ودَعَة فلا وَدَعَ الله له**)[2] وهذه التّرجمة منه رحمه الله يُفهم من ظاهرها أنّه لايمنع من التّمائم إلاّ ماظهر فيه الشّرك بالله .

وجمهور السّلف على أن تعليق التّمائم لايجوز أيّاً كان المُعلّق، سواء كان من القرآن أو من غيره ، لكن إن كان فيه شيءٌ من الشّرك فهو بحسبه من الشّرك بالله تعالى ، وفيه حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : (**إنّ الرّقى والتّمائم والتّوَلة من الشّرك**)[3] .

وأمّا إن كان من القرآن فقد رخّص فيه بعض السّلف منهم عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ونُقِل روايةً عن أحمد رحمه الله ، ومنع منها ابن مسعود ،وابن عبّاس ورواية أخرى عن أحمد اختارها أكثر الأصحاب، مستدلّين بعموم الأحاديث الّتي لم تخصّ و لم تستثن شيئاً ، بخلاف الرّقى فقد فرّق الشرع فيها وفَهْمُ العمومِ هو فهم الصّحابة رواة الأحاديث ، قال في حاشية كتاب التّوحيد : (وقال بعضهم لايجوز ذلك : أي تعليق التّمائم الّتي بالقرآن وهو الصّحيح لوجوه :

الأوّل : عموم النهي ولا مخصّص للعموم .

الثّاني : أنّه إذا علّق فلابدّ أن يمتهنه بحمله معه في حال قضاء الحاجة وغيرها من الحالات القذرة .

الثّالث : سدّ الذريعة ، الرّابع : أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان يرقي ، ورُقي ، فلو كان تعليق تمائم القرآن جائزاً لأمر به، وليس في كتاب الله تعالى ولا في سنّة رسول الله مايدلّ على إجازة تعليق شيءٍ من القرآن ، ولا ثبت

---

(1) عقبة بن عامر بن عبس بن عمرو الجهني الصّحابيّ الجليل كان قارئاً عالماً بالفرائض والفقه فصيح اللّسان وهو أحد من جمع القرآن مات في خلافة معاوية ، الإصابة ٤ /٥٢٠ .

(2) الإحسان ١٣ / ٤٥٠ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد٤ / ١٥٤ ، والحاكم ٤ / ٢١٦ والطّبراني ١٧ / ٢٨٠ ، عن عقبة بن عامر ، الودعة شيء أبيض يُجلب من البحر يُعلّق في حلوق الصّبيان وغيرهم مخافة العين ، النّهاية لابن الأثير ٥ / ١٦٨ .

(3) تقدّم تخريجه ص٧٤ .

عن أحد من الصّحابة المُقتدى بهم تجويزه ولافعله مع توفّر الدّواعي إليه ، وماذاك إلاّ لأنّه ينافي التّوكل والإخلاص) [١] ، ويظهر ممّا تقدّم أنّ ابن حبّان لم يخرج عن المنصوص عن السّلف رحمهم الله وإن كان في تجويزه تمائم القرآن ذهب إلى القول المرجوح في المسألة ، والله تعالى أعلم [٢] .

---

[١] حاشية كتاب التّوحيد لابن قاسم النّجدي رحمه الله ص ٨٥ ـ ٨٦ .

[٢] وفيما تعيش الأمّة بعيداً عن الكتاب والسّنّة وفي غفلة من أهل العلم تنتشر بين المسلمين أعداد لاحصر لها من التّمائم ونصوص الرّقى والصّلوات المحمّديّة والدّعوات ، منسوبة كذباً وافتراء إلى بعض الصّالحين من الصّحابة ومن بعدهم ، ولعمرو الله إنّ هذه الخزعبلات ، وهذا الاستخفاف بعقول المسلمين لم يكن ليحدث إلاّ من جرّاء التّساهل من العلماء والدّعاة وولاة الأمور في جانب القضاء على البدع ، ذلك أنّ غالب هذه المنشورات يقوم عليها المتأكّلون على حساب دين الآخرين ، ويعدّهم بذلك إخوان الشّياطين من الكهنة والسّحرة المتلبّسين بالتّصوّف تارة وبالتّشيّع تارة ، وبالسّنّة والعلم تارة أخرى .

المبحث التّاسع : عقيدته في اتخاذ القبور مساجد

حرص الإسلام على سدّ الذّرائع المفضية إلى الشّرك وقطع العلائق الموصلة إليه ، حتّى منع التّشبه بالمشركين ومساكنتهم لأجل ذلك ، ومنع أيضاً من عبادة الله في مكان عُبد أو يُعبد فيه غير الله ،أوكان ذلك على طريقة أهل الشّرك ولو كانت العبادة خالصة لله سبحانه وتعالى ، كلّ هذا إمعاناً في حماية جناب التّوحيد ، وإحاطته بحاجز قوي لايسمح أبداً بتسرّب شيءٍ من الشّرك إلى المسلم إذا هو تمسّك بما جاء عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم .

ومن هذا الباب حرّمت الشّريعة الغرّاء بناء المساجد على القبور، وخصوصاً قبور الصالحين، وحرّمت اتّخاذ القبور مساجد يُعبد الله عندها ولو كانت العبادة خالصة لله من دون غيره ، وماذاك إلا سداً لذريعة الشّرك ، ولذلك قال الشّيخ الإمام المجدّد محمّد بن عبدالوهاب رحمه الله في كتابه التّوحيد : (باب ماجاء من التّغليظ فيمن عبدالله عند قبررجل صالح، فكيف إذا عبده) وعلّق عليه ابن قاسم بقوله : (أي باب ذِكر ماورد من النّصوص من التّغليظ والتّهديد والوعيد الشّديد على من يعبد الله عند قبر رجل صالح ، مع أنّه لايقصد إلاّ الله ومع كونه معصيةً فهو وسيلة وذريعةٌ من أعظم الوسائل والذّرائع إلى الشّرك ، وعبادة الله عنده وسيلة إلى عبادته ، وكلّ ماأدّى إلى محرّم فهو محرّم فالوسائل لها حكم الغايات ووسائل الشّرك محرمة لأنّها تؤدي إليه) [1] .

وابن حبّان رحمه الله أكّد هذا المعنى فقال : " ذِكرُ لعن المصطفى صلّى الله عليه وسلّم المتّخذات المساجد والسّرج على القبور" ، ثم ساق تحته

[1] التّوحيد مع الحاشية ص١٥٣ بتصرّف .

حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما مرفوعاً : (**لعن الله زائرات القبور والمتّخذات عليها المساجد والسّرج**)[1] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الزّجر عن زيارة القبور، واتّخاذ السّرج والمساجد عليها) ثّم ساق حديث ابن عباس المتقدم بلفظ (..**والمتخذين** . .) [2] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ لعن الله جلّ وعلا من اتّخذ قبور الأنبياء مساجد "، ثّم ساق تحته حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : (**لعن الله قوماً اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**)[3] .

تعليق :

إنّ النّهي عن اتّخاذ القبر مسجداً أو البناء على القبر أو دفن الموتى في المساجد ،كلّ ذلك مقصوده سدّ الذّريعة المفضية إلى الشّرك ، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله : (ففي صحيح مسلم عن جندب بن عبدالله أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال قبل أن يموت بخمس : (**إنّ من كان قبلكم كانوا يتّخذون القبور مساجد، ألا فلا تتّخذوا القبور مساجد فإنّي أنهاكم عن ذلك**)[4] ، وفي الصحيحين عن

[1] الإحسان ٧ / ٤٥٢ ، والحديث أخرجه بهذا التّمام أحمد ١ / ٢٢٩ وأبوداود كتاب الجنائز باب زيارة النّساء القبور ، والتّرمذي كتاب الصّلاة باب كراهية أن يتّخذ على القبر مسجداً وحسّنه ، والنّسائي في الجنائز باب التّغليظ في اتّخاذ السّرج على القبور وغيرهم من طرق عن أبي صالح مولى أمّ هانيء بنت أبي طالب واسمه باذان أو باذام ، وأصل الحديث في هذه المصادر وغيرها وله شواهد من حديث أبي هريرة وغيره دون زيادة (**والسّرج**) فقد انفرد بها أبو صالح عن ابن عبّاس ، وفيه اختلاف بين النّقّاد والجمهور على ضعفه ، وقال ابن حبّان إنّه لم يسمع من ابن عبّاس ، رمز له الحافظ بالضّعف ، ومن تتبّع ماقيل فيه يظهر له أنّ مثله لايحتمل تفرّده ، ولذلك ضعّف الحديث الإمام مسلم ، والشّيخ الألباني ، مع تحسين الشّيخ أحمد شاكر له في تعليقه على سنن التّرمذي ٢ / ١٣٦ انظر السّلسلة الضّعيفة ١ / ٢٥٨ .

[2] الإحسان ٧ / ٤٥٣ والحديث بهذا التّمام لايثبت ، انظر ماتقدّم .

[3] الإحسان ٧/ ٤٥٥ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٦ / ١٤٦ ، ٢٥٢ ، والنّسائي في الجنائز باب اتّخاذ القبور مساجد ، ورواه مسلم عن عائشة بلفظ: (**لعن الله اليهود والنّصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**) أخرجه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصّلاة باب النّهي عن بناء المساجد على القبور .

[4] رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصّلاة باب النّهي عن بناء المساجد على القبور .

عائشة رضي الله عنها أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال قبل موته : (**لعن الله اليهود والنّصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**) يحذّر مافعلوا [1] .

واتّخاذ المكان مسجداً هو أن يُتّخذ للصّلوات الخمس وغيرها كما تُبنى المساجد لذلك، والمكان المتّخذ مسجداً إنّما يُقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لادعاء المخلوقين ، فحرّم صلّى الله عليه وسلّم أن تتّخذ قبورهم مساجد بقصد الصلوات فيها كما تُقصد المساجد وإن كان القاصد لذلك إنّما يقصد عبادة الله وحده لأنّ ذلك ذريعة إلى أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به وعنده ، فنهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن اتّخاذ هذا المكان لعبادة الله ولو كانت العبادة لله ، لئلاّ يُتّخذ ذريعةً إلى الشّرك بالله، والفعل إذا كان يفضي إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ، يُنهى عنه ، كما نُهي عن الصّلاة في الأوقات الثّلاثة لما في ذلك من المفسدة الرّاجحة وهو التّشبّه بالمشركين الّذي يفضي إلى الشّرك)[2] .

وهذا النّهي عامٌّ في كلّ قبر ، إلاّ أنّه في قبور الأنبياء والصّالحين أوكد وأشد ، ولذلك لعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من اتّخذ القبور مساجد وذكّر أصحابه أنّها طريقة اليهود والنصارى ونهاهم عن التّشبّه بهم .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله : (فهذه المساجد المبنيّة على القبور يتعيّن إزالتها بهدمٍ أو غيره ، هذا ممّا لاأعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين ، وتُكره الصّلاة فيها من غير خلاف أعلمه ، ولا تصحّ عندنا في ظاهر المذهب لأجل النّهي واللّعن الوارد في ذلك ، وليس في هذه المسألة خلاف لكون المدفون فيها واحد ، وإنّما اختلف اصحابنا في المقبرة المجرّدة عن مسجد : هل حدّها ثلاثة أقبر أو ينهى عن الصّلاة عند القبر الفذ ؟ على وجهين)[3] .

---

[1] أخرجه البخاري في الجنائز باب مايكره من اتّخاذ المساجد على القبور ، ومسلم في المساجد باب النّهي عن بناء المساجد على القبور .

[2] قاعدة جليلة ص٢٩ - ٣١ .

[3] اقتضاء الصّراط المستقيم ص٣٣٠

وذكر رحمه الله من المحدثات الّتي أُحدثت عند القبور فقال : (ومنها إبقاء المصابيح في هذه المشاهد مطلقاً : لايجوز بلا خلاف أعلمه ،للنّهي الوارد ، ولا يجوز الوفاء بما يُنذر لها من دهن وغيره ، بل موجبه موجب نذر المعصية.

ومنها الصّلاة عندها وإن لم يبن هناك مسجد ، فإنّ ذلك أيضاً اتّخاذها مسجداً، كما قالت عائشة رضي الله عنها : (ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن خشي أن يُتّخذ مسجداً)[1] ، ولم تقصد عائشة رضي الله عنها بمجرّد بناء مسجدٍ فإنّ الصّحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً ، وإنّما تقصد أنّهم خشوا أنّ النّاس يصلّون عند قبره وكل موضع قُصدت الصّلاة فيه فقد اتُّخذ مسجداً ، بل كلّ موضع يصلى فيه فإنّه يسمّى مسجداً ولو لم يكن هناك بناء)[2] .

وقال رحمه الله أيضاً : (السّبب في النّهي عن الصّلاة في المقبرة ليس لعلّة النّجاسة وإنّما لأنّ ذلك مظنّة اتّخاذها أوثاناً ، كما قال الشّافعي رحمه الله : وأكره أن يُعظّم مخلوقٌ حتى يُجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من النّاس .

وقد نبّه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى هذه العلّة بقوله : (**اللّهم لاتجعل قبري وثناً يُعبد**)[3] ، وهذه المفسدة هي الّتي حسم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مادتها حتّى نهى عن الصّلاة في المقبرة مطلقاً، وإن لم يكن يقصد المصلّي بركة البقعة بصلاته وذلك سدّاً للذّريعة، فأما إذا قصد الرّجل الصّلاة عند بعض قبور الأنبياء أو بعض الصالحين متبرّكاً بالصّلاة في تلك البقعة ، فهذا عين المحادّة لله ورسوله ، والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن الله به فإنّ

---

[1] صحيح مسلم كتاب الصّلاة باب النّهي عن بناء المساجد على القبور ح٥٢٩ .

[2] اقتضاء الصّراط المستقيم ص٣٣٣ .

[3] أخرجه مالك في الموطّأ كتاب قصر الصّلاة في السّفر باب جامع الصّلاة ح٨٥ عن عطاء بن يسار مرسلاً ، وأحمد ٢ / ٢٤٦ ، عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً ، وإسناده صحيح .

المسلمين قد أجمعوا على أنّ الصّلاة عند القبر ــ أي قبر كان ــ لافضل فيها لذلك ولا للصلاة في تلك البقعة مزيةخير أصلاً، بل مزية شر)[1] .

(1) اقتضاء الصّراط المستقيم ص٣٣٣ ـ ٣٣٤ باختصار .

المبحث العاشر : مذهبه في الصّور والتّصوير

تقدّم أنّ الشّرع المطهّر لمّا حرّم الشّرك بكلّ أنواعه حرّم لذلك جميع الوسائل الّتي قد توصل إليه ، وسدّ كلّ الذّرائع الّتي قد تؤدي إليه .

ومن ذلك أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم نهى عن التّصوير واتّخاذ الصّور وتعظيمها واحترامها لأنّ ذلك مظنّة تعظيمها والتوجّه لها ، خصوصاً إذا كان المصوَّر عظيماً من العظماء أو صالحاً من الصّالحين، عداك عمّا في ذلك من مشابهة للمشركين ومضاهاة بخلق الله ، فقضيّة التّصوير إذن قضيّة عقديّة تتعلّق بأصل الدّين وهو التّوحيد، ومن هذا المنطلق واتّباعاً لسنّة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم فقد حذّر ابن حبّان في صحيحه أشدّ التّحذير من التصوير واتّخاذ الصّور .

قال رحمه الله في ترجمة : " ذِكرُ تعذيب الله جلّ وعلا المصوّرين الّذين يصوّرون الصّور " ، ثمّ ساق حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : (**إنّ الله يعذّب المصوّرين لما صوّروا**) [1] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ البيان بأنّ المصوّرين يكونون في القيامة من أشدّ خلق الله عذاباً " ، ثمّ ساق حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : (**إنّ أشد النّاس عذاباً يوم القيامة الّذين يشبّهون بخلق الله**)[2].

وقال أيضاً : " ذِكرُ وصف العذاب الّذي يُعذّب به المصوّرون " ، ثمّ ساق حديث ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً : (**من صوّر صورة فإنّ الله يعذّبه حتّى ينفخ فيها الرّوح وليس بنافخ**)[3] .

---

(1) الإحسان ١٣ / ١٥٧ والحديث أخرجه أيضاً البخاري في البيوع باب بيع التّصاوير الّتي ليس فيها روح ومسلم في اللّباس باب تحريم تصوير صورة الحيوان .

(2) الإحسان ١٣/ ١٥٨ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الأدب باب مايجوز من الغضب والشّدّة لأمر الله تعالى ، ومسلم في اللّباس باب تحريم تصوير صورة الحيوان .

(3) الإحسان ١٣ / ١٥٩ والحديث أخرجه أيضاً البخاري في اللّباس باب من صوّر صورة كلّف يوم القيامة أن ينفخ فيها الرّوح ومسلم في اللّباس باب تحريم تصوير صورة الحيوان .

وقال : " ذِكرُ الزّجر عن اتّخاذ الصّور على الأرض والجدر " ، وساق حديث جابر بن عبدا لله رضي ا لله عنه : **أنّ النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم نهى عن الصّور في البيت** [(١)] .

وقال أيضاً : "ذكر العلّة الّتي من أجلها زجر عن الصّور في البيت " ، وساق تحته حديث عائشة رضي ا لله عنها مرفوعاً وفيه : (**إنّ البيت الّذي فيه الصّور لاتدخله الملائكة**) [(٢)] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ نفي دخول الملائكة البيت الّذي فيه الصّور " وساق حديث أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**إنّ الملائكة لاتدخل بيتاً فيه تماثيل أو صورة**)[(٣)] .

وقال : " ذِكرُ الإخبار عمّا يجب على المرء من ترك التّصوير في هذه الدنيا على شيءٍ من الأشياء " ، وساق حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**قال ا لله تبارك وتعالى : ومن أظلم ممّن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا حبّة، أو ليخلقوا ذرّة**)[(٤)] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ مايستحبّ للمرء أن لايدخل بيتاً فيه صورة وإن كان ذلك البيت ممّا يُتقرّب به إلى ا لله جلّ وعلا " ، ثمّ ساق حديث ابن عبّاس (**أنّ النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم لمّا رأى الصّور في البيت ـ يعني الكعبة ـ لم يدخل وأمر بها فمُحيت**)[(٥)] .

وقال بعد حديث عائشة رضي ا لله عنها مرفوعاً : (**إنّ البيت الذي فيه الصّور لاتدخله الملائكة**) : " يشبه أن يكون هذا : البيت الذي يُوحى

---

(١) الإحسان ١٣/ ١٥٥ والحديث أخرجه أحمد ٣ / ٣٣٥ ، والتّرمذي في اللّباس باب ما جاء في الصّورة ،

(٢) الإحسان ١٣ / ١٥٥ والحديث أخرجه البخاري في اللّباس باب من كره القعود على الصّور ومسلم في اللّباس باب تحريم تصوير صورة الحيوان .

(٣) الإحسان ١٣ / ١٦٠ ، والحديث أخرجه مالك في الموطّأ في الاستئذان باب ماجاء في الصّور والتّماثيل ، وأحمد ٣ / ٩٠ ، والتّرمذي في الأدب باب ماجاء أنّ الملائكة لاتدخل بيتاً فيه صورةولاكلب .

(٤) الإحسان ١٣ / ١٦٩ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في اللّباس باب نقض الصّور ومسلم في اللّباس باب تحريم تصوير صورة الحيوان .

(٥) الإحسان ١٣ / ١٧١ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الحجّ باب من كبّر في نواحي الكعبة .

فيه على النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم ، إذ محـالٌ أن يكـون رجـلٌ في بيـت وفيـه صورة من غير أن يكون حافظاه معه، وهما من الملائكة " [١] .

وقال في ترجمة : " ذِكرُ الخبرالدالّ على أنّ قوله عليه الصّلاة والسلام : (لاتدخـل الملائكـة بيتـاً فيـه صـورة ولا كلـب) أراد بيتـاً يُوحـى فيـه لاكـلّ البيوت " [٢] .

وقال في ترجمة أخرى : " ذِكرُ البيـان بـأنّ الملائكـة قـد تدخـل البيـت الّذي فيه الشّيء اليسير من الصّور" ، وساق حديث بسر بن سعيد عن زيد بن خالد عن أبي طلحة رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**إنّ الملائكة لاتدخـل بيتـاً فيـه صورة**) ، قال بُسر : ثم اشتكى ـ أي زيد بن خالد ـ فعدنـاه فـإذا علـى بابـه سِتر وإذا فيه صورة ، فقلت لعبيـد ا لله الخولانـي : ألم يخبرنـا ويـدع الثـوب ؟ قال : ألم تسمعه قال: (إلاّ رقماً في ثوب) [٣] .

تعليق:

لا شكّ أنّ هذه التّعاليق والتّراجم التي سطرها ابن حبّان كانت في محلها إذ أن التصوير أمره عظيم وخطير ، فإنّه أو ل باب فتن به الخلـق حتـى عبـدوا غير ا لله، والقلوب مفطورة على حب الصّور والتعلق بها وقد يزيد بهـا ذلـك حتى يخرجها إلى التألّه والتعبّد ولذلك نهى ا لله عنها أشدّ النهي .

والصّورة هـــي الشّكل والهيئة ، وصـورة الشّـيء شـكله وهيئتـه ، وصورّ الشّيء أي جعل له شكلاً وهيئة ، ومن أسمـاء ا لله المصـوّر ، أي الّـذي أعطى كلّ شيء صورته وشكله وهيئته الخاصّة به . [٤]

ثم إنّ تحريم التّصوير واتّخاذ الصّور له متعلّقان:

---

[١] الإحسان ١٣ / ١٥٦ .

[٢] الإحسان ١٣ / ١٦٦ .

[٣] الإحسان ١٣ / ١٦٠ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في اللّباس باب من كره القعود على الصّور ، ومسلم في اللّبـاس بـاب تحريم تصوير صورة الحيوان ، زيد بن خالد هو الجهني صاحب رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم وأبو طلحة هو زيد بن سهل الأنصاري الصّحابيّ المشهور ، وعبيد ا لله الخولاني هو عبيدا لله الأسود ويقال ابن أسد وهو ربيب ميمونة رضي ا لله عنهـا ، انظر فتح الباري ١٠ / ٣٩٠ ، والرّقم هو النّقش والوشي والأصل فيه الكتابة ، انظر النّهاية لابن الأثير ٢ / ٢٥٣ .

[٤] انظر القاموس المحيط ٢ / ١٠٤ ، والنّهاية لابن الأثير ٣ / ٥٨ .

أحدهما : في نفس فعل التّصوير فإنّه محاولة لمضاهاة الله في خلقه فلذلك يحرم كلّ أنواع التّصوير سواء كان مجسّماً أو منقوشاً مادام باليد ، إذ محاولة المضاهاة فيها واضحة ، وعلى هذا ينزل ماجاء في لعن المصوّرين وكونهم أشدّ الناس عذاباً .

والثّاني : في اتّخاذ الصّور ولو لم يكن هو المصوّر ،والعلّة هنا أنّ اتّخاذ الصّور مظنّة الغلوّ فيها ، سيّما إذا كان المصوَّر من المعظّمين، وكون الصّورة معظمة محترمة وعلى هذا تنزّل أحاديث النّهي عن اتّخاذ الصّور في البيت ، بل إنّ هذه العلّة تتعدّى إلى كلّ صورة محترمة معظّمة ولو كانت خارج البيت، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأحد أصحابه: (ألا أبعثك على مابعثني عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أن لاتدع تمثالاً إلاّ طمسته، ولاقبراً مشرفاً إلاّ سوّيته) وفي رواية أخرى (ولا صورةً إلا طمستها) (1) .

ولمّا كانت البيوت هي المأوى الّذي يعيش فيه النّاس فقد نهى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن اقتناء الصّور بها ولو كانت مهانة على الصحيح من أقوال العلماء*، يدلّ على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها لّما اشترت النّمرقة ليتوسّدها النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، فقد أنكر عليها ذلك مع أنّ الوسادة إنّما هي موطوءة مهانة ، فدلّ ذلك على أنّ اقتناء الصّور في البيت لايجوز على كلّ وجه من الوجوه ، ولا يُستثنى من ذلك إلاّ ماكانت فيه مصلحة معتبرة شرعاً تبعد شبهة التّعظيم والاحترام ، كاتّخاذ عائشة للعب البنات(2) ، ويُقاس عليه ايضاً كلُّ مصلحةٍ شرعيّة مثل الصّور التي في التّابعية وجوازات السّفر وغير ذلك مما فيه مصلحة عامة (3) .

وأما اتّخاذها للذّكرى كما يقصد ذلك كثير من النّاس فهو أمرٌ غير معتبر شرعاً ، بل إنّ الذكرى هذه هي أصل عبادة المشركين للأصنام ، فقد

---

(1) أخرجه مسلم في الجنائز باب تسوية القبر عن أبي الهيّاج الأسدي .

(2) انظر فتح الباري ١٠ / ٥٢٦ ـ ٥٢٧ .

(3) المجموع الثّمين من فتاوى الشّيخ ابن عثيمين ٢ / ٢٥٢ .

* منهم ابن بطال والمنذري وابن الجوزي وهو مروي عن مالك رحمه الله، انظر فتح الباري ١٠ / ٥٢٦ .

روى ابن جرير بسنده عن محمّد بن قيس قال في قوله تعالى : ﴿**ولا تذرنّ وَداً ولا سُواعاً** . .﴾ يُقال : (كانوا قوماً صالحين من بني آدم وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلمّا ماتوا قال أصحابهم الّذين كانوا يقتدون بهم : لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوّروهم ، فلمّا ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال : إنّما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر فعبدوهم)[١]

وبمعناه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (هي أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلمّا هلكوا أوحى الشّيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم الّتي كانوا يجلسون أنصاباً وسمّوها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تُعبد ، حتّى هلك أولئك وتنسّخ العلم عبدت)[٢] .

وقال الحافظ رحمه الله : (وأخرج الفاكهي من طريق عبيدا الله بن عبيد بن عمير قال : أوّل ماحدثت الأصنام على عهد نوح ، وكانت الأبناء تبرّ الآباء ، فمات رجل منهم فجزع عليه ابنه ، فجعل لايصبر عنه فاتّخذ مثالاً على صورته فكلّما اشتاق إليه نظره ، ثمّ مات ففُعِل به كما فَعل حتّى تتابعوا على ذلك ، فمات الآباء فقال الأبناء : ما اتّخذ آباؤنا هذه إلاّ أنّها كانت آلهتهم فعبدوها)[٣] .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (قال غير واحد من السّلف : لّما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوّروا تماثيلهم ثمّ طال عليهم الأمد فعبدوهم)[٤] .

إذا عُرف هذا فإنّ تخصيص ابن حبّان لنفي دخول الملائكة البيت الذي يُوحى فيه أو البيت الذي فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، غير سديد:

أوّلا: لعموم الأحاديث ولا مخصّص .

ثانياً : أنّ الحكم يدور مع العلّة وجوداً وعدماً ، والعلّة هنا متحقّقة في كلّ مكان تعلّق فيه الصّور ، وامتناع دخول الملائكة نوعُ زجر وعقوبة ولأنّ

---

[١] تفسير ابن جرير ١٢ / ٢٥٤ .

[٢] البخاري في التّفسير باب قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لاتذرنّ ودّاً ولاسواعاً** ﴾ .

[٣] فتح الباري ٨ / ٦٦٩ .

[٤] تيسير العزيز الحميد ص٣٠٩ ، وانظر إغاثة اللّهفان ٢ / ٢٥٤ ومابعدها .

اتّخاذ الصّور مظنّة الشّرك والغلوّ ولا تدخل الملائكة بيتاً فيه شبه من فعل أهل الشّرك .

ثمّ إنّ المراد بالملائكة هنا عموم الملائكة على الصّحيح وقد استثنى بعض العلماء الملائكة الحفظة ، وعلى هذا القول فلا إشكال وعلى قول من ذهب إلى العموم وهو الصّحيح إن شاء الله فيُقال : إنّه غير بعيد أن يطلع الله الملائكة الحفظة على أقوال وأعمال العبد وهم بباب الدّار الّتي هو فيها مثلاً [1] ، وقد صحّ عنه عليه الصّلاة والسلام أنّ الحفظة لايرافقان العبد إذا دخل الخلاء فلم يكن في ذلك لبس ، فلا يبعد إذن أن يكون عقوبة من اتخذ الصّور عدم دخول الملائكة هجراً له ، حتّى الحفظة والكتبة .

ثمّ إنّ ابن حبّان نفسه تناقض حيث قال في ترجمته لحديث زيد بن خالد الجهني : " ذِكرُ البيان بأنّ الملائكة قد تدخل البيت الذي فيه الشّيء اليسير من الصّور " ، فإذا كان المراد بهذه النّصوص أماكن نزول الوحي فلا داعي لهذه التّرجمة إذن لأنّ بيت زيد ليس بيت نبي ولاوحي ينزل فيه خصوصاً عند رواية الحديث فإنّه كان بعد موت النّبيّ عليه الصّلاة والسلام .

وقد استشكل الحافظ كلام ابن حبّان وردّه ووصفه بالشذوذ وقال : (هو تأويل بعيد جداً ولم أره لغيره)[2] .

وخلاصة ماتقدّم : أنّ التّصوير بابٌ عظيمٌ من أبواب الشّرك بالله تعالى وسدّه أولى من التّساهل فيه ، وقول ابن حبّان في تخصيص عدم دخول الملائكة بالبيت الذي يوحى فيه فحسب قول بعيد ولا يسنده دليل ، أمّا نفس فعل التّصوير فهو محرم بإطلاق لما فيه من المضاهاة لخلق الله تعالى ، إلاّ ما

(1) انظر فتح الباري ١٠ / ٣٨١ .

(2) فتح الباري ١٠ / ٣٨٢ .

شهدت المصلحة الشّرعيّة لجوازه ، والضّرورات تقدّر بقدرها ، والله تعالى أعلم بالصواب[1] .

---

[1] تكلّم العلماء المتأخّرون عن حكم التّصوير الفوتوغرافي الآلي ، وانقسموا بين مجيز له بإطلاق ، ومانع له بإطلاق ، وذهب بعضهم إلى التّفصيل والتّفريق بين نفس التّصوير وبين الصّورة ، فالتّصوير بالآلة ليس تصويراً في الحقيقة وليس فيه من عمل الإنسان وإتقانه شيء البتّة بل هوأشبه بالمرآة وصورة الماء ، ومن هذا الجانب ينتفي عنه حكم المضاهاة ، ولذلك لاتجد أحداً يتمدّح ويفخر بأنّ الصّورة الّتي التقطها تشبه المُصوَّر إذ ليس له من الفعل شيء ، بعكس التّصوير اليدوي فإنّ الرّسّام يحاكي أصل الخلقة ، وكلّما شابهت الصّورة الأصلَ كلّما نُسب ذلك إلى مهارة الرّسّام ، ويبقى النّظر إذن في حكم الصّورة نفسها ، فإن كان فيها مصلحة شرعيّة معتبرة فهي مباحة ، وإلاّ أُلحقت بالأصل ، انظر المجموع الثّمين من فتاوى ابن عثيمين ٢ / ٢٥٤ .

المبحث الحادي عشر : عقيدته في اللّـــو

من الأمور التي حذّر منها ابن حبّان قول الإنسان : لو كان كذا لكـان كذا، لما في ذلك من فتح باب الشّيطان وعدم الرّضـا بـالقدر أو تعليـق القـدر بغير مشيئة الله تعالى فيقول مثلاً : لو أنّني تداويت لشُـفيت مـن هـذا المرض، وإنّما الواجب التّوكّل على الله عزّ وجلّ ونسبة الأمور إلى مشيئة الله سبحانه ، وليعلم المرء أنّ ماأصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

قال رحمه الله تعالى : " ذِكرُ الزّجر عن أن يستعمل المرء في أسبابه اللّـو دون الانقياد بحكم الله جلّ وعلا فيهـا " ، وسـاق تحتـه حديـث أبـي هريـرة رضي الله عنه مرفوعاً وفيه (. . **احرص على مـا ينفعـك ولا تعجـز ، فـإن غلبك شيء فقل : قدّر الله وماشاء فعل ، وإيّـاك واللّـو ، فـإن اللّو تفتـح عمل الشيطان**)[1] .

قال في فتح المجيد : (قوله : **فإنّ لو تفتح عمل الشـيطان** ، أي لـما فيهـا من التّأسّف على مافات والتّحسّر ولوم القدر، وذلـك ينـافي الصّـبر والرّضـى، فالصّبر واجب والإيمان بالقدر فرض) [2] .

وقال أيضاً : (قوله ـ أي محمّد بن عبد الوهّاب ـ "بـاب ماجـاء في اللّـو" أي من الوعيد والنّهي عنه عند الأمـور المكروهـة ، كالمصـائب إذا جـرى بهـا القدر ، لما فيـه مـن الإشـعار بعـدم الصّـبر والأسـى علـى مافـات ، فـالواجب التّسليم للقدر والقيام بالعبوديّة الواجبة ، وهو الصّبر علـى ماأصـاب العبـد ممّـا يكره) [3].

---

[1] الإحسان ١٣ / ٢٨ ، والحديث أخرجه أحمد ٢ / ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، وابن ماجة في الزّهد باب التّوكّل واليقين .

[2] فتح المجيد ص٤٨١ .

[3] المصدر السّابق ص٤٧٨ .

المبحث الثّاني عشر : عقيدته في الهام والغول

قال ابن الأثير : (الغول أحد الغيلان ، وهو جنسٌ من الجنّ والشّياطين كانت العرب تزعم أنّ الغول في الفلاة تتراءى للنّاس فتتغوّل تغوّلاً: أي تتلوّن تلوّناً في صور شتّى، وتغوّلهم أي تضلّهم عن الطريق وتهلكهم) [١] .

وقال أيضاً : (الهامة : الرّأس ، واسم طائر ، وهو المراد في الحديث **(لاعدوى ولا طيرة)** وذلك أنّهم كانوا يتشاءمون بها وهي من طير الليل ، وقيل : هي البومة ، وقيل كانت العرب تزعم أنّ روح القتيل الّذي لاُيدرك بثأره تصبح هامة فتقول : اسقوني فإذا أُدرك بثأره طارت، وقيل: كانوا يزعمون أنّ عظام الميت، وقيل : روحه تصير هامةً فتطير ويسمّونه الصّدى) [٢] .

قال ابن حبّان رحمه الله : " ذِكرُ الزّجر عن قول المرء بالهام الّذي كان يقول به أهل الجاهلية " ، ثمّ ساق تحته حديث سعد بن أبي وقّاص مرفوعاً **(لاعدوى ولا طيرة ولا هام . .)** [٣] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الزّجر عن قول المرء باغتيال الغول إيّاه " ، وساق تحته حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعاً : **(لا عدوى ولا صفر ولا غول)** [٤] .

قال في فتح المجيد : (قال ابن الأعرابي[٥] : كانوا يتشاءمون بها : أي الهام والبوم ، إذا وقعت على بيت أحدهم يقول : نعت إليّ نفسي أو أحداً من أهل داري فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله) [٦] .

---

(١) النّهاية ٣ / ٣٩٦ وانظر تهذيب اللّغة ٨ / ١٩٢.

(٢) النّهاية ٥ / ٢٨٣ وانظر تهذيب اللّغة ٦ / ٤٦٧.

(٣) الإحسان ١٣ / ٤٩٧ ، والحديث رواه أيضاً أحمد ١ / ١٧٤ ، ١٨٠ ، وأبوداود في الطّب باب في الطّيرة وغيرهم .

(٤) الإحسان ١٣ / ٤٩٨ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في السّلام باب لاعدوى ولاطيرة ولاهامة ولا صفر .

(٥) أبو عبدالله محمّد بن زياد بن الأعرابي الهاشمي مولاهم الأحول النّسّابة ، إمام اللّغة المشهور ، متوفّى سنة٢٣١ هـ ،انظر السّير ١٠/٦٨٧ .

(٦) فتح المجيد ص ٣٢٢ .

وقال الخطّابي في معالم السّنن : (قوله : (**لاغول**) ليس معناه نفي الغول عيناً وإبطالها كوناً وإنّما فيه إبطال مايتحدّثون به عنها من تغوّلها واختلاف تلوّنها في الصور المختلفة وإضلالها النّاس عن الطّريق وسائر مايحكونه عنها ممّا ليس له حقيقة ، يقول : لا تصدّقوا بذلك ولا تخافوها فإنّها لا تقدر على شيءٍ من ذلك إلاّ بإذن الله) [1] .

وقال في فتح المجيد : (المنفي ليس وجود الغول ، بل مايزعمه العرب من تصرّفه بنفسه أو يكون المعنى بقوله : (**لاغول**) أنّها لاتستطيع أن تضلّ أحداً مع ذِكرِ الله والتوكّل عليه ، ويشهد له الحديث الآخر (**لاغول ولكن السّعالي سحرة الجن**)[2] ، أي ولكن في الجنّ سحرة لهم تخييل وتلبيس، ومنه الحديث (**إذا تغوّلت الغيلان فبادروا بالأذان**)[3] ، أي ادفعوا شرّها بذكر الله ، وهذا يدلّ على أنّه لم يرد بنفيها عدمها)[4] .

فمراد الشرع من النفي إذن : ماكان عليه أهل الجاهليّة من ربط نتائج بمقدّمات لاعلاقة بينها سوى الخرافة والدّجل ويدخل في ذلك كلّ ماكان شبيهاً به ممّا يورث النّاس الخوف الشّديد من غير الله وتعليق حوائجهم وقضائها من عدمه عليها ، وصدّهم عن مصالحهم بسبب تلك الخزعبلات والله تعالى أعلم .

---

(1) معالم السّنن ٥ / ٣٧٧ ـ ٣٧٨ .

(2) لم أجده مرفوعاً ، لكنّه رُوي عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أخرجه عبدالرّزّاق في المصنّف ٥ / ١٦٢ ، وابن أبي شيبة في المصنّف ح٢٩٧٣٣ من طريق يُسير بن عمرو قال : ذُكِر عند عمر الغيلان فقال : إنّه لايتحوّل شيء عن خلقه الّذي خلق له ولكن فيهم سحرة من سحرتكم ، زاد عبدالرّزّاق (فإذا رأيتم شيئاً من ذلك فأذّنوا) .

(3) أخرجه أحمد ٣ / ٣٨١ـ٣٨٢ ، ٣٠٥ و ابن أبي شيبة في المصنّف ح٢٩٧٣٢ ، وغيرهم عن الحسن البصري عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه أيضاً البزّار ٤ / ٣٤ وعبدالرّزّاق في المصنّف ٥ / ١٦٣ عن سعد رضي الله عنه مرفوعاً ، وجميع هذه الأسانيد فيها انقطاع ، وبعضها من مراسيل الحسن ، وأخرجه أيضاً الطّبراني في الأوسط ح٧٤٣٦ عن أبي هريرة وفي إسناده متروك ، والخلاصة أنّ الحديث لايثبت مرفوعاً ، انظر السّلسلة الضّعيفة للألباني ٣ / ٢٧٧ ح١١٤٠ .

(4) فتح المجيد ص ٣٢٣ .

المبحث الثّالث عشر : عقيدته في التّنجيم والاستسقاء بالنّجوم

كان ممّا أحدثه أهل الجاهليّة في النّجوم والأنواء : نسبةُ بعض الحوادث لها ، والربط بينها وبين الحوادث الأرضيّة ربط تأثير وإيجاد ، وقد جاء الإسلام بالنّهي عن الرّبط بين أسباب وبين مسبّبات لاعلاقة بينها، وهذا من ذاك .

والأنواء جمع نَوْء ، وهي منازل القمر الّتي ينزل بها، قال ابن الأثير : (هي ثمان وعشرون منزلة، ينزل القمر كلّ ليلة في منزلة منها ، ومنه قوله تعالى : ﴿**والقمرَ قدّرناه منازل**﴾ : **يس ٣٩** ،ويسقط في المغرب كلّ ثلاثة عشر ليلة منزلة مع طلوع الفجر وتطلع أخرى مقابلها ذلك الوقت في الشّرق فتنقضي جميعها مع انقضاء السّنة ، وإنّما سُمّي نوْءاً: لأنّه إذا سقط السّاقط منها بالمغرب ناء الطّالع بالمشرق، ينوء نوءاً: أي نهض وطلع ، وقيل : أراد بالنّوْء الغروب ، وهو من الأضداد) [١] .

والتّنجيم هو : أن يتوقّع مافي المستقبل بناءً على النّظر في النجوم ، وهو باطل أيضاً ، لأنّه لاعلاقة بين النّجوم وبين مايحدث في الأرض البتّة ، وهو من ادّعاء علم الغيب ويدخل في الكهانة .

وفي التّنجيم قال ابن حبّان رحمه الله تعالى : " ذِكرُ الإخبار عمّا يجب على المرء من مجانبة القضايا والأحكام بالنّجوم " ، ثمّ ساق حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما عن رجلٍ من الأنصار أنّهم بينما هم جلوسٌ مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذْ رُمي بنجم ، فاستنار ، فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : (**ماكنتم تقولون في الجاهليّة إذا رُمي بمثل هذا ؟** ، قالوا: كنّا نقول : وُلد اللّيلة رجلٌ عظيم ، مات اللّيلةرجلٌ عظيم، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : **فإنّها لاتُرمى لموت أحدٍ، ولا لحياته، ولكنّ ربّنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبّح حملة العرش ثمّ سبح أهل السّماء الّذين يلونهم، حتّى يبلغ التّسبيح أهل السماء الدنيا، فيقول الذين يلون حملة العرش: ماذا**

[١] النّهاية في غريب الحديث والأثر ٥ / ١٢٢ .

قال ربكم؟ فيخبرونهم، فيخبر أهل السماوات بعضُهم بعضاً حتى يبلغ الخبر أهل السّماء الدّنيا ويخطف الجنّ، فيلقونه إلى أوليائهم، ويُرمون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنّهم يقرِفون فيه أويزيدون) [1] .

وقال ابن حبّان أيضاً : " ذِكرُ الزّجر عن قول المرء بعيافة الطّيور واستعمال الطّرق " ، ثمّ ساق قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**العيافة والطيرة والطّرق من الجبت**)[2] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ البيان بأنّ من حكم بمجيء المطر في وقت بعينه كذّبه فجْرُه ، إذ الله جلّ وعلا استأثر بعلمه دون خلقه " ، وساق حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : (**مفاتح العلم خمسٌ لايعلمها إلاّ الله . . ولايعلم متى يأتي المطر إلاّ الله**) [3].

وهذا التّراجم الّتي ترجم بها ابن حبّان للنّصوص الواردة ، إنّمايريد بها ادّعاء مافي الغيب بناءً على النّظر في النّجوم وهو محرّم ، إذ هو من الكهانة وقد قال عليه الصّلاة والسّلام : (**من أتى كاهناً أو عرّافاً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمّد**) [4].

وقال الخطّابي رحمه الله : (علم النّجوم المنهي عنه : هو مايدّعيه أهل التّنجيم من علم الكوائن والحوادث الّتي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان، كإخبارهم بأوقات هبوب الرّياح ومجيء المطر ، وظهور الحرّ والبرد، وتغيّر الأسعار ، يزعمون أنّهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها وباجتماعها واقترانها ، ويدّعون لها تأثيراً في السّفليات وأنّها تتصرّف على

---

[1] الإحسان ١٣ / ٤٩٩ ـ ٥٠٠ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في كتاب السّلام باب تحريم الكهانة .

[2] الإحسان ١٣ / ٥٠٢ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٣ / ٤٧٧ ،أبوداود في الطّب باب في الخطّ وزجر الطّير وغيرهم من طرق عن قبيصة بن المخارق صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ومداره على عوف الأعرابي عن حيّان بن العلاء ، وقيل عن حيّان بن عمير ، وأسانيد الحديث مابين ضعيف ومضطرب ، ممّا نزل بدرجة الحديث إلى الضّعف ، انظر تهذيب الكمال ٧ / ٤٧٤ ، وغاية المرام للألباني ح٣٠١ .

[3] الإحسان ١٣ / ٥٠٤ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في التّوحيد باب ﴿ **عالم الغيب فلايُظهر على غيبه أحداً** ﴾ .

[4] أخرجه أحمد ٢ / ٤٠٨ ، ٤٢٩ ، وأبوداود في الطّب باب في إتيان الكاهن ، والتّرمذي في الطّهارة باب ماجاء في كراهة إتيان الحائض ، وابن ماجة في الطّهارة باب النّهي عن إتيان الحائض ، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

أحكامها وتجري على قضايا موجباتها، وهذا منهم تحكّمٌ على الغيب وتعاطٍ لعلمٍ استأثر الله سبحانه به)[١] .

وقال قتادة رحمه الله : (خلق الله هذه النجوم لثلاث خصلات : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يُهتدى بها وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فَقَدَ رأيه ، وأخطأ حظّه ، وأضاع نصيبه وتكلّف مالاعلم له به)[٢]

قال الخطابي : (وأما علم النجوم الذي يُدرك عن طريق المشاهدة والخبر الذي يعرف به الزوال وتعلم جهة القبلة فإنه غير داخلٍ فيما نهي عنه)[٣] .

وقال ابن رجب رحمه الله : (والمأذون في تعلمه التسيير لاعلم التأثير ، فإنه باطل محرم قليله وكثيره)[٤] .

والعيافة التي جاء ذكرها في الحديث : (هي زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها ، وهو من عادة العرب كثيراً)[٥] .

والطّرْق : هو الضرب بالحصى ، وقيل : هو الخط في الرمل وهومن التكهّن المنهيّ عنه [٦] .

وقال ابن حبّان رحمه الله : (ذكر التغليظ على من قال بالاختيارات والأحكام بالتنجيم) ، ثم ساق حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعا : (**لو أمسك الله القطر عن الناس سبع سنين ثم أرسله لأصبحت طائفةٌ منهم به كافرين، يقولون: مُطِرنا بنوْء المِجدَح**)[٧] .

---

[١] معالم السنن ٥ / ٣٧١ ـــ ٣٧٢ .

[٢] رواه الطبري بإسناده عن قتادة ، في تفسير قوله تعالى : { **وعلامات وبالنجم هم يهتدون** } النحل ١٦ ، برقم ٢١٥٤٩ .

[٣] معالم السنن ٥ / ٣٧٢ .

[٤] فتح المجيد ٣٣٢ ، ومن علم التسيير معرفة أحوال الطقس وأوقات نزول المطر وهبوب الرياح بمشيئة الله ومعرفة الجهات ، فهذه علوم نافعة للناس في دينهم ودنياهم ، ولاعلاقة لها بالتنجيم المحرم ،قال الشيخ ابن عثيمين : (النسبة ثلاثة اقسام : نسبة إيجادوهذه شرك أكبر ، ونسبة سبب وهذه شرك أصغر ، ونسبة وقت وهذه جائزة) انظر المجموع الثمين ٢ / ١٣٨ ـــ ١٤٧ ومقصوده النسبة لغير الله ، ويضاف إلى نسبة الوقت النسبة للمكان أيضا كأن يقال : المكان الفلاني يترل فيه المطر .

[٥] النهاية لابن الأثير ٣ / ٣٣٠ .

[٦] النهاية لابن الأثير ٢ / ١٢١ .

[٧] الإحسان ١٣ / ٥٠٠ ، والحديث أخرجه أيضا أحمد ٣ / ٧ ، والنسائي في الاستسقاء باب كراهية الاستمطار بالكوكب ، وله شواهد من حديث أبي هريرة وابن عباس وزيد بن خالد الجهني ويأتي تخريجه والمجدح نوع من الأنواء كما ذكر ذلك ابن حبان بعد الحديث .

وقال أيضاً : " ذِكرُ إطلاق الكفر على من رأى الأمطار من الأنواء "، ثمّ ساق حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه مرفوعاً : (**قال الله: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر ، فأمّا من قال : مُطِرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب ، وأمّا من قال : مُطِرنا بنوْء كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب**)[1] .

وقال : " ذِكرُ الزّجر عن قول المسلم في الحوادث ينسبها إلى الأنواء"، وساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (**لاعدوى ولاهامة ولاصفر ولانوء**)[2] .

وهذه التّراجم الّتي ترجم بها ابن حبّان تدلّ على عظمة أن ينسب العبد الحوادث لغير الله تعالى ومنها المطر ، قال في فتح المجيد في شرح الحديث : (قوله : **مؤمن بي وكافر** ، إذا اعتقد أنّ للنّوء تأثيراً في إنزال المطر فهذا كفرٌ ، لأنّه أشرك في الرّبوبية ، والمشرك كافر، وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشّرك الأصغر لأنه نسَبَ نعمة الله إلى غيره ، ولأنّ الله لم يجعل النّوء سبباً لإنزال المطر فيه ، وإنّما هو فضلٌ من الله ورحمة ، يحبسه إذا شاء وينزله إذا شاء ، ودلّ الحديث على أنّه لايجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره ولو على سبيل المجاز ، وأيضاً الباء تحتمل معاني، وكلها لاتَصدُق بهذا اللّفظ، فليست للسببيّة ولا للاستعانة ، لما عرفت من أنّ هذا باطل ولاتصدُق أيضاً على أنّها للمصاحبة ، لأنّ المطر قد يجيء في هذا الوقت وقد لايجيء فيه ، وإنّما يجيء المطر في الوقت الّذي أراد الله مجيئه فيه برحمته وحكمته وفضله فكلّ معنى تُحمل عليه الباء في هذا اللّفظ المنهي عنه فاسد ، فيظهر على هذا تحريم هذه اللفظة لفساد المعنى)[3] ، فعلى ماتقدّم إذا اعتقد التّأثير من غير الله فهو كفرٌ أكبر مخرج من الملّة .

---

[1] الإحسان ١٣ / ٥٠٣ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الاستسقاء باب ﴿ **وتجعلون رزقكم أنّكم تكذّبون** ﴾ ومسلم في الإيمان ، باب كفر من قال : مُطِرنا بنوْء كذا .

[2] الإحسان ١٣ / ٥٠٣ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في السّلام باب لاعدوى ولاطيرة ولاهام ولاصفر .

[3] فتح المجيد ص ٣٣٩ .

وهذا الّذي جاء في الحديث يُقاس عليه كلّ فعلٍ من أفعال ا لله الّتي لايقدر عليها إلاّ ا لله كالخلق والإماتة والرِّزق ، فمن نسب شيئاً منها لغير ا لله معتقداً أنّه هو المؤثّر من دون ا لله أو معه فقد كفر، ولذلك عمّم ابن حبّان في ترجمته فقال: " الحوادث " ، أي كلّ حادث لايجوز أن يُنسب لغير ا لله تعالى مع أنّ الحديث لم ينفِ سوى النّوْء ، وممّا تقدّم يُعلم موافقة ابن حبّان لأهل السّنّة والجماعة في هذا الباب ، وا لله تعالى أعلم بالصواب .

المبحث الرّابع عشر : عقيدته في التّـوكّل

في مختـار الصّحـاح : (التّوكّـل إظهـار العجْـز بالاعتمـاد علـى غيرك) [١] ، وفي القاموس المحيط : (...وكَلَ إليه الأمر وَكْلاً ووُكولاً سـلّمه وتركه ...والتّوكّل إظهار العجْز والاعتماد على الغير ...)[٢] .

وقال ابن الاثير رحمه الله : (يُقال : توكّـل بـالأمر ، إذا ضمـن القيـام به، ووكلت أمري إلى فلان : أي ألجأته إليه واعتمدت عليه فيه ، ووكّل فلانٌ فلاناً ، إذا استكفاه أمره ثقةً بكفايته، أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه) [٣] .

والمراد بالتّوكّل في لسان الشرع : صدق الاعتماد على الله جلّ وعـلا في حوائج الدّين والدّنيا وتوكيل الله فيها .

والتّوكّـل علـى الله مـن أصـول الإيمـان ، ومـن الأعمـال القلبيّـة الّـتي لايكتمل إيمان العبد وتوحيده إلا باستكمالها .

وقد نبّه ابن حبّان رحمـه الله إلى وجـوب التّوكّـل مـع الموازنـة باتّخـاذ الأسباب وإستعمالها فقال : " ذِكرُ الإخبـار بـأنّ المرء يجب عليـه مـع توكّـل القلب الاحتراز بالأعضاء ضدّ قول من كرهه " ، وساق تحته حديث عمـرو بن أمية قال : قال رجلٌ للنّبيّ صلّى الله عليه وسـلّم : أُرسـل نـاقتي وأتوكّـل؟ قال : (**اعقلها وتوكّل**) [٤] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الخبرالدّال على إيجاب الجنّـة لمن توكّـل علـى الله تعالى في جميع أسبابه " ، وساق حديث أبي هريـرة رضـي الله عنـه مرفوعـاً : (**دخلت الجنّة أمّةٌ بقضّها وقضيضها، كانوا لايكْتـوون ولايسـتْرقون وعلـى ربهم يتوكّلون**) [٥] .

---

[١] مختار الصّحاح للرّازي ص ٧٣٤ .

[٢] القاموس ٤ / ٨٨ ، مادّة وَكَلَ وانظر تهذيب اللّغة ١٠ / ٣٧١.

[٣] النّهاية ٥ / ٢٢١ .

[٤] الإحسان ٢ / ٥١٠ ، والحديث تقدّم تخريجه ص ٧٦ .

[٥] الإحسان ٢ / ٥٠٥ ، والحديث إسناده ضعيف فيه محمّد بن عيسى بن حيّان المدائني ضعّفه الدّارقطني والحـاكم ، وذكـره ابـن حبّان في الثّقات ٩ / ١٤٣ ، ولكنّه صحّ من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما ، أخرجـه البخـاري في الطّب بـاب مـن لم

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار عمّا يجب على المرء من قطع القلب عن الخلائق بجميع العلائق في أحواله وأسبابه " ، ثمّ ساق حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً : (**لو توكّلون على الله حقّ توكّله، لرزقكم الله كما يرزق الطير تغدوا خِماصاً، وتعود بِطاناً**)[1] .

تعليق :

من هذه التّراجم الّتي ذكرها ابن حبّان يتبيّن منهجه في التّوكّل وأنّ العبد يجب عليه أن يتّوكّل على الله تعالى ويسلّم أموره إلى بارئه جلّ وعلا ، بأن يوطّن نفسه ويملأ قلبه أنّ الله إذا أعطى فلا مانع لما أعطى وإذا منع فلا معطي لما منع ، وإذا أراد بعبدٍ بلاءً فلا رادّ له ، ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وهذا الاعتماد والتّوكّل لايمنع الأخذ بالأسباب الشّرعيّة والكونية الطبيعيّة ، بل هي من الإيمان ومن مكمّلات التّوكّل .

قال ابن رجب رحمه الله : (واعلم أنّ تحقيق التّوكّل لاينافي السّعي في الأسباب الّتي قدّر الله سبحانه المقدورات بها، وجرت سنّته في خلقه بذلك فإنّ الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتّوكّل ، فالسّعي في الأسباب بالجوارح طاعة له ، والتّوكّل بالقلب إيمان به كما قال تعالى : ﴿**ياأيّها الّذين آمنوا خذوا حِذْركم**﴾ ، ...وقال سهل التّستري : من طعن في الحركة ـ يعني في السّعي والكسب ـ فقد طعن في السّنّة، ومن طعن في التّوكّل فقد طعن في الإيمان ، فالتّوكّل حال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، والكسب سنّته)[2] ، ثمّ قسّم الأعمال ثلاثة أقسام :

أ ـ الطّاعات الّتي أمر الله بها عباده وجعلها سبباً للنّجاة من النّار ودخول الجنّة فهذه لابدّ له من فعلها مع التّوكّل على الله والاستعانة به عليها.

يرق ، ومسلم في الإيمان باب الدّليل على دخول طوائف من المسلمين الجنّة بغير حساب ، وكذلك من حديث عمران بن حصين ، أخرجه مسلم في المصدر السّابق .

[1] الإحسان ٢ / ٥٠٩ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ١ / ٣٠ ، ٥٢ ، والتّرمذي في الزّهد باب في التّوكّل على الله ، وابن ماجة في الزّهد باب التّوكّل واليقين ، وغيرهم .

[2] جامع العلوم والحكم ٢ / ٤٩٨ .

ب ـ ماأجرى الله العادة به في الدّنيا ، وأمر عباده بتعاطيه كالأكل عند الجوع ، والشّراب عند العطش ، فهذا ايضاً واجبٌ على المرء تعاطي أسبابه ومن قصّر فيه حتّى تضرّر بتركه مع القدرة على استعماله، فهو مفرّط يستحقّ العقوبة .

ج ـ ماأجرى الله به العادة به في الدّنيا في الأعمّ الأغلب، وقد يخرق العادة في ذلك لمن يشاء من عباده ، وهو أنواع فمنه مايخرقه كثيراً لكثير من الخلق مثل التّداوي ، ومنه مايخرقه لقليل من خلقه كحصول الرّزق لمن ترك السّعي في طلبه ، وجوّز في القسمين الأخيرين ترك الأسباب لمن قوي على ذلك ولم يتضرّربه [1] .

وقد رُويت بعض الآثار في ترك الكسب وترك السّبب كدخول الصحاري بلا زاد والقعود في البيوت بلا كسب ، وفي ظنّي أنّ هذا خلاف منهج الأنبياء الّذين عُرف عنهم السّعي في الرّزق ، ومارُوي عن بعض السّلف فهو مخالف لمنهج الأنبياء ، والأنبياء هم القدوة ، وأمّا غيرهم فيُؤخذ من قوله ويرد .

وقد يجوز هذا الفعل في المرّة بعد المرّة لغرض شرعي كمقارعة الكفّار وحجاجهم ونصر التّوحيد ، كما روي من شرب خالد بن الوليد للسم [2] .

أمّا دخول المفاوز دون زاد مع القدرة على الكسب فلا مصلحة شرعيّة ولا دنيوية منه ، كما لم يرد عن أحدٍ من الصّحابة فعله، والمشروع للعبد السّعي على قدر الاستطاعة كما قال تعالى : **﴿وهزّي إليك بجذع النّخلة تساقط عليك رطباً جنيا﴾ : مريم ٢٥** ، فماذا كان يُغني هزُّ مريم النّخلة ، إلاّ أنّ الله يعلّمنا بذل الجهد وتفويض الأمر إليه تعالى ،كما قال : **﴿وأعدّوا لهم ماستطعتم من قوّة ومن رباط الخيل﴾ : الأنفال ٦٠.**

بل إنّ في حديث عُمر:أنّ الطّير تغدوا وتروح ـوهو كلّ ماتقدر عليه الطّير ، فنحن إذن مأمورون بالغدوّ والرّواح وبذل الأسباب ثمّ تفويض

[1] جامع العلوم والحكم ٢ / ٤٩٨ ـ ٥٠٠ .
[2] تقدّم ص ٧١ .

حصول الرزق إلى ربّ الناس ورازقهم ، وفي هذا ماروُي عن الفضيل بن عياض رحمه الله أنّه سأله رجل : (لو أنّ رجلاً قعد في بيته زعم أنّه يثق با لله فيأتيه برزقه ؟ قال : إذا وثق با لله حتى يعلم منه أنّه قد وثق به لم يمنعه شيء أراده ، لكن لم يفعل هذا الأنبياء ولا غيرهم، وقد كان الأنبياء يؤجرون أنفسهم وكان النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم يؤجر نفسه وأبو بكر وعمر ، و لم يقولوا : نقعد حتى يأتينا رزقنا، وقال ا لله عز وجل: ﴿**وابتغوا من فضل ا لله**﴾ ولابدّ من طلب المعيشة) [(١)] .

ويؤيّده قوله عليه الصّلاة والسلام : (**اعقلها وتوكّل**) ، ثمّ إنّ تقسيم النّاس إلى من بلغت بهم مقامات التّوكّل قدراً يمكنهم من ترك الكسب ودخول المفاوز بلا زاد ، وآخرين لم يبلغوا مقدار هؤلاء فيجب عليهم الكسب ، أخشى ان يكون من آثار الصوفية وفيه مشابهة لهم في تقسيم الناس إلى عامّة وخاصّة ، ودين ا لله تعالى جاء للنّاس كافّة والنّبي صلّى ا لله عليه وسلم هو القدوة [(٢)] ، وابن حبّان على المنهج الصّحيح في هذا وا لله تعالى أعلم .

---

(١) جامع العلوم والحكم ٢ / ٥٠٥ ـ ٥٠٦ .

(٢) ماروي عن بعض الصّحابة كإقراره صلّى ا لله عليه وسلّم لأبي بكر تصدّقه بماله كلّه وإنكار ذلك على غيره ، لايندرج فيما قلنا ، لأنّ الأسباب قسمان ، فقسم نحن مأمورون به مع تفويض النّتيجة إلى ا لله ، وسبب نحن مأمورن بضدّه لمايترتّب عليه من مشقّة وحرج ، فهذا الأخير مثل النّهي عن النّذر والنّهي عن التّعرّض للبلاء وعن شرب السّم مثلاً ، فإذا وصلت قوّة التّوكّل والاعتماد على ا لله عند شخص درجة تمكّنه من خوض السّبب دون أن يؤثّر عليه ذلك فهذا الّذي قد يجوز ومنه شرب خالد للسّم و تصدّق أبي بكر بكلّ ماله فإنّ العبد منهيٌّ أن يبسط يده كلّ البسط ، ولكن إذا قوي التّوكّل كتوكّل أبي بكر فلابأس ، ولكن هل نُقل عن صحابي واحد أنّه ترك الأكل والشّرب ، أو أنّه ارتحل وغزا بلا زاد ولا رمح ، وذلك لأنّ هذه الأسباب وأمثالها نحن مأمورون بها ، والعبد عليه امتثال المأمور وهذا التّفريق يزيل الإشكال الوارد من بعض النّصوص الواردة عن السّلف ، وا لله أعلم .

المبحث الخامس عشر : عقيدته في التّبرّك بالصّالحين

البركة في اللّغـة : النّمـاء والزيـادة ، يُقـال : تـبرّك بـه تيمّـن بـه ، وفي القاموس المحيط : (البركة : النّماء والزّيادة والسّـعادة . وتبـارك ا لله: تقـدّس وتنزّه ، وتبارك بالشّيء : تفاءل به)[1] .

والمقصـود بالتّـبرّك بالصّـالحين : طلـب البركـة بالنّمـــاء وزيــادة الخـير وحصول السّعادة من جرّاء مخالطتهم أو التّمسّح بذواتهم وآثارهم .

أمّا المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم فـلا شـكّ في حصـول البركـة مـن مخالطته وملامسته بأجزائه الشّريفة عليه الصّلاة والسلام ، وفي هذا آثار مرويّـة عن الصّحابة رضوان ا لله تعالى عليهم وسيذكر ابن حبّان بعضها فيما يأتي .

أمّـا غـيره مـن الصّـالحين ففيـه تفصيـل لابـدّ منـه ، وهـو أنّ مرافقتهـم ومخالطتهم ومجالستهم تحصل بهابركة عظيمة من الخير وحصول المنـافع الدّينيـة وشمول رحمة ا لله تعالى به معهم وكذلك دعوتهم ودعاؤهم .

وأمّا ذواتهم وأجزاؤهم وآثارهم فلم يرد مايدلّ على جوازالتّبرّك بها بـل المنع منه هو الأصل ، لأنّه ذريعة إلى الغلو، ولأنّ الصّحابـة لم يفعلـوه مـع غـير النّبيّ صلّى ا لله عليـه وسـلّم ، ولم يفعلـه التّـابعون مـع الصّحابـة ، فـدلّ علـى اختصاص النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم بالتبرّك بآثاره دون غيره .

قال ابن حبّان رحمه ا لله :"ذكـر مايسـتحبّ للمـرء التّـبرّك بالصّـالحين وأشباههم " ، ثمّ ساق حديـث أبـي موسـى الأشـعري رضـي ا لله عنـه وفيـه (فدعا رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم بقـدح فيـه مـاء [2] ، ثـمّ قـال لهمـا : **(اشربا منه وأفرغا علـى وجوهكمـا أو نحوركمـا)** ، فـأخذا القـدح ففعـلا ماأمرهما به رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم فنادتنا أمّ سلمة من وراء السّتر ، أن أفْضِلا لأمّكما في إنائكما، فأفضلا لها منه طائفة)[3] .

---

[1] القاموس ٣ / ٤٢٦ وانظر تهذيب اللّغة ١٠ / ٢٢٧ .

[2] زاد البخاري ومسلم هنا : فغسل يديه ووجهه فيه ومجّ فيه .

[3] الإحسان ٢ / ٣١٧ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في المغازي باب غزوة الطّائف ، ومسلم في فضائل الصّحابـة بـاب مـن فضائل أبي موسى الأشعري .

وقال أيضاً : " ذِكرُ إباحة التّبرّك بوضوء الصّالحين من أهل العلم إذا كانوا متّبعين لسنّة المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم دون أهل البدع منهم " ، ثمّ ساق حديث أبي جحيفة قال[1] : (رأيت رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم في قبّة حمراء ، ورأيت بلالاً أخرج وَضوءه، فرأيت النّاس يبتدرون وَضوءه يتمسّحون ...)[2] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ مايستحبّ للإمام إعطاء رعيّته مايأملونه من الأسباب الّتي بها يتبرّكون من ناحيته " ، ثمّ ساق حديث محمود بن الرّبيع[3] قال : (عقلت مّجة مّجها رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم في وجهي من دلو معلّقة في دارنا ...)[4] .

تعليق :

واضحٌ ممّا تقدّم عن ابن حبّان تجويزُه بل ندبه إلى التّبرّك بآثار الصّالحين غير النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم ، وهذا خلاف ماكان عليه الصّحابة رضوان ا لله عليهم ومن سار على منهجهم : من الأئمة المعتبرين .

و البركة في مواردها من الكتاب والسّنّة قسمان:

الأوّل : بركة ذات ، وأثرها أن يكون مااتّصل بتلك الذّات مباركاً، وهذا النّوع للأنبياء والمرسلين،لايشركهم فيه أحد حتّى أكابر أصحاب محمّد صلّى ا لله عليه وسلم .

الثّاني : بركة عمل واتباع، وهي عامّة لكلّ من وافق عمله سنّة النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم فكلّ مسلم فيه بركة عمل مقدّرة بقدر اتّباعه وموافقته لأمر ا لله ونهيه .

---

[1] وهب بن عبدا لله بن مسلم بن جنادة السُّوائي صحابي قدم على النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم في أواخر عمره ، ثمّ صحب عليّاً رضي ا لله عنه وولاّه الشّرطة في خلافته ، توفّي سنة ٦٤ هـ ، الإصابة ٦ / ٦٢٦ .

[2] الإحسان ٢ / ٨٤ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الصّلاة باب الصّلاة في الثّوب الأحمر ، ومسلم في الصّلاة باب سترة المصلّي ، قوله (وَضوءه) المراد به الماء المستعمل في الوضوء ، فهو بفتح الواو ، والفعل منه بضمّها .

[3] بن سراقة بن عمرو الأنصاري الخزرجي ، من صغار الصّحابة ، وأكثر روايته عنهم ، توفّي سنة ٩٩هـ ، الإصابة ٦ / ٣٩ .

[4] الإحسان ١٠ / ٣٩٦ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في العلم باب متى يصحّ سماع الصّغير ، وهو في غير البخاري وفيه قصّة صلاة النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم لعتبان بن مالك في بيته .

والبركة الذّاتية قد أنقطعت بموت النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم فلا يُتبرّك بذات أحدٍ بعده صلّى ا لله عليه وسلّم .

وكذلك البقاع والمساجد وأماكن العبادة إنما تكون بركتها بالعبادة فيها ومضاعفة الأجر عندها ، أمّا ذات البقعة بحيطانها وتربتها فلا قيمة لها إلاّ ماشهد النّصّ له ، كماء زمزم ومكّة المكرّمة ، والمدينة [1] .

فالبركة ـ أعني بركة الذّوات ـ لا تكون إلاّ لمن نصّ ا لله على إعطائه البركة كالأنبياء : وأمّا غيرهم من عباد ا لله الصّالحين فبركتهم بركة عمل ، أي ناشئةٌ عن علْمهم وعملهم واتّباعهم ، لاعن ذواتهم ، فمن بركات الصّالحين دعاؤهم النّاس إلى الخير ودعاؤهم لهم ونفعهم الخلق بالإحسان إليهم.

ومن آثار بركات أعمالهم مايجلب ا لله من الخير بسببهم ويدفع من النّقمة والعذاب العام ببركة إصلاحهم، كما قال تعالى : ﴿ **وماكان ربّك ليهلك القرى بظلمٍ وأهلُها مصلِحون**﴾ : **هود ١١٧.**

وقد نقل أبو يعلي في ترجمة علي بن عبدا لله الطيالسي : أنّه قال : (مسحت بيدي على أحمد بن حنبل ثمّ مسحت يدي على بدني وهو ينظر، فغضب غضباً شديداً، وجعل ينفض نفسه ويقول : عمّن أخذتم هذا ، وأنكره إنكاراً شديداً) [2] .

وقال الشاطبي[3] رحمه ا لله في الاعتصام بعد ذكره آثاراً عن تبرّك الصّحابة بآثار النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم وبنخامته وبوَضوئه وغير ذلك: (فالظّاهر في مثل هذا النّوع أن يكون مشروعاً في حقّ من تثبت ولايته واتّباعه لسنّة رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم ، وأن يُتبرّك بفضل وَضوئه

---

(1) صحّ عنه صلّى ا لله عليه وسلّم قوله : (**ماء زمزم لما شُرب له**) ، أخرجه أحمد ٣ / ٣٥٧ ، وابن ماجة ، في المناسك باب الشّرب من ماء زمزم وغيرهما عن جابر رضي ا لله عنه ، كما صحّ قوله :(**اللّهمّ إنّ إبراهيم عبدك وخليلك ونبيّك ، وإنّي عبدك ونبيّك ، وإنّه دعاك لمكّة ، وإنّي أدعوك للمدينة بمثل مادعاك به لمكّة ومثله معه**) أخرجه مسلم الإحسان ١٣٧٣ .

(2) طبقات الحنابلة لأبي يعلى ١ / ٢٢٨ .

(3) إبراهيم بن موسى بن محمّد اللّخمي الغرناطي الشّاطبي أصوليّ حافظ ، كان من أئمّة المالكيّة ، له كتاب الاعتصام والموافقات ، لم يُؤلّف مثلهما في بابهما ، توفّي سنة ٧٩٠ هـ ، انظر الأعلام للزّركلي ١ / ٧٥ .

ويُستشفى بآثاره كلّها ويُرجى نحو ممّا كان في آثار المتبوع الأصل صلّى الله عليه وسلّم .

إلاّ أنّه عارضنا في ذلك أصلٌ مقطوعٌ به في متنه وهو أنّ الصّحابة رضي الله عنهم بعد موته عليه الصّلاة والسّلام لم يقع من أحدٍ منهم شيءٌ من ذلك مع من خلفه ، لامع أبي بكر وهو أفضل الأمّة بعد نبيّها ، ولامع عمر ولامن بعده ، بل اقتصروا على الاقتداء بالأفعال والأقوال والسّير ، فهو إذن إجماعٌ منهم على ترك ذلك، وبقي النّظر في وجه ترك ماتركوا منه ويحتمل أمرين :

الأوّل : أن يعتقدوا فيه اختصاص النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بذلك وأنّ مرتبة النّبوّة يسع فيها ذلك كلّه ، للقطع بوجود ماالتمسوا من البركة والخير بخلاف غيره فإنّه لايوازيه بل ولا يقاربه .

الثّاني : أن لايعتقدوا الاختصاص ولكنّهم تركوا ذلك من باب سدّ الذّرائع خوفاً أن يُجعل ذلك سنّة وأن يتجاوز فيه العامّة الحدود فيخرج بهم إلى الغلوّ والتّعظيم) [1] .

وقال الشّيخ سليمان بن عبدالله بن محمّد بن عبدالوهاب : (ذَكَرَ بعض المتأخّرين أنّ التّبرّك بآثار الصّالحين مستحب وظنّ أنّ بقيّة الصّالحين كالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وهذا خطأ صريح لوجوه :

منها : عدم المقاربة فضلاً عن المساواة للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الفضل والبركة .

ومنها : عدم التّحقق من الصّلاح فإنّه لايتحقّق إلاّ بصلاح القلب ، وهذا أمرٌ لايمكن الإطّلاع عليه إلاّ بنصّ ، كالصّحابة رضوان الله عليهم .

ومنها : أنّا لو ظننّا صلاح شخصٍ فلا نأمن أن يُختم له بسوء الخاتمة والأعمال بالخواتيم ، فلا يكون أهلاً للتبرّك بآثاره .

ومنها : أنّ الصّحابة لم يكونوا يفعلون ذلك مع غيره صلّى الله عليه وسلّم لافي حياته ولا بعد موته ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه ، فدلّ ذلك أن هذا مخصوصٌ بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم .

---

[1] الاعتصام ٢ / ٢٧٦ ـ ٢٧٨ ، بتصرّف .

ومنها : أنّ فعل هذا مع غيره صلّى ا لله عليه وسلّم لايُؤمن أن يفتنه وتعجبه نفسه فيورثه العجب والكبر والرّياء فيكون هذا كالمدح في الوجه بل أعظم)[1] .

فثبت ممّا تقدّم أنّ البركة في الذّوات خاصّةٌ بالأنبياء صلوات ا لله عليهم وسلامه ، وأمّا الصّالحون فالبركة معهم بالاقتداء بهم ، والإصابة من دعاهم ودعوتهم ، ولذلك ترجم ابن حبّان نفسه بترجمه فقال : " ذِكرُ استحباب التبرّك للمرء بعشرة مشايخ أهل الدّين والعقل" ، وساق حديث ابن عباس رضي ا لله عنهما مرفوعاً : (**البركة مع أكابركم**)[2] ، والأكابر سواء كانوا أكابر السّنّ والعقل أو الدّين والعلم فالبركة والخير معهم لا شك .

ومن هذا نعرف أنّ ابن حبّان لم يُوفّق للصّواب ، في الاستدلال بما صحّ من تبرّك الصّحابة بالنّبي صلّى ا لله عليه وسلّم على التّبرّك بغيره ، وتعميمه ذلك على كلّ من ظهر صلاحه ، ولم يوافق ماعليه عامّة [3] أهل السّنّة والجماعة في هذه المسألة لما تقدّم من الأوجه وا لله تعالى أعلم بالصّواب .

---

(1) تيسير العزيز الحميد ص ١٨٦ .

(2) الإحسان ٢ / ٣١٩ ، والحديث أخرجه أيضاً الحاكم ١ / ٦٢ وصحّحه ووافقه الذّهبي ، والطّبراني في الأوسط ح٨٩٩١ ، والقضاعي في مسند الشّهاب ح٣٦ ، والخطيب في تاريخ بغداد ١١ / ١٦٥ ، وأبو نعيم في الحلية ٨ / ١٧١، وغيرهم ، والمقصود بالأكابر هنا الأكابر في السّنّ المجرّبين للأمور ، ويشمل أيضاً الأكابر في العلم وإن صغر سنّهم ، والسّنّة وردت بتوقير الكبير في السّنّ ، كما ورد عن أهل العلم توقير العلماء ولو صغر سنّهم ، كما كان حال ابن عبّاس مع عمر بن الخطّاب وزيد بن ثابت رضي ا لله عنهم أجمعين ، انظر السّلسلة الصّحيحة ح١٧٧٨.

(3) ذهب بعض العلماء إلى ما ذهب إليه ابن حبّان ، وممّن اشتهر عنهم ذلك النّووي رحمه ا لله شرح مسلم ج٤/ ٢١٩ ، والّذي عليه عامّة أهل العلم ، قصر ذلك عليه صلّى ا لله عليه وسلّم .

المبحث السّادس عشر : عقيدته في قصد القبور للدّعاء

كان آخر الأمرين من النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الحثّ على زيارة القبور لما ثبت عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : (**كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها فإنّها تذكّركم الآخرة**)[1].

قال النّووي رحمه الله تعالى في المجموع : (الهجر : الكلام الباطل، وكان النّهي أوّلاً لقرب عهدهم من الجاهليّة ، فربّما كانوا يتكلّمون بكلام الجاهليّة الباطل ، فلمّا استقرّت قواعد الإسلام ، وتمهّدت أحكامه ،واشتهرت معالمه أُبيح لهم الزيارة ، واحتاط صلّى الله عليه وسلّم بقوله : لا تقولوا هجراً)[2].

ويُؤخذ من الأحاديث الّتي ورد فيها الحثّ على زيارة القبور أنّ سبب ذلك هو مافي زيارتها من العبرة وترقيق القلوب وتذكيرها بمآلها ونهايتها، فتنقشع الغشاوة الّتي تغطي القلب من جرّاء الاشتغال بالدّنيا والانهماك فيها، وقد شرع الإسلام لذلك أحكاماً في الزّيارة منها الدّعاء للأموات إن كانوا مسلمين ، واحترام القبور وعدم المشي بالنعال بينها ، وعدم الجلوس عليها وغير ذلك .

ولم يرد عن صحابيّ أو تابعي أو عالمٍ من علماء الأمّة أهل السّنّة المعتبرين المقتدى بهم ، جواز الدّعاء أو قصد الدّعاء عندها فضلاً عن استحبابه،[3] حتّى لو كان الدّعاء خالصاً لله ، إذ ليس للدّعاء عندها ميزة تُذكر سواء لصاحب القبر أو للقبر ذاته ، قال ابن تيميّة رحمه الله : (الوجه الثّالث في كراهة قصد القبور للدّعاء : أنّ السّلف رضي الله عنهم كرهوا

---

(1) صحّ عن عدد من الصّحابة ، وأشهرها حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه ، أخرجه مسلم في الجنائز باب استئذان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في زيارة قبر أمّه ، وأحمد ٥ / ٣٥٠ ، ٣٥٥ ، وأبوداود في الجنائز باب زيارة القبور ، والنّسائي في الجنائز باب زيارة القبور ، والتّرمذي في الجنائز باب زيارة القبور بألفاظ متقاربة وزاد: (**فمن أراد أن يزور فليزر ولاتقولوا هجراً**) .

(2) المجموع ٥ / ٣١٠ .

(3) يُستثنى من ذلك طبعاً الدّعاء للأموات أثناء الزّيارة .

ذلك متأوّلين في ذلك قوله عليه الصّلاة والسلام : (**لاتتخذوا قبري عيدا**) [١] ... وماأحفظ : لاعن صحابيّ ولاعن تابعي ولاعن إمام معروف : أنّه استحبّ قصد شيءٍ من القبور للدّعاء عنده ، ولاروى أحدٌ في ذلك شيئاً، لاعن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم، ولاعن أحدٍ من الأئمّة المعروفين، وقد صنّف النّاس في الدّعاء وأوقاته وأمكنته، وذكروا فيه الآثار، فما ذكر أحدٌ منهم في فضل الدّعاء عند شيءٍ من القبور حرفاً واحداً فيما أعلم ، فكيف يجوز ـ والحالة هذه ـ أن يكون الدّعاء عندها أجوب وأفضل ، والسّلف تنكره ولا تعرفه وتنهى عنه ولاتأمر به) [٢] .

وابن حبّان رحمه ا لله أكثر في كتبه عند ذِكر بعض الأئمّة من أهل الحديث والصّالحين من قوله : (وقبره مشهور يزار) وهذه الكلمة يقولها غيره من المؤرّخين كالذّهبي والطّبري ، وكنت أفهم منها معنى صالحاً وهو أن قبره مازال معروفاً وموضع وفاته ودفنه معروف ويزار الزّيارة الشّرعية للدّعاء له من جملة الأموات كما يُزار شهداء أحد، ولكنّي وجدت أنّ البعض يطلقها بمعنى الزّيارة البدعيّة للدّعاء عندها ظنّاً منهم أنّ الدّعاء عندها مُجاب ،ومن هؤلاء ابن حبّان عفا ا لله عنه : ففي ترجمة عليّ بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رحمه ا لله قال : "... وقبره بسناباذ خارج النّوقان مشهور يُزار بجنب قبر الرشيد، وقد زرته مراراً كثيرة ، وماحصلت بي شدّة في وقت مقامي بطوس فزرت قبر علي بن موسى الرّضا صلوات ا لله على جدّه وعليه، ودعوت ا لله إزالتها عني إلا استُجيب لي، وزالت عني تلك الشدّة، وهذا شيءٌ جرّبته مرارا فوجدته كذلك.." [٣] .

---

[١] أخرجه أحمد ٢/ ٣٦٧ ، وأبوداود في المناسك باب زيارة القبور ، عن أبي هريرة مرفوعاً ، وصحّح إسناده النّووي في كتاب الأذكار ، وله شاهد من حديث عليّ بن أبي طالب رضي ا لله عنه أخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف ح٧٥٤١ ، ورواه ابن أبي شيبة ح٧٥٤٢ ، وعبد الرّزّاق في المصنّف ح٦٧٢٦ عن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم مرسلاً .

[٢] اقتضاء الصّراط المستقيم ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ ، باختصار .

[٣] الثّقات ٨ / ٤٥٧ ، وسناباذ قرية من قرى طوس ، والنّوقان مدينة أيضاً بطوس وهي إحدى قصبتيها (معجم البلدان ٣/٢٥٩، ٥/ ٣١١) و انظر كذلك ماقاله ابن خلّكان في ترجمة ابن فورك ٤ / ٢٧٢ ، ونقله الذّهبي دون إنكار السّير١٧ / ٢١٥ ، وكذلك مانقله السّبكي عن ابن المظفّر في ذِكر أبي الحجّاج الفندلاوي المالكي ، وماقاله عبدالغافر عن ابن فورك ، طبقات السّبكي ٤ / ١٢٩ ، ١٣٠ .

وهذا في الحقيقة خطأٌ وزلّة ماكان لها أن تصدر من مثل ابن حبّان في تمسّكه بما كان عليه الرّعيل الأوّل ، ولكن كل يؤخذ من قوله ويرد إلاّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولكلّ جواد كبوة .

وهذا الّذي حكى ابنُ حبّان عن نفسه فِعْله ، من جملة الأمور الحادثة في نحو المئة الثالثة في كلام بعض النّاس كما قال ابن تيميّة رحمه الله .[1]

وهو أمر محدث ولا شك لما تقدّم من كونه لامستند له من نصٍّ نبوي ولا فعل صحابي ولا إمام متبوع .

وأمّا قوله : إنّه جرّب ذلك مراراً وشاهد ما يحصل له من الإجابة فجوابه ما قال ابن تيميّة رحمه الله : (وأمّا إجابة الدّعاء : فقد يكون سببه اظطرار الدّاعي وصدق التجائه، وقد يكون سببه مجرّد رحمة الله له، وقد يكون أمراً قضاه الله لا لأجل دعائه ، وقد يكون له أسباب أخرى، وإن كانت فتنةً في حقّ الداعي ، فإنّا نعلم أنّ الكفّار قد يُستجاب لهم فيُسقون ويُنصرون ويُعافون ويُرزقون مع دعائهم عند أوثانهم وتوسّلهم بها)[2] .

وقال أيضاً مامعناه : (إنّ سبب قضاء حاجة هؤلاء الدّاعين الأدعية المحرّمة أنّ الرّجل منهم قد يكون مضطراً اضطراراً لو دعا الله بها مشركٌ عند وثنٍ لاستُجيب له لصدق توجهه إلى الله ، فالحاصل أنّ مايقع من الدّعاء المشتمل على كراهة شرعيّة ، بمنزلة سائر أنواع العبادات ، وقد عُلم أنّ العبادة المشتملة على وصف مكروه قد تُغفر تلك الكراهة لصاحبها لاجتهاده أو تقليده أو حسناته أو غير ذلك ، ثمّ ذلك لايمنع أن يُعلم أنّ ذلك مكروه يُنهى عنه ، وإن كان هذا الفاعل المعيّن قد زال موجب الكراهة في حقّه ، ومن هنا يغلط كثيرٌ من النّاس فإنّهم يبلغهم أنّ بعض الأعيان من الصّالحين عبدوا عبادةً أو دعوا دعاءً ووجدوا أثر تلك العبادة أو ذلك الدّعاء ، فيجعلون ذلك دليلاً على استحسان تلك العبادة والدّعاء ، ويجعلون ذلك العمل سنّة كأنّه قد فعله نبي، وهذا غلط لما ذكرناه ، خصوصاً إذا كان العمل إنّما كان

---

(1) اقتضاء الصّراط المستقيم ص ٣٦٩ .

(2) اقتضاء الصّراط المستقيم ص ٣٢٠ هذا إضافة إلى أنّ الله قد يستجيب الدّعاء استدراجاً ومكراً منه سبحانه .

أثره بصدق قام بقلب فاعلـه حـين الفعـل، ثـمّ تفعلـه الاتبـاع صـورةً لاصدقـا فيُضرّون به ، لأنّه ليس العمل مشروعاً، فلا يكون لهم ثـواب المتّبعـين ولا قـام بهم صدق ذلك الفاعل الّذي لعلّه بصدق الطّلـب وصحّـة القصـد يُكفّـر عـن الفاعل) [1] .

إذن فحصول الاستجابة للدّعاء ليس دليـلاً علـى صحّـة الفعـل ، فـلا يجوز الاستدلال على مشروعيّة الدّعاء عنـد قبـور الصّـالحين بالتّجربـة وتكـرّر حدوث الأثر المترتّب على الدّعاء ، وكلام شيخ الإسلام المتقـدم لامزيـد عليـه ممّا يظهر بوضوح مجانبة ابن حبّان للصّـواب فيمـا فعلـه ، وأنّـه خـلاف منهـج السّلف الصّالح رضوان الله تعالى عليهم ، والمشروع لمن أصابته شدّة ان يلجـأ إلى الله مخلصاً له الدّين دون أن يكـون ذلـك مخصوصـاً ببقعـة معينـة إلا بقعـة شهد لها النّصّ بالفضيلة كالحرم المكّي ، أو زمان شهد الشّرع له بالخصوصيّـة كليلة القدر مثلاً ، وما سوى ذلك فالأصل في هذا الباب التّوقّـف والله تعـالى أعلم وأحكم .

---

(١) اقتضاء الصّراط المستقيم ص ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، بحذف واختصار .

(الفصل الرّابع)

عقيدة ابن حبّان في الأسماء والصّفات

..وفيه تمهيد وواحد وعشرون مبحثاً :

الأوّل : عقيدته في صفة العجب .

الثّاني : في صفتي السّمع والبصر .

الثّالث : في صفة النّزول .

الرّابع : في صفة الضّحك .

الخامس : في صفة الكلام .

السّادس :في القرآن .

السّابع : في صفة القدم .

الثّامن : في التقرّب والمعيّة .

التّاسع : في صفة النّفس .

العاشر : في صفة المحبّة والخلّة .

الحادي عشر : في صفة اليد والأصابع .

الثّاني عشر : في صفة البش .

الثّالث عشر : في صفة الغيرة .

الرّابع عشر : في حديث خلق ا لله آدم على صورته .

الخامس عشر : في الملل والسّأم .

السّادس عشر : في صفة السّاعد .

السّابع عشر : في صفة السّاق .

الثّامن عشر : في رؤية المؤمنين ربّهم في الآخرة .

التّاسع عشر : في الحد .

العشرون : في الشّكر .

الواحد والعشرون : في الدّهر .

تمهيد :

(منهج أهل السّنّة في الأسماء والصّفات)

لّما انقضى عصر الصّحابة أو كاد ، بدأ اعداء الملّة من الزّنادقة وأتباعهم من الّذين في قلوبهم مرض يديرون رحى الحرب ضدّ الإسلام وأهله في أكثر من جبهة وعلى أكثر من صعيد، وهذا مصداق حديث النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم:(**وأصحابي أَمَنَةٌ لأمّتي ، فإذا ذهب أصحابي أتى أمّتي ماتوعد**).[1]

وكان من أقوى تلك الجبهات وأحماها وطيساً تلك الّتي كانت في باب الأسماء والصّفات حيث انبرى علماء الملّة وأهل السّنّة للذّود عن عرين الإسلام و ضدّ من يحاول المساس به أو التّشكيك فيه ، وذلك أنّ الشّيطان عرف أنّ باب الأسماء والصّفات هو الباب الّذي يدخل منه الشّرك في هذه الأمّة، فإنّ العباد إذا عطّلوا حقائق الأسماء والصّفات و لم يعرفوا معانيها لم يستنكروا بعد ذلك أن يُعبد مع ا لله آلهة أخرى، وهذه حقيقة واقعة فإنّ الأُمّة لّما جهلت معنى لاإله إلا ا لله وحقيقتها لم تستنكر أن يقولها من يتوجّه إلى غير ا لله بالعبادة، وهكذا من جهل معنى ا لله ومعنى المعيّة والرّضا والمحبّة ، وغير ذلك من الأسماء والصّفات حتى ينتهي بالعبد في النّهاية إلى قول جهم وهو إثبات ذاتٍ مجرّدة عن الصّفات ، وهذا في الحقيقة إنكارٌ لوجود ا لله أصلاً .

وقد تأثّر كثير من أبناء المسلمين بهذه الحرب الشّعواء فدخل فيهم مادخل من البدع ، إمّا بسبب الجهل أو بسبب محاولة الرّد والثّلب للعدوّ الّذي تمكّن من نيلهم ببعض سمومه، فنتج عن ذلك نشأة كثير من الفرق داخل مظلّة الإسلام ، وأصبحوا شيعاً كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون .

وأنعم ا لله تعالى على أهل السّنّة الّذين لزموا الجادّة في العلم والعمل فكانوا درّةً وسطاً بين تلك الفرق والأهواء والمناهج الّتي أفرزتها تلك المعارك الفكريّة بين المسلمين وبين الزّنادقة الملحدين .

---

[1] أخرجه مسلم في فضائل الصّحابة باب بيان أنّ بقاء النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم أمان لأصحابه وبقاء أصحابه أمان لأمّته .

ولّما كان أهل السّنّة هم الأمّة الوسط فقد توسّطوا واعتدلوا في هذا الباب الخطير ، وهو باب الأسماء والصفات ، نتيجة الفقه الصّحيح والاتباع السّليم لكتاب ربهم وسنة نبيهم صلّى الله عليه وسلّم الّذي كان فيما أُوحي اليه قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى : (ثمّ القول الشّامل في جميع هذا الباب : أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلّى الله عليه وسلّم وبما وصفه به السّابقون الأوّلون ، لايتجاوز القرآن والحديث، قال الامام أحمد : لايُوصف الله إلاّ بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلّى الله عليه وسلّم لايتجاوز القرآن والحديث [1] .

و مذهب السّلف : أنّهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولاتمثيل [2] ، ونعلم أنّ ماوصف الله به من ذلك فهو حقٌ ليس فيه ألغاز ولا أحاجي ، بل معناه يُعرف من حيث يُعرف مقصود المتكلّم بكلامه ، لاسيّما إذا كان المتكلّم أعلم الخلق بما يقول وأفصح الخلق في بيان العلم ،وأفصح الخلق في البيان والتّعريف والدّلالة والإرشاد .

وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيءٌ، لافي نفسه المقدّسة المذكورة بأسمائه وصفاته ولافي أفعاله ، فكما نتيقّن أنّ الله سبحانه له ذات حقيقةً وله أفعال حقيقة : فكذلك له صفات حقيقة ، وهو ليس كمثله شيءٌ لافي ذاته ولافي صفاته ولافي أفعاله، وكلّ ماأوجب نقصاً أو حدوثاً فإنّ الله منزّه عنه حقيقة، فإنّه سبحانه مستحقٌّ للكمال الّذي لاغاية فوقه، ويمتنع عليه الحدوث

---

[1] أورده ابن القيّم في كتابه اجتماع الجيوش الإسلاميّة عن الخلاّل ص ١٣٢ .

[2] **التّحريف** :هو إمالة الشّيء عن وجهه ، يُقال : انحرف عن كذا إذا مال ، وهو نوعان : الأوّل : تحريف اللّفظ وهو العدول به عن جهته إلى غيرها إمّا بزيادة كلمة أو حرف أو نقصانه ، أو تغيير حركة ، كقول أهل الضّلال في قوله تعالى: ﴿ **وكلّم الله موسى تكليماً** ﴾ بنصب لفظ الجلالة ، والنّوع الثّاني تحريف المعنى : وهو إعطاء اللّفظ معنى لفظ آخر كقول المبتدعة : إنّ معنى الرّحمة : إرادة الإنعام . **والتّعطيل** :لغة الإخلاء يُقال : عطّله أي أخلاه ، والمراد به هنا نفي الصّفات عن الله تعالى بمعنى إخلاء ألفاظها من معانيها ، والفرق بين التّحريف والتّعطيل : أنّ التّحريف نفي للمعنى واستبداله بغيره و التّعطيل نفي للمعنى دون استبداله بغيره ، **والتّكييف** : هو تعيين كيفيّة الصّفة وتعيين الهيئة الّتي تكون عليها ، **والتّمثيل** : هو تشبيه شيء بشيء ، والمراد تشبيه الله بخلقه بأن يُقال : يد الله كأيدينا ، والفرق بين التّكييف والتّمثيل ، أنّ التّكييف قد يكون بدون إثبات مثيل ، فهو أعمّ من التّمثيل . انظر شرح الواسطيّة للفوزان ص ١٣ - ١٤ .

لامتناع العدم عليه واستلزام الحدوث سابقة العدم ولافتقار المحدَث إلى محدِث، ولوجوب وجوده بنفسه سبحانه وتعالى .

ومذهب السّلف بين التّعطيل والتّمثيل، فلا يمثّلون صفات الله بصفات خلقه كما لايمثّلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ماوصف به نفسه ووصفه به رسوله فيعطّلوا أسماءه الحسنى وصفاته العليا ويحرّفوا الكلم عن مواضعه، ويلحدوا في أسماء الله وآياته) [١] .

*** نظرة عامّة في منهج ابن حبّان في الصّفات :**

وأما ابن حبّان رحمه الله تعالى فلم يكن منهجه في الأسماء والصّفات واضحاً جلياً ، بل تارةً يجنح إلى الإثبات ، وتارة إلى التّأويل.

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى نقطة مهمّة : وهي أنّ ابن حبّان عاش في العصر الّذي احتدم فيه النّزاع بين أهل السّنّة والمعتزلة ، ومن الغريب جداً أن لايوجد له ـ فيما وقفت عليه ـ أيّة مشاركات كلاميّة أو لقاءات مع المعتزلة أو مع من وقف ضدّهم كابن كلاب [٢] وغيره، ومع أنّ شيخ الإسلام ابن تيميّة عدّه من أصحاب الأشعري[٣] إلاّ أنّي تعبت في أن أجد مايدلّ على لقاءٍ بينهما أو تتلمذاً أو حتى ذِكراً للأشعري ، فلم أجد إلاّ هذه الكلمة عن شيخ الإسلام ولم يكرّرها بعد ذلك ، مع أنّ ابن حبّان يعتبر معاصراً للأشعري ، فإنّه مولودٌ في سنة ٢٦٠ أو ٢٧٠ للهجرة أي قبل مولد ابن حبّان بأقلّ من

---

[١] مجموع الفتاوى ٥ / ٢٦ ـ ٢٧ .

[٢] أبو محمّد عبد الله بن سعيد بن كُلاّب القطّان البصري رأس المتكلّمين بالبصرة في زمانه ، وهو شيخ الكلاّبيّة ومن الّذين ردّوا على المعتزلة ، كان ممّا أحدثه القول بأنّ القرآن قائم بالذّات بلا قدرة ولامشيئة ، وإنكاره قيام الأفعال الاختياريّة به تعالى ، وعلى مافيه من البدع إلاّ أنّه يُعدّ من أقرب المتكلّمين إلى أهل السّنّة وقد امتدحه شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله أكثر من مرّة ، انظر السّير ١١ / ١٧٤ ، ومنهاج السّنّة ٢ / ٣٢٧ ، والفتاوى ٦ / ٥٣ .

[٣] في منهاج السّنّة ٢ / ٣٢٧ والأشعري هو العلاّمة إمام المتكلّمين أبو الحسن عليّ بن إسماعيل بن أبي بشر بن إسحاق الأشعري ، من نسل أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان معتزليّاً في بداية أمره ثمّ تبع ابن كلاّب وخالفه في أمور ثمّ تاب من ذلك كلّه وأعلن أنّه على عقيدة أحمد بن حنبل ، قال الذّهبي : ولأبي الحسن ذكاء مفرط وتبحّر في العلم وله أشياء حسنة وتصانيف جمّة تقضي له بسعة العلم توفّي رحمه الله سنة ٣٢٤ هـ ، انظر السّير ١٥ / ٨٥ ، وتاريخ بغداد ١١ /٣٤٦ ، ٣٤٧ .

عشرين سنة وتوفّي سنة ٣٢٤هـ ، بل وشاركه في بعض شيوخه مثل أبي خليفة الجمحي وزكريا السّاجي .

ومع ذلك فلم يرد ذِكر الأشعري ولا مقالاته منسوبةً إليه في شيءٍ ممّا اطّلعت عليه من كتب ابن حبّان، بل إني تتبّعت تراجم كلّ من سُمّي من شيوخ ابن حبّان فلم أجد إلاّ أهل السّنّة و لم يُذكر واحدٌ منهم ببدعة الاعتزال ولا غيرها، مع أنّ الّذين ترجموا له ذكروا أنّه برع في علم الكلام وقد دخل بغداد مع من دخلها من العلماء ، وهذا في الحقيقة يورد عدداً من التّساؤلات عن مصدر تلك التأويلات الّتي وردت عند ابن حبّان لبعض النصوص .

والّذي توصّلت إليه مبدئيّاً أنّ ذلك العصر قد امتلأت أجواؤه بتخاريف المعتزلة وردود المتكلّمين عليهم مثل ابن كلاّب والأشعري وأصحابه ، فلا شكّ أنّ من يعيش في ذلك الجوّ مع تأثّره بعلم الكلام لابدّ أنّ يدخل إليه بعض مايسمع من الأدلّة والبراهين والمقدّمات الّتي فيها الصّحيح والسّقيم .

ويكون من نتيجة ذلك أن يجنح إلى أنواع من التّأويل يظن ذلك هو منهج السّلف الصّالح وماهو إلاّ منهج ابن كلاّب والأشعري وغيرهم ممّن سمّاهم ابن تيميّة ووصفهم بأنّهم فضلاء المتكلّمين، وهؤلاء موافقون للسّلف في إثبات الأسماء والصّفات وهم من جملة الصّفاتيّة إلاّ أنّهم نتيجة طريقتهم الخاطئة في إثبات وجود الصّانع والمقدّمات التي تكلّفوها لإثبات مالاينكره عاقل، تبنّوا مقدّمات خاطئة أو صحيحة ولكنّهم أعملوها في غير مكانها ، ومن ذلك قولهم بأنّ ماتحلّ فيه الحوادث فهو حادث، وبناءً على هذه المقدّمة وعلى تفسيراتهم نفوا أن يقوم بالله تعالى شيءٌ من الحوادث وجعلوا من ضمن ذلك الصّفات أو الأفعال الاختياريّة كالكلام والنّزول والمجيء والضّحك على اختلاف بينهم فيها ، وهذا في الحقيقة واضحٌ من تصرّف ابن حبّان، إلاّ أنّه مع ذلك أثبت طرفاً مما نفاه غيره وهو اضطراب ناتج عن اختلاط منهج السلف الصالح بمقدّمات علم الكلام و منهج الكلابية وبروعه في علوم الجدل، ممّا أوقعه في التّفريق بين المتماثلات ، فينفي صفة ويثبت مثلها، ولعلّه من هذا المنطلق وصفه ابن تيميّة بأنّه من أصحاب الأشعري .

وللحق فإنّ هذا الخلط موجودٌ عند كثيرٍ من العلماء الّذين برعوا في علوم الجدل والمنطق والكلام ، فتجد الواحد منهم تتجاذبه نزعتان : الأولى إلى السّنّة والإثبات ، والثّانية إلى النّفي والتّأويل كابن عقيل[(1)] وابن الجوزي[(2)] وأبي الفضل التّميمي الحنبلي[(3)] وغيرهم ، ويتبيّن ذلك أكثر عند استعراضنا أقوال ابن حبّان في كلّ صفة على حدة ، وهذا بيانها بالتّفصيل .

---

(1) الإمام العلاّمة البحر شيخ الحنابلة أبو الوفاء عليّ بن عقيل بن محمّد بن عقيل البغدادي الظّفري الحنبلي المتكلّم صاحب التّصانيف قال الذّهبي : كان يتوقّد ذكاءً وكان بحر معارف وكنز فضائل ، لم يكن له في زمانه نظير على بدعته ، توفّي سنة٥١٣ هـ ، انظر السّير ١٩ / ٤٤٣ ، وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيميّة عنه وعمّن ذكرنا في درء تعارض العقل والنّقل ٨ / ٦٠ - ٦١ .

(2) الشّيخ الإمام العلاّمة الحافظ المفسّر شيخ الإسلام جمال الدّين أبوالفرج عبدالرّحمن بن عليّ بن محمّد بن عليّ القرشيّ التّيمي البكري الحنبلي صاحب التّصانيف البديعة ، من نسل أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه ، قال عنه الذّهبي : كان ذا حظّ عظيم وصيت بعيد ، ثمّ مازال نافق السّوق مُعظّماً مُتَغالياً فيه مُزدَحَماً عليه مضروباً برونق وعظه المثل كماله في ازدياد واشتهار إلى أن مات ، فليته لم يخض في التّأويل ولا خالف إمامه ، توفّي سنة ٥٩٧ هـ ، انظر السّير ٢١/ ٣٦٥ .

(3) الإمام الفقيه رئيس الحنابلة عبدالواحد بن عبدالعزيز بن الحارث التّميمي البغدادي الحنبلي ، توفّي سنة ٤١٠ هـ ، انظر تاريخ بغداد ١١ / ١٤ ، والفتاوى ٦ / ٥٣ .

المبحث الأوّل : عقيدته في صفة العجب

ساق ابن حبّان حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (**عَجِبَ ربّنا من أقوامٍ يُقادون إلى الجنّة في السّلاسل**) ، ثمّ قال : " قوله صلّى الله عليه وسلّم : **عَجِبَ ربنا** ، من ألفاظ التّعارف الّتي لايتهيّأ علْمُ المخاطَب بما يُخاطَب به في القصد إلاّ بهذه الألفاظ الّتي استعملها النّاس فيما بينهم .."[1] .

تعليق :

قبل أن نبحث في صفة العجب لله تعالى يجدر بنا أن نحاول تحليل كلام ابن حبّان المتقدّم ، وقدكرّره كثيراً عند ذكره لصفات الله تعالى ، إذْ أنّه يذكره ولايعرف القارىء المراد منه ، أهو الإثبات أم النفي ؟ .

من ذلك ماذكره آنفاً بقوله : من ألفاظ التعارف التي لايتهيأ علم المخاطَب إلاّ بها .

وكذلك قال مترجماً لحديث أبي هريرة مرفوعاً : (**يقول الله جلّ وعلا للعبد يوم القيامة ياابن آدم مرضت فلم تعدني ...**) ، قال : " ذِكرُ الخبرالدّال على أنّ هذه الألفاظ من هذا النّوع أُطلقت بألفاظ التّشبيه والتّمثيل على حسب مايتعارفه النّاس فيما بينهم ، دون الحكم على ظواهرها "[2] ، وكرّرها بعد ذلك عند ذِكر حديث أبي هريرة مرفوعاً : (**ماتصدق عبد بصدقة من كسب طيّب ولا يقبل الله إلاّ طيّباً إلاّ كأنّما يضعها في يد الرحمن ...**) ، ثمّ قال : " قوله صلّى الله عليه وسلّم : **إلا كأنّما يضعها في يد الرحمن** ، يبيّن لك أنّ هذه الأخبار أُطلقت بألفاظ التّمثيل دون وجود حقائقها أو الوقوف على كيفيّتها ، إذ لم يتهيّأ معرفة المُخاطَب بهذه الأشياء إلاّ بالألفاظ الّتي أُطلِقت بها "[3] .

---

[1] الإحسان ١ / ٣٤٣ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الجهاد باب الأسارى في السّلاسل .

[2] الإحسان ١ / ٥٠٣ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في البر باب فضل عيادة المريض .

[3] الإحسان ١ / ٥٠٤ ـ ٥٠٤ .والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الزّكاة باب الصّدقة من كسب طيّب ، ومسلم في الزّكاة باب قبول الصّدقة من الكسب الطّيّب وتربيتها .

وهذه العبارات الّتي أطلقها ابن حبّان هي منهجه في فَهم سائر الصّفات أو معظمها ، وهذه الطّريقة بغضّ النّظر عن المراد منها عند ابن حبّان، استخدمها شيخ الإسلام ابن تيميّة وغيره عند كلامه عن الصّفات والرّد على الجهميّة والمعتزلة في نفيهم الصّفات ، وخلاصته أنّ المُخاطَب لايفهم المعاني المُعبّر عنها باللّفظ إلاّ أن يعرف عينها أو مايناسب عينها ويكون بينها قدرٌ مشترك ومشابهة في أصل المعنى ، وإلاّ فلا يمكن تفهيم المخاطَبين بدون هذا قط، فالمخاطِب المتكلِّم إذا أراد بيان معانٍ، فلا يخلو إمّا أن يكون ممّا أدركها المخاطَب المستمع بإحساسه وشهوده ، أو بمعقوله ، أو لايكون كذلك ، فإن كانت من القسمين الأوّلين لم يحتج إلاّ إلى معرفة اللّغة ، بأن يكون عرف معاني الألفاظ، وإن كانت المعاني المُراد تعريفه بها ليست ممّا أحسّه وشهده بعينه ولاممّا يدركه بشيءٍ من حواسّه الظّاهرة والباطنة فلا بدّ من تعريفه بطريق القياس والتّمثيل والاعتبار بما بينه وبين معقولات الأمور الّتي شاهدها من التّشابه والتّناسب، فإذا أراد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إخبارنا عن الأمور الغيبيّة المتعلّقة بالله واليوم الآخر ، فلا بدّ أن نعلم معنىً مشتركاً وشبهاً بين مفردات تلك الألفاظ وبين مفردات ماعلمناه في الدنيا بحسّنا وعقلنا .

فينبغي ان يعرف هذه الدرجات:

أوّلها : إدراك الإنسان المعاني الحسّية المشاهدة .

وثانيها : عقله لمعانيها الكليّة .

وثالثها : تعريف الألفاظ الدّالة على تلك المعاني الحسّية والعقليّة .

فإذا أخبرنا عن الأمور الغائبة فلابد من تعريفنا المعاني المشتركة بينها وبين الحقائق المشهودة والاشتباه الّذي بينها، وذلك بتعريفنا الأمور المشهودة، ثمّ إن كانت مثلها لم يحتج إلى ذِكر الفارق، وإن لم تكن مثلها بيّن ذلك بذكر الفارق، والإضافة وحدها كافية في بيان الفارق، وانتفاء التّساوي لايمنع وجود القدر المشترك الّذي هو مدلول اللفظ المشترك وبه صرنا نفهم الأمور الغائبة ولولا المعنى المشترك ما أمكن ذلك [1] .

---

[1] انظر ذلك في الفتاوى ٥ / ٢٠٠ - ٢١٢ ، وشرح الطّحاويّة ١٠٣ - ١٠٦ .

وهذا المعنى المشترك نبّه شيخ الإسلام ابن تيميّة كثيراً إلى أنّه كان مزلّة لبعض الأذكياء حيث إنّ الدّقّة في فهمه جعلتهم يتناقضون في هذا المقام ، فتارةً يظنّ أن إثبات القدر المشترك يوجب التّشبيه الباطل فيجعل ذلك له حجّةً فيما ينفيه من الصّفات، حذراً من ملزومات التّشبيه، وتارةً يفطن أنّه لابدّ من إثبات هذا على كلِ تقدير فيجيب به فيما يثبته من الصّفات [(١)] .

وزيادةً في توضيح أهميّة هذا الموضع قال شيخ الإسلام : (والإخبار عن الغائب لايُفهم إن لم يعبّر عنه بالأسماء المعلومة معانيها في الشّاهد ويُعلم بها مافي الغائب بواسطة العلم بما في الشّاهد مع العلم بالفارق المميّز ، وأنّ ماأخبر الله به من الغيب أعظم ممّا يُعلم في الشاهد) [(٢)] .

وقال أيضاً : (والمقصود هنا أنّ الاعتماد على مثل هذه الحجّة فيما يُنفي عن الرّب ويُنزّه عنه ـ كما يفعله كثير من المصنّفين ـ خطأٌ لمن تدبّر ذلك وهذا من طرق النّفي الباطلة) [(٣)] .

فتبيّن من كلام شيخ الإسلام أنّ الخطأ في فهم هذا الموضع ، هو الّذي سبّب الاضطراب في كلام بعض العلماء ، فمنهم من جعل القدر المشترك دليلاً على نفي الصّفة وأنّ الإطلاق الشّرعي إنّما كان مراعاةً لحال المخاطَبين، ولإيصال المراد من النّصّ إليهم عن طريق استخدام الألفاظ المألوفة لديهم فحسب ، دون أن يدلّ اللّفظ على صفة حقيقيّة ، أو أنّ ظاهر النّص مراد، وأحياناً يتّخذ ذلك دليلاً على الإثبات ، وأنّ استخدام اللّفظ إنّما هو ضرورةٌ اقتضاها أنّ المعاني المراد إيصالها إلى المخاطَب غير معروفةٍ لديه ، ولذلك استُخدمت ألفاظٌ تقرّب المعنى منه دون أن يدلّ ذلك على التّساوي والمماثلة.

وفي ظنّي أنّ ابن حبّان أُتي من هذا الباب ، ولذلك نراه أحياناً يُفهم منه النّفي وأحياناً الإثبات ، ويبدو لي أنّ مقدّمات الكُلاّبيّة والأشاعرة التي امتلأت بها أجْواء ذلك العصر ، مع مالدى ابن حبّان من الثّقافة السّلفية ، هي

(١) التّدمريّة ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

(٢) التّدمريّة ص ٩٧ .

(٣) التّدمريّة ص ١٣١ .

الّتي أدّت إلى هذا الاضطراب وعدم الوضوح، ولا غرْو ، فإنّ التّمايز الشّديد لم يكن موجوداً بين السّلفيّين والأشاعرة لوقت طويل .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة : (والقشيري تلميذ بن فورك فلهذا تغلّظ مذهب الأشعري من حينئذٍ ، ووقع بينه وبين الحنبليّة تنافر بعد أن كانوا **متوالفين أو متسالمين**) [1] .

بل إنّ شيخ الإسلام جعل الأشعريّة فيما يثبتون فرعٌ على الحنبليّة ومتكلمي الحنبليّة فرعٌ عليهم [2] .

ولهذا يتعيّن علينا الوقوف عند كلّ صفة يتكلّم عنها ابن حبّان ، وفهم كلامه عنها على حده ، ليُرى هل هو مثبتٌ لها أم لا ، ولايعتمد في ذلك على منهج مطّرد في الباب كما قال ابن حجر رحمه ا لله بعد أن حكى مذهبه السّابق : (هذا رأيه في جميع المتشابه) [3] .

ونعود الآن الى الكلام عن صفة العجب فإنّ الحديث الّذي رواه في صفة العجب صحيحٌ ولاشك أخرجه أيضاً البخاري ، وقد ورد في صفة العجب أيضاً مارواه ابن مسعود رضي ا لله عنه ، عن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم أنّه قال : (**عجب ربنا من رجلين : رجلٌ قام عن وِطائه ولحافه ومن حِبِّه وأهله إلى صلاته ...ورجلٌ غزا في سبيل ا لله فانهزم فعلم ماعليه في الانهزام وماله في الرّجوع فرجع حتى أُهريق دمه ...**)[4] .

---

[1] الفتاوى ٦ / ٥٢ ، والقشيري : هو أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة القشيري الخراساني صاحب الرّسالة وغيرها ، متكلّم على أصول أبي الحسن الأشعري ، توفّي سنة ٤٦٥هـ ، السّير ١٨ / ٢٢٧ ، وابن فورك : هو محمّد بن الحسن بن فورك الأصبهاني ، شيخ خراسان وعالمها ، كان متكلّماً على أصول أبي الحسن وهو شيخ القشيري ، وانظر محنته مع الكرّاميّة في طبقات السّبكي ٤ / ١٢٧ ، توفّي سنة ٤٠٦هـ ،وانظر أخبار ه مع الحنابلة في المنتظم ١٥ / ٢٧٩ ، ١٦ / ١٨١ ، وفي البداية والنّهاية ١٢ / ٧١ ،١٢٣ ـ ١٢٤ ، وفي طبقات أبي يعلى ٢ / ١٩٧ ، وفي السّير ١٨ / ٩٠ .

[2] الفتاوى ٦ / ٥٣ ، ومن يقرأ كلام بعض العلماء عن الأشعريّة خصوصاً السّبكي في طبقاته ، قبل الفتنة يظنّ أنّها هي الاعتقاد الصّحيح ، فرحم ا لله شيخ الإسلام ابن تيميّة وأجزل مثوبته ، فهو الّذي كشف وبيّن الفروق بين مذهب الأشاعرة ومذهب السّلفيّين أهل السّنّة حقّاً ، وإنّ كان ذلك لايعني أن نخرج كلّ من أخطأ من السّنّة .

[3] الفتح ١ / ١٢٦ ، مع تحفّظنا على إطلاق لفظ المتشابه على نصوص الصّفات .

[4] أخرجه أحمد ١ / ٤١٦ ، والطّبراني في الكبير١٠ / ح١٠٣٨٣ ، وابن أبي عاصم في السّنّة ح٥٦٩ وحسّنه الألباني بشواهده في تعليقه عليه ، وروى القسم الأخير منه أبوداود في الجهاد باب فضل الثّبات في الغزو .

وكذلك أخرج أبو داود والنّسائي عن عقبة ابن عامر الجهني مرفوعاً : **(يعجب ربّكم عزّ وجلّ من راعي غنمٍ في شظيّة يؤذّن للصّلاة ويقيم)**[(١)] .

وصفة العجب ثابتةٌ لله تعالى بهذه الأنوار النبويّة على الوجه اللاّئق به سبحانه **{ ليس كمثله شيء }** .

قال ابن أبي عاصم رحمه الله : (باب : في تعجّب ربّنا من بعض مايصنع عباده ممّا يتقرّب به إليه)[(٢)] ، ثمّ ساق الأحاديث المتقدمة ، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه في صنيع أبي طلحة وامرأته رضي الله عنهما بضيف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقال لهم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : (**لقد عجب ـ أو ضحك ـ الله من صنيعكما البارحة . .**) [(٣)] .

وقد سُئل سفيان بن عيينة عن حديث : (إنّ الله يعجب ، وضحك) فقال : (هي كما جاءت نقرّ بها ونحدّث بلا كيف)[(٤)] .

وهذا هو منهج السّلف الصّالح في سائر الصّفات وهو إثباتها وإقرارها كما جاءت دون تمثيل أو تكييف او تعطيل ، وإنّما نقول يعجب الله،كما قاله رسول الله ونفهم مراده على الوجه اللاّئق به سبحانه .

وأمّا من حاد عن هذا المنهج الحق فقد نفى هذه الصّفة أو تأوّلها على غير المراد ، فمنهم من يقول : إنّ الله مُنزّهٌ عن العجب ، إذ هو محالٌ على الله تعالى أو قال : إنّما يعجب من لايعلم ثمّ يعلم ، ومنهم من تأوّلها على صفة الرّضا فكأنّه قال : إنّ هذا الفعل حلَّ من الرّضا عند الله محلّ العجب عند الناس [(٥)] ، وكلّ هذا تأويلٌ وحَيْدةٌ عن ظاهر النّص، وإنّما على العبد الإيمان والتّسليم بما جاء عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، ولو كان المراد بالعجب

---

(١) أخرجه أبوداود في الصّلاة باب الأذان في السّفر والنّسائي في الأذان باب الأذان لمن يصلّي وحده ، والشّظيّة : قطعة مرتفعة في رأس الجبل ، النّهاية ٢ / ٤٧٦.

(٢) السّنّة لابن أبي عاصم ص ٢٤٩ ، وابن أبي عاصم هو الحافظ أبوبكر عمرو بن أبي عاصم الضّحّاك بن مخلد الشّيباني ، من أئمّة أهل السّنّة ، توفّي سنة ٢٨٧ هـ ، السّير ١٣ / ٤٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب **{ ويؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة }** ، ومسلم في الأشربة بباب إكرام الضّيف ، ورواية البخاري ليس فيها تسمية الرّجل والّذي رجّحه الحافظ في الفتح أنّه أبو طلحة .الفتح ٧ / ١٢٠ .

(٤) الحجّة ١ / ٤٣٨ .

(٥) انظر فتح الباري ٨ / ٦٣٢ ، وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ١٤٣.

ماذكروه لما أطلقه النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم ، فهو أعلم با لله وقدره أكبر من أن يطلق عليه ماظاهره النّقص ، فالواجب كما تقدم الإيمان والتّسليم والإذعان لما جاء عن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم .

ثمّ وجدت مايرجّح أنّه أراد بتعليقه عقب الحديث السّابق تأويل النص وانكار الصفة لله تعالى حيث قال عقب حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**ضحك ا لله من رجلين قتل أحدُهما صاحبه : وكلاهما في الجنة**) ، قال : " هذا الخبر ممّا نقول في كتبنا ،بأنّ العرب تضيف الفعل إلى الآمر كما تضيفه إلى الفاعل، وكذلك تضيف الفعل الّذي هو من حركات المخلوقين إلى الباري جلّ وعلا كما تضيف ذلك الشّيء إليهم سواء ، فقوله **ضحك ا لله من رجلين** : يريد ضَحّكَ ملائكتَه وعجّبهم من الرّجلين ...فيعجّب ا لله ملائكتَه ويُضْحِكَهم من موجود ماقدّر، فنسب الضّحك الّذي كان من الملائكة إلى ا لله جلّ وعلا ... "[1] ، وهذا واضح أنّه يعامل العجب معاملة الضّحك فكلاهما عنده من أفعال الملائكة ، ولكنّها نُسبت إلى ا لله كما في بعض أساليب العرب ، وهو تأويل ولاشك ترفضه النّصوص لافتقاره إلى الدّليل والقرينة ، ومخالفته لظاهر النّصوص ، وهو أيضاً مخالفٌ لمنهج السّلف الّذين صرّحوا بإثبات صفة العجب لله تعالى على الوجه اللاّئق به سبحانه . . وا لله أعلم .

---

[1] الإحسان ١٠ / ٥٢٢ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الجهاد باب الكافر يقتل المسلم ثمّ يسلم فيسدّد بعد ويُقتل ، ومسلم في الإمارة باب بيان الرّجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنّة .

المبحث الثّاني : عقيدته في صفتي السّمع والبصر

أورد ابن حبّان حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه أنّه قال في هذه الآية ﴿ **إنّ ا لله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها** ﴾ إلى قوله :﴿ **إنّ ا لله كان سميعاً بصيراً** ﴾ : (رأيت النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم يضع إبهامَه على أُذُنه وأُصبعَه الدّعّاء على عينه) ، ثمّ قال : " أراد صلّى ا لله عليه وسلّم بوضعه أصبعه على أذنه وعينه تعريف النّاس أنّ ا لله جلّ وعلا لايسمع بالأذن الّتي لها سماخ والتواء ، ولايبصر بالعين الّتي لها أشفار وحدق وبياض ، جلّ ربنا أن يُشبّه بخلقه في شيءٍ من الأشياء ، بل يسمع ويبصر بلا آلة كيف يشاء " [(١)] .

التعليق :

السّمع والبصر صفتان ثابتتان لله تعالى دلّ عليهما الكتاب والسّنّة والإجماع والنّظر الصّحيح : أمّا الكتاب فمنه قوله تعالى : ﴿**ليس كمثله شيءٌ وهو السّميع البصير**﴾ : **الشّورى ١١**، وقوله تعالى : ﴿ **قد سمع ا لله قول الّتي تجادلك في زوجها** ﴾ : **المجادلة ١** ، وقوله : ﴿ **وا لله بما تعملون بصير**﴾

وأمّا السّنّة فمنها حديث أبي هريرة الّذي ذكره ابن حبّان وهو على شرط الصّحيح .

وعن عائشة رضي ا لله عنها قالت : (الحمد لله الّذي وسع سمعه الأصوات) [(٢)] .

وعن أبي موسى الأشعري رضي ا لله عنه قال : كنّا مع النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم في سفر ، فكنّا إذا علونا كبّرنا ، فقال : (**أربعوا على أنفسكم ..**

---

(١) الإحسان ١ / ٤٩٨ - ٤٩٩ و ٣ / ٢٠١ ، باختلاف يسير في العبارة ،والسّماخ هو الصّماخ وهو خرق الأذن ، انظر تهذيب اللّغة ٧ / ١٩٥ ، والحديث أخرجه أيضاً أبوداود في السّنّة باب في الجهميّة وابن خزيمة في التّوحيد ١ / ٩٧ ، والبيهقي في الأسماء والصّفات ص ٢٣٤ ونقله ابن كثير بإسناد ابن أبي حاتم في التّفسير ١ / ٥٢٩ ، وإسناده صحيح .

(٢) أخرجه أحمد ٦ / ٤٦ ، وابن ماجة في المقدّمة باب فيما أنكرت الجهميّة ح١٨٨ وفي الطّلاق باب الظّهار بلفظ تبارك ، والطّبري في التّفسير ح٣٣٧٢٥ - ٣٣٧٢٩ ، وعلّقه البخاري في التّوحيد باب قول ا لله : ﴿ **وكان ا لله سميعاً بصيراً** ﴾ .

فإنّكم لاتدعون أصمّ ولا غائباً ، تدعون سميعاً بصيراً قريباً)[١] .

وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في خولة بنت ثعلبة : (هذه امرأةٌ سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات)[٢] .

قال القسطلاّني[٣] رحمه الله: (وقد عُلم بالضّرورة من الدّين ، وثبت بالكتاب والسّنّة بحيث لايمكن إنكاره ولا تأويله أنّ الباري تعالى حيٌّ سميعٌ بصير، وانعقد إجماع أهل الأديان بل جميع العقلاء على ذلك)[٤] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله : (فالسّمع والبصر والحياة والعلم والقدرة والكلام ونحوها ، صفات كمالٍ لانقص فيها، فمن اتّصف بها أكمل ممّن لايتّصف بها ، والنّقص في انتفائها لافي ثبوتها بإجماع العقلاء، والقابل للاتّصاف بها كالحيوان أكمل ممّن لايقبل الاتّصاف بها كالجماد).[٥]

ومنهج السّلف أنّ السّمع والبصر صفتان زائدتان على الذّات ، وكونه سميعاً بصيراً يفيد قدراً زائداً على كونه عليماً .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : (فكونه سميعاً بصيراً يتضمّن أنّه يسمع بسمع ويبصر ببصر، كما تضمّن كونه عليماً أنّه يعلم بعلم ، ولا فرق بين كونه سميعاً بصيراً وبين كونه ذا سمع وبصر ، وهذا قول أهل السّنّة قاطبة)[٦] .

---

(١) أخرجه البخاري في التّوحيد باب قول الله : ﴿ **وكان الله سميعاً بصيراً** ﴾ .

(٢) الإصابة ٧ / ٦٢٠ ، وخولة هي الصّحابيّة خولة بنت مالك بن ثعلبة بن أصرم ، اختلفوا في اسمها واسم زوجها ، وهي الّتي نزل فيها صدر سورة المجادلة ، انظر تفسير الطّبري ١٢ / ٣ - ٦ .

(٣) أبو العبّاس شهاب الدّين ، أحمد بن محمّد بن أبي بكر بن عبدالملك القسطلاني القتبي المصري ، من علماء الحديث ، أشهر أعماله شرح البخاري المُسمّى إرشاد السّاري ، ميزته أنّه شرح ألفاظ الصّحيح كلّها إلاّ ما ندر ، توفّي سنة ٩٢٣ هـ ، انظر الأعلام للزّركلي ١ / ٢٣٢ ، والبدر الطّالع للشّوكاني ١ / ١٠٢ .

(٤) إرشاد السّاري ١٠ / ٣٧٠ .

(٥) الفتاوى ٦ / ٨٨ .

(٦) الفتح ١٣ / ٣٧٣ .

وتأويلها بالعلم بالمسموعات والمبصَرات زيغٌ عن سبيل المؤمنين ولاشك، فإنّ العبد يجد اختلافاً ضرورة بين مايعلمه وبين مايسمعه ويبصره، فمن علم اللّون مثلاً ثمّ يراه يجد فرقاً ضرورياً بين الحالتين[1] .

ولهذا المعنى ـ وا لله أعلم ـ أكّد النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم هاتين الصّفتين في حديث أبي هريرة ، فوضع أصبعيه على العين والأذن إشارةً منه إلى تحقيق الصّفة وتأكيد معناها : أنّه يبصر ببصر ويسمع بسمع ، ولو كان المراد بها العلم لأشار إلى القلب لأنّه محل العلم كما قال البيهقي رحمه ا لله[2] .

قال ابن خزيمة : (باب البيان من سنن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم على تثبيت السّمع والبصر لله موافقاً لما يكون من كتاب ربّنا ...) [3] ثمّ ساق النّصوص المثبتة لذلك .

وقال قوّام السّنّة الأصبهاني : (ومن صفات ا لله الّتي وصف بها نفسه السّمع والبصر) .[4]

وبهذا نعلم ثبوت هاتين الصّفتين على الوجه اللاّئق به سبحانه ، إلاّ أن تفسيره للحديث بأنّ مراد النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم بالإشارة أنّه يسمع لابالأذن الّتي لها سماخ والتواء فيه نظر، فهذا مفهومٌ ضرورةً ، ولايحتاج إلى الإشارة ، بل لو كان مراده كذلك لما أشار إليها لأنّ الإشارة أدعى إلى تصوّر المشابهة، ولكنّ المراد تحقيق ذلك كما مرّ عن البيهقي وابن حجر، وأمّا قوله يسمع ويبصر بلا آلة فقد يُفهم منه أنّه يطلق على ا لله أنّه يسمع ويبصر دون أن يكون له سمع وبصر ، وهذا خلاف منهج أهل السّنّة كما تقدم عن ابن حجر وشيخ الإسلام رحمهما ا لله ، وإن كان الظّاهر أنّه اراد نفي مشابهة المخلوق لله تعالى حتّى لايُتصوّر أنّه يسمع بأذن كما في المخلوق ، وهذا باطل قطعاً ، بل نقول : إنّه يسمع بسمع ، ويبصر ببصر .

---

[1] انظر لوامع الأنوار للسّفّاريني ١ / ١٤٤ .

[2] الأسماء والصّفات ص ٢٣٤ .

[3] التّوحيد ١ / ١١٠ .

[4] الحجّة ١ / ١٧٦ .

وممّا يؤكّد أنّ ابن حبّان يثبت هاتين الصّفتين على منهج السّلف الصّالح أنّه قال في ترجمة : " ذِكرُ استماع الله إلى المتحزّن بصوته بالقرآن " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (**ماأذِن الله لشيء كأذَنِه للّذي يتغنّى بالقرآن يجهر به**) ثمّ قال : " قوله : **ماأذِن**، يريد : مااستمع ، **كأذَنِه** : يريد كاستماعه ... " [1] .

وهذا صريحٌ في إثبات ابن حبّان لصفة السّمع لله تعالى، على مذهب أهل السّنّة أنّ السّمع إضافةً إلى كونه صفةً ذاتيّة لازمة فهو أيضاً من الصّفات الاختياريّة المتعلّقة بالمشيئة، لاكما يقوله أهل البدع من أنّها صفة قديمة لاتتجدّد متعلّقاتها ، وإنّما يسمع ماهو من معلوماته، وقد ردّ شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله على هؤلاء ردّاً وافياً في رسالته (الصفات الاختياريّة)[2] ، وبيّن أنّ الله تعالى لم يزل سميعاً بصيراً ، إلاّ أنّ ذلك متعلّق أيضاً بالمشيئة وليست هي العلم بالمسموعات والمُبصَرات، وقد تقدّم ردّ ذلك في كلام البيهقي ، وهذا الحديث حجّة عليهم فهو صريح في أنّ الله يستمع إلى المجاهِر بالقرآن ولايخلو الزمان من قاريء للقرآن ، فصحّ أنّه إذا جهر شخصٌ بالقرآن وتغنّى به فإنّ الله تعالى يستمع إليه في حينه ، والتّعبير بالاستماع دون السّماع يزيد الأمر وضوحاً ، وهذا بيّنٌ لمن تأمّله وأجلى الله عن قلبه ظلمة الشّك ورين التّشبيه وسوء الظّنّ بالله ورسوله ، والله تعالى أعلم وأحكم .

---

(1) الإحسان ٣ / ٣٠ ، والحديث تقدّم تخريجه ص ٢٣ ، بلفظ (...**ماأذن لنبيٍّ** ...) .

(2) جامع الرّسائل ج٢ ، والبحث فيها متّصلٌ يجب قراءته بكامله حتّى يتمّ تصوّره تماماً .

المبحث الثّالث : عقيدته في صفة النزول

ساق أبو حاتم حديث أبي هريرة مرفوعاً : (**ينزل ربّنا جلّ وعلا كلّ ليلة إلى سماء الدّنيا حين يبقى ثلث اللّيل الآخر فيقول : من يدعوني فاستجيب له ؟من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني أغفر له**) ، ثمّ قال : "صفات الله جلّ وعلا لاتُكيّف ولاتُقاس إلى صفات المخلوقين ، فكما أنّ الله جلّ وعلا متكلّم من غير آلة ...كذلك ينزل بلا آلة ولاتحرّك ولا انتقال من مكان إلى مكان ... ينزل كيف يشاء بلا آلة ، من غير أن يُقاس نزوله إلى نزول المخلوقين كما يُكيّف نزولهم ، جلّ ربّنا وتقدّس من أن تشبّه صفاته بشيءٍ من صفات المخلوقين " [1] .

تعليق:

اتّفق سلف الأمّة وأئمّتها في كلّ زمان على الإيمان بهذا الحديث وتلقّيه بالقبول ، والإذعان لما تضمّنه من إثبات صفة النّزول لله تعالى كيف يشاء سبحانه وتعالى، وقد ثبتت هذه الصّفة بالكتاب والسّنّة والإجماع .

أما الكتاب فقد قال الله تعالى : ﴿ **هل ينظرون إلاّ أن يأتِيَهم الله في ظللٍ من الغمام والملائكة ...** ﴾ : **البقرة ٢١٠** : وقال تعالى : ﴿ **وجاء ربّك والملك صفاً صفاً** ﴾ : **الفجر ٢٢** ، قال عثمان بن سعيد الدّارمي[2] رحمه الله : (وهذا يوم القيامة ، فالّذي يقدر على النّزول يوم القيامة من السّماوات كلّها للفصل بين عباده ، قادرٌ أن ينزل كلّ ليلة من سماءٍ إلى سماءٍ) [3] .

---

(1) الإحسان ٣ / ٢٠٠ - ٢٠١ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في التّهجّد باب الدّعاء والصّلاة آخر اللّيل ، ومسلم في صلاة المسافرين باب التّرغيب في الدّعاء والذكر في آخر اللّيل .

(2) هو أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد التّميمي الدّارمي السّجستاني العلاّمة الحافظ النّاقد السّلفي ، كان جذعاً في أعين المبتدعة ، وهو صاحب الرّدّ على بشر المريسي ، توفّي رحمه الله سنة ٢٨٠هـ ، السّير ١٣ / ٣١٩ .

(3) ردّ عثمان بن سعيد على الجهميّة ص ٦٣ .

وأمّا السّنّة فقد تواتر الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بإثبات النّزول[١] ، وأهل الحديث قاطبة يصحّحون هذا الحديث ، بل هو ممّا تلقّته الأمّة بالقبول ، حتّى إنّ أهل البدع لم يستطيعوا القدح فيه من جهة ثبوته فلجأوا إلى التّأويل الفاسد .

والنّظر الصّحيح يؤيّد ذلك فإنّ الله تعالى حيٌّ عليمٌ حكيمٌ قديرٌ ، له في كلّ فعلٍ حكمة ، ولايوجد في صريح المعقول مايعارض اتّصافه تعالى بالنّزول متى يشاء وكيف يشاء ، بل وصف الله تعالى نفسه أنّه : ﴿ **يفعل مايشاء** ﴾ وأنّه : ﴿**على كلّ شيء قدير**﴾ .

قال الإمام أحمد : (... وينزل كلّ ليلة إلى سماء الدّنيا كيف يشاء ﴿ **ليس كمثله شيءٌ وهو السّميع البصير** ﴾)[٢] .

وقال أبو عمر الطلمنكي[٣] (... أجمعوا على أنّ الله ينزل كلّ ليلة إلى سماء الدّنيا ، على ماأتت به الآثار كيف شاء لايحدّون في ذلك شيئاً ...)[٤] .

وقد حاول بعض شرّاح الحديث أن يتأوّلوا الحديث على نزول أمره أو رحمته[٥] ، وهذا خلاف الصّحيح لأمور منها :

١ـ أنّه خلاف ظاهر النّص .

٢ـ أنّ تفسيره بذلك يقتضي أن يكون في الكلام شيءٌ محذوف ، والأصل عدم الحذف .

٣ـ أنّ نزول أمره ورحمته لايختصّ بهذا الوقت من اللّيل ، بل أمره ورحمته ينزلان في كلّ وقت ، ولو فُرض صحّة ذلك فإنّ في الحديث أنّ ذلك النّزول إلى سماء الدّنيا ، فأيّ فائدة لنا في رحمةٍ تنزل إلى سماء الدّنيا فقط .

٤ـ أنّ الحديث أخبر أنّ الّذي ينزل يقول : هل من يدعوني فاستجيب له ،

---

[١] انظر التّوحيد لابن خزيمة ١ / ٢٩٠ ، ٣٢٦ ، والسّنّة لابن أبي عاصم ٢١٦ ـ ٢٢٤ ، والإرواء للألباني ٢ / ١٩٥ ـ ١٩٩ .

[٢] طبقات الحنابلة ١ / ٢٩ .

[٣] الإمام المقرىء الأثري أبو عمر أحمد بن محمّد بن عبدالله المعافريّ الأندلسي الطّلمنكي ، كان من بحور العلم وسيفاً مجرّداً على أهل الأهواء ، توفّي سنة ٤٢٩ هـ ، السّير ١٧ / ٥٦٦ .

[٤] الفتاوى ٥ / ٥٧٨ .

[٥] انظر فتح الباري ٣ / ٣٠ ـ ٣١ .

من يستغفرني فاغفر له، ولايمكن أن يكون قائل ذلك غير ا لله تعالى [١] .

وقال الآجرّي : (باب الإيمان والتّصديق بأنّ ا لله عزّوجلّ ينزل إلى سماء الدّنيا كلّ ليلة) ، وقال : (الإيمان بهذا واجب ولايسع المسلم العاقل أن يقول : كيف ينزل ؟ ولايردّ هذا إلاّ المعتزلة ، وأمّا أهل الحق فيقولون : الإيمان به واجب بلا كيف ، لأنّ الأخبار قد صحّت عن رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم : أنّ ا لله عزّ وجلّ ينزل إلى السّماء الدّنيا كلّ ليلة ...)[٢] .

وممّا سبق نعرف أنّ ابن حبّان قد سلك منهج السّلف في فهم هذا الحديث ، وفي الحقيقة إنّ إثبات ابن حبّان لصفة النّزول يدلّ على ماسبق أن ذكرناه في كلامنا عن غموضه في باب الأسماء والصّفات، فإنّ النّزول من الأفعال الاختيارية الّتي لايثبتها الكلاّبية ولاالأشاعرة ، مع أنّ شيخ الإسلام ابن تيميّة وصف ابن حبّان بأنّه من أصحاب الأشعري ، وقد وافقه في بعض آرائه كما سيأتي ، وفي شرح العقيدة الأصفهانيّة عدّه ممّن ينكر قيام الأفعال الاختياريّة با لله عزّ وجلّ من أصحاب الحديث،[٣] ولكنّه هنا أقرّ الحديث على ظاهره ، ممّا يدلّ على أنّ الكتاب والسّنّة هي أصل الاتباع عند ابن حبّان ، وأنّه ينزع إلى مذهب أهل الحديث جدّاً.

وقد اختلفت الرّوايات في تحديد وقت النّزول ففي بعضها أنّه إذا مضى ثلث اللّيل الأوّل ، وفي بعضها أنّه إذا مضى نصف اللّيل ، وفي بعضها أنّ النّزول في الثلث الأخير من اللّيل .

قال ابن حبّان : " يحتمل أن يكون نزوله في بعض اللّيالي حتّى يبقى الثّلث الآخر ، وفي بعضها حتّى يذهب ثلث اللّيل الأوّل ... " [٤] .

وقد اختلف العلماء في الجمع بين الرّوايات ، مع اتّفاقهم أنّ رواية الثّلث الأخير هي أصحّ الرّوايات ، وأفضل ماقيل : إن الرّوايات الأخرى

---

[١] مختصراً من تلخيص الحمويّة للشّيخ محمّد بن عثيمين ص ٧٩ .

[٢] الشّريعة ص ٢٥٤ ، والآجرّي هو أبو بكر محمّد بن الحسين بن عبدا لله البغدادي الآجرّي ، ، قال الخطيب : كان ثقة صدوقاً ديّناً ، له تصانيف كثيرة ، السّير ١٦ / ١٣٣ .

[٣] شرح الأصفهانيّة ٩٦ .

[٤] الإحسان ٣ / ٢٠٢ .

مبهمةٌ ليس فيها تحديدٌ للوقت ، كقوله : (**إذا مضى ثلث اللّيل الأوّل**) أو قوله : (**شطر اللّيل الأوّل**) أو (**ثلثاه**)، أمّا رواية الزّهري[1] وهي : (**إذا كان الثلث الأخير من اللّيل**) فهي أصحّ وأدقّ في تحديد الوقت ، ولا تُعارِض الرّوايات الأخرى والله تعالى أعلم بالصواب [2] .

وفي الحديث مسائل أخرى تكلّم فيها العلماء ، ولأنّها ليست من شرط الرّسالة فقد أعرضنا عن ذكرها ، وقد استوفاها شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله في رسالته [شرح حديث النزول] فليراجعها من أراد التوسع [3] .

---

[1] أبوبكر محمّد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب القرشي الزّهري المدني ،الإمام العلم حافظ زمانه وهو أوّل من دوّن العلم وكتبه ، قال عنه أيّوب : مارأيت أحداً أعلم من الزّهري ، توفّي سنة ١٢٤هـ ، السّير ٥/ ٣٢٦ .

[2] انظر فتح الباري ٣ / ٣١ ، ومجموع الفتاوى ٥ / ٤٧٠ .

[3] ضمن مجموع الفتاوى ٥ / ٣٢١ - ٥٨٥ .

المبحث الرّابع : عقيدته في صفة الضّحك

قال ابن حبّان معلّقاً على حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (**ضحك الله من رجلين قتل أحدهما صاحبه ، وكلاهما في الجنة**) ، قال: " هذا الخبر ممّا نقول في كتبنا : بأنّ العرب تضيف الفعل إلى الآمر كما تضيفه إلى الفاعل ، وكذلك تضيف الشّيء الّذي هو من حركات المخلوقين إلى الباري جلّ وعلا ، كما تضيف ذلك الشيء إليهم سواء ، فقوله صلّى الله عليه وسلّم : **ضحك الله من رجلين** ، يريد ضحّك الله ملائكتَه وعجّبهم من الكافر يقتل المسلم ، ثمّ تسديد الله للكافر وهدايته إيّاه إلى الإسلام، وتفضله عليه بالشّهادة بعد ذلك حتى يدخلا الجنة جميعاً، فيعّجب الله ملائكته ، ويضحكهم من موجود ماقضى وقدّر، فنسب الضّحك الّذي كان من الملائكة إلى الله جلّ وعلا على سبيل الأمر والإرادة ..."[١] .

تعليق :

صفة الضّحك من الصّفات الثابتة لله تعالى كما في الحديث وهو في الصّحيحين وغيرهما من كتب السّنّة، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً في آخر من يدخل الجنة وفيه قول الرّجل للّه تعالى : (**أتستهزىء بي وانت ربّ العالمين ؟ فضحك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال : ألا تسألوني ممّ ضحكت ؟ قالوا : ممّ ضحكت يارسول الله ؟ قال: من ضحك ربّ العالمين حيث قال : أتستهزىء بي وأنت ربّ العالمين ؟فيقول : إنّي لاأستهزىء بك ولكنّي على ما أشاء قدير**) [٢] .

قال ابن أبي عاصم: (باب ماذكر من ضحك ربّنا عزّ وجل) ، ثمّ ساق عدداً من الأحاديث في الباب [٣] .

---

[١] الإحسان ١٠ / ٥٢٢ ، والحديث تقدّم ص ١٢٢.

[٢] أخرجه البخاري في الرّقاق باب صفة الجنّة والنّار، ومسلم في الإيمان باب آخر أهل النّار خروجاً .

[٣] السّنّة ص ٢٤٤ .

وقال قوام السّنّة* : (فصل في الرّدّ على من أنكر من صفات الله عزّ وجلّ الضّحك والعجب والفرح) ، ثمّ ساق عدداً من الأحاديث مستشهداً بها " (١) .

وقال الإمام أحمد رحمه الله: (يضحك الله ولانعلم كيف ذلك إلاّ بتصديق الرّسول)(٢) .

وقال ابنُ خزيمة رحمه الله : (باب ذِكرِ إثبات ضحك ربّنا عزّ وجلّ بلا صفةٍ(٣) تَصِفُ ضَحِكه جلّ ثناؤه ولايُشبّه ضحكه بضحك المخلوقين، بل نؤمن بأنّه يضحك كما أعلم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ونسكت عن صفة ضحكه جلّ وعلا ، إذ الله عزّ وجلّ استأثر بصفة ضحكه لم يطلعنا على ذلك، فنحن قائلون كما قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مصدّقون بذلك بقلوبنا منصتون عما لم يُبيّن لنا، ممّا استأثر الله بعلمه) (٤) .

ثمّ ساق عدداً من الأحاديث والآثار ، من ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (**إذا جمع الله الأولى والأخرى يوم القيامة جاء الربّ تبارك وتعالى إلى المؤمنين ، فوقف عليهم والمؤمنون على كوم ... فيقول : هل تعرفون ربّكم ؟ فيقولون : إن عرّفنا نفسه عرفناه ، ثمّ يقول لهم الثانية ، فيضحك في وجوههم فيخرّون له سجّداً**) (٥) ، وفي صحيح مسلم عن جابر (**فيتجلّى لهم ضاحكاً**) (٦) .

وقد أجمع أهل السّنّة قاطبةً على إثبات هذه الصّفة لله تعالى من دون تكييفٍ ولاتمثيلٍ ولا تأويلٍ على الوجه اللاّئق به سبحانه .

* ، وقوّام السّنّة هو الشّيخ الحافظ الكبير إسماعيل بن محمّد بن الفضل بن عليّ التّيمي الطّلحي الأصبهانيّ يلقّب بشيخ الإسلام ،متوفّى سنة ٥٣٥ هـ ، السّير ٢٠ / ٨٠ .

(١) الحجّة ١ / ٤٢٩ .

(٢) مسائل الإمام أحمد للأحمدي ١ / ٣١٥ .وانظر طبقات الحنابلة ١ / ٢٩ .

(٣) مقصود ابن خزيمة هنا بلا صفة أي بلاوصف من المخلوق لأنّ الضحك ليس له صفة أصلاً بل مراده سكوت الخلق عن وصف ضحكه جلّ وعلا .

(٤) التّوحيد لابن خزيمة ٢ / ٥٦٣ .

(٥) التّوحيد ٥ / ٥٧٥ .

(٦) في الإيمان باب أدنى أهل الجنّة منزلاً .

وأمّا قول ابن حبّان : إنّ ذلك من قبيل إضافة الفعل إلى الآمر بالفعل .الخ ، فاعلم أنّه من الوارد في لغة العرب إضافة الفعل إلى الآمر به، تقول: قتل الملك فلاناً أي أمر بقتله ، إلاّ أنّ ذلك يكثر في الأفعال المتعدّية، وأمّا الفعل اللاّزم فالأصل إضافته إلى فاعله ولاينتقل عن ذلك الأصل إلاّ بقرينة ، والضّحك ومثله العجب والفرح أفعالٌ لازمةٌ لاتتعدّى بنفسها.

وقد تأوّل بعض العلماء الحديث على المعنى الّذي ذكره ابن حبّان ، قال بعضهم : إنّما هو مثل ضُرب لهذا الصّنيع الّذي يحلّ محلّ الإعجاب والضّحك عند البشر ومعناه الإخبار عن الرّضا بفعلهما ،[1] قال الخطّابي رحمه الله في شرح الحديث : (الضّحك الّذي يعتري البشر عندما يستخفّهم الفرح أو يستفزّهم الطّرب غير جائز على الله ...وإنّما هو مثل ضربه لهذا الصّنيع الّذي حلّ محلّ العجب عند البشر ...ومعناه في صفة الله الإخبار عن الرّضى)[2] ، وكذلك قال أبو الحسن بن مهدي الطّبري[3] : (الضّحك في هذه الأخبار بمعنى البيان تقول العرب : ضحكت الأرض إذا أنبتت لأنّها تبدي عن حسن النّبات ...)[4] ، وقال البيهقي : (فأمّا المتقدّمون من أصحابنا فإنّهم فهموا من هذه الأحاديث ماوقع التّرغيب فيه من هذه الأعمال و لم يشتغلوا بتفسير الضّحك مع اعتقادهم أنّ الله ليس بذي جوارح ومخارج ، وأنّه لايجوز وصفه بكشر الأسنان وفغر الفم ، تعالى الله عن شبه المخلوقين علوّاً كبيراً)[5] ونحن نقول : من الّذي زعم أنّ ضحك الله يكون بكشر الأسنان وفغر الفم ؟ نعوذ بالله من الضّلال : بل الله تعالى أجلّ وأعظم ولكنّ ضحكه وسائر صفاته لائقة بعظمته وكبريائه وذاته المقدّسة جلّ شأنه وتقدّست أسماؤه ، و الله أعلم بنفسه ورسوله صلّى الله عليه وسلّم أعلم به إذ وصفه بذلك، ومذهب أهل الحق إثبات الصّفة كما جاءت ، وهو مذهب

---

(1) انظر فتح الباري ٦ / ٤٠ .

(2) كتاب الأسماء والصّفات ص ٥٩٢ .

(3) أبو الحسن علي بن محمّد بن مهدي الطّبري ، صاحب أبي الحسن الأشعري وهو من أخصّ تلامذته ، توفّي حدود سنة ٣٨٠هـ ، طبقات السّبكي ٣ / ٤٦٦ ، والوافي بالوفيّات ٢٢ / ١٤٣ .

(4) الأسماء والصّفات للبيهقي ص ٥٩٦ - ٥٩٧ .

(5) الأسماء والصّفات ٥٩٨ .

السّلف الصالح ، ولايُعقل في ظاهر اللّغة أن يُقال : ضحك فلان : ويراد أمـر غيره بالضّحك أو أضحك غيره ، والله تعالى أعلم .

المبحث الخامس : عقيدته في صفة الكلام

ساق ابن حبّان حديث أنس بن مالك رضي ا لله عنه قال: (**كان النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم في مسير ، فنزل فمشى رجلٌ من أصحابه إلى جانبه، فالتفت إليه فقال : ألا أُخبرك بأفضل القرآن ؟ قال : فتلا عليه ﴿ الحمد لله ربّ العالمين...﴾**)، ثمّ قال رحمه ا لله : " قوله صلّى ا لله عليه وسلّم: **ألا أُخبرك بأفضل القرآن** ، أراد به : أفضل القرآن لك، لأنّ بعض القرآن يكون أفضل من بعض لأنّ كلام ا لله يستحيل أن يكون فيه تفاوت التّفاضل " [1] .

كما ساق حديث أبيّ بن كعب رضي ا لله عنه عن رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم عن ربّه عزّ وجلّ : (**مافي التّوراة ولا في الإنجيل مثل أمّ القرآن**) ، ثمّ قال : " معنى هذه اللّفظة : **مافي التّوراة ولافي الإنجيل مثل أمّ القرآن** ، أنّ ا لله لايعطي لقارىء التّوراة والإنجيل مثل مايعطي لقارىء أمّ القرآن، إذ ا لله بفضله فضّل هذه الأمّة على غيرها من الأمم، وأعطاها الفضل على قراءة كلام ا لله أكثر ممّا أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضلٌ منه لهذه الأمّة، وعدلٌ منه لغيرها " [2] .

كما ساق حديث أبي سعيد بن المعلى [3] رضي ا لله عنه عن رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم : (ألا أعلّمك سورةً هي أعظم سورة في القرآن ؟ قلت بلى، قال: ﴿**الحمد لله ربّ العالمين**﴾ هي السّبع المثاني والقرآن الّذي أويتيته) ، ثمّ قال : " قوله : **هي أعظم سورة** ، أراد في الأجر، لأنّ بعض القرآن أفضل من بعض " [4] .

---

[1] الإحسان ٣ / ٥١ ـ ٥٢ ، والحديث أخرجه أيضاً الحاكم ١ / ٥٦٠ ، وصحّحه ووافقه الذّهبي وله شواهد كثيرة يأتي بعضها

[2] الإحسان ٣/ ٥٣ ـ ٥٤ ، والحديث أخرجه أيضاً التّرمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة الحجر ، والنّسائي في الافتتاح : باب تأويل قول ا لله عزّ وجلّ :﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم** ﴾ ، وأخرجه الطّبري في تفسيره ح٢١٣٥٢ ـ ٢١٣٥٤ و لم أجده من قول ا لله تعالى إلاّ عند ابن حبّان .

[3] صحابي مشهور بكنيته واختلفوا في اسمه ، الإصابة ٧ / ١٧٥ .

[4] الإحسان ٣ / ٥٦ ـ ٧٥ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في التّفسير باب ما جاء في فاتحة الكتاب .

وقال بعد ذكره حديث نزول الربّ جلّ وعلا : " صفات الله جلّ وعلا لاتُكيّف ولا تُقاس إلى صفات المخلوقين ، فكما أنّ الله جلّ وعلا متكلّم من غير آلة بأسنان ولهوات ولسان وشفة كالمخلوقين جلّ ربّنا وتعالى عن هذا وأشباهه ، لم يجز أن يُقاس كلامه إلى كلامنا ، لأنّ كلام المخلوقين لايوجد إلاّ بآلات[١] ، والله جلّ وعلا يتكلّم كما شاء بلا آلة " .[٢]

وقد سمّى موسى عليه السّلام :كليمَ الله ، في أكثر من موضع [٣] .

وقال في ترجمة : " ذِكرُ البيان بأنّ الله جلّ وعلا كلّم عبدالله بن عمرو بن حرام[٤] بعد أن أحياه كفاحاً " ، ثمّ ساق حديث جابر رضي الله عنهما في تكليم الله لأبيه [٥] .

تعليق :

من كلام ابن حبّان السابق نخلص إلى مايلي:-

أوّلاً : إثباته صفة الكلام لله تعالى ، حيث سمّى القرآن كلام الله، وسمّى موسى عليه السّلام كليم الله، وأطلق على الله أنّه متكلّم كما يشاء .

ثانيا : أنّه يرى أنّ كلام الله عزّ وجلّ لايتفاضل .

أمّا المسألة الأولى فقد وافق ماعليه السّلف رضوان الله تعالى عليهم من إثبات صفة الكلام لله تعالى على الوجه اللاّئق به سبحانه ، خصوصاً بقوله :

---

[١] في هذا الإطلاق نظر فقد جاءت السّنّة بتكلّم بعض المخلوقات دون آلة كتكلّم الحجر الّذي كان يسلّم على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بمكّة بالنّبوّة وكلام الذّراع المسمومة من الشّاة وإخبارها إيّاه بسمّها ، وإنطاق الله جلّ وعلا للجوارح يوم القيامة لتشهد على العبد بما عمل .

[٢] الإحسان ٣ / ٢٠٠ - ٢٠١ ، ويظهر في كلام ابن حبّان تأثّره بالتّراث الأشعري والكلاّبي ، وقد ذكر أهل السّنّة أنّ كلّ من نفى شيئاً من صفات الله بدعوى التّنزيه فما ذلك إلاّ أنّه شبّه أوّلاً فلذلك نفى الصّفة ولو أنّه نزّه لما تخيّل وجود التّشابه وهاأنت ترى ابن حبّان ومن هو مثله لشدّة وطأة التّشبيه عليهم يتكلّفون نفي ماهو معلوم من الدّين بالضّرورة ، والعقل يحيله أصلاً جملة وتفصيلاً ، فكيف يتخيّل ويتوهّم عاقل أصلاً أنّ الله جلّ وعلا يتكلّم بآلة وأنّ له أسنان ولهوات ، ممّا يؤكّد ما ذكره السّلف أنّ النّفاة مشبّهة ولولا استيلاء التّشبيه على نفوسهم ماجأوا إلى النّفي وتأويل نصوص الصّفات .

[٣] الإحسان ١٤ / ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ .

[٤] بن ثعلبة بن حرام الأنصاري الخزرجي السّلمي الصّحابيّ الجليل والد جابر الصّحابيّ المشهور معدود من أهل العقبة وبدر وكان من النّقباء واستشهد رضي الله عنه بأحد ، الإصابة ٤ / ١٨٩ ، وكفاحاً: أي مواجهة ليس بينهما واسطة أو رسول ، النّهاية لابن الأثير ٤ / ١٨٥.

[٥] الإحسان ١٥ / ٤٩٠ .وحديث جابر صحيح أخرجه أيضاً أحمد ٣ / ٣٦١ ، والتّرمذي في التّفسير باب سورة آل عمران ، وابن ماجة في الجهاد باب فضل الشّهادة في سبيل الله ، وغيرهم .

" يتكلّم كما شاء " ، ففيه دلالة على أنّه يثبت صفة الكلام على منهج أهل السّنّة والجماعة ، ومذهبهم أنّ الله عزّ وجلّ يتكلّم متى شاء كيف يشاء سبحانه ، فكلامه صفة فعليّة اختياريّة ، وصفة ذاتيّة ، وهي قديمة النّوع حادثة الآحاد كسائر الصّفات الاختياريّة ، وهي ثابتةٌ بالقرآن والسّنّة أمّا القرآن فقد قال الله عزّ وجلّ : ﴿**وكلّم الله موسى تكليماً**﴾ : **النّساء ١٦٤**، وقال ﴿**منهم من كلّم الله**﴾ : **البقرة ٢٥٣** ، وقال : ﴿**ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربه**﴾ : **الأعراف ١٤٣** ، وقال : ﴿**وناديناه من جانب الطّور الأيمن**﴾ ، وقال : ﴿**وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأَجِرْه حتى يسمع كلام الله**﴾ : **التّوبة ٦** ، وقال : ﴿**وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام الله ثمّ يحرّفونه**﴾ : **البقرة ٧٥** ، وغير ذلك كثير.

وأمّا السّنّة فمن ذلك حديث احتجاج موسى وآدم وفيه قول آدم لموسى : (... **ألست موسى، اصطفاك الله على النّاس برسالاته وبكلامه** ...) [١].

وفي حديث حشر النّاس يوم القيامة قول إبراهيم للناس إذا طلبوا منه الشّفاعة : (**لست لها ، ولكن اذهبوا إلى موسى الّذي كلّمه الله تكليماً**)[٢].

ومنه حديث النّواس بن سمعان في الصّحيح مرفوعاً : (**إذا أراد الله عزّ وجلّ أن يوحي بالأمر تكلّم بالوحي** ...) [٣] .

ومن عقيدة السّلف الصالح الإيمان بأنّ الله تعالى يتكلّم بصوت وحرف لقوله تعالى : ﴿ **وناديناه من جانب الطّور الأيمن** ﴾ والنّداء لايكون إلاّ بصوت .

---

[١] أخرجه البخاري في القدر باب احتجاج آدم وموسى ، ومسلم في القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السّلام عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

[٢] أخرجه مسلم في الإيمان باب أدنى أهل الجنّة منزلةً .

[٣] أخرجه البخاري في التّفسير باب في سورة سبأ .

وقوله صلّى الله عليه وسلّم : (**يقول الله : ياآدم ، فيقول : لبّيك وسعديك ، فينادي بصوت : إنّ الله يأمرك أن تخرج من ذرّيّتك بعثاً إلى النّار**)[(١)] .

وعن عبدالله بن أنيس[(٢)] قال : سمعت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول : (**يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قرُب : أنا الملك أنا الدّيّان**)[(٣)] ، وقد أجمع أهل السّنّة على إثبات صفة الكلام لله تعالى على ما ذكرناه .

ومسألة كلام الله تعالى من أقدم المسائل الّتي حصل فيها النّزاع بين أهل السّنّة وبين أهل البدعة ، وهي كثيرة الفروع ولكنّا ذكرناها على سبيل الإجمال لأنّ ابن حبّان لم يتعرّض لشيءٍ من ذلك ، وإلاّ فقد تكلّم علماء أهل السّنّة وأطالوا في مسألة الكلام[(٤)] .

قال الامام أحمد رحمه الله: (وكلّم الله موسى تكليما ، من الله سمع موسى يقيناً ، ولم يزل متكلّماً عالماً تبارك الله أحسن الخالقين)[(٥)] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله : (السّلف وأئمّة السّنّة والحديث يقولون: إنّه يتكلّم بمشيئته وقدرته ، وكلامه ليس بمخلوق ، بل كلامه صفةٌ له قائمةٌ بذاته، ... وسائر أئمّة السّنّة والحديث متفقون على أنّه يتكلم بمشيئته وأنّه لم يزل متكلّماً إذا شاء وكيف شاء ، يتكلّم بقدرته ومشيئته كلاماً قائماً بذاته ، وهذا هو المعقول من صفة الكلام لكلّ متكلّم ، فكلّ حيٍّ وُصف بالكلام : كالملائكة والبشر والجنّ وغيرهم ، فكلامهم لابدّ أنّ يقوم بأنفسم وهم يتكلّمون بمشيئتهم وقدرتهم .

والكلام صفة كمال لاصفة نقص ، ومن تكلّم بمشيئته أكمل ممّن لايتكلّم

---

(١) أخرجه البخاري في التّوحيد باب ﴿ **ولاتنفع الشّفاعة عنده إلاّ بإذنه** ﴾ .

(٢) هو عبدالله بن أنيس الجهني أبو يحيى المدني صحابي جليل ، توفّي سنة ٥٤ هـ ، الإصابة ٤ / ١٥ .

(٣) أخرجه أحمد ٣ / ٤٥٩ ، وعلّقه البخاري في التّوحيد باب ﴿ **ولاتنفع الشّفاعة عنده إلاّ بإذنه** ﴾ .

(٤) انظر التّوحيد لابن خزيمة ١ / ٣٣٣ ـ ٤٠٢ ، والسّنّة لابن أبي عاصم ص ٢٢٥ ، والسّنّة لعبدالله بن أحمد بن حنبل ١ / ١٣٥ .

(٥) طبقات الحنابلة ١ / ٢٩.

بمشيئته ، فكيف يتّصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق ...)[1] .

إلاّ أنّ ابن حبّان عندما تكلّم عن المسألة الأخرى ورجّح عدم تفاضل كلام الله بعضه على بعض نحى منحىً آخر ، فإنّ هذا القول وهو عدم تفاضل كلام الله ، لم يقل به إلاّ الأشاعرة والكلاّبيّة ومن وافقهم، من جهة أنّهم يعتقدون أو يثبتون الكلام لله على أنّه المعنى القائم بذاته سبحانه ، وأنّه لايتعلّق بمشيئته ولاقدرته ، فهو معنىً واحدٌ لايتبعّض، ومن ثمّ أنكروا تفاضل كلام الله بعضه على بعض .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله : (القول بأنّ كلام الله بعضه أفضل من بعض هو القول المأثور عن السّلف ، وهو الّذي عليه أئمّة الفقهاء من الطّوائف الأربعة وغيرهم)[2] .

وقال أيضاً : (واشتهر القول بإنكار تفاضله بعد المئتين لمّا أظهرت الجهميّة القول بخلق القرآن وردّه أهل السّنّة عليهم، فظنّت طائفةٌ كثيرة ـ مثل ابن كلاّب ـ أنّ هذا القول لايمكن ردّه إلاّ إذا قيل : إنّ الله لم يتكلّم بمشيئته وقدرته ... وقالوا : إنّما يمكن مخالفة هؤلاء إذا قيل : إنّ القرآن وغيره من الكلام لازمٌ لذاته تعالى ، لم يزل ولايزال يتكلّم بكلّ كلام له ... وصاروا طائفتين : طائفةٌ تقول : إنّه معنىً واحدٌ قائم بذاته، وطائفةٌ تقول : إنّه حروفٌ أو حروفٌ وأصواتٌ مقترنةٌ ببعضها أزلاً وأبداً ، والأوّلون كلام الله عندهم شيءٌ واحد لابعض له، فضلاً أن يقال : بعضه أفضل من بعض ،والآخرون يقولون: هو قديم لازم لذاته والقديم لايتفاضل)[3] .

وقال أيضاً : (لكنّ الّذين ظنّوا أنّ قول ابن كلاّب وأتباعه هو مذهب السّلف ، ومن أنّ القرآن غير مخلوق ، هم الّذين صاروا يقولون : إنّ كلام الله بعضه أفضل إنّما يجيء على قول أهل البدع الجهميّة والمعتزلة ، كما صار

[1] جامع الرّسائل ٢ / ٥ ـ ٦ ، باختصار .

[2] الفتاوى ١٧ / ١٣ .

[3] الفتاوى ١٧ / ٥٣ .

يقول ذلك طوائف من أتباع الأئمّة ... ولم يعلموا أن السّلف لم يقل أحدٌ منهم بذلك)[1] .

ويبدو أنّ ابن حبّان من هذا البعض الذين وقعوا في التناقض ، وكان يلوح لي أنّ إثبات ابن حبّان لصفة الكلام جارٍ على منهج ابن كلاّب ، أي أنّه يرى الكلام معنىً واحداً قائماً بذات الله تعالى، ومن هنا فإنّه لايتفاضل عنده .

إلاّ أنّه منعني من الجزم بذلك أنّ ابن تيميّة نقل عن ابن كلاّب والأشاعرة أنّهم يجوّزون المفاضلة في القرآن العربي ، فهو عندهم مخلوق ، ولكنّ ابن حبّان صرّح كما سيأتي بأنّ القرآن كلام الله غير مخلوق ، ويمنع من ذلك أيضاً أنّه علّق الكلام على المشيئة كما تقدّم في كلامه ، والكلاّبية والأشاعرة لايعلّقون الكلام على القدرة أو المشيئة ، بل يقولون هو معنىً واحدٌ قديم قائم بالذّات .

ولما تقدّم من القرائن ، ومن باب تغليب الظّنّ الحسن ، نقول : إنّ ابن حبّان مثبتٌ لصفة الكلام على منهج أهل السّنّة ، وإنّ ماذهب إليه من القول بعدم تفاضل كلام الله هو من تأثير الفكر الأشعري والكلاّبي ، إذ كان كثيرٌ من النّاس يظنّ أنّه هو المذهب السّلفي ، ولذلك تأثّروا ببعض مقدّماته وابن حبّان ممّن تأثّروا بذلك والله أعلم .

وإذ قد تقرّر ذلك فإنّه يكفينا لردّ القول بعدم تفاضل كلام الله أنّه لم يرد عن سلف الأئمة ، وأنّه قول شاذٌّ لم يقل به إمامٌ معتبر ،كما قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله : (وأمّا كونه لايفضل بعضه بعضاً، فهذا القول لم يُنقل عن أحد من سلف الأمّة وأئمّة السّنّة الّذين كانوا أئمّة المحنة كابن حنبل وأمثاله ، ولاعن أحدٍ قبلهم ...)[2] .

وقال أيضاً : (والقرآن وإن كان كلّه كلام الله، وكذلك التّوراة والإنجيل والأحاديث الإلهية الّتي يحكيها الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عن الله

---

(1) الفتاوى ١٧ / ٥٦ .

(2) الفتاوى ١٧ / ٧٦ .

تبارك وتعالى ، وإن اشتركت في كونها كلام الله، فمعلوم أن الكلام له نسبتان : نسبة إلى المتكلم به، ونسبة إلى المتكلم فيه، فهو يتفاضل باعتبار النسبتين وباعتبار نفسه ، مثل الكلام الخبري له نسبتان : نسبة إلى المتكلم المخبر، ونسبة إلى المخبر عنه المتكلم فيه،فـ { **قل هو الله أحد** } ،و { **تبت يدا أبي لهب** } كلاهما كلام الله، وهما مشتركان من هذه الجهة ، لكنهما يتفاضلان من جهة المتكلم عنه ، فهذه كلام الله وخبره الذي يخبر فيه عن نفسه، وصفته التي يصف بها نفسه، وهذه كلامه الذي يتكلم به عن بعض خلقه، ويخبر عنه ويصف به حاله، وهما في هذه الجهة متفاضلان بحسب تفاضل المعنى المقصود بالكلامين) [١] .

ويدل على التفضيل أيضا قوله تعالى : { **مانتسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها** } : **البقرة ١٠٦.**

قال القرطبي رحمه الله بعد ذكر قول من أنكر التفضيل : (وقال قوم بالتفضيل ... والتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها ،لامن حيث الصفة، وهذا هو الحق ، وممن قال بالتفضيل إسحاق بن راهوية [٢] وهو اختيار أبي بكر بن العربي[٣] وابن الحفار[٤])[٥] .

وإلى هنا نقف مكتفين بما أوردناه ، ومن أراد التوسع فعليه بكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية : (جواب أهل العلم والإيمان) ، والمراد أن ابن حبان سلك سبيل أهل السنة والجماعة في إثبات صفة الكلام، ولكنه خالفهم بتبني القول بعدم تفاضل كلام الله تعالى من جهة ، وفي تأويل مادلت عليه الأحاديث من تفضيل سورة الفاتحة وآية الكرسي وغيرها ، بل الأحاديث التي ساقها وأولها دالة على تفضيل بعض كلام الله على بعض ، حتىقال ابن الحفار

---

[١] الفتاوى ١٧ / ٥٧ ـــ ٥٨ ، باختصار

[٢] أبويعقوب ابن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم التميمي الحنظلي المروزي ، الإمام الحافظ شيخ المشرق أمير المؤمنين في الحديث ، توفي سنة ٢٣٨ هـ ، السير ١١ / ٣٥٨ .

[٣] الإمام العلامة الحافظ أبوبكر محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله ابن العربي الأندلسي الإشبيلي المالكي صاحب التصانيف ، منها عارضة الأحوذي في شرح الترمذي ، وكتاب العواصم من القواصم ، توفي سنة ٥٤٣ هـ ، السير ١٩ /١٩٧ .

[٤] لم أجد له ترجمة .

[٥] الجامع لأحكام القرآن ١ / ٧٨ .

المتقدم ذكره: (عجبي ممّن يذكر الاختلاف مع هذه النّصوص) [1] ، وصدق رحمه الله تعالى فإنّ مهنة السّلفي المتّبع ، الوقوف على آثار من تقدّمه من صحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومن تبعهم بإحسان ، متّبعاً كتاب الله وسنّة رسول الله ، فهما الحقّ الّذي ماوراءه إلاّ الباطل ، والله أعلم وأحكم .

---

[1] الجامع لأحكام القرآن ١ / ٧٨ والاستشهاد بمن لا يعرف لا يضر ما دام قوله حق ، والنبي صلى الله عليه وسلم اقر أبا هريرة على استفادته من إبليس .

المبحث السّادس : عقيدته في القرآن

روى ابن حبّان حديث جابر بن عبدا لله رضي ا لله عنه مرفوعاً : **(القرآن مُشفّع وماحلٌ مصدق، من جعله إمامه قاده إلى الجنّة ، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النّار)** ، ثمّ علّق عليه بقوله : " هذا خبرٌ يوهم لفظه من جهل صناعة العلم أنّ القرآن مجعولٌ مربوب، وليس كذلك، لكنّ لفظه ممّا نقول في كتبنا : إنّ العرب في لغتها تطلق اسم الشّيء على سببه، كما تطلق اسم السّبب على الشّي، فلمّا كان العلم بالقرآن قاد صاحبه إلى الجنّة أطلق اسم الشّيء الّذي هو العمل بالقرآن ، على سببه الّذي هو القرآن لاأنّ القرآن يكون مخلوقاً " [(١)] .

<u>تعليق:</u>

مسألة القول بخلق القرآن من أكبر المسائل الخلافية بين أهل السّنّة وبين أهل البدعة من الجهميّة والمعتزلة وغيرهم ، القائلين بأنّ القرآن ليس كلام ا لله وإنّما هو مخلوق، وحدث من جرّاء ذلك المحنة العظيمة الّتي تعرض لها أهل السّنّة في عهد بني العبّاس على يد ثلاثة من الخلفاء أوّلهم المأمون[(٢)] . الّذي التفّ حوله المعتزلة وأغروه حتّى تبنّى مذهبهم وحمل النّاس على القول بخلق القرآن ، وامتحن الأمّة بذلك، فقيّض ا لله للسّنة إماماً من أئمّةالدين ألا وهو أحمد بن حنبل، شيخ الإسلام أمير المؤمنين في الحديث ، الإمام الجهبذ الّذي سار بحديثه الرّكبان وتناقل خبر محنته الثّقلان، فذبّ عن السّنّة والملّة ، وصبر في ا لله حتّى أظهره ا لله على من خالفه ، وثبتت السّنّة في قلوب النّاس و لله الحمد .

---

(١) الإحسان ١ / ٣٣١ ـ ٣٣٢ ، والحديث أخرجه البزّار كما في كشف الأستار ح١٢٢، وقال : لانعلمه يروى عن جابر إلاّ من هذا الوجه ، وفي إسناده طلحة بن نافع متكلّم في سماعه من جابر لكنّ البخاري قوّى أمره كما في العلل الكبير للتّرمذي ت ٤٨ ، وانظر تهذيب الكمال ١٣ / ٤٣٨ ، فالحديث حسن ، وقوله : ماحل : أي خصم ومجادل ، النّهاية ٤ / ٣٠٣ .

(٢) عبدا لله بن هارون الرّشيد بن محمّد المهدي بن أبي جعفر المنصور ، الخليفة العبّاسي ، تولّى بعد أخيه الأمين أثر حرب نشبت بينهما ، وكان محبّاً للعلم ، إلاّ أنّه للأسف سلّم قياده للمعتزلة ، فأدخلوا عليه القول بأنّ القرآن مخلوق ،انظر البداية والنّهاية ١٠ / ٢٥٧ وما بعدها حوادث سنة ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ هـ ، وانظر محنة الإمام أحمد في السّير ١١ / ٢٣٢ ـ ٢٦٤ .

وهذه المقالة أوّل من عُرفت عنه الجعد بن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان رأس الجهميّة ونُسبت إليه ثمّ أحياها في عهد المأمون بشر المريسي [1] وأحمد بن أبي دواد[2] واستخدم هذا الأخير السّلطة لإرغام النّاس على القول بها .

وأصل ذلك أنّهم لمّا نفوا صفة الكلام عن الله تعالى احتاجوا أن يقولوا: إنّ القرآن ليس بكلام الله تعالى بناءً على أصلهم الفاسد في إنكار قيام الحوادث بذات الله[3] ــ زعموا ــ ، فقالوا : إنّ القرآن هو عبارةٌ عن كلام الله وهو من كلام جبريل وقال بعضهم : بل من كلام محمد صلّى الله عليه وسلّم، وقال بعضهم : إنّ الله يخلق الصّوت في الهواء فيسمعه من أراد ، إلى غير ذلك ، وخلاصته أنّهم ينكرون أنّ الله تعالى تكلّم به بل هو مخلوق على كلّ حال [4] .

وقد ردّ الأئمّةعلىالجهميّة قولهم هذا وبيّنوا فساده بما لايدع مجالاً للشّكّ والتّردّد ، قال الله عزّ وجلّ : **{وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله}** : **التّوبة ٦** ، وقال تعالى : **{ومابنطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى }** : **النّجم ٣ ، ٤** ، وقال : **{ وكلّم الله موسى تكليماً}** : **النّساء ١٦٤** ، وقال : **{حتّى إذا فُزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربّكم قالوا الحقّ وهو العليّ الكبير }** : **سبأ ٢٣** ، وغير ذلك كثير من الآيات تصرّح أنّ القرآن كلام الله تعالى ليس بمخلوق .

(١) أبوعبدالرّحمن بشر بن غياث بن أبي كريمة العدوي مولاهم البغدادي المريسي رأس المبتدعة في عصره جهميّ أظهر القول بخلق القرآن ، أحضره الرّشيد وأهانه ، وقد كفّره بعض العلماء ،توفّي سنة ٢١٨ هــ السّير ١٠ / ١٩٩ .

(٢) القاضي أحمد بن فرج بن حريز الإيادي البصري ثمّ البغدادي الجهميّ الضّالّ ، كان رأس القضاة في عهد المأمون وهو الّذي ألّب على الإمام أحمد ، ولكنّ الله خذله ومن معه ، توّفي بالفالج سنة ٢٤٠هــ . السّير ١١ / ١٦٩ .

(٣) نفي قيام الحوادث بذات الله كلمة تحتمل وجهاً من الحقّ وهو أنّ الله تعالى لا يحلّ في ذاته شيءٌ من مخلوقاته ، لكنّ المبتدع يطلقها ويقصد بها نفي الصّفات الاختياريّة الّتي تتعلّق بالمشيئة على أنّها من الحوادث واتّصاف الله بها ممتنع على هذا الأصل الّذي أصّلوه وموّهوا في إطلاقه .

(٤) انظر شرح الأصول الخمسة لعبدالجبّار ص٥٢٨ و الفتاوى ١٢ / ٢٦ ومابعدها .

وقد جاء عن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم قوله لجويرية أمّ المؤمنين رضي ا لله عنها : (**قد قلت بعدك أربع كلماتٍ لو وُزنت بهنّ لوزنتهن : سبحان ا لله وبحمده،عدد خلقه ومداد كلماته ورضا نفسه وزنة عرشه**)[١] .

و صحّ عنه صلّى ا لله عليه وسلّم قوله : (**من نزل منزلاً فليقل : أعوذ بكلمات ا لله التّامّات من شرّ ماخلق ...**)[٢] ، ولو كان مخلوقاً مااستعاذ بكلماته عزّوجلّ .

وعندما نزلت : ﴿ **الم غلبت الروم** . .﴾ : **الرّوم** ١،٢ ، قال المشركون لأبي بكر : يابن أبي قحافة، هذا ممّا أتى به صاحبك، قال : لاوا لله ولكنّه كلام ا لله وقوله)[٣] .

وهذه العقيدة ـ أعني أن القرآن كلام ا لله ـ من العلم النّبوي المتلقّى عن صحابة رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم .

قال عمرو بن دينار[٤] رحمه ا لله : (أدركت مشايخنا والنّاس منذ سبعين سنة يقولون : القرآن كلام ا لله منه بدأ وإليه يعود)[٥] ، وقال بقوله أيضاً سفيان بن عيينة [٦] .

وقال عبدا لله بن المبارك [٧] رحمه ا لله : (سمعت النّاس من تسعة وأربعين عاماً يقولون: من قال : القرآن مخلوق فأمرأته طالق ثلاثاً ، قلت و لم ذلك؟ قال : لأنّ أمرأته مسلمة والمسلمة لاتكون تحت كافر)[٨] .

وقال أبو نعيم [٩] : (أدركت ثلاثمئة شيخ كلّهم يقولون : القرآن

---

[١] أخرجه مسلم في الذكر والدّعاء باب التّسبيح أوّل النّهار وعند النّوم .

[٢] أخرجه مسلم في الذكر والدّعاء باب التّعوّذ من سوء القضاء ودرك الشّقاء .

[٣] أخرجه التّرمذي في التّفسير باب ومن سورة الرّوم .

[٤] الإمام الكبير الحافظ أبو محمّد الجمحي المكّي الأثرم ، أحد الأعلام ، وشيخ الحرم في زمانه ، توفّي سنة ١٢٦ هـ ، السّير ٥/٣٠٠ .

[٥] شرح أصول أهل السّنّة للالكائي ١ / ٢٣٤ .

[٦] شرح أصول أهل السّنّة للالكائي ١ / ٢٤١ .

[٧] أبو عبدالرّحمن ابن واضح الحنظلي مولاهم التّركي ثمّ المروزي ، الإمام شيخ الإسلام وعلاّمة زمانه ، له كتاب الزّهد ، توفّي سنة ١٨١هـ ، السّير ٨ / ٣٧٨ .

[٨] شرح أصول أهل السّنّة للالكائي ١ / ٢٤٤ .

[٩] الفضل بن دكين عمرو بن حمّاد بن زهير الكوفي ، شيخ البخاري توفّي سنة ٢١٨ هـ ، السّير ١٠ / ١٤٢ .

كلام الله غير مخلوق)[١] ، وهو قول الأئمّةالأربعة وأتباعهم ، حتّى لقد ساق اللاّلكائي أسماء أكثر من خمسمئة شيخ رُوي عنهم معتقد أهل السّنّة في الباب[٢] ، ومنهم الأكابر كالسفيانين وابن المبارك وابن معين وابن المديني وأحمد بن حنبل والشافعي ومالك بن انس وغيرهم كثير.[٣]

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله : (ومذهب سلف الأمّة وأئمّتها من الصّحابة والتّابعين لهم بإحسان وسائر أئمّة المسلمين كالأئمّة الأربعة وغيرهم مادلّ عليه الكتاب والسّنّة، وهو الّذي يوافق الأدلّة العقليّة الصّريحة أنّ القرآن كلام الله منزّل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود)[٤] .

وقد وافق ابن حبّان أهل السّنّة فيما ذهب إليه من إنكار القول بخلق القرآن ، وأشار هو إلى حجّة من حجج الجهميّة الّتي استدلّوا بها على أنّ القرآن مخلوق وهو الحديث الّذي رواه ابن حبّان وفيه (... **قاده إلى الجنّة... وساقه إلى النّار**) في وصف القرآن ، وقد ذكر مثل ذلك في حديث أبي هريرة مرفوعاً : (**إنّ سورةً من القرآن ثلاثين آية تستغفر لصاحبها حتى يُغفر له ﴿ تبارك الّذي بيده الملك ﴾**)[٥] ، حيث قال : " أراد ثواب قراءتها فأطلق الاسم على ما تولّد منه وهو الثّواب ، كما يطلق اسم السّورة نفسها عليه ، وكذلك في خبر أبي أسامه المتقدم ، أراد به ثواب القرآن وثواب البقرة وثواب آل عمران ، إذ العرب تطلق في لغتها اسم ماتولّد من الشّيء على نفسه " [٦] ، فقالت الجهميّة : قد وصف النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم القرآن بالمجيء وأنّه يقود ويسوق ويستغفر ويشفع ، وهذه أفعال والأفعال لاتكون إلاّ من مخلوق ، وهذه الحجّة احتجّ بها أهل البدع على الإمام أحمد في المحنة ، قال

---

(١) شرح أصول أهل السّنّة للالكائي ١ / ٢٤٤ .

(٢) شرح أصول أهل السّنّة للالكائي ١ / ٣١٢ .

(٣) انظر شرح أصول أهل السّنّة للالكائي ١ / ٢٢٨ ومابعدها ، والتّوحيد لابن خزيمة ١ / ٣٩٠ ، والشّريعة للآجرّي ص ٦٨ ، والسّنّة لعبدا لله بن أحمد بن حنبل ١ / ١٣٢ .

(٤) الفتاوى ١٢ / ٣٧ .

(٥) أخرجه أيضاً أحمد ٢ / ٢٩٩ / ٣٢١ ، وأبوداود في الصّلاة باب في عدد الآي ، والتّرمذي في فضائل القرآن باب ما جاء في فضل سورة الملك ، وابن ماجة في الأدب باب ثواب القرآن ، والحاكم ١ / ٥٦٥ وصحّحه ووافقه الذّهبي .

(٦) الإحسان ٣ / ٦٧ - ٦٨ .

شيخ الإسلام ابن تيميّة:(... وأحمد وغيره من أئمّة السّنّة فسّروا هذا الحديث ــ أي حديث البقرة وآل عمران ــ بأنّ المراد مجيء ثواب البقرة وآل عمران ، كما ذكر مثل ذلك عن مجيء الأعمال في القبر وفي القيامة ، والمراد منه ثواب الأعمال ... فلمّا أمر بقرائتهما وذكر مجيئهما يحاجّان عن القارىء : عُلم أنّه أراد بذلك قراءة القارىء لهما وهو عمله ، وأخبر بمجيء عمله الّذي هو التّلاوة لهما في الصّورة الّتي ذكرها، كما أخبر بمجيء غير ذلك من الأعمال) [1] .

وقال الإمام التّرمذي بعد سياقه حديث النّواس بن سمعان في فضل سورتي البقرة وآل عمران : (ومعنى هذا الحديث عند أهل العلم : أنّه يجيء ثواب قراءته، كذا فسّر بعض أهل العلم هذا الحديث ومايشبه هذا من الأحاديث أنّه يجيء ثواب قراءة القرآن، وفي حديث نوّاس بن سمعان مايدلّ على مافسّروا ، إذ قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : (**وأهله الذين يعملون به في الدّنيا**) ففي هذا دلالةٌ أنّه يجيء ثواب العمل) [2] .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي : (...وقيل : يُصوّر الكلّ بحيث يراه النّاس، كما يصوّر الأعمال للوزن في الميزان ، ومثل ذلك يجب اعتقاده إيماناً فإنّ العقل يعجز عن أمثاله) [3] .

وقال النووي[4] رحمه الله : (...قال العلماء : المراد أنّ ثوابهما يأتي كغمامتين) .[5]

وكذلك ابن حبّان ، فقد تأوّل الحديث بأنّ المراد العمل بالقرآن وثوابه وله سلفٌ في ذلك .

---

[1] الفتاوى ٥ / ٣٩٩ .

[2] جامع التّرمذي في فضائل القرآن باب ماجاء في فضل سورة آل عمران .

[3] التّحفة ٨ / ١٥٤ والمباركفوري هو المحدّث العلاّمة محمّد بن عبدالرّحمن بن عبدالرّحيم بهادر الهندي ، انظر المستدرك على معجم المؤلّفين ٦٧٨ ..

[4] أبو زكريّا محيي الدّين يحيى بن شرف بن مري الحزامي الحوراني الشّافعي الإمام العلاّمة الزّاهد ، صاحب التّصانيف النّافعة ومن أشهرها رياض الصّالحين ، والمجموع شرح المهذّب ، توفّي سنة ٦٧٦ هـ ، تذكرة الحفّاظ للذّهبي ٤ / ١٤٧٠ .

[5] شرح مسلم ٦ / ٩٠ .

وقول التّرمذي يُشعِر بأنّ هناك من العلماء من لم يرتض تأويل الحديث وقد ذكر المباركفوري أنّ من العلماء من لم يرتض التّأويل وحمل الأحاديث على ظاهرها ، فكما أنّ الله عزّ وجلّ موصوفٌ بصفات الكمال منزّه عن مشابهة المخلوق ، وقد ثبت له من الأفعال الاختياريّة كالمجيء والإتيان والنّزول والضّحك والعجب وغير ذلك ، وقد آمنّا بذلك كلّه من غير تمثيل ولا تعطيل، فكذلك ماوصف به صفاته ومنها كلامه القرآن العظيم، وصفه بالإتيان والمجيء وأنّه يقود صاحبه إلى الجنّة وغير ذلك نؤمن به كما جاء ولا نؤوّل ولانعطّل ، بل نقول : الله أعلم بكيفيّة ذلك ، والقول في الصّفات كالقول في الذّات .

وابن حبّان رجّح القول الأوّل وله سلف صالح في ذلك كما سبق ، وعلى العموم فليس في ذلك تأويلٌ مذموم وإنّما هو من باب التّفسير بالمجاز المشهور فإنّك تقول : شفع لك عندي محبتي لك ، مع أنّ المحبّة لم تشفع بذاتها، وإنّما وقعت موقع من يشفع .

وكذلك يُقال في حديث سورة الملك : إنّ استغفارها إنّما هو وقوع ثوابها وأجر قراءتها موقع من يستغفر الله تعالى، وهذا هو معنى مارُوي عن الإمام أحمد وغيره ، والله تعالى أعلم بالصّواب .

المبحث السّابع : عقيدته في صفة القدم

قال ابن حبّان رحمه الله : " ذِكرُ خبر شنّع به أهل البدع على أئمّتنا حيث حُرموا التّوفيق لإدراك معناه " ، ثمّ ساق بإسناده إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قوله : (**يُلقى في النّار فتقول : هل من مزيد ؟ حتّى يضع الرّب جلّ وعلا قدمه فيها فتقول : قطٍ قطٍ**) ثمّ قال : " هذا الخبر من الأخبار الّتي أُطلقت بتمثيل المجاورة وذلك أنّ يوم القيامة يُلقى في النّار من الأمم والأمكنة الّتي عُصي الله عليها، فلا تزال تستزيد حتّى يضع الرّب جلّ وعلا موضعاً من الكفّار والأمكنة في النّار ، فتمتلىء وتقول : قطٍ قطٍ ، تريد : حسبي حسبي لأنّ العرب تطلق في لغتها اسم القدم على الموضع، قال الله جلّ وعلا : ﴿ **لهم قدم صدق عند ربهم**﴾ (*) يريد : موضع صدق، لاأنّ الله جلّ وعلا يضع قدمه في النّار ، جلّ ربّنا وتعالى عن مثل هذا وأشباهه " (1) .

وقال في موضع آخر تعليقاً على نفس الحديث بلفظ مقارب عن أبي هريرة : " القدم مواضع الكفّار الّتي عبدوا فيها دون الله" (2) .

تعليق:

صفة القدم ثابتةٌ لله تعالى، أطبقت كلمة أهل السّنّة على إثباتها والإيمان بها كما جاءت عن الله ورسوله دون تمثيل أو تعطيل، وقد جاء ت بإثباتها السّنّة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعلى ذلك إجماع السّلف .

والحديث الّذي رواه ابن حبّان له ألفاظٌ كثيرةٌ ، وهو مخرّج في الصّحيحين وغيرهما وجاء في بعضها (**يضع رجله**) بدل (**قدمه**) وهما سواء.

(*) أصل الآية ﴿ **وبشّر الّذين آمنوا أنّ لهم قدمَ صدقٍ عند ربّهم** ﴾ : يونس ٢ ، فذكر ابن حبّان المنصوب و لم يذكر النّاصب وهو (أنّ) ، ممّا سبّب الخطأ في قراءتها كما شكلها الطّابع في الإحسان برفع لفظ القدم وهو تحريف سبّبه ماقدّمنا .

(1) الإحسان ١ / ٥٠٢ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في التّفسير باب ﴿ **وتقول هل من مزيد** ﴾ ، ومسلم في الجنّة : باب النّار يدخلها الجبّارون عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً.

(2) الإحسان ١٦ / ٤٨٤ ، وقال المحقّق : (لم ترد في أصل الكتاب) .

قال ابن خزيمة رحمه الله : (باب ذِكر إثبات الرِّجل لله عزّ وجل ، وإن رغمت أنوف المعطّلة الجهميّة ، الّذين يكفرون بصفات خالقنا عزّ وجلّ الّتي أثبتها خالقنا لنفسه في محكم تنزيله وعلى لسان نبيه صلّى الله عليه وسلّم) [١] .

وقال ابن أبي عاصم في كتابه السّنّة : (باب : ذِكر قول جهنّم : هل من مزيد ، حتّى يضع ربّنا تبارك وتعالى قدمه فيها) [٢] .

وكذلك نصّ الإمام أحمد على إثباتها كما قال : (...وجهنّم لاتزال تقول : هل من مزيد ؟ حتّى يأتيها الرّبّ تبارك وتعالى فيضع قدمه فيها ، فتزوى ، فتقول : قطِ قطِ هكذا جاء الخبر عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ...) [٣] .

وقد صحّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال : (الكرسي موضع القدمين)[٤]، وهذا موقوفٌ في حكم الرّفع لأنّه لامجال للرأي فيه.

وقد حاول بعض المبتدعة تأويل الحديث ، وذكروا في ذلك تأويلاتٍ كثيرة ،[٥] ومن ضمنها هذا الّذي تبنّاه ابن حبّان ، وهو أنّ المراد بالقدم موضعٌ من الكفّار والأمكنة ، وهو تفسيرٌ وتأويلٌ متلقّى عن أهل البدع ، الّذين جعلوا همّهم إبطال معاني كتاب الله وسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، حتّى إن بعضهم أنكر رواية (رجله) ، وزعموا أنّه محرّف ، ولكن الرّوايات الكثيرة المتضافرة توضّح بكلّ صراحة أنّ القدم والرّجل كلاهما عبارةٌ عن شيءٍ واحد ، وهي صفة الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه .

وبطلان تأويل المبتدعة واضحٌ وظاهرٌ من وجوه، ذكرها شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله :

---

[١] التّوحيد ١ / ٢٠٢ .

[٢] السّنّة ص ٢٣١ .

[٣] طبقات الحنابلة ١ / ٣١٢ .

[٤] أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب العرش ضمن كتاب زوائد الأجزاء المنثورة ص ٥٦٩ ، وابن خزيمة في التّوحيد ١ / ٢٤٨ ، وعبدالله بن أحمد في السّنّة ١ / ٣٠١ .

[٥] انظر فتح الباري ٨ / ٥٩٦ ، والأسماء والصّفات للبيهقي ٤٤٣ .

الأوّل : أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : حتّى يضع، ولم يقل : حتى يلقي فيها كما في قوله (لايزال يُلقى في النّار) .

الثّاني : أنّ قوله : قدمه ، لايُفهم منه هذا الّذي قالوه لاحقيقةً ولامجازاً كما تدلّ عليه الإضافة .

الثّالث : أنّ أولئك المؤخّرين، إن كانوا من الأصاغر المعذّبين فلا وجه لانزوائها واكتفائها بهم، فإنّ ذلك يكون بأمر عظيم، وإن كانوا من الأكابر المجرمين فهم في الدّرك الأسفل من النّار ، وفي أوّل المعذبين لا في أواخرهم .

الرّابع : أن قوله : فينزوي بعضها إلى بعض، دليلٌ على أنّها تنضمّ على من فيها فتضيق بهم، من دون أن يُلقى فيها شيء .

الخامس : أنّ قوله : لايزال يُلقى فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتّى يضع فيها قدمه، جعل وضْع القدم الغاية الّتي ينتهي إليها الإلقاء، ويكون عندها الانزواء، فيقتضي أن تكون الغاية أعظم ممّا قبلها، وليس في قول المعطّلة معنى للفظ (قدمه) إلاّ وقد اشترك فيه الأوّل والآخر، والأوّل أحقّ به من الآخر .[1]

وأمّا استدلالهم بأنّ لفظ القدم يُطلق في اللّغة على الموضع والمكان، فإنّ ذلك لا يعني طرد المعنى في كلّ موضع ، بل يُحدّد المعنى دلالات السّياق، فالعين مثلاً يختلف معناها من سياق إلى آخر، فمن قال : شربت من العين، غير من قال : نظرت بعيني، فاللّفظ واحد ولكن المعنى اختلف بحسب التّركيب والسّياق .

فكذلك لفظ القدم وموضعها من الحديث ، والإضافة والتعبير بالوضع، إضافةً إلى رواية (رجله) ، كلّ ذلك يدلّ دلالةً قطعية على إرادة الصّفة لله سبحانه وتعالى ، لاكما يقوله أهل البدع ، وتبعهم في ذلك ابن حبّان رحمه الله وعفا عنا وعنه .

إلا أنّه يجدر التّنبيه إلى ملاحظة ، وهي أنّ ابن حبّان لم يتعرّض لتفسير القدم أو الرّجل كلفظ مستقلّ مضاف إلى الله ، وإنّما أراد تفسير الكلام

---

(1) مختصر الفتاوى المصريّة ص ٦٤٧ .

ككلّ ، وتعرّض لمسألة وضع القدم في النّار ، أي أنّه تعرّض لتأويل التّركيب كاملاً ، وقد قال في نهاية كلامه رحمه الله :" ... لا أنّ الله يضع قدمه في النّار..." ، أضاف القدم لله تعالى ، فكأنّه يفهم منه - والله أعلم - أنّه لاينكر أنّ لله قدماً على الوجه الّلائق به سبحانه ، وإنّما ينكر أن يكون مفهوم السّياق الظاهر منه هو المراد ، وهو وضع الرّب تبارك وتعالى قدمه فيها، والأمر يحتمل هذا ، وقد يكون ذلك سبق قلمٍ منه وأنّه ينكر الصّفة أصلاً ... فالله تعالى أعلم .

المبحث الثّامن : عقيدته في صفة القرب والتّقرّب والمعيّة

قال ابن حبّان رحمه الله : " ذِكرُ الإخبار بأنّ من تقرّب إلى الله قدر شبر أو ذراع بالطّاعة ، كانت الوسائل والمغفرة منه أقرب بباع " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (**...من اقترب إليّ شبراً ، اقتربت منه ذراعاً ، ومن اقترب منّي ذراعاً ، اقتربت منه باعاً ، ومن جاءني يمشي ، جئته أهرول ...**) [١] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار بأنّ مغفرة الله جلّ وعلا تكون أقرب إلى المطيع ، من تقرّبه بالطّاعة إلى الباري جلّ وعلا " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة المتقدّم[٢] .

وقال بعد سياقه حديث أبي هريرة المتقدّم في موضع آخر : " الله أجلّ وأعلى من أن يُنسب إليه من صفات المخلوق ، إذ ليس كمثله شيء ، وهذه الألفاظ خرجت من ألفاظ التّعارف على حسب ما يتعارفه النّاس ممّا بينهم ...ومن تقرّب إلى الباري جلّ وعلا بقدر شبر من الطّاعات ، كان وجود الرّأفة والرّحمة من الرّب له أقرب بذراع ، ومن تقرّب إلى مولاه جلّ وعلا بقدر ذراع من الطّاعات ، كانت المغفرة منه له أقرب بباع ..." [٣] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ رجاء سرعة المغفرة لذاكر الله إذا تحرّكت به شفتاه " ، وساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً عن الله تعالى (**أنا مع عبدي ماذكرني وتحرّكت بي شفتاه**) [٤] .

---

[١] الإحسان ٢ / ٣٥ - ٣٦ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في التّوحيد باب ذِكر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وروايته عن ربّه ، ومسلم في الذكر والدّعاء باب فضل الذكر والدّعاء وغيرهم بألفاظ متقاربة .

[٢] الإحسان ٢ / ١٠٠ .

[٣] الإحسان ٣ / ٩٣ - ٩٤ ، ومثله تقريباً ٤ / ٤٨٦ .

[٤] الإحسان ٣ / ٩٧ ، والحديث أيضاً أحمد ٢ / ٥٤٠ ، وابن ماجة في الأدب ، باب فضل الذكر ، والحاكم ١ / ٤٩٦ وصحّحه ووافقه الذّهبي ، وعلّقه البخاري جازماً به في التّوحيد باب قول الله تعالى : ﴿ **لاتحرّك به لسانك** ﴾ .

تعليق :

قُرْب الله تعالى وتقرّبه ومعيّته، كلّ ذلك على حقيقته ، من غير أن يقتضي ذلك مخالطة أو مماسّة ، وهو مع ذلك مستوٍ على عرشه ، بائنٌ من خلقه ، عالٍ عليهم ، هذا هو معتقد السّلف الصّالح رحمهم الله أجمعين* وهو فهمهم وفقههم في النّصوص من الكتاب والسّنّة الّتي أثبتت لله تعالى قرباً وتقرّباً ومعيّة على الوجه الّلائق به سبحانه ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السّميع البصير** ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريبٌ أُجيب دعوة الدّاع إذا دعان** ﴾ : **البقرة ١٨٦** ، وقال : ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ : **ق ١٦** ، وقال : ﴿**ونحن أقرب اليه منكم ولكن لاتبصرون** ﴾ : **الواقعة٨٥** ، وقال : ﴿**إن ربي قريب مجيب**﴾ : **هود ٦١.**

وقال صلّى الله عليه وسلّم :(**إنّما تدعون سميعاً قريباً ...إنّ الّذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**)(١) .

وقال أيضاً : (**أقرب مايكون العبد من ربّه وهو ساجد**)(٢) .

وفي المعيّة قال الله تعالى : ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾ : **الحديد ٤** ، وقال ﴿**إنّ الله مع الذين اتّقوا والّذين هم محسنون** ﴾ : **النّحل ١٢٨** : وقال : ﴿**والله معكم ولن يترَكم أعمالكم** ﴾ : **محمّد ٣٥** ، وقال : ﴿**وهو معهم إذ يبيّتون مالايرضى من القول** ﴾ : **النّساء ١٠٨.**

وقال عليه الصّلاة والسلام عن ربّه : (**أنا مع عبدي ماذكرني وتحرّكت بي شفتاه**)(٣) وغير ذلك من النّصوص كثير.

---

(١) تقدّم ص ١٢٤ .

(٢) أخرجه مسلم في الصّلاة باب مايُقال في الرّكوع والسّجود ، ونشير هنا إلى أنّ أهل البدع ينفون عن الله تقرّبه إلى عبده أي إحداث فعل منه تعالى كما ينفون وجود نسبة بين الخالق والمخلوق كنسبة القرب فحتّى قرب العبد من ربّه ينفونه ولهذا أتيت بهذه الآية لأنّها تدلّ على قرب العبد من ربّه في وقت أكثر من الآخر .

(٣) تقدّم في الصّفحة السّابقة .

* انظر الفتاوى ٥/ ٤٩٤ ومابعدها .

أمّا القرب : فقرب الله تعالى من عابده وداعيه ثابتٌ كما تقدّم في الكتاب والسنّة ، والمقصود من قربه تعالى هو قربه بعلمه وإجابته لداعيه، كما في قوله تعالى ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب**﴾ .

وقوله عليه الصّلاة والسلام : (**إنّكم تدعون سميعاً قريباً**) والمقصود سرعة إجابته لمن دعاه، وهذا ليس صرفاً للّفظ عن ظاهره ، فإنّ لفظ القرب يصدق على القرب بالذّات والقرب بالصّفات ، فمن الأوّل قولك : ذو الحليفة قربَ المدينة ، ومن الثّاني قرب الكرم والجود كما قالت المرأة : زوجي قريب البيت من النّاد : أي سريع الإجابة إلى إضافة الضيف ، وقرب النّجدة والنّصر كقولك : في أيّ وقت احتجتني فأنا قريب منك ، ومنه قرب الصّلة والرّحم كقولك : أقرب النّاس إليّ ولدي ، ومنه قرب الإجابة والحضور كما في الحديث والآية ، وكلّ هذه المعاني يصدق عليها لفظ القرب على السّواء وإنّما يترجّح المراد منه بحسب القرينة والشّاهد فيكون حقيقةً فيه ، فمن سأل عنك فقلت : أنا قريب منك ، مع بعد المسافة بينكما : عرف أنّ مرادك سرعة إجابتك إيّاه وحضورك إن أراد ، دون أن يكون في ذلك مجاز أو استخدام للّفظ في غير ما وضع له .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة : (فكلّما تقرّب العبد باختياره قدر شبر زاد الرّب قرباً اليه، حتّى يكون كالمتقرّب إليه بذراع ، فكذلك قرب الرّب من قلب العابد، وهو مايحصل في قلب العبد من معرفة الرّب والإيمان به وهو المثل الأعلى)[1] .

وقال أيضاً : (فإذا قرُب العبد من ربّه بالإنابة إليه، فيدنو قلبه من ربّه وإن كان بدنه على الأرض ، ومتى قرُب أحد الشّيئين من الآخر صار الآخر إليه قريباً بالضّرورة وإن قدّر أنّه لم يصدر من الآخر تحرّك بذاته ،كما أنّ من قرُب من مكّة قرُبت إليه)[2] .

---

(1) الفتاوى ٥ / ٥١٠ .

(2) الفتاوى٥ / ٥٠٩ .

وهذا الكلام من شيخ الإسلام ابن تيميّة ليس تأويلاً وإنّما هو شرحٌ للحديث، فهو يثبت لله نوعين من القرب قال رحمه الله : (فالدّاعي والسّاجد تتوجّه روحه إلى الله تعالى ، والرّوح لها عروج يناسبها فتقرُب من الله بلا ريب بحسب تخلّصها من الشّوائب ، فيكون الله عزّ وجلّ منها قريباً قرباً يلزم من قربها ، ويكون منه قرب آخر، كقربة عشيّة عرفة، وفي جوف اللّيل، وإلى من تقرّب منه شبراً، تقرّب منه ذراعاً)[1] .

وقال أيضاً : (وقربه سبحانه ودنوّه من بعض مخلوقاته ،لايستلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش، بل هو فوق العرش ويقرُب من خلقه كيف شاء كما قال من قاله من السّلف، وهذا كقربه من موسى لمّا كلّمه من الشّجرة، والّذين يثبتون تقريبه العباد إلى ذاته، وهو القول المعروف للسّلف والأئمّةوهو قول الأشعري، وغيره من الكلاّبية، فإنّهم يثبتون قرب العباد إلى ذاته، وأمّا دنوّه نفسه وتقرّبه من بعض عباده ، فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختياريّة بنفسه، وهو مذهب أئمّةالسّلف وأئمّة الإسلام المشهورين وأهل الحديث، والنّقل عنهم متواتر ...) .[2]

ومن هذا نفهم أنّ الكلام عن شرح الحديث شيء ، واثبات الصّفة شيءٌ آخر، فإنّه لاشكّ أنّ مراد الله تعالى أنّه يجازي على الإحسان بأحسن منه، فمن تقرّب إلى الله شبراً تقرب إليه ذراعاً .

وهذا تمثيل لكرم الله وجوده على عبده إن هو أقبل عليه وتقرّب اليه، فليس بين الله وبين العبد سوى العبادة ، وأنّ العبد ولاشكّ لايتقرّب إلى الله بالمشي والمسافات فكذلك مجازاة الله له بالقرب تكون بمضاعفة الأجر له.

ولكنّ هذا التمثيل يتضمّن إثبات صفة القرب والتقرّب لله تعالى، فإن العبد كلّما عبد الله تعالى وتقرب إليه تقرّب الله إليه حقيقةً على الوجه اللاّئق به ، وذلك بدنوّ خاص وقرب خاص ، قال ابن القيّم رحمه الله : (ويوضّح

---

[1] الفتاوى ٥ / ٢٤١ .

[2] باختصار من الفتاوى ٥ / ٤٦٠ - ٤٦٦ .

ذلك أنّ الإحسان يقتضي قرب العبد من ربّه ، فيقرب ربّه منه إليه بإحسانه ، فإنّه من تقرّب منه شبراً يتقرّب منه ذراعاً ، ومن تقرّب منه ذراعاً يتقرّب منه باعاً ، فهو قريب من المحسنين بذاته ورحمته قرباً ليس له نظير ، وهو مع ذلك فوق سماواته على عرشه ، كما أنّه يقرب من عباده آخر اللّيل وهو فوق عرشه ...)[1] .

والنّص يثبت كرم الله تعالى بمضاعفة الأجر وهذا من لوازم الحديث ويثبت كذلك قرباً حقيقياً لايقتضي مماسّة ولامداخلة وإنّما هو كما يليق بذاته العليّة وصفاته القدسية سبحانه .

ومن هنا نفهم أيضاً من سكوت ابن حبّان عن إثبات الصفة، أنّه ينحى بالحديث منحى التّأويل ، مؤكّداً في أكثر من موضع أنّ المراد هو قرب رحمة الله تعالى ومغفرته من العبد ، وهذا من لوازم القرب ولاشك ، ولكن ليس هو منهج السّلف في إثبات الصفة .

وأمّا أنّ كون العبد إذا تقرّب إلى الله فإنّه يقرب منه لامحالة ، دون أن يحدث من الرّب سبحانه فعل، كما أنّ من قرُب من مكّة قرُبت مكّة إليه، فهذاوإن احتملته العبارة الأولى فإنّ العبارة الثّانية لا تحتمله ، إذ لايجوز أن يقال لمن قرب إلى مكة : تقرّبت مكّة إليه ، فإنّ فعل : قرُب يدل على قصر المسافة بين شيئين ، وأمّا تقرّب فإنّه يدلّ على إحداث فعلٍ ممّن أُضيف إليه الفعل .

وعلى هذا فيُستشفّ من شرح ابن حبّان الحديث بهذه الطّريقة ـ أي التّفسير باللاّزم ـ أنّه يريد نفي الصّفة، تماماً كما فعل في صفة المعيّة حيث فسّرها بسرعة المغفرة ، وهي لازمة للصّفة ولكنّها ليست المعيّة حقيقةً.

والمعيّة ثابتةٌ لله تعالى بالنّص الصّريح الواضح وقد قدمنا طرفاً من ذلك، ومعيّة الله بالنّسبة لعباده نوعان:

الأولى : معيّة عامّة للخلق كلّهم كما في قوله تعالى : ﴿ **مايكون من نجوى ثلاثةٍ إلاّ هو رابعهم ولاخمسة إلاّ هو سادسهم ولاأدنى من ذلك ولاأكثر إلاّ هو معهم أينما كانوا** ﴾ : **المجادلة ٧** : وقوله : ﴿**وهو معكم**

---
[1] مختصر الصّواعق ص ٤٦٠ .

أينما كنتم ﴾ : **الحديد ٤** ، ومن مقتضى هذه المعيّـة اطّلاعـه تعـالى ومراقبتـه وشهوده أعمال عباده ، فتفيد الخوف منه سبحانه ومراقبته في السّر والعلن .

الثّانية : معيّة خاصّة ،كقوله تعالى : **﴿ إنّ ا لله مع الذين اتّقوا والّذيـن هم محسنون ﴾** : **النّحل ١٢٨** ، وقوله : **﴿لاتحزن إنّ ا لله معنـا ﴾** : **التّوبـة ٤٠** ، وقوله : **﴿ إنّني معكما أسمع وأرى ﴾** : **طه ٤٦** ، ومن مقتضـى هـذه المعيّة إضافة لما سبق النّصر والهداية والتّأييد والحماية .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه ا لله : (ومعيّته تعالى لخلقه لاتخـالف علوّه واستواءه على عرشه ، فكلّ ذلك حقٌ على ظاهره ، وذلك أنّ ا لله معنـا حقيقة وهو فوق العرش حقيقة ...وذلـك أنّ كلمـة مـع في اللّغـة إذا أُطلقـت فليس ظاهرها إلاّ المقارنة المطلقة، من غير وجوب مماسّة أو محاذاة ، فإذا قيّدت بمعنى من المعاني دلّت على المقارنة في ذلك المعنى ،كمـا يُقـال : مازلنـا نسـير والقمر معنا، ولايدلّ ذلك على أكثر من كونه مقارناً لك : فلا يقتضي ذلـك أن يكون القمر مماساً لك أو محاذياً ، بل هو فوقك وبعيد عنـك ...و لله المثـل الأعلى فا لله مع خلقه حقيقة وفوق عرشه حقيقـة ، ولكـنّ معيّـة ا لله تقتضـي علمه واطّلاعه وشهوده علـى كـلّ شـيء ، وكذلـك نصـره وتـأييده لأوليائـه المتقين)[1] .

وقال ابن القيّم رحمه ا لله : (...فإنّ **مع** في كلامهم لصحبتـه اللاّئقـة ، وهـي تختلف باختلاف متعلّقاتهـا ومصحوبهـا ، فكـون نفـس الإنسـان معـه لـون ، وكون علمه وقدرته وقوّته معه لون ، وكون زوجته معه لـون ، وكـون أمـيره معه لون ، وكون ماله معه لون ، فالمعيّة ثابتةٌ في هذا كلّه مع تنوّعهاواختلافهـا ، فيصحّ أن يُقال : زوجته معه وبينهما شقّةٌ بعيدة ، وكذلك يُقال : مع فـلان دار كذا وضيعته كذا ، فتأمّل نصوص المعيّة في القرآن كقوله تعـالى: **﴿ محمّـدٌ رسول ا لله والّذين معـه أشـدّاء علـى الكفّـار ﴾** ، وقولـه : **﴿ وكونـوا مـع الصّـادقين ﴾** **﴿ واركعـوا مـع الرّاكعـين ﴾** وأضعـاف ذلـك ، هـل يقتضـي موضعٌ واحد منها مخالطةً في الذّوات التصاقاً وامتزاجاً ، فكيف تكـون حقيقـة

[1] مختصراً من الفتاوى ٥ / ١٠٢ وما بعدها .

المعيّة في حقّ الرّب تعالى كذلك ، حتّى يُدّعى أنّها مجاز لا حقيقة ...وغاية ماتدلّ عليه **مع** : المصاحبة والموافقة والمقارنة ، وذا الاقتران في كلّ موضع بحسبه يلزمه لوازم بحسب متعلّقه ، فا لله مع خلقه بطريق العموم يلزم منه العلم والتّدبير والقدرة، وا لله مع المحسنين يلزم منه النّصرة والتّأييد والمعونة ، وليس ذلك بطريق الاشتراك اللّفظي ، بل حقيقتها ماتقدّم من الصّحبة الّلائقة ...) [1] .

وابن حبّان عندما ذكر أنّ المراد من المعيّة، سرعة المغفرة ساكتاً عن إثبات معيّة ا لله تعالى لخلقه ، وإثبات مقتضيات هذه المعيّة ، تغاضى عن منهج أهل السّنّة والجماعة ، فقوله : أي معه بالإجابة والتّوفيق وبسماع كلامه وإثابته عليه، هذا من لوازم المعيّة ولا يكفي لإثبات المعيّة كصفة من صفات ا لله العلي العظيم .

وصفة المعيّة على وجه الاختصار : ضلّ فيها فريقان : فريق غلا حتى أصبح يقول بوحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد [2] كما يقول به الجهميّة وغلاة الصّوفيّة والشّيعة ، وهذا كفر مابعده كفر لاشك ، وحكايته تغني عن تكلّف الرّد عليه .

وفريقٌ نفى المعيّة بالكلّيّة وأوّل النّصوص الواردة فيها، توهّماً أنّ المعية، تقتضي المماسّة والمحاذاة وهو خطأ، بل الطّريق الوسط أن نثبت لله صفة المعيّة على الوجه الّلائق به سبحانه، ﴿ **ليس كمثله شئ وهو السميع البصير** ﴾.

---

[1] مختصر الصّواعق بتصرّف ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦ ، وهذا مثل ماقلنا في القرب تماماً ، وبهذا يكون ابن القيّم وشيخه رحمهما ا لله قد سدّا على أهل البدع ما ظنّوا أنّه تأويل عند أهل السّنّة لما رُوي عن بعض السّلف كابن عبّاس والضّحّاك والثّوري والإمام أحمد وغيرهم من تفسيرهم للمعيّة بالعلم ، فتفسير النّص لايعارض إثبات الصّفة .

[2] **وحدة الوجود** : هي اعتقاد أنّ كلّ مافي الوجود هو ا لله ، وأن ليس ثمّ خالق ومخلوق ، وليس هناك إلاّ ا لله وحده في مشاهد شتّى ، **والحلول** : اعتقاد أنّ ا لله تعالى وتقدّس حلّ في بعض مخلوقاته أو فيها كلّها كما يحلّ الماء في الكأس ، **والاتّحاد** : اعتقاد أنّ ا لله تعالى اتّحد بذاته ببعض مخلوقاته أو بها كلّها كما يختلط الماء باللّبن .

المبحث التّاسع : عقيدته في صفة النّفس

ساق ابن حبّان حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (**قال الله تبارك وتعالى : أنا عند ظنّ عبدي بي ، وأنا معه حيث يذكرني ، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ...**) ، ثمّ قال : " الله عزّ وجلّ ، أجلّ وأعلى من أن يُنسبُ إليه شيءٌ من صفات المخلوق إذ ليس كمثله شيءٌ ، وهذه ألفاظ خرجت من ألفاظ التّعارف على حسب مايتعارفه النّاس ممّا بينهم ومن ذكرَ ربّه جلّ وعلا في نفسه بنطقٍ أو عمل يتقرب به إلى ربّه، ذكره الله في ملكوته بالمغفرة له تفضلاً وجوداً ..." (1) .

وقال في موضع آخر بعد نفس الحديث : " قوله : (إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي) ، يريد إن ذكرني في نفسه بالدّوام على المعرفة الّتي وهبتها له وجعلته أهلاً لها ، ذكرته في نفسي : يريد في ملكوتي بقبول تلك المعرفة منه مع غفران ماتقدّمه من الذنوب ..." (2) .

تعليق:

فسّر ابن حبّان النّفس في الحديث على أن المراد بها ملكوت الله عزّ وجلّ ، وأنّ الله يذكر من ذكره في نفسه ، في ملكوته بالمغفرة له، وهذا لازم لمعنى الحديث ولكنّه حَيْدةٌ عن إثبات الصّفة لله كما أثبتها لنفسه سبحانه وتعالى، قال سبحانه : ﴿ **ويحذّركم الله نفسه** ﴾ : **آل عمران ٢٨** ، وقال : ﴿ **تعلم مافي نفسي ولا أعلم مافي نفسك** ﴾ : **المائدة١١٦** ، وقال : ﴿ **كتب ربّكم على نفسه الرحمة** ﴾ : **الأنعام ٥٤** ،وقال : ﴿ **واصطنعتك لنفسي** ﴾ : **طه ٤١** .

---

(1) الإحسان ٣ / ٩٣ ـ ٩٤ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في التّوحيد باب قول الله تعالى : ﴿ ويحذّركم الله نفسه ﴾ ، ومسلم في الذكر باب فضل الذكر .

(2) الإحسان ٣ / ٩٥ .

وفي حديث جويرية رضي الله عنها قال عليه الصّلاة والسّلام : (**لقد قلت بعدك كلمات لو وزنت بهنّ لوزنتهنّ : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، وزنة عرشه ومداد كلماته ورضا نفسه**)[1] .

والمراد من لفظ النفس في كلّ ماتقدّم إضافةً إلى حديث الباب : هو ذات الله تعالى المتّصفة بصفات الكمال ، ليس المقصود ذاتاً منفكّة عن الصّفات ، كما لايراد به صفة الذات .

قال ابن خزيمة رحمه الله : (فأوّل مانبدأ به من ذِكر صفات خالقنا جلّ وعلا ذِكرُ نفسه جلّ ربّنا أن تكون نفسه كنفس خلقه ، وعزّ أن يكون عدماً لانفس له)[2] ، ثمّ ساق عدداً من الأدلّة على إطلاق النّفس لله تعالى والمراد بها ذاته المقدسة المتصفة بصفات الكمال .

وقال البيهقي رحمه الله: (والنّفس في كلام العرب على وجوه : (فمنها) نفس منفوسة مجسّمة مُروّحة (ومنها) مجسّمة غير مُروّحة، تعالى الله عن هذين علواً كبيراً ، (ومنها) نفسٌ بمعنى إثبات الذّات كما تقول في الكلام: هذا نفس الأمر، تريد إثبات الأمر ، لا أنّ له نفساً منفوسة أو جسماً مروحاً، فعلى هذا المعنى يقال في الله سبحانه : إنّه نفس، لا أنّ له نفساً منفوسة أو جسماً مُرّوحاً ، وقد قيل في قوله عزّ وجلّ : ﴿ **تعلم مافي نفسي ولا أعلم مافي نفسك** ﴾ : أي تعلم ما أكنّه وأسرّه ولاعلم لي بما تستره عنّي وتغيّبه، ومثل هذا قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيما يرويه عن ربّه عزّ وجلّ: (**فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي**) أي : حيث لايعلم به أحد ولايطلع عليه ...)[3] .

---

[1] تقدّم ص ١٤٥.

[2] التّوحيد ١ / ١١ .

[3] الأسماء والصّفات ص ٣٦٤ بتصرّف يسير .

وقال الحافظ في الفتح : (قال ابن بطال [1] : في هذه الآيات والأحاديث، إثبات النّفس لله تعالى ، وللنّفس معانٍ والمراد بنفس الله تعالى ذاته) [2] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله : (ويراد بنفس الشّيء ذاته وعينه ، كما يُقال : رأيت زيداً عينه ونفسه ، وقد قال تعالى : ﴿ **تعلم مافي نفسي ولاأعلم مافي نفسك** ﴾ ، وقال : ﴿ **كتب ربّكم على نفسه الرّحمة** ﴾ ...فهذه المواضع المراد فيها بلفظ النّفس عند جمهور العلماء : الله نفسه الّتي هي ذاته المتّصفة بصفاته ، ليس المراد بها ذاتاً منفكّة عن الصّفات ، ولا المراد بها صفة للذّات ، فكلا القولين خطأ)[3] .

وكلام ابن حبّان في تفسير الحديث لايفي بالمراد من إثبات النّفس لله تعالى بالمعنى الّذي حدّده سلف الأمّة وعلماؤها ، وتقديمه لكلامه بقوله:" الله عزّ وجلّ أجلّ من أن يُنسب إليه شيءٌ من صفات المخلوق " يوحي بأنّ مايفهمه من إثبات النّفس فيه تشبيه لله سبحانه بالمخلوق، وهذا خطأ وخلاف منهج أهل السّنّة والجماعة وما تقدّم عن العلماء من تفسيرهم للمراد بما يوافق النّصوص العامة وقواعد الشّرع الحنيف : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ .

---

[1] العلاّمة أبو الحسن عليّ بن خلف بن بطّال البكري القرطبي ثمّ البلنسي شارح صحيح البخاري ، يُعرف بابن اللّجّام توفّي سنة ٤٤٩هـ ، السّير ١٨ / ٤٧ .

[2] الفتح ١٣ / ٣٨٤ .

[3] الفتاوى ٩ / ٢٩٢ - ٢٩٣.

المبحث العاشر : عقيدته في صفة المحبّة والخلّة

قال ابن حبّان : " ذِكرُ إثبات محبّة ا لله جلّ وعلا للمتحابّين فيه" ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه مرفوعاً في الرّجل الّذي زار أخاً له في قرية أخرى فأرصد ا لله له ملكاً يعلمه أنّ ا لله يحبه كما أحبّ أخاه في ا لله.[1]

وقال أيضاً : " ذِكرُ إثبات محبة ا لله لمحبّي سورة الإخلاص " ، وساق حديث عائشة رضي ا لله عنها مرفوعاً في الرجل الّذي كان يكثر من قراءة سورة الإخلاص في الصّلاة فلمّا سألوه قال : هي صفة الرّحمن وأنا أحب قراءتها ، فقال النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم : (**أخبروه أنّ ا لله يحبه**) [2] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ اتّخاذ ا لله جلّ وعلا صفيّه صلّى ا لله عليه وسلّم خليلاً ، كاتّخاذه إبراهيم صلوات ا لله عليه خليلاً " ، ثمّ ساق حديث جندب بن عبدا لله مرفوعاً : (**إنّ ا لله اتّخذني خليلاً كما اتّخذ إبراهيم خليلاً**)[3].

تعليق:

إثبات صفة المحبّة من ا لله تعالى لعباده ومن العباد له جلّ شأنه ، وكذلك الخلّة لمن يشاء، هو منهج السّلف الصالح رضوان ا لله تعالى عليهم وقد ثبت ذلك في غير آية وحديث : قال ا لله عزّ وجلّ : ﴿ **إنّ ا لله يحبّ التّوابين ويحبّ المتطهّرين** ﴾ : **البقرة ٢٢٢** ، وقال : ﴿ **والّذين آمنوا أشدّ حباً لله** ﴾ : **البقرة ١٦٥**، وقال : ﴿ **قل إن كنتم تحبّون ا لله فاتّبعوني يحببكم ا لله** ﴾ : **آل عمران ٣١** ، وقال : ﴿ **وأحسِنوا إنّ ا لله يحبّ المحسنين**﴾ : **البقرة ١٩٥** ، وقال : ﴿ **إنّ ا لله لايحبّ المعتدين** ﴾ : **المائدة ٨٧** ، وقال : ﴿ **إنّ ا لله لايحبّ من كان مختالاً فخوراً** ﴾ : **النّساء٣٦** ، وقال : ﴿ **فسوف يأتي ا لله بقوم يحبّهم ويحبّونه** ﴾ : **المائدة ٥٤**،وغيرها

---

(١) الإحسان ٢ / ٣٣١ - ٣٣٢ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في البرّ والصّلة باب في فضل الحبّ في ا لله .

(٢) الإحسان ٣ / ٧٣ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في التّوحيد باب ما جاء في دعاء النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم ، ومسلم في صلاة المسافرين ح٨٣١ .

(٣) الإحسان ١٤ / ٣٣٤ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في المساجد باب النّهي عن بناء المساجد على القبور .

كثير في القرآن ، ومن السّنّة قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**إنّ الله يحبّ العبد التّقي الغنيّ الخفيّ**) [(١)] .

وقوله : (**إنّ الله يحبّ العطاس ويكره التّثائب**) [(٢)] ، وقوله : (**إنّ الله تعالى يحبّ أن تُؤتى رخصُه**) [(٣)] ، وقوله : (**إنّ الله يحبّ الرّفق في الأمر كلّه**) [(٤)] ، وغير ذلك كثير ، ومثلها الخلّة كما ثبت في الحديث عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه مرفوعاً : (**إنّ الله اتّخذني خليلاً كما اتّخذ إبراهيم خليلاً**) [(٥)] ، وكذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿ **واتخذ الله ابراهيم خليلاً** ﴾ : **النّساء ١٢٥**، وقال الإمام أحمد رحمه الله : (إنّ الله يحبّ ويكره ويبغض ويرضى) [(٦)] .

وقال ابن القيم رحمه الله : (والّذي أجمع عليه العارفون : أنّه يحبهم ويحبونه، على إثبات الطّرفين ...وجميع طرق الأدلّة : عقلاً ونقلاً وفطرةً وقياساً واعتباراً وذوقاً ووجداً تدلّ على إثبات محبّة العبد لربّه، والربّ لعبده ... والمنكرون لذلك قد أنكروا خاصّة الخلق والأمر، والغاية الّتي وُجدوا لأجلها، فإنّ الخلق والأمر، والثّواب والعقاب : إنّما تنشأ من المحبّة ، ولأجلها، وهي الحقّ الّذي خُلقت به السّماوات والأرض، وهي الحق الّذي تضمّنه الأمر والنّهي وهي سرّ التّأليه، وتوحيدها : هو شهادة أن لاإله إلا الله)[(٧)] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة : (أصل المحبّة المحمودة الّتي أمر الله بها، وخلق خلقه لأجلها، هي مافي عبادته وحده لاشريك له، إذ العبادة متضمّنة لغاية الحبّ بغاية الذّل ، والمحبّة لما كانت جنساً لأنواع متفاوته في القدر

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في الزّهد والرّقائق ح٢٩٦٥ عن سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب إذا تثائب فليضع يده على فيه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الإمام أحمد ٢ / ١٠٨ ، وابن حبّان ح٢٧٤٢ ، والطّبراني في الأوسط ح٥٣٠٢ وغيرهم عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وله شواهد من حديث ابن عبّاس وابن مسعود ، انظر الإرواء ح٥٦٤ .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب باب الرّفق في الأمر كلّه ، ومسلم في السّلام باب النّهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسّلام عن عائشة رضي الله عنها .

(٥) أخرجه مسلم في المساجد باب النّهي عن بناء المساجد على القبور .

(٦) الحجّة للأصبهاني ١ / ٤٢٧ .

(٧) مختصر من مدارج السّالكين ٣ / ٢٠ .

والوصف كان أغلب مايذكر منهـا في حقّ ا لله مـايختصّ بـه ويليـق بـه، مثـل العبادة والإنابة ونحوهما ، فإنّ العبادة لاتصلح إلاّ لله وحده، وكذلك الإنابة .

وقد تذكر المحبة المطلقة لكن تقع فيها الشّركة كما قال تعالى : ﴿ **ومن النّاس من يتّخذ من دون ا لله أنداداً يحبّونهم كحبّ ا لله والّذين آمنوا أشـدّ حباً لله** ﴾ : **البقرة ١٦٥**، ولهذا كان هذا الحبّ أعظـم الأقسـام المذمومـة في المحبّة، كما أنّ حبّ ا لله أعظم الأنواع المحمودة، بل عبادة ا لله وحده لاشـريك له هي أصل السعادة ورأسها الّتي لاينجو أحد من العذاب إلا بها، وعبادة إلـه من دونه هو أصل الشقاء ورأسه، الّذي لايبقى في العذاب إلاّ أهله .

فأهل التّوحيد الّذين أحبّوا ا لله وعبدوه وحده لاشريك له، لايبقى منهم في العذاب أحد، والّذين اتخذوا من دونه أنداداً يحبّونهم كحبّـه، وعبـدوا غـيره هـم أهـل الشّـرك الذيـن قـال ا لله تعـالى فيهـم : ﴿ **إنّ ا لله لايغفـر أن يُشرك به** ﴾)[1] .

وأصل هذا أنّ الإسلام قائمٌ على شهادة أن لاإله إلاّ ا لله، والإلـه : هـو المعبود الّذي تألهه القلوب محبّةً وتعظيماً وإنابةً وذلاً وخضوعـاً ، وأصل التألّـه التعبّد وهو أعلى مراتب المحبّة، فالمحبّة هي حقيقة العبودية، وإنكارها يعود على أصل دين الإسلام بالكليّة نقضاً ودفعاً .

فالواجب إثبات صفة المحبّة من ا لله لعباده كما أثبتها سبحانه ورسوله صلّى ا لله عليه وسلّم على الوجه الّلائق به كسائر الصّفات .

وكذلك الخلة: وهي في اللّغة : المحبّة الّتي تخلّلت الرّوح والقلب حتّى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب ، فهي ثابتةٌ من ا لله ـ على الوجه اللاّئق به سبحانه ـ لنبيّه إبراهيم وصفيّه محمد صلّى ا لله عليهما وسلّم.

والمحبّة والخلّة من أوّل الصّفات الّتي وقع فيها الميـل والانحـراف ، وأوّل من عُرف بإنكارها الجعد بن درهم [2] الّذي قتله خالد بـن عبـدا لله القسـري يوم عيد الاضحى حيث خطب النّاس فقال : (أيّهـا النّـاس ضحّـوا تقبّـل ا لله

(1) حامع الرّسائل ٣ / ١٩٦ ـ ١٩٧ .

(2) الجعد بن درهم مؤدّب مروان الحمارآخر خلفاء بني أميّة ،قيل : كان زنديقاً ، السّير ٥ / ٤٣٣ .

ضحاياكم فإنّي مضحٍّ بالجعد بن درهم ، فإنّه زعم أنّ ا لله لم يتّخذ إبراهيم خليلاً و لم يكلّم موسى تكليماً)[1] .

وقد حكى الحافظ بن حجر في الفتح بعض أقوال أهل التّأويل في المحبّة والخلّة [2] : والمشهور أنّهم يقولون: محبّة ا لله لعباده إرادته ثوابهم وتنعيمهم أو هي نفس الثّواب والنّعيم ، وهو مخالف للنّصوص الصّحيحة والكثيرة الّتي وصفت ا لله بالمحبةوالخلّة ، ولو كان المراد ماقالوا لذكر النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم الثّواب والتّنعيم دون الحاجة إلى هذه التّعمية في عشرات النّصوص ، و لم يذكر في نصّ واحد مايشير إلى أنّ المراد من المحبّة هي الثّواب والنّعيم ، وهو صلّى ا لله عليه وسلّم أعلم الخلق با لله وأفصح الخلق وأنصحهم لهم ، فيمتنع مع ذلك كله أن يبلّغ هذه النّصوص الكثيرة بلفظ مغاير للمراد ، ولا شكّ أنّ الثّواب والنّعيم والرّحمة من لوازم المحبّة ونتائجها ولكنّها ليست هي، وهذا مسلك أهل الكلام : إمّا التّأويل بلازم الصّفة أو بالإرادة ، ولاشكّ أنّها متغايرةٌ من حيث المعنى واللّفظ والحقيقة .

وكذلك أنكر أهل البدع أن يكون ا لله تعالى يُحبّ لذاته سبحانه ، بل تأوّلوا ذلك بأنّ المراد محبّة طاعته ومحبة أوليائه وغير ذلك من التأويلات الباردة كما يُقال، قال السفّاريني [3] رحمه ا لله: (قال الإمام الطوفي الحنبلي[4] رحمه ا لله : ذهب طوائف من المتكلّمين والفقهاء إلى أنّ ا لله لايُحَبّ وإنّما محبّته محبّة طاعته وعبادته، وقالوا أيضاً : هو لايُحِب وإنّما محبّته إرادته الإحسان إليهم، والذي دلّ عليه الكتاب والسّنّة واتّفق عليه سلف الأمّة

---

[1] البداية والنّهاية ٩ / ٣٥٢ والقسري هو خالد بن عبدا لله بن يزيد بن أسد بن كُرز البجلي الدّمشقي أمير العراقين كان جواداً كريماً عالي الرّتبة توفّي سنة ١٢٦ هـ ، السّير ٥ / ٤٢٥.

[2] الفتح ١٣ / ٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

[3] محمّد بن أحمد بن سالم السّفّاريني شمس الدّين أبو العون محدّث محقّق أصولي وهوصاحب كتاب لوامع الأنوارالبهيّة وسواطع الأسرار الأثريّة ، توفّي رحمه ا لله سنة ١١٨٨هـ ، الأعلام للزّركلي ٦ / ٤١٤ .

[4] سليمان بن عبدالقوي بن عبدالكريم الطّوفي الصّرصري ثمّ البغدادي الفقيه الأصولي صاحب التّصانيف البديعة ، على ماكان يعتقد من الرّفض والطّعن في الصّحابة ، شهّر به السّلطان وضربه بسبب ذلك ، توفّي سنة ٧١٦ هـ ، الذّيل على طبقات الحنابلة ٤ / ٣٦٦ .

وأئمّتها وجميع مشايخ الطّريق أنّ ا لله تعالى يُحِبُّ ويُحَبُّ لذاته وأمّا حبّ ثوابه فدرجة نازلة .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة : للنّاس في هذا الأصل العظيم ثلاثة أقوال: الأوّل: أنّه تعالى يُحِبّ ويُحَبّ وهذا قول سلف الأمّة وأئمّتها ، والثاني : أنّه يستحقّ أن يُحَبّ ولكنّه لايُحِبّ إلاّ بمعنى أن يريد، وهذا قول كثير من المتكلّمين ومن وافقهم من الصّوفية ، والثالث: أنّه لايُحَب ولايُحِبّ وإنّما محبّة العباد له إرادة طاعته)[1] .

ومن نفى هذه الصّفة فإنّه يلزمه فيها مثل مايلزم في مأأثبته هو كالإرادة الّتي يؤول بها المحبّة، وقد بيّن ذلك شيخ الإسلام ابن تيميّة في التّدمريّة بما لامزيد عليه ، فإذا قال النّافي : هذه الصّفات تشبيه لأنّ الرّحمة رقّة تلحق المخلوق، والغضب غليان الدّم لإرادة الانتقام والرّب منزّه عن مثل صفات المخلوقين ، قيل له : وكذلك يقول منازعك في الإرادة أنّ الإرادة المعروفة ميل الإنسان إلى جلب ماينفعه ودفع مايضرّه وا لله منزّه عن الاحتياج إلى العباد ، فإن قال : الإرادة الّتي نثبتها ليست مثل إرادة المخلوقين ، قال له أهل الإثبات: وكذلك المحبّة والرّحمة ونحوهما نثبتها لله تعالى ليست مثل رحمة المخلوق ومحبّته، فإن قال : لاأعقل من المحبّة والرّحمة إلاّ هذا، قيل له : ونحن لانعقل من الإرادة إلاّ هذا ، ونحن نعلم أنّ إرادتنا ومحبّتنا بالنّسبة إلينا ، وإرادته ومحبّته ورحمته بالنّسبة إليه تعالى ، فلا يجوز التّفريق بين المتماثلين ، فيُثبت إحدى الصّفتين وينفي الأخرى ، وليس في السّمع ولافي العقل مايوجب التفريق[2] .

ومحبّة العباد لله تعالى من المعلوم من الدّين بالضّرورة ولايسوغ إنكارها لمسلم البتّة، بعدما جاءه النّور والهدى من ربّه ، وقد علم المؤمنون أنّ محبّة العباد لربّهم هي حياة القلوب ونعيم الرّوح، بل هي أعلى نعيم في الدّنيا والآخرة وهي فوق كلّ محبّة تُفتَرض ولا نسبة لسائر المحابّ إليها وهي حقيقة

---

(1) لوامع الأنوار ٢ / ٢٢٢ وانظر مدارج السّالكين لابن القيّم ٣ / ١٨ - ١٩ .

(2) انظر التّدمريّة ص ٣١ وما بعدها .

لاإله إلا الله ، وبتمامها وكمالها تتفاوت منازل العباد عند الله في الدّنيا والآخرة ، فالمحبّة هي حقيقة العبوديّة ، ولايمكن وجود العبادة الّتي يريدها ويأمر بها عباده بدونها أبداً ، بل لايوجد نوع من أنواع العبادة المطلوبة شرعاً بدونها ، فمنكر المحبّة في الحقيقة منكرٌ لجميع مقامات الإيمان والإحسان[1] .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله :(ثمّ هؤلاء الذين أنكروا حقيقة المحبّة لم يمكنهم إنكار لفظها لأنّه جاء في الكتاب والسّنّة ففسّروا محبّته بعبادته وطاعته وامتثال أمره أو محبّة أوليائه ونحو ذلك ممّا يُضاف إليه، ولو علموا أنّ محبوب الغير لايكون محبوباً إلاّ إذا كان ذلك الغير محبوباً ، فيكون هو المحبوب بالذّات، والوسائل يُحبّون بالعرض ، ولو تدبّروا قولهم لعلموا أنّه مستحيلٌ أن تحبّ عبادته وأولياؤه إذا لم يكن هو محبوباً)[2] ، وبهذا يتبيّن أنّ الله عزّ وجلّ موصوفٌ على الحقيقة بالمحبّة ، وأنّه سبحانه يحبّ عباده المؤمنين ويُحَبّ لذاته من عباده المؤمنين، وأنّ إبراهيم عليه السلام خليل الله ،كما أنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم خليله أيضاً كلّ ذلك على الوجه اللّائق به سبحانه إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، و ظاهر من كلام ابن حبّان رحمه الله أنّه موافقٌ لأهل السّنّة والجماعة في هاتين الصّفتين والله أعلم .

[1] شرح كتاب التّوحيد من صحيح البخاري للغنيمان ١ / ٦٨ - ٦٩ باختصار .

[2] الفتاوى ٦ / ٤٧٧ - ٤٧٨ .

المبحث الحادي عشر : عقيدته في صفة اليد والأصابع

ساق ابن حبّان رحمه الله حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (**يمين الله ملأى لايغيضها نفقة ، سحّاء باللّيل والنّهار...**) ، ثمّ قال : " هذه أخبار أُطلقت من هذا النّوع توهم من لم يُحكم صناعة العلم أنّ أصحاب الحديث مشبّهة، عائذٌ بالله أن يخطر ذلك ببال أحد من أصحاب الحديث، ولكن أطلق هذه الأخبار بألفاظ التّمثيل لصفاته على حسب مايتعارفه النّاس فيما بينهم دون تكييف صفات الله جلّ ربّنا أن يشبّه بشيءٍ من المخلوقين، أو يُكيّف بشيءٍ من صفاته إذ ليس كمثله شيء" [1] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ البيان بأنّ كتبة الله الكتاب الّذي ذكرناه كتبه بيده " ، وساق حديث أبي هريرة مرفوعاً : (**حين خلق الله الخلق كتب بيده على نفسه الرّحمة أنّ رحمتي غلبت غضبي**)[2] .

وأورد كذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنّه قال : (**إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال وهو على المنبر : يأخذ الله سماواته وأراضيه بيده ثمّ يقول : أنا الله : ويقبض أصابعه ويبسطها : أنا الرّحمن أنا الملك ...**) ، ثمّ قال : " قوله : **يقبض أصابعه ويبسطها** يريد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا الله جلّ وعلا " [3] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ ترك إنكار المصطفى صلّى الله عليه وسلّم على قائل ماوصفنا مقالته " ، وساق حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: **جاء حبرٌ من اليهود إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : يارسول الله، إذا كان يوم القيامة جعل الله السّماوات على إصبع**

---

(1) الإحسان ٢ / ٥٠٣ ـ ٥٠٤ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في التّوحيد باب ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ ومسلم في الزّكاة باب الحثّ على النّفقة وتبشير المنفق بالخلف .

(2) الإحسان ١٤ / ١٤ ، والحديث أخرجه بهذا اللّفظ أحمد ٢ / ٤٣٢ ، والتّرمذي في الدّعوات باب خلق الله مئة رحمة ، وابن ماجة في الزّهد باب مايُرجى من رحمة الله يوم القيامة ، وأصله في البخاري في التّوحيد باب قول الله ﴿ **بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ** ﴾ دون تقييد الكتابة باليد .

(3) الإحسان ١٦ / ٣١٧ ـ ٣١٨ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في التّوحيد باب قول الله ﴿ **لما خلقت بيدي** ﴾ ، و مسلم في صفة القيامة والجنّة والنّار .

والأرضين على إصبع ، والشّجر على إصبع، والخلائق على إصبع، ثمّ يهزّهن ثمّ يقول : أنا الملك، فلقد رأيت رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم ضحك حتى بدت نواجذه ، تعجّباً لما قال اليهودي تصديقاً له ...)[1] .

تعليق :

تقدم الكلام على تحليل كلام ابن حبّان ومذهبه في ألفاظ الصّفات [2] ، وقد كرّره هنا بما يفيد الإثبات والتّنزيه، ويدلّ على ذلك أنّه أثبت لله كتابته الكتاب بيده ، ثمّ أكّد ذلك بما ذهب إليه في حديث ابن مسعود أنّ النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم إنّما ضحك تصديقاً لقول الحبْر وليس إنكاراً له، وذلك واضح من قوله : "ذكر ترك الإنكار من المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم"، وإذا كان كذلك فقد وافق ابن حبّان مذهب السّلف الصّالح في إثبات اليد لله سبحانه وتعالى كما ورد بذلك النّص القاطع عن ا لله ورسوله صلّى ا لله عليه وسلّم .

أمّا الكتاب فقد قال ا لله تعالى : ﴿ **ياإبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدي** ﴾ : **ص ٧٥** ، وقال : ﴿ **بل يداه مبسوطتان** ﴾ : **المائدة ٦٤** وقال: ﴿ **يد ا لله فوق أيديهم** ﴾ : **الفتح ١٠**، وقال: ﴿ **قل إنّ الفضل بيد ا لله** ﴾ : **آل عمران ٧٣** ، وقال : ﴿ **قل من بيده ملكوت كلّ شيء** ﴾ : **المؤمنون ٨٨** ، وقال : ﴿ **أولم يروا أنّا خلقنا لهم ممّا عملت أيدينا أنعاماً** ﴾ : **يس ٧١** ، وغيرها .

وأمّا السّنّة فمنها قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**التقى آدم وموسى فقال له موسى : أنت الّذي خلقك ا لله بيده .. وقال آدم لموسى ...وخطّ لك التوراة بيده ...)** [3] .

---

[1] الإحسان ١٦ / ٣١٩ - ٣٢٠ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في التّوحيد باب قول ا لله : ﴿ **لما خلقت بيدي** ﴾ ، ومسلم في صفة القيامة والجنّة والنّار ح٢٧٨٦.

[2] انظر ص ١١٧-١٢٠ من هذه الرّسالة .

[3] أخرجه البخاري في القدر باب تحاجّ آدم وموسى عندا لله ، ومسلم في القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السّلام عن أبي هريرة رضي ا لله عنه .

وقوله عليه الصّلاة والسلام في حديث ا المتقدّم : (**لّما خلق ا لله الخلق كتب بيده على نفسه : إن رحمتي تغلب غضبي**) .

وعن أبي موسى الأشعري رضي ا لله عنه عن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم : (**إنّ ا لله يبسط يده باللّيل ليتوب مسيء النّهار ، ويبسط يده بالنّهار ليتوب مسيء اللّيل**)[1] .

وقال عليه الصّلاة والسلام : (**إنّ أحدكم ليتصدّق بالتّمرة من طيب ، ولايقبل ا لله إلاّ طيّباً، فيجعلها ا لله في يده اليمنى ...**) وفي لفظ (**في كفّ الرحمن**)[2] .

ومنه قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**إنّ قلوب بني آدم كلّها بين إصبعين من أصابع الرّحمن**)[3] .

ومنه قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**المقسطون عند ا لله عزّ وجلّ يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرّحمن وكلتا يديه يمين الّذين يعدلون بحكمهم وأهليهم وما وَلُوا**)[4] .

وأهل السّنّة والجماعة قاطبةً على إثبات صفة اليد لله سبحانه وتعالى وأنّ له يدين كما جاء الخبر ،وأنّ كلتا يديه يمين ،وأنّ له أصابع سبحانه وتعالى ﴿ **ليس كمثله شيءٌ وهو السّميع البصير** ﴾ .

قال الحافظ ابن بطة [5] رحمه ا لله : (الإيمان بأنّ ا لله عزّ وجلّ خلق آدم بيده وغرس جنّة الفردوس بيده وكتب التوراة بيده ... فكلّ هذه الأحاديث تُمرّ كما جاءت لاتُعارض ولا تُضرب لها الأمثال ولايُواضع فيها القول ، فقد رواها العلماء، وتلقّاها الأكابر منهم بالقبول وتركوا المسألة عن تفسيرها ورأوا أنّ العلم بها ترك الكلام في معانيها)[6].

---

(1) أخرجه مسلم في التّوبة باب قبول التّوبة من الذّنوب .

(2) أخرجه البخاري في الزّكاة باب الصّدقة من كسب طيّب ، ومسلم في الزّكاة باب الصّدقة من الكسب الطّيّب عن أبي هريرة.

(3) أخرجه مسلم في القدر باب تصريف ا لله تعالى للقلوب عن عبدا لله بن عمرو رضي ا لله عنهما.

(4) أخرجه مسلم في الإمارةباب فضيلة الإمام العادل عن عبدا لله بن عمرو رضي ا لله عنهما .

(5) الإمام القدوة العابد الفقيه أبو عبدا لله عبيدا لله بن محمّد بن محمّد بن حمدان العُكبَري الحنبلي صاحب كتاب الإبانة وغيرها ، توفّي سنة ٣٨٧ هـ ، السّير ١٦ / ٥٢٩ .

(6) الإبانة الصّغرى ص ٢٢٥ .

وقال اللالكائي [1] : (سياق مادلّ من كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم على أنّ من صفات الله تعالى الوجه والعينين واليدين ...) [2] ثمّ ساق عدداً من الآيات والأحاديث .

وقال الآجري : (باب الإيمان بأنّ لله عزّ وجلّ يدين وكلتا يديه يمين)[3] ، وقال الإمام أحمد رحمه الله : (وكما صحّ الخبر عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : (**مامن قلب إلاّ بين إصبعين من أصابع الرّحمن**) و(**كلتا يديه يمين**) ، الإيمان بذلك فمن لم يؤمن بذلك ويعلم أنّ ذلك حقّ كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فهو مكذّب برسول الله صلّى الله عليه وسلّم)[4] .

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل : (سمعت أبي رحمه الله قال : ثنا يحي بن سعيد ...وساق الإسناد إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : **إنّ الله يمسك السماوات على إصبع** ... قال أبي رحمه الله : جعل يحي يشير بأصابعه وأراني أبي كيف جعل يشير بأصبعه يضع إصبعاً إصبعاً حتى أتى على آخرها)[5] .

وقال ابن خزيمة : (باب ذِكر إثبات اليد للخالق الباري جلّ وعلا : والبيان أنّ الله تعالى له يدان كما أعلمنا في محكم تنزيله أنّه خلق آدم عليه السلام بيديه ...) [6] .

وقال البغوي رحمه الله تعالى : (الإصبع المذكورة في الحديث صفةٌ من صفات الله عزّ وجلّ ، وكلّ ماجاء في الكتاب والسّنّة من هذا القبيل من صفات الله تعالى كالنّفس والوجه والعين واليد وغيرها يجب الإيمان بها وإمرارها على ظاهرها ، معرضاً فيها عن التّأويل ، مجتنباً عن التّشبيه معتقداً أنّ

---

[1] الإمام الحافظ هبة الله بن الحسن بن منصور الطّبري الرّازي الشّافعي المتوفّى سنة ٤١٨هـ ، السّير ١٧ / ٤١٩ ، تاريخ بغداد ١٤ / ٧٠ .

[2] شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة ٣ / ٤١٢ .

[3] الشّريعة ص ٢٦٧ .

[4] طبقات الحنابلة ١ / ٣١٣ والحديث تقدّم تخريجه في الصّفحة السّابقة .

[5] السّنّة ١ / ٢٦٤ .

[6] التّوحيد ١ / ١١٨ .

الباري لايشبه شيء من صفاته صفات خلقه ،كما لاتشبه ذاته ذوات خلقه ...وعلى هذا مضى سلف الأمّة وعلماء السّنّة تلقّوها جميعاً بالإيمان والقبول وتجنّبوا فيها التّمثيل والتّأويل ، ووكلوا العلم فيها إلى الله عز وجل)[1] .

وقد حاول أهل الأهواء والبدع الانحراف بهذه النّصوص إلى معاني لايستقيم بها النّص الواضح الصّريح ، ورأوا أنّ ظاهر النّصوص غير مراد وتأثّر بذلك بعض المنتسبين للحديث مثل الإمام أبي سليمان الخطابي رحمه الله ، فقد حكى عنه البيهقي في الأسماء والصّفات تأويله لهذه النّصوص الجليّة والواضحة في إثبات اليد لله سبحانه ، بل اليدين وكلتا يديه يمين ، وكذلك إثبات صفة الأصابع له سبحانه على الوجه اللائق به ، ومن أشهر التّأويلات الّتي ذكروها تأويل اليد بالقدرة أو النّعمة وكذلك تأويل اليمين بالقوّة[2] .

قال الإمام الحافظ قوام السّنّة إسماعيل بن محمد الأصبهاني بعد أن ذَكَرَ بعض نصوص الصّفات كاليد والإصبع :(فمن تدّبره و لم يتعصّب بان له صحّة ذلك وأنّ الإيمان به واجب، وأنّ البحث عن كيفيّة ذلك باطل، وهذا لأنّ اليد في كلام العرب تأتي بمعنى القوّة : يُقال لفلان يد في هذا الأمر أي: قوّة، وهذا المعنى لايجوز في قوله : ﴿ **لما خلقت بيديّ** ﴾ وقوله : ﴿ **بل يداه مبسوطتان** ﴾ ، لأنّه لايقال : لله قوتان ،ومنها اليد : بمعنى النّعمة والصّنيعة يقال : لفلان عند فلان يد أي: نعمة ، وهذا المعنى لايجوز في الآية ، لأنّ تثنية اليد تبطله لا يقال لله نعمتان، وقد تأتي اليد بمعنى النّصرة والتّعاون كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : (**وهم يدٌ على من سواهم**)[3] أي يعاون بعضهم بعضاً على من سواهم من الكفّار، وهذا أيضاً لايجوز لأنّه لايجوز أن يقال : لما خلقت بنصرتي، وقد تكون اليد بمعنى: الملك والتصرّف يُقال: هذه الدّار في يد فلان أي في تصرّفه وملكه، وهذا أيضاً لايجوز لتثنية اليد، وليس

---

[1] شرح السّنّة ١ / ١٦٨ ـ ١٧١ ، بتصرّف .

[2] انظر الأسماء والصّفات للبيهقي ص ٤٠٤ ـ ٤١٨ .

[3] أخرجه أحمد ٢ / ١٩١ ـ ١٩٢ ، ٢١١ ، وأبوداود في الدّيّات باب أيُقاد المسلم بالكافر ؟،والنّسائي في القسامة باب سقوط القود من المسلم للكافر ، وابن ماجة في الدّيّات باب المسلمون تتكافأ دماؤهم ، وغيرهم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه، وهذه السّلسلة مختلف فيها ، والّذي عليه المحقّقون أنّها متّصلة حسنة على أقلّ درجاتها ،ولبعض ألفاظ الحديث شواهد يصحّ بها انظر تهذيب الكمال ٢٢ / ٦٤ ، وميزان الاعتدال ٣ / ٢٦٣ .

لله تعالى ملكان وتصرّفان، ومنها اليد الّتي هي معروفة، فإذا لم تحتمل الأوجه الّتي ذكرنا، لم يبق إلا اليد المعلوم كونها، والمجهول كيفيّتها ، ونحن نعلم يد المخلوق وكيفيّتها لأنّا نشاهدها فنعرفها ونعلم أحوالها ، ولانعلم كيفيّة يد الله تعالى لأنّها لاتشبه يد المخلوق ، وعلم كيفيّتها علم الغيب ولايعلم الغيب إلاّ الله تعالى بل نعلم كونها معلومة فقط)[1] .

وقال ابن القيم رحمه الله : (لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع: مفرداً ومثنّى ومجموعاً ، فالمفرد كقوله : ﴿ **بيده الملك** ﴾ والمثنّى كقوله : ﴿ **خلقت بيديّ** ﴾ والمجموعة كقوله : ﴿**عملت أيدينا**﴾ فحيث ذكر اليد مثنّاة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد وعدّى الفعل بالباء اليهما فقال : ﴿ **لما خلقت بيديّ** ﴾ ، وحيث ذكرها مجموعةً أضاف العمل إليها و لم يعدّ الفعل بالباء فهذه ثلاثة فروق فلا يحتمل ﴿ **خلقت بيديّ** ﴾ من المجاز مايحتمله ﴿ **عملت أيدينا** ﴾ فلو كان المراد من قوله : ﴿**خلقت بيدي**﴾ مجرّد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إليه معنى، فكيف وقد دخلت عليه الباء ، فكيف إذاثُنّيت ، وسرّ الفرق أنّ الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد، والمراد الإضافة إليه، كقوله : ﴿ **بما قدمت يداك** ﴾ .

وأمّا إذا أُضيف الفعل إليه ثمّ عُدّي بالباء إلى يده مفردةً ومثنّاة فهو لما باشرته يده ، ولهذا قال عبدالله بن عمرو : إنّ الله لم يخلق بيده إلاّ ثلاثاً، خلق آدم بيده ، وغرس جنّة الفردوس بيده، وذكر الثالثة[2])[3] .

وقد أبطل ابن القيّم دعوى المجاز في تأويل صفة اليد لله تعالى وأنّ المراد بها النّعمة أو القدرة من عشرين وجهاً ، ثمّ ختم ذلك بقوله : (ورد لفظ اليد في القرآن والسّنّة وكلام الصّحابة والتّابعين في أكثر من مئة موضعٍ وروداً

---

[1] الحجّة ٢ / ٢٥٩ ـ ٢٦١ ، بتصرّف .

[2] قال محقّق الصّواعق : (لم أجده بهذا اللّفظ عن عبدالله بن عمرو وقد ورد من طرق أخرى عن حكيم بن جابر قال: "أُخبرت أنّ ربّكم لم يمسّ بيده إلاّ ثلاثة أشياء : غرس الجنّة بيده ، وخلق آدم بيده ، وكتب التّوراة بيده " وهذا الأثر أخرجه الآجرّي في الشّريعة ...وأخرجه عبدالله بن أحمد في السّنّة بنحوه ..) ١ / ٢٧٠ ، وهو في السّنّة لعبدالله بن أحمد ٢ / ٢٥٩ .

[3] الصّواعق المرسلة ١ / ٢٦٨ ـ ٢٧٠ ، باختصار .

متنوّعاً مُتصرفاً فيه، مقروناً بما يدلّ أنّها يدٌ حقيقةً ، من الإمساك والطيّ والقبض والبسط والخلق باليدين مباشرةً وكتابة التّوراة بيده . . .الخ)[1] .

وهذا كافٍ إن شاء الله في بيان المقصود، والخلاصة أنّ ابن حبّان أثبت لله تعالى اليد كما يليق به جلّ وعلا ، وهو مذهب أهل السّنّة والجماعة وكذلك الأصابع كما جاء بذلك النّص الواضح الجلي ، وهذا هو ظاهر كلامه رحمه الله تعالى ويؤيّده أنّه لم يذهب إلى ماذهب إليه المؤوّلة من أنّ ضحك النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من قول اليهودي إنّما هو استنكاراً لما قال ، بل هو رضا بما قال كما هو مفهوم من ترجمته للحديث ، وما يقال في اليد يقال في الأصابع والله تعالى أعلم .

[1] مختصر الصّواعق ص ٣٨٤ باختصار .

المبحث الثّاني عشر : عقيدته في صفة البشّ

قال ابن حبّان رحمه الله : " ذِكرُ نظر الله جلّ وعلا بالرّأفة والرّحمة إلى الموطّن المكان في المسجد للخير والصّلاة " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (**لايوطّن الرّجل المسجد للصّلاة أو لذكر الله، إلاّ تبشبش الله به كما يتبشبش أهل الغائب إذا قدم عليهم غائبهم**) ، ثمّ قال: (العرب إذا أرادت وصف شيئين متباينين على سبيل التّشبيه أطلقتهما معاً بلفظ أحدهما، وإن كان معناهما في الحقيقة غير سيّين* كما قال أبو هريرة: كان طعامنا على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الأسودان : التّمر والماء [(1)] ، فأطلقهما جميعاً بلفظ أحدهما عند التّثنية، وهذا كما قيل : عدل العمرين، فأُطلقا معاً بلفظ أحدهما، فتبشبش الله جلّ وعلا لعبده الموطّن المكان في المسجد للصّلاة والخير إنّما هو نظره إليه بالرّأفة والرّحمة والمحبّة لذلك الفعل منه ...) [(2)] .

تعليق:

هذا الّذي ذكره ابن حبّان في المراد من التّبشبش وأنّه نظر الله الى عبده بالرّأفة والرّحمه، مخالفٌ لما عليه أهل السّنّة والجماعة من إمرار النّصوص وإقرارها على ظاهرها دون تأويل .

والتّبشبش من البشّ، قال في النّهاية : (البشّ: فرح الصّديق بالصّديق، والإقبال عليه) [(3)] ، فهو إذن نوعٌ من الفرح والاستبشار، وصفة الفرح ثابتة لله بالسّنّة الصّحيحة، وما ثبت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وجب الأخذ به كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ **وماآتاكم الرّسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا** ﴾ : **الحشر ٧**.

---

(1) أخرجه مالك في صفة النّبيّ ح٣١ و أحمد ٢ / ٢٩٨ ،٣٥٥ ، ٤٠٥ .

(2) الإحسان ٤ / ٤٨٤ ـ ٤٨٦ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٢ / ٣٠٧ ، ٣٤٠ ، ٣٢٨ ن ٥٥٣ ، وابن ماجة في المساجد بباب لزوم المساجد وانتظار الصّلاة .

(3) النّهاية لابن الأثير ١ / ١٣٠ ؛ وانظر تهذيب اللّغة ١١ / ٢٩٠ .

* أي مثلين ، انظر القاموس المحيط ٤/ ٤٩٩.

وقد جاءت السّنّة بإثبات الفرح لله تعالى ، كما في حديث عدد من الصّحابة رضي الله عنهم مرفوعاً : (**لَلّه أشدّ فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوّيّة مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت ، فطلبها حتّى أدركه العطش ثمّ قال : أرجع إلى مكاني الّذي كنت فيه ، فأنام حتّى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه**) وفي رواية : (**فأخذ بخطامها فقال من شدّة الفرح : اللّهمّ أنت عبدي وأنا ربّك، أخطأ من شدّة الفرح**)[1] وله روايات عديدة .

قال الحافظ بن مندة : (بيانٌ آخر يدلّ على ماتقدّم من الفرح والبشارة من الله عزّ وجل) ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الرّجل الّذي يوطّن المسجد للصّلاة والخير ، وساق أيضاً حديث أبي الدّرداء رضي الله عنه مرفوعاً : (**ثلاثةٌ يحبّهم الله ويضحك إليهم ويتبشبش بهم إذا انكشفت فئة فقاتل فرآها بنفسه لله**) ، وقال : (هذا إسناد مشهور)[2].

وقد ذهب المؤوّلة كعادتهم في الانحراف بمعاني النّصوص عن الجادّة إذا خالفت هواهم ، إلى أنّ الفرح والبشّ عبارة عن رضا الله تعالى ونظره إلى العبد بالرّحمة و الرّأفة ،قال الخطّابي رحمه الله :(لله أفرح معناه أرضى بالتّوبة وأقبل لها ، والفرح الّذي يتعارفه النّاس من نعوت بني آدم غير جائز على الله ، إنّما معناه الرّضى كقوله : ﴿ **كلّ حزب بما لديهم فرحون** ﴾ أي : راضون)[3] وكذلك قال أبو الحسن الطّبري حيث أورد أنّ الفرح يأتي على وجوه منها الفرح بمعنى السّرور وبمعنى البطر والأشر ومنه الفرح بمعنى الرّضى واستبعد الجميع ماعدا الرّضى حيث صرف النّصوص إليه .[4]

---

[1] أخرجه البخاري في الدّعوات باب التّوبة ، ومسلم في التّوبة باب في الحضّ على التّوبة والفرح بها من طرق عن أبي هريرة وعن أنس وعن عبدالله بن مسعود وغيرهم .

[2] التّوحيد ٣ / ٢٣٦ - ٢٣٧ .والحديث رواه أيضاً البيهقي في الأسماء والصّفات ص ٥٩٥ .

[3] الأسماء والصّفات للبيهقي ٦٠٢ .

[4] الأسماء والصّفات للبيهقي ٦٠٢ .

ووافقهم على ذلك ابن حبّان عفا الله عنه ، والله أعلم بنفسه ورسوله صلّى الله عليه وسلّم أعلم بربّه سبحانه ، ولو أراد ما ذكروه ما حجزه عن ذلك بيانه التّام ، ولانصحه الكامل لأمّته صلّى الله عليه وسلّم ، فالواجب على المؤمن التّسليم والإيمان بما جاء في الشّرع، فنثبت لله تعالى الفرح والبشّ على مايليق به سبحانه بلا تمثيل ولا تعطيل والله تعالى أعلم .

المبحث الثّالث عشر : عقيدته في صفة الغيرة

قال ابن حبّان رحمه ا لله في ترجمة :" ذِكرُ الإخبار بأنّ غيرة ا لله تكون أشدّ من غيرة أولاد آدم " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**المؤمن يغار وا لله أشدّ غيرةً**)[1] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ وصف الشّيء الّذي من أجله يكون ا لله جلّ وعلا أشدّ غيرةً " ، ثمّ ساق نفس الحديث بزيادة : (**فغيرة ا لله أن يأتي المؤمن ماحرّم ا لله عليه**)[2] .

<u>تعليق:</u>

أضاف ابن حبّان الغيرة لله تعالى و لم يعلّق على ذلك ، بل وصف غيرته سبحانه بالشّدّة ، والّذي تعوّدناه منه أنّه لايسكت حين يكون ظاهر الحديث غير مراد عنده ،وإثبات صفة الغيرة لله تعالىهو المنقول عن السّلف الصّالح رحمهم ا لله على الوجه الّلائق به سبحانه ،كما ثبت عن رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم من غير وجه أنّه سبحانه وتعالى يغار .

قال الحافظ بن حجر : (الغيرة : بفتح المعجمة وسكون التّحتانية، قال عياض [3] وغيره : هي مشتقّة من تغيّر القلب وهيجان الغضب بسبب المشاركة فيما به الاختصاص ، هذا في حقّ الآدمي، ...قال ابن العربي : التّغيّر محالٌ على ا لله بالدّلالة القطعيّة فيجب تأويله بلازمه كالوعيد وإيقاع العقوبة بالفاعل ونحو ذلك ...)[4] .

وهذا الّذي نقله الحافظ عن ابن العربي غير سديد ، بل غيرة الله من جنس صفاته الّتي يختصّ بها فهي ليست مماثلةً لغيرة المخلوق، بل هي صفةٌ تليق بعظمته ، مثل : الغضب والرضا ونحو ذلك من خصائصه الّتي لايشاركه الخلق

---

[1] الإحسان ١ / ٥٢٨ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في التّوبة باب غيرة ا لله .

[2] الإحسان ١ / ٥٢٨ - ٥٢٩ .

[3] القاضي أبو الفضل بن موسى بن عياض الأندلسي المالكي إمام الحديث في وقته ،توفّي سنة ٥٤٤هـ ، السّير ٢٠ / ٢١٢ .

[4] الفتح ٩ / ٣٢٠ .

فيها ، وسكوت ابن حبّان عن تأويلها يدلّ والله أعلم أنّه سلك في فهمها مسلك أهل السّنّة والجماعة وهو إمرار النّصوص من غير تعرّض لها بتأويل أو تحريف أو تكييف أوتمثيل بل نثبت له صفاته كما يليق به سبحانه ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ .

المبحث الرّابع عشر : مذهبه في حديث (خلق الله آدم على صورته)

ساق ابن حبّان رحمه الله حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (**إذا ضرب أحدكم، فليجتنب الوجه، فإنّ الله خلق آدم على صورته**) ثمّ قال : " يريد به صورة المضروب لأنّ الضّارب إذا ضرب وجه أخيه المسلم ضرب وجهاً خلق الله آدم على صورته " [1].

كما ساق أيضاً حديث أبي هريرة مرفوعاً : (**لايقولنّ أحدكم قبّح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك فإنّ الله خلق آدم على صورته**) ،وقال : " يريد به على صورة الّذي قيل له : قبّح الله وجهك من ولده، والدّليل على أنّ الخطاب لبني آدم دون غيرهم قوله صلّى الله عليه وسلّم : (ووجه من أشبه وجهك) لأنّ وجه آدم في الصّورة تشبه صورة ولده "[2] .

وقال بعد حديث أبي هريرة مرفوعاً : (**خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً ...**) ، قال : " معنى الخبر عندنا إبانة فضل آدم على سائر الخلق، والهاء راجعةٌ إلى آدم ، والفائدة من رجوع الهاء إلى آدم دون إضافتها إلى الباري جلّ وعلا، جلّ ربّنا عن أن يُشبّه بشيءٍ من المخلوقين : أنّه جلّ وعلا جعل سبب الخلق الّذي هو النّامي المتحرّك بذاته اجتماع الذكر والأنثى ثمّ مروره بأطوار الخلق من العلقة إلى المضغة إلى الصّورة ، ثمّ إلى الوقت الممدود فيه حتّى يموت ـ أمّا آدم فخلقه على صورته الّتي خلقه عليها وطوله ستون ذراعاً من غير أن يكون تقدّمه اجتماع الذكر والأنثى ، ودون المرور بأطوار الخلق المعلومة ، فأبان الله فضله على سائر ولده بأن كانت هذه حالته دون غيره " [3] .

---

[1] الإحسان ١٢ / ٤٢٠ ـ ٤٢١ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في العتق باب إذا ضرب العبد فليجتنب الوجه ومسلم في البرّ والصّلة : باب النّهي عن ضرب الوجه ، ولم يذكر البخاري جملة الشّاهد ، وقد رواها في الاستئذان باب بدء السّلام .

[2] الإحسان ١٣ / ١٩ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٢ / ٢٥١ ، ٤٣٤ ، والحميدي ح١١٢٠ ، وابن خزيمة في التّوحيد ١ / ٨٢ ، وغيرهم .

[3] الإحسان ١٤ / ٣٣ ـ ٣٥ ملخّصاً ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الاستئذان باب بدء السّلام .

تعليق:

حديث الصّورة المشهور عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه من الأحاديث الّتي أشكل فهمها على كثير من النّاس ومالوا في تفسيرها إلى قول أهل التّأويل والتّعطيل فتأوّلوا معانيها على غير مراد الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم .

وأهل السّنّة قاطبة على أنّ الواجب في مثل هذه الآثار إمرارها كما جاءت دون تعرّض لها بتأويل أو تكييف أو تمثيل تعالى الله عن ذلك كله .

ومن ضمن تلك الآثار حديث الصّورة هذا فإنّ السّلف الصالح رحمهم الله يؤمنون بهذا الحديث وماتضمّنه من أنّ الله تعالى خلق آدم على صورته، وقد صحّ أنّ الله خلق آدم على صورته تعالى ، وجاء أيضاً من طرق ضعيفة (**إنّ ابن آدم خُلق على صورة الرّحمن**)[1]، وهي من جهة الإسناد لاتثبت إلاّ أنّ معناها ثابتٌ كما هو المفهوم من الضّمير في الروايات الأولى.

وقد اختلف شرّاح الحديث في المراد من الضّمير في قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**على صورته**) إلى أقوال أشهرها : قول بعضهم : إنّه راجعٌ إلى المضروب ، وقول آخرين : إنّه راجع إلى آدم .

وهذان القولان هما المشهوران عند أهل التّأويل والكلام المذموم وإن كان قد تبنّاه بعض المنتسبين إلى السّنّة، والمشهور عن السّلف عود الضمير إلى الله تعالى على الوجه اللائق به سبحانه .

قال الآجُري رحمه الله : (باب الإيمان بأنّ الله عزّ وجلّ خلق آدم على صورته بلا كيف) ، ثمّ ساق عدداً من الأحاديث بمعناه ثمّ قال : (قال محمّد بن الحسين : هذه من السّنن الّتي يجب على المسلمين الإيمان بها، ولايُقال : كيف و لم؟ بل تستقبل بالتّسليم والتّصديق وترك النّظر ...) [2] .

---

[1] أخرجه الآجرّي في الشّريعة ص ٢٦٢ ،وابن خزيمة في التّوحيد ١ / ٨٥ والطّبراني في الكبير ١٢ / ١٣٥٨٠ والبيهقي في الأسماء والصّفات ص ٣٧١ ، عن ابن عمر رضي الله عنه ، وهو ضعيف لايثبت كما حقّق ذلك الألباني في السّلسلة الضّعيفة ٣ / ح١١٧٦ .

[2] الشّريعة ٢٦١ .

وقال الإمام أحمد رحمه الله في حديث (**لاتقبّحوا الوجه فإنّ الله خلق آدم على صورته**) : (صحيح ، قال ابن راهوية : صحيح ولايدعه إلاّ مبتدع) وقال أيضاً : (من قال : إنّ الله خلق آدم على صورة آدم فهو جهمي، وأيّ صورة كانت لآدم قبل أن يخلقه) [1] .

قال قوّام السّنّة الأصبهاني رحمه الله : (ومن مذهب أهل السّنّة الإيمان بجميع ماثبت عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في صفة الله تعالى كحديث لاتقبّحوا الوجه فإنّ الله خلق آدم على صورته) [2] .

وقال أيضاً : (وليس روايتهم حديث النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم (**خلق آدم على صورته**) بموجبة نسبة التّشبيه إليهم : أي إلى أهل السّنّة : بل كلّ ماأخبر الله به عن نفسه، وأخبر به رسوله صلّى الله عليه وسلّم فهو حق، وقول الله حق، والله أعلم بما يقول ورسوله أعلم بما قال وإنّما علينا الإيمان والتّسليم)[3] .

وقد حاول أهل البدع كما قلنا أن ينكروا هذا الحديث ومافي معناه بناءً على إنكارهم الصّفات أصلاً ، وظنّوا أن ذلك يستلزم التّشبيه ، تعالى الله عن ذلك .

كما ذهب بعض أهل السّنّة إلى القول المرجوح : وهو عود الضّمير إلى آدم أو إلى المضروب، وهو المشهور عن ابن خزيمة، وتبعه على ذلك ابن مندة في كتابه التّوحيد فإنّه قال : (معناه لم يخلقه طفلاً ثمّ صبياً ثمّ شاباً ثمّ كهلاً ثمّ شيخاً)[4] .

وكذلك ورد عن الإمام مالك رحمه الله إنكاره رواية مثل هذه الأحاديث، ذكره الذّهبي رحمه الله في السّير وعقّب عليه بإثبات الحديث وقال : (قال إسحاق بن راهوية عالم خراسان : صحّ هذا عن رسول الله صلّى

---

[1] مسائل الإمام أحمد للأحمدي ١ / ٣٥٦ - ٣٥٨ .

[2] الحجّة ٢ / ٢٩١ .

[3] الحجّة ١ / ٢٨٥ - ٢٨٧ .

[4] التّوحيد ١ / ٢٢٢ - ٢٢٣ .

الله عليه وسلّم) [1]، وقال في موضع آخر : (أنكر الإمام مالك ذلك، لأنّه لم يثبت عنده ، ولا اتّصل به، فهو معذور، كما أنّ صاحبي الصّحيح معذوران في إخراج ذلك لثبوت سندهما فقولنا في ذلك وبابه : الإقرار والإمرار وتفويض معناه إلى قائله الصّادق المعصوم)[2] .

وهذا التّأويل منهم غير سديد وليس له مسوّغ عقليّ أو شرعي ، فإنّ كون الله تعالى خلق آدم على صورته لايلزم منه أن يكون مثله، كما ثبت عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قوله : (**أوّل زمرةٍ يدخلون الجنّة على صورة القمر...**)[3] ، ومعلومٌ أنّ ذلك لايعني أنّهم مماثلون للقمر ، فالله عزّ وجلّ أجلّ وأسمى وأعزّ من أن يكون قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**على صورته**) يلزم منه المماثلة .

قال ابن تيميّة رحمه الله : (لم يكن بين السّلف رحمهم الله ، من القرون الثّلاثة نزاعٌ في أنّ الضّمير في هذا الحديث عائدٌ إلى الله تعالى، فإنّه مستفيضٌ من طرق متعدّدة عن عدد من الصّحابة، وسياق الأحاديث كلّها تدلّ على ذلك، وهو أيضاً مذكورٌ فيما عند أهل الكتابين من الكتب)[4] .

ويدلّ على أنّ المراد عند السّلف بالضّمير هو الله سبحانه روايتهم لحديث (**على صورة الرحمن**) دون نكير منهم لمعناه، وقد استشهد به أحمد لصحّة تفسير السّلف ، وروي في معناها مارواه ابن أبي عاصم في السّنّة من حديث أبي هريرة مرفوعاً : (**إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه ، فإنّ الله خلق آدم على صورة وجهه**) [5] .

ثمّ إنّ عود الضّمير على آدم ليس فيه فائدة ، فمن المعلوم أنّ كلّ شيءٍ مخلوق على صورة نفسه، فيكون الكلام بلا فائدة ، والتّعليل بذلك لايصلح في

---

[1] السّير ٥ / ٤٤٩ ـ ٤٥٠ .

[2] السّير ٨ / ١٠٤ ـ ١٠٥ .

[3] أخرجه البخاري في بدء الخلق باب خلق آدم وذرّيّته ، ومسلم في الجنّة وصفة نعيمها : باب أوّل زمرة تدخل الجنّة على صورة القمر عن أبي هريرة رضي الله عنه .

[4] نقض التّأسيس ، عن شرح كتاب التّوحيد للغنيمان ٢ / ٦٨ .

[5] السّنّة ص ٢٢٨ ، وإسنادها صحيح ، وتشكّك العلاّمة الألباني من صحّتها ، وهو موافق لما قاله الدّارقطني في كتابه الكبير العلل ١١ / ٢٠٥ .

حديث (**لاتقبّحوا الوجه**) فإنّ كون المضروب أو المشتوم على صورة آدم يشمل كلّ الأعضاء ولا خصوصيّة للوجه بذلك ، ثمّ السّياق المنطقي أن يُقال: خلقه الله على صورة آدم ، وليس العكس لأنّ آدم هو المتقدّم ، فيكون المتأخّر خلق على صورة المتقدّم، وأمّا قوله : الله خلق آدم على صورته ، فلا يحتمل هذا التّفسير.

وقولهم : إنّ المراد أنّه لم يمرّ بمراحل الخلق الّتي مرّ بها بنوه فليس كذلك، بل خلقه تنقّل من حال إلى حال : من التّراب إلى الطّين ، ثمّ إلى الصّلصال ، فإذا جاز أن يُقال في آدم: خُلق على صورته، جاز أن يُقال في بنيه : خُلقوا على صوَرهم ، ثمّ هذا قد يسوغ إذا روينا جملة خلق الله آدم على صورته مستقلّه ، ولكن إذا رُبط أوّل الحديث وهو قوله : لا تضربوا الوجه بآخره لم يبقَ رابط بين أوّل الحديث وآخره ، إذ لايصلح آخره علّةً لأوّله على هذا التّفسير وكلام الله ورسوله يجب فهمه كاملاً كما رُوي ، لا أن يُفصل بعضه عن بعض .

قال الحافظ بعد حكايته الأقوال في الحديث : (فتعيّن إجراء ذلك على ماتقرّر بين أهل السّنّة من إمراره كما جاء من غير اعتقاد تشبيه) [(١)] .

وقد استوفى شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله الكلام على شرح الحديث ورد تأويلات الجهميّة في كتابه (نقض التأسيس) ، كما أتى بخلاصته الشّيخ عبدالله الغنيمان في كتابه (شرح كتاب التّوحيد من صحيح البخاري)[(٢)] وحسبنا هنا أن نعلم أنّ ماذكره ابن حبّان في تفسير الحديث غير موافق لما عليه جمهور أهل السّنّة، وأنّ الواجب إمرار هذه الأحاديث كما جاءت مع تفويض الكيفيّة أو الحقيقة لله تعالى ، مع الإيمان بأنّه : ﴿ **ليس كمثله شيءٌ وهو السّميع البصير**﴾ .

إلاّ أنّه ينبغي أن ألفت النّظر إلى أنّ تفسير ابن خزيمة ومن تبعه لحديث خلق الله آدم على صورته ، لايلزم منه أنّهم ينكرون أنّ لله عزّ وجلّ صورة

---

(١) الفتح ٥ / ١٨٣ .

(٢) ج٢ ص ٦٥ - ٩٨ .

أصلاً، يدلّ على ذلك أنّ ابن خزيمة أثبت لله الصورة فقال : (باب ذِكر صورة ربّنا عزّ وجلّ . .) [١] وهو وإن كان يريد إثبات صورة وجه الرّحمن جلّ وعلا ولكنّه يدل أيضاً أن تفسير الحديث كما ذهب إليه ابن حبّان لايلزم منه إنكار الصّورة لله عزّوجلّ ، ولهذا اكتفيت بالأقوال في تفسير حديث الصّورة : أي خلق آدم على صورته، و لم أتعرّض لإثبات الصّورة لله تعالى .

وإذ قد عرفنا ذلك فإنّ جميع الأقوال الّتي ذكرها الحافظ في الفتح وغيرالحافظ ضعيفةٌ لايسندها دليلٌ شرعي معتمد وتبنّي الخطّابي والمازري[٢] لها وغيرهم لايقوّيها، بل الواجب على المؤمن التّسليم والإيمان والإذعان والرّجوع إلى ما كان عليه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه الكرام معرضاً عن أهل البدع والكلام المذموم ، ومن تأثّر بهم من أهل العلم مجتهدين في ذلك فهم بين أجر وأجرين ، وأمّا من علم الحقّ وحاد عنه فأمره إلى الله تعالى والله المستعان .

---

[١] التّوحيد ١ / ٤٥ .

[٢] أبو عبدالله محمّد بن عليّ بن عمر التّميمي المازَري المالكي ، صاحب كتاب المعلم بفوائد شرح مسلم كان أحد الأذكياء الموصوفين والأئمّة المتبحّرين ، توفّي سنة ٥٣٦ هـ ، السّير ٢٠ / ١٠٤ .

المبحث الخامس عشر : عقيدته في إطلاق الملل والسأم على الله تعالى

ساق ابن حبّان بإسناده إلى النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم قولـه : (**خـذوا من العمل ماتطيقون، فوا لله لايسأم ا لله حتّى تسأموا**) ، ثمّ قـال : " قولـه: **لايسأم ا لله حتّى تسـأموا** ، مـن ألفـاظ التّعـارف الّـتي لايتهيّـأ للمخـاطب أن يعرف القصد فيما يُخاطَب به إلاّ بهذه الألفاظ " [1] .

وقال في موضعٍ آخر بعد نفس الحديث : " قوله صلّى ا لله عليـه وسـلّم : فإنّ ا لله لايملّ حتى تملوا ، من الألفـاظ الّـتي لايحيـط علـم المخـاطب بهـا في نفس القصد إلاّ به " [2] .

تعليق:

الملل والسأم معناهما واحد ، قال الحافظ رحمه ا لله : (والملال استثقال الشّيء ونفور النّفس عنه بعد محبّته ، وهو محالٌ على ا لله تعالى باتّفاق .

قال جماعة من المحقّقين: إنّما أطلق هذا على جهة المقابلة اللّفظية مجـازاً كما قال تعالى : ﴿ **وجزاء سيّئةٍ سـيّئةٌ مثلهـا** ﴾ وقـال القرطـبي رحمـه ا لله : وجه مجازه أنّه تعالى لمّا كان يقطع ثوابه عمّن يقطع العمل ملالاً عبّر عن ذلـك بالملال من باب تسمية الشّيء باسم سببه) [3] .

وقد ذَكرَ الحـافظ غـير ذلـك مـن الأقـوال ولكنّهـا بعيـدةٌ كمـا قـال ، والأظهر الّذي ذكرناه ، قال الخطّـابي رحمـه ا لله : (المـلال لايجـوز علـى ا لله تعالى بحال ولايدخل في صفاته وإنّما معناه : لايترك الثّواب والجزاء عن العمـل مالم تتركوه، وذلك أنّ من ملّ شيئاً تركه فكنّى عن الـتّرك بـالملال الّـذي هـو سبب التّرك)[4] ، وهـذا الّـذي ذكـروه واردٌ في القـرآن كقولـه تعـالى: ﴿ **ويمكـرون ويمكـر ا لله** ﴾ : **الأنفـال ٣٠** ، وقولــه : ﴿ **ا لله يسـتهزئ**

[1] الإحسان ٢ / ٥٧ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الصّوم باب صوم شعبان ، ومسلم في الصّوم بـاب صيام النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم في غير رمضان عن عائشة رضي ا لله عنها ، وفي بعض الرّوايات (**لايملّ**) بدل (**لايسأم**) .

[2] الإحسان ٢ / ٦٩ ، و ٤ / ٤٤٧ .

[3] الفتح ١ / ١٢٦ .

[4] الأسماء والصّفات للبيهقي ص ٦١١ .

بهم﴾ : البقرة ١٥ ، وقوله : **﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ : النّساء ١٤٢**، فهذه النّصوص وأشباهها نطلقها على الله كما جاءت عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، ولانشتقّ له منها أسماء ولانصفه بها مطلقةً هكذا ، بل نلتزم بما جاء عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ونطلقه كما أطلقها الكتاب والسّنّة ، لانزيد في ذلك ولاننقص .

وكلام ابن حبّان في تعليقه على الحديث هو رأيه الّذي كرّره في أكثر من موضع ونحن نوافقه من حيث المبدأ ، فكلّ صفات الله تعالى بل كلّ من يخبر عن غائب لابدّ له من استعمال ألفاظ توصل المعنى المقصود باللّفظ إلى المُخاطب ، وهذا الّذي سبق نقله عن ابن تيميّة مراراً وقرّره في أكثر من موضع ، لكنّه استخدمه لإثبات الصّفات والقدر المشترك بين صفات الخالق وصفات المخلوق ، وهو الاسم المطلق أو الكلّي ، ولايوجد إلاّ في الأذهان وأمّا إذا أُضيف ، فللخالق صفاته ، وللمخلوق صفاته ، والله ليس كمثله شيء سبحانه .

أمّا ابن حبّان فهو أحياناً يطلقها ويريد منها أنّه استعمالٌ للّفظ لمجرّد إيصال معنى معيّن للمُخاطَب ولاينطوي على إثبات صفة لله تعالى ، ومن وراء ذلك أنّ ظاهرها غير مراد، وهذا غير صحيح كما تقدّم الكلام عنه والله تعالى أعلم .

المبحث السّادس عشر : عقيدته في صفة الساعد

قال ابن حبّان بعد حديث أبي الأحوص عن أبيــه عـن النّبيّ صلّـى ا لله عليه وسلّم أنّه قال : (**ساعد ا لله أشدّ من ساعدك ...**) : " قوله: ساعد ا لله أشدّ من ساعدك ، من ألفاظ التّعارف الّتي لايتهيّــأ معرفـة الخطـاب في القصـد فيما بين النّاس إلاّ به ..." [1] .

تعليق:

علّق ابن حبّان على هذا الحديث بمذهبه في كثير من صفات ا لله تعـالى، وهو كلام كما سبق ذكره لايُفهم منه عند ابن حبّان نفـي أو إثبـات ، إلاّ أنّ الّذي يظهر هنا أنّه يريد هنا تأويل النّص، ونفي الصّفــة لأنّـه لـو أراد الإثبـات لذكر ذلك صراحةً كما ذكره في السّمع والبصر مثلاً فقال : " ا لله يسمع بـلا آلة " ، ولكنّه هنا اكتفى بالإيماء إلى أنّ ظواهر مثـل هـذا النّـص غـير مـرادة ، وإنّما هي ألفاظٌ اسـتخدمت بغـرض إيصـال معنـىً معيّـن لايمكـن إيصالـه إلى المخاطَب إلاّ بهذا اللّفظ ، ونحن نقول لابن حبّان ماهو المعنى المُراد إيصاله إلى المخاطب في هذا الحديث؟

يقول البيهقي : (قال بعض أهل النّظر في قوله : سـاعد ا لله أشـدّ مـن ساعدك: معناه أنّ أمره أنفذ من أمـرك، وقدرتـه أتمّ مـن قدرتـك ، كقولهـم : جمعت المال بقوّة ساعدي، يعني به رأيه وتدبيره وقوّته، وإنّما عبّر عنه بالسّاعد للتّمثيل لأنّه محلّ القوّة) [2] ، فإذا كان هذا المعنـى هـو المـراد مـن الحديـث ، فهل فعلاً لايمكن إيصاله إلى المُخاطَب إلاّ باستخدام لفظ غير مُراد ، مثل لفـظ (السّاعد) ؟ بل يؤدّي إلى التّشبيه ويُوهم التّمثيل كما يظنّ هؤلاء ؟

فإذا كان الجـواب : لا ، وهـو المتعيّـن فلـم يبـق إلاّ أنّ اسـتخدام لفـظ السّاعد مقصود لذاته ، ولا يمنع هذا أن يكون المُـراد مـن الحديـث عمومـاً أنّ

---

[1] الإحسان ١٢ / ٤٣٣ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٣ / ٤٧٣ ، ٤ / ١٣٦ ــ ١٣٧ ، والطّبراني في الكبير ١٩ / ح٦٢٢ ، والحاكم ١ / ٢٥ ، والبيهقي في الأسماء والصّفات ص ٤٣١ ، عن مالك بن نضلة رضي ا لله عنه .

[2] الأسماء والصّفات ص ٤٣١ .

قوّة الله أتمّ من قوّتك وقدرته أتمّ من قدرتك ، ويدلّ على ذلك المثال الّذي أتى به البيهقي عن بعض أهل النّظر فإنّ من قال : جمعت هذا المال بقوّة ساعدي ، له ساعدٌ هو موضع قوّة بالنّسبة له ، فاستعار لفظ العضو واستخدمه في جملة مراده بها قوّة التّدبير والرّأي ، فكذلك لله المثل الأعلى ، فالرّسول صلّى الله عليه وسلّم وإن كان أراد بالمعنى الإجمالي ماذكروه ، إلاّ أنّ ذلك يدلّ على أنّ لله تعالى ساعداً على الوجه الّلائق به سبحانه، وإثباته له عزّ وجلّ كسائر الصّفات ليس فيه غرابة ، وإنّما أُتي النّافي من توهُّمِه أنّ السّاعد يشبه ساعد المخلوق ، وأنّه لايمكن أن يكون يد ولاساعد ولا إصبع إلاّ كما يشاهده من المخلوق، وهذا منافٍ لمقتضى الإيمان والتّسليم لله ولرسوله صلّى الله عليه وسلّم ، إذْ ليس كمثله شيءٌ وهو السميع والبصير.

وإذْ قد تقرّر هذا فلا بدّ من الاشتراك في ألفاظ الأسماء الّتي تُضاف إلى الله صفاتاً له ، وبين ألفاظ الأسماء الّتي يُوصف بها العباد ، لأنّه لايمكن معرفة ماغاب عنّا إلاّ بمعرفة ماشهدناه ، فنعتبر بعقولنا الغائب بالشّاهد ، فلولا أنّا نجد من أنفسنا جوعاً وعطشاً وحباً وبغضاً ولذّة وألماً لم نعرف حقيقة مانُخاطب به إذا وُصف لنا ذلك وأخبَرَنا به غيرُنا ، ولو لم نعلم مافي الشّاهد من الحياة والقدرة والعلم والكلام لم نفهم مانُخاطَب به من ذلك في الغائب، فلابدّ فيما شهدناه وماغاب عنّا من قدر مشترك هو مسمّى اللّفظ ، وهذا بطبيعة الحال لايعني أنّ الألفاظ الشّرعية في المغيّبات لايُراد بها ظاهرها ، وإنّما مجرّد إيصال معنىً معيّن من النّص إلى المخاطَب لأنّا نقول : إنّ هذا لايناقض ولايعارض أن يكون النّص له معنىً عامٌ في الجملة ، وله معان جزئية هي معاني الألفاظ ، وبذلك فإنّ الحديث يدلّ على أنّ لله تعالى ساعداً يليق به عزّ وجلّ ، كما يدلّ باللّازم على أنّ قوّة الله تعالى وقدرته أتمّ وأعظم ، وأمّا الاكتفاء بالمعنى الإجمالي فقط ، فهو هروبٌ وحَيْدَةٌ عن التزام مايدلّ عليه النّص النّبوي على صاحبه الصّلاة والسلام ، والله أعلم .

المبحث السّابع عشر : عقيدته في صفة السّاق

ساق ابن حبّان حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في رؤية المؤمنين ربّهم يوم القيامة وفيه (... **فيأتيهم الجبّار لاإله إلا هو فيقول : أنا ربّكم فلا يكلّمه إلاّ نبيّ فيُقال : هل بينكم وبينه آيةٌ تعرفونها ؟ فيقولون : السّاق، فيكشف عن ساقٍ فيسجد له كلّ مؤمن، ويبقى من كان يسجد له رياءً وسمعةً فيذهب يسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً** ...) ، ثمّ قال ابن حبّان بعده : " السّاق : الشدّة " [١] .

تعليق:

هذا الحديث صحيحٌ مخرّج في الصحيحين وغيرهما من دواوين السّنّة، وقد فسّر بعض الأئمّة الكشف عن السّاق في هذا الحديث : بأنّه كنايةٌ عن الأهوال والشّدائد ، واستدلّوا بما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى : ﴿ **يوم يُكشف عن ساقٍ ويدعون إلى السّجود فلا يستطيعون** ﴾ : **القلم ٤٢**[٢].

إلاّ أنّ الأمر في هذا الحديث مختلف ، ذلك أنّه بالنّظر إلى روايات الحديث يتّضح أنّ لفظ الساق جاء مجرّداً عن الإضافة كما في رواية ابن حبّان، وجاء من بعض الطّرق مضافاً إلى الله سبحانه ، وهو مخرّجٌ في صحيح البخاري ،[٣] وأخرجها كذلك من حديث ابن مسعود عبدالله بن أحمد بن حنبل في كتاب السّنّة [٤] وابن مندة في كتاب التّوحيد [٥] وكذلك جاء في بعض الروايات أنّ المراد بالكشف هو تجلّي الله لعباده ،كما ورد في حديث

---

[١] الإحسان ١٦ / ٣٨٢ ، وحديث أبي سعيد أخرجه أيضاً البخاري في التّوحيد باب ﴿ وجوة يومئذٍ ناضرة ﴾ ، ومسلم في الإيمان باب معرفة طريق الرّؤية .

[٢] انظر تفسير الطّبري ١٢ / ١٩٧ .

[٣] كتاب التّوحيد باب قول الله ﴿ وجوة يومئذٍ ناضرة ﴾ .

[٤] السّنّة ٢ / ٥٢٢ .

[٥] التّوحيد ٣ / ١٢٠ .

أبي هريرة عند ابن أبي عاصم (... **فيتجلّى لهم يضحك** ...)[١] ، ومثله عن أبي موسى الأشعري [٢] .

وإذا كان كذلك فينبغي أن تُحمل الرّوايات بعضها على بعض ، فيتّضح أنّ المراد بالكشف عن السّاق في الحديث هو الكشف عن ساقه سبحانه وتعالى ، ومنه نعرف أنّ لله تعالى ساقاً على ماأثبته له نبيّه صلّى ا لله عليه وسلّم بلا كيف ، بل كمايليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه وبذاته المقدّسة العليّة .

وأمّا ابن حبّان ، فقد ذهب إلى مارأيت ، فلا أدري هل غابت عنه رواية الصّحيح أم أنّها لم تصحّ عنده ـ وهذا بعيد ـ فا لله أعلم .

وأمّا المخالفون لأهل السّنّة فقد أنكروا هذه الصّفة لله تعالى ، وفرحوا وطاروا بتفسير ابن عبّاس للآية فأمضوه على الحديث ولكنّ ا لله لم يتمّ لهم ذلك لأنّ الحديث له رواياتٌ صريحةٌ في إضافة السّاق إلى ا لله تعالى تمنع صحّة التفسير الّذي ذكروه للحديث .

وأمّا الآية فقد اختُلِف في دلالتها على الصّفة فجاء عن ابن عباس أنّه الهول والشدة ، وجاء عن أبي سعيد رضي ا لله عنه تفسيرها بالصّفة .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه ا لله : (تنازعوا في قوله تعالى : ﴿ **يوم يُكشف عن ساق** ﴾ ، فرُوي عن ابن عبّاس وطائفة أنّ المراد به الشّدّة ، إنّ ا لله يكشف عن الشّدّة في الآخرة ، وعن أبي سعيد وطائفة أنّهم عدّوها في الصّفات ، للحديث الّذي رواه أبو سعيد في الصّحيحين .

ولاريب أنّ ظاهر القرآن لايدلّ على أنّ هذه من الصّفات ، فإنّه قال : ﴿ **يوم يُكشف عن ساق** ﴾ ، نكرة في الإثبات لم يضفها إلى ا لله ، و لم يقل عن ساقه ، فمع عدم التّعريف بالإضافة لايظهر أنّه من الصّفات إلاّ بدليل آخر)[٣] .

---

[١] السّنّة لابن أبي عاصم ١ / ٢٨١ ، وصحّحه الألباني .

[٢] الشّريعة للآجرّي ص ٢٢٢ .

[٣] الفتاوى ٦ / ٣٩٤ ـ ٣٩٥ .

إذن فاللّفظة بمجرّدها لاتدلّ على الصّفة ، ولكن بتأمّل التّركيب والسّياق وتدبّر المعنى المقصود ، يتبيّن أنّ المراد هو نفس ماحكاه النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم من أمر يوم القيامة، وقد جاء تفسيرها صريحاً بالحديث في رواية أبي موسى الأشعري رضي ا لله عنه ، حيث جاء فيه بعد ذِكرِ السجود (... فذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ **يوم يُكشف عن ساقٍ ويُدعوْن إلى السّجود فلا يستطيعون** ﴾)[1] ،فعاد الحديث إذن حجّةً عليهم في تفسير القرآن ، ومن المعلوم أنّ أولى مايُفسّر به القرآن ،هو القرآن والسّنّة ، قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للنّاس مانُزّل إليهم** ﴾ : **النّحل ٤٤** ،وماذكره أهل البدع من إنكار صفة السّاق وتأويلها بالشّدّة والهول أو بالنّفس فكلّ ذلك لايرتقي إلى أن يكون علماً ينقل أو شبهة تُرد بل الإعراض عنه أولى لمخالفته صريح السّنّة وظاهر القرآن [2] ، ومع هذا فلا نستطيع الجزم بأنّ ابن حبّان ينكر صفة السّاق لله تعالى ، لأنّه تعرّض فقط لتفسير الحديث ، وربّما استدلّ بما روي عن ابن عبّاس في تفسير الآية ، لكنّ الحديث يختلف عن الآية ، حيث ورد من روايات الصّحيح المقيّدة ، ما يزيل الإشكال عن الرّوايات المطلقة ، وا لله تعالى أعلم .

---

[1] الشّريعة للآجرّي ص ٢٢٢ .

[2] انظر الأسماء والصّفات للبيهقي ص ٤٣٥ - ٤٣٩ .

المبحث الثّامن عشر : عقيدته في رؤية المؤمنين ربّهم في الآخرة

مسألة رؤية الله في الآخرة من المسائل الّتي أنكرها المعتزلة ومن سار على منهجهم من الخوارج والشّيعة وغيرهم ، معتمدين في ذلك على شبهٍ كلاميّة ، ونصوص عامّة تكلّفوا في توجيهها لصالح أهوائهم .

ومن أهمّ مااستدلّوا به ، قوله تعالى : ﴿ **لاتدركه الأبصار** ﴾ **:الأنعام ١٠٣**، وقوله تعالى : ﴿ **ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه قال ربِّ أرني انظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني**﴾ **: الأعراف ١٤٣.**

وأمّا أهل السّنّة فقد أثبتوا رؤية المؤمنين ربّهم يوم القيامة ، جاءت بذلك النّصوص الصّريحة من الكتاب والسّنّة ، وقد أورد بعضها ابن حبّان ، واستدلّ بها على منهج أهل السّنّة ، قال رحمه الله : " ذكر البيان بأنّ رؤية المؤمنين ربّهم في المعاد ، من الزّيادة الّتي وعد الله جلّ وعلا عباده على الحسنى الّتي يعطيهم إيّاها " ، ثمّ ساق حديث صهيب رضي الله عنه قال : تلا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هذه الآية : ﴿ **للّذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ ، وقال : (**إذا دخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النّار النّار ، نادى منادٍ : يا أهل الجنّة إنّ لكم عند الله موعداً يريد أن يُنجزكموه ...فيكشف الحجاب فينظرون إليه ...**)[1] .

وقال أيضاً : " ذكر الخبر المدحض قول من زعم أنّ رؤية المؤمنين ربّهم في المعاد إنّما هي بقلوبهم دون أبصارهم " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة أنّ ناساً قالوا : يارسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة ؟ قال : (**هل تُضارّون في رؤية الشّمس في يومٍ صائف والسّماء مصحية غير متغيّمة ، ليس فيها سحابة ؟قالوا : لا ، قال : فهل تُضارّون في رؤية القمر ليلة البدر والسّماء مصحية غير متغيّمة ليس فيها سحابة ؟ قالوا : لا ، قال : فوالّذي نفسي**

[1] الإحسان ١٦ / ٤٧١ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الإيمان باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربّهم .

بيده كذلك لاتُضارّون في رؤية ربّكم يوم القيامة ، كمالاتُضارّون في رؤية واحدٍ منهما ...)[1].

وقال أيضاً : " هذه الأخبار في الرّؤية يدفعها من ليس العلم صناعته ، وغير مستحيل أنّ الله جلّ وعلا يمكّن المؤمنين المختارين من عباده من النّظر إلى رؤيته* ـ جعلنا الله منهم ـ حتّى يكون فرقاً بين الكفّار والمؤمنين ، والكتاب ينطق بمثل السّنن الّتي ذكرناها سواء ، قوله جلّ وعلا : **{ كلاّ إنّهم عن ربّهم يومئذٍ لمحجوبون }** ،فلمّا أثبت الحجاب عنه للكفّار ، دلّ ذلك على أنّ غير الكفّار لايُحجبون عنه ، فأمّا في هذه الدّنيا فإنّ الله جلّ وعلا خلق الخلق فيها للفناء ، فمستحيلٌ أن يرى بالعين الفانية الشّيء الباقي [2] ، فإذا أنشأ الله الخلق وبعثهم من قبورهم للبقاء في إحدى الدّارين ، غير مستحيل حينئذٍ أن يرى بالعين الّتي خُلقت للبقاء في الدّار الباقية الشّيء الباقي ، لا ينكر هذا الأمر إلاّ من جهل صناعة العلم ، ومنع بالرّأي المنكوس ، والقياس المنحوس "[3] .

تعليق :

هذا الّذي ذكره ابن حبّان هو مذهب أهل السّنّة ، والأدلّة على صحّته كثيرة ، منها قوله تعالى : **{ كلاّ إنّهم عن ربّهم يومئذٍ لمحجوبون }** : **المطفّفين ١٥** ـ قال ابن جرير : (والصّواب أن يُقال : هم محجوبون عن رؤيته وكرامته)[4] .

وقوله : **{ للّذين أحسنوا الحسنى وزيادة }** : **يونس ٢٦**، وقد فسّرها النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالرّؤية في حديث صهيب المتقدّم .

وقوله تعالى : **{ وجوهٌ يومئذٍ ناضرة ، إلى ربّها ناظرة }** : **القيامة ٢٢،٢٣** قال ابن جرير : (وأولى الأقوال بالصّواب أنّها تنظر إلى خالقها ، وبذلك جاء الخبر

---

[1] الإحسان ١٦/ ٤٧٨ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في التّوحيد باب قول الله **{ وجوه يومئذٍ ناضرة }** ، ومسلم في الزّهد والرّقائق ، ح٢٩٦٨ .

[2] قوله : (فمستحيلٌ أن يرى بالعين الفانية الشّيء الباقي) معارض بما ثبت أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم رأى الجنّة والنّار بعينه الفانية ، والجنّة والنّار باقيتان .

[3] الإحسان ١٦ / ٤٧٧ ، والظّاهر أنّ العبارة (... ومُني بالرّأي المنكوس ...) لأنّه كرّرها في غير موضع .

[4] تفسير ابن جرير ١٢ / ٤٩٢ .

* العبارة فيها تكرار ، ولعلّ الصّواب : (من النّظر إليه) .

الخبر عن رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم)[١] ، وقال شارح الطّحاويّة : (وإضافة النّظر إلى الوجه الّذي هو محلّه في هذه الآية ، وتعديته بأداة (إلى) الصّريحة في نظر العين ، وإخلاء الكلام من قرينةٍ تدلّ على خلاف حقيقته وموضوعه ، صريحٌ في أنّ ا لله أراد بذلك نظر العين الّتي في الوجه إلى الرّبّ جلّ جلاله ، فإنّ النّظر له عدّة استعمالات بحسب صِلاته وتعدّيه بنفسه ، فإن عُدّي بنفسه فمعناه التّوقّف والانتظار كقوله : ﴿ **انظرونا نقتبس من نوركم**﴾ ، وإن عُدّي بـ (في) فمعناه : التّفكّر والاعتبار ، كقوله : ﴿ **أولم ينظروا في ملكوت السّماوات والأرض** ﴾ ، وإن عُدّي بـ (إلى) فمعناه المعاينةبالأبصار ، فكيف إذا أُضيف إلى الوجه الّذي هو محلّ البصر)[٢] .

ومن السّنّة حديث أبي هريرة المتقدّم ، وحديث جرير بن عبدا لله وفيه (**إنّكم سترون ربّكم كما ترون هذا القمر ...**)[٣] .

ولا يوجد في أدلّة العقول ما يمنع أو يُحيل رؤية المؤمنين ربّهم جلّ وعلا ، إذ كلّ موجود جائزٌ رؤيته .

وأمّا الأدلّة الّتي استدلّوا بها فقد فسّرها لهم أهل السّنّة ، فقوله تعالى : ﴿ **قال لن تراني** ﴾ المراد منه في الدّنيا بدليل أنّه جلّ وعلا ، علّل ذلك بضعف قدرة موسى على ذلك ، وأراه كيف أنّ الجبل لم يثبت لمّا تجلّى له ربّه ، فكيف بالإنسان الضّعيف ، وأمّا في الآخرة فإنّ ا لله يبدّل المؤمن وصفاته بحيث يقوى على رؤيته جلّ وعلا ، و لم يقل ربّنا تعالى لموسى إنّ ذلك محال ، و لم يؤنّبه على طلبه ، ولو كان ذلك مستحيلاً لأجابه كما أجاب نوحاً لمّا طلب منه أن ينجّي ابنه : ﴿ **فلاتسألْنِ ما ليس لك به علم إنّي أَعِظُك أن تكون من الجاهلين** ﴾ : **هود ٤٦** ، فلمّا لم يكن من ذلك شيءٌ تبيّن أنّ رؤيته جائزة ولكن ليس في دار الدّنيا .

وأمّا قولهم : إنّ (لن) في اللّغة للتّابيد فقد ردّه ابن مالك في الكافية :

---

[١] التّفسير ١٢ / ٣٤٤ .

[٢] شرح الطّحاويّة ١ / ٢٠٩ ، وانظر الاعتقاد للبيهقي ص ٧٤ ، والإبانة للأشعري ص ٦٥ .

[٣] أخرجه البخاري في التّوحيد باب قول ا لله ﴿ **وجوه يومئذٍ ناضرة** ﴾ وانظر في أدلّة الرّؤية حادي الأرواح لابن القيّم ص ٢٠٤ وما بعدها .

ومن رأى النّفي بلن مؤبّدا فقوله اردد وخلافه اعضدا [1]

قال في شرح الطّحاويّة : (وأمّا دعواهم تأبيد النّفي بـ (لن) وأنّ ذلك يدلّ على نفي الرّؤية في الآخرة ، ففاسد ، فإنّه لو قُيّدت بالتّأبيد لايدلّ على دوام النّفي ، فكيف إذا أُطلقت ، قال تعالى : ﴿ **ولن يتمنّوه أبدا** ﴾ : **البقرة ٩٥**، مع قوله : ﴿ **ونادوا يـٰملك ليقض علينا ربّك** ﴾ : **الزّخرف ٧٧** ، ولأنّها لو كانت للتّأبيد المطلق ، لما جاز تحديد الفعل بعدها ، وقد جاء ذلك ، قال تعالى : ﴿ **فلن أبرح الأرض حتّى يأذن لي أبـي** ﴾ : **يوسف ٨٠**، فثبت أنّ (لن) لاتقتضي النّفيَ أبداً)[2] .

وأمّا استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ **لاتدركه الأبصار** ﴾ : **الأنعام ١٠٣**، فبعيد ، لأنّ المنفي هنا الإدراك ، وهو أعمّ من الرّؤية ، قال شارح الطّحاويّة : (المعنى أنّه يُرى ولايُدرك ، فقوله : ﴿ **لاتدركه الأبصار** ﴾ يدلّ على كمال عظمته وأنّه أكبر من كلّ شيء ، وأنّه لكمال عظمته لايُدرك بحيث يُحاط به ، فإنّ الإدراك هو الإحاطة بالشّيء ، وهو قدرٌ زائد على الرّؤية ، كما قال تعالى : ﴿ **فلمّا تراءى الجمعان قال أصحـاب موسى إنّا لمُدركون** ﴾ فلم ينفِ موسى الرّؤية ، وإنّما نفى الإدراك، فالرّؤية والإدراك كـلٌّ منهما يُوجد مع الآخر وبدونه ، فالرّبّ تعالى يُرى ولا يُدرك كما يُعلم ولا يُحاط به علماً ، وهذا هو الّذي فهمه الصّحابة والأئمّة من الآية)[3] .

وأمّا قولهم إنّ العقول تحيل ذلك ، فيُقال : أيّ عقول ؟ أهي عقولنا أم عقولكم أم عقول من ؟ ، فإنّ العقول تختلف في مداركها ، وما ينفيه عقلٌ يثبته عقلٌ آخر ، فالمرجع في ذلك كلّه إلى الكتاب والسّنّة فما صحّ فيهما فهو الصّحيح في العقول السّليمة ، قال عثمان بن سعيد الدّارمي : (وجدنا المعقول عند كلّ حزبٍ ماهم عليه ، والمجهول عندهم ما خالفهم ، فوجدنا فرقكم معشر الجهميّة في المعقول مختلفين ، كلّ فرقة منكم تدّعي أنّ المعقول

[1] متن الكافية الشّافية لابن مالك ص ٨٦ .

[2] شرح الطّحاويّة ١ / ٢١٤ .وحادي الأرواح ص ٢٠٥ .

[3] شرح الطّحاويّة ١ / ٢١٥ .و انظر الفصل لابن حزم ٣ / ٢، وحادي الأرواح لابن القيّم ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

عندها ما تدعو إليه ، فحين رأينا المعقول اختلف منّا ومنكم ومن جميع أهل الأهواء ، ولم نقف على حدٍّ بيّن في كلّ شيء ، رأينا أرشد الوجوه وأهداها أن نردّ المعقولات كلّها إلى أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وإلى المعقول عند أصحابه المستفيض بين أظهرهم ، لأنّ الوحي كان ينزل بين أظهرهم ، فكانوا أعلم بتأويله منّا ومنكم وكانوا مؤتلفين في أصول الدّين لم يفترقوا فيه ، فالمعقول عندنا ما وافق هديهم ، والمجهول ما خالفهم ولا سبيل إلى معرفة هديهم وطريقتهم ، إلاّ هذه الآثار وقد انسلختم منها وانتفيتم منها بزعمكم فأنّى تهتدون)[1] .

وبذا يتبيّن أنّ ابن حبّان وافق ما عليه أهل السّنّة والجماعة في هذه المسألة ، والله أعلم بالصّواب .

---

(1) الرّدّ على الجهميّة للدّارمي ص ٥٧ ، بتصرّف .

المبحث التّاسع عشر : عقيدته في إطلاق الحـــد لله تعالى

قال ابن حبّان رحمه الله في مقدّمـة كتابه الثّقـات : " الحمـد لله الّـذي ليس له حدٌّ محدودٌ فيُتوى " [١] .

وقد تقدّم في ترجمة ابن حبّان، قول يحي بن عمّار الواعظ[٢] في ابن حبّان : " نحن أخرجناه من سجستان ، كان له علمٌ كثير و لم يكن لـه كبير دين، قدم علينا ، فأنكر الحدّ لله فأخرجناه " [٣] .

تعليق:

دأب أهل البدع على تغليف بدعهم بألفاظ لاتدلّ على مـايرمون إليـه، فنراهم يحرّفون الكلم عن مواضعه ويسمّونه تأويلاً، وينكرون العلوّ والاستواء ويسمّون ذلك نفياً للجهة والتحيّز ، وينفون التبعّض والتجزّؤ ويريدون بذلـك نفي صفات الله تعالى، فيقع كثيرٌ من النّاس في شراكهم ويقلّدهم حمـلاً للّفـظ على ظاهره دون تمحيصٍ لما يريدون .

والواقع كما قال شيخ الإسلام ابن تيميّة : (أنّهم أتوا بألفاظ ليست في الكتـاب والسّـنّة وهـي ألفـاظٌ مجملـة مثـل : التحيّز ، ومحـدود ، وجســم ، ومركّب ، ونحـو ذلـك ونفـوا مدلولهـا، وجعلـوا ذلـك مقدّمـة بينهـم مسلّمة ومدلولاً عليها بنوع قياس ، والصّواب ماعليه أئمّةالهدى وهو أن يُوصـف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلّى الله عليه وسلّم [٤] ، ولا يتجاوز القرآن والحديث، ويتّبع في ذلك سبيل السّلف الماضين وأهل العلـم والإيمـان ، والمعاني المفهومة من الكتاب والسّنّة لاتُردّ بالشّبهات، فتكون من باب تحريف

---

[١] الثّقات ١ / ١ ، ويُتوى أي : يُهلك ويُقضى عليه ، تهذيب اللّغة ١٤ / ٣٤٩ .

[٢] يحيى بن عمّار بن يحيى بن عمّار العنبسي الإمام المحدّث الواعظ شيخ سجستان أبو زكريّا الشّيباني النّيهي ، قـال عنـه الذّهبي : كان متحرّقاً على المبتدعة والجهميّة بحيث يؤول به ذلك إلى تجاوز طريقة السّلف ، وقد جعل الله لكلّ شيءٍ قدراً إلاّ أنّه كان له جلالة عجيبة بِهَراة وأتباع وأنصار ، توفّي سنة ٤٢٢هـ السّير ١٧ / ٤٨١ .

[٣] السّير ١٦ / ٩٧ .

[٤] كلّ ماوصف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم به ربّه تعالى فهو في الحقيقة ليس من عنده وإنّما هو عن الله تعالى ، لأنّ صفات الله في الحقيقة لايعلمها إلاّ الله وحده ﴿ **وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحى** ﴾ .

الكلم عن مواضعه، ولايُعرض عنها فيكون من باب الّذين إذا ذُكّروا بآيات ربّهم يخرّون عليها صمّاً وعمياناً) [1] .

وقال أيضاً : (فالسّلف والأئمّة لم يكرهوا الكلام لمجرّد مافيه من الاصطلاحات المولّدة كلفظ الجوهر والعرض والجسم، بل لأنّ المعاني الّتي يعبّرون عنها بهذه العبارات فيها من الباطل المذموم في الأدلّة والأحكام مايجب النّهي عنه ، لاشتمال هذه الألفاظ على معاني مجملة في النّفي والإثبات، كما قال الإمام أحمد في وصفه لأهل البدع : هم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متّفقون على مخالفة الكتاب ، يتكلّمون بالمتشابه من الكلام ، ويلبّسون على جهّال النّاس بما يتكلّمون به من المتشابه .

فإذا عُرفت المعاني الّتي يقصدونها بأمثال هذه العبارات، ووُزنت بالكتاب والسّنّة، بحيث يثبت الحقّ الّذي أثبته الكتاب والسّنّة، ويُنفى الباطل الّذي نفاه الكتاب والسّنّة كان ذلك هو الحق، بخلاف ماسلكه أهل الأهواء من التكلّم بهذه الألفاظ نفياً وإثباتاً ، في الوسائل والمسائل من غير بيان التّفصيل والتّقسيم الّذي هو الصّراط المستقيم، وهذا من مثارات الشّبه)[2].

وإذا كان كذلك فلفظ **الحد** ، من الألفاظ الّتي لم تأت في الكتاب والسّنّة فيُنظر إلى من أثبته ماذا أراد به، ومن نفاه ماذا نفى فيه .

وقد رُوي الإثبات عن بعض السّلف ، وهو مرويٌ عن عبدا لله بن المبارك أنّه سُئل : (كيف نعرف ربّنا ؟ قال : في السّماء السّابعة على عرشه، فقلت : فإنّ الجهميّة تقول هو هذا، قال : لانقول كما قالت الجهميّة نقول : هوهو : قيل بحدّ ؟ قال : إي وا لله بحدّ) [3] .

ورُوي عن الإمام أحمد أنّه قال وذكر عنده قول ابن المبارك : (هكذا هو عندي،)[4] .

---

(1) مختصراً من الفتاوى ١٣ / ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .

(2) الفتاوى ٣ / ٣٠٧ .

(3) الأسماء والصّفات للبيهقي ص ٥٣٨ .

(4) مسائل الإمام أحمد ١ / ٣٤٢ .

كما رُوي عنه أيضاً نفيه [1] ، وهؤلاء الأئمّة إنّما أثبتوا الحدّ من حيث هو نفسه، فكل موجود ثابت له حدٌّ وغايةٌ وصفةٌ تليق به، ومانفوه إنّما أرادوا به نفي إحاطة الخلق به أن يحدّوه أو يصفوه على ماهو عليه حقيقة ، إلاّ بما أخبر به عن نفسه أو أخبر عنه رسوله صلّى الله عليه وسلّم .

فالحدُّ من حيث هو الصّفة ثابتٌ لله تعالى بل إنّ نفي الحد إنّما هو نفيٌ للوجود من أصله ، فإنّ كلّ موجودٌ له حد ، والمعدوم لاحدّ له ولاصفة ، وبمثل هذا الكلام ردّ الأئمّة كشيخ الإسلام والدّارمي على أهل البدع من الجهميّة وغيرهم، الّذين نفوا الحدّ عن الله تعالى ، وكان مقصودهم نفي أن يكون لله تعالى صفة أصلاً معلومة لدينا أو مجهولة ، ومن هذا الباب استشنع السّلف إنكار الحدّ لله تعالى .

والله أعلم بمراد ابن حبّان من نفي الحد، وإن كان المظنون به رحمه الله أن يكون مراده بنفي الحدّ إحاطة الخلق بكنهه وحقيقته ، وأمّا إن كان ينحى بالمعنى منحى أهل البدع فنفيه خطأ وهو خلاف منهج أهل السّنّة ، مع أنّ الأصل في مثل هذه الألفاظ الّتي لم تأت في الكتاب والسّنّة ما قاله الذهبي رحمه الله تعالى عند حكايته إنكار أهل سجستان على ابن حبّان : (قلت : إنكاركم عليه بدعة أيضاً والخوض في ذلك ممّا لم يأذن به الله، ولا أتى نصٌّ بإثبات ذلك ولابنفيه ، ومن حسن إسلام المرء تركه مالايعنيه ، وتعالى الله أن يُحدّ أو يُوصف إلاّ بما وصف به نفسه، أو علّمه رسله بالمعنى الّذي أراد بلا مثل ولاكيف ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾)[2] .

وأمّا من نفى الحد من أهل البدع فإنما أرادوا به نفي الصّفات وإنكارها وأتوا على ذلك بشبهة إنكار الحدّ لله ولبّسوا على العوام ودلّسوا عليهم، كما سمّوا شركهم توحيداً ، وسمّوا نفي الصّفات تنزيهاً ، ونفي الصّفات هو مذهب أهل البدع من الجهميّة وغيرهم، وإذا كان مرادهم نفي الصّفات فإنّ إنكارهم الحدّ بهذا المعنى خطأٌ وبدعةٌ وضلالةٌ ، والواجب الإنكار عليهم والتّفصيل في

(١) طبقات الحنابلة ١ / ٢٩ .

(٢) السّير ١٦ / ٩٧ - ٩٨ .

معاني الألفاظ حتّى يُعرف الحقُّ من الباطل ، والهدى من الضّلال ... والله أعلم بالصواب .

المبحث العشرون : عقيدته في إطلاق الشكر من الله لعباده

الشّكر لغة : عرفان الجميل ونشره ، ولايكون إلاّ عن يد ، ومن الله المجازاة والثّناء الجميل .[1]

قال القرطبي رحمه الله في الفرق بين الحمد والشّكر : (الصّحيح أنّ الحمد ثناءٌ على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان ، والشّكر ثناءٌ على المشكور بما أولى من الإحسان)[2]، وقال : (وأمّا الشّكر فهو في اللّغة الظّهور، وحقيقته الثّناء على الإنسان بمعروفٍ يوليكه)[3] .

لكنّ قول القرطبي فيه قصور فإنّه قصر الشّكر على الثّناء وهو باللّسان مع أنّ الشّكر يكون بالعمل والجوارح أيضاً كما قال تعالى : ﴿ **اعملوا آل داود شكراً** ﴾ : **سبأ ١٣**، قال ابن كثير رحمه الله : (اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخّرين أنّ الحمد هو الثّناء بالقول على المحمود بصفاته اللّازمة والمتعدّية ، والشّكر لايكون إلاّ على المتعدّية ويكون بالجنان واللّسان والأركان)[4] .

واتّفق عموم المسلمين أنّ على العبد أن يشكر الله تعالى على ماأسدى إليه من النّعم ، قال تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولاتكفرون**﴾ : **البقرة١٥٢** ، وقال: ﴿ **فكلوا ممّا رزقكم الله حلالاً طيّباً واشكروا نعمة الله** ﴾ : **النّحل ١١٤** ، وقال : ﴿ **كلوا من رزق ربّكم واشكروا له** ﴾ : **سبأ ١٥**.

كما أنّه من أسماء الله عزّ وجلّ الشّاكر والشّكور ، ولم أر فيما وقفت عليه من المصادر كلاماً لأهل البدع حوله ، إلاّ أنّ ابن حبّان رحمه الله كان له رأي في إطلاق الشّكر من الله تعالى ، حيث ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (**بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطّريق**

---

[1] القاموس ٢/٩٠، وانظر تهذيب اللّغة ١٠ / ١٢ .

[2] الجامع لأحكام القرآن ٩٤/١.

[3] الجامع ٢٧٠/١ .

[4] التّفسير٢٤/١ .

فأخذه فشكر ا لله له فغفر له) ، ثمّ قال : " ا لله جلّ وعلا أجلّ من أن يشكر عبيده ، إذ هو البادىء بالإحسان إليهم والمتفضّل بإتمامها عليهم ، ولكنّ رضى ا لله بعمل العبد عنه يكون شكراً من ا لله جلّ وعلا على ذلك الفعل "[1] .

وكأنّ ابن حبّان رحمه ا لله فهم من كون الشّكر لايكون إلاّ عن يد من المشكور ، أنّ ذلك لايجوز في حقّ ا لله لأنّـه سبحانه وتعالى يُطعم ولايُطعَم ويُنعم ولايُنعَم عليه ، وهذا المعنى حقّ ولكنّ العلماء ذكروا أنّ معنى الشّكر من ا لله تعالى الجزاء على العمل الصّالح من باب الثّواب والإنعام والتّفضّل لامن باب جزاء المعروف كما يشكر المخلوق المخلوق .

قال البيهقي رحمه ا لله : (ومنها الشّاكر والشّكور ...قال الحليمي : الشّاكر معناه المادح لمن يطيعه والمثني عليه ، والمثيب له بطاعته فضلاً من نعمته ، والشّكور هو الّذي يدوم شكره ويعمّ كلّ مطيع وكلّ صغير من الطّاعة أو كبير)[2] .

وقال الطّبري رحمه ا لله في تفسير قوله تعالى : ﴿ **مايفعل ا لله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان ا لله شاكراً عليماً** ﴾ قال : (فإن أنتم شكرتم وآمنتم فلاحاجة به إلى تعذيبكم بل يشكر لكم مايكون منكم من طاعة له وشكر بمجازاتكم على ذلك بما تقصر عنه أمانيكم ...(وكان ا لله شاكراً) لكم ولعباده على طاعتهم إيّاه بإجزاله لهم الثّواب عليها ، وإعظامه لهم العوض منها)[3] .

وقال ابن كثير رحمه ا لله في تفسير قوله تعالى : ﴿ **فإنّ ا لله شاكر عليم** ﴾ : أي يثيب على القليل بالكثير)[4] ،قال القرطبي رحمه ا لله : (وشكر ا لله للعبد إثابته على الطّاعة)[5] .

---

(1) الإحسان ٢٩٦/٢ .

(2) الأسماء والصّفات ٩١ .

(3) تفسير الطّبري ٣٣٨/٤ .

(4) التّفسير ١ / ٢٠٦ .

(5) الجامع ١٢٣/١.

وقد بحثت في كتب المقالات عمّن قال مثل ما قال ابن حبّان فلم أجد ، فلعلّه اجتهاد منه غفر الله له ، فإنّ الشّاكر والشّكور ليسا بمعنى الرّضا بل هو أعمّ فإنّ الله يشكر العبد أحياناً بأن يرضى عليه كما يثيب أهل الجنّة يوم القيامة ، وقد يكون الشّكر بأمر زائد عن الرّضا ، والرّضا قرين الشّكر ولاشكّ ، فلايشكر الله إلاّ عن رضاً بالعمل ، إذ أنّه تعالى قد يثيب للكافر على ما يصنع من الخير رضاً بعمله ولكنّه لايرضى عن الكافرين .

وقد جانب ابن حبّان الصّواب في قوله هذا ، وليس في إثباته لاسمه تعالى الشّاكر أو أنّه يشكر العباد أيّ محذور شرعي أو عقلي ، ولا تماثل بين شكر الله لعبده وشكر العبد لربّه أو لمن أسدى إليه معروفاً ، لأنّ شكر العباد مبنيّ على المجازاة وردّ الجميل ، وأمّا الرّبّ سبحانه المنعم المتفضّل على عباده فشكره مجازاة العبد على طاعته وإثابته له ، وفرقٌ بين مَن الفقر وصفٌ لازمٌ لذاته ، وبين من الغنى وصفٌ لازمٌ له سبحانه ، وأهل السّنّة يثبتون ما جاء عن الله ورسوله كما ورد بلا تعطيل ولا تمثيل ، والله سبحانه وتعالى أجلّ وأعلى من أن يُقاس على المخلوق ، والله أعلم .

المبحث الواحد والعشرون : رأيه في إطلاق الدّهر على الله

قال في القاموس : (الدّهر : قد يُعدّ في الأسماء الحسنى ، والزّمان الطّويل ، والأمد ، وألف سنة)[١] ، وقال ابن الأثير رحمه الله : (الدّهر اسم للزّمان الطّويل ومدّة الحياة الدّنيا)[٢] .

وقد جاء الشّرع بالنّهي عن سبّ الدّهر أو نسبة شيء من الحوادث له، إذ هو من مخلوقات الله تعالى ، والله هو الّذي يخلق فيه مايشاء ، فلايجوز أن يُنسب شيءٌ من الخير إليه فيُمدح ، أو أن يُنسب إليه شيءٌ من الشّرّ فيُذمّ .

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : (**لاتسبّوا الدّهر فإنّ الدّهر هو الله**)[٣]، وقال أيضاً فيما يرويه عن ربّه : (**يؤذيني ابن آدم يسبّ الدّهر وأنا الدّهر بيدي الأمر، أقلّب اللّيل والنّهار**)[٤] ،وقال تعالى : ﴿ **وقالوا ماهي إلاّ حياتنا الدّنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدّهر** ﴾ ، روى ابن جرير بإسناده عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : (**كان أهل الجاهليّة يقولون : إنّما يهلكنا اللّيل والنّهار وهو الّذي يهلكنا ويحيينا ويميتنا ، فقال الله في كتابه ﴿ وقالوا ماهي إلاّ حياتنا الدّنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدّهر ﴾ قال : فيسبّون الدّهر فقال الله تبارك وتعالى : يُؤذيني ابن آدم يسبّ الدّهر وأنا الدّهر بيدي الأمر أقلّب اللّيل والنّهار**)[٥] .

ومن أجل إطلاق لفظ الدّهر على الباري جلّ وعلا فقد قال بعض العلماء : إنّ الدّهر من أسمائه تعالى ، وإلى هذا ذهب الظّاهريّة وعلى رأسهم ابن حزم وهو مرويّ عن نعيم بن حمّاد وبعض أهل الحديث والتّصوّف ،

---

(١) القاموس المحيط ٢/٤٦

(٢) النّهاية ٢/١٤٤ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الألفاظ باب النّهي عن سبّ الدّهر عن أبي هريرة .

(٤) أخرجه البخاري في التّفسير باب سورة الجاثية و مسلم في كتاب الألفاظ باب النّهي عن سبّ الدّهر عن أبي هريرة .

(٥) التّفسير ١١/٢٦٤ ، وأوّل الحديث ليس من كلام النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بل هو من كلام سفيان بن عيينة كما هو عند ابن حبّان وغيره .

وذهب الجمهور إلى أن الدّهر لايُسمّى به ا لله تعالى ، وإنّما سيق الخبر لبيان أن ا لله هو الفاعل حقيقةً لكلّ ما يقع لابن آدم .

وقد ذهب ابن حبّان إلى نفي أن يكون الدّهر من أسماء ا لله تعالى ، قال رحمه ا لله : " ذِكرُ السّبب الّذي من أجله قال صلّى ا لله عليه وسلّم : (إنّ ا لله هو الدّهر) "، وساق حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**قال ا لله : يسبّ ابن آدم الدّهر وأنا الدّهر بيدي اللّيل والنّهار**)[1] .

وقال أيضاً :" ذكرُ خبر يصرّح بأنّ الدّهر يُنسب إلى ا لله جلّ وعلا على حسب الخلق دون أن يكون ذلك من صفاته جلّ ربّنا وتعالى عنه " وساق حديث سفيان بن عيينة قال : كان أهل الجاهليّة يقولون : إنّما يهلكنا اللّيل والنّهار وهو الّذي يهلكنا ويحيينا ويميتنا ، قال ا لله في كتابه: ﴿ **وقالوا ماهي إلاّ حياتنا الدّنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدّهر** ﴾ قال الزّهري عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة عن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم قال : (**يقول ا لله جلّ وعلا : يُؤذيني ابن آدم يسبّ الدّهر وأنا الدّهر بيدي الأمر أقلّب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما**)[2] .

تعليق :

وهذا الّذي ذهب إليه ابن حبّان هو الصّحيح ، وليس في الحديث مايدلّ على أنّه اسمٌ لله تعالى ، ولذلك قال عياض : (زعم بعض من لاتحقيق له أن الدّهر من أسماء ا لله)[3] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه ا لله : (فللنّاس في الحديث قولان معروفان لأصحاب أحمد وغيرهم : أحدهما :وهو قول أبي عبيد وأكثر العلماء أنّ هذا الحديث خرج الكلام فيه لردّ ما يقوله أهل الجاهليّة ومن أشبههم فإنّهم إذا أصابتهم مصيبة أو مُنعوا أغراضهم أخذوا يسبّون الدّهر والزّمان يقول أحدهم قبّح ا لله الدّهر الّذي شتّت شملنا ولعن ا لله الزّمان الّذي

---

[1] الإحسان ١٣ /٢٣ ، والحديث تقدّم تخريجه في الصّفحة السّابقة .

[2] الإحسان ٢٣/١٣ والحديث أخرجه البخاري ومسلم كما في الصّفحة السّابقة دون كلام ابن عيينة ويظهر به أنّ الطّبري أدرج كلام سفيان في الحديث ولاأدري هو منه أم ممّن روى عنهم وهم ثقات .

[3] الفتح ٥٦٦/١٠ .

جرى فيه كذا وكذا..[١] .وهم يقصدون سبّ من فعل تلك الأمور ويضيفونها إلى الدّهر فيقع السّبّ على الله تعالى لأنّه هو الّذي فعل تلك الأمور وأحدثها والدّهر مخلوق له ، والتّقدير: إنّ ابن آدم يسبّ من فعل هذه الأمور وأنا فعلتها فإذا سبّ الدّهر فمقصوده سبّ الفاعل ، وإن أضاف الفعل إلى الدّهر ، فالدّهر لافعل له.

والقول الثّاني قول نعيم بن حمّاد وطائفة معه من أهل الحديث والصّوفيّة : أنّ الدّهر من أسماء الله تعالى ، ومعناه القديم الأزلي ، ورووا في بعض الأدعية : يادهر يا ديهور ياديهار ، وهذا المعنى صحيح لأنّ الله سبحانه وتعالى هو الأوّل ليس قبله شيء وهو الآخر ليس بعده شيء فهذا المعنى صحيح إنّما النّزاع في كونه يُسمّى دهراً بكلّ حال) [٢] .

وقال البغوي رحمه الله : قوله : (فإنّ الله هو الدّهر : أي صاحب الدّهر ومدبّر الأمور المنسوبة إليه) [٣] ، وهوما ذهب إليه ابن حبّان رحمه الله ، والله تعالى أعلم .

---

[١] وقد تفنّن العامّة وأهل الشّعر في سبّ الدّهر كقول بعضهم : إبريل الأسود ، و(يوم زفت) أو (ساعة النّكد) أو (ظلم الأيّام) و (العصر الجائر) و(الزّمن الّذي لايرحم) وغير ذلك كثير ومردّ ذلك كلّه نسبة شيء من الحوادث للدّهر ومن ثمّ سبّه كأنّه الفاعل ، والله عزّوجلّ هو الفاعل وهو مقدّر مايكون في الزّمان ، والله المستعان.

[٢] الفتاوى٢/٥٩٣ .

[٣] شرح السّنّة ٣٥٧/١٢ .

(الفصل الخامس)

مسائل الإيمان والتّصديق عند ابن حبّان

..وفيه تمهيد وعشرون مبحثاً :

الأوّل : مذهبه في الإيمان الشّرعي .

الثّاني : في الفرق بين الإسلام والإيمان .

الثّالث : الاستثناء في الإيمان .

الرّابع : في زيادة الإيمان ونقصانه .

الخامس : في حكم مرتكب الكبيرة.

السّادس : في النّبوّة .

السّابع : في الإسراء والمعراج .

الثّامن : في عصمة الأنبياء .

التّاسع : في تعرّض النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم للسّحر.

العاشر : في كرامات الأولياء .

الحادي عشر : في رؤية النّبيّ ربّه في الدّنيا .

الثّاني عشر : في الإيمان بالعرش .

الثّالث عشر : في الإيمان بالمهدي .

الرّابع عشر : في الدّجّال.

الخامس عشر : في الإيمان بنزول عيسى .

السّادس عشر : في عذاب القبر .

السّابع عشر : في البعث .

الثّامن عشر : في الإيمان بالحوض.

التّاسع عشر : في الشّفاعة .

العشرون : في تارك الصّلاة .

الإيمان والتّصديق عند ابن حبّان

تمهيد :

مسألة الإيمان أو مسائل الإيمان والأسماء والوعد والوعيد من أهمّ المسائل الّتي وقع فيها النّزاع بين أهل القبلة، وثبت لأهل السّنّة فيها بحمدا لله قدمٌ راسخة ، ورأسٌ شامخة ، تعلن الحقّ وتصدع به في وجوه أهل البدعة والهوى ، الّذين كان دأبهم في هذا الباب كدأبهم في غيره من حيث الزّيغ عن الحقّ وتأويل النّصوص أو تحريفها إن لم يمكن ردّها، حتّى تشعّبت فيه أقوال أهل البدع وتنوّعت وتناقضت ، وحقيقٌ بها قول القائل:

سارت مشرّقةً وسرت مغرّباً   شتّان بين مشرّق ومغرّب

وأهل السّنّة بحمد ا لله في هذا الباب كما هم في كلّ شيء واسطةٌ بين طرفين، وعدلٌ بين نقيضين، بين أهل الغلوّ والشّطط، وبين أهل الجفاء والتّفريط ، وسوف يتبيّن ذلك إن شاء ا لله تعالى من خلال استعراض المسائل الّتي تعرّض لها ابن حبّان في باب الإيمان والتصديق .

والإيمان لغةً مصدرٌ مرادفٌ للتّصديق، قال الجوهري : (الإيمان: التّصديق)[1] .

وقال الأزهري : (اتّفق أهل العلم من اللّغويّين وغيرهم أنّ الإيمان معناه التّصديق ... قال ا لله حكايةً عن إخوة يوسف : ﴿ **ماأنت بمؤمن لنا** ﴾ ،لم يختلف أهل التّفسير أنّ معناه : وما أنت بمصدّق لنا) [2] . والتّصديق معروف ، ومسائل هذا الباب تدور حول تحديد الإيمان الشّرعي المطلوب من العباد وأهمّ هذه المسائل : دخول العمل في مسمّى الإيمان ، وزيادة الإيمان ونقصانه، الاستثناء في الإيمان ، وحكم مرتكب الكبيرة والشّفاعة، والفرق بين الإسلام والإيمان وغير ذلك، وكذلك يدخل فيه الإيمان بالغيب والأمور الّتي

---

(1) الصّحاح ٥ / ٢٠٧١ .

(2) تهذيب اللّغة ١٥/ ٥١٣ .

جاءت من طريق الشرع وليس للعقل مدخل في اثباتها : كالتّصديق بالبعث والجزاء، وعذاب القبر والعرش، وغير ذلك كثير .

ولن نتعرّض كما ذكرنا من قبل إلاّ للمسائل الّتي ذكرها ابن حبّان بنفيٍ أو إثبات أو تفسير أو تعليق ، والله حسبي وهو المستعان.

الإيمان الشّرعي ودخول العمل في مسمّاه وحقيقته

تمهيد:

الإيمان في كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يشمل كلّ ماهو قربةٌ لله عزّ وجلّ سواء كان مطلوباً من العبد على وجه الإلزام أو على وجه النّدب والاستحباب ، ولذلك فإنّ مذهب السّلف الصّالح من الصّحابة والتّابعين ومن تبعهم بإحسان أنّ الإيمان يشمل القول والعمل فهو قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالإركان ، هذا هو مذهبهم الّذي دلّ على صحته واعتباره عشرات النّصوص من الكتاب والسّنّة .

وأهل السّنّة في هذا الباب وسطٌ بين طائفتين غلت كلٌّ واحدة في طرفٍ من طرفي المسألة : وهما أهل الإرجاء على كافّة درجاتهم ، والمعتزلة والخوارج من جهة أخرى .

ومدار الخلاف بين هذه وتلك، وبين أهل السّنّة هو نظرتهم إلى العمل، هل هو داخلٌ في مسمّى الإيمان الشّرعي المطلوب من العباد أم لا ؟ وإذا كان داخلاً فما هي منزلته من الإيمان ؟ ومسائل العمل هي أغلب المسائل الّتي يدور حولها النّزاع في باب الإيمان .

وسأقدّم عرضاً موجزاً لمذهب أهل السّنّة ومذاهب المخالفين لنعرف مع ركب من سارت راحلة ابن حبّان .

مذهب أهل السّنّة في الإيمان وأنّه قولٌ وعمل

مذهب أهل السّنّة كما قدّمنا أنّ الإيمان في الشرع قولٌ باللسان واعتقادٌ بالقلب وعملٌ بالأركان ويدلّ على ذلك أدلّة من القرآن والسّنّة :

أمّا القرآن ، فمنه قوله تعالى : ﴿ **ماكنت تدري ماالكتاب ولا الإيمان**﴾ : **الشّورى ٥٢**، وقد ذكر المفسّرون في تفسير الآية ثلاثة أقوال في المراد بلفظ الإيمان، المشهور منها أنّ المراد مجمل شرائع الإسلام القوليّة والعمليّة ، قال ابن كثير : (أي على التّفصيل الّذي شُرع لك في القرآن) [(١)] ، وقال القرطبي رحمه الله : (أعلم أنّ العلماء اختلفوا في تأويل هذه الآية، فقال جماعة : معنى الإيمان شرائع الإيمان ومعالمه، وقيل تفاصيل الشّرع، ويجوز إطلاق الإيمان على تفاصيل الشّرع، قال أبو بكر القاضي : ولا الإيمان الّذي هو الفرائض والأحكام ، وقال ابن خزيمة في هذا الإيمان وجهان ... والثّاني أنّه دين الإسلام) [(٢)] .

ومنه قوله تعالى: ﴿ **ماكان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ : **البقرة ١٤٣** : اتّفق المفسّرون أنّ المراد بها صلاتهم إلى بيت المقدس [(٣)] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين وآتى المال على حبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السّبيل والسّائلين وفي الرّقاب وأقام الصّلاة وآتى الزّكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا** ﴾ : **البقرة ١٧٧** : فأدخل في البرّ سائر الأعمال القلبيّة والقوليّة والعمليّة وسمّى فاعل ذلك صادقاً ووصفه بالتّقوى .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ١٣١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٣٩ ـ ٤٠ ، بتصرّف يسير .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٧ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ : **الذّاريات ٥٦**، والعبادة كما ذُكر عن شيخ الإسلام : (اسم جامع لكلّ مايحبّه الله من الأعمال والأقوال الظّاهرة والباطنة)[١] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **إنّما المؤمنون الّذين آمنوا با لله ورسوله ثمّ لم يرتابوا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أولئك هم الصادقون** ﴾ : **الحجرات ١٥** .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **ألم أحسب النّاس أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لايُفتنون ولقد فتنّا الّذين من قبلهم فليعلمنّ الله الّذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين** ﴾ : **العنكبوت ١، ٢، ٣**، وآياتٌ كثيرةٌ غيرها لاتُعد .

وأمّا السّنّة فمنها قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**الإيمان بضعٌ وستّون أو بضعٌ وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لاإله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطّريق**)[٢] ،قال ابن حجر رحمه الله : (وهذه الشّعب تتفرّع عن أعمال القلب وأعمال اللّسان وأعمال البدن).[٣]

ومنها قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**الحياء من الإيمان**)[٤] ، ومنه قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**البذاذة من الإيمان**)[٥] .

ومنها قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**الطّهور شطر الإيمان**)[٦] .

ومنها قوله صلّى الله عليه وسلّم (**الإيمان الصّبر والسّماحة،**) و قيل له : أيّ الإيمان أفضل ؟ قال : (**خلق حسن**)[٧] .

---

[١] ذكره مؤلّف تيسير العزيز الحميد و لم يذكر المصدر ص٤٦ .

[٢] أخرجه البخاري في الإيمان باب أمور الإيمان بلفظ: (بضع وستّون) ، ومسلم في الإيمان بـاب عـدد شـعب الإيمـان وأفضلهـا وأدناها عن أبي هريرة رضي الله عنه .

[٣] الفتح ١ / ٦٨ .

[٤] أخرجه مسلم في الإيمان باب عدد شعب الإيمان .

[٥] أخرجه أبو داود في كتاب التّرجّل ح٤١٦١ وابن ماجة في الزّهد باب من لايُؤبـه بـه عـن أبي أمامـة رضـي الله عنـه وقـال : البذاذة التّقشّف ، وانظر السّلسلة الصّحيحة ح٣٤١ .

[٦] أخرجه مسلم في الطّهارة باب فضل الوضوء عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

[٧] أخرجه الإمام أحمد ٤ / ١١٤ ، وانظر السّلسلو الصّحيحة ٢ / ٨٣ .

ومنها قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**بُني الإسلام على خمس، شهادةِ أن لاإله إلا ا لله وأنّ محمداً رسول ا لله، وإقام الصّلاة، وإيتاءِ الزّكاة وحجّ البيت وصوم رمضان**)[1] ، وغير ذلك كثير من أدلّة السّنّة الّتي تنص نصّاً على أنّ الإيمان قولٌ وعقيدةٌ وعمل ،وهذا هو الّذي فهمه السّلف من الصّحابة ومن بعدهم من هذه النّصوص .

قال ابن مسعود وعلي بن أبي طالب رضي ا لله عنهما : (لاينفع قول إلاّ بعمل، ولا عمل إلاّ بقول ، ولا قولٌ وعملٌ إلا بنيّة، ولانيّةٌ إلاّ بموافقة السّنّة)[2] ، وقال الحميدي : (حدّثنا يحي بن سليم قال سألت سفيان الثّوري عن الإيمان فقال: قولٌ وعمل، وسألت نافع بن عمر الجمحي فقال : قولٌ وعمل، وسألت مالك بن أنس فقال: قول وعمل ،وسألت سفيان بن عيينة فقال: قول وعمل، وسألت جريجاً فقال: قولٌ وعمل، وسألت الفضيل بن عياض فقال: قولٌ وعمل، وقال الحميدي سمعت وكيعاً يقول : أهل السّنّة يقولون : قول عمل)[3] .

وقال الحسن رحمه ا لله: (ليس الإيمان بالتمنّي ولا بالتحلّي ولكن ماوقر في القلب وصدّقته الأعمال)[4] .

وقال أبو سلمة الخزاعي: (قال مالك وشريك وعبدالعزيز بن أبي سلمة وحمّاد بن سلمة وحمّاد بن زيد : الإيمان المعرفة والإقرار والعمل)[5] . وقال الأوزاعي: (كان من مضى من سلفنا لايفرّقون بين الإيمان والعمل والعمل والإيمان)[6] .

---

(1) أخرجه البخاري في الإيمان باب قول النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم بني الإسلام على خمس ، ومسلم في الإيمان باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام عن ابن عمر رضي ا لله عنهما .

(2) الإبانة الكبرى لابن بطّة ٢ / ٨٠٣ .

(3) الإبانة الكبرى ٢ / ٨٠٣ ـ ٨٠٤ .

(4) الإبانة الكبرى ٢ / ٨٠٥ .

(5) الإبانة الكبرى ٢ / ٨٠٦ .

(6) الإبانة الكبرى ٢ / ٨٠٧ .

وقال الشافعي رحمه الله : (وكان الإجماع من الصّحابة والتّابعين ومن بعدهم ممّن أدركناهم : أنّ الإيمان قولٌ وعملٌ ونيّة، لايجزىء واحد من الثّلاثة إلاّ بالآخر) [1] .

وقال البغوي : (اتّفقت الصّحابة والتّابعون فمن بعدهم من علماء السّنّة على أنّ الأعمال من الإيمان ...وقالوا : إنّ الإيمان قولٌ وعملٌ وعقيدة)[2] ، وقال البخاري رحمه الله : (كتبت عن ألف نفر من العلماء وزيادة، ولم أكتب إلاّ عمّن قال : الإيمان قول وعمل)[3] .

وقال الحافظ بن رجب : (المشهور عن السّلف وأهل الحديث أنّ الإيمان قولٌ وعمل ونيّة وأنّ الأعمال كلّها داخلةٌ في مسمّى الإيمان)[4] ، وغير ذلك أكثر من أن يُعدّ أو يحصى ، فالآثار عن السّلف في تقرير هذه المبدأ تشكّل إجماعاً لايسوغ مخالفته ، والفطرة والنّظر الصّحيح، تؤكد هذا، إذ كيف يتّفق قول أهل الإرجاء بأنّ العمل ليس من الإيمان أو هو غير لازمٍ له مع إرسال الرّسل وإنزال الكتب وتلك الصّراعات الفكرية والدّمويّة بين أنبياء الله وأتباعهم وبين الكفّار بشتّى مللهم ؟ ولو كان المراد مجرّد الكلمة لآتوها وماتلبّثوا بها إلاّ يسيراً، ولكنّهم علموا أنه قولٌ وعملٌ وجهاد وكفاح وحقوقٌ كثيرة ، ولذلك قال قوم شعيب له : ﴿ **أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا مانشاء** ﴾ : **هود ٨٧**، فقد عرفوا أنّ اعتناقهم لهذا الدّين يلزمهم بتصرّفات معيّنة حتّى في أموالهم، وهذا هو سبب رفضهم فقد عرفوا حقيقة الدين أكثر من بعض أهل الأهواء والبدع .

أمّا المخالفون في الباب فهم طائفتان:

الأولى : المرجئة [5] وهم أقسامٌ وفرقٌ كثيرة ، إلا أنّها ترجع إلى مرتبتين :

---

[1] شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة ٥ / ٨٨٦ .

[2] شرح السّنّة ١ / ٣٨ .

[3] شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة ٥/ ٨٨٩ .

[4] جامع العلوم والحكم ١ / ١٠٤ .

[5] المرجئة اسم فاعل من الإرجاء ، والإرجاء في اللّغة يأتي على معنيين الأوّل التّأخير والثّاني : إعطاء الرّجاء ، وبعض المتقدّمين كان يطلق اسم المرجئة على الّذين أخّروا عليّاً إلى المرتبة الرّابعة ، ومنهم من أطلقه على المرجئة بمعنى إعطاء الرّجاء لأصحاب

الأولى :مرتبة الفقهاء أو مرجئة السّنّة كما يُقال : وهم الّذين نازعوا في شمول لفظ الإيمان للأعمال ، وقالوا : إنّ الإيمان هو : التّصديق ، وهو شيءٌ واحد وأهله فيه سواء ، إلاّ أنّهم مع ذلك لم يهملوا جانب العمل ، بل عندهم نوع تعظيم له ، وهم أبوحنيفة النّعمان بن ثابت رحمه الله وأصحابه وقد أخذ أبوحنيفة ذلك عن حمّاد بن أبي سليمان[1] وقالوا : إنّ إيمان جميع المؤمنين لايتفاضل ولايزيد ولاينقص ، وإنّ الأعمال ثمرة له فقط .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة (وممّا ينبغي أن يُعرف أنّ أكثر التّنازع بين أهل السّنّة في هذه المسألة هو نزاعٌ لفظي، وإلاّ فإنّ القائلين بأنّ الإيمان قولٌ من الفقهاء يتّفقون مع الجماعة بأنّ أصحاب الذّنوب داخلون تحت المشيئة والذّم والوعيد)[2] .

المرتبة الثّانية : غلاة المرجئة الّذين اتّخذوا شعارهم (لايضرّ مع الإيمان معصية كما لاينفع مع الكفر طاعة) مطيّةً للخروج عن أحكام المّلة ، الذين غلوا حتّى قالوا بإيمان فرعون وأبي جهل بل وإبليس ، وهم الجهميّة ومن وافقهم على مذهبهم الرّديء وأقوال هؤلاء في الإيمان لايستقرّ بها قلب مسلم أبداً ، وأغلبهم ممّن أظهر القول بالجبر أيضاً ، ظلمات بعضها فوق بعض .

الطائفة الثانية : الخوارج والمعتزلة الّذين يتّفقون مع أهل السّنّة بأنّ الأعمال من الإيمان إلاّ أنّهم غلوا في ذلك حتّى حكموا على مرتكب الكبيرة بأنّه مخلّد في النّار ، وكفّره الخوارج في الدّنيا ، وقالت المعتزلة : هو في منزلة بين المنزلتين، وهؤلاء وأولئك مع تناقض مذاهبهم إلاّ أنّهم يتّفقون في أصل الشّبهة الّتي أدّت بهم إلى قولهم الرّديء ، وهو قولهم : (إنّ الإيمان شيءٌ واحد لايتبعّض إذا ذهب بعضه ذهب كله)، وبناءً عليه بنى كلٌّ مذهبه في طرف

الذّنوب ، ومنهم من أطلقه على المرجئة بمعنى تأخير العمل عن حقيقة الإيمان ، وعلى العموم فالمراد هنا بالمرجئة : الّذين يخرجون العمل من مسمّى الإيمان وحقيقته ، ويُسمّون المرجئة الخالصة ، انظر مقالات الإسلاميّين ١ / ٢١٣ ، الملل والنّحل ١ / ١٣٧ .

[1] فقيه العراق الإمام العلاّمة أبو إسماعيل بن مسلم الكوفي ، أصله من أصبهان ، كان أحد العلماء الأذكياء والكرام الأسخياء ، وهو أوّل من عرف عنه إرجاء الفقهاء ، توفّي سنة ١٢٠ هـ السّير ٥ / ٢٣١ .

[2] الفتاوى ٧ / ٢٩٧ .

بعيد ، وتوسّط أهل السّنّة كما هم في كلّ شيء ، لأنّهم لزموا الجادّة في علمهم وعملهم .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله: قول القائل : الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كلّه فهذا ممنوع ، وهذا هو الأصل الّذي تفرعت عنه البدع في الإيمان)[1] .

---

[1] الفتاوى ٧ / ٢٢٣ .

المبحث الأوّل : الإيمان عند ابن حبّان

إذا عُرف ماتقدّم فإنّ ابن حبّان قد أكّد مذهب أهل السّنّة واستدلّ له وناقش المخالفين فيه ، سائراً مع ركب السّلف الصّالح في أنّ الإيمان قول وعمل .

قال رحمه الله : " ذِكرُ البيان بأنّ الإيمان بكلّ ماأتى به النّبيّ صلى الله عليه وسلم من الإيمان مع العمل به " ، ثمّ ساق حديث ابن عمر رضي الله عنه مرفوعاً : (**أُمرت أن أقاتل النّاس حتّى يشهدوا أن لاإله إلا الله وأنّي رسول الله ، ويقيموا الصّلاة، ويؤتوا الزّكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّ الإسلام**) ، ثمّ قال : " ...في هذا الخبر بيانٌ واضح بأنّ الإيمان أجزاء وشعب تتباين أحوال المخاطَبين فيها ، لأنّه صلى الله عليه وسلم ذكر في هذا الخبر (حتّى يشهدوا أن لاإله إلا الله وأنّي رسول الله)... ثمّ قال: (ويقيموا الصّلاة)...ثمّ قال : (ويؤتوا الزّكاة) ، فدلّ ذلك على أنّ كلّ شيءٍ من الطّاعات الّتي تشبه الأشياء الثّلاثة الّتي ذكرها في هذا الخبر من الإيمان " [(١)] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ خبر ثانٍ أوهم من لم يُحكم صناعة الحديث أنّ الإيمان بكماله هو الإقرار باللسان دون أن يقرنه الأعمال بالأعضاء " ، ثمّ ساق حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً : (**من قال لاإله إلا الله دخل الجنّة فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق**) [(٢)] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الخبر المدحض قول من زعم من أئمّتنا أنّ هذا الخبر كان بمكّة في أوّل الإسلام قبل نزول الأحكام " ، ثمّ ساق رواية أخرى يصرّح فيها أبو ذر أنّ ذلك كان بالمدينة .[(٣)]

---

(١) الإحسان ١ / ٤٠١ ـ ٤٠٢ بتصرّف يسير ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الإيمان باب ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة** ﴾ ومسلم في الإيمان باب الأمر بقتال النّاس حتّى يقولوا : لاإله إلاّ الله.

(٢) الإحسان ١ / ٣٩٢ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في بدء الخلق باب ذكر الملائكة ومسلم في الإيمان باب من مات لايشرك بالله دخل الجنّة .

(٣) الإحسان ١ / ٣٩٤ .

وقال أيضاً : " ذِكرُ خبر أوهم عالماً من النّاس أنّ الإيمان هو الإقرار با لله وحده، دون أن تكون الطّاعات من شعبه " ، ثمّ ساق حديث أبي مالك الأشجعي عن أبيه مرفوعاً : (**من وحّد ا لله وكفر بما يُعبد من دونه حرُم ماله ودمُه ، وحسابُه على ا لله**)[1] .

ثمّ قال : " ذِكرُ وصْف قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : وحّد ا لله وكفر بما يُعبد من دونه " ، وساق حديث وفد عبدالقيس عندما قال لهم النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم : (**آمركم بالإيمان با لله وحده ، وقال : أتدرون ماالإيمان با لله وحده ؟ قالوا: ا لله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لاإله إلا ا لله وأنّ محمداً رسول ا لله وإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة وصوم رمضان وأن تُعطوا الخمس من المغنم**)[2] .

تعليق:

وهذه التّراجم من أبي حاتم تؤكّد مذهب أهل السّنّة من أنّ الإيمان قول وعمل ، واستدلاله في غاية الصّحة فحديث شعب الإيمان دليلٌ واضح لمن كان له قلب أو ألقى السّمع على أنّ الإيمان شعبٌ ومراتب يدخل فيها قول اللّسان وعمل الأركان واعتقاد الجنان .

وأمّا حديث أبي ذر فهو من الأحاديث الّتي تمسك بها ضلاّل المرجئة، وظنّوا أنّ إثبات دخول الجنّة يستلزم نفي العذاب وليس كذلك ، فإنّ العبد المسلم مآله إلى الجنّة ولاشك وإن فعل مافعل مادام موحّداً لله تعالى كافراً بما يُعبد من دونه ، ولكنّ ذلك لايمنع أن يُعذّب قبل ذلك بما كسبت يداه من المعاصي من زناً أو سرقة أو غير ذلك ، إن لم يتفضّل ا لله عليه بالمغفرة ، ويأتي مزيد بسط لذلك أن شاء ا لله .

قال ابن حبّان : " ذِكرُ البيان بأنّ الجنّة إنّما تجب لمن شهد لله جلّ وعلا بالوحدانيّة وكان ذلك عن يقين قلبه، لأنّ الإقرار بالشّهادة يوجب

---

[1] الإحسان ١ / ٣٩٥ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الإيمان باب الأمر بقتال النّاس حتّى يقولوا : لاإله إلاّ ا لله.

[2] الإحسان ١ / ٣٩٦ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في العلم باب تحريض النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم وفد عبدالقيس على أن يحفظوا الإيمان ، ومسلم في الإيمان باب الأمر بالإيمان با لله تعالى عن ابن عبّاس رضي ا لله عنهما .

الجنّة للمقرّ دون أن يقرّ بها بالإخلاص " ، ثمّ ساق حديث معاذ بن جبل رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**من شهد أن لاإله إلا ا لله مخلصاً من قلبه، دخل الجنة**)[1] .

وقال في ترجمة : " ذِكرُ البيان بأنّ الجنّة إنّما تجب لمن شهد لله جلّ وعلا بالوحدانيّة وقرن ذلك بالشّهادة للمصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم بالرّسالة" ، وساق حديث عبادة بن الصّامت رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**من شهد أن لاإله إلا ا لله وأنّ محمداً رسول ا لله حرّمه ا لله على النّار**)[2] .

وبعد ذكر عدّة تراجم بمعنى ماتقدّم قال: " ذِكرُ البيان بأنّ الجنّة إنّما تجب لمن أتى بما وصفنا من شعب الإيمان وقرن ذلك بسائر العبادات الّتي هي أعمال بالأبدان، لا أنّ من أتى بالإقرار دون العمل تجب له الجنّة في كلّ حال"، وساق حديث معاذ أنّ رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم قال : (**ماحقّ ا لله على العباد ؟ قالوا: ا لله ورسوله أعلم قال : أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً ، قال : فما حقّهم على ا لله إن فعلوا ذلك ؟ قالوا : ا لله ورسوله أعلم، قال: يغفر لهم ولايعذّبهم**)[3] ، ثمّ قال معلقاً : " في هذا الخبر بيانٌ واضح بأنّ الأخبار الّتي ذكرناها قبلُ كلّها مختصرة غير متقصّاه ، وأنّ بعض شعب الإيمان إذا أتى المرء به لاتُوجِب له الجنّة في دائم الأوقات، ألا تراه صلّى ا لله عليه وسلّم جعل حقّ ا لله على العباد أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً ؟ وعبادة ا لله جلّ وعلا ، إقرارٌ باللّسان وتصديقٌ بالقلب وعملٌ بالإركان، ثمّ المسلمون لما سألوه عن حقّهم على ا لله فقالوا: فما حقّهم على ا لله إذا فعلوا ذلك ؟ و لم يقولوا : فما حقّهم على ا لله إذا قالوا ذلك ، ولا أنكر عليهم صلّى ا لله عليه وسلّم هذه اللّفظة[4] ففيما قلنا أبين البيان بأنّ الجنّة لاتجب لمن

---

[1] الإحسان ١ / ٤٢٩ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الإيمان باب الدّليل على أنّ من مات على التّوحيد دخل الجنّة قطعاً .

[2] الإحسان ١ / ٤٣١ ، والحديث اخرجه أيضاً مسلم في الإيمان باب الدّليل على أنّ من مات على التّوحيد دخل الجنّة قطعاً .

[3] الإحسان ١ / ٤٤٠ ـ ٤٤١ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الجهاد باب اسم الفرس والحمار ، ومسلم في الإيمان باب الدّليل على أنّ من مات على التّوحيد دخل الجنّة قطعاً .

[4] الّذي في جميع الرّوايات أنّ السّائل والمجيب هو النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم ، وابن حبّان روى الحديث كذلك ، وهو هنا ينسب السّؤال إلى الصّحابة ، وهو ما لايوجد في أيّ رواية حسب ما اطّلعت عليه من مصادر السّنّة ، فلاأدري هل اعتمد ابن حبّان على رواية فيها أنّ السّائل هو الصّحابة ،أم أنّه وهم منه رحمه ا لله .

أتى ببعض شعب الإيمان في كلّ الأحوال ، بل يُستعمل كلّ خبر في عموم ماورد خطابه على حسب الحال فيه ...)[1] .

تعليق:

في كلام ابن حبّان المتقدم مسائل:

الأولى : نظرته إلى الأحاديث الّتي علقت دخول الجنّة على جزء من أجزاء الإيمان ومنها بل أهمّها أحاديث الشّهادتين : ورأيه أنّ تلك الأخبار أنّما أُطلقت بحسب حالة معيّنة ، وليس المُراد أنّ مجرّد إطلاق الشّهادة موجبٌ لدخول الجنّة بلا عذاب ، واستدلّ بما أورد من أحاديث وردت فيها زيادات على مجرّد الإقرار كالإخلاص واليقين والشّهادة لعيسى بالنّبوة والإيمان بالبعث والسّلامة من الغلول والدّين وغير ذلك .

وهذا المنهج الّذي ذكره صحيح ولاشك ، وعلى هذا ينبغي أن تُحمل تلك الأحاديث، فغير جائز أن يأتي شخص إلى حديثٍ واحدٍ ويأخذ به على عمومه دون النّظر إلى سائر الأخبار لمعرفة المراد منها ، فإنّ السّنّة يفسّر بعضها بعضاً كما هو معروف .

ولهذه الأخبار وجه آخر مقبول ذكره رحمه الله تعالى في غير موضع، حيث قال : " ذِكرُ خبر أوهم مستمعه أنّ من لقي الله عزّ وجلّ بالشّهادة حرّم الله عليه دخول النّار في حالةٍ من الأحوال " ، ثمّ ساق حديث أبي عمرة الأنصاري[2] مرفوعاً : (**أشهد أن لاإله إلا الله وأنّي رسول الله ، وأشهد عند الله لايلقاه عبدٌ مؤمن بهما إلاّ حجبتاه عن النّار يوم القيامة**)[3] ثمّ قال : " ذِكرُ الخبرالدّال على أنّ قوله صلّى الله عليه وسلّم (إلاّ حجبتاه عن النّار) أراد به : ألاّ أن يرتكب شيئاً يستوجب من أجله دخول النّار ولم يتفضّل المولى جلّ وعلا عليه بعفوه" ، ثمّ ساق حديث أبي سعيد

---

[1] الإحسان ١ / ٤٤٠ ـ ٤٤٢ .

[2] ثعلبة بن بن عمرو بن محصن ، صحابي مختلف في اسمه ، فقيل بشر وقيل بشير وقيل غير ذلك ، مات في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، الإصابة ٧ / ٢٩٠ .

[3] الإحسان ١ / ٤٥٤ ـ ٤٥٥ والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٣ / ٤١٧ ، والطّبراني في الكبير ١ / ح٥٧٥ ، وله شواهد من حديث أبي هريرة وغيره .

الخدري في الجهنّميّين الّذين يُخرجون من النّار بفضل الله ثـمّ يلقـون في نهـر الحياة فينبتون كما تنبت الحبّة في جانب السّيل[1] .

وقال أيضاً : (ذِكرُ تحريم الله جلّ وعلا النّار على من وحّده مخلصـاً في بعض الأحوال دون البعض" ، ثمّ ساق حديث عتبان بن مالك وفيه (...**إنّ الله حرّم على النّار من قال : لاإله إلا الله ، يبتغي بذلـك وجـه الله**)[2] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ البيان بأنّ الله جـلّ وعـلا بتفضّلـه لايدخـل النّـار من كان في قلبه أدنى شعبةٍ من شعب الإيمان على سبيل الخلـود " ، ثـمّ سـاق حديث عبدالله بن مسعود مرفوعاً وفيه (**لايدخل النّار من كان في قلبه حبّـة خردل من إيمان**)[3] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار بأنّ الله قد يغفر بتفضّله لمـن لم يشـرك بـه شيئاً جميع الذّنوب الّتي كانت بينه وبينه " ، ثمّ ساق حديث أبـي ذر الغفـاري عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : (قال الله تبارك وتعالى: ياابن آدم لـو لقيتـني بملء الأرض خطايا لاتشرك بي شيئاً لقيتك بملء الأرض مغفرة) .[4] ففيمـا تقدّم من تراجم ابن حبّان توجيه آخر للنّصوص وهو أنّ تلـك الأحـاديث الّـتي أطلقت دخول الجنّة لمن أتى بالشّهادة أو اجتنب الشّرك، أو نفت عنـه دخـول النّار لها محملان :

الأوّل : أنّ ذلك مقيّدٌ بما إذا تفضّل الله عليه فعفى عن سـيّئاته وذنوبـه فيدخل الجنّة بلا عذاب .

والثّاني : أنّ المراد بدخـول الجنّـة دخولهـا مـآلاً وأنّ مصيره الجنّـة ولـو عُذّب قبل ذلك ، وأنّ تحريمه النّار عليه إنّما هو علـى سـبيل الخلـود ، وإلاّ فقد يمسّه شيءٌ من ذلك بسبب ذنوبه ، وهذا واضح من التّراجم ، بـل قـد صرّح ابن حبّان تعليقـاً علـى حديـث أبـي ذر (**..وإن زنـى وإن سـرق**)

---

[1] الإحسان ١ / ٤٥٦وحديث أبي سعيد أخرجه أيضاً مسلم في الإيمان باب إثبات الشّفاعة وإخراج الموحّدين .

[2] الإحسان ١ / ٤٥٧ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الأذان باب إذا زار الإمام قوماً فأمّهم ، ومسـلم في المساجد بـاب الرّخصى في التّخلّف عن الجماعة بعذر .

[3] الإحسان ١ / ٤٦٠ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه .

[4] الإحسان ١ / ٤٦٢ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الذّكر والدّعاء باب فضل الذّكر والدّعاء والتّقرّب إلى الله .

فقال: " قوله : (**من مات من أمّتي لايشرك با لله شيئاً دخل الجنّة** " ، يريد به : إلاّ أن يرتكب شيئاً وعدته عليه دخول النّار ، وله معنى آخر وهو أنّ من لم يشرك با لله شيئاً ومات دخل الجنّة لامحالة وإن عُذّب قبل دخوله إيّاها مدةً معلومة " ،[1] ولاشكّ أن التّفسير الأوّل يردّه أنّ الحديث نصٌّ على دخوله الجنّة وإن زنى وإن سرق وهي من المعاصي الكبيرة فلا يصحّ استثناء ماأتى به النّص لكنّه في حديث أبي ذر بالذّات لايصحّ إلا التّفسير الثاني وهو الأولى في جميع النّصوص المشابهة .

وهذا التّوجيه سليمٌ للغاية ، خصوصاً حديث عبدا لله بن مسعود، فإنّه نفى دخول النّار على من كان في قلبه حبّة خردل من إيمان، وحديث الشّفاعة صرّح في أنه يخرج من النّار أناس في قلوبهم حبّة خردل من إيمان، فوجب تقييد الخبر بما ذكرنا والسّنّة يفسّر بعضها بعضاً .

ولذلك فقد جمع الرسول صلّى ا لله عليه وسلّم بين المغفرة ونفي العذاب في حديث معاذ لمن أتى بشرطين : عبادته الّتي أمرنا بها ، واجتناب الشّرك به، ولا شكّ أن من أتى بهذين كما ينبغي استحقّ من ا لله تعالى دخول الجنّة بلا عذاب فضلاً من ا لله ونعمة وا لله عنده فضل عظيم .

ويتلخّص ممّا تقدّم أنّه لا مُتمسّك في تلك النّصوص للمرجئة على بدعتهم إذ بين ابن حبّان وجه المراد منها بطريق موافق لأهل السّنّة والجماعة في حمل النّصوص بعضها على بعض وا لله أعلم .

المسألة الثانية : اشتراط العمل لصحة الإيمان :

صرّح ابن حبّان في تعليقه على حديث معاذ بأنّ العمل ـ أي جنس العمل ـ لازمٌ لصحّة الإيمان ونفي العذاب ودخول الجنّة وهو في هذا موافق لأهل السّنّة في إدخال العمل في مسمّى الإيمان الشّرعي ، كما أشار رحمه ا لله تعالى إلى اشتراط العمل القلبي خاصّة لصحّة الإقرار كالإخلاص والصدق واليقين وغيرها من أعمال القلوب .

---

[1] الإحسان ١ / ٤٤٦ والحديث تقدّم ص ٢١٧ .

وأهل السّنّة يقولـون : العمـل قسـمان : عمـل القلـب مثـل الإخـلاص والصّدق والخشية والرّهبة والرّغبة وغـير ذلـك، وقسـم هـو عمـل البـدن مثل الصّلاة والزّكاة والحج ، كما أنّ القول قـولان : قـول القلـب وهـو التّصديـق وقول اللّسان وهو الإقرار بالشّهادتين والتسبيح والذكر عموماً .

إذا عُرف هذا فـإنّ مـدار الخـلاف بـين أهـل السّـنّة والمرجئـة في عمـل القلب، فالمرجئة تقول: إنّه يصحّ الإيمان بالتّصديق وحده دون عمـل القلـب ـ وعمل البدن من باب أولى ـ وأهل السّنّة على خلافهم ، قال ابـن القيـم رحمـه الله : (وهاهنا أصلٌ آخر وهـو أنّ حقيقـة الإيمـان مركّبـة مـن قـول وعمـل، والقول قسمان : قول القلب وهو الاعتقاد وقول اللّسان وهـو التكلّـم بكلمـة الإسلام، والعمل قسمان : عمل القلب وهو نيّته وإخلاصـه،وعمـل الجـوارح، فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمـان بكمالـه، وإذا زال التّصديـق لم تنفـع بقيـة الأجزاء، فإنّه شـرطٌ في اعتقادهـا وكونهـا نافعـة، وإذا زال عمـل القلـب مـع اعتقاد الصّدق فهذا موضع المعركـة بـين المرجئـة وأهـل السّـنّة ، وأهـل السّـنّة مجمعون على زوال الإيمان وأنّه لاينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب) [1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمـه الله : (فـإنّ الإيمـان أصلـه الإيمـان الّذي في القلب، ولابدّ فيه من شيئين : تصديق القلب وإقراره ويُقال لهذا قـول القلب، ولابدّ فيه من عمل القلب مثل : حبّ الله ورسوله وخشية الله وحبّ مايحبّه الله وإخلاص العمل لله وحده، وغـير ذلـك مـن أعمـال القلـوب الّـتي أوجبهـا الله ورسـوله وجعلهـا مـن الإيمـان) [2] ، والبـاقلاني[3] وهـو مـن أئمّةالأشاعرة المتقدمين القائلين بالإرجاء يعرّف الإيمان بقوله : (هو التّصديق، عريٌّ عن عمل القلب والجوارح) [4] .

---

[1] كتاب الصّلاة ، ضمن مجموعة الحديث لمحمّد رشيد رضا ص ٤٨٣ .

[2] الفتاوى ٧ / ١٨٦ ، بتصرّف يسير .

[3] القاضي أبوبكر محمّد بن الطّيّب بن محمّد بن جعفر بن قاسم البصري ، الإمام المتكلّم الأصولي صاحب التّصانيف ، كان على طريقة الأشعري ، ومن أئمّة الأشاعرة بارع في الجدل ، وصفه ابن تيميّة بأنّه من فضلاء المتكلّمين ، توفّي رحمه الله سنة ٤٠٣هـ السّير ٧ / ١٩٠ .

[4] الإنصاف للباقلاّني ص ٢٢ .

إذن فمدار الخلاف بين أهل السّنّة والمرجئة حول نفع التّصديق مع زوال عمل القلب، وقد أشار ابن حبّان إلى أنّ زوال العمل الظاهر أو عمل الجوارح بالكليّة ليس موجباً للكفر والخلود في النّار ، تلمح ذلك من قوله " لاتوجب له الجنّة دائم الأوقات " ، أي أنّه قد تنفع بعض شعب الإيمان لدخول الجنّة بعض الأوقات، أو بمعنى آخر فإنّ من أتى بالشّهادتين مع التّصديق القلبي والصّدق والإخلاص فيها كان ذلك موجباً لكونه مسلماً ناجياً من الخلود في النّار ، وفي الحقيقة فإنّ هذا يدلّ عليه عدّة نصوص :ـ

١ ـ قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**من قال لاإله إلا الله أنجته يوماً من دهره، أصابه قبل ذلك ماأصابه**) [١] .

٢ ـ حديث أبي سعيد الخدري في الرجل الّذي أمر أولاده أن يحرقوه بعد موته وأن يفرّقوا رماده في البرّ والبحر وجاء في وصفه على لسان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه (**لم يعمل خيراً قط**) [٢] ، وعند مسلم (**لم يعمل حسنة قط**) [٣] ، وفي مسند الإمام أحمد (**لم يعمل خيراً قط إلاّ التّوحيد**) [٤] ومع ذلك غفر الله له كما جاء في الحديث بسبب خوفه من الله وجهله بموجب الكفر، والخوف من الأعمال القلبيّة .

٣ ـ حديث الشّفاعة الطويل وفيه أنّه سبحانه وتعالى يُخرج من النّار أقواماً (**لم يعملوا خيراً قط**) ويقول عنهم أهل الجنّة : (**هؤلاء عتقاء الرّحمن الّذين أدخلهم الجنّة بغير عمل عملوه ولاخير قدموه**)[٥] ، وجاء تفسير ذلك في حديث شفاعة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأنّه يقول لربّه عزّوجلّ في المرة الأخيرة :(**ياربّ ائذن لي فيمن قال لاإله إلا الله**)، فيقول له الله : (**ليس ذاك لك ولكن وعزّتي وجلالي وكبريائي وعظمتي**

---

[١] انظر الكلام عن الحديث في السّلسلة الصّحيحة للألباني ٤ ح١٩٣٢ .

[٢] أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٥٤ .

[٣] في التّوبة باب في سعة رحمة الله .

[٤] المسند ٢ / ٣٠٤ .

[٥] صحيح مسلم ، كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرّؤية .

وجبريائي لأخرجنّ من قال : لاإله إلا ا لله)[1] ، وهذا التّنويع والتدرّج في إخراج العصاة من النّار ، نصٌّ لايحتمل التّأويل ، وما تقدّم من النّصوص يجعل لهذا القول قوّة من حيث الدّليل ، وأمّا من يجعل ذلك مذهب المرجئة فهو - فيما أرى - لم يدرك عمق الخلاف بين أهل السّنّة وبينهم ، و لم يفرّق بين العمل القلبي الّذي هو الفارق بين المؤمن والمنافق وبين العمل الظاهر.

وانّما قلت : إنّ هذا هو مُراد ابن حبّان لأنّه قال تعليقاً على حديث : (**لاترجعوا بعدي كفّاراً ...**) ، : " ... وللإسلام والكفر مقدّمتان لاتقبل أجزاء الإسلام إلاّ ممّن أتى بمقدّمته، ولايخرج من حكم الإسلام من أتى بجزءٍ من أجزاء الكفر إلاّ من أتى بمقدّمة الكفر وهو الإقرار والمعرفة، والإنكار والجحد "[2] .

ولايرد على هذا ماورد من تكفير بعض السّلف لمن قال : (أنا مؤمن ولكن لاأصلّي وأنكح الأمّهات وغير ذلك) ، لأنّ تكفير هذا ليس من حيث تركه العمل الظاهر فقط ، بل لما فيه من الكفر والاستهزاء ، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه ا لله : (فيمتنع أن يكون الرّجل لايفعل شيئاً ممّا أُمر من صلاةٍ وزكاةٍ وصوم ويفعل عليه من المحرّمات كنكاح الأمّهات وهو مع ذلك مؤمنٌ بالباطن، بل لايفعل ذلك إلاّ لعدم الإيمان الّذي في قلبه، ولهذا كان أصحاب أبي حنيفة يكفّرون من يقولون كذا لما فيه من الاستخفاف ويجعلونه مرتدّاً مع النّزاع اللّفظي بينه وبين الجمهور في العمل)[3] .

والأعمال كلّها سواء عمل القلب أو الجوارح واجبة أو مستحبة ، كلّها من الإيمان يزيد الإيمان وجودها وينقصه أو يزيله عدمها .

وقد أكد ابن حبّان أنّ الإقرار لاينفع بدون العمل القلبي ، وأشار إلى الرّدّ على المرجئة بقوله " ذِكرُ البيان بأنّ الجنّة إنّما تجب لمن شهد بالوحدانيّة

---

(1) مسلم في الإيمان باب أدنى أهل الجنّة منزلة فيها وقوله جبريائي أي: عظمتي وسلطاني ، انظر شرح مسلم للنووي ٣/ ٦٥

(2) الإحسان ٢٦٨ - ٢٦٩ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في العلم باب الإنصات للعلماء ، ومسلم في الإيمان باب بيان معنى قول النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم: (**لاترجعوا بعدي كفّاراً**) عن جرير رضي ا لله عنه .

(3) الفتاوى ٧ / ٢١٨ .

وكان ذلك عن يقينٍ من قلبه لاأنّ الإقرار بالشّهادة يوجب الجنّة للمقرّ دون أن يقرنها بالإخلاص " [1]، وهو بهذا أيضاً يشير إلى موضع المعركة بين أهل السّنّة وبين والمرجئة أنّ العمل القلبي لايُشترط لصحّة الإقرار ،كما يقولون أيضاً : إنّ الأعمال الظّاهرة لاتلزم العبد بل هي ليست من حقيقة الإيمان فتكلّم رحمه الله عن قسمي العمل ، وهذا من دقّة فهمه رحمه الله ومعرفته بمواضع الخلاف مع أهل البدع .

وخاتمة القول أنّ ابن حبّان رحمه الله ذهب مذهب أهل السّنّة في تعريف الإيمان الشّرعي وأنّه اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان والله أعلم وأحكم .

---

[1] الإحسان ١ / ٤٢٩ .

المبحث الثّاني : رأيه في الفرق بين الإسلام والإيمان

قال ابن حبّان رحمه الله : " ذِكرُ البيان بأنّ الإيمان والإسلام اسمان لمعنىً واحد " ثمّ ساق حديث ابن عمر : (**بُني الإسلام على خمس ...**) [1] .

وقال أيضاً " ذِكرُ الخبرالدّال على أنّ الإيمان والإسلام اسمان بمعنى واحد " ، وساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه عندما جاءه جبريل في صورة إنسان وسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان وأمارات السّاعة [2] .

وقال " ذِكرُ الخبرالدّال على أنّ الإسلام والإيمان اسمان بمعنى واحد يشتمل ذلك المعنى على الأقوال والأفعال معاً " ، ثمّ ساق حديث معاوية بن حيدة[3] مرفوعاً : (**الإسلام أن تُسلِم قلبك لله وأن توجّه وجهك لله وتصلّي الصّلاة المكتوبة ...**) [4] .

وقال أيضاً " ذِكرُ الخبرالدّال على أنّ الإيمان والإسلام اسمان بمعنى واحد " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (**المسلم يأكل في معي والكافر يأكل في سبعة أمعاء**) [5] .

وقال : " ذِكرُ خبر أوهم عالماً من النّاس أنّ الإسلام والإيمان بينهما فرقان "[6] ، ثمّ ساق حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنّه قال : **يارسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعطِ فلاناً شيئاً وهو مؤمن ، فقال**

---

[1] الإحسان ١ / ٣٧٤ ، والحديث تقدّم تخريجه ص٢١٣ .

[2] الإحسان ١ / ٣٧٥ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الإيمان باب سؤال جبريل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن الإيمان والإسلام ، ومسلم في الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان .

[3] معاوية بن حيدة بن معاوية بن كعب القشيري ، صحابي توفّي بخراسان ، الإصابة ٦ / ١٤٩ .

[4] الإحسان ١ / ٣٧٦-٣٧٧ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٥ / ٣ ، ٥ ، والنّسائي في الزّكاة باب باب وجوب الزّكاة ، وابن ماجة في الحدود باب المرتدّ عن دينه ،وعبدالرزّاق في المصنّف ح٢٠١١٥ ، وغيرهم بألفاظ متقاربة وبعضهم يختصره .

[5] الإحسان ١ / ٣٧٨ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الأطعمة باب المؤمن يأكل في معيٍ واحد .

[6] هكذا في طبعة الرّسالة وكأنّه خطأ مطبعي والمراد (فرقاً) .

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : (**أو مسلم**) قالها ثلاثاً . قال الزهري : نرى الإسلام الكلمة، والإيمان العمل .[1]

تعليق:

علمنا فيما تقدّم أنّ الإيمان الشّرعي قولٌ واعتقاد ، والإسلام هو : الاستسلام لله ورسوله فيما أمر به أو نهى عنه : فهل هما اسمان لمسمّى واحد أم أنّ بينهما فرقاً ؟

هذه المسألة من المسائل المهمّة الّتي اختلف فيها أهل السّنّة فيما بينهم فمنهم من ذهب إلى أنّ الإسلام والإيمان معناهما واحد كالإمام البخاري ومحمّد بن نصر المروزي[2] وابن مندة [3] .

ومن أقوى ماستدلّوا به قوله تعالى : ﴿**فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين**﴾ : **الذّاريات ٣٥ ، ٣٦** ، وقوله : ﴿ **ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ : **المائدة ٣.**

واستدلّوا كذلك بأنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما فسّر الإيمان في حديث وفد عبدالقيس[4] ، فسّره بما في حديث ابن عمر بقوله : (**بني الإسلام على خمس**) إضافة إلى ماستدلّ به ابن حبّان ، وهي أدلّة قويّة ولاشك ، إلاّ أنّه بالنّظر إلى أدلّة القائلين بالفرق وهو مرويٌّ عن ابن عبّاس رضي الله عنه والحسن وابن سيرين وابن مهدي وابن أبي ذئب وحمّاد بن زيد وأحمد بن حنبل والزّهري وغيرهم [5] ، يتّضح لنا أنّه ينبغي إعادة النّظر فيها للخروج بنتيجةٍ تجمع الأدلّة جميعها وتسلكها في مسلكٍ واحد .

---

[1] الإحسان ١ / ٣٨٠ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الإيمان باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة ، ومسلم في الإيمان باب تألّف قلب من يُخاف على إيمانه .

[2] محمّد بن نصر بن الحجّاج المروزي الإمام شيخ الإسلام ابن أبو عبدا لله ، قال الحاكم : كان إمام عصره بلا مدافع ، توفّي سنة ٢٩٤هـ ، السّير ١٤ / ٣٣ .

[3] انظر الفتح ١ / ١٧٩ ، والفتاوى ٧ / ٣٥٨ ، والإيمان لابن مندة ١ /٣٢١ .

[4] تقدّم تخريجه ص ٢١٨ .

[5] انظر شرح أصول أهل السّنّة والجماعة ٤ / ٨١٢ ، والإيمان لابن مندة ص ١ / ٣١١ .

فممّا استدلّ به من فرّق بين الإسلام والإيمان قوله تعالى : { **قالت الأعراب آمنّا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا** } : **الحجرات ١٤** .

وكذلك حديث سعد بن أبي وقّاص الّذي ذكره ابن حبّان ، وكذلك حديث جبريل المشهور حيث فرّق النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بين الإيمان والإسلام فجعل الإيمان خاصاً بالأركان السّتّة ، والإسلام خاصّاً بالأعمال الظّاهرة ، وهذه الأدلّة تجعل الإسلام أعمّ من الإيمان وبذلك قال هؤلاء .

ويدلّ عليه قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : (**لايزني الزّاني حين يزني وهو مؤمن ، ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولايسرق السّارق حين يسرق وهو مؤمن**)[1] فإذا ضممنا هذا الحديث إلى كون النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم صلّى على الزّاني والسّارق ، عرفنا أنّه خرج من مرتبة الإيمان إلى مرتبة أخرى غير الكفر وهي الإسلام ، وبذا يتبيّن أنّ الإسلام مغايرٌ للإيمان .

وبنظرةٍ فاحصةٍ في أدلّة من سوّى بين الإسلام والإيمان يتّضح أنّها لاتعارض أدلة من فرّق بينهما ، بل يُقال : الإسلام والإيمان والّدين والبر كلّها أسماء إذا أُفردت دلّت على مادلّ عليه الآخر ، فكلّ مأمر الله به ورسوله وشرعه الله فهو من الإيمان وهو من الإسلام وهو من الدّين والبرّ كذلك، لكن إذا اجتمعت في نصٍّ واحد فقد ينفرد كلّ اسم عن الآخر بمعنى معيّن .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله : (فلمّا ذكر الإيمان مع الإسلام جعل الإسلام هو الأعمال الظاهرة : الشّهادتان والصّلاة والزّكاة والصّيام والحج، وجعل الإيمان ما في القلب من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وإذا ذكر اسم الإيمان مُجرداً دخل فيه الإسلام والأعمال الصّالحة كقوله في حديث الشّعب : **الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة أعلاها قول لاإله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ...**)[2] .

---

[1] أخرجه البخاري في المظالم باب النّهبى بغير إذن صاحبه ، ومسلم في الإيمان باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

[2] الفتاوى ٧ / ١٤ ، والحديث تقدّم تخريجه ص ٢١٢.

وقال شارح الطّحاوية : (فالحاصل أنّ حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر ...كمثل الشّهادتين ، هما شيئان في الأعيان، وإحداهما مرتبطةٌ بالأخرى في المعنى والحكم كشيءٍ واحد ،كذلك الإسلام والإيمان، لاإيمان لمن لاإسلام له ولاإسلام لمن لاإيمان له إذ لايخلو المؤمن من إسلام به يتحقّق إيمانه، ولايخلو المسلم من إيمان يصحّ به إسلامه ، ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان قوله تعالى ﴿ **قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا** ﴾ وقد اعترض على هذا بأنّ معنى الآية : قولوا أسلمنا ، أي انقدنا بظواهرنا فهم منافقون في الحقيقة، وهذا أحد قولي المفسّرين في هذه الآية الكريمة، وأُجيب بالقول الآخر ورُجِّح وهو أنّهم ليسوا بمؤمنين أي : ليسوا كاملي الإيمان، لاأنّهم منافقون، كما نفى الإيمان عن القاتل والزّاني والسّارق ومن لاأمانة له، ويؤيّد هذا سياق الآية وسباقها فإنّ السّورة من أوّلها إلى آخرها في النّهي عن المعاصي وأحكام بعض العصاة ، وليس فيها ذكر المنافقين، ثمّ قال الله : ﴿ **وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئاً** ﴾ ولو كانوا منافقين مانفعتهم الطّاعة ، وكذلك أذن لهم أن يقولوا: أسلمنا والمنافق لايقال له ذلك ، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى عنهم الإيمان ، ونهاهم أن يمنّوا على رسوله بإسلامهم، فأثبت لهم إسلاماً ولو لم يكن إسلاماً صحيحاً لقال : لم تسلموا بل أنتم كاذبون .

وأمّا الاحتجاج بقوله تعالى : ﴿ **فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾ على ترادف الإسلام والإيمان فلا حجّة فيه لأنّ البيت المُخرج كانوا موصوفين بالإسلام والإيمان ، ولايلزم من الاتّصاف بهما ترادفهما) [1] .

ويؤيّد ذلك أنّا نقول : إنّ العام لايعارض الخاص ، فإن الإسلام أعمّ من الإيمان ، فإذا وُصف شخصٌ بالخاص لايعارض ذلك اتّصافه بالعام ، قال الإمام أبو سليمان الخطّابي : (المسلم قد يكون مؤمناً في بعض الأحوال، وقد

---

[1] شرح الطّحاويّة ٢ / ٤٨٨ - ٤٩٤ ، باختصار ، ومال إليه القرطبي في تفسيره ١٧ / ٣٣ .

لايكون مؤمناً في بعضها ، والمؤمن مسلمٌ في جميع الأحوال ، لأنّ أصل الإسلام : الاستسلام والانقياد ، وأصل الإيمان التّصديق، وقد يكون المرء مستسلماً في الظّاهر غير منقادٍ في الباطن ولايكون صادق الباطن، غير منقاد في الظّاهر ، فإذن كلّ مؤمنٍ مسلم، وليس كلّ مسلمٍ مؤمناً)[1] ، وأمّا قول الزّهري : الإسلام الكلمة والإيمان العمل: فالمقصود به ثبوت الوصف ابتداءً فإنّ الشّهادتين شرطٌ لثبوت وصف الإسلام لمن يريد الدّخول فيه، ولكن لايُحكم للعبد بالإيمان إلاّ إذا أظهر الانقياد التّام بالأعمال الصّالحة، و لم يُرد رحمه ا لله أنّ الإسلام هو مجرّد النّطق بالشّهادتين كيف وهو مخالفٌ لحديث جبريل و حديث ابن عمر رضي ا لله عنهما وا لله أعلم[2] .

(1) شرح السّنة ١ / ١١ .

(2) انظر الفتاوى ٧ / ٢٥٨ - ٢٥٩ ، ٣٦٩ - ٣٧١ ، وجامع العلوم والحكم لابن رجب ١ / ١٠٧ - ١١١ .

المبحث الثّالث : رأيه في الاستثناء في الإيمان

تفرّع عن المسائل المتقدّمة مسألة : الاستثناء في الإيمان ، فالذين قالوا : إنّ الإيمان هو التّصديق ، وقالوا : إنّ الأعمال لاتدخل في الإيمان ، وإنّه لايزيد ولاينقص ، منعوا الاستثناء في الإيمان لأنّ معنى ذلك عندهم الشّك وهو كفر عندهم ، ويقول واحدهم : أنا أعلم أنّي مؤمن ،كما أعلم أنّي تكلّمتُ بالشّهادتين ، فقولي: أنا مؤمن كقولي : أنا مسلم ، فمن استثنى في إيمانه فهو شاك .

وقال آخرون : إنّ الاستثناء واجب ، ولهم في هذا مأخذان ، **الأوّل** : أنّ الإيمان هو مامات الإنسان عليه ، والإنسان إنّما يكون مؤمناً أو كافراً عند الله بالموافاة، وماسبق في علم الله أن يكون عليه ،وماقبل ذلك لاعبرة به ، فالصّحابة عندهم محبوبون في الأزل حتّى قبل إسلامهم وإبليس ومن ارتدّ عن دينه مبغوضون حتّى قبل ردّتهم، وهذا غلوّ من صاحبه ومخالفٌ لقوله تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ : **آل عمران ٣١** ، والمشروط يتأخر عن الشّرط ، بل وصل بهم الغلوّ إلى أن أصبح الرّجل منهم يستثني في كلّ شيء ، فيقول: صلّيت إن شاء الله، هذا حبلٌ إن شاء الله .

والمأخذ الثّاني : أنّ الإيمان المطلق يتناول فِعْل مأمر الله به عبده كلّه ، ومانهاه عنه كلّه ، فإذا قال الرّجل : أنا مؤمنٌ بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه أنّه من الأبرار المتّقين وأنّه من أولياء الله المقرّبين ، وهذا من تزكية المرء نفسه، وهذا هو مأخذ عامّة السّلف الّذين كانوا يستثنون وإن جوّزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر .[1]

وذهب قوم إلى الوسط ، فجوّزوا الاستثناء وتركه ، وقالوا : إن أراد المستثني الشّكّ في أصل إيمانه مُنع من الاستثناء، وإن أراد أنّه من المؤمنين الّذين امتدحهم الله في القرآن كما في قوله : ﴿ **إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله**

[1] ملخّصاً من شرح الطّحاويّة ٢ / ٤٩٤ - ٤٩٨ .

ورسوله ثمّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصّادقون ﴾: الحجرات ١٥، فالاستثناء حينئذٍ جائزٌ بل هو أولى ، وكذلك من استثنى وأراد عدم علمه بالعاقبة وذلك تركاً لتزكية النّفس ، فقد نهى الله عنها فقال : **﴿فلاتزكّوا أنفسكم﴾ : النّجم ٣٢**، قال الإمام أحمد: (الاستثناء على غير معنى الشّك ، مخافةً واحتياطاً للعمل) ، وقال في الاستثناء : (نعم نحن نذهب إليه) ، وقيل له : الرّجل يقول : أنا مؤمنٌ إن شاء الله قال : نعم) [(١)] .

والاستثناء مرويّ عن كثير من السّلف ، قال سفيان الثّوري : النّاس عندنا مؤمنون في الأحكام والمواريث ولاندري ماهم عند الله ، وكان الأوزاعي ومالك بن أنس لاينكرون أنا مؤمن ، ويأذنون في الاستثناء أن يقول : أنا مؤمنٌ إن شاء الله ، وهو قول الأعمش وابن سيرين والحسن وجرير بن عبدالحميد وغيرهم .[(٢)]

وقد استدلّ هؤلاء بقول الله تعالى : **﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ : الفتح ٢٧**، فقد استثنى فيما هو يقين وواقعٌ لامحالة.

وذهب ابن حبّان إلى هذا فقال معلقاً على حديث أبي هريرة رضي الله عنه في زيارة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأهل البقيع: " وقوله صلّى الله عليه وسلّم : (...**وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون** ...) ، الاستثناء في المستقبل من الأشياء يستحيل في الشّيء الماضي، وإنما يجوز في المستقبل من الأشياء ، وحال الإنسان في الاستثناء على ضربين إذا استثنى في إيمانه ، فضرب منه يُطلق مباح له ذلك، وضرب آخر إذا استثنى الإنسان فيه كفر .

وأمّا الضّرب الّذي لايجوز ذلك فيه، فهو أن يُقال للرّجل : أنت مؤمنٌ با لله وملائكته وكتبه ورسله والجنّة والنّار والبعث والميزان ومايشبه هذه الحالة؟ فالواجب عليه أن يقول : أنا مؤمنٌ با لله حقاً ومؤمنٌ بهذه الأشياء حقاً

---

(١) الإبانة الكبرى لابن بطّة ٢ / ٨٧٥ ، انظر مسائل الإمام أحمد للأحمدي ١ / ١١٧ - ١١٨ .

(٢) انظر الإبانة الكبرى لابن بطّة ٢ / ٨٧٢ -٨٧٦ .

فمتى استثنى في هذا كفر ، والضّرب الثّاني : إذا سُئل الرّجل : إنّك من المؤمنين الّذين يقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة وهم فيها خاشعون وعن اللّغو معرضون ؟ فيقول : أرجو أن اكون منهم إن شاء الله ، أو يُقال له : أنت من أهل الجنّة، فيستثني أن يكون منهم ، والفائدة في الخبر حيث قال صلّى الله عليه وسلّم : (**وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون**) ، أنّه صلّى الله عليه وسلّم دخل بقيع الغرقد في ناسٍ من أصحابه فيهم مؤمنون ومنافقون فقال : (إنّا إن شاء الله بكم لاحقون) واستثنى المنافقين : أنّهم : إن شاء الله : يسلمون فيلحقون بكم، على أنّ اللغة تسوّغ الاستثناء في الشّيء المستقبل وإن لم يشكّ في كونه لقوله عزّ وجلّ : ﴿**لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين**﴾ "[1] ،والحديث في تفسيره أقوال أخرى في معنى الاستثناء إلاّ أنّ ذلك لايؤثّر في صحّة الاستدلال به .[2]

وقال ابن حبّان معلّقاً على حديث عائشة رضي الله عنها وفيه (...**إنّي أرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتّقي** ...) : " في قوله صلّى الله عليه وسلّم : إنّي أرجو ، دليلٌ على إباحة رجاء الإنسان في الشّيء الّذي لايشكّ فيه بالقول، وفيه دليلٌ على إباحة الاستثناء في الإيمان على السّبيل الّذي وصفناه في أوّل الكتاب " [3] ، يقصد ماتقدّم نقله . وهذا الدّليل الّذي استدلّ به ابن حبّان من القوّة بمكان ، ويشهد لقول أهل التوسّط وابن حبّان منهم والله تعالى أحكم وأعلم .

---

[1] الإحسان ٣ / ٣٢١ - ٣٢٢ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الطّهارة باب استحباب إطالة الغرّة والتّحجيل في الوضوء عن أبي هريرة رضي الله عنه .

[2] انظر شرح صحيح مسلم للإمام النّووي ٣ / ١٣٨ حيث ذكر بعض الأقوال ومنها ماذهب إليه ابن حبّان ، وقال : وهذا القول وإن كان مشهوراً فهو خطأ ظاهر .

[3] الإحسان ٨ / ٢٦٦ وحديث عائشة أخرجه أيضاً مسلم في الصّيام باب صحّة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب .

المبحث الرّابع : عقيدته في زيادة الإيمان ونقصانه

ذهبت المرجئة بناءً على قولهم : إنّ الإيمان هو التّصديق أو المعرفة كما يقول جهم ، أو القول كما يذهب إليه الكرّاميّة[1] إلى أنّ الإيمان شيءٌ واحدٌ لايزيد ولاينقص، بل إمّا أن يبقى كلّه أو يزول كلّه ، وكذلك وافقهم على ذلك المعتزلة والخوارج، ذلك أنّ أصل شبهتهم أنّهم حاولوا إخضاع الإيمان لمقدّمات المناطقة وأهل الكلام ، وتعريفه بالحدّ والرّسم[2] الذي يشترطون فيه التعريف بأخصّ وصف ، بحيث لاينفكّ ذلك عن المُعرَّف ، فقالت المرجئة : هو التصديق ، والتصديق لايزيد ولاينقص بل يوجد أو يزول بالكلية و نقصانه كفر، وقالت الخوارج والمعتزلة : هو مجموع الاعتقاد والقول والعمل فمن نقص منه شيئاً فقد كفر، وكلا القولين إفراط وتفريط والمحكم في ذلك القرآن، والسنة ، بعيداً عن تحكّمات المناطقة والمتكلمين فنقول: إن الإيمان هو جميع ما أمر الله تعالى به ورسوله، وجوبا أوندبا ، والانتهاء عن كل مانهى الله عنه ورسوله تحريماً أو كراهةً ،كلّ ذلك داخل في مسمى الإيمان ، إلاّ أن ذهاب بعضه لايوجب ذهابه كله .

وقد قرّر أهل السّنة أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، مستدلين على ذلك بقوله تعالى : **{ ويزداد الذين آمنوا إيماناً } : المدثر ٣١** ، وقوله : **{ وإذا تليت عليهم آياته زادهم إيماناً } : الأنفال٢**، وقوله:**{فأمّا الذين آمنوا فزادهم إيماناً } : التوبة ١٢٤**، وغير ذلك كثير ، ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : (**الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها شهادة أن لاإله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**)[3] وهو

---

[1] أتباع محمد بن كرام السجستاني المبتدع ، مذهبه في الإيمان أنه قول ، دون اعتقاد القلب ولا عمل الجوارح ، توفي سنة٢٥٣ هـ ، السير ١١ / ٥٢٤ .

[2] الحد هو تعريف الشيء بالذاتيات ، والرسم هو : تعريف الشيء بخواصّه اللاّزمة ، وينقسم كلٌّ منهما إلى تام وناقص ، انظر مقدمة روضة الناظر مع شرحها لابن بدران .

[3] تقدم تخريجه ص ٢١٢ .

دالٌّ باللّزوم على زيادة الإيمان ونقصانه فكلّما ازداد العبد من الشّعب ازداد إيمانه تبعاً لذلك .

وقد استدلّ ابن حبّان لمذهب السّلف ونصره، إذ قال في تعليقه على حديث : (**الحياء شعبة من الإيمان**) : " وأمّا قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**الحياء شعبةٌ من الإيمان**) فهو لفظةٌ أُطلقت على شيءٍ بكناية سببه، وذلك أنّ الحياء جبلّة في الإنسان، فمن النّاس من يكثر فيه، ومنهم من يقلّ ذلك فيه، وهذا دليلٌ صحيحٌ على زيادة الإيمان ونقصانه ، لأنّ النّاس ليسوا كلّهم على مرتبةٍ واحدةٍ في الحياء ، فلمّا استحال استواؤهم على مرتبة واحدة فيه، صحّ أنّ من وُجد فيه أكثر كان إيمانه أزيد ، ومن وُجد فيه منه أقلّ كان إيمانه أنقص ..." [1] .

ثمّ ردّ القول الآخر فقال : " ذِكرُ الخبرالمدحض قول من زعم أنّ الإيمان شيءٌ واحدٌ لاينقص ولايزيد " ، وساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (**الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة ...**) [2] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الخبرالمدحض قول من زعم أنّ إيمان المسلمين واحدٌ من غير أن يكون فيه زيادةٌ أو نقصان " ، ثمّ ساق جزءاً من حديث الشّفاعة وفيه قول الله تعالى : (**...أخرجوا من كان في قلبه حبّة خردل من إيمان ...**)[3] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ الخبرالمدحض قول من زعم أنّ الإيمان لم يزل على حالةٍ واحدةٍ من غير أن يدخله نقص أو كمال " ، ثمّ ساق حديث عمر بن الخطّاب رضي الله عنه مع اليهودي في قوله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي**﴾[4] : **المائدة ٣.**

---

[1] الإحسان ١ / ٣٨٩ ، والحديث تقدّم ص ٢١٢ .

[2] الإحسان ١ / ٤٠٧ ، والحديث تقدّم ص ٢١٢ .

[3] الإحسان ١ / ٤٠٨ ، والحديث أخرجه مسلم في الإيمان باب معرفة طريق الرّؤية .

[4] الإحسان ١ / ٤١٣ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الإيمان باب زيادة الإيمان ونقصانه ، ومسلم في التّفسير ح٣٠١٧ .

تعليق:

قد بيّن ابن حبّان رحمه ا لله منهج أهل السّنّة في هذه المسألة واستدلّ له فأحسن البيان وأجاد الاستدلال ،كما بيّن أنّ زيادة الإيمان ونقصانه يكون من وجهين :

الأوّل : أنّ الإيمان شعبٌ كثيرة ، وكلّما ازداد المؤمن من الشّعب كلّما ازداد إيماناً .

والثاني: أنّ الشّعبة الواحدة مثل الأعمال القلبيّة والحياء منها ، النّاس فيها ليسوا على مرتبةٍ واحدة ، فصحّ أنّهم متفاوتون في الإيمان بحسب تفاوتهم فيها ، وكلا الوجهين في غاية المتانة .

والآثار عن السّلف في زيادة الإيمان ونقصانه لاحصر لها ، فعن أبي الدّرداء رضي ا لله عنه قال : (الإيمان يزيد وينقص) ،وكذلك كان يقول أبو هريرة رضي ا لله عنهما .[1] .

وعن عمير بن حبيب : الإيمان يزيد وينقص، قيل : وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا ا لله فحمدناه وسبّحناه فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا فذلك نقصانه) [2] .

وكان عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه يأخذ بيد الرّجل والرّجلين فيقول : (تعالوا : نزدد إيماناً) [3] ، وكذلك ثبت القول بزيادة الإيمان ونقصانه عن الثّوري ووكيع بن الجرّاح وأحمد بن حنبل وثبت عنه قوله : (إنّما الزّيادة والنّقصان من العمل) [4] ، وكذلك هو قول مجاهد وعمر بن عبدالعزيز والحسن والشّافعي وكافة السّلف رحمهم ا لله.[5]

---

(1) الإبانة الكبرى لابن بطّة ٢ / ٨٤٤ .

(2) الإبانة ٢ / ٨٤٥ ، وعمير هو : ا بن حبيب بن خماشة ابن جوير بن عبيد بن خطَمَة الأنصاري الخطْمي ، صحابيٌّ بايع تحت الشّجرة ، الإصابة ٤ ، ٧١٤ .

(3) الإبانة ٢ / ٨٤٧ .

(4) الإبانة ٢ / ٨٥١ .

(5) انظر الإبانة ٢ / ٨٤٤ ، وما بعدها ، وشرح أصول أهل السّنّة والجماعة ص ٨٠٩ وما بعدها .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله : (وزيادة الإيمان الّذي أمر الله به والّذي يكون من عباده يعرف من وجوه : **أحدها** : الإجمال والتّفصيل فيما أُمروا به، فإنّه وإن وجب على جميع الخلق الإيمان بالله ورسوله وما جاء عن الله ورسوله ، فإنّه لايجب في أوّل الأمر مايجب في آخره ، ولايجب على العامّة مايجب على على العلماء، فكلّما زاد العلم بشرائع الله وأحكامه وجب من الإيمان المفصّل أكثر .

الثّاني : التّفصيل فيما وقع منهم، فمن آمن بما جاء به الرّسول مطلقاً و لم يكذّبه أبداً ولكنّه لم يطلب العلم الواجب عليه ، وآخر طلبه و لم يعمل به، وآخر طلبه وعمل به ، فهؤلاء وإن اشتركوا في الوجوب فإيمان بعضهم أكمل من بعض .

الثّالث : أنّ العلم والتّصديق نفسه يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت وأبعد عن الشّك ، كما أنّ الحسّ الظّاهر بالشّيء الواحد يختلف من شخصٍ لآخر كرؤية الهلال مثلاً .

الرابع: أنّ التّصديق الّذي يؤدّي إلى عمل القلب أكمل من التّصديق الّذي لايبعث عليه، فلو كان شخصان عرفا أنّ الله حقٌّ وصدّقا به ، فخشيه أحدهما وتوكّل عليه ، والآخر لم يوجب له تصديقه شيئاً من ذلك فالأوّل أكمل من الآخر .

الخامس : أنّ أعمال القلوب مثل محبّة الله ورسوله وخشية الله تعالى هي كلها من الإيمان ، والنّاس متفاوتون فيها تفاوتاً عظيماً .

السادس : أنّ الأعمال الظّاهرة مع الباطنة أيضاً من الإيمان والنّاس متفاوتون فيها تفاوتاً عظيماً) [1] ، وبذلك يتبيّن أنّ ابن حبّان موافقٌ للسّلف في هذه المسألة ، والله تعالى أعلم وأحكم .

---

[1] الفتاوى ٧ ، ٢٣٢ - ٢٣٧ .

المبحث الخامس : عقيدته في حكم مرتكب الكبيرة

ذهبت المعتزلة والخوارج إلىأنّ مرتكب الكبيرة في الآخرة مخلّدٌ في النّار، أمّا في الدّنيا فالمعتزلة تقول : إنّه في منزلةٍ بين المنزلتين : بين الإسلام وبين والكفر، وقالت الخوارج هو كافر حلال الدّم ، واستدلّوا على ذلك بشبه ناتجة عن سوء فهمهم وفقههم الأعوج، حيث نظروا إلى الأحاديث الّتي فيها نفي الإيمان عن بعض أصحاب الكبائر، وكذلك الأحاديث أو النّصوص الّتي فيها الحكم بالكفر على فاعل فعلٍ معيّن ، أو وصف بعض الأعمال بأنّها كفر ، فمن ذلك : قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل ا لله فأولئك هم الكافرون** ﴾ : **المائدة ٤٤**، وقوله : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنّم خالداً فيها** ﴾ : **النّساء ٩٣**، وقوله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**لايزني الزّاني حين يزني وهو مؤمن ولايسرق السّارق حين يسرق وهو مؤمن**)[1].

وقوله : (**لايؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه مايحبّ لنفسه**)[2] .

وقوله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**سباب المسلم فسوقٌ وقتاله كفر**)[3] ، وقوله : (**من ادّعى أباً في الإسلام غير أبيه وهو يعلم أنّه غير أبيه فالجنّة عليه حرام**) وفي لفظ (**فقد كفر**)[4] .

وقوله (**لاترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**).[5]

وغير ذلك من النّصوص ، فقالوا : إنّ الشّرع قد نفى عن هؤلاء وصف الإيمان تارةً ، ووصفهم بالكفر تارةً أخرى ، واستدلّوا أيضاً بأنّ الإيمان قول

---

(1) تقدّم ص ٢٢٩ .

(2) أخرجه البخاري في الإيمان باب من الإيمان أن يحبّ لأخيه مايحبّ لنفسه ، ومسلم في الإيمان باب الدّليل على أنّ من خصال الإيمان أن يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه من الخير عن أنس بن مالك رضي ا لله عنه .

(3) أخرجه البخاري في الإيمان باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله ، ومسلم في الإيمان باب باب قول النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم (**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**) عن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه .

(4) أخرجه البخاري في الفرائض باب من ادّعى إلى غير أبيه ، ومسلم في الإيمان باب بيان حال من رغب عن أبيه وهو يعلم ، عن سعد بن أبي وقّاص رضي ا لله عنه .

(5) أخرجه البخاري في العلم باب الإنصات للعلماء ومسلم في الإيمان باب بيان قول النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم : (**لاترجعوا بعدي كفّاراً**) عن جرير بن عبدا لله البجلي رضي ا لله عنه .

وعمل ، وأنّ كلّ ماشرعه ا لله من الإيمان ، وأنّ ذهاب جزءٍ منه يعني ذهاب كامل الإيمان .

وقد ردّ أهلُ السّنّة رحمهم ا لله على هؤلاء الغلاة ، وبيّنوا أنّ تلك النّصوص راجعةٌ إلى نفي الكمال أو المشابهة في بعض الصّفات ، ويدلّ على ذلك ، النّصوص الأخرى الّتي أثبتت لأهل الكبائر الإسلام ومنها : قوله تعالى : ﴿ **إنّ ا لله لايغفر أن يُشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء** ﴾ : **النّساء ٤٨**، وقوله تعالى : ﴿ **ياأيّها الّذين آمنوا كُتب عليكم القصاص في القتلى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فمن عُفي له من أخيه شيء** ﴾ : **البقرة ١٧٨**، فأثبت له وصف الأخوّة ،كما في قوله تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ إلى قوله ﴿ **إنّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ : **الحجرات ٩ ، ١٠**، وإثبات الأخوّة الإيمانيّة بين القاتل والمقتول دليلٌ على عدم انتفاء الإيمان بالكليّة .

وكذلك فإنّ الإسلام شرع الحدود والكفّارات لأهل الكبائر ، وقد ثبت أنّه صلّى ا لله عليه وسلّم رجم الزّاني وصلّى عليه وقطع السّارق وقتل القاتل ، فلو كان حكمهم جميعاً واحداً فلماذا تتفاوت الحدود ؟ ولماذا صلّى على من أُقيم عليه الحد ؟.

وقد ورد النّص الجليّ الصّحيح الصّريح أنّ مرتكب الكبيرة مآله إلى الجنّة وهو تحت المشئية ، كما في حديث أبي ذر رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**مامن عبد يقول لاإله إلا ا لله ثمّ يموت على ذلك إلاّ أدخله ا لله الجنّة، قال أبو ذر: وإن زنى وإن سرق ؟، قال : وإن زنى وإن سرق**)(1).

وكذلك حديث عبادة بن الصّامت رضي ا لله عنه في البيعة وفيه :-

(**ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدّنيا فهو كفّارة له ،ومن أصاب من ذلك شيئاً ثمّ ستره ا لله فهو إلى ا لله إن شاء عفا عنه وإن شاء**

(1) تقدّم ص ٢١٧ .

عاقبه)[1] .

وأمّا بالنّسبة لما استدلّوا به على بدعتهم هذه ، فقد بيّن العلماء ومنهم ابن حبّان أنّها منصبّة على نفي الكمال .

قال ابن حبّان : " ذِكرُ خبرٍ يصرّح بإطلاق لفظة مرادها نفي الاسم عن الشّيء للنّقص عن الكمال لاالحكم على ظاهره " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة المتقدم (**لايزني الزّاني حين يزني وهو مؤمن)**[2] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ البيان بأنّ العرب في لغتها تضيف الاسم إلى الشّيء للقرب من التّمام وتنفي الاسم عن الشّيء للنّقص عن الكمال " ، ثمّ ساق حديث زيد بن خالد الجهني مرفوعاً عن الله تبارك وتعالى (**أصبح من عبادي مؤمنٌ وكافر، فأمّا من قال : مُطرنا بفضل الله وبرحمته فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأمّا من قال : مُطرنا بنَوْء كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب)**[3] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ نفي اسم الإيمان عمّن أتى ببعض الخصال الّتي تَنقُصُ بإتيانه إيمانه " ، ثمّ ساق حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : (**ليس المؤمن بالطّعان ولااللّعّان ...)**[4] .

وقال : " ذِكرُ خبرٍ يدلّ على أنّ المُراد بهذه الأخبار نفي الأمر عن الشّيء للنّقص عن الكمال " ، ثمّ ساق حديث أنس بن مالك مرفوعاً : (**لاإيمان لمن لاأمانة له، ولادين لمن لاعهد له)**[5] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الخبرالدّال على صحّة ماذكرنا أنّ معاني هذه الأخبار ماقلنا : إنّ العرب تنفي الاسم عن الشّيء للنّقص من الكمال،

---

[1] أخرجه البخاري في الإيمان باب علامة الإيمان حبّ الأنصار ١١ . ومسلم في الحدود باب الحدود كفّارات لأهلها .

[2] الإحسان ١ / ٤١٤ ، والحديث تقدّم ص ٢٣٧ .

[3] الإحسان ١ / ٤١٨ ، والحديث تقدّم ص٩٧ ، وذكرت هناك أنّ ذلك قد يكون شركاً أكبر أو أصغر بحسب اعتقاد قائله.

[4] الإحسان ١ / ٤٢١ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ١ / ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤١٦ ، التّرمذي في البر باب ماجاء في اللّعنة ، والحاكم ١ / ١٢ وصحّحه ووافقه الذّهبي ، عن عبدالله من طرق مختلفة .

[5] الإحسان ١ / ٤٢٢ ـ ٤٢٣ ، هكذا والظّاهر أنّ العبارة (ينقص بإتيانها إيمانه) والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٣ / ١٣٥ ، ، ١٤٥ ، وابن أبي شيبة في المصنّف ٣٠٣١١ والطّبراني في الأوسط ح٥٩٢٣ ، والبغوي في شرح السّنّة ح٣٨ ، وحسّنه .

وتضيف الاسم إلى الشيء للقرب من التمام " ، ثم ساق حديث أبي ذر المتقدم (... **وإن زنى وإن سرق** ...)[1] .

وقال معلقا على حديث : (**لاترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض**) : " قوله صلى الله عليه وسلم : **لاترجعوا بعدي كفارًا** ، لم يرد به الكفر الذي يخرج من الملة ، ولكن معنى هذا الخبر أن الشيء إذا كان له أجزاء يُطلق اسم الكل على بعض تلك الأجزاء، فكما أن الإسلام له شعب ويطلق اسم الإسلام على مرتكب شعبة منها لابالكلية، كذلك يطلق اسم الكفر على تارك شعبة من شعب الإسلام لاالكفر كله ... وللإسلام والكفر مقدمتان لاتقبل أجزاء الإسلام إلا ممن أتى بمقدمته، ولايخرج من حكم الإسلام من أتى بجزء من أجزاء الكفر إلاّمن أتى بمقدمة الكفر، وهو الإقرار والمعرفة ، والإنكار والجحد " [2] .

وقال بعد ذكر حديث سؤال موسى عليه السلام ربَّه عن أدنى أهل الجنة مترلة : "ذكر البيان بأن الرجل الذي ذكرنا نعته هو ممن وجبت عليه النار ثم أخرج منها"، وساق حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعا : (**إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار** ...) الحديث.[3]

تعليق:

واضحٌ من التعليقات المتقدّمة عن ابن حبّان ومن التّراجم التي ترجم بها للنّصوص أنه يذهب مذهب أهل السنة في أنّ مرتكب الكبيرة من غير استحلال تحت المشيئة، وأنه لايكفر بذلك كفراً يخرجه من الملّة ولايخلد في النار ،كما جاء بذلك الخبر عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد وجه رحمه الله أدلة من قال بتخليد أهل الكبائر توجيها جيداً يدلّ على فقه وتمكن من اللّغة ومن السنة، وقد جاء ذلك عن غيره من العلماء، قال أبو عبيدة : (أنّا وجدنا الأمور كلّها يستحقّ النّاس بها أسماءَها

---

(1) الإحسان ١ / ٤٢٣ ، والحديث تقدم ص ٢٢٤ .

(2) الإحسان ١٣ / ٢٦٨ ــ ٢٦٩ والحديث تقدم ص ٢٣٩.

(3) الإحسان ١٦ / ٤٤٧ ، والحديث تقدم ص١٣١.

مع ابتدائها والدّخول فيها ثمّ يفْضُل بعضهم فيها بعضاً وقد شملهم اسم واحد، ومن ذلك أنّك تجد القوم صفوفاً بين مستفتح للصّلاة وراكع وساجد فكلّهم يلزمه اسم المصلّي وهم مصلّون، وهم مع هذا متفاضلون فيها ...)[1] .

وقال رحمه الله : (والّذي عندنا في هذا الباب أنّ المعاصي والذّنوب لاتزيل إيماناً ولاتوجب كفراً ولكنّها تنفي من الإيمان حقيقته وإخلاصه الّذي نعت الله به أهله واشترطه عليهم في مواضع من كتابه ، وهذا غير مُستنكر في لغة العرب ، ألا ترى أنّهم يقولون للصّانع إذا لم يحكم عمله : ماصنعت شيئاً ، وجاء في السّنّة أيضاً قوله للمسيء صلاته : (**ارجع فصلّ فإنّك لم تصل**)[2] وهو صلّى الله عليه وسلّم قد رآه يصلي)[3] .

وقال أيضاً في النّصوص الّتي تطلق الكفر على بعض الذنوب : (ليس وجوه هذه الآثار كلّها من الذّنوب أنّ راكبها يكون جاهلاً ولاكافراً ولا منافقاً وهو مؤمنٌ بالله وماجاء من عنده ، ولكنّ معناها أنّها من سنن الكفّار فنهى عنها في الكتاب والسّنّة ليتحاماها المسلمون ويتجنّبوها فلا يتشبّهوا بشيءٍ من أخلاقهم وشرائعهم ، وكلّ ماكان فيه ذكر شركٍ أو كفرٍ لأهل القبلة فهو عندنا على هذا ، ولايجب اسم الكفر والشّرك الّذي تزول به أحكام الإسلام ويلحق صاحبه للرّدّة إلاّ بكلمة الكفر خاصّة دون غيرها)[4] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى : (وكذلك كلّ مسلم يعلم أنّ شارب الخمر والزّاني والسّارق والقاذف، لم يكن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يجعلهم مرتدّين يجب قتلهم، بل القرآن والنّقل المتواتر عنه يبين أنّ هؤلاء لهم عقوبات غير عقوبة المرتد عن الإسلام ،كما ذكر الله في القرآن جلد القاذف والزّاني وقطع السارق ، وهذا متواترٌ عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ،

---

[1] الإيمان لأبي عبيد ص ٧٥ ، بتصرّف .

[2] حديث المسيء صلاته مشهور أخرجه البخاري في الاستئذان باب من ردّ فقال : عليك السّلام ، ومسلم في الصّلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كلّ ركعة ، وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه .

[3] الإيمان ص ٩٠ ـ ٩١ ، بتصرّف يسير .

[4] الإيمان ص ٩٦ ـ ٩٧ ملخّصاً ، ولم يتبيّن لي مقصوده بكلمة الكفر .

ولو كانوا مرتدّين لقتلهم)[١] .

قال الإمام أحمد رحمه الله : (ومن لقيه مصرّاً غير تائبٍ من الذّنوب الّتي قد استوجب بها العقوبة فأمره إلى الله إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له) [٢] ، وقال أيضاً : (ويخرج الرّجل من الإيمان إلى الإسلام ولايخرجه من الإسلام شيءٌ إلاّ الشّرك بالله العظيم أو يردّ فريضةً من فرائض الله عزّ وجلّ جاحداً بها فإن تركها تكاسلاً أو تهاوناً كان في مشيئة الله إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له)[٣] ، وقال : (وأن لانكفّر احداً من أهل التّوحيد وإن عملوا الكبائر)[٤] وبذا يتبيّن موافقة ابن حبّان لأهل السّنّة والجماعة فيما ذهبوا إليه من عدم تكفير أهل الكبائر ما لم يستحلوها ، والبعد والتّحذير عن تكفير المسلمين بغير سبب يستوجب ذلك ، قال رحمه الله : " ذِكرُ البيان بأنّ من كفّر إنساناً [٥] فهو كافر لامحالة " ، ثمّ ساق حديث أبي سعيد (**ماأكفر رجلٌ رجلاً قطّ إلاّ باء أحدهما بها، إن كان كافراً وإلاّ كفر بتكفيره**)[٦] وهذا في الحقيقة مشكلٌ على ماقد أصّله من قبل، إلاّ إذا كان مراده كفراً دون كفر، قال الحافظ بن حجر رحمه الله بعد أن سرد أقوال العلماء في تأويل هذا الحديث : (وأرجح من الجميع أنّ من قال ذلك لمن يعرف منه الإسلام و لم يقم له شبهةٌ في زعمه أنّه كافر فإنّه يكفر بذلك ، فمعنى الحديث : فقد رجع عليه تكفيره، فالرّاجع التّكفير لاالكفر، فكأنّه كفّر نفسه لكونه كفّر مثله ومن لايكفّره إلاّ كافر يعتقد بطلان دين الإسلام ... وقال القرطبي : والحاصل أنّ المقول له إن كافراً كفراً شرعياً فقد صدق القائل ، وإن لم يكن رجعت

[١] الفتاوى ٧ / ٢٨٧ ـ ٢٨٨ .

[٢] طبقات الحنابلة ١ / ٢٤٣ ، ٢٤٥ .

[٣] طبقات الحنابلة ١ / ٣٤٣ .

[٤] طبقات الحنابلة ١ / ١٣٠ .

[٥] تعبيره بكلمة الإنسان فيه قصور ، والمراد تكفير المؤمن وأمّا الإنسان فقد يكون كافراً ، ولاأعتقد أنّ ذلك مقصود لابن حبّان بل مراده إنساناً مسلماً ، والله أعلم .

[٦] الإحسان ١ / ٤٨٣ ، والحديث في إسناده لين ولكنّه صحّ من مسند أبي هريرة أخرجه البخاري في الأدب باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال ، ومن مسند ابن عمر رضي الله عنهما أخرجه البخاري في الأدب باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال ، ومسلم في الإيمان باب بيان حال من قال لأخيه المسلم : ياكافر .

للقائل معرّة ذلك القول وإثمه، كذا اقتصر على هذا وهو من أعدل الأجوبة)[1] ، والله أعلم وأحكم .

---

[1] الفتح ١٠ / ٤٦٦ - ٤٦٧ .

المبحث السّادس : عقيدته في النّبوّة

أشنع مااتُّهم به ابن حبّان ماذكره الذّهبي نقلاً عن كتاب ذمّ الكلام للهروي عن محمّد بن محمّد قال : (أنكروا على ابن حبّان قوله : النّبوّة العلم والعمل، فحكموا عليه بالزّندقة وهُجر وكُتب إلى الخليفة فيه فكتب بقتله)[1].

والحقّ أنّ هذه الرّواية من الغرابة بمكان ، فإنّنا لانجد لها ذكراً في شيءٍ من كتبه ، بل سياق الرّواية ينبيك ـ كما سبق ـ أنّها كلمةٌ ــ إن كان قالها ــ فقد تكلّف خصومه في فهمها وصرفها إلى معنى مايُروى عن الفلاسفة والزّنادقة الّذين يرون أنّ النّبوّة تُكتسب بطول العلم والتّأمّل والفكر والعمل، وليست هي حكراً على بعض البشر الّذين يصطفيهم الله تعالى للنّبوّة، وحاشا ابن حبّان أن يذهب هذا المذهب وهو الإمام المحدّث الّذي عرف كتاب الله وسنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم ، ولو كان ماقالوه حقاً ماكان هذا الكمّ الضّخم من المؤلّفات في علوم الحديث روايةً ودرايةً ، وإذن لحاول كما فعل الفلاسفة وأهل الزّندقة أن يدلوا بدلاء فارغة محاولين اكتساب صفات النّبوّة، ولكنّ هذا الإمام أفنى عمره ووقته وماله في تعلّم هدي نبوّة خاتم الأصفياء والأنبياء صلوات ربّي عليهم وسلامه ، وتعليمه ونشره ، وهاهو تراث الفلاسفة، هل وُجِد لهم ولو مصنّف واحد يعني بعلوم الوحي، إنّ دون ذلك لخرط القتاد.

وسأبدأ بذكر كلام الذهبي إمام الاعتدال والإنصاف في تأويل مقولة ابن حبّان هذه الّتي رُويت عنه، كدليل على أنّ لها محملاً طيّباً لو أراد القارىء ذلك، ولكنّ الخصم دائماً لايرى إلاّ الوجه الشّائن ،كما قال القائل :

وعين الرضا عن كلّ عيب كليلةٌ

كما أنّ عين السّخط تبدي المساويا

---

[1] السّير ١٦ / ٩٦ ، ومعجم البلدان ١ / ٤١٩ .

قال الذّهبي رحمه الله: (هذه حكاية غريبة وابن حبّان فمن كبار الأئمّة، ولسنا ندّعي فيه العصمة من الخطأ ، لكنّ هذه الكلمة الّتي أطلقها، قد يطلقها المسلم، ويطلقها الزّنديق الفيلسوف ، فإطلاق المسلم لها لاينبغي ، لكن يُعتذر عنه فنقول : لم يرد حصر المبتدأ في الخبر، ونظير ذلك قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**الحجّ عرفة**)[1] ومعلومٌ أنّ الحاجّ لايصير بمجرّد الوقوف بعرفة حاجاً ، بل بقي عليه فروضٌ وواجبات ، وإنّما ذكر مهمّ الحج، وكذا هو ، ذَكَرَ مهمّ النّبوّة إذ من أكمل صفات النّبيّ كمال العلم والعمل، فلا يكون أحد نبياً إلاّ بوجودهما ، وليس كلّ من برز فيهما نبياً، لأنّ النّبوّة موهبةٌ من الحقّ تعالى ، لاحيلة للعبد في اكتسابها، بل بها يتولّد العلم اللّدنّي والعمل الصّالح، وأمّا الفيلسوف فيقول : النّبوّة مكتسبةٌ من العلم والعمل، فهذا كفرٌ ولايريده أبو حاتم أصلاً وحاشاه)[2] .

هذا هو اعتذار الذهبي لابن حبّان ولكني انقل من قيل ابن حبّان مايؤكّده ويقطع القول بأنّه إن صحّت الرّواية عنه لم يرد إلاّ ما ذكره الذّهبي :

أوّلاً : ذكر ابن حبّان في كتابه كثيراً من الأحاديث في الوحي وصفاته وأوّل مانزل منه وآخر مانزل منه وهذا دالٌّ على تعظيمه للوحي وإنّما مصدر ذلك علمه أنّ الوحي هو مصدر النبوة وأنّه لانبوّة بغير وحي ، إضافةً إلى وصفه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بـ (المصطفى) في سائر الصّحيح ممّا يدلّ على اعتباره النّبوّة اصطفاء وليست اجتهاد .

ثانياً : صرّح ابن حبّان في أكثر من موضع بأنّ الوحي قد انقطع وأنّ النبوة قد انقطعت ، قال رحمه الله : "ذِكرُ البيان بأنّ الوحي لم ينقطع عن صفيّ الله صلى الله عليه وسلم إلى أن أخرجه الله من الدّنيا إلى جنّته"[3] .

---

(1) أخرجه أحمد ٤ / ٣٣٥ ، وأبوداود في المناسك باب من لم يدرك عرفة ، والتّرمذي في الحجّ باب ماجاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج ، والنّسائي في الحج باب فرض الوقوف بعرفة ، وابن ماجة في المناسك باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع ، عن عبدالرّحمن بن يعمر الدّيلي رضي الله عنه .

(2) السّير ١٦ / ٩٦ - ٩٧ .

(3) الإحسان ٢٣٢ .

وقال معلّقاً على حديث عمران بن حصين في فداء الأسرى "...وأمّا اليوم فقد انقطع الوحي ..." [1] ، وقال : " ذِكرُ البيان بأنّ الرّؤيا المبشرّة تبقى في هذه الأمّة عند انقطاع النّبوّة " ، ثمّ ساق حديث أم كرز الكعبية مرفوعاً : (**ذهبت النّبوّة وبقيت المبشّرات**) [2] .

وقال معلّقاً على حديث أنس مرفوعاً : (**بُعثت أنا والسّاعة هكذا**) وأشار بأصبعيه ، : " يشبه أن يكون معنى قوله صلّى الله عليه وسلّم : **بُعثت أنا والسّاعة كهاتين**، أراد به أنّي بُعثت أنا والسّاعة كالسّبابة والوسطى من غير أن يكون بيننا نبيّ آخر، لأنّي آخر الأنبياء ، وعلى أمّتي تقوم السّاعة " [3] .

وقال : " ذِكرُ نفي المصطفى صلّى الله عليه وسلّم كون النّبوّة بعده إلى قيام الساعة " ، ثمّ ساق حديث أمّ سلمة أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لعلي رضي الله عنه : (**أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، غير أنّه لانبيّ بعدي**)[4] .

ثالثاً : جاء في كلام ابن حبّان مايُفهم منه تفريقه بين مقامات النّبوّة ومقامات الولاية وأنّه لايُوصِلُ أحداً من البشر إلى درجة النّبوّة أبداً .

قال معلّقاً على حديث : (**إنّه ليُغان على قلبي ...**) : " قوله صلّى الله عليه وسلّم : **إنّه ليُغان على قلبي** ، يريد به : يَرِدُ عليه الكرب من ضيق الصّدر ممّا كان يتفكّر فيه بأمر اشتغاله بطاعة عن طاعة ...لا أنّه كان يُغان على قلبه من ذنب يذنبه كأمّته " [5] .

---

[1] الإحسان ١١ / ١٩٩ .

[2] الإحسان ١٣ / ٤١١ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٦ / ٣٨١ ، وابن ماجة في التّعبير باب الرّؤيا الصّالحة يراها المسلم ، وله شواهد يصحّ بها .

[3] الإحسان ١٥ / ١٢ : ١٣ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الرّقاق باب قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (**بُعثت أنا والسّاعة كهاتين**) ومسلم في الفتن باب قرب السّاعة .

[4] الإحسان ١٥ / ١٥ ، والحديث صحّ من مسند سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه ، أخرجه البخاري في فضائل الصّحابة باب مناقب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومسلم في فضائل الصّحابة باب فضائل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

[5] الإحسان ٣ / ٢١١ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الذّكر والدّعاء باب استحباب الاستغفار والإكثار منه عن الأغرّ المزني رضي الله عنه .

وقال معلّقاً على حديث الإسراء : " وأمّا قوله صلّى ا الله عليه وسلّم : (**فشقّ مابين هذه إلى هذه**) فكان ذلك له فضيلة فُضّل بها على غيره، وأنّه من معجزات النّبوّة ، إذ البشر إذا شُقّ عن موضع القلب منهم ثمّ استخرج قلوبهم ماتوا) [1] ، فهو يشير هنا إلى كون ذلك لايصل إليه بشر لكونه من مقامات النّبوّة ، ولو كان يرى النّبوّة مكتسبة لما جعل ذلك من خصائص النّبوّة مادام أيّ إنسان يستطيع بالاجتهاد والعلم والعمل أن يكون نبياً ، نعوذ با لله من ذلك ، وأظنّ أنّه قد اتضح لذي بصيرة براءة ابن حبّان من هذه التّهمة وأنّها لاتعدوا كونها من آثار تلك المناوشات العلميّة الّتي نشبت بينه وبين خصومه وا لله المستعان وهو أعلم بالصواب .

[1] الإحسان ١ / ٢٤٤ ، وحديث الإسراء أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ذكر الملائكة ، ومسلم في الإيمان باب الإسراء برسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم إلى السّماوات .

المبحث السّابع : عقيدته في الإسراء والمعراج

الإسراء : هو السّير في اللّيل ، يُقال سرى يسري سُرىً ومسرىً.[1]

والمعراج : هو الصّعود والارتقاء وهو أيضاً السّلّم والمصعد .[2]

وقد أسرى الله سبحانه وتعالى بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم من المسجد الحرام بمكّة المكرّمة إلى بيت المقدس في اللّيل، ثمّ عَرَجَ به إلى حيث شاء عزّ وجلّ وقرّبه إليه في السّماء السّابعة، وفَرَضَ عليه الصّلاة وكان من أمره ماكان، وقد اختلف العلماء في وقت وقوعه ، قال بعضهم : قبل الهجرة بثمانية أشهر وقال: آخرون بل بسنة ، وقال بعضهم : بعد البعثة بخمس سنين، والذي لاشك فيه أنه بعد البعثة وقبل الهجرة، وأرجح الأقوال أنه بعد البعثة بخمس سنين، رجّح ذلك القاضي عياض كما نقله عنه النووي .[3]

وخبر الإسراء طويلٌ متعدّد الروايات ، لكنّه ثابت بالكتاب والسّنة ، وهو من دلائل النبوة الباهرة وآيات الله العظيمة لاينكره إلا ملحد ولايتشكك فيه إلا مشرك وثني، قال الله تعالى : **{ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله }** : **الإسراء ١** : وقد ذكر ابن حبان مسألة من معتقد أهل السنة في الإسراء ، وذلك أن أهل البدع والملحدين لما لم يستطيعوا الطعن في الإسراء والمعراج لثبوت النقل به، لجؤوا إلى تفريغه من محتواه فقالوا : إنما كان مناماً أُريه النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا القول لم يصح النقل به عن أحدٍ من الصّحابة ولله الحمد، وذهب إليه بعض المنتسبين للعلم، ولكن الذي عليه جماهير السلف والخلف أهل السنةوالجماعة، أن الإسراء والمعراج كان حقيقةً بروحه وجسده الشريف صلى الله عليه وسلم .

قال شارح الطحاوية : (ومما يدلّ على أن الإسراء بجسده في اليقظة قوله تعالى : **{ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى**

---

[1] القاموس المحيط ٤ / ٤٩٤ ، والنهاية لابن الأثير ٢ / ٣٦٤ .

[2] القاموس ١ / ٤١٣ ، والنهاية ٣ / ٢٠٣ .

[3] شرح مسلم ٢ / ٢٠٩ وانظرسيرة ابن هشام ٢ / ٤١ والبداية والنهاية ٣ / ١٥٥.

المسجد الأقصى ﴾ والعبد عبارةٌ عن مجموع الرّوح والجسد، هذا هو المعروف عند الإطلاق الصّحيح، فيكون الإسراء بهذا المجموع، ولايمتنع ذلك عقلاً، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة، وذلك يؤدّي إلى إنكار النّبوّة وهو كفر)[1] .

وقال الشّيخ حافظ الحكمي[2] : (ثمّ الّذي دلّت عليه الآيات والأحاديث أنّ الإسراء والمعراج كان يقظةً لامناماً ... ولو كان الإسراء والمعراج بروحه في المنام لم تكن معجزةً ولا كان لتكذيب قريش بها وردّهم عليه معنى ، ولو كان ذلك مناماً لم يستبعدوه لأنّ الإنسان قد يرى في منامه أبعد من بيت المقدس)[3] .

وقال الشّيخ عبدا لله الغنيمان : (والحقّ أنّهما وقعا يقظةً لامناماً، وأنّ ذلك ببدنه وروحه ، هو قول جمهور أهل السّنّة ، والدّليل قوله تعالى: ﴿ **سبحان الّذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى** ﴾ والتّسبيح إنّما يكون عند الأمور العظيمة والآيات الباهرة ولو كانت مناماً لم يكن فيه كبير أمر لأنّه أمر لايُستنكر)[4] .

وقال المروذي : (قلت لأبي عبدا لله : يُحكى عن موسى بن عقبة أنّه قال : أحاديث الإسراء منام ، فقال : هذا كلام الجهميّة)[5]

وكذلك قال ابن حبّان رحمه ا لله : "وجملة هذه الأشياء في الإسراء رآها رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم بجسمه عياناً دون أن يكون ذلك رؤيا أو تصويراً صُوّر له ، إذ لو كان ليلة الاسراء ومارأى فيها نوماً دون اليقظة لاستحال ذلك لأنّ البشر قد يرون في المنام السّماوات والملائكة والأنبياء والجنّة والنّار وما أشبه هذه الأشياء، فلو كان رؤية المصطفى صلّى ا لله عليه

---

[1] شرح الطّحاويّة ١ / ٢٧٦ - ٢٧٧ .

[2] حافظ بن أحمد بن علي الحكمي من علماء جيزان له تصانيف ممتعة توفّي بمكّة سنة ١٣٧٧ هـ ، الأعلام للزّركلي ٢ / ١٥٩.

[3] معارج القبول ٢ / ٣٨٠ .

[4] شرح كتاب التّوحيد ٢ / ٤٤٥ .

[5] مسائل الإمام أحمد ٢ / ١٤١ .

وسلّم ما وصف في ليلة الإسراء في النّوم دون اليقظة لكانت هذه حالة يستوي فيها معه البشر، إذ هم يرون في المنامات مثلها، واستحال فضله، و لم تكن حالةً معجزةً يفضل بها على غيره، ضدّ قول من أبطل هذه الأخبار وأنكر قدرة الله جلّ وعلا وإمضاء حكمه لما يحبّ كما يحبّ جلّ ربّنا وتعالى عن مثل هذا وأشباهه " [1] .

وبذلك وافق ابن حبّان ماعليه عامّة السّلف في هذه المسألة الخطيرة ، اتّباعاً لظاهر النّصوص من الكتاب والسّنّة ، والله أعلم .

---

[1] الإحسان ١ / ٢٤٦ - ٢٤٧ .

المبحث الثّامن : عقيدته في عصمة الأنبياء

قال في النّهاية : (العصمة : المنعة ، والعاصم : المانع الحامي)[1]، والمراد هنا بالعصمة حفظ الله نبيّه صلّى الله عليه وسلّم من الذّنوب والمعاصي.

والكلام عن عصمة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم داخل في الكلام عن عصمة الأنبياء عموماً ، فقد تنازع النّاس في ذلك وذهبوا فيها مذاهب شتّى .

أمّا فيما يخصّ تبليغ الرّسالة ، وفيما يُخبرون عن الله تعالى فالأمّة مجمعةٌ على أنّهم معصومونَ في ذلك ، ولم يخالف في ذلك أحدٌ من المسلمين ، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى : (والكلام في هذا المقام مبني على أصل : وهو أنّ الأنبياء عليهم صلوات الله معصومون فيما يُخبرون عن الله تعالى ، وفي تبليغ رسالاته باتّفاق الأمّة ، ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه ، كما قال تعالى : ﴿ **قولوا آمنّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النّبيّون من ربّهم لانفرّق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون** ﴾ ، بخلاف غير الأنبياء فإنّهم ليسوا بمعصومين كما عُصم الأنبياء ، ولو كانوا أولياء لله ، ولهذا من سبّ نبياً من الأنبياء قُتل باتّفاق الفقهاء ، ومن سبّ غيرهم لم يقتل)[2] .

وقال أيضاً : (وقد اتّفق المسلمون على أنّهم معصومون فيما يبلّغون عن الله ، فلا يجوز أن يقرّهم على الخطأ في شيءٍ ممّا يبلّغونه عنه)[3] .

وأمّا العصمة في غير ما يتعلّق بتبليغ الرّسالة فالنّاس متنازعون فيها ، فذهب طائفةٌ من الرّافضة إلى أنّ الأنبياء لا يجوز عليهم الكبائر ولا الصّغائر لا عمداً ولا سهواً [4] .

[1] النّهاية ٣ / ٢٤٩ ، وانظر القاموس المحيط ٤ / ٢١٢ - ٢١٣ .

[2] الفتاوى ١٠ / ٢٩٠ .

[3] منهاج السّنّة ٢ / ٣٩٦ .

[4] مقالات الإسلاميّين ١ / ١٢١ ، والفتاوى ٤ / ٣٢٠ .

وذهب أهل السّنّة والجماعة بل جمهور علماء المسلمين إلى أنّ الأنبياء معصومون من الكبائر والفواحش ، وكذلك من تعمّد الصّغائر ويوفّقون إلى التّوبة منها باستدراك الله تعالى عليهم ، وتوفيقهم إلى الصّواب منه تعالى ، قال أبومحمّد بن حزم رحمه الله تعالى : (وذهب جميع أهل الإسلام من أهل السّنّة والمعتزلة والنّجّارية[1] والخوارج والشّيعة إلى أنّه لا يجوز البتّة أن يقع من نبيّ أصلاً معصية بعمد لا صغيرة ولا كبيرة ، وهذا قولنا الّذي ندين الله تعالى به، ولا يحلّ لأحدٍ أن يدين بسواه ، ونقول : إنّه يقع من الأنبياء السّهو عن غير قصد ويقع منهم أيضاً قصد الشّيء يريدون به وجه الله تعالى ، والتّقرّب به منه ، فيوافق خلاف مراد الله تعالى إلاّ أنّه تعالى لا يقرّهم على شيءٍ من هذين الوجهين أصلاً ، بل ينبّههم على ذلك ولابدّ إثر وقوعه منهم ، ويظهر عزّ وجلّ ذلك لعباده ، ويبيّنه لهم)[2] .

وأمّا شيخ الإسلام ابن تيميّة فقال : (وأمّا وجوب كونه قبل البعثة لا يخطئ ولا يذنب فليس في النّبوّة ما يستلزم هذا ، وقول القائل : لو لم يكن كذلك لم تحصل الثّقة فيما يبلّغون عن الله ،كذبٌ صريح ، فإنّ من آمن وتاب حتّى ظهر فضله وصلاحه ونبّأه الله بعد ذلك : كما نبّأ إخوة يوسف[3] ولوطاً وشعيباً ، وأيّده الله بما يدلّ على نبوّته فإنّه يُوثق بما يبلّغه عن الله كما يُوثق بمن لم يفعل ذلك .

ثمّ يُقال : جمهور المسلمين على أنّ النّبيّ لابدّ أن يكون من أهل البرّ والتّقوى متّصفاً بصفات الكمال ، ووجوب بعض الذّنوب أحياناً مع التّوبة الماحية الرّافعة لدرجتة إلى أفضل ممّا كان عليه لا ينافي ذلك .

والذّنوب إنّما تضرّ أصحابها إذا لم يتوبوا منها ، والجمهور الّذين يقولون بجواز الصّغائر عليهم يقولون : إنّهم معصومون من الإقرار عليها)[4] .

---

(1) فرقة من المعتزلة تنسب إلى الحسين بن محمّد النّجّار ، الملل والنّحل للشّهرستاني ١ / ٧٥ .

(2) الفِصَل لابن حزم ٤ / ٥ ـ ٦ .، وجوّز بعض الخوارج أن يبعث الله نبيّاً يكفر بعد تبليغه الرّسالة ، الملل والنّحل / ١١٥ .

(3) دعوى نبوّة إخوة يوسف فيها نظر ، فإنّها لم تثبت بطريق يُعتمد عليه ، انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٥١١ والفصل لابن حزم ٤/٢١

(4) بحذفٍ واختصار من منهاج السّنّة ٢ / ٣٩٣ ـ ٤٠٠ .

وقال السّفّاريني : (قال السّعد التفتازاني[1] : وفي عصمتهم من سائر الذّنوب تفصيل : وهو أنّهم معصومون عن الكفر قبل الوحي وبعده بالإجماع ، وكذا عن تعمّد الكبائر عند الجمهور ، وإنّما الخلاف في أنّ امتناعه بدليل السّمع أو العقل ؟، وأمّا السّهو فجوّزه الأكثرون ، وأمّا الصّغائر فتجوز عمداً عند الجمهور خلافاً للجبّائي[2] وأتباعه ، وتجوز سهواً بالاتّفاق إلاّ مايدلّ على الخسّة كسرقة قمحة أو تطفيف حبّة ، لكنّ المحقّقين شرطوا أن يُنهَوا عنه فينتهوا ، هذا كلّه بعد الوحي)[3] .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة : (والقول الّذي عليه جمهور النّاس وهو الموافق للآثار المنقولة عن السّلف : إثبات العصمة من الإقرار على الذّنوب مطلقاً ، فالقائلون بالعصمة احتجّوا بأنّ التّأسّي بهم مشروع وذلك لا يجوز مع تجويز كون الأفعال ذنوباً ، ومعلومٌ أنّ التّأسّي إنّما هو مشروعٌ فيما أُقِرّوا عليه دون ما نُهوا عنه ورجعوا عنه ،كما أنّ الأمر والنّهي إنّما تجب طاعتهم فيما لم يُنسخ منه ، فأمّا ما نُسخ من الأمر والنّهي فلا يجوز جعله مأموراً به ولا منهيّاً عنه فضلاً عن وجوب اتّباعه والطّاعة فيه وكذلك ما احتجّوا به من أنّ الذّنوب تنافي الكمال أو أنّها ممّن عظُمت عليه النّعمة أقبح أو أنّها توجب التنفير ، ونحو ذلك من الحجج العقليّة ، فهذا إنّما يكون مع البقاء على ذلك وعدم الرّجوع وإلاّ فالتّوبة النّصوح الّتي يقبلها الله يرفع بها صاحبها الى أعظم ممّا كان عليه ، كما قال بعض السّلف : كان داوود عليه السّلام بعد التّوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، وقد قال تعالى : ﴿ **إنّ الله يحبّ التّوابين ويحبّ المتطهّرين** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات** ﴾ ، والله تعالى لم يذكر في القرآن شيئاً من ذلك عن نبيّ من الأنبياء إلاّ مقروناً بالتّوبة والاستغفار ،كقول آدم وزوجته : ﴿ **ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من**

---

(1) أبو سعيد سعد الدّين مسعود بن عمر التّفتازاني الإمام الكبير صاحب التّصانيف المشهورة ، منها شرح العقائد النّسفيّة ، توفّي سنة ٧٩٢ ، البدر الطّالع ٢ / ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(2) أبو علي محمد بن عبدالوهاب البصري شيخ المعتزلة المتوفى سنة ٣٠٣هـ ، سير أعلام النبلاء ١٤ / ١٨٣ .

(3) لوامع الأنوار ٢ / ٣٠٥ .

الخاسرين﴾ ، وقول إبراهيم عليه السّلام : **﴿ ربّنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾** .

والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا لا يؤخّرون التّوبة ، بل يسارعون إليها ويسابقون إليها فلا يؤخّرون ولا يصرّون على الذّنب بل هم معصومون من ذلك .

ومن أخّر ذلك زمناً قليلاً كفّر الله ذلك بما يبتليه به كما فعل بذي النّون صلّى الله عليه وسلّم على المشهور من أنّ إلقاءه كان بعد النّبوّة)[1] .

ونخلص هنا إلى أنّ الأنبياء عليهم السّلام معصومون من الشّرك والكفر والكبائر والفواحش وصغائر الخسّة، وإن كان قد يقع منهم الخطأ من غير قصد أو الصّغائر الّتي يريدون بها وجه الله لا يقرّهم الله عليها ، بل يُوفّقون للتّوبة والاستغفار ، وهذا من لوازم البشريّة ، ولا شكّ أنّهم أُسوةٌ لنا في التّوبة كما هم أُسوةٌ في العبادة والطّاعة .

وإذ قد عرفنا ذلك فلا داعي للاشتغال بمن جوّز عليهم الكبائر والفواحش لأنّه قول بلا علم وقدح في مقام النّبوّة ،كما أنّه محض كذب والكذب لايعجز عنه أحد .

وأمّا ابن حبّان فذهب إلى أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لايجوز عليه الذّنب كأمّته ، قال بعد حديث أبي هريرة رضي الله عنه : (**ما رأيت أحداً أكثر أن يقول : استغفر الله وأتوب إليه من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم**) : " ولاستغفاره صلّى الله عليه وسلّم معنيان : أحدهما : أنّ الله جلّ وعلا بعثه معلّماً لخلقه قولاً وفعلاً ، فكان يعلّم أمّته الاستغفار والدّوام عليه لما علم من مقارفتها المآثم في الأحايين باستعمال الاستغفار .

والثّاني : أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان يستغفر لنفسه عن تقصير الطّاعات لا الذّنوب ، لأنّ الله عصمه من بين خلقه وكان من خلقه صلّى الله عليه وسلّم أنّه إذا أتى بطاعة داوم عليها و لم يقطعها ، فربّما اشتغل بطاعة

[1] ما سبق ملخّص من الفتاوى ١٠ / ٢٩٣ - ٣١٠ ، في بحث طويل .

عن طاعة ، فكان استغفاره لتقصير طاعة أن أخّرها عن وقتها من النّوافل، لا أنّه كان يستغفر من ذنوب يرتكبها "[1].

وقال بعد حديث الأغرّ المزني رضي الله عنه مرفوعاً : (**إنّه ليُغان**[2] **على قلبي، وإنّي لأستغفر الله كلّ يومٍ مئة مرّة**) : " قوله : **إنّه ليُغان على قلبي**، يريد به : يرِد عليه الكرب من ضيق الصّدر ممّا كان يتفكّر فيه صلّى الله عليه وسلّم بأمر اشتغاله بطاعة عن طاعة ... لا أنّه كان يُغان على قلبه من ذنبٍ يذنبه كأمّته صلّى الله عليه وسلّم "[3] ، والمفهوم من كلامه أنّه يرى عصمته صلّى الله عليه وسلّم من جميع الذّنوب و لم يستثن الصّغائر من غيرها فهو موافقٌ لقول من قال بأنّ الأنبياء لاتجوز عليهم الصّغائر أيضاً ،وبمعناه قال ابن حزم رحمه الله .

وربّما كان من جوّز عليهم الصّغائر يعدّ بعض اجتهاداته صلّى الله عليه وسلّم صغائر ، مثل قصّته مع ابن أمّ مكتوم، وأخذه الفداء في أسارى بدر ، والحقيقة أنّ هذه الوقائع مع كونها نزل من الله تعالى إليهالاستدراك والعتاب عليها ، إلاّ أنّها لم تكن عن تعمّد الذّنب ، ولذلك فكلّ ما ادُّعي أنّه ذنبٌ للنّبيّ فهو من هذا القبيل ، والأنبياء كانوا يتوبون إلى الله تعالى منها ويستغفرون منها بل يعدّونها عظائم ، وهذا من كمال إيمانهم وعظيم فضلهم عليهم السّلام ، وكما قيل : حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين، وأمّا أنّ الأنبياء كانوا أو قد يجوز على أحدهم أن يتعمّد الذّنب وهو يعلم أنّ الله نهى عنه هكذا بدون تأويل فلا أبعد من هذا القول عن النّصوص والله أعلم .

وعلى العموم فإذا اتّفق الجميع على أنّهم في أمور البلاغ والرّسالة معصومون لا شكّ ولا ريب ، فالخلاف ليس منه كبير فائدة، حتّى إنّ شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى أصاب من أهل التّأويل والتّحريف في هذه المسألة مقتلاً حين قال : (ثمّ إنّ العصمة المعلومة بدليل الشّرع والعقل

[1] الإحسان ٣ / ٢٠٨ والحديث إسناده لابأس به وله شواهد من حديث ابن عمر وغيره .

[2] قال ابن الأثير : (الغين : الغيم ، أراد ما يغشاه من السّهو الّذي لايخلو منه البشر ، لأنّ قلبه كان أبداً مشغولاً بالله تعالى ، فإن عرض له وقتاً ما عارضٌ بشري يشغله من أمورالأمّة والملّة عدّ ذلك ذنباً ، فيفزع إلى الاستغفار) النّهاية ٣ / ٤٠٣ .

[3] الإحسان ٣ / ٢١١ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الذّكر والدّعاء باب استحباب الاستغفار .

والإجماع ، وهي العصمة في التّبليغ لم ينتفعوا بها، إذ كانوا لا يُقرّون بموجب ما بلّغته الأنبياء وإنّما يقرّون بلفظ حرّفوا معناه، أو كانوا فيه كالأمّيّين الّذين لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانيّ، والعصمة الّتي كانوا ادّعوها لو كانت ثابتةٌ لم ينتفعوا بها ولا حاجة بهم إليها عندهم، فإنّها متعلّقةٌ بغيرهم ، لا بما أُمروا بالإيمان به ، فيتكلّم أحدهم على الأنبياء بغير سلطان من الله، ويدع مايجب عليه من تصديق الأنبياء وطاعتهم، وهو الّذي تحصل به السّعادة وبضدّه تحصل الشّقاوة قال تعالى : ﴿ **فإنّما عليه ماحُمّل وعليكم ماحُمّلتم** ﴾)[1].

---

(1) الفتاوى ١٠ / ٣٩٥ .

المبحث التاسع : **عقيدته في تعرض النبي صلى الله عليه وسلم للسحر**

السّحر حقيقة أثبتها القرآن في أكثر من موضع ، قال تعالى : **{ واتّبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السّحر ..}** : **البقرة ١٠٢**، وقال :**{ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحرٍ عظيم }** : **الأعراف ١١٦** ، وقال : **{ قال موسى ماجئتم به السحر إن الله سيبطله }** : **يونس ٨١** ، وقال صلى الله عليه وسلم : (**اجتنبوا الموبقات : الشرك بالله والسحر**) [١] وقد أنكره طائفة من أهل الكلام والاعتزال وقالوا : إن السحر مجرد تخييل ولاحقيقة له ، كما لاتأثير له في حياة ولاموتٍ ولامرضٍ ولاحلٍّ ولاعقد ، وهذا خلافُ ماعليه السلف وماجاءت به الآثار والأخبارُ ، قال ابن القيم رحمه الله : (والسحر الذي يؤثر مرضاً وثقلاً وعقداً وحباً وبغضاً ونزيفاً وغير ذلك من الآثار موجودٌ تعرفه عامة الناس وقوله تعالى : **{ ومن شر النفاثات في العقد }** دليل على أن هذا النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه ، ولو كان الضرر لايحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً لم يكن للنفث ولا للنفاثات شرٌّ يُستعاذ منه) [٢]، وقال المازريّ : (مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقةً كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة ، خلافاً لمن أنكر ذلك ونفى حقيقته وأضاف مايقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها) [٣].

وزيادةً على إنكار حقيقة السحر ، فقد أنكر بعض أهل البدع أن يكون النبي صلى الله وسلم قد سُحِر بناءً على أصلٍ آخر ، وهو قولهم : إنّ ذلك يقدح في مقام النبوة ، ومُعارضٌ بقوله تعالى : **{ والله يعصمك من**

---

[١] أخرجه البخاري في الطب باب الشرك والسحر من الموبقات عن أبي هريرة رضي الله عنه مختصراً .

[٢] التفسير القيم ص ٥٧١ .

[٣] شرح مسلم ج١٤ / ١٧٤ ، وانظر أيضا فتح الباري ١٠ / ٢٢٢ ــ ٢٢٤ وشرح الطحاوية ٢ / ٧٦٤ ــ ٧٦٦ .

النّاس } : **المائدة ٦٧** ، وأنّه لو كان سُحر لكان ذلك موجباً للتشـــكك فى كمال التبليغ .

والثابت في صحيح السّنّة أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد سُحر وأثّـــر فيه السّحر من حيث إنّه أصبح يُهيّأ له أنّه يأتي أهله و لم يأتهم ، ويخيل له أنّـــه يفعل الشّيء و لم يفعله .

قال ابن حبّان رحمه الله : " ذِكرُ وصف ما طُبّ النّبيّ صلّى الله عليـــه وسلّم بعد قدومه المدينة " ، ثمّ ساق حديث عائشة قالت : **سحر النّبيّ صلّـــى الله عليه وسلّم يهوديٌّ من يهود بنى زُريق يُقال له : لبيد بـــن الأعصـــم ، حتّى كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يُخيّل اليه أنّه يفعل الشّيء وما يفعله ، حتّى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة دعا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ثمّ دعـا ثمّ قال : (يا عائشة أشعرت أنّ الله جلّ وعلا قد أفتاني فيما أستفتيته ؟ قد جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي ، وجلس الآخر عنـــد رجلـــي ، فقال الّذي عند رجلي للذي عند رأسي : ما وجع الرجل ، قال : مطبـوب ، فقال : ومنْ طبّه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال : فى أيّ شيء ؟ قـال : فى مُشطٍ ومُشاطة وجفّ طلعةِ ذَكَر** [1] ، **قال : وأين هو ؟ قال فى بـئر ذي ذروان ، قال : فأتاها رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم فى أناسٍ من أصحابـه ثمّ جاء فقال: (يا عائشة ، فكأنّ ماءها نقاعة الحنّاء ولكأنّ نخلـــها رؤوس الشّياطين ، فقلت : يا رسول الله فهلا أحرقته أو أخرجته ؟ قال : (أمّا أنـا فقد عافاني الله ، وكرهت أن أثير علـــى النّـــاس منـــه شـــيئاً)، فـأَمَرَ بها فدُفنت.** [2]

قال ابن القيم رحمه الله : (قد أنكر هذا طائفةٌ من النّاس وقـــالوا : لا يجوز هذا عليه وظنّوه نقصاً وعيباً ، وليس الأمر كما زعموا ، بل هـــو مـــن

---

[1] قال النووي : المشاطة بضم الميم وهي الشعر الذي يسقط من الرأس أو اللحية عند تسريحه ، والجف ووفي أكثر النسخ (جـب) بالباء وهما بمعنى وهو وعاء طلع النخل وهو الغشاء الذي يكون عليه ويطلق على الذكر والأنثى فلهذا قيده في الحديث بقولـــه : طلعة ذكر وهو بإضافة طلعة إلى ذكر ، شرح مسلم ج١٤ / ١٧٧ .

[2] الإحسان ١٤ / ٥٤٥ ـــ ٥٤٦ ، والحديث أخرجه أيضا البخاري في الطب باب السحر ، ومسلم في السلام باب السحر .

جنس ما كان يعتريه من الأسقام والأوجاع ، وهو مرضٌ من الأمراض وإصابته به كإصابته بالسّم لا فرق بينهما ... قال القاضي عياض : والسّحر مرضٌ من الأمراض وعارضٌ من العلل يجوز عليه صلّى الله عليه وسلّم ، كأنواع الأمراض ممّا لا يُنكر ، ولا يقدح فى نبوّته ، وأمّا كونه يُخيّل اليه أنّه فعل الشّيء ولم يفعله ، فليس فى هذا ما يدخل عليه داخلةً على شيء من صدقه لقيام الدّليل والإجماع على عصمته من هذا ، وإنّما هذا فيما يجوز طروّه عليه فى أمر دنياه الّتى لم يُبعث لسببها ... وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر)[1] .

وحكى الحافظ ابن حجر فى الفتح عن المازري قوله : (أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث وزعموا أنّه يحطّ من منصب النّبوّة ، ويشكّك فيها وزعموا أنّ تجويز هذا يعدم الثّقة بما شرعوه من الشّرائع ـ أي الأنبياء ـ إذ يحتمل على هذا أن يخيّل اليه أنّه يرى جبريل وليس هو ثمّ ، وأنّه يوحى إليه بشيء ، ولم يوح إليه بشيء .

قال المازري : وهذا كلّه مردود ، لأنّ الدّليل قام على صدق النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيما يبلّغه عن ربّه وعلى عصمته فى التّبليغ ... والمعجزات شاهدات بتصديقه ، فتجويز ما قام الدّليل على خلافه باطل ... وأمّا ما يتعلّق ببعض أمور الدّنيا الّتى لم يُبعث من أجلها ولا كانت الرّسالة من أجلها فهو فى ذلك عرضةٌ لما يعترض البشر كالأمراض ... قال الحافظ : وفى مرسل سعيد بن المسيّب (حتّى كاد أن ينكر بصره) ، قال عياض : فظهر بهذا أنّ السّحر إنّما تسلّط على جسده وظواهر جوارحه لا على تمييزه ومعتقده ... وقال بعض العلماء : لا يلزم من أنه كان يظنّ أنّه فعل الشّيء ولم يكن فعله أنّه يجزم بفعله ذلك ... وإنّما يكون ذلك من جنس الخاطر يخطر ولا يثبت ،

---

[1] زاد المعاد ٤ / ١٢٤ .

فلا يبقى على هذا للملحد حجّة... وقال المهلّب : صون النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم من الشّياطين لا يمنع إرادتهم كيده) [1] .

هذا إضافةً إلى أنّ السّحر أثّر على أفعاله هو في نفسه ، فلم يؤثّر على علاقته بغيره ، فلم يكن يتقوّل على أحد مثلاً ، ولم يكن يدّعي رؤيته من لم يره ، بل كان تأثير السّحر فقط في ظنّه أنّه يفعل الشّيء ولم يفعله ، إذن فلا يُعارض ما ثبت من كونه صلّى ا لله عليه وسلّم سُحر الأصل الثّابت وهو عصمته وصدقه فى أمور الدين وتبليغ الشرع عن ا لله تعالى ،وا لله تعالى أعلم وأحكم .

[1] ملخّصاً من الفتح ١٠ / ٢٢٦ - ٢٢٧ .

المبحث العاشر : عقيدته في كرامات الأولياء

الكرامات لغةً :جمع كرامة ، وهي : من الكرم ضدّ اللّؤم ، ومناسبتها للّفظ الشّرعيّ أنّها كرامةٌ وإكرام من الله تعالى لعبده ، أو هي تشريف وتعظيم ،[1] وهي في الشّرع : خارقٌ للعادة يجريه الله سبحانه وتعالى على يد بعض الصّالحين من أتباع الرّسل إكراماً من الله له ببركة اتّباعه للرّسل صلوات الله عليهم ، وليس كلّ ولي تحصل له كرامة ، وإنّما تحصل لبعضهم إمّا تقويةً لإيمانهم أو لحاجتهم أو لإقامة الحجّة على خصمه المعارض للحق .

والأولياء : جمع وليّ ، ومدار هذه الكلمة في اللّغة على القرب والدّنو والتّتابع ، والمحبّة والنّصرة ،[2] ومناسبتها للّفظ الشّرعي واضحة ، فالوليّ : هو حبيب الله ونصيره وهو القريب منه سبحانه ، والوليّ لاينال هذه الدّرجة إلاّ بتتابع الطّاعات والقربات منه لله عزّ وجل ، ومدار الولاية الشّرعيّة على شدّة التّقوى وتحقيق الإخلاص ،كما قال تعالى : ﴿ **ألا إنّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، الّذين آمنوا وكانوا يتّقون** ﴾ : **يونس ٦٢ ٦٣** فكلّ مؤمن تقيٍّ وليٌّ لله عُزّ وجلّ بقدر إيمانه وتقواه .

والأولياء الّذين لم تظهر لهم كرامة لا يدلّ ذلك على نقصهم ، كما أنّ الّذين وقعت لهم الكرامة لا يدلّ ذلك على أنّهم أفضل من غيرهم .

وموضوع الكرامات والأولياء من المواضع التى حصل فيها الخبط والإفراط عند بعض الفرق ، فذهبت المعتزلة والجهميّة وغيرهم كابن حزم وأبي إسحاق الإسفرائيني[3] الى إنكارها ورفضها بناءاً على أنّ خارق العادة

---

(1) انظر القاموس المحيط ٤ / ٢٤٠ ، وانظر تهذيب اللّغة ١٠ / ٢٢٣ .

(2) انظر القاموس ٤ / ٥٨٣ .

(3) إبراهيم بن محمّد بن إبراهيم بن مهران فقيه أصوليّ من علماء الشّافعيّة توفّي سنة ٤١٨ هـ ، السّير ١٧ / ٣٥٣ .

من مميّزات النّبيّ فإذا حصل مع غير النّبيّ لم يكن له ميزة عن غيره و لم يعرف صدقه من كذبه [1] .

وعلى هؤلاء ردَّ ابن حبّان وأورد من النّصوص ما يثبت به كرامة الأولياء شرعاً وعقلاً ، قال رحمه الله : " ذِكرُ الخبرالمدحض قول من أبطل وجود المعجزات فى الأولياء دون الأنبياء " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة مرفوعاً : (**رُبّ أشعث ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرّه**) [2] .

وكرّر نفس التّرجمة ، ثمّ ساق تحتها حديث أبي هريرة مرفوعاً : (**بينما رجلٌ يسوق بقرةً فأراد أن يركبها فالتفتت إليه فقالت : إنّا لم نُخلق لهذا ، إنّما خُلقنا لِيُحرث علينا فقال من حوله : سبحان الله ! فقال : آمنت به أنا وأبو بكر وعمر ...**) [3] .

وقال : " ذِكرُ الخبرالدّال على إثبات كون المعجزات فى الأولياء دون الأنبياء على حسب نيّاتهم وصحّة ضمائرهم فيما بينهم وبين خالقهم " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة مرفوعاً فى الرّجلين من بني إسرائيل أقرض أحدُهما الآخر وبعد مدّة وفّاه عن طريق خشبة وضعها فى البحر ووكّل الله فى أدائها ، فصارت الخشبة فى يد المقرِض ففتحها فإذا فيها ماله ورسالة من المقترض فى قصة طويلة . [4]

وقال " ذِكرُ الخبرالمدحض قول من أبطل وجود المعجزات إلاّ فى الأنبياء " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة مرفوعاً : (**بينما امرأة ترضع ابنها مرّ بها راكبٌ وهى ترضعه فقالت : اللّهم لا تمت ابني حتّى يكون مثل هذا ، قال: اللّهم لا تجعلني مثله ، ثمّ رجع إلى الثّدي فمُرّ بامرأة تُلعن فقالت :**

[1] انظر مقالات الإسلاميّين ٢ / ١٢٥ ـ ١٢٦ ، والفصل لابن حزم ٥ / ٩٩ ومابعدها ، وطبقات السّبكي ٤ / ٢٦٠ (حاشية) والنّبوّات لشيخ الإسلام ص٢ .

[2] الإحسان ١٤ / ٤٠٣ ، والحديث أخرجه أيضا مسلم في البرّ والصّلة باب فضل الضّعفاء والخاملين . أشعث : أي متفرّق الشّعر ، والطّمر هو الثّوب الخلق ، انظر النّهاية لابن الأثير ٢ / ٤٧٨ ، ٣ / ١٣٨ .

[3] الإحسان ١٤ / ٤٠٥ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الأنبياء باب ماذكر عن بني إسرائيل ، ومسلم في فضائل الصّحابة باب من فضائل أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه .

[4] الإحسان ١٤ / ٤٠٨ ـ ٤٠٩، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في البيوع باب التّجارة في البحر .

اللّهم لا تجعل ابني مثلها ، فقال اللّهم : اجعلني مثلها ، أمّا الرّاكب فكان كافراً ، وأمّا المرأة فيقولون : إنّها تزني ،فتقول : حسبي ا لله ويقولون : تسرق ، فتقول : حسبي ا لله)[1] .

وقال أيضاً في ترجمة : " ذكر خبر يصرّح بأنّ غير الأنبياء قد يوجد لهم أحوال تؤدّي إلى المعجزات " ، ثمّ ساق حديث أنس بن مالك مرفوعاً : (**إنّ من عباد ا لله من لو أقسم على ا لله لأبره**)[2] .

<u>تعليق :</u>

فإذا عُرف أنّ ابن حبّان مثبتٌ لوجود الأمر الخارق للعادة : وهو ما يسمّيه المعجزة : على أيدى الصّالحين من عباد ا لله وأوليائه المتقين ، وردّ على من أنكرها ، فهل كان رحمه ا لله يثبتها على منهج أهل السّنّة ؟ قبل أن نجيب عن هذا السّؤال نشير إلى أنّ الأشاعرة والصّوفية وافقوا أهل السّنّة في إثبات الكرامات عقلاً وشرعاً في الجملة ، إلاّ أنّهم غلوا وأفرطوا في هذا الإثبات : أمّا الأشاعرة فزعموا أنّ الخوارق التى تحدث على أيدي الأولياء لا تنحطّ رتبة عن الخوارق الّتي تحدث للأنبياء ، ولا فرق بين المعجزة والكرامة إلاّ من حيث التّسمية[3] .

وأما الصّوفية فاشتطّ ببعضهم إبليس فجعلوا من الكرامات والأولياء محوراً تدور عليه معظم عقائد الصّوفية ، فيها يصبحون وفيها يمسون ، وعليها يغدون ويروحون ، فشطحوا وخرجوا عن حدود الشّرع والعقل والأدب ، وجعلوا مظاهر الخزي والعار والقذارة كرامات ، وما هي إلا دجل وخرافات، فأصبح الأولياء عندهم لا يُحصون عدداً وعبدوهم وصاروا يطلبون منهم المدد، و لم يفرّقوا بين الوليّ وبين الكاهن والسّاحر والدّجّال[4] .

---

(1) الإحسان ١٤ / ٤١٠ ـ ٤١١ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الأنبياء باب ٥٤ .

(2) الإحسان ١٤ / ٤١٤ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الجهاد باب قول ا لله: ﴿ **من المؤمنين رجالٌ صدقوا ماعاهدوا ا لله عليه** ﴾ ، ومسلم في القسامة باب إثبات القصاص في الأسنان ومافي معناها ، وفيه قصّة .

(3) انظر أصول الدّين للبغدادي ص ١٧٤ ، والإرشاد للجويني ص٣١٥وما بعدها ومقالات الإسلاميين ٢/ ١٢٥، ١٢٦.

(4) للعبرة انظر قصّة الحلاّج في البداية والنّهاية ١١ / ١٤١ ـ ١٥٣ .

وأمّا أهل السّنّة فإنّهم مع إثباتهم لوجود الكرامات وجوازها عقلاً وشرعاً إلا أنّهم يشترطون لها شروطاً ، وهم مع ذلك يرون أنّ الكرامة تنحطّ رتبة عن المعجزة الّتي لا تكون إلاّ على يد نبيّ .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله : (ومع هذا فالأولياء دون الأنبياء والمرسلين فلا تبلغ كرامات أحدٍ قطّ إلى مثل معجزات المرسلين كما أنّهم لا يبلغون فى الفضيلة والثّواب إلى درجاتهم ، ولكن قد يشاركونهم فى بعضها كما قد يشاركونهم فى بعض أعمالهم)[١] .

وقد ردّ السّبكي على الأشاعرة في عدم تفريقهم بين الكرامة والمعجزة، قال رحمه الله : (مُعاذ الله أن يتحدى نبيٌّ بكرامة تكرّرت على يد وليّ ، بل لابدّ أن يأتي النّبيّ بما لا يوقعه الله على يد الوليّ ، وإن جاز وقوعه ، فليس كلّ جائزٍ فى قضايا العقول واقعاً ، ولمّا كانت مرتبة النّبيّ أعلى وأرفع من مرتبة الوليّ كان الوليّ ممنوعاً ممّا يأتي به النّبيّ على الإعجاز والتّحدي أدباً مع النّبيّ) [٢] .

وقد عُلم بطريق الاضطرار أنّ الخوارق الّتي تقع على أيدي الأنبياء أظهرها الله عزوجل لتأييد دعوى النّبوّة لإقناع جماعاتٍ كافرة جاحدة ، وهذا مطلبٌ عظيم يحتاج إلى دلائل تتناسب مع مكانته ، وأمّا ما يظهر على أيدي الأولياء فإنّه خاصٌّ بالوليّ نفسه جزاءً له على عبادته أو لتقوية إيمانه ، أو حتّى للتّحدّي ، ولا يستوي ما كان الغرض منه الإقناع لجماعات متعدّدة متنوّعة الثّقافات ومختلفة العقول تعاند الحقّ وتحاربه ، وما كان الغرض منه فرديّاً لشخص مؤمن أصلاً ، والمتحدّي وحاله أقلّ من حال النّبيّ مع قومه.

---

[١] النّبوّات ص ٤ـ ٥ .

[٢] طبقات السّبكي ٢ / ٣٢٠ ، مقصود شيخ الإسلام والسّبكي أنّ مجموع ما يقع للوليّ لايمكن أن يصل إلى مجموع ما يقع للنّبيّ لماذكروه ، وإلاّ فلو نظرنا إلى آحاد مايقع للأولياء فقد وقع لبعضهم مثل ما وقع لبعض الأنبياء كما أُلقي أبو مسلم الخولاني في النّار فلم تضرّه مثل إبراهيم عليه السّلام ، ولكنّ مجموع ما يقع للوليّ كما قلت لا يصل إلى مجموع ما يقع للنّبي ، فالنّبيّ يشارك الوليّ فيما يظهر على يديه والوليّ لايشارك النّبيّ في كلّ ما يظهر على يديه لعلوّ مرتبة النّبيّ من جهة وعظم الهدف وشدّة التّحدّي له من جهة أخرى مثل انشقاق القمر والإسراء والمعراج وغيرها من الآيات العظام الّتي لايمكن أن تظهر على يد صالح من الصّالحين مهما بلغ من علوّ المرتبة والصّلاح .

وأخيراً فإن النّاس فى الكرامات على ثلاث مراتب :

الأولى : إنكارها جملةً وتفصيلاً وهو مذهب الجهميّة والمعتزلة وابن حزم وأبو إسحاق الإسفرائيني .

الثّانية : إثباتها دون تفريق بينها وبين معجزات الأنبياء إلاّ في الاسم ، وهو مذهب الأشاعرة ومن وافقهم من الصّوفيّة وغيرهم .

الثّالثة : مذهب أهل السّنّة والجماعة : إثباتها ، على أنّها من جنس الخوارق التى تحدث على أيدي الأنبياء لكنّها تنحطّ عنها فى الرّتبة والقوّة بحسب ما بين الوليّ وبين النّبيّ من الفرق ، وهو المذهب الّذي يشهد له الكتاب والسّنّة وما تواتر عن الأولياء والصّالحين من الكرامات والخوارق التى لا ينكرها إلاّ جاهلٌ أو معاند للحق .

وأمّا ابن حبّان فلا يظهر من كلامه ما يفيد الجزم بمنهجه في إثبات الكرامة ، ولكنّ كونه أطلق عليها لفظ المعجزة ، ولم يشر إلى الفرق بين الكرامة والمعجزة فإنّ هذا يوحي بأنّه يثبتها على منهج الأشاعرة ، مع أنّ الأشاعرة لايسمّونها معجزة وإن سوّوا بينهما ، وقد تقدّم أنّ ذلك خلاف مذهب أهل السّنّة ، والله أعلم بالصواب .

المبحث الحادي عشر : رأيه في رؤية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ربّه في الدّنيا

قال ابن حبّان رحمه الله في ترجمة : " ذِكرُ الإخبار عن رؤية المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ربّه جلّ وعلا " ، ثمّ ساق حديث ابن عباس موقوفاً عليه (قد رأى محمدٌ صلّى الله عليه وسلّم ربَّه) ، ثمّ قال : " معنى قول ابن عباس : قد رأى محمّدٌ صلّى الله عليه وسلّم ربّه ، أراد بقلبه في الموضع الّذي لم يصعده أحدٌ من البشر ارتفاعاً في الشّرف " [1] .

ثمّ دلّل على صحّة قوله، فساق حديث أبي ذر رضي الله عنه أنّه سأل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : هل رأيت ربك ؟ فقال عليه الصّلاة والسلام : (**رأيت نوراً**) ثمّ قال أبو حاتم : " معناه أنّه لم ير ربّه، ولكن رأى نوراً علويّاً من الأنوار المخلوقة " [2] .

ثمّ قال : " ذِكرُ خبر أو هم من لم يُحكم صناعة العلم أنّه مضادٌ للخبر الّذي ذكرناه " ، وساق تحته أثر ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ **ماكذب الفؤاد مارأى** ﴾ قال : (رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جبريل في حلّة من ياقوت قد ملأ مابين السماء والأرض) ، وقال بعده تعليقاً ﴿ **ماكذب الفؤاد مارأى** ﴾ ، يريد ربّه بقلبه في ذلك الموضع الشّريف ورأى جبريل في حلّة من ياقوت قد ملأ مابين السّماء والأرض "[3] .

ثمّ ساق أثر عائشة رضي الله عنها أنّها قالت : (أعظم على الله الفرية من قال : إنّ محمداً صلّى الله عليه وسلّم رأى ربَّه... قيل : ياأمّ المؤمنين ومارآه ؟ قالت : لا، إنّما ذلك جبريل رآه في صورته مرّتين : مرّةً ملأ الأفق، ومرّة ساداً أفق السّماء) ، ثمّ قال أبو حاتم : " ... وخبر عائشة وتأويلها أنّه لايدركه تريد به في النّوم لا في اليقظة، وقوله : ﴿ **لاتدركه الأبصار** ﴾ يُرى

---

(1) الإحسان ١ / ٢٥٣ ـ ٢٥٤ ، وأثر ابن عبّاس أخرجه الطّبري في التّفسير ١١ / ٥١٠ ، والتّرمذي في التّفسير باب ومن سورة النّجم ، والطّبراني ١٠٧٢٧ والآجرّي في الشّريعة ص ٤٩١ ، وابن أبي عاصم في السّنّة ١ / ١٨٩ ، واللّالكائي في شرح الإعتقاد ٣ / ٥١٥ ، وابن خزيمة في التّوحيد ١ / ٤٨٦ .

(2) الإحسان ١ / ٢٥٥ ، والحديث أخرجه مسلم في الإيمان باب قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**نورٌ أنّى أراه**) .

(3) الإحسان ١ / ٢٥٦ ـ ٢٥٧ ، وأثر ابن مسعود أخرجه أيضاً البخاري في التّفسير باب ﴿ **فكان قاب قوسين أو أدنى** ﴾ ، ومسلم في الإيمان باب في ذكر سدرة المنتهى .

في القيامة ولاتدركه الأبصار إذا رأته،لأنّ الإدراك هو الإحاطة، والرّؤية هي النّظر، وا لله يُرى ولايُدرك كنهُه، لأنّ الإدراك يقع على المخلوقين والنّظر يكون من العبد لربه .

وخبر عائشة أنّه لاتدركة الأبصار، فإنّما معناه في الدّنيا وفي الآخرة إلاّ من يتفضّل عليه من عباده، بأن يُجعل أهلاً لذلك ، واسم الدّنيا قد يقع على الأرضين والسّماوات ومابينهما ، لأنّ هذه الأشياء بدايات خلقها ا لله جلّ وعلا لتُكتسب فيها الطّاعات للآخرة الّتي بعد هذه البداية .

فالنبي صلّى ا لله عليه وسلّم رأى ربّه في الموضع الّذي لايُطلق عليه اسم الدّنيا لأنّه كان منه أدنى من قاب قوسين ، حتّى يكون خبر عائشة أنّه لم يره صلّى ا لله عليه وسلّم في الدّنيا من غير أن يكون بين الخبرين تضاد أو تهاتر "[1] .

تعليق:

اختلف العلماء في رؤية النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم لربّه: هل رآه أولا؟

القول الأوّل : أنّه رأى ربّه وهذا هو المروي عن ابن عباس رضي ا لله عنه وأصحابه وأبي ذر رضي ا لله عنه ، وكان الحسن البصري رحمه ا لله يحلف على ذلك، وهوقول الزّهري وصاحبه معمر ، وكذلك الأشعري وسائر أتباعه رحم ا لله الجميع [2] وهو الّذي رجّحه الإمام أحمد رحمه ا لله وجزم به كما جزم ابن عباس رضي ا لله عنهما [3] .

واستدلّ هؤلاء بما ثبت عن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم أنّه قال : (رأيت

---

[1] الإحسان ١ / ٢٥٨ - ٢٦٠ ، وأثر عائشة رضي ا لله عنها أخرجه أيضاً البخاري في التّفسير باب ﴿ **ياآيّها النّبيّ بلّغ ماأُنزل إليك من ربّك** ﴾ ، ومسلم في الإيمان باب معنى قول ا لله عزّوجلّ ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى** ﴾ وفيه ترى استدلالها بالآية حيث تكلّم عنه ابن حبّان و لم يورده.

[2] انظر التّوحيد لابن خزيمة ١ / ٤٧٩ ومابعدها ، ولوامع الأنوار للسّفّاريني ٢ / ٢٥١ .

[3] انظر مسائل الإمام أحمد للأحمدي ٢ / ١٤٨ - ١٤٩ .

ربّي تبارك وتعالى)[١] ، كما استدلّوا بما ثبت عن ابن عباس أنّه قال :(رأى محمّد صلّى ا لله عليه وسلّم ربّه) ، وهو مروي عن أنس أيضاً[٢] .

وماورد عن ابن عباس رضي ا لله عنه أنّه قال : (أتعجبون أن تكون الخلّة لإبراهيم والكلام لموسى والرّؤية لمحمّد صلّى ا لله عليه وسلّم) .[٣]

واستدلّوا أيضاً بتفسير ابن عباس لقوله تعالى : ﴿ **ماكذب الفؤاد مارأى** ﴾ قال : (قد رآه النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم) .[٤]

وكذلك استدلّ لهم أبو الحسن الأشعري بقوله تعالى : ﴿ **وماكان لبشرٍ أن يكلّمه ا لله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء** ﴾ وقال : إنّ قوله : ﴿ **وحياً** ﴾ أي رؤية وإلاّ كانت الأقسام غير مفيدة)[٥] .

وعلى هذا القول جمهور السّلف رحمهم ا لله تعالى وعلى رأسهم هؤلاء الصّحابة الّذين سميناهم .

وأمّا الّذين نفوا أن يكون النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم قد رأى ربّه فقد استدلّوا بالنّصوص العامّة كقوله تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ : **الأنعام ١٠٣** ،وبما ثبت عن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم أنه سُئل عن ذلك فقال : (**نورٌ أنّى أراه**) وفي رواية (**رأيت نوراً**).[٦] ، وقد تكلّم العلماء في معنى قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**نورٌ أنّى أراه**) ، قال ابن خزيمة رحمه ا لله: (قوله :أنّى يحتمل معنيين ، أحدهما : النّفي : أي كيف أراه وهو نور ، والآخر الإثبات : أي كيف رأيته وأين رأيته فهو نور) [٧] ، وقال النّووي :

---

[١] حديث اختصام الملأ الأعلى مرويّ بألفاظ مختلفة ، أخرجه الإمام أحمد ١ / ٢٨٥ ، ٣٦٨ ، والتّرمذي في التّفسير ، باب من سورة ص عن ابن عبّاس من طرق مختلفة ، ومن مسند معاذ بن جبل رضي ا لله عنه أخرجه أحمد ٥ / ٢٤٣ ، والتّرمذي في التّفسير باب من سورة **ص** ، وصحّحه البخاري ، كما أعلّه بالانقطاع من رواية عبدالرّحمن بن عائش الحضرمي عن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم وقال : لم يسمع من النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم ، انظر جامع التّرمذي كتاب التّفسير باب من سورة **ص** .

[٢] التّوحيد لابن خزيمة ١ / ٤٨٧ .

[٣] الآجرّي في الشّريعة ص ٤٩١ ، وعبدا لله بن أحمد في السّنّة ص ١٤٥ ، وابن خزيمة في التّوحيد ١ / ٤٧٩ ، وابن أبي عاصم في السّنّة ١ / ١٩٢ .

[٤] جامع التّرمذي في التّفسير باب ومن سورة النّجم .وانظر تفسير الطّبري ١١ / ٥١٠ .

[٥] عارضة الأحوذي ١٢ / ١٦٩ وحكاه النّووي عن عائشة رضي ا لله عنها في شرح مسلم ٢ / ٦.

[٦] مسلم في الإيمان باب قول النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم : نورٌ أنّى أراه وقوله : رأيت نوراً .

[٧] التّوحيد ١ / ٥١٤ .

(قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : **نورٌ أنّى أراه** ، بفتح الهمزة وتشديد النّون وفتحها ، هكذا رواه جميع الرّواة في جميع الأصول ، ومعناه حجابه نور فكيف أراه ، قال المازري : الضّمير في أراه عائد إلى ا لله ومعناه أنّ النّور منعني من رؤيته كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ومنعها من إدراك ما حالت بين الرّائي وبينه)،[1] والّذي يظهر أنّ المراد من اللّفظة النّفي والإنكار ، بدليل قوله صلّى ا لله عليه وسلّم في الرّواية الأخرى : (**رأيت نوراً**) أي رأيت حجابه النّور الّذي لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه كما ثبت ذلك في صحيح مسلم .[2]

وقد ثبت عن عائشة رضي ا لله عنها أنّها قالت : (قد أعظم على ا لله الفرية من زعم أن محمّدا رأى ربّه)[3] وهو مروي عن عائشة وعن ابن مسعود وأبي ذر وأبي هريرة .

إذا عُرف ماتقدّم فإنّ القائلين من الصّحابة بإثبات الرّؤية، أثبتوا رؤيةً مطلقة و لم يقيّدوها بالعين كما قيّدها ابن خزيمة ومال إليه النّووي[4] كذلك ورجّحه بعض العلماء .

بل قد ثبت عن ابن عباس رضي ا لله عنه في غير رواية أنّه قال : (رآه بقلبه) ، وقال أيضاً : (رآه بفؤاده)[5] .

ويدلّ على أنّ المُراد بالرّؤية في قوله صلّى ا لله عليه وسلّم (**رأيت ربّي تبارك وتعالى**) الرّؤية القلبيّة ، أنّه لّما سأله أبو ذر عن ذلك قال: (**رأيت نوراً**) أو (**نورٌ أنّى أراه**) فإنّ ا لله عزّ وجلّ احتجب عن الخلق بحجاب من نور ولذلك أنكر عليه الصّلاة والسلام الرؤية متعلّلاً بالنور ، إذ العين لاتقوى على النّظر إلى الشمس وهي مخلوقة فكيف بنور الخالق جلّ وعلا .

---

[1] شرح مسلم للنّووي ٣ / ١٢ .

[2] كتاب الإيمان باب معنى قول ا لله عزّوجلّ : ﴿ **ولقد رآه نزلةً أخرى** ﴾ عن أبي موسى .

[3] تقدّم قريباً ص ٢٦٨.

[4] انظر شرح مسلم للنّووي ٢ / ٤-٦ .

[5] شرح أصول الاعتقاد للآلكائي ٣ / ٥١٧ ومابعدها .

وعلى هذا يتوجّه إنكار عائشة رضي الله عنها، ومن هنا فإنّ استدلال البعض بقوله تعالى : ﴿**فكان قاب قوسين أو أدنى**﴾ معارضٌ بتفسيرها الّذي نسبته إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حيث قالت :(ذلكم جبريل لم يره في صورته إلاّ مرتين، رآه منهبطاً من السّماء ساداً عظم خلقه مابين السّماء والأرض)[(١)] وهو مروي عن ابن مسعود كذلك[(٢)] .

وإنكار الرّؤية بقوله تعالى : ﴿**لاتدركه الأبصار**﴾ غير صحيح إذا كان المُراد رؤية العين ، لأنّ الإدارك أخصّ من الرّؤية فليس كلّ ماتراه العين تدرك حقيقته وكنهه ، والله عزّ وجلّ أجلّ من أن يُدرك حقيقته بشر، فالرّؤية البصريّة لاتُعارَض بالإدراك .

وأمّا استدلال أبي الحسن الأشعري على رؤية العين بقوله تعالى : ﴿ **وماكان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلاّ وحياً ...**﴾ فمُعارض بما ثبت عن الجمهور في تفسير (وحياً) أي إلهاماً يُلهمه في قلبه[(٣)] ، وبهذا تكون الأقسام مفيدة ولا يكون في الكلام خلل .

وبالجملة فإنّ اختلاف الصّحابة يمكن ردّه إلى قول واحد ، وهو أنّ من أثبتها أثبت رؤية القلب أورؤية الفؤاد ، كما عبّروا، ومن أنكرها أنكر الرّؤية البصريّة ، وبذلك تجتمع الأقوال .

وأمّا من أثبت الرّؤية البصرية كابن خزيمة والنّووي وجماعات المتصوّفة فقد خالف ما عليه جماهير السّلف الصّالح ، وماورد من الأخبار بإثبات الرّؤية عن ابن عباس فقد قال ابن حجر رحمه الله تعالى : (جاء عن ابن عباس أخبارٌ مطلقة وأخرى مُقيّدة ، فيجب حمل مطلقها على مقيّدها).[(٤)]

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان باب قول الله: ﴿ **ولقد رآه نزلةً أخرى** ﴾ وانظر تفسير الطّبري ١١ / ٥٠٧ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ونسبة الدّنوّ والتّدلّي إلى الله تعالى من الألفاظ الّتي أنكرها أئمّة الحديث مع أنّها في الصّحيحين ، والمتّهم فيها شريك بن عبدالله القاضي ، فقد انفرد رحمه الله بهذه الألفاظ دون باقي الأئمّة الّذين رووا حديث الإسراء ، انظر فتح الباري ١٣ / ٤٨٣ ـ ٤٨٥ ، وشرح مسلم للنّووي ٢ / ٢١٠ .

(٢) تفسير الطّبري ١١ / ٥١١ .

(٣) انظر تفسير الطّبري ١١ / ١٦٢ .

(٤) الفتح ٦ / ٦٠٨ .

والمراد في آيات سورة النّجم إنّما هو جبريل على الصّحيح كما ورد عن ابن مسعود وعائشة ، وقد رفعته إلى النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه ا لله تعالى : (ليس في الأدلّة مايقتضي أنّه رآه بعينه ، ولاثبت ذلك عن أحد من الصّحابة ولا في الكتاب والسّنّة مايدلّ على ذلك ، بل النّصوص الصّحيحة على نفيه أدلّ)[1] .

وأبو حاتم يشير إلى هذا القول عندما قيّد الرّؤية برؤية القلب ، وتأوّل آية ﴿ **لاتدركه الأبصار** ﴾ بأنّ ذلك عام في الدّنيا والآخرة وأنّ الإدراك لايتعارض مع الرؤية أصلاً في الدنيا ولا في الأخرة .

أمّا حمله خبر عائشة أنّ النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم لم يره في الدّنيا ، على أنّ المراد بالدّنيا السّماوات والأرض[2] وأنّها تبدّل يوم القيامة فبعيد ، والأولى حمله على نفي الرّؤية البصريّة ، وأمّا رؤية الفؤاد والقلب فلم تتطرّق لها رضي ا لله عنها ، وهو مذهب أهل السّنّة على الصّحيح .

---

[1] الفتاوى ٦ / ٥١٠ .

[2] اسم الدّنيا مشتقٌّ من الدّنو : أي القرب ، وإذا أُطلق انصرف إلى هذه الحياة الّتي تنتهي بقيام السّاعة سُمّيت كذلك لبعدها عن الآخرة ،النّهاية ٢ / ١٣٧ ، هذا من النّاحية الزّمنيّة ، ومن النّاحية المكانيّة فإنّ السّماوات ومافيها ليست من الدّنيا ، بدليل أنّ من يموت ويُقبر في الأرض يقال : خرج من الدّنيا ، فكيف بمن صعد إلى السّماوات وقرب من ا لله تعالى ، وعلى هذا فإطلاق ابن حبّان أنّ الرّسول صلّى ا لله عليه وسلّم عند قربه من ا لله ورؤيته إيّاه لم يكن في الدّنيا صحيح من حيث نفسه ، ولكنّه لايصلح لتوجيه خبر عائشة ، والأولى كما قلت أن يُحمل نفيها على الرّؤية البصريّة ، ويُحمل كلام ابن عبّاس على الرّؤية القلبيّة ، وا لله أعلم .

المبحث الثّاني عشر : **عقيدته في الإيمان بالعرش**

قال ابن حبّان : " ذِكرُ استبشار العرش وارتياحه لوفاة سعد بن معـاذ " ، ثمّ ساق حديث جابر بن عبدا لله رضي ا لله عنهما مرفوعاً عن جنازة سعد بن معاذ رضي ا لله عنه (**اهتزّ لها عرش الرّحمن**) ، ثمّ قال : " قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : **اهتزّ لها عرش الرّحمن** ، يريد به استبشر وارتاح كقوله تعـالى : ﴿ **فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت** ﴾ يريد به : ارتاحت واخضرّت "[1].

وقال أيضاً : " ذِكرُ البيان بأنّ قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : **اهـتزّ لهـا** ، أراد وفاته دون الجنازة " ، ثمّ ساق حديث أسيد بن حضير مرفوعـاً : (**اهـتزّ العرش لوفاة سعد بن معاذ**)[2] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الخبرالمدحض قول من زعم أنّ العـرش في هـذا الخـبر هـو السّرير " ، ثمّ ساق حديث جابر المتقدّم بلفـظ (**اهـتزّ عـرش الرّحمـن لمـوت سعد بن معاذ**)[3] .

تعليق:

العرش في اللّغة : السّرير ، و سرير الملك ، والسّقف[4] ، والعرش حق وهو عرش الرّحمن جلّ وعلا وهو أكبر المخلوقات ، جـاء ذكـره في الكتـاب والسّنّة، قال تعالى : ﴿ **ثمّ استوى على العرش** ﴾ : **الأعـراف ٥٤**، وقـال : ﴿ **ذو العرش المجيد** ﴾ : **البروج ١٥**،وقال: ﴿ **ويحمل عرش ربـك فوقهـم يومئذٍ ثمانيـة** ﴾ : **الحاقّة ١٧**، وقـال : ﴿**وتـرى الملائكـة حـافّين مـن حـول العرش** ﴾ : **الزّمر ٧٥**، وقال صلّى ا لله عليه وسلّم : (**إذا سـألتم ا لله الجنّـة**

---

[1] ٥ / ٥٠١ ـ ٥٠٢ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في مناقب الأنصار باب مناقب سعد بن معاذ بلفظ (**اهتزّ لوفاة سعد**)، ومسلم في فضائل الصّحابة باب من فضائل سعد بن معاذ رضي ا لله .

[2] الإحسان ١٥ / ٥٠٣ ـ ٥٠٤ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٤ / ٣٥٢ ، والطّبراني ح٥٥٣ ، وابن أبي شيبة في المصنّف ح٣٢٣٠٤ وله شواهد من حديث جابر وأبي سعيد وأبي هريرة .

[3] الإحسان ١٥ / ٥٠٤ .

[4] القاموس المحيط ٢ / ٤٠٥ ، والنّهاية لابن الأثير ٣ / ٢٠٧ .

فسلوه الفردوس فإنّه أوسط الجنّة وفوقه عرش الرّحمن)[(١)] وثبت في الشّرع أنّ له قوائم وأنّه تحمله الملائكة وأنّه كالقبّة على العالم وأنّه سقف المخلوقات .

وقد حاول بعض أهل الكلام إنكار العرش وأوّل ذلك بأنّه المُلْك ، ولكنه تأويلٌ سخيفٌ بارد ، قال شارح الطحاوية : (وأمّا من حرّف كلام الله وجعل العرش عبارة عن المُلْك كيف يصنع بقوله تعالى : ﴿ **ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذٍ ثمانية** ﴾ وقوله تعالى : ﴿**وكان عرشه على الماء** ﴾ وأنّ موسى عليه السلام أوّل من يفيق من الصّعقة فيكون آخذاً بقائمةمن قوائم العرش) [(٢)] .

وحديث اهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ ثابتٌ عن عشرةٍ من الصّحابة وهو مخرّج في الصحيحين ، وقد ورد تأويل العرش بأنّه السّرير الّذي وُضعت عليه الجنازة عن البراء بن عازب رضي الله عنه وكذلك عن ابن عمر ثمّ رجع عنه، وذهب قومٌ الى أنّ هناك محذوفاً وأنّ المراد اهتزاز حملة العرش أو أهل العرش ، ولكنّ الصّحيح حمل اللّفظ على ظاهره وأنّ العرش اهتزّ لموت سعد وهو كما قال ابن حبّان : استبشاره وفرحه بموت سعد وقدومه على الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ **فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت** ﴾ أي استبشرت واخضرت .[(٣)]

قال البغوي رحمه الله تعالى : (قوله : اهتزّ : أي ارتاح بروحه حين صعد به، وقيل : أراد بالاهتزاز : السّرور والاستبشار ، ومعناه أنّ حملة العرش فرحوا بقدومه فأقام العرش مقام من حمله ، كقوله : (**أحد جبل يحبّنا ونحبّه**)[(٤)] أي أهله ، قلت : والأولى إجراؤه على ظاهره وكذلك قوله عليه الصّلاة والسلام (**أحد جبل يحبّنا ونحبّه**) ولايُنكر اهتزاز مالاروح فيه بالأنبياء والأولياء كما اهتزّ أحد [(٥)] وعليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب درجات المجاهدين في سبيل الله .

(٢) شرح الطّحاويّة ٢ /٢٦٣ .

(٣) انظر فتح الباري ٧ / ١٢٣ ـ ١٢٤ ، والنّهاية لابن الأثير ٣ / ٢٠٧ .

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ١٦ عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٥) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم باب قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم(**لوكنت متّخذاً خليلاً**).

وأبو بكر وعمر وعثمّان وكما اضربطت الاسطوانة علـى مفارقتـه)[1] وبهـذا نعرف موافقة ابن حبّـان لمقتضـى النّـص وظـاهر الحديـث وأنّـه مثبـتٌ لعـرش الرحمن عزّ وجلّ وا لله تعالى أعلم .

[1] شرح السنّة ١٤ / ١٨٠ - ١٨١ .

المبحث الثّالث عشر : عقيدته في المهدي

قال ابن حبّان رحمه الله : " ذِكرُ البيان بأنّ خروج المهدي إنّما يكون بعد ظهور الظّلم والجَوْر في الدّنيا ، وغلبهما على الحق والجد " ، ثمّ ساق حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً : (**لاتقوم السّاعة حتّى تمتلىء الأرض ظلماً وعدواناً ، ثمّ يخرج رجل من أهل بيتي - أو عترتي - فيملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً**)[1] .

وقال : " ذِكرُ الإخبار عن وصف اسم المهدي واسم ابيه ضدّ قول من زعم أنّ المهدي عيسى ابن مريم " ، ثمّ ساق حديث عبدالله بن مسعود مرفوعاً : (**لاتقوم السّاعة حتّى يملك النّاس رجلٌ من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، فيملؤها قسطاً وعدلاً**)[2] .

وقال : " ذِكرُ البيان بأنّ المهدي يشبه خلقه خلق المصطفى صلّى الله عليه وسلّم " ، ثمّ ساق حديث عبدالله المتقدّم وفيه : (**يواطىء اسمه اسمي، وخلقه خلقي ...**) [3] .

وقال : " ذِكرُ الإخبار عن وصف المدّة الّتي تكون للمهدي آخر الزّمان " ، ثمّ ساق حديث أبي سعيد الخدري وفيه: (... **يملك سبع سنين...**) [4] . وقال أيضاً : " ذِكرُ الموضع الّذي يُبايع فيه المهدي " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة مرفوعاً : (**يُبايع لرجلٍ بين الرّكن والمقام**) [5] .

---

[1] الإحسان ١٥ / ٢٣٦ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٣ / ٢٨ ،٣٦ ، ٧٠ ، والحاكم ٤ / ٥٥٧ وصحّحه ووافقه الذّهبي ، وقول ابن حبّان : الجدّ أي وجه الأرض ، القاموس المحيط ١/ ٥٥٠ ، والنّهاية ١ / ٢٤٦ .

[2] الإحسان ١٥ / ٢٣٦ - ٢٣٧ ، والحديث أخرجه أيضاً أخرجه أيضاً أحمد ١ / ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٤٤٨ ، وأبوداود في كتاب المهدي ، والتّرمذي في الفتن باب ماجاء في المهدي ، وغيرهم . وفيه علّة وهو أنّ عاصم لم يسمع من عبد الله بن مسعود ، لكن في الحديث الّذي بعده وصله عثمان بن شبرمة عن عاصم عن زر بن حبيش عن عبدالله ، وعثمان ضعيف ، و لم يسمع من عاصم ، وقد خالف سفيان الثّوري عن عاصم ، وعلى العموم فالحديث صحيحٌ بشواهده وخصوصاً حديث أبي سعيد المتقدّم ، فإنّه ثابت لاشكّ فيه .

[3] الإحسان ١٥ / ٢٣٧ - ٢٣٨ .

[4] الإحسان ١٥ / ٢٣٨ ، والحديث تقدّم قريباً .

[5] الإحسان ١٥ / ٢٣٩ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٢ / ٢٣٨ ، والحاكم ٤ / ٤٥٢ .

تعليق:

تباينت وجهات النّظر عند العلماء بالنّسبة للأحاديث المرويّة في المهدي وهي كثيرةٌ سوى ماروواه ابن حبّان ، فمنهم من رأى أنّها لاتسلم من النّقد إشارةً إلى ضعف مخرجها وأصولها [١] .

ولكنّ الحجة في ذلك أقوال أهل العلم بالحديث البصراء به ، حيث ذكروا أنّ أحاديث المهدي يثبت منها عددٌ لابأس به تُثبت صحّة الاعتقاد بخروجه [٢] .

قال القرطبي رحمه الله : (والأحاديث عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في التخصيص على خروج المهدي من عترته من ولد فاطمة ثابتة)[٣] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى : (الأحاديث الّتي يُحتجّ بها على خروج المهدي أحاديث صحيحة رواها أبو داود والتّرمذي وأحمد من حديث ابن مسعود وغيره ، وهذه الأحاديث غلط فيها طوائف : طائفةٌ أنكروها ...واحتجّو بحديث ابن ماجه أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : (**لامهدي إلاّ عيسى ابن مريم**) [٤] وهذا الحديث ضعيف وليس ممّا يُعتمد عليه)[٥] .

وذكر ابن القيم رحمه الله أنّ أحاديث المهدي أربعة أقسام : صحاحٌ وحسانٌ وغرائب وموضوعة [٦] ، وهذا لاشكّ فيه فقد وضعت الرّافضة أحاديث كثيرة في إثبات عقيدتهم في المهدي ، وأنّه مهديّهم المنتظر .

كما حاول كثيرٌ من المدّعين إسقاط أحاديث المهدي عليهم ، وأنّهم هم المقصودون بالمرويّات في المهدي، وبناءً عليه فقد اجترأ كثيرٌ منهم على وضع الحديث أو الزّيادة فيه حتّى يتناسب مع أوضاعهم الاجتماعية أوغيرها ،

---

[١] مقدّمة ابن خلدون ص ٣٢٢ .

[٢] انظر لزاماً السّلسلة الصّحيحة للألباني ٤ / ٣٨- ٤١ .

[٣] التّذكرة ص ٧٢٢ .

[٤] أخرجه ابن ماجة في الفتن باب شدّة الزّمان عن أنس .

[٥] منهاج السّنّة ٨ / ٢٥٤ ـ ٢٥٦ ، بتصرّف .

[٦] المنار المنيف ص ١٤٨ .

ولكنّ هذا ليس مدعاة لإنكار ماصحّ منها ، فادّعاء النبوّة ليس داعياً لإنكار النبوات فكذلك هذا مثله .

وقد أشار ابن حبّان إلى الرّدّ على من ادّعى أنّ المهدي هو عيسى ابن مريم ، مشيراً الى ضعف الحديث وهو كما قال ، وقد استدلّ على ذلك بأنّ المهدي اسمه محمّد بن عبدالله فلا ينطبق ذلك على عيسى ابن مريم عليه السّلام، وهو استدلال سديد ولاريب [1] .

وبذا فقد ظهر إيمان ابن حبّان بخروج المهدي ، وثبوت ماجاء فيه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من وصفه ووقته ومكانه عنده رحمه الله ، وهو بذلك موافقٌ لما ذهب اليه أهل السّنّة والجماعة أنّ المهدي من هذه الأمّة دون الجزم بانه شخصٌ معيّن ، إذ لم يأذن الله بعد بحلول وقت المهدي خلافاً لما عليه المدّعون من الرّوافض وغيرهم من فرق الضّلال ، الّذين اتّخذوا من أحاديث المهدي ذريعةً إلى إثبات بدعهم وضلالاتهم ، وخلطوا خلطاً بيّناً فإنّ المهدي رجل يولد من أمّ وأب وتتحقّق فيه الصّفات الّتي ذكرها النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا أنّه رجل عاش في زمن سابق ومات ثمّ يبعثه الله مرّة أخرى في الحياة الدّنيا .

وخلافاً أيضاً لما يذهب إليه المتشكّكون في السّنّة وضعاف الإيمان والعقول من إنكار عقيدة المهدي وماثبت عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيه متأثّرين بما رأوا من مدّعي المهدوية ، والله أعلم وأحكم .

---

[1] انظر فتح الباري ٦ / ٤٩٣ ــ ٤٩٤ .

المبحث الرّابع عشر : عقيدته في الإيمان بخروج الدّجال

ذكر ابن حبّان أخبار الدّجّال في أحاديث كثيرة ، وترجم لكلّ حديث بما يناسبه فمن ذلك :

قال رحمه الله: " ذِكرُ إنذار الأنبياء أممهم الدّجّال نعوذ با لله من فتنته"، ثمّ ساق حديث ابن عمر رضي الله عنه مرفوعاً : (**مامن نبيّ إلاّ وقد أنذر أمّته الدّجّال ...**) [1] .

وقال " ذِكرُ الخبرالمدحض قول من زعم أنّ الدّجّال إذا خرج يكون معه المياه والطّعام " ، ثمّ ساق حديث المغيرة بن شعبة أنّه قال للنّبي صلّى الله عليه وسلّم : (**يزعمون أنّ معه الأنهار والطّعام ، قال : هو أهون على الله من ذلك**)[2] .

وقال : " ذِكرُ رؤية المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ابن صيّاد في المدينة" ، ثمّ ساق حديث عبدا لله قال : كنت أمشي مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فمرّ بابن صيّاد فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم :(**إنّي خبّأت لك خبيئاً ، فقال : هو الدّخ فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : اخسأ فلن تعدو قدرك**) [3] .

وقال : " ذِكرُ الإخبار عن الوقت الّذي وُلد فيه الدّجّال " ، ثمّ ساق حديث ابن عمر أنّ عمر أخبره أنّه انطلق مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في رهط قِبَل ابن صيّاد حتّى وجدوه يلعب مع الصّبيان عند أُطُم بني مغالة، وقد قارب يومئذٍ الحلم ...) [4] .

[1] الإحسان ١٥ / ١٨٣ ، والحديث أخرجه مطوّلاً البخاري في الجنائز باب إذا أسلم الصّبيّ فمات هل يُصلّى عليه ، ومسلم في الفتن باب ذكر ابن صيّاد .

[2] الإحسان ١٥ / ١٨٤ ـ ١٨٥ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الفتن باب ذكر الدّجّال ومسلم في الأدب باب جواز قوله لغير ابنه (يابنيّ) .

[3] الإحسان ١٥ / ١٨٥ ـ ١٨٦ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الفتن باب ابن صيّاد .

[4] الإحسان ١٥ / ١٨٧ ـ ١٨٩ ، والحديث هو نفسه حديث ابن عمر المتقدّم مختصراً .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار عن الموضع الّذي يخرج من ناحيته الدّجّال، وساق حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**يخرج الدّجّال من هاهنا)** وأشار نحو المشرق .[١]

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار عن السّبب الّذي يكون خروج المسيح به" ثمّ ساق حديث ابن عمر رضي ا لله عنهما أنّه رأى ابن صائد في سكّة من سكك المدينة فسبّه ابن عمر فانتفخ حتّى سدّ الطّريق ... فقالت له حفصة : إنّما يخرج الدّجّال من غضبة يغضبها) [٢] .

وقال : " ذِكرُ الإخبار عن العلامة الّتى يُعرف بها الدّجّال عند خروجه" ، ثمّ ساق حديث أنس رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**إنّ بين عينيه مكتوبٌ : ك ف ر يقرؤه كلّ مؤمن)**[٣] .

وقال : " ذِكرُ الإخبار عن وصف عين الدّجّال الّتي هي عوراء من عينيه " ، ثمّ ساق حديث أبي بن كعب رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**الدّجّال عينه خضراء كزجاجة ..)** [٤] .

وقال : " ذِكرُ الإخبار عن تبع الدّجّال، نعوذ با لله من شرّهم " ، ثمّ ساق حديث أنس مرفوعاً : (**يتبع الدّجّال سبعون ألفاً من يهود أصبهان).**[٥]

وقال : " ذِكرُ الإخبار عن بعض الفتن الّتي يبتلي ا لله جلّ وعلا البشر بكونه مع المسيح " ، ثمّ ساق حديث حذيفة أنّه قال : (إنّ معه نهراً من ماء ونهراً من نار، فالذي يرون أنّه نار : ماء ، والذي يرون أنّه ماء :نار ...)[٦] .

---

[١] الإحسان ١٥ / ٢٠٢ ، والحديث إسناده فيه لين وله شاهد من حديث أبي بكر الصّدّيق رضي ا لله عنه أخرجه أحمد ١ / ٤ ، ٧ والتّرمذي في الفتن باب ماجاء من أين يخرج الدّجّال وابن ماجة في الفتن باب فتنة الدّجّال وخروج عيسى ابن مريم ، وقال التّرمذي : وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة .

[٢] الإحسان ١٥ / ٢٠٣-٢٠٤ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الفتن باب ذكر ابن صيّاد .

[٣] الإحسان ١٥ / ٢٠٥ ، والحديث أخرجه أيضا البخاري في الفتن باب ذكر الدّجّال ، ومسلم في الفتن باب ذكر الدّجّال .

[٤] الإحسان ١٥ / ٢٠٦ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٥ / ١٢٣ ـ ١٢٤ ، وصحّحه الألباني في السّلسلة الصّحيحة ٤ / ح١٨٦٣ .

[٥] الإحسان ١٥ / ٢٠٩ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الفتن باب في بقيّة من أحاديث الدّجّال .

[٦] الإحسان ١٥ / ٢٠٩ ، و الأثر أخرجه أيضاً البخاري في الفتن باب ذكر الدّجّال ومسلم في الفتن باب ذكر الدّجّال .

وقال معلّقاً على حديث المغيرة المتقدّم :" إنكار المصطفى صلّى الله عليه وسلّم على المغيرة بأنّ مع الدّجّال أنهار الماء ليس يضاد خبر أبي مسعود – أي قول حذيفة المتقدم – لأنّه أهون على الله من أن يكون معه نهر الماء الجاري والّذي معه يرى ماءٌ ولا ماء " [1] .

وقال : " ذِكرُ الإخبار عن نفي دخول الدّجّال حرم الله جلّ وعلا "، ثمّ ساق حديث أنس مرفوعاً : (**ليس من بلدٍ إلاّ سيطؤه الدّجّال إلاّ مكّة والمدينة**) [2] .

وقال : " ذِكرُ قدر مُكث الدّجّال في الأرض عند خروجه من وثاقه"، ثمّ ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (**إنّ الأعور الدّجّال مسيح الضّلالة يخرج من قبل المشرق ... فيبلغ ماشاء الله من الأرض في أربعين يوماً الله أعلم مامقدارها**)[3] .

وقال : " ذِكرُ ذوبان الدّجّال عند رؤيته عيسى ابن مريم ثمّ قتله إيّاه"، ثمّ ساق حديث أبي هريرة وفيه : (**فينزل عيسى ابن مريم فإذا رآه عدوّ الله يذوب كما يذوب الملح في الماء** ...)[4] .

تعليق :

هذه نماذج من التّراجم الّتي ساقها ابن حبّان عن الدّجّال وقد تركنا مثلها خشية الإطالة ، وهي دالة على أنّ ابن حبّان مثبتٌ ومؤمنٌ بخروج الدّجّال وبما جاء عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيه .

قال الإمام أحمد : (والدّجال خارج بهذه الأمّة لامحالة وينزل عيسى بن مريم ويقتله بباب لد) [5] ، وقال : (والإيمان أنّ المسيح الدّجّال خارجٌ

---

[1] الإحسان ١٥ / ٢١١ .

[2] الإحسان ١٥ / ٢١٤ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في فضائل المدينة باب لايدخل الدّجّال المدينة ، ومسلم في الفتن باب قصّة الجسّاسة .

[3] الإحسان ١٥ / ٢٢٣ .

[4] الإحسان ١٥ / ٢٢٤ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الفتن باب فتح قسطنطينيّة .

[5] طبقات الحنابلة ١ / ٣٤٤ .

مكتوب بين عينيه كافر، وللأحاديث الّتي جاءت فيه والإيمان بأنّ ذلك كائن)[1] .

وقال الآجري : (كتاب التّصديق بالدّجال وأنّه خارج في هذه الأمّة)[2] .

وقد تعرّض ابن حبّان لمسألة مهمّة وهي : أنّه يذهب مع القائلين بأنّ الدّجّال هو ابن صيّاد أو ابن صائد كما سُمّي في الآثار بهما ، واسمه صاف[3] الّذي ظهر في عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهي من المسائل الّتي اختلف فيها العلماء ، وأشكلت فيها الآثار ، فممّن ذهب الى أنّ الدّجّال هو ابن صياد ، عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان يحلف على ذلك أمام النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وكذلك جابر بن عبدالله وعبدالله بن عمر[4] والقرطبي[5] والنّووي[6] ومال إليه الشوكاني[7] ، والّذي يمنع من ترجيح هذا القول مطلقاً حديث تميم الدّاري المشهور أنّهم رأو الدّجّال مكتوفاً في جزيرة من جزر البحر[8] ، فهذا يعارض ماصحّ عن ابن صياد أنّه كان صبياً لم يبلغ الحلم آنذاك .

قال البيهقي رحمه الله : (وكأنّ الّذين يجزمون بأنّ ابن صياد هو الدّجّال لم يسمعوا بقصّة تميم وإلاّ فالجمع بينهما بعيد جداً، إذ كيف يلتئم أن يكون من كان في أثناء حياة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم شبه محتلم ويجتمع به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ويسأله، أن يكون في آخرها شيخاً كبيراً مسجوناً في جزيرة من جزائر البحر موثقاً بالحديد يستفهم عن خبر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم هل خرج أم لا ؟)[9] .

---

(1) طبقات الحنابلة ١ / ٢٧ .

(2) الشّريعة ص ٣٠٥ .

(3) شرح مسلم للنّووي جزء١٨ / ٤٦ .

(4) فتح الباري ١٣ / ٣٢٣ .

(5) التّذكرة ص ٧٠٢ .

(6) شرح مسلم ١٨ / ٤٦ .

(7) نيل الأوطار ٧ / ٢٣٠ .

(8) أخرجه مسلم في الفتن باب قصّة الجسّاسة عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها .

(9) فتح الباري ١٣ / ٣٢٦ .

وغاية مافي الأمر أنّ أصحاب القول الأوّل استدلّوا بوجود بعض صفات الدّجّال في ابن صياد مثل انطفاء عينه وتكهّنه وقوله : أرى عرشاً على الماء ويأتيني صادقٌ وكاذب [١] ، فكلّ مافي ذلك أنّه كان دجّالاً من الدّجاجلة ولايعني أنّه هو الدّجّال الأكبر .

وأمّا قوله : إنّه لايكره أن يكون هو الدّجّال وأنّه يعرف موضعه ويعرف مولده ، فإنّ من عُرف بالدّجل لايبعد عنه الكذب على النّاس، والاستخفاف بهم ، أضف إلى ذلك أنّ ابن صياد كان منزعجاً ممّا يقوله عنه النّاس ، فربما قال ذلك إغاظةً لهم وزيادةً في تخويفهم منه ، ولايبعد ذلك من رجل مثله، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله : (قد أشكل أمر ابن صياد على بعض الصّحابة فظنّوه الدّجّال ، وتوقف النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيه، حتّى تبيّن له فيما بعد بأنّه ليس هو الدّجال، إنّما هو من جنس الكهّان أصحاب الأحوال الشيطانيّة ولذلك كان يذهب ليختبره) ،[٢] وفي الحقيقة إنّ القول بأنّ ابن صيّاد هو الدّجّال معارض بأدلّة كثيرة فهو كان بالمدينة والدّجّال لايدخل المدينة ، وقد مات بها كما يُروى [٣] ، والدّجّال يخرج من المشرق ويتبعه سبعون ألف من يهود أصبهان ومعه ماء ونار ومكتوب بين عينيه كافر ، فكلّ هذا وغيره لم يظهر في ابن صيّاد وخصوصاً معارضته لخبر تميم الدّاري ، وعلى العموم فما توقّف فيه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يجزم به ، فحريّ بنا أن نتوقف فيه نحن، وإن كان الأقرب والأولى بالصّواب أنّه ليس هو الدّجّال الأكبر ، خلاف ماجنح إليه ابن حبّان وإن كان له سلف في ذلك رحمه الله تعالى ، والله أعلم بالصّواب .

---

[١] انظر شرح مسلم للنّووي ١٨ / ٤٦ - ٤٧ .

[٢] الفتاوى ١١ / ٢٨٣ .

[٣] شرح مسلم ١٨ / ٤٧ .

المبحث الخامس عشر : **عقيدته في الإيمان بنزول عيسى ابن مريم عليه السّلام**

قال ابن حبّان : "ذِكرُ الإخبار عن رفع التّباغض والتّحاسد والشّحناء عند نزول عيسى ابن مريم صلوات الله عليه " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة مرفوعاً : (**لينزلنّ ابن مريم حكماً عدلاً ... ولتذهبنّ الشّحناء والتّباغض**)[1] .

وقال : " ذِكرُ البيان بأنّ نزول عيسى ابن مريم من أعلام السّاعة"، وساق حديث ابن عبّاس مرفوعاً في قوله تعالى: **{ وإنّه لعِلْمٌ للسّاعة }**، قال: (**نزول عيسى ابن مريم من قبل القيامة**)[2] .

و قال أيضاً : " ذِكرُ ذوبان الدّجّال عند رؤيته عيسى ابن مريم قبل قتله إيّاه " [3] .

وقال "ذِكرُ الإخبار عما يفعل عيسى ابن مريم بمن نجاه الله من فتنة المسيح"، ثمّ ساق حديث النّواس ابن سمعان مرفوعاً : (**إنّ عيسى ابن مريم يأتي قوماً عصمهم الله من الدّجّال فيمسح وجوهَهم بدرجاتهم في الجنّة**)[4] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار بأنّ عيسى ابن مريم يحجّ البيت العتيق بعد قتل الدّجال " [5] .

وقال أيضا : " ذِكرُ البيان بأنّ عيسى ابن مريم إذا نزل يقاتل الناس

---

(1) الإحسان ١٥ / ٢٢٧ ، والحديث أخرجه أيضا مسلم في الإيمان باب نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

(2) الإحسان ١٥ / ٢٢٨ ، والحديث أخرجه أيضا أحمد ١ / ٣١٧ ــ ٣١٨ ، والطبراني ١٢ / ح١٢٧٤٠ ، والطبري في التفسير ١١/ ٢٠٤ ــ ٢٠٥ ، من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفا عليه ، و لم أجده مرفوعا إلا عند المصنف ، ولاأدري ممن الخطأ ، فقد اتفق سفيان وشعبة وشيبان بن عبدالرحمن على وقفه ، ولكنه عند ابن حبان مرفوع عن شيبان وحده ، وليس هو من عاصم فقد رواه الوليد بن مسلم عن سفيان وشيبان كلاهما عن عاصم موقوفا ، فلعله من هشام أو من محمد بن الحسن والله أعلم .

(3) الإحسان ١٥ / ٢٢٤ .

(4) الإحسان ١٥ / ٢٢٦ ، والحديث أخرجه أيضا مسلم في الفتن باب ذكر الدجال ، ولفظه : (**فيمسح وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة**) ، فلا أدري رواية ابن حبان فيها اختصار أم هو سقط من الطابع .

(5) الإحسان ١٥ / ٢٣٢ .

على الإسلام " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً وفيه : (**فيقاتل النّاس على الإسلام**)[١] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار عن قدر مكث عيسى ابن مريم في النّاس بعد قتله الدّجال " ، ثمّ ساق حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً وفيه (**ثمّ يلبث عيسى في الأرض أربعين سنة**)[٢] .

تعليق:

قد ثبت في الكتاب والسّنّة أنّ اليهود عندما أرادوا الكيد لعيسى عليه السلام وقتله ، رفعه الله إليه بجسده ، فهو في السّماء كما ثبت أنّه ينزل في آخر الزّمان قبل قيام السّاعة فيقتل الدّجّال ، وهذا من الثّوابت عند أهل السّنّة والجماعة ، قال الله عزّ وجلّ : ﴿ **إذ قال الله ياعيسى إنّي متوفّيك ورافعك إليّ ...** ﴾ : **آل عمران ٥٥** ، وقال أيضاً : ﴿ **وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وماقتلوه وماصلبوه ولكن شُبّه لهم، وإنّ الّذين اختلفوا فيه لفي شكّ منه، ماهم به من علم إلاّ اتّباع الظّنّ وماقتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ : **النّساء ١٥٧-١٥٨.**

كما ثبت في الأحاديث المتواترة عن جمع من الصّحابة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه عليه السّلام ينزل آخر الزّمان فيقتل الدّجّال ويكسر الصّليب ويضع الجزية ويحكم بالإسلام ويقاتل النّاس عليه ، ويصلي خلف إمامٍ من أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم ، كلّ هذا واردٌ في السّنّة وثابتٌ لايتردّد فيه إلاّ متشكّك أو ملحد ضال أو مبتدع زائغ ، وقد ذكر ذلك ابن حبّان ونوّع العبارة في الاستدلال على ثبوت ذلك ، وأورد الأدلّة على ماترجم فأجاد وأفاد وأحسن أحسن الله اليه .

---

[١] الإحسان ١٥ / ٢٣٣ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٢ / ٤٠٦ ، ٤٣٧ ، وأبو داود في الملاحم باب خروج الدّجّال ، والحاكم ٢ / ٥٩٥ ، وصحّحه ووافقه الذّهبي .

[٢] الإحسان ١٥ / ٢٣٥ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٦ / ٧٥ وإسناده حسن .

قال في عون المعبود : (تواترت الأخبار عن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم في نزول عيسى ابن مريم صلّى ا لله عليه وسلّم من السّماء بجسده العنصري إلى الأرض عند قرب السّاعة، وهذا هو مذهب أهل السّنّة)[١] .

وقال الإمام أحمد رحمه ا لله : (والدّجّال خارجٌ في هذه الأمّة لامحالة وينزل عيسى فيقتله بباب لد)[٢] .

وقال الطّحاوي رحمه ا لله : (ونؤمن بأشراط السّاعة من خروج الدّجّال ونزول عيسى ابن مريم عليه السّلام من السّماء)[٣] ، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة : (والمسيح عليه السّلام لابدّ أن ينزل إلى الأرض ...كما ثبت في الأحاديث الصّحيحة ، ولهذا كان في السّماء الثّانية ... لأنّه يريد النّزول إلى الأرض قبل يوم القيامة)[٤] .

وقد ذكر العلماء صفته عليه السّلام ومكان نزوله ، قال ابن كثير: (الأشهر في موضع نزوله أنّه على المنارة البيضاء الشّرقيّة بدمشق، وقد رأيت في بعض الكتب أنّه ينزل على المنارة البيضاء شرقي جامع دمشق ...وهذا هو الأنسب والأليق فإنّه ينزل وقد أُقيمت الصّلاة فيقول له إمام المسلمين : ياروح ا لله تقدّم ، فيقول : تقدّم أنت فإنّها أقيمت لك)[٥] .

وفي النّصوص أنّه رجلٌ مربوع القامة ليس بالطّويل ولا بالقصير ، أحمر عريض الصّدر سبط الشّعر كأنّما خرج من حمّام له لّمة قد رجّلها تملأ مابين منكبيه[٦] .

وقد جاء في النّصوص أيضاً مايفيد أنّ زمانه زمان عدل وأمن وبركة واتّساع في الأرزاق وعموم الخيرات في الأرض ، وأنّه يحكم بشريعة الإسلام وهذا كلّه ثابتٌ بالسّنّة الصّحيحة المتواترة لاينكره إلا هالك .

---

[١] عون المعبود للعظيم آبادي ١١ / ٤٥٧ .

[٢] طبقات الحنابلة ١ / ٣٤٤ .

[٣] الطّحاويّة مع شرحها ٢ / ٧٥٤ .

[٤] الفتاوى ٤ / ٣٢٩ .

[٥] النّهاية لابن كثير ١ / ١٤٤ .

[٦] السّبط من الشّعر : المنبسط المسترسل ، النّهاية ٢ / ٣٣٤ ، واللّمّة من الشّعر ما وصل المنكبين فإذا زادت فهي جمّة فإذا زادت فهي الوفرة ، النّهاية ٤ / ٢٧٣ ، وانظر النّهاية لابن كثير١ / ٩٧ ـ ٩٨ .

وقد أورد الإمام ابن حبّان حديث مدّة بقاء عيسى في الأرض وأنّه أربعين سنة ، والذي في صحيح مسلم أنّه يمكث سبع سنين ،[1] وهذا مشكل إلاّ أنّه يمكن الجمع بما ذكره بعض العلماء : أن تُحمل رواية سبع سنين على مدّة إقامته بعد نزوله، ويكون المقصود بالأخرى مجموع عمره قبل رفعه وبعد نزوله ، كما هو مشهور أنّه رُفع وهو ابن ثلاثين سنة أو ثلاثة وثلاثين.[2]

هذا هو ملخّص معتقد أهل السنّة والجماعة ، كما ذهب إليه ابن حبّان وبيّنه ، ولم يخالف في نزول عيسى إلاّ طوائف ممّن قلّ إيمانهم بالغيب ، وتشكّكوا في قدرة الله تعالى وتأثّروا بأساتذتهم من المستشرقين والمادّيّين الّذين ينكرون خوارق العادة والمعجزات ، ولا يؤمنون إلاّ بما يسمعون ويبصرون ويشعرون والله من ورائهم محيط .

[1] أخرجه مسلم في الفتن باب ذكر الدّجّال .

[2] انظر النّهاية لابن كثير ١ / ٩٩.

المبحث السّادس عشر : عقيدته في عذاب القبر

القبر أوّل منازل الآخرة ، وهو الطّريق الّتي يعبرها العبد إلى مآله ومصيره ، فإن كان من أهل السّعادة فروحٌ وريحان ، وإن كان من أهل الشّقاوة فنُزُلٌ من حميم ، وتصلية جحيم .

وتُسمّى هذه الفترة الّتي يقضيها العبد في قبره ، الحياة البرزخيّة [(1)] ، وفيها يحيى العبد حياةً خاصّة لايدرك الأحياء منها شيئاً ، وفيها ينعّم العبد أويُعذّب بحسب ما قدّم .

وعذاب القبر ونعيمه من العقائد الثّابتة عند أهل السّنّة والجماعة ولم يُخالف فيها إلاّ أهل الشّرك وملاحدة هذه الأمّة وأفراخهم من أهل البدع .

وهاهو ابن حبّان يسرد الأخبار الّتي تثبت عذاب القبر وأحوال الميّت في قبره من قول الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم .

قال رحمه الله : " ذِكرُ الخبر الدّالّ على أنّ المسلم والكافر يعرفان ما يحلّ بهما بعدُ من ثواب أو عقاب قبل أن يُدخلا في حفرتهما " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة مرفوعاً : (**إنّ العبد إذا وُضع على سريره يقول : قدّموني قدّموني ، و إنّ العبد إذا وُضع على سريره يقول : يا ويلتي أين تذهبون بي**) : يريد المسلم والكافر : [(2)] .

وقال أيضاً : " ذكر البيان بأنّ ضغطة القبر لاينجو منها أحد من هذه الأمّة نسأل الله حسن السّلامة منها " ، ثمّ ساق حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : (**للقبر ضغطة ، لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ**)[(3)] .

---

(1) البرزخ : مابين كلّ شيئين من حاجز ، النّهاية ١ / ١١٨ ، وانظر تهذيب اللّغة ٧ / ٦٧٠ .

(2) الإحسان ٧ / ٣٧٨ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٢ / ٢٩٢ ، ٤٧٤ ، ٥٠٠ ، والنّسائي في الجنائز باب السّرعة بالجنائز ، وله شاهدٌ قويّ من حديث أبي سعيد الخدري ، أخرجه البخاري في الجنائز باب حمل الرّجال الجنازة دون النّساء .

(3) الإحسان ٧ / ٣٧٩ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٦ / ٥٥ ، ٩٨ ، وإسناده صحيح .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار بأنّ النّاس يُسألون في قبورهم وعقولهم ثابتةٌ معهم لا أنّهم يُسألون وعقولهم ترغب عنهم " ، ثمّ ساق حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذكر فتّاني القبر ، فقال عمر بن الخطاب : أتُردّ علينا عقولنا يا رسول الله ؟ فقال :(**نعم كهيئتكم اليوم**) .[1]

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار عن وصف بعض العذاب الّذي يُعذّب به الكافر فى قبره " ، ثمّ ساق حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً : (**يُسلّط على الكافر فى قبره تسعةٌ وتسعون تنّيناً تنهشه وتلدغه حتّى تقوم السّاعة**)[2].

وقال أيضاً : "ذِكرُ الإخبار بأنّ البهائم تسمع أصوات من عُذّب في قبره من النّاس " ، وساق حديث أمّ مبشّر وفيه : (**فقلت : يا رسول الله وللقبر عذاب ؟ قال : نعم وإنّهم يُعذّبون فى قبورهم ، تسمعه البهائم**)[3].

وقال أيضاً " ذِكرُ الخبرالمدحض قول من زعم أنّ الميّت إذا وُضع في قبره لا يُحرّك منه شيئٌ إلى أن يَبلى " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة الطّويل في حال الميّت في قبره .[4]

---

(1) الإحسان ٧ / ٣٨٤ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٢ / ١٧٢ .

(2) الإحسان ٧ / ٣٩١ ــ ٣٩٢ ، والحديث في إسناده ضعف .

(3) الإحسان ٧ / ٣٩٥ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٦ / ٣٦٢ ، والطّبراني في الكبير ٢٥ / ح٢٦٨ ، وابن أبي شيبة في المصنّف ح٢٩١٣٨ ، ١٢٠٣٣، وأمّ مبشّر هي بنت البراء بن معرور صحابيّة ،الإصابة ٨ / ٣٠٠ .

(4) الإحسان ٧ / ٧ / ٣٨٠ ، والحديث أخرجه أحمد ٢ / ٣٤٧ مختصراً و الحاكم ١ / ٣٧٩ ــ ٣٨٠ ، وصحّحه ووافقه الذّهبي ، وأخرجه أيضاً عبد الرّزّاق في المصنّف ح٦٧٠٣ ، وابن أبي شيبة في مصنّفه ح١٢٠٦١ موقوفاً على أبي هريرة .قال الدّارقطني : (يرويه محمّد بن عمرو بن علقمة ، واختلف عنه ، فرواه نعيم وحمّاد وعبدالوهّاب عن محمّد عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، ووقفه خالد بن عبدالله الواسطي وعبدة بن سليمان ويزيد بن هارون وسعيد بن عامر) العلل ٩ / ٢٩٥ ــ ٢٩٦ ، وقد رواه الحاكم ١ / ٣٨٠ عن سعيد بن عامر مرفوعاً ، ومحمّد بن عمرو هذا هو ابن علقمة بن وقّاص اللّيثي صدوق تكلّم بعض العلماء في حفظه وترك حديثه يحي بن سعيد ، وقال ابن معين : مازال النّاس يتّقون حديثه ، فقيل له : وما علّة ذلك ؟ قال : كان يحدّث مرّةً عن أبي سلمة بالشّيء من رأيه ، ثمّ يحدّث به مرّةً أخرى عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، وقال الإمام أحمد : (كان محمّد بن عمرو يحدّث بأحاديث فيرسلها ، ويسندها لأقوامٍ آخرين ، قال : وهو مضطرب الحديث) فكأنّ محمّد بن عمرو كان يرفع الحديث أحياناً ويوقفه أحياناً وهذا اضطرابٌ كافٍ لتضعيف الحديث من مسند أبي هريرة ،والله أعلم ، انظر تهذيب الكمال ٢٦ / ٢١٦ ، وشرح علل التّرمذي ١ / ٤٠٣ .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الخبرالمدحض قول من أنكر عذاب القبر " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة عن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم في قوله تعالى : ﴿ **فإنّ له معيشةً ضنكاً** ﴾ قال : (عذاب القبر)[1] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الخبرالدال على أنّ عذاب القبر قد يكون من النّميمة"، وقال أيضاً : " ذِكرُ الخبرالدّالّ على أنّ عذاب القبر قد يكون من ترك الاستبراء من البول "[2] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار بأنّ أهلَ القبور تُعرض عليهم مقاعدهم الّتي يسكنونها فى كلّ يوم مرّتين " ، ثمّ ساق حديث ابن عمر رضي ا لله عنهما مرفوعاً : (**إنّ أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ**)[3] .

وقال : " ذِكرُ خبر أوهم بعض المستمعين أنّ من نيح عليه عُذّب في قبره " ، ثمّ ساق حديث أنس بن مالك أنّ عمر قال لحفصة حين أعولت عليه: أما سمعت رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم يقول : (**إنّ المُعْوَلَ عليه يُعذّب**) ؟ قالت : بلى[4] .

وقال : " ذكر البيان بأنّ خطاب هذا الخبر وقع على الكفّار دون المسلمين " ، ثمّ ساق حديث عائشة رضي ا لله عنها مرفوعاً : (**إنّ الكافر ليزداد عذاباً ببكاء أهله عليه**)[5] .

---

(1) الإحسان ٧ / ٣٨٨ ـ ٣٨٩ ، والحديث أخرجه أيضاً الحاكم ١ / ٣٨١ ، والطّبري ٨ / ٤٧٢ ح٢٤٤٢١، موقوفاً على أبي هريرة ، ومداره على محمّد بن عمرو فلعلّه من أوهامه ، وهو جزءٌ من الحديث السّابق كما في مصنّف ابن أبي شيبة ح١٢٠٦١ .

(2) الإحسان ٧ / ٣٩٧ ـ ٣٩٨ .

(3) الإحسان ٧ / ٤٠٠ ـ ٤٠١ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الجنائز باب الميّت يُعرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ ، ومسلم في الجنّة باب عرض مقعد الميّت من الجنّة والنّار .

(4) الإحسان ٧ / ٤٠٢ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الجنائز باب مايكره من النّياحة على الميّت ، ومسلم في الجنائز باب الميّت يُعذّب ببكاء أهله عليه ، والنّياحة : رفع الصّوت على الميّت وأغلب مايكون من النّساء ، تهذيب اللّغة ٥ / ٢٥٦ .

(5) الإحسان ٧ / ٤٠٤ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الجنائز باب قول النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم : (يُعذّب الميّت ببعض بكاء أهله عليه) ومسلم في الجنائز باب الميّت يعذّب ببكاء أهله عليه ، مطوّلاً عن ابن عبّاس .

وقال أيضاً : " ذكر الإخبار بأنّ النّاس يبلون في قبورهم إلاّ عجب الذّنب " ، وساق حديث أبي هريرة مرفوعاً : (**كلّ ابن آدم يأكله التّراب ، إلاّ عجب الذّنب ، منه خُلق وفيه يُركّب**) [1] .

تعليق:

الإيمان بالغيب هو الأساس الّذي يقوم عليه دين الإسلام ، فما تُرك واجب ، ولا ارتُكب ذنب ، إلاّ وضعف الإيمان بالغيب سببه الأكبر ، فإنّ ضعف اليقين بموعود الله ووعيده يحدث لدى العبد جرأة على الذّنوب ، والجنّة والنّار ثواب الله وعقابه ، وهما من الغيب ، والله عزّوجلّ بصفاته غيب .

ومن الغيب أيضاً عذاب القبر ، الّذي أنكره فيما أنكره أهل البدع من المعتزلة والكّراميّة والخوارج وغيرهم ، لضعف إيمانهم ، وعجز عقولهم ، وقلّة حيلتهم ، فقال قائلهم : إنّا نكشف القبر فلانجد فيه ملائكةً يضربون الموتى بمطارق من حديد ، ولانرى حيّات ولا ثعابين ، ولا نرى آثار نعيم ولا شقاء إلى آخر ذلك الهذيان الممجوج [2] .

وأمّا أهل الإسلام قاطبةً فعلى الإيمان بعذاب القبر وأنّه حقٌّ ، قال شارح الطّحاويّة:(وقد تواترت الأخبار عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان أهلاً لذلك ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ، ولا نتكلّم في كيفيّته ، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيّته ، لكونه لاعهد له به في هذه الدّار ، والشّرع لايأتي بما تحيله العقول ، ولكنّه قد يأتي بما تحار فيه العقول ، فإنّ عود الرّوح في الجسد ليس على الوجه المعهود في الدّنيا ، بل تُعاد الرّوح إليه إعادةً غير الإعادة المألوفة في

[1] الإحسان ٧ / ٤٠٧ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في التّفسير باب ﴿ **ونُفخ في الصّور** ﴾ ، ومسلم في الفتن باب مابين النّفختين ، وعجب الذّنب هو آخر عظمة في السّلسلة الظّهريّة وهو عظمة صغيرة ، تهذيب اللّغة ١ / ٢٨٦ .

[2] انظر مقالات الإسلاميّين ٢ / ١١٦و الفصل لابن حزم ٤ / ١١٧والتّذكرة للقرطبي ص ١٢٥ ـ ١٢٩ .

الدّنيا)[1] ، وابن حبّان ذكر كثيراً من هذه الأخبار وترجم لها بما يُوافق مذهب أهل السّنّة .

قال ابن القيّم رحمه الله : (إنّ الله سبحانه وتعالى جعل الدّور ثلاثة : دار الدّنيا ودار البرزخ ودار القرار ، وجعل لكلّ دار أحكاماً تختصّ بها ، وركّب هذا الإنسان من بدن ونفس ، وجعل أحكام كلّ دار على الأرواح والأبدان تبعاً لها ، فكما تبعت الأرواحُ الأبدانَ في أحكام الدّنيا فتألّمت بألمها ، والتذّت براحتها ، وكانت هي الّتي باشرت أسباب النّعيم والعذاب ، تبعت الأبدان الأرواح في نعيمها وعذابها ، والأرواح حينئذٍ هي الّتي تباشر العذاب والنّعيم ، فالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفيّة ، والأبدان كالقبور لها ، والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفيّة في قبورها ، تجري أحكام البرزخ على الأرواح فتسري إلى أبدانها نعيماً وعذاباً ، كما تجري أحكام الدّنيا على الأبدان فتسري إلى أرواحها نعيماً أو عذاباً ، فأحِط بهذا الموضع علماً واعرِفْه كما ينبغي يزيل عنك كلّ إشكال يرد عليك من خارج أو داخل)[2] .

وقال محمّد بن الحسين الآجرّي : (باب التّصديق والإيمان بعذاب القبر) ،ثمّ ساق من الأخبار والآثار وقال : (ماأسوأ حال من كذّب بهذه الأحاديث ، لقد ضلّ ضلالاً بعيداً ، وخسر خسراناً مبيناً)[3] .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : (عذاب القبر حقّ ، ما ينكره إلاّ ضالٌّ مضلّ)[4] .

وقد ذكر ابن حبّان أنّ الأموات يُخاطبون ويُسألون في قبورهم وعقولهم ثابتةٌ معهم ، وهذا ثابت بالنّصوص الصّحيحة الصّريحة .

---

[1] شرح الطّحاويّة ٢ / ٥٧٨ .

[2] الرّوح لابن القيّم ص ١١٤ - ١١٥ .

[3] الشّريعة ص ٢٩٥ - ٢٩٩ .

[4] طبقات الحنابلة ١ / ٦٢ ، ٣١٢ ، ٣٤٤ .

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً في حال الكافر (..**فيُقال : لادريت ولا تليت ، ويُضرب بمطارق من حديد ضربةً فيصيح صيحةً يسمعها من يليه غير الثّقلين**)[1] .

وقد يقع عذاب القبر على المسلم إذا استوجب ذلك و لم يتجاوز عنه ربّه جلّ وعلا ، كما ثبت من تعذيب صاحب النّميمة والّذي كان لايستنزه من بوله .[2]

وقد خالف بعض العلماء في الكافر وقالوا : إنّه لايُسأل ، والنّصوص تردّ ذلك ، فقد جاء في الأحاديث في سؤال الملكين (.. وأمّا الكافر فيُقال له : ..)[3] .

ثمّ ذكر ابن حبّان مسألة تعذيب الميّت ببكاء أهله عليه ، فقد ذهبت عائشة وابن عبّاس ومن معهما إلى أنّ المُراد في الأحاديث المطلقة الكافر لما روته هي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، واستدلّت كذلك بقوله تعالى : ﴿ **ولاتزر وازرةٌ وِزْرَ أُخرى** ﴾ : **فاطر ١٨** ، وإلى ذلك مال ابن حبّان ورجّحه كما مرّ قبلُ .

وقال بعض أهل العلم بظاهر الحديث ، كما هو مفهومٌ من قول عمر ابن الخطّاب رضي الله عنه وابنه ،وعلى العموم فهناك مواطن لاينبغي أن يكون فيها اختلاف ، فلاتزر وازرة وزر أخرى كما هو متقرّرٌ في أصول الشّريعة ، وأنّ الميت إذا كان قد أوصى بأن يُناح عليه أو يُنعى ويُذكر ، أو كان راضياً بذلك بأن كان فى بيئة معروفة بالنّياحة على الميّت و لم يبدُ منه اعتراض عليه، ففي هذه الصّورة لا يبعد أن يدخل فى الحديث ، وأمّا إذا أوصى بأن لا يُناح عليه أو ظهر منه الإنكار لذلك وكرهه بقلبه ، فأصول الشّرع تمنع أن يُعذّب شخصٌ بما فعل غيره ، مثله فى ذلك مثل من عُبد من

---

[1] أخرجه البخاري في الجنائز باب ماجاء في عذاب القبر ، قوله : تليت : قال ابن الأثير : هكذا يرويه المحدّثون والصّواب : (ولاائتليت) وقيل معناه : لاقرأت النّهاية ١ / ١٩٥ ، ويقال :لا أتليت وائتليت : أي يدعو عليه أن لايبقى له عقب ، انظر تهذيب اللّغة ١٤ / ٣١٦ ، والقاموس ٤ / ٤٤٣ ـ ٤٤٤ .

[2] انظر التّذكرة للقرطبي ١٣٥ ـ ١٣٩ .

[3] انظر فتح الباري ٣ / ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

دون الله من الأنبياء والصّالحين والطّواغيت [١] ، فالتّفصيل المتقدّم ينطبق عليهم تماماً ، قال القرطبي : (قال بعض العلماء أو أكثرهم : إنّما يُعذّب الميّت ببكاء الحيّ إذا كان البكاء من سنّة الحيّ واختياره وكذلك إذا أوصى به)[٢] ، وأمّا استدلال عائشة بالآية ، ففيه أنّ ذلك يشمل الكافرأيضاً ، فإنّ الله لايعذّبه إلاّ على أفعاله هو .

وأخيراً : فإنّ ابن حبّان يثبت عذاب القبر وأنّه واقع على الرّوح والجسد وإن كان ذلك ممّا غُيّب على البشر فليس للمؤمن سوى الإيمان والتّسليم .

قال ابن تيميّة رحمه الله بعد ذكر بعض الأقوال في عذاب القبر :(فإذا عُرفت هذه الأقوال الباطلة فلتعلم أنّ مذهب سلف الأمّة وأئمّتها أنّ الميّت إذا مات يكون في نعيمٍ أو عذاب ، وأنّ ذلك يحصل لروحه وبدنه وأنّ الرّوح تبقى بعد مفارقتها البدن مُنعّمةً أو مُعذّبة ، وأنّها تتّصل بالبدن أحياناً ويحصل له معها النّعيم أو العذاب ثمّ إذا كان يوم القيامة الكبرى أُعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لربّ العالمين)[٣] .

وقال أيضاً : (والأحاديث الصّحيحة المتواترة تدلّ على عَوْد الرّوح إلى البدن وقت السّؤال ، وسؤال البدن بلا روح قول طائفة من النّاس وأنكره الجمهور ، وقابلهم آخرون فقالوا السّؤال للرّوح بلا بدن ، وهذا قاله ابن هبيرة [٤] وابن حزم وكلاهما غلط ، والأحاديث الصّحيحة تردّه ، ولو كان ذلك على الرّوح فقط لم يكن للقبر بالرّوح اختصاص)[٥] والله تعالى أعلى وأعلم .

---

[١] الطّغيان : هو مجاوزة الحدّ ، والطّاغوت ما تجاوز به العبد حدّه ، وهو الشّيطان وكلّ ماعبد من دون الله ، انظر النّهاية ٣ / ١٢٨ ، وتهذيب اللّغة ٨ / ١٦٧ .

[٢] التّذكرة ص ١٠٢ .

[٣] انظر الفتاوى لشيخ الإسلام ٤ / ٢٨٤ ، والرّوح لابن القيّم ٩٦ - ٩٧ .

[٤] لعلّه أبو المظفّر يحيى بن محمّد بن هبيرة بن سعيد الشّيبني الدّوري الحنبلي ، السّير ٢٠ / ٤٢٦ .

[٥] الرّوح لابن القيّم ص ٩٤ .

المبحث السّابع عشر : عقيدته في البعث

البعث لغةً مأخوذٌ من الإرسـال ، يُقـال : بعثه أي : أرسـله ، وبعث فلاناً من منامه ، أي أهبّه، قال في النّهاية : في أسماء ا لله تعالى (الباعث) هـو الّذي يبعث الخلق ، أي : يحييهم بعد الموت يوم القيامة .[1]

والمقصود : إحياء ا لله تعالى النّاس مـن قبورهـم يـوم القيامـة للحسـاب والجزاء ، فيبعث ا لله تعالى جميع الخلائـق الّـتي خلقهـا في الأرض وقـدّر عليهـا الموت من البشر والطّيْر والسّباع والجنّ ويحشرهم في أرض المحشر [2] .

وعقيدة البعث والإيمان بها مـن أركـان الإيمـان ودعائمـه الّـتي لايكـون العبد مؤمناً إلاّ بها، كما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي ا لله عنـه لّمـا جاء جبريل يسأل النّبيّ صلّى ا لله عليـه وسـلّم عـن الإيمـان قـال : (**أن تؤمن با لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه**)[3].

وقال تعالى : ﴿ **ا لله لا إله إلاّ هو ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريـب فيه** ﴾: **النّساء ٨٧**، وقال : ﴿ **إنّ السّاعة آتيةٌ أكاد أُخفيها** ﴾ :طه**١٥**وقـال : ﴿ **ياأيّها النّاس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم مـن تـراب** ﴾ : **الحج ٥**، و قال : ﴿ **وقال الّذين أوتوا العلم والإيمـان لقـد لبثتـم في كتاب ا لله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث** ﴾ : **الرّوم ٥٦**، وقال : ﴿ **يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كـأنّهم إلى نصـبٍ يوفضـون** ﴾ : **المعارج ٤٣**، وقـال تعالى : ﴿ **يـوم يجمعكـم ليـوم الجمـع ذلـك يـوم التّغـابن** ﴾ : **التّغـابن ٩** ، وغيرها كثير، فهو ثابت بالقرآن والسّنّة الصّحيحة المتواتـرة لا يُجـادل فيـه إلاّ كلّ معتدٍ أثيم، ضالٍّ عن صراط ا لله القويم وهدي النّبيّ الكريم .

---

[1] النّهاية لابن الأثير ١ / ١٣٨ ، والقاموس المحيط ١ / ٣٥٠ .

[2] التّذكرة للقرطبي ص ٢٧٣ .

[3] أخرجه مسلم في أوّل كتاب الإيمان .

وقد جاء في البعث والحشر وأهوال يوم القيامة من الآيات والسّنن والآثار ما يصعب حصره ، ولكنّنا نذكر هنا طرفاً ممّا صحّ في البعث والحشر ، كما ذكره ابن حبّان رحمه الله تعالى .

قال رحمه الله : " ذِكرُ الإخبار عن وصف الصّور الّذي يُنفخ فيه يوم القيامة " ، ثمّ ساق حديث عبد الله بن مسعود قال : سأل أعرابيٌّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : ما الصّور ؟ قال : (**قرنٌ يُنفخ فيه**)[1] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ البيان بأنّ الخلق يُبعثون يوم القيامة على نيّاتهم "، ثمّ ساق حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قُلت : يارسول الله، إنّ الله إذا أنزل سطوته بأهل الأرض وفيهم الصّالحون فيُهلكهم بهلاكهم ؟ فقال : (**ياعائشة: إنّ الله إذا أنزل سطوته بأهل نقمته وفيهم الصّالحون فيُصابون معهم ، ثمّ يُبعثون على نيّاتهم وأعمالهم**)[2] .

وقال بعد حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً : (**الميّت يُبعث في ثيابه الّتي قُبض فيها**): " قوله عليه السلام : **الميّت يُبعث في ثيابه الّتي قُبض فيها** ، أراد به في أعماله كقوله جلّ وعلا : ﴿ **وثيابك فطهّر** ﴾ يريد به : وأعمالك فأصلحها، لا أنّ الميّت يُبعث في ثيابه الّتي قُبض فيها ، إذ الأخبار الجمّة تصرّح عن المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بأنّ النّاس يُحشرون يوم القيامة حفاةً عراةً غرلاً "[3] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار عن وصف الأرض الّتي يُحشر عليها النّاس" ، ثمّ ساق حديث سهل بن سعد رضي الله عنه مرفوعاً : (**يُحشر النّاس على أرض بيضاء ، عفراء كقرصة النّقي ليس فيها علَمٌ لأحد**)[4] .

---

[1] الإحسان ١٦ / ٣٠٣ ، والحديث أخرجه أيضاً ، أحمد ٢ / ١٦٢ ، وأبوداود في السّنّة باب ذكر البعث والصّور ، والتّرمذي في صفة القيامة باب ماجاء في شأن الصّور، والحاكم ٢ / ٤٣٦ ، ٥٠٦ ، وصحّحه ووافقه الذّهبي .

[2] الإحسان ١٦ / ٣٠٥ ، والحديث في إسناده لين ، وقد أخرجه البخاري في البيوع باب ماذُكر في الأسواق ومسلم في الفتن باب الجيش الّذي يؤمّ البيت بألفاظ مختلفة ، والشّاهد من الحديث ثابت .

[3] الإحسان ١٦ / ٣٠٧ : ٣٠٨ ، والحديث أخرجه أيضاً أبوداود في الجنائز باب ما يُستحبّ من تطهير ثياب الميّت عند الموت ، والحاكم ١ / ٣٤٠ ، وصحّحه ووافقه الذّهبي ثمّ الألباني في السّلسلة الصّحيحة ٤ / ح١٦٧١ .

[4] الإحسان ١٦ / ٣١٢ ـ ٣١٣ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الرّقاق باب يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ومسلم في صفات المنافقين باب في البعث والنّشور وصفة الأرض يوم القيامة . عفراء : من عفر الأرض وهو وجهها : أي بيضاء ليست

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار عن وصف ما يُحشر الكفّار به " ، ثمّ ساق حديث أنس بن مالك : أنّ رجلاً قال : يارسول ا لله، كيف يُحشر الكافر على وجهه ؟ قال : (**إنّ الّذي أمشاه على رجليه قادرٌ على أن يُمشيه على وجهه**)[1].

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار عن وصف أوّل من يُكسى يوم القيامة من النّاس " ، ثمّ ساق حديث عبد ا لله بن مسعود مرفوعاً : (**إنّكم محشورون حفاةً عراةً غرلاً ، وأوّل الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم**)[2] ، وقد ذكر ابن حبّان غير ذلك من أوصاف وأحوال يوم القيامة ممّا يدلّ أنّه مؤمنٌ ومثبتٌ للبعث والجزاء والحساب على منهج أهل السّنّة والجماعة .[3]

وإنّه لمن نافلة القول أنّ أهل السّنّة والجماعة يؤمنون بأنّ البعث بعثٌ حقيقي لنفس الأشخاص الّذين ماتوا بأعيانهم ، وأنّ ا لله يجمع ما تفرّق من أجسادهم فينبتون من قبورهم كما تنبت الحبّة في الأرض إذا سُقيت ماءً ، وأنّ ا لله عزّ وجلّ يُنزل من السّماء مطراً كمنيّ الرّجال فيخرج النّاس من قبورهم كما ينبت الشّجر ، ولكن تكون لأجسادهم خصائص تختلف شيئاً مّا عمّا في الدّنيا ، فمن ذلك أنّهم لايموتون بما يصيبهم من بلاء ، ومن ذلك أنّهم يبصرون مالم يكونوا يبصرون في الدّنيا ، وغير ذلك إلاّ أنّه لايعني أنّ الّذين يُبعثون يوم القيامة خلقٌ آخر غير الخلق الّذي كانوا عليه في الدّنيا .[4]

ونشير هنا إلى أنّ قوله في حديث أبي سعيد الخدري : إنّ المقصود بالثّياب هي الأعمال ، هو أحد الوجوه في الجمع بين هذا الحديث وحديث ابن عبّاس أنّ النّاس يُحشرون حفاةً عراةً ، ووجهٌ آخر أنّهم يُبعثون في ثيابهم

= شديدة البياض وإنّما مائلة إلى الحمرة ، والنّقيّ : هو الدّقيق النّقيّ من الغشّ والنّخال ، فتح الباري ١١ / ٣٧٥ ، وشرح مسم للنّووي ج١٧/ ١٣٤ .

[1] الإحسان ١٦ / ٣١٥ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الرّقاق باب الحشر ومسلم في المنافقين باب يُحشر الكافر على وجهه .

[2] الإحسان ١٦ / ٣٢٣ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الرّقاق باب الحشر ، ومسلم في الجنّة وصفة نعيمها باب فناء الدّنيا وبيان الحشر يوم القيامة .

[3] انظر الإحسان ١٦ ، ٣٠١ - ٣٨٧ .

[4] انظر بتوسّع الفتاوى لشيخ الإسلام ١٧ / ٢٤٨ - ٢٦١ ، وشرح الطّحاويّة / ٥٨٨ وما بعدها .

ولكنّها تبلى بعد قيامهم فيُحشرون عراة، ومنها أنّه إذا كُسي النّاس يوم القيامة فإنّ كسوة كلّ إنسان تكون من جنس ما يموت فيه [1] ، والأمر واسع ومن الرّسول البلاغ وعلينا التّسليم والله أعلم .

[1] معالم السّنن للخطّابي ١ / ٣٠١ ، وفتح الباري ١١ / ٣٩١ .

المبحث الثّامن عشر : عقيدته في الحوض

الحوض في اللّغة : هو المكان الّذي يجتمع فيه الماء ، يُقال : استحوض الماء أي : اجتمع [1] .

والمقصود به هنا الحوض الّذي جعله ا لله لنبيّه صلّى ا لله عليه وسلّم يوم القيامة ، وقد جاءت فيه الأحاديث الكثيرة المشهورة ، وبذلك أصبح جزءاً لا يتجزّأ من عقائد أهل السّنّة الّتى يعتقدونها ويدينون ا لله بها وبالتّصديق بوجودها وأنّها حق ، إذ كلّ ما جاء عن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم حق .

وقد أثبت ابن حبّان هذا المعتقد وفصّل ونوّع فى ذكر الأحاديث المثبتة لحوض النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم والّتى جاء فيها وصفه وصفاته وأهله جعلنا ا لله منهم بمنّه وكرمه .

قال ابن حبّان : " ذِكرُ الإخبار عن وصف الطّول الّذي يكون بين حافّتي حوض المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم فى القيامة ، أوردنا ا لله إيّاه بفضله " ، ثمّ ساق حديث أنس بن مالك رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**ما بين ناحيتي حوضي كما بين صنعاء والمدينة**)[2].

وذكر حديث جابر بن عبد ا لله مرفوعاً وفيه:(**وسيأتي رجالٌ ونساءٌ بآنية وقرب ثمّ لا يذوقون منه ...**) ، ثمّ قال : " أُريد به من سائر الأمم الّذين قد غُفر لهم ، يجيئون بأواني ليستقوا بها من الحوض فلا يُسقون منه لأنّ الحوض لهذه الأمّة خاصٌ دون سائر الأمم ، إذ محالٌ أن يقدر الكافر والمنافق على حمل الأواني والقرب فى القيامة لأنّهم يُساقون الى النّار "[3].

---

(1) انظر القاموس المحيط ٢ / ٤٨٤ ، والنّهاية لابن الأثير ١ / ٤٦١ .

(2) الإحسان ١٤ / ٣٥٨ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الفضائل باب إثبات حوض نبيّنا صلّى ا لله عليه وسلّم ، وأخرجه البخاري في الرّقاق باب الحوض بلفظ(كما بين أيلة إلى صنعاء) .

(3) الإحسان ١٤ / ٣٥٩ ـ ٣٦١ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٣ / ٣٤٥ ،و٣٨٤ موقوفاً والطّبراني في الأوسط ح٧٤٦ ، ٩٠٧٠ ، والبزّار ح٣٤٨١ (كشف الأستار) ، وقد اختُلف في رفعه ووقفه ، والمرفوع أرجح ، وله شواهد يأتي بعضها .

وقال فى مكانٍ آخر " ... في خبر سليمان التّيمي **مـــا بـــين صَنْعـــاء والمدينة** ، وفى خبر جابر **ما بين أَيْلَة**[1] **إلى مكّة** ، وفى خبر عتبة بن عبـــد الله **ما بين صنعاء إلى بُصرى**[2] ، وفى خبر قتادة **ما بين المدينة وعمّان** ، وليس بين هذه الأخبار تضادٌ ولا تهاتر ، لأنّها أجوبةٌ على أسئلة ذكر المصطفى صلّـى الله عليه وسلّم فى كلّ خبرٍ ممّا ذكرنا جانباً من جوانب حوضه أنّ مســيرة كــلّ جانب من حوضه مسيرة شهر ، فمن صنعاء الى المدينة مسيرة شـــهرٍ لغــير المسرع ، ومن أيلة الى مكّة كذلك ، ومن صنعاء الى بُصرى كذلك ، ومــن المدينة الى عمان الشام كذلك "[3].

وقال أيضاً : " ذكر الإخبار عن وصف الأواني فى حوض المصطفــى صلى الله عليه وسلم " ، ثم ساق حديث أنس بن مالك مرفوعاً : (**ترى فيــه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء أو أكثر**) ، يعني الحوض[4] .

وقال أيضاً : " ذكر تفضل الله جل وعلا على صفيه صلى الله عليـــه وسلم بإعطائهِ الحوض ليسقي منه أمته يوم القيامة جعلنا الله منهم بمنـــه " ، ثم ساق حديث أبي بَرزَة مرفوعاً : (**مابين ناحيتي حوضي كما بـــين أَيْلَـــة إلى صنعاء مسيرة شهر عرضه كطوله...**) .[5]

تعليق :

ما جاء عن ابن حبان من إثبات الحوض ، هو الحقُّ الذي لا مرية فيـــه و لم ينكره إلاّ من كتب الله عليه الضّلال من هوامّ المعتزلة ، وأشباههم .

(1) مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام وهي مدينة صغيرة عامرة لليهود انظر معجم البلدان ١ / ٢٩٢ ، وانظر فتح البـاري ١١ / ٤٧٠ حيث ذكر الحافظ أنها خراب في أيامه .

(2) مدينة بالشام من أعمال دمشق ، المعجم ١ / ٤٤١ .

(3) الإحسان ١٤ / ٣٦٣ .

(4) الإحسان ١٤ / ٣٦٦ ، والحديث أخرجه أيضا مسلم في الفضائل باب إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم .

(5) الإحسان ١٤ / ٣٧١ ، والحديث أخرجه أيضا أحمد ٤ / ٤٢٤ ، وأبوداود في السنة باب الحوض .

نقل الحافظ عن القرطبي قوله : (..ممّا يجب على كلّ مكلّف أن يعلمه ويصدّق به أنّ الله سبحانه قد خصّ نبيّه محمّداً صلّى الله عليه وسلّم بالحوض المصرّح باسمه وصفته وشرابه في الأحاديث الصّحيحة الّتي يحصل بمجموعها العلم القطعي ... وأجمع على ذلك السّلف وأهل السّنّة من الخلف ، وأنكرت ذلك طائفة من المبتدعة : ثمّ قال الحافظ : قلت : أنكره الخوارج وبعض المعتزلة)[1] وقال شارح الطّحاويّة : (الأحاديث الواردة فى ذكر الحوض تبلغ حدّ التّواتر ، رواها من الصّحابة بضعٌ وثلاثون صحابياً ... والّذي يتلخّص من الأحاديث الواردة فى صفة الحوض أنّه حوضٌ عظيم ومورد كريم يُمدّ من شراب الجنّة ، ومن نهر الكوثر الّذى هو أشدّ بياضاً من اللّبن ، وأبرد من الثّلج ، وأحلى من العسل وأطيب ريحاً من المسك ، وهو فى غاية الاتّساع ، عرضه وطوله سواء كلّ زاوية من زواياه مسيرة شهر)[2] .

روى الآجرّي بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : دخلت على ابن زياد وهم يتذاكرون الحوض ، فلمّا رآني طلعت عليهم ، قالوا : قد جاءكم أنس ، فقالوا : يا أنس ما تقول فى الحوض ؟ قلت : والله ما شعرت أنّي أعيش حتّى أرى أمثالكم ، تشكّون في الحوض ، لقد تركت عجائز بالمدينة ، ما تصلّي واحدةٌ منهنّ صلاةً إلاّ سألت ربّها عزّ وجلّ أن يوردها حوض محمّد صلّى الله عليه وسلّم ، ثمّ قال الآجرّي : ألا ترون الى أنس بن مالك رضى الله عنه يتعجّب ممّن يشكّ فى الحوض ، إذ كان عنده أنّ الحوض ممّا يؤمن به الخاصّة والعامّة)[3] .

وقال السفّاريني : (خالفت المعتزلة فلم تقل بإثبات الحوض مع ثبوته بالسّنّة الصّحيحة الصّريحة ، فكلّ من خالف فى إثباته فهو مبتدع)[4] .

---

(1) الفتح ١١ / ٤٦٧ .
(2) شرح الطّحاويّة ١ / ٢٨٠ -٢٨١ .
(3) الشّريعة ص ٢٩٤ .
(4) لوامع الأنوار ٢ / ٢٠٢ .

وقد ذهب بعض العلماء الى أنّ الحوض بعد الصّراط والصّحيح أنّه قبل الصّراط ، قال شارح الطحاوية : (والحوض في العرصات قبل الصّراط لأنّه يُختلج عنه ، ويُمنع منه أقوام ارتدّوا على أعقابهم ، ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصّراط)[١] ، وقال القرطبي : (و المعنى يقتضيه فإنّ النّاس يخرجون عطاشاً من قبورهم فيُقدّم على الصّراط والميزان ...)[٢] .

وأمّا قول ابن حبّان : إنّ الّذين يُذادون وهم يحملون الآنية والقرب هم من أمم أُخرى ، وتعليله ذلك بأنّ الحوض خاصٌّ بهذه الأمّة ، ففيه أنّ كلامه يحتمل أنّ الحوض لهذه الأمّة ، بمعنى أنّ باقي الأمم ليس لها حياض لأنبيائها ، وهذا خلاف ما جاء من طرق يسند بعضها بعضاً مرفوعاً إلى النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم : (**إنّ لكلّ نبيّ حوضاً وإنّهم يتباهون أيّهم أكثر وارداً ، وإنّي أرجو ا لله أن أكون أكثرهم واردة**)[٣] .

وأمّا إن أراد أنّ حوض النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم خاصٌّ بهذه الأمّة ولا يشركهم فيه أحد من مؤمني الأمم الأخري فهذا محتمل ، إلاّ أنّ العلّة الّتي من أجلها أوّل الحديث بهذا التّأويل غير صحيحة ، فهي مخالفةٌ للنّصوص الّتي فيها أنّه يُذاد عن الحوض رجالٌ قال فيهم علماء الأمّة : إنّهم الّذين ارتدّوا عن دين الإسلام ، وهذا القسم لم يُختلف فيه وإنّما كان الاختلاف في عصاة الأمّة ممّن مصيرهم الى الجنّة ، قال القرطبي رحمه ا لله : (قال علماؤنا :كلّ من ارتدّ عن دين ا لله أو أحدث فيه مالا يرضاه ا لله و لم يأذن به فهو من المطرودين عن الحوض ...) [٤] .

وقال النّووي بعد رواية:(**ليردنّ عليّ الحوض رجال ممّن صاحبني حتّى إذا رأيتهم ورُفعوا إليّ اختُلِجوا دوني فلأقولنّ : ربِّ أُصيحابي أُصيحابي**

---

[١] شرح الطّحاويّة ١ / ٢٧٩ .

[٢] التّذكرة للقرطبي ٣٠٢ ، العرصات جمع عرصة وهي كلّ موضع واسع لابناء فيه ، النّهاية ٣ / ٢٠٨.

[٣] أخرجه التّرمذي في صفة القيامة باب ماجاء في الحوض والطّبراني في الكبير ٧ / ح٦٨٨١ عن سمرة رضي ا لله عنه ، وللألباني فيه بحث قيّم في السّلسلة الصّحيحة ٤ / ١١٧ .

[٤] التّذكرة ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧ .

فليُقالنّ لي : إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك) [1] : (قال القاضي : هذا دليلٌ لصحّة تأويل من تأوّل أنّهم أهل الردّة ، ولهذا قال فيهم : سحقاً سحقاً ولا يقول ذلك في مذنبي الأمّة ، بل يشفع لهم ويهتمّ لأمرهم ، وقيل : هؤلاء صنفان : **أحدهما** : عصاةٌ مرتدّون عن الاستقامة .

والثّاني : مرتدّون إلى الكفر حقيقةً واسم التّبديل يشمل الصّنفين)[2] .

إذن فكون هؤلاء الّذين يُذادون عن الحوض فيهم الكفّار لا إشكال فيه،وإنّما استشكل بعض العلماء أن يكون فيهم من المذنبين ، أو من الصّحابة رضي الله عنهم ، وكونهم يساقون الى النار لا يعارض ورودَهم ثم طردهم عن الحوض كما لا يعارض كونهم يحاولون الورود حاملين آنيتهم وقربهم ،أضف إلى ذلك أنه لايبعد أن يرد الحوض بعض المؤمنين من الأمم الأخرى وفي ذلك فضلٌ وفضيلةٌ للنبي صلّى الله عليه وسلّم الذي يشمل خيره وفضله جميع أهل الأرض ، فكيف بالمؤمن من أمةٍ أخرى ، والله تعالى أعلى وأعلم .

وأما جمع ابن حبان بين روايات الحديث في تحديد طول وعرض الحوض فهو جمع حسن ، وإن كان هناك أكثر من قول في الجمع بينها[3] إلا أن ذلك لا يقدح في ثبوت الحوض لنبينا صلى الله عليه وسلم ، فهو اختلافٌ يحكمه اختلاف أحوال المخاطبين وما تيسّر من التمثيل والتقريب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بحسب ما يفهم الحاضرون ، ولذلك لا يُعرَّج عليه كثيراً وإنما يكفينا إثبات الحوض ، وأنّ ابن حبان وافق أهل السنة في ذلك والله المستعان .

---

[1] مسلم في الفضائل باب إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم .

[2] شرح مسلم ١٥ / ٦٤ .

[3] انظر فتح الباري ١١ / ٤٧٠ — ٤٧٢ ، وشرح مسلم للنووي ١٥ / ٥٧ — ٥٨ .

المبحث التّاسع عشر : عقيدته في الشّفاعة

الشّفاعة لغةً مأخوذةٌ من الشّفع وهو الزّوج، ولذلك سُمّيت الشّاه الّتي معها ولدها شافع، أو من المنع وهذا أقرب للمعنى الشّرعي ، وهو : سؤال التّجاوز عن الذّنوب والجرائم للغير .[1]

وقد ثبت في القرآن والسّنّة نوعان من الشّفاعة، فشفاعةٌ منفيّة أبطلها القرآن : وهي الّتي تُطلب من غير ا لله أو منه بغير إذنه ، أو لأهل الشّرك وهي شفاعة أهل الشّرك والأوثان ، وفيها قال ا لله تعالى : ﴿ **فما تنفعهم شفاعة الشافعين**﴾ : **المدّثّر ٤٨** ، وقال : ﴿ **من ذا الّذي يشفع عنده إلاّ بإذنه**﴾ : **البقرة ٢٥٥**، وقال : ﴿ **ماللظّالمين من حميمٍ ولاشفيعٍ يُطاع** ﴾ : **غافر ١٨**،وقال : ﴿ **ولايُقبل منها عدلٌ ولاتنفعها شفاعة** ﴾ **البقرة ١٢٣**، وقال : ﴿ **من قبل أن يأتي يومٌ لابيعٌ فيه ولاخلّةٌ ولاشفاعة** ﴾ : **البقرة ٢٥٤.**

والنّوع الثّاني :شفاعةٌ مثبتةٌ مرضيّة من ا لله تعالى ، ولها شرطان الأوّل: إذن ا لله تعالى للشّافع أن يشفع ، والثّاني : رضا ا لله عن المشفوع له [2] ، قال تعالى : ﴿ **وكم من ملكٍ في السّماوات لاتغني شفاعتهم شيئاً إلاّ من بعد أن يأذن ا لله لمن يشاء ويرضى** ﴾ : **النّجم ٢٦**، وقال : ﴿ **يومئذٍ لاتنفع الشّفاعة إلاّ من أذن له الرّحمن ورضي له قولاً** ﴾ : **طه ١٠٩**،وهذا القسم يندرج تحته شفاعة النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم والمؤمنين والملائكة .

وشفاعة النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم أنواع : فمنها الشّفاعة الكبرى العظمى في أهل الموقف الّتي يتأخّر عنها أولوا العزم من الرّسل ، وهي المقام المحمود الّذي جاء في قوله تعالى : ﴿ **ومن اللّيل فتهجّد به نافلةً لك عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً** ﴾ : **الإسراء ٧٩** ،[3] ومنها شفاعته لأهل الجنّة أن يدخلوها ، ومنها شفاعته لقوم استوجبوا النّار أن لايدخلوها، ومنها

---

(١) القاموس المحيط مادّة شَفَعَ ، والنّهاية لابن الأثير ٢ / ٤٨٥ .

(٢) وذلك لايعني أنّه لايُشترط رضا ا لله عن الشّافع ، بل هو شرط ولكن سُكت عنه لأنّه لاشبهة فيه ، وإنّما المحذور اعتقاد أنّ للشّافع أن يشفع عند ا لله دون إذنه بل لقدره ومنزلته كما هي عند أهل الدّنيا ، ولذلك خُصّ بالذّكر ، وا لله أعلم .

(٣) انظر تفسير الطّبري ٨ / ١٣١ - ١٣٦ .

شفاعته لبعض أهل الجنّة في أن يزدادوا ثواباً وفضلاً ،[1] وكلّ هذه الأنـواع لم يختلف فيها أهل القبلة ولكنّهم اختلفوا في النّوع الأخير وهو شفاعته صلّى الله عليه وسلّم لأهل الكبائر من أمّته الّذين دخلوا النّار أن يخرجوا منها، فقد اثبتها أهل السّنّة كما جاء بذلك القرآن والسّـنّة ، وأنكرهـا الخـوارج والمعتزلـة بنـاءً على أصلهم الفاسد في تخليد أهل الكبائر في النّار ،[2] واستدلّوا بالآيـات الّـتي جاء فيها نفي الشّفاعة وتقدّم شيء منها .

ولكنّ أهل السّنّة أثبتوا هذه الشفاعة وردّوا علىأهل الخروج والاعـتزال في شبههم، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله : (وجواب أهـل السّـنّة أنّ هذا لعلّه يُراد به شيئان : أحدهما : أنّها لاتنفـع المشـركين كمـا قـال تعـالى : ﴿ **ماسلككم في سقر قالوا لم نك من المصلّين ولم نك نطعـم المسـكين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فما تنفعهم شفاعة الشافعين** ﴾ : **المدّثـر ٤٢ ، ٤٨**، فهـؤلاء نفـى عنهم شفاعة الشّافعين لأنّهم كانوا كفاراً .

والثّاني: أنّه يُراد بذلك نفي الشّفاعة الّتي أثبتها أهل الشّرك وأهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين الّذيـن يظنّـون أنّ للخلـق عنـد الله مـن القـدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه كما يشفع النّاس بعضهم عنـد بعـض ، فهـذه الشّـفاعة الّتي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصّالحين حتّى صوّروا تماثيلهم وقـالوا :استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم وكذلـك قصدوا قبورهـم وقـالوا : نحـن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا عند الله، وهذه الشّفاعة الّـتي أبطلهـا الله ورسوله وذمّ المشركين عليها وكفّرهم بها)[3] .

واستدلّ المنكرون لها أيضاً بأنّ ذلك معارضٌ لما أصّلوه من لزوم الوعيـد ودوام العقوبة وتخليد أهل الكبائر في النّار ، وهذه مجرّد شبه وهرطقات لاتغـني في مقابلة النّصـوص الواضحـات الجليّـات عـن الله ورسـوله صلّـى الله عليـه وسلّم، وقد أورد بعضها ابن حبّـان وردّ قـول مـن أنكرهـا ، قـال رحمـه الله:

---

[1] انظر شرح العقيدة الطّحاويّة ١ / ٢٨٣ ـ ٢٩٠ .

[2] انظر مقالات الإسلاميّين للأشعري ٢ / ١٦٦ ، وشرح الأصول الخمسة لعبد الجبّار ص ٦٨٨ .

[3] التوسّل والوسيلة ص ١٢ ـ ١٥ ، باختصار .

"ذِكرُ الإخبار بأنّ المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم جعل دعوته الّتي استجيبت له شفاعةً لأمّته في القيامة " ، ثّمّ ساق حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**وإنّي أخّرت دعوتي شفاعةً لأمّتي في الآخرة**) [١] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ البيان بأنّ قوله صلّى ا لله عليه وسلّم:(شفاعة لأمتي) أراد به من لم يشرك با لله منهم دون من أشرك " ، ثّم ساق حديث أبي ذر مرفوعاً وفيه:(...**وهي نائلةٌ إن شاء ا لله لمن لم يشرك با لله شيئاً**).[٢]

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار عن وصف القوم الّذين تلحقهم شفاعة المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم في العقبى " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة وفيه: (**وشفاعتي لمن شهد أن لاإله إلا ا لله مخلصاً وأنّ محمداً رسول ا لله يصدّق لسانُه قلبَه وقلبُه لسانَه**)[٣] .

وقال : " ذِكرُ البيان بأنّ الشّفاعة في القيامة إنّما تكون لأهل الكبائر من هذه الأمة " ، ثمّ ساق حديث جابر رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي**)[٤] .

وقال : " ذِكرُ إثبات الشّفاعة في القيامة لمن يكثر الكبائر في الدّنيا " ثمّ ساق نفس الحديث عن أنس بن مالك .[٥]

وقال : " ذِكرُ الخبرالمدحض قول من أبطل شفاعة المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم لأمّته في القيامة زعم أنّ الشّفاعة هو استغفاره لأمّته في الدّنيا " ، ثمّ ساق حديث جابر بن عبدا لله رضي ا لله عنهما مرفوعاً : (**وإنّي اختبأت دعوتي شفاعةً لأمّتي يوم القيامة**)[٦] .

---

[١] الإحسان ١٤ / ٣٧٤ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الدّعوات باب لكلّ نبيٍّ دعوة ، ومسلم في الإيمان باب اختباء النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم دعوته شفاعةً لأمّته .

[٢] الإحسان ١ / ٣٧٥ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٥ / ١٦١ ،١٨٤ ، والحاكم ٢ / ٤٢٤ ، وصحّحه .

[٣] الإحسان ١٤ / ٣٨٤ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في العلم باب الحرص على الحديث بلفظ مقارب .

[٤] الإحسان ١٤ / ٣٨٦ ، والحديث أخرجه أيضاً التّرمذي في صفة القيامة باب ماجاء في الشّفاعة ، وابن ماجة في الزّهد باب ذكر الشّفاعة والحاكم ١ / ٦٩ ، وله شواهد كثيرة .

[٥] الإحسان ١٤ / ٣٨٧ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٣ / ٢١٣ ، وأبو داود في السّنّة باب في الشّفاعة ، والتّرمذي في صفة القيامة باب ماجاء في الشّفاعة ، وغيرهم .

[٦] الإحسان ١٤ / ٣٨٨ ، والحديث تقدّم قريباً .

وقال : " ذِكرُ إيجاب الشّفاعة لمن مات من أمّة المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم وهو لايشرك با لله شيئاً " ، ثمّ ساق حديث عوف بن مالك مرفوعاً وفيه (...**شفاعتي لمن مات لايشرك با لله شيئاً من أمّتي**)[1] وذكر تراجم كثيرة غيرها ولكن بنفس المعنى .

تعليق:

وبذا يظهر أنّ ابن حبّان نَهَجَ منهج السّلف الصّالح في إثبات الشّفاعة لأهل الكبائر من أمّة محمد صلّى ا لله عليه وسلّم، ولاغرو إذ هو أيضاً يخالف المعتزلة والخوارج في أصلهم الفاسد وهو تخليد أهل الكبائر في النّار وسيأتي الكلام عن ذلك في المسألة الّتي بعدها .

ولاشكّ أنّ الشّفاعة بأنواعها الثّمانية ثابتةٌ وأنّ مذهباً اتّفق عليه الصّحابة والتّابعون لهو جديرٌ بالصّواب ، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة : (مذهب الصّحابة والتّابعين أنه صلّى ا لله عليه وسلّم يشفع في أهل الكبائر وأنّه لايخلّد في النّار من أهل الإيمان أحد، بل يخرج من النّار من في قلبه مثقال حبّة من إيمان أو مثقال ذرّة من إيمان ..)[2] .

---

[1] الإحسان ١٤ / ٤٤٢ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٦ / ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، والتّرمذي في صفة القيامة باب ١٣ ، وابن ماجة في الزّهد باب ذكر الشّفاعة ، والحاكم ١٦٧ ، وصحّحه .

[2] الفتاوى ١ / ٣١٨ .

المبحث العشرون : مذهبه في حكم تارك الصّلاة

اختلف العلماء قديماً وحديثاً فى حكم من ترك الصّلاة متعمداً من غير عذر حتّى يخرج وقتها ، وهو مقرٌّ بالوجوب ، هل يكفر كفراً أكبر يخرج من الملة ؟ أم أنّه كفرٌ دون كفر ؟ وهذه المسألة من المسائل الفقهيّة في غالبها ، وإنّما دخلت في باب العقائد لأنّ أهل الإرجاء ذهبوا إلى القول بعدم كفر تارك الصّلاة ، ومذهبهم في ذلك أعمّ لأنّهم لا يرون شيئاً من الأعمال يوجب تركه كفراً ولا ردّة ، وذهب كثيرٌ من العلماء وتمسّكوا بتكفير تارك الصّلاة لأنّهم رأوا فيه حجّةً قويّة تبطل القول بالإرجاء ، والّذي ينبغي أن يكون بحث هذه المسألة بناءً على ما صحّ من السّنّة وما ثبت في القرآن ، أو ما جاء عن صحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفق أصول الفقه ، بعيداً عن ردود الفعل وتبنّي الآراء المضادّة ليحييٰ من حيّ عن بيّنة ، ويهلك من هلك عن بيّنة.

فممّن نُقل عنه كفر تارك الصّلاة : عمر بن الخطّاب رضي الله عنه وابن مسعود وإبراهيم النّخعي وابن المبارك وأحمد بن حنبل في رواية وإسحاق بن راهويه ، وغيرهم .

وممّن رجّح القول بعدم كفره كفراً أكبر : حمّاد بن زيد ومالك ، ومكحول والشّافعي والزّهري وعمر بن عبدالعزيز وغيرهم .

ولكلٍّ منهم أدلّته الّتى يستدلّ بها ، وأقوى ما استدلّ به أصحاب القول الأوّل ، ماجاء عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: (**بين العبد وبين الكفر ترك الصّلاة**)[1] .

---

[1] أخرجه مسلم في الإيمان باب بيان إطلاق اسم الكفرعلى تارك الصّلاة عن جابر رضي الله عنه .

وقوله : (**العهد الّذي بيننا وبينهم الصّلاة فمن تركها فقد كفـر**)[1] وكذلك قول عبد الله بن شقيق : (كان أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفرٌ غير الصّلاة)[2] .

وممّا أستدلّ به الفريق الآخر أحاديث الشّهادتين كقوله صلّى الله عليه وسلّم : (**من شهد أن لا إله إلاّ الله مخلصاً من قلبه دخل الجنّة**)[3] .

وكذلك عموم قوله تعالى : ﴿ **إنّ الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاءُ** ﴾ : **النّساء ٤٨.**

واستدلّوا كذلك بحديث عبادة بن الصّامت مرفوعاً : (**خمس صلوات افترضهنّ الله تعالى ، من أحسن وضوءهنّ وصلاّهنّ لوقتهنّ فأتمّ ركوعهنّ وخشوعهنّ كان له على الله عهدٌ أن يدخله الجنّة ، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد، إن شاء غفر له وإن شاء عذّبه**)[4] .

وقد ذهب ابن حبّان إلى القول بعدم تكفير تارك الصّلاة كفراً أكبر يخرج من الملّة ، إلاّ أنّه ذهب فى الاستدلال على ذلك مذهباً بعيداً ، قال رحمه الله : " ذِكرُ الخبرالدّال على أنّ تارك الصّلاة حتّى خرج وقتها متعمّداً لا يكفر به كفراً يخرجه عن الملّة " ، ثمّ ساق حديث ابن عمر رضي الله عنهما لما جمع فى السّفر وقال : هكذا كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يفعل إذا جدّ به السير أو حزبه أمر .[5]

وقال أيضاً : " ذِكرُ خبر يدلّ على أنّ تارك الصّلاة متعمّداً حتّى خرج وقتها لا يكفر باستعماله ذلك كفراً تبين امرأته به عنه " ، ثمّ ساق حديث أنس بن مالك قال : كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إذا أراد أن يجمع بين

---

[1] أخرجه أحمد ٥ / ٣٤٦ ، والتّرمذي في الإيمان باب ماجاء في ترك الصّلاة عن بريدة رضي الله عنه .

[2] أخرجه التّرمذي في الإيمان باب ماجاء في ترك الصّلاة .

[3] أخرجه مسلم في الإيمان باب الدّليل على أنّ من مات علىالتّوحيد دخل الجنّة قطعاً .

[4] أخرجه أحمد ٥ / ٣١٧ ، وأبوداود في الصّلاة باب المحافظة على الصّلوات ، والنّسائي في الصّلاة باب المحافظة على الصّلوات ، وابن ماجة في إقامة الصّلاة باب ماجاء في إقامة الصّلوات الخمس والمحافظة عليهنّ .

[5] الإحسان ٤ / ٣٠٦ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في تقصير الصّلاة باب الجمع في السّفر بين المغرب والعشاء .

الصّلاتين في السّفر أخّر الظّهر حتّى يدخل أوّل وقت العصر ثمّ يجمع بينهما [1] .

وقد كرّر هذه التّراجم بمعناها مستدلاً بمشروعيّة الجمع بين الصّلاتين على أنّ تأخير الصّلاة عن وقتها عمداً ليس بكفر أكبر ، ثمّ قال رحمه الله : " لّما جاز تقديم صلاة العصر عن وقتها و لم يستحقّ فاعله أن يكون كافراً ، كان من أخّر الصّلاة عن وقتها ثمّ أدّاها بعد وقتها أولى أن لا يكون كافراً "[2] .

ثمّ استدلّ أيضاً بحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : عرّسنا [3] مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذات ليلةٍ فلم نستيقظ حتّى آذتنا الشّمس ، فقال نبي الله صلّى الله عليه وسلّم : (**ليأخذ كلُّ رجلٍ منكم راحلته ، ثمّ يتنحّى عن هذا المنزل ، ثمّ دعا بالماء فتوضّأ فسجد سجدتين ثمّ أُقيمت الصّلاة**) ، قال أبو حاتم : " في تأخير النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الصّلاة عن الوقت الّذي أثبته إلى أن خرج من الوادي دليلٌ صحيح على أنّ تارك الصّلاة الى أن يخرج وقتها لا يكون كافراً ، إذ لو كان كذلك لأمرهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأداء الصّلاة في وقت انتباههم من منامهم و لم يأمرهم بالتنحّي عن المنزل الّذي ناموا فيه ، والفرض لازمٌ لهم وقد جاز وقته "[4] .

ثمّ استدلّ كذلك بقوله صلّى الله عليه وسلّم : (**إنّما التّفريط على من لم يصلّ الصّلاة حتّى يجيء وقت صلاة أخرى**) ، فقال : " في إطلاق المصطفى صلّى الله عليه وسلّم : **التّفريط** ، على من لم يصلّ الصّلاة حتّى دخل وقت صلاة أخرى بيانٌ واضح أنّه لم يكفر بفعله ذلك ، إذ لو كان كذلك لم يطلق عليه اسم التّأخير والتّقصير دون إطلاق الكفر "[5] .

---

(1) الإحسان ٤ / ٣٠٩ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في صلاة المسافرين باب جواز الجمع بين الصّلاتين في السّفر .

(2) الإحسان ٤ / ٣١٣ .

(3) التّعريس : نزول المسافر آخر اللّيل نزلةً للنّوم والاستراحة ، النّهاية ٣ / ٢٠٦ .

(4) الإحسان ٤ / ٣١٧ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في المساجد باب قضاء الصّلاة الفائتة واستحباب تعجيلها .

(5) الإحسان ٤ / ٣١٧ - ٣١٩ ، والحديث أخرجه مسلم في المساجد باب قضاء الصّلاة الفائتة عن أبي قتادة رضي الله عنه .

واستدلّ كذلك بحديث ابن عمر رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نادى فيهم يوم انصرف عن الأحزاب : (**ألا لايصلّين أحدكم العصر إلاّ في بني قريضة**) ، فأدركتهم الصّلاة في الطّريق فصلّى بعضهم ، وأخّرها آخرون حتّى وصلوا بني قريضة بعد خروج وقتها ، لظاهر قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فلم يُعنّف أحداً من الفريقين ، قال ابن حبّان : " لو كان تأخير المرء للصّلاة عن وقتها حتّى يدخل وقت الصّلاة الأخرى يلزمه بذلك اسم الكفر ، لما أمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أمّته بالشّيء الّذي يكفرون بفعله ، ولعنّف فاعل ذلك ، فلمّا لم يُعنّف فاعله دلّ ذلك على أنّه لم يكفر كفراً يشبه الارتداد "[1] .

ثمّ وجّه الأحاديث الّتي فيها إطلاق الكفر على تارك الصّلاة ، فقال بعد حديث بريدة المتقدّم : " أطلق المصطفى صلّى الله عليه وسلّم اسم الكفر على تارك الصّلاة ، إذ ترك الصّلاة بداية الكفر ، لأنّ المرء إذا ترك الصّلاة واعتاده ، ارتقى منه إلى ترك غيرها من الفرائض ، وإذا ترك غيرها من الفرائض أدّاه ذلك إلى الجحد ، فأطلق صلّى الله عليه وسلّم النّهاية الّتي هي آخر شعب الكفر ، على البداية الّتي هي أوّل شعبها ، وهي ترك الصّلاة "[2] .

وضرب لذلك أمثلة من السّنّة ، كقوله صلّى الله عليه وسلّم : (**المراء في القرآن كفر**)[3] ، وقوله : (**ثلاثٌ من الكفر با لله : شقّ الجيب ، والنّياحة ، والطّعن في النّسب**)[4] ، وقوله : (**من رغب عن أبيه فقد كفر**).[5]

[1] الإحسان ٤ / ٣٢٠ - ٣٢٢ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في صلاة الخوف باب صلاة الطّالب والمطلوب ، ومسلم في الجهاد باب المبادرة بالغزو وتقديم أهمّ الأمرين المتعارضين .

[2] الإحسان ٤ / ٣٢٤ .

[3] تقدّم ص ٢٤ .

[4] أخرجه مسلم في الإيمان باب إطلاق اسم الكفر على الطّعن في النّسب و النّياحة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

[5] تقدّم ص ٢٣٩ .

تعليق :

أمّا استدلال ابن حبّان بأحاديث الجمع بين الصّلاتين فهو استدلال بعيد ولا يصحّ ، لأنّه قياس مع الفارق ، إذ كيف يُقاس ما نُهي عنه بالنّص ، على ما جاء شرعه بالنّص ، ولو صحّ استدلال ابن حبّان فإنّ ذلك لايقتصر على مجرّد عدم الكفر بل على الجواز المطلق ، لأنّ القياس فائدته اشتراك الأصل والفرع في الحكم ، والجمع جائز ورخصة عند الحاجة إليه ، ثمّ إنّ المقيس هنا شرطه مع عدم العذر ، والجمع لايكون إلاّ بعذر ، فافترقا في العلّة وامتنع القياس .

ثمّ إنّ تأخير الصّلاة عن وقتها لمن ينوي الجمع أو تقديمها ، لا يُعدّ تركاً أصلاً ، بل هو تأخير مشروع ، وأمّا التّرك الّذي يعنيه من كفّر تارك الصّلاة فهو التّأخير الّذي لا يصحبه نيّة الفعل ، وما أشبهه بالواجب الموسّع كوقت الصّلاة مثلاً ، فمن لم يصلّ أوّل الوقت وفى نيّته أن يصلّي آخر الوقت فمات و لم يصلّ فلا إثم عليه ، وأمّا من لم يصلّ أوّل الوقت وليس فى نيّته أن يصلّي آخره فمات و لم يصلّ فهو آثم ولا شك ، ففرق بين الصورتين إذن .[1]

كذلك فإنّ الجمع أصلاً من باب الرّخص ، والرخص لا يُقاس عليها لأنّها مستثناة من الأصل لعذرٍ طارىء ، وأمّا التّأخير الّذي يتكلّم عنه العلماء فهو تأخير الصّلاة بلا عذر ، وشتّان بين من أكل الميتة بلا عذر وبين من اضطرّ إليها .

وأما قوله : " لمّا جاز تقديم صلاة العصر عن وقتها و لم يستحقّ فاعله أن يكون كافراً ...كان من أخّر الصّلاة عن وقتها ثمّ أدّاها بعد وقتها أولى أن لا يكون كافراً " فهو بعيد أيضاً ولا يصحّ ، لأنّ تقديم الصّلاة أصلاً لا يجوز إلاّ لعذر ، ومن صلّى قبل الوقت لجهل أو نسيان فعليه الإعادة ، وأمّا من صلى قبل الوقت مصراً فصلاته باطلة وهو آثم ، بل قد يدخل ذلك فى البدع

[1] انظر نزهة الخاطر العاطر لابن بدران ١/١٠٥ ـ ١٠٦ .

وإن اعتقد جواز ذلك فقد كفر لمخالفته المعلوم من الدّين بالضّرورة فلا يُقاس ترك الصّلاة إذن على حالة مستثناة من أصل ، والتأخير منهيٌّ عنه بالنّص ، وكونه كفرٌ أكبر ، أو كفرٌ عمليٌّ لا يرجّحه هذا الاستدلال ، لأنّ الكفر حكم شرعيٌّ يحتاج إلى نصّ أنّ هذا العمل كفرٌ أكبر أو كفرٌ عملي ، وليس شيئاً للعقل والاستنباط فيه مدخل ، فلا يُقال مثلاً : إذا كانت النّياحة كفرٌ ، فالزّنا كفرٌ لأنّه أعظم من النّياحة ، والقتل كفرٌ لأنّه أعظم من الزّنا، بل جاءت السّنّة بإطلاق لفظ الكفر على النّياحة ، ولم تُطلقه على الزّنا ، فكيف إذا كان قياس الأولى على أمر جاء النّصّ بجوازه ومشروعيّته ، فالأمر حينئذ أبعد وأغرب على أصول الفقه الصّحيح .

ومثل ذلك يُقال في حديث أبي هريرة لمّا استيقظوا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد شروق الشّمس وفاتهم وقت صلاة الفجر ، فإنّ الاستدلال بذلك ، وهو أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يصلّ الصّلاة مباشرةً بعد الاستيقاظ مع أنّه وقتها ، على أنّ تأخير الصّلاة عن وقتها ليس بكفر ، لايصحّ لأنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال في الحديث الصّحيح : **(من نام عن صلاة أو نسيها فليصلّها إذا ذكرها لاكفّارة لها إلاّ ذلك)**[1] ، وقد قرّر العلماء أنّ الانشغال بلوازم الصّلاة لا يُعدّ تأخيراً لها عن وقتها كالانشغال بالوضوء أو الاغتسال ، وكذلك النّزول من الوادي يُعتبر من لوازم الصّلاة لأنّ الشّيطان قد حضرهم ، فلا يُعدّ ذلك تأخيراً لها عن وقتها ، وقياس التّرك بلا عذر عليه بعيدٌ غاية البعد .

قال النّووي في شرحه لحديث أبي هريرة:(فيه دليلٌ على أنّ قضاء الفائتة بعذر ليس على الفور ، وإنّما اقتادوها : أي رواحلهم : لما ذكره في الرّواية الثّانية:(**فإنّ هذا منزلٌ حضرنا فيه الشّيطان**)[2] .

---

[1] أخرجه البخاري في المواقيت باب من نسي صلاةً فليصلّ إذا ذكر ، ومسلم في المساجد باب قضاء الصّلاة الفائتة عن أنس .

[2] شرح مسلم ٥ / ١٨٢ ، وقد ذهب آخرون إلى أنّ قضاء الفائتة واجبٌ على الفور ، وتأخيره صلّى الله عليه وسلّم الصّلاة حتّى خرج من الوادي هو تأخير لمصلحة الصّلاة ، وهذا لايخالف فيه أحد ، وإنّما الخلاف على تأخيرها دون عذر أو مصلحةٍ شرعيّة .

وأمّا استدلاله بأنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أطلق على تأخير الصّلاة حتّى يخرج وقتها أنّه تفريط ، ولو كان كفراً لكان إطلاق الكفر أولى ، فهذا فيه نظر لا يخفى ، وذلك أنّ اللّغة تتّسع لإطلاق الأدنى على ما هو أعلى كقوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ : **المائدة ٤٤** ، ثمّ قال : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظّالمون** ﴾ فلا منافاة بين التّفريط وبين الكفر ، بل التّفريط أعمّ قال تعالى : ﴿ **قد خسر الّذين كذّبوا بلقاء الله حتّى إذا جاءتهم السّاعة بغتةً قالوا يا حسرتنا على ما فرّطنا فيها** ﴾ : **الأنعام ٣١** ، فأطلقوا على أنفسهم لفظ التّفريط وهم كافرون على الحقيقة .

وأمّا استدلاله بحديث ابن عمر في أمره صلّى الله عليه وسلّم أن لا يصلّي أحدٌ منهم العصر إلاّ في بني قريظة ، فاستدلال فيه نظر كما قال الحافظ بن حجر رحمه الله تعالى[1] ، لأنّ أولئك الّذين أخّروا الصّلاة كان فعلهم بتأويل تأوّلوا به كلام النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وأمره محتملٌ لما تأوّلوه ، والنّزاع إنّما هو فيمن أخّرها بلا عذر ولا تأويل ، وأمّا المتأوّل لآية أو حديث فلا يُعامل معاملة المماطل المسوّف البطّال ، بل قد يُؤجر على تأويله إن كان مجتهداً في إصابة الحق مخلصاً النيّة لله في ذلك .

وأمّا توجيهه لأحاديث كفر تارك الصّلاة فهو توجيه محتملٌ للصّحّة بالنّسبة لمن لا يرى كفر تارك الصّلاة ،بل هو المتوجّه ، وذلك للأدلّة المعارضة للقول بكفر تارك الصّلاة كفراً أكبر،كحديث عبادة بن الصّامت وعموم أحاديث الشّهادتين ، والمسألة فيها خلافٌ واسع وقديم ، وما ذهب إليه ابن حبّان من عدم كفر تارك الصّلاة قوله له فيه سلف و لله الحمد[2] ، وقوله ليس تأثّراً بفكر المرجئة لأنّه ليس مرجئاً ، بل قدّ ردّ على المرجئة وأبطل معتقدهم وأثبت منهج أهل السّنّة في القول والعمل ، وانتصر له أيّما انتصار وتقدّم بيان ذلك أوّل هذا الفصل ، والله أعلم وأحكم .

---

(١) الفتح ٧ / ٤١٠ .

(٢) انظر أقوال العلماء ومذاهب الأئمّة في حكم تارك الصّلاة المغني لابن قدامة ٢ / ٢٨١ ، والمجموع للنّووي ٣ / ١٦ ، وشرح السّنّة للبغوي ٢ / ١٨٠ .

(الفصل السّادس)

عقيدة ابن حبّان في القدر

.. وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :

المبحث الأوّل : عقيدته في القدر .

المبحث الثّاني : في المشيئة .

المبحث الثّالث : في الفطرة .

المبحث الرّابع : في الوعد والوعيد .

المبحث الخامس : في دفع القدر بالدّعاء أو (المحو والإثبات) .

عقيدة ابن حبّان في القدر

تمهيد :

* نبذة عن مذهب أهل السنّة في القدر *

القدر لغة : القضاء، والحكم ومبلغ الشّيء بسكون الدّال وفتحها، وهو في الأصل مصدر قدّره الله يقدّره تقديراً ، قال تعالى : ﴿ **وما قدروا الله حقّ قدره** ﴾ أي عظّموه حقّ تعظيمه ، وقدر الرّزق قسمه .[1]

وأمّا في الاصطلاح فقال السّفّاريني : (القدر عند السّلف ما سبق العلم به ، وجرى به القلم ممّا هو كائن إلى الأبد ، وأنّه عزّ وجلّ قدّر مقادير الخلائق وما يكون من الأشياء قبل أن تكون ، في الأزل ، وعلم سبحانه وتعالى أنّها ستقع في أوقاتٍ معلومةٍ عنده تعالى وعلى صفاتٍ مخصوصة ، فهي تقع على حسب ماقدّرها)[2] .

وقال ابن حجر رحمه الله: (المُراد أنّ الله تعالى علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها ، ثمّ أوجد ما سبق في علمه أنّه يوجد، فكلّ مُحدَث صادرٌ عن علمه وقدرته وإرادته)[3] .

والقضاء لغة : الفصل والحكم [4] ،وقد اختلف العلماء في الفرق بين القضاء وبين القدر ، فقيل : إنّ القضاء هو العلم السّابق الّذي حكم الله به في الأزل، والقدر وقوع الخلق على وزن الأمر المقضيّ السّابق، قال ابن حجر رحمه الله تعالى : (القضاء : الحكم بالكلّيّات على سبيل الإجمال في الأزل، والقدر الحكم بوقوع الجزئيّات لتلك الكلّيّات على سبيل التّفصيل)[5] .

وقيل : إنّ القدر هو الحكم السّابق في علم الله تعالى والقضاء هو خلق ماقدّره، قال الخطابي رحمه الله تعالى : (القدر اسمٌ لما صار مُقدّراً عن فعل

---

(1) القاموس المحيط ٢ / ١٦٢ ، وانظر تهذيب اللّغة للأزهري ٩ / ١٨ ومختار الصحاح مادة ق د ر .

(2) لوامع الأنوار ١ / ٣٤٨ .

(3) الفتح ١ / ١١٨ .

(4) القاموس المحيط ٤ / ٥٤٨ ، وتهذيب اللّغة ٩ / ٢١١ .

(5) فتح الباري ١١ / ١٤٩ .

القادر ، كالهدم والنّشر والقبض: أسماء لما صدر من فعل الهادم والنّاشر والقابض، والقضاء في هذا معناه الخلق كقوله تعالى : ﴿ **فقضاهنّ سبع سموات في يومين** ﴾ ، أي خلقهنّ)[1] .

وقال ابن الأثير رحمه الله : (المُراد بالقدر : التّقدير، وبالقضاء الخلق، كقوله تعالى : ﴿ **فقضاهنّ سبع سموات في يومين** ﴾ أي خلقهنّ ، فالقضاء والقدر أمران متلازمان لاينفكّ أحدهما عن الآخر، لأنّ أحدهما بمنزلة الأساس ، وهو القدر ، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء ، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه)[2] .

ومدار الإيمان بالقدر هو الإيمان بقدرة الله تعالى الشّاملة لكلّ شيء، وعلمه الّذي أحاط بكلّ شيء ، ولذلك قال الإمام أحمد رحمه الله : (القدر: قدرة الله على العباد)[3] .

والآيات في ذلك أكثر من أن تُحصى ،كقوله تعالى : ﴿ **وكان الله على كلّ شيءٍ مقتدراً** ﴾ : **الكهف ٤٥** : وقوله : ﴿ **إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير** ﴾ : **البقرة ٢٠** .

والإيمان بالقدر واجب، بل هو أحد أركان الإيمان السّتّة كما جاء في حديث جبريل المشهور : (**الإيمان أن تؤمن با لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره**)[4] .

ويتضمّن الإيمان بالقدر أربعة أمور، وهي مراتب الإيمان بالقدر: **المرتبة الأولى** : الإيمان بعلم الله تعالى الشّامل بالأشياء كلّها قبل كونها ، وهو من صفاته الذّاتيّة الّتي لا يزال متّصفاً بها أزلاً وأبداً ، ومن ذلك علمه بأعمال الخلق من الطّاعات والمعاصي ، وبأحوالهم من الأرزاق والآجال وغيرها ، قال الله تعالى : ﴿ **إنّ الله عنده علم السّاعة وينزّل الغيث ويعلم مافي الأرحام وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدري نفسٌ بأيّ أرض تموت إنّ الله**

---

[1] معالم السّنن ٧ / ٧٠ ، وانظر لوامع الأنوار ١ / ٣٤٥ .
[2] النّهاية ٤ / ٧٨ .
[3] مسائل ابن هانىء ٢ / ١٥٥ .
[4] تقدّم ص ٢٩٦ .

عليمٌ خبير ﴾ : **لقمان ٣٤** : وقال : ﴿ **والله يعلم وأنتم لاتعلمون** ﴾ : **البقرة ٢١٦**-وقال : ﴿**وكان الله بكلّ شيءٍ عليماً** ﴾ : **الأحزاب ٤٠** .

قال في معارج القبول : (المرتبة الأولى : الإيمان بعلم الله عزّ وجلّ المحيط بكلّ شيءٍ من الموجودات والمعدومات والممكنات والمستحيلات ، فعلم ما كان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف يكون ، وأنّه علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم، وعلم أحوالهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وجميع حركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم ، ومن هو منهم من أهل الجنّة ومن هو من أهل النّار قبل أن يخلقهم ومن قبل أن يخلق الجنّة والنار، علم ذلك دِقّه وجليله ، وكثيره وقليله ، ظاهره وباطنه ، سرّه وعلانيّته ، ومبدأه ومنتهاه، كلّ ذلك بعلمه الّذي هو صفته ومقتضى اسمه العليم الخبير، عالم الغيب والشّهادة ، علام الغيوب ...)[1] .

المرتبة الثانية : الإيمان بأنّ الله كتب في اللّوح المحفوظ مقادير كلّ شيء، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : (**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السّماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال : وعرشه على الماء**)[2] .

وقد قال الله تعالى : ﴿ **ولقد كتبنا في الزّبور من بعد الذّكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصّالحون** ﴾ : **الأنبياء ١٠٥** : ، قال ابن القيّم رحمه الله : (فالزّبور هنا جميع الكتب المنزّلة من السّماء ، لايختصّ بزبور داود، والذّكر أمّ الكتاب الّذي عند الله...)[3] ، وقال أيضاً بعد قوله تعالى : ﴿ **بل هو قرآنٌ مجيدٌ في لوح محفوظ** ﴾ : **البروج ٢١ ، ٢٢** ، : (وأجمع الصّحابة والتّابعون وجميع أهل السّنّة والحديث أنّ كلّ كائنٍ إلى يوم القيامة فهو.......

---

(١) معارج القبول ٢ / ٢٦٨ .

(٢) أخرجه الإمام مسلم في القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السّلام .

(٣) شفاء العليل ص ٨٥ .

مكتوبٌ في أمّ الكتـاب ، وقـد دلّ القـرآن علـى أنّ الـرّبّ تعـالى كتـب في أمّ الكتاب مايفعله ومايقوله ، فكتب في اللّوح أفعاله وكلامه ...)[1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة في هـاتين المرتبتـين : (فالدّرجـة الأولى : الإيمـان بـأنّ الله تعـالى عليـمٌ بمـا الخلـق عـاملون ، بعلمـه القديـم الّـذي هــو موصوفٌ به أزلاً وأبداً، وعلم جميع أحوالهم من الطّاعات والمعـاصي والأرزاق والآجال ثمّ كتب الله في اللّوح المحفوظ مقادير الخلق)[2] .

المرتبة الثّالثة : الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشّاملة، قال ابن القيّم رحمه الله : (وهذه المرتبة قد دلّ عليها إجماع الرّسـل مـن أوّلهـم إلى آخرهـم وجميع الكتب المنزّلة من عند الله ، والفطرة الّتي فطر الله عليها خلقه ، وليس في الوجود موجبٌ ومقتضٍ إلاّ مشيئة الله وحده ، فما شـاء الله كـان ومـا لم يشأ لم يكن ، والمسلمون كلّهم مجمعـون علـى ذلـك)[3] ، وقـال الله تعـالى: ﴿ **كذلك الله يفعل ما يشاء** ﴾ : **آل عمران ٤٠** ، وقال : ﴿**ولو شاء الله ما اقتتل الّذين من بعدهم** . .﴾ إلى قوله : ﴿ **ولكنّ الله يفعل مـا يريـد**﴾ : **البقرة ٢٥٣** ، وقال : ﴿ **ولو شاء ربّك لجعل النّاس أمّةً واحـدة** ﴾ : **هـود ١١٨** ، **وقال** : ﴿**فإن يشإِ الله يختم على قلبك**﴾ : **الشّـورى ٢٤** ، وقـال: ﴿ **فيغفر لمن يشاء ويعـذّب مـن يشـاء** ﴾ : **البقـرة ٢٨٤**، وغيرهـا كثـير في القرآن ، فما شاء الله كونه فهو كـائن بقدرتـه لا محالـة ، ومـا لم يشـأ الله لم يكن لعدم مشيئته إيّـاه ليـس لعـدم قدرتـه عليـه ، تقـدّس وتـنزّه سـبحانه عـن العجز.

المرتبة الرابعة : الخلق ، وهو الإيمان بأنّ الله سبحانه وتعالى خالق كـلّ شيء ، فهو خالق كلّ عامل وعمله ،وكلّ متحـرّك وحركتـه ، وكـلّ سـاكن وسكونه ، ومامن ذرّة في السّماوات ولا في الأرض إلاّ والله سـبحانه خالقهـا وخالق حركتها وسكونها وصفاتها وحياتها وموتها وكـل مـاهو مـن شـانها،

---

[1] شفاء العليل ص ٨٩ .

[2] الواسطيّة ص ١٦٤ .

[3] شفاء العليل ص ٩٣ بتصرّف .

سبحانه لا خالق غيره ولا ربّ سواه ، قال تعالى : ﴿ **ا لله خالق كلّ شيء** ﴾ **: الزّمر ٦٢ ، وقال : ﴿ ا لله الّذي خلق السّماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيام ﴾ : السّجدة ٤ ، وقال : ﴿ هو الّذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ : البقرة ٢٩ ، وقال : ﴿وا لله خلقكم وما تعملون﴾ : الصّافّات ٩٦ .**

وقد نبّه شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه ا لله في هذا الباب إلى ثلاث مسائل :

الأولى : أنّه لا تعارض بين القدر والشّرع ، فا لله عزّ وجلّ قدّر المقادير وكتبها في اللّوح المحفوظ ، ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته ،كما قال الشّيخ حافظ الحكمي : (واتّفقت جميع الكتب السّماويّة والسّنن النّبويّة على أنّ القدر السّابق لايمنع العمل ، ولا يوجب الاتّكال بل يوجب الجدّ والاجتهاد والحرص على العمل الصالح، ولهذا لما أخبر النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم أصحابه بسبق المقادير وجريانها ، وجفوف القلم فقيل له : أفلا نتّكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال: (**لا ، اعملوا فكلٌّ ميسّر لما خُلق له**))[1] ، وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة في التّدمريّة : (ومن المعلوم أنّه يجب الإيمان بخلق ا لله وأمره ، بقضائه وشرعه ... وأهل الهدى والفلاح يؤمنون بهذا وهذا ، فيؤمنون بأنّ ا لله خالق كلّ شيءٍ وربّه ومليكه، ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، وهو على كلّ شيءٍ قدير ...ومع هذا لا ينكرون ماخلقه ا لله من الأسباب الّتي يخلق بها المُسبّبات)[2]. ويتبين هذا بالمسالة **الثانية :** وهي أنّه لا تعارض بين إثبات القدر، وتقدير ا لله لأفعال العباد ، وبين كونهم يفعلونها باختيارهم ومشيئتهم ، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة : (والعباد فاعلون حقيقةً وا لله خالق أفعالهم ... وللعباد قدرةٌ على

[1] معارج القبول ١ / ٢٩٧ ، والحديث متّفقٌ عليه أخرجه البخاري في القدر باب ﴿ **وكان أمر ا لله قدراً مقدوراً** ﴾ ومسلم في أوّل كتاب القدر ح٢٦٤٧ عن عليّ بن أبي طالب رضي ا لله عنه .

[2] التّدمريّة ٢٠٧/ ٢١٠ باختصار .

أعمالهم ولهم إرادة، وا لله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم ،كما قـال تعـالى: ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾)[1] .

قال الشّيخ حافظ الحكمي : (وللعباد قدرةٌ على أعمالهم ولهم مشـيئة، وا لله تعالى خالقهم وخالق قدرتهم ومشيئتهم وأقوالهم وأعمالهم ، وهـو تعـالى الّذي منحهم إيّاها وأقدرهم عليها وجعلها قائمـةً بهـم مضافـةً إليهـم حقيقـة، وبحسبها كُلّفوا ، وعليها يُثابون ويعاقبون ، ولم يكلّفهم ا لله تعالى إلاّ وسـعهم ولم يحمّلهم إلاّ طاقتهم ، وقد أثبـت ا لله تعـالى ذلـك لهـم في الكتـاب والسّـنّة ووصفهم به ، ثمّ أخبر تعالى أنّهم لا يقدرون إلاّ علـى مـا أقدرهـم ا لله تعـالى عليه ، ولا يشاؤون إلاّ أن يشاء ا لله عزّ وجلّ، ولا يفعلون إلاّ ما يجعله إيّـاهم فاعلين، كما جمع تعالى بين ذلك في غير مـاموضع مـن كتابـه ،كقولـه تعـالى: ﴿ من يهد ا لله فهو المهتد ومن يضلل فأولئك هـم الخاسـرون ﴾ ، وقـال : ﴿إنّ هذه تذكرةٌ فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلاً، ومـا تشـاءون إلاّ أن يشـاء ا لله إنّ ا لله كان عليماً حكيماً ﴾)[2] .

الثّالثة : لا تعارض بـين القـدر وتقديـره للمعـاصي وبغضـه لهـا ، فهـو سبحانه أمر العباد بالطّاعة ، ونهاهم عن المعصية ، وهو يحبّ المتّقين والمحسـنين والمقسطين ، ويرضى عن الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات ، ولا يحبّ الكـافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين ، ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعبـاده الكفـر ولا يحبّ الفساد، قال حافظ الحكمي : (إنّ الإرادة والقضاء والأمر كلّ منهم ينقسم إلى كوني وشرعي ، ولفظ المشيئة لم يرد إلاّ في الكوني ،كقوله تعالى : ﴿ وما تشاءون إلاّ أن يشاء ا لله﴾ ،ومثال الإرادة الكونية : ﴿ وإذا أراد ا لله بقومٍ سوءاً فلا مردّ له ﴾ ، ومثال القضاء الكوني :﴿وإذا قضـى أمـراً فإنّمـا يقول له كن فيكون ﴾ ، فهذا القسم من الإرادة والقضاء الكوني هو مشـيئته الشّاملة ، وقدرته النّافذة ، وليـس لأحـد الخـروج منهـا ولا محيـد عنهـا ، ولا ملازمة بينها وبين المحبّة والرّضـا، بـل يدخـل فيهـا الكفـر والإيمـان والسّـيئات

[1] الواسطيّة ص ١٧٥ .
[2] معارج القبول ٢ / ٢٨٤ - ٢٨٥ .

والطّاعات ، والمحبوب المرضي له ، والمكروه المبغض ، كلّ ذلك بمشيئته وقدره وخلقه وتكوينه، ومثال الإرادة الشّرعية قوله تعالى : ﴿ **يريد ا لله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ ﴿ **يريد ا لله ليبيّن لكم ويهديكم سنن الّذين من قبلكم** ﴾ ، ومثال القضاء الشّرعي:﴿**وقضى ربّك أن لا تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحساناً** ﴾ ، وهذه الإرادة والقضاء الشّرعي هو المستلزم لمحبّة ا لله تعالى ورضاه ، فلا يأمر إلاّ بما يحبّه ويرضاه ، ولا ينهى إلاّ عمّا يكرهه ويأباه، ولا ملازمة بين هذا القسم والّذي قبله إلاّ في حقّ المؤمن المطيع ، وأمّا الكافر فينفرد بالإرادة الكونيّة ، وسائر أنواع المعاصي والشّرور أرادها ا لله كوناً لا شرعاً)[1] .

وقد لخّص شيخ الإسلام ابن تيميّة مذهب أهل السّنّة في القضاء والقدر فقال : (مذهب أهل السّنّة والجماعة في هذا الباب أنّ ا لله خالق كلّ شيءٍ ومليكه يدخل في ذلك جميع الأعيان بنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغيرها ، وأنّه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فلا يكون شيءٌ إلاّ بمشيئته وقدرته ، بل هو القادر على كلّ شيء ، وأنّه سبحانه يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وقدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم ، قدّر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم ، وكتب ذلك ، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة ، وأنّ ا لله يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء ، وأنّ العباد لهم مشيئةٌ وقدرةٌ يفعلون بقدرتهم ومشيئتهم ما أقدرهم ا لله عليه ، مع أنّ العباد لا يشاءون إلاّ مايشاء ا لله)[2] ، وكذلك قال في التدمرية :(وجماع ذلك أنّه لا بدّ في الأمر من أصلين ، ولا بدّ له في القدر من أصلين، ففي الأمر : عليه الاجتهاد في الامتثال علماً وعملاً، ثمّ عليه أن يستغفر ويتوب من تفريطه في المأمور وتعدّيه للحدود .

وأمّا في القدر: فعليه أن يستعين با لله في فعل ما أُمربه ، ويتوكّل عليه ويدعوه ويرغب إليه ويستعيذ به ، فيكون مفتقراً إليه في طلب الخير وترك

---

[1] معارج القبول ٢ / ١٥٦ ـ ١٥٧ باختصار .

[2] باختصار من الفتاوى ٨ / ٤٤٩ ـ ٤٥٩ .

الشّر، وعليه أن يصبر على المقدور ويعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وإذا آذاه النّاس علم أنّ ذلك مقدّرٌ عليه)[1] .

والمخالفون لأهل السّنّة في القدر فرقتان :

الجبريّة : الّذين أثبتوا القدر وأهملوا جانب السّبب ، وقالوا : إنّ العبد ليس له مشيئةٌ ولا قدرةٌ ولا اختيار ، بل هو كالرّيشة في مهبّ الرّيح[2]*.

والثّانية : **القدريّة** وهم على مرتبتين : **الغلاة** الّذين أنكروا علم الله تعالى بالمعاصي وعلم الله بالمستقبل ، و لم يبق منهم أحد بحمد الله ، إذ كان مذهبهم من الجفاء بمكان أدّى إلى اندثارهم إلاّ قليلاً .

والثانية : الّذين أنكروا قدرة الله على أفعال العباد ، وقالوا : إنّ العباد يخلقون أفعالهم ، ومنهم من قصرها على المعاصي والكفر فأنكر خلق الله لها وأثبت خالقين ، ولهذا سُمّوا بالمجوسيّة وهم المعتزلة ومن وافقهم .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة : (القدريّة ثلاثة أصناف : **قدريّة مشركيّة** : وهم الّذين اعترفوا بالقدر ، وزعموا أنّ ذلك يوافق الأمر والنّهي ، وقالوا : { **لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء** } وقالوا : { **لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء** } وقالوا : { **لو شاء الرحمن ماعبدناهم** } فهؤلاء يؤول أمرهم إلى تعطيل الشرائع والأمر والنهي مع الاعتراف بالربوبية العامة ، وأنه ما من دابة إلا ربي آخذ بناصيتها، ويغلب هذا المذهب على أهل التصوف والحلول .

والثاني : **القدرية المجوسية**: الذين يجعلون لله شركاء في خلقه كما جعل الأولون لله شركاء في عبادته ، فيقولون : خالق الخير ، غير خالق الشر ويقول من كان منهم في ملتنا : إن الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئة الله ، وربما قالوا : لا يعلمها أيضا، ويقولون : إن جميع أفعال الحيوان واقع بغير قدرته ولا صنعه ، فيجحدون مشيئته النافذة وقدرته الشاملة ، ويزعمون أن هذا هو العدل ، ويقع في هذا كثير من المتكلمة والفقهاء والمعتزلة والشيعة .

---

(1) التدمرية ٢٢٨ ـــ ٢٢٩ .

(2) يذكر أن الأشاعرة قالوا بنظرية الكسب التي لا تختلف عن قول الجبرية إلا في لفظها ، انظر الملل والنحل ١/ ٨٣ ودرء تعارض العقل

والثّالث : القدريّة الإبليسيّة : الّذين صدّقوا بأنّ الله صدر عنه الأمران ، أي القدر والشّرع ، ولكنّ هذا عندهم تناقض ، وهم خصماء الله، ويقع في هذا كثير من الشّعراء والزّنادقة وغيرهم)[1].

ويُلاحظ أنّ الجبريّة يُطلق عليها قدريّة لغلوّها في القدر ، والمعتزلة كذلك يُطلق عليها قدريّة لتقصيرها في القدر ، وكلاهما مرويّ عن السّلف .

ولا نريد هنا أن نتوسّع أكثر من ذلك ، وإنّما قصدت بيان منهج أهل السّنّة في هذا الباب ومعرفة المخالفين فيه، ليكون كالأصل الّذي نبني عليه ما بعده ، ونبدأ الآن بذكر ما وجدناه عند ابن حبّان في باب القدر لنعرضه على ماتقدّم تأصيله على ضوء القرآن والسّنّة ، وبالله التوفيق .

---

[1] ملخّصاً من الفتاوى ٨ / ٢٥٦ - ٢٦١ .

المبحث الأوّل : عقيدة ابن حبّان في القدر

إنّ المتتبّع لتاريخ القدريّة يجد أنّ أوّل ماأحدثت هذه الفرقة في باب القدر : إنكارها علمَ الله تعالى بأعمال العباد قبل وقوعها ، أو قولهم : إنّه يعلم الكلّيّات ، ولا يعلم الجزئيّات إلاّ بعد وقوعها ، وأنكروا تبعاً لذلك أن يكون الله عزّ وجلّ قدّر مقادير الخلائق وكتب في اللّوح المحفوظ ماهو كائنٌ إلى يوم القيامة ، وهم بذلك قد أنكروا ماهو معلومٌ من الدّين بالضّرورة ، فإنّ علم الله تعالى لم ينكره أحد من البشر إلاّ أهل الكفر والزّندقة .

وابن حبّان يردّ عليهم ويثبت أنّ الله عزّ وجلّ شمل علمه ماكان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وأنّه سبحانه قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق الخلق ، وأنّ هذا القدر وهذا التّقدير لا يعارض أنّ للإنسان إرادته ومشيئته المستقلّة وأنّه يفعل بمحض إرادته مختاراً مريداً ، ولكنّه لن يخطىء في ذلك ولن يجاوز ما قدّر الله له ، وأنّ ذلك أيضاً لا يعارض اتّخاذ الأسباب فإنّ الله خلق الأسباب ومسبّباتها ، فمن نظر إلى الأسباب وأغفل القدر فقد أخطأ ، ومن نظر إلى القدر وأغفل الأسباب فقد أخطأ ، وقد جعل الله لكلّ شيءٍ قدراً .

ساق ابن حبّان رحمه الله تعالى حديث أبي سعيد الخدري أنّ أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم سألوه عن العزل فقال : (**لا عليكم أن لا تفعلوا، فإنّما هو القدر**) ، ثمّ قال : " ذِكرُ البيان بأنّ قوله صلّى الله عليه وسلّم : إنّما هو القدر، أراد به أنّ الله جلّ وعلا قدّر ماهو كائنٌ إلى يوم القيامة " ، وساق روايةً أخرى لحديث أبي سعيد وفيها:(**فإنّ الله قدّر ما هو خالقٌ إلى يوم القيامة**)[1] .

[1] الإحسان ٩ / ٥٠٤ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في العتق باب من ملك من الأعراب رقيقاً ، ومسلم في النّكاح باب حكم العزل .

وقال أيضاً : " ذِكرُ إلقاء ا لله جلّ وعلا النور على من شاء من خلقه هدايته " ،ثمّ ساق حديث عبد ا لله بن عمرو* رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**إنّ ا لله خلق الخلق في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النّور اهتدى ومن أخطأ ضلّ**)(١) ، ثمّ قال ابن حبّان : " ذكر الإخبار عن علم ا لله جلّ وعلا من يصيبه من ذلك النّور أو يخطئه عند خلقه الخلق في الظّلمة"، وساق حديث ابن عمرو السّابق وفيه:(**.. وقد علم من يخطئه ممّن يصيبه ..**)(٢).

وقال أيضاً : " ذكر البيان بأنّ ا لله يجعل أهل الجنّة والنّار وهم في أصلاب آبائهم ضدّ قول من رأى ضدّه " ، وساق حديث عائشة رضي ا لله عنها وفيه: (**ألا تدرين أنّ ا لله خلق للجنّة خلقاً ، فجعلهم لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق النّار ، وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم**)(٣).

وقال أيضاً : " ذكر كتبة ا لله جلّ وعلا أولاد آدم لداري الخلود واستعماله إيّاهم لهما في دار الدّنيا " ، وساق حديث عمران بن حصين مرفوعاً وفيه قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**من كان خلقه ا لله لواحدة من المنزلتين فهو يُستعمل لها ..**)(٤) .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار عمّا يجب على المرء من ترك الاتّكال على القضاء النّافذ دون إتيان المأمورات والانزجار عن المحظورات " ، وساق حديث جابر قال :(**قلت : يارسول ا لله ، أنعمل لأمر قد فُرغ منه أم لأمرٍ نأتنفه ؟ ، قال : لأمر قد فُرغ منه ، قال : ففيم العمل ؟ قال : كلّ عامل ميسّر لعمله**)(٥) .

* في متن الإحسان (عن عبدا لله بن عمر) وهو خطأ مطبعي والصّحيح أنّه عن ابن عمرو بن العاص رضي ا لله عنه .

(١) الإحسان ١٤ / ٤٣ ، والحديث أخرجه أيضا أحمد ٢ / ١٧٦ ، ١٧٩ ، والتّرمذي في الإيمان باب ماجاء في افتراق هذه الأمّة ، والحاكم ١ / ٣٠وصحّحه ووافقه الذّهبي ، كما صحّحه الألباني في الصّحيحة ح١٠٧٦ .

(٢) الإحسان ١٤ / ٤٤ - ٤٥ .

(٣) الإحسان ١٤ / ٤٧ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في القدر باب معنى : كلّ مولود يولد على الفطرة .

(٤) الإحسان ١٤ / ٦٠ - ٦١ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في القدر باب كيفيّة خلق الآدمي .

(٥) الإحسان ٢ / ٤٨ ، والحديث أخرجه مسلم في القدر باب كيفيّة خلق الآدمي .

ثمّ قال رحمه الله : " ذِكرُ البيان بأنّ قوله : (فكلٌّ ميسّر) أراد به ميسّرٌ لما قُدّر له في سابق علمه من خير أو شر " ، وساق حديث: (**خلق الله آدم ثمّ أخذ الخلق من ظهره ، فقال : هؤلاء في الجنّة ولاأبالي ، وهؤلاء في النّار ولاأبالي ، قال قائل : يارسول الله ، فعلى ماذا نعمل ؟ قال : على مواقع القدر**)[1].

وقال أيضاً : " ذكر الإخبار بأنّ الله جلّ وعلا قد جعل لقضاياه أسباباً تجري لها " ، وساق حديث أبي عزّة رضي الله عنه مرفوعاً : (**إذا أراد الله قبض عبدٍ بأرضٍ جعل له فيها حاجة**)[2] .

تعليق :

يظهر ممّا تقدّم أنّ ابن حبّان يؤكّد على الإيمان بعلم الله السّابق ، وأنّه يشمل الكلّيّات والجزئيّات ، والسّابق واللاّحق ، فعلم أنّه سيخلق الخلق وعلم أعمالهم ، ومن منهم يكون من أهل الجنّة ، ومن منهم يكون من أهل النّار، وهو سبحانه خلقهم وخلق أعمالهم ، وهداهم سُبُل الخيرات ، وأوضح لهم المحجّة ، وبيّن لهم سبل الغواية ، ومع ذلك فعلمه سبحانه نافذٌ لا يتخلّف عنه شيء ، ومشيئته هي المهيمنة ، وإرادته سبحانه هي الواقعة جلّت قدرته وتقدّست أسماؤه.

وفي الحقيقة ، فإنّ تثبيت هذا الأصل في القدر هو أُسُّ الإيمان بقدر الله تعالى ، ولذلك كان السّلف رحمهم الله يجادلون القدريّة بالعلم ، فقد روى عبد الله بن الإمام أحمد في السّنّة عن سلاّم أبي المنذر [3] أنّه كان يقول :

---

[1] الإحسان ٢ / ٥٠ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٤ / ١٨٦ ، الحاكم ١ / ٣١ وصحّحه ووافقه الذّهبي .

[2] الإحسان ١٤ / ١٩ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٣ / ٤٢٩ ، والتّرمذي في القدر باب ماجاء أنّ النفس تموت حيثما كُتب لها ، والحاكم ١ / ٤٢ ، وصحّحه الحاكم والتّرمذي والألباني وذكر له شواهد عدّة ، انظر السّلسلة الصّحيحة ٣ / ح١٢٢١ ، وصحابيّ الحديث أبو عزّة مشهور بكنيته واسمه مُختلفٌ فيه ، والمشهور يسار بن عبد بن عمرو من أصحاب الشّجرة ، انظر الإصابة ٦ / ٦٨١ ، ٧ / ٢٧٣ .

[3] سلاّم بن سليمان المزني النّحوي القارىء الكوفي ، لم يكن أحدٌ أشدّ على القدريّة منه ، توفّي سنة ١٧١ هـ : تهذيب الكمال ١٢ / ٢٨٨ .

(سلوهم عن العلم : هل علم أو لم يعلم ؟ فإن قالوا : قد علم ، فليس في أيديهم شيء ، وإن قالوا : لم يعلم فقد حلّت دماؤهم)[١] .

وقال عمر بن عبد العزيز لغيلان الدّمشقي[٢] : (أخبرني عن العلم؟ فقال: سبحان الله ، فقد علم الله كلّ نفس ماهي عاملةٌ وإلى ماهي صائرة، فقال عمر : والّذي نفسي بيده لو قلت غير هذا لضربت عنقك ، أذهب الآن فاجهد جهدك)[٣] .

وقد ذكرنا في مقدّمة الفصل الأدلّة على هذا الأصل ، وهو علم الله تعالى الشّامل ، ومن ضمن ذلك العلم أنّ الله تعالى قد علم أهل الجنّة وأهل النّار قبل أن يخلقهم ، والنّصوص في هذا أكثر من أن تُعد ، وأشهرها حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : (**إنّ خلق أحدكم يُجمع في بطن أمّه أربعين ليلة نطفة ، ثمّ يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك ثم يبعث الله عزّ وجلّ ملكاً فيُؤمر بأربع كلمات : فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقيّ أم سعيد، ثمّ ينفخ فيه الرّوح ، فإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتّى مايكون بينها وبينه إلاّ ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النّار فيدخل النّار ، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النّار حتّى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنّة ، فيدخلها**)[٤] .

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : (الشّقيّ من شَقِيَ في بطن أمّه)[٥] ، وكذلك كان يقول الحسن البصري رحمه الله: (الشّقيّ من شقي في بطن أمّه)[٦] .

---

[١] السّنّة ٢ / ٢٨٥ - ٢٨٦ .

[٢] غيلان بن مسلم الدّمشقي ممّن تكلّم في القدر وقُتل عليه ، قال الذّهبي : ضالٌّ مسكين ، توفّي بعد سنة ١٠٥ ، انظر الميزان ٣ / ٣٣٨ .

[٣] السّنّة لعبدا لله بن أحمد ٢ / ٣٨٦ .

[٤] أخرجه البخاري في التّوحيد باب قوله تعالى: ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين** ﴾ وهذا لفظه ، ومسلم في القدر باب كيفيّة خلق الآدمي في بطن أمّه .

[٥] الشّريعة للآجرّي ص ١٥٨ .

[٦] شرح أصول الاعتقاد للآلكائي ٤ / ٦٨١ .

وتجدر الاشارة هنا إلى أنّ أصحاب هذا الاتّجاه الّذي كـان يذهب إلى إنكار علم ا لله تعالى السّابق قد انقرضوا واندثروا ، فلم يبق لهـم وجـود ، وإن كان كلام ابن حبّان يوحي بذلك ، إلاّ أنّ شيخ الإسلام ابن تيميّـة رحمـه ا لله تعالى قال : (لمّا اشتهر الكلام في القدر ودخل فيه كثير من أهل النظر والعبّاد صار جمهور القدرية يقرون بتقدم العلم وإنّما ينكرون عموم المشيئة والخلق)[1] ، وقال ابن حجر رحمه ا لله: (وقد حكى المصنّفون في المقـالات عـن طوائـف القدريّة إنكار كون الباري عالماً بشيءٍ من أعمال العباد قبـل وقوعهـا منهـم ، وإنّما يعلمها بعد كونها، قال القرطبي : قد انقـرض هـذا المذهـب ولا نعـرف أحداً يُنسب إليه من المتأخّرين ، قال : والقدريّـة اليـوم مطبقـون علـى أنّ ا لله عالِمٌ بأفعال العباد قبل وقوعها).[2]

وهـؤلاء الّذيـن أنكـروا العلـم كفّرهـم السّـلف ومنهـم الأئمّـة مـالك والشّافعي وأحمد .[3]

إذن فقد وافـق ابـن حبّـان مذهـب السّـلف الصّـالح في علـم ا لله تعـالى الشّامل ، وأنّه سبحانه قدّر مقـادير الخلائـق قبـل أن يخلقهـم ، بعلمـه وقدرتـه وكتب ذلك في اللّوح المحفوظ ، وأنّ الخلق مُيسّرون لما قـدّر ا لله لهـم ، فـأهل السّعادة مُيسّرون لعمل أهل السّـعادة ، وأهـل الشّـقاوة مُيسّـرون لعمـل أهـل الشّقاوة .

ثمّ أشار ابن حبّـان إلى أنّ الإيمـان بـالقدر وبعلـم ا لله السّـابق وكتابتـه مـاقدّره في اللّـوح المحفـوظ ، لا يتعـارض مـع مشـروعية الأسباب ووجـوب استعمالها واتّخاذها ، وهذا هو منهج أهـل السّـنّة في ذلـك ، وفيـه قولـه عليـه الصّلاة والسّلام للرّجل لمّا قال له : يارسول ا لله أُرسـل نـاقتي واتوكّـل؟ قـال: (**اعقلها وتوكّل**)[4] .

[1] انظر مجموع الفتاوى ٨ / ٤٥٠ .

[2] الفتح ١ / ١٤٥ ، في شرح حديث جبريل .

[3] الفتاوى ٨ / ٢٨٨.

[4] تقدّم ص ٧٦ .

وسواء كانت هذه الأسباب شرعيّة تتعلّق بأمور الآخرة كإتيان العمل الصّالح والعبادة طمعاً في الجنّة وخوفاً من النّار، أو كانت أسباباً دنيويّة كاستعمال الأكل لحصول الشّبع ، والشّرب لحصول الرّي ، والدّواء لحصول الشّفاء ، فكلّ ذلك أسبابٌ استعمالها مشروع ومُرغّب فيه ، خصوصاً في أمور الآخرة الّتي لم تختلف كلمة أهل السّنّة على وجوب تناولها واستعمالها، خلافاً للمبتدعة من أهل الغلوّ والإجحاف ، ولذلك ، لّما اشتبه ذلك على الصّحابة وظنّوا أنّ سابق العلم والتّقدير الإلهي يلغي الأخذ بالأسباب ، قال عليه الصّلاةوالسّلام : (**اعملوا فكلٌّ مُيسّرٌ لما خُلق له**)[1] فالمُراد وجوب العمل والأخذ بالأسباب ، وطمأنينة القلب إلى أنّ علم الله لا يتخلّف ولن يجاوز عبدٌ ماقُدّر له ، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى : (فقد أخبر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بما دلّ عليه الكتاب والسّنّة من أنّ الله سبحانه تقدّم علمه وكتابه وقضاؤه بما سيصير إليه العباد من السّعادة والشّقاء ،كما تقدّم علمه بغير ذلك من أحوال العباد ، وقد بيّن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّ ذلك لا ينافي وجود الأعمال الّتي بها تكون السّعادة والشّقاوة ، وأنّ من كان من أهل السّعادة يُيسّر لعمل أهل السّعادة ، ومن كان من أهل الشّقاء يُيسّر لعمل أهل الشّقاوة ، وقد نهى أن يتّكل الإنسان على القدر السّابق ويدع العمل ، وفي الحديث أنّه قيل : يارسول الله، أرأيت أدويةً نتداوى بها ، ورُقىً نسترقي بها ، وتُقاةً نتّقيها ، هل تردّ من قدر الله شيئاً ؟ قال : (**هي من قدر الله**)[2] ، وذلك لأنّ الله سبحانه وتعالى هو يعلم الأشياء على ماهي عليه، وكذلك يكتبها، فإذا كان قد علم أنّها تكون بأسبابٍ من عمل وغيره وقضى أنها تكون كذلك وقدّر ذلك ،لم يجز أن يُظنّ أنّ تلك الأمور تكون بدون الأسباب الّتي جعلها الله أسباباً ، وهذا عامٌّ في جميع الحوادث ...)[3] .

---

(1) تقدّم ص٣٢٠ .

(2) تقدّم ص ٧٥ .

(3) مجموع الفتاوى ٨ / ٢٧٤ - ٢٧٧ ، ملخّصاً .

وقال أيضاً رحمه الله: (وفي حديث الحكم بن سفيان عن ثابت عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : (**إنّ الله قبض قبضةً فقال : إلى الجنة برحمتي ، وقبض قبضةً فقال : إلى النّار ولا أُبالي**)[1] وفي هذا الحديث ونحوه فصلان : أحدهما : القدر السّابق ، وهو أنّ الله سبحانه علم أهل الجنّة من أهل النّار قبل أن يعملوا الأعمال ، وهذا حقٌّ يجب الإيمان به ، بل قد نصّ الأئمّة كمالك والشّافعي وأحمد أنّ من جحد هذا فقد كفر، بل يجب الإيمان بأنّ الله علم ما سيكون كلّه قبل كونه ، ويجب الإيمان بما أخبر به من أنّه كتب ذلك وأخبر به قبل أن يكون .

(ثانيهما)[2] : أنّ الله تعالى يعلم الأمور على ماهي عليه وهو قد جعل للأشياء أسباباً تكون بها ، فيعلم أنّها تكون بتلك الأسباب ،كما يعلم أنّ هذا يُولد له بأن يطأ أمرأةً فيُحبلها ، فلو قال هذا : إذا علم الله أنّه يُولد لي، فلا حاجة إلى الوَطء ، كان أحمق ، لأنّ الله علم أن سيكون بما يقدّره من الوطء، وهكذا فلا بدّ من الأسباب الّتي علم الله أنّ الأمور تكون بها، وكذلك إذا علم أنّ هذا سيكون سعيداً في الآخرة وهذا شقياً : قلنا : ذلك لأنّه يعمل بعمل الأشقياء ، فالله علم أنّه يشقى بذلك العمل ، فإن قيل: هو شقيٌّ وإن لم يعمل كان باطلاً ، لأنّ الله لايُدخل أحداً النّار إلاّ بذنبه، وكذلك الجنّة خلقها لأهل الإيمان وطاعته ، فمن قدّر أن يكون منهم ، يسّره للإيمان والطّاعة ، فمن قال : أنا أدخل الجنّة سواء كنت مؤمناً أو كافراً إذا علم أنّي من أهلها ،كان مفترياً على الله ، فإنّ الله إنّما علم أنّه يدخلها بالإيمان .

ولهذا أُمر النّاس بالدّعاء والاستعانة بالله وغير ذلك من الأسباب ، وما قدّره الله وعلمه عن أحوال العباد وعواقبهم ، فإنّما قدّره الله بأسبابٍ يسوق المقادير إلى المواقيت ، فليس في الدّنيا والآخرة شيءٌ إلاّ بسبب ، والله خالق

[1] أخرجه أبو يعلى في المسند والعقيلي في الضّعفاء والدّولابي في الكنى ، وله شواهد ، انظر تفصيل الكلام عليه في السّلسلة الصّحيحة للألباني ١ / ح٤٦ .

[2] لفظ (الثّاني) من عندي .

الأسباب والمسبّبات، ولهذا قال بعضهم : الالتفات إلى الأسباب شرك في التّوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقصٌ في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكليّة قدحٌ في الشّرع)[1] .

وابن حبّان رحمه الله أكّد على هاتين الرّكيزتين الّلتين يقوم عليهما التّوازن المطلوب في باب القدر ، وهي الإيمان بعلم الله الشّامل السّابق وكتابته ذلك في اللّوح المحفوظ قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة .

ووجوب مباشرة الأسباب وعدم الاتّكال على القضاء النّافذ ، مع طمأنينة القلب أنّ ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

ومن أحسن مع الله في هذين الأصلين وفّقه الله إلى مشاهد أولي العزم والإيمان في الجمع بين القدر والشّرع ،كما قال شيخ الإسلام ابن تيميّة : (وللعبد في المقدور حالان قبله وبعده : أمّا قبله ، فعليه أن يستعين بالله ويتوكّل عليه ويدعوه ، فإذا قُدّر المقدور بغير فعله ، فعليه أن يصبر عليه ، ويرضى به ، وإن كان بفعله وهو نعمة حمد الله على ذلك ،وإن كان ذنباً استغفر الله منه.

وله في المأمور حالان : قبله : وهو العزم على الامتثال ، والاستعانة بالله على ذلك ، وحال بعده : وهو الاستغفار من التّقصير والشّكر لله على ما أنعم به من الخير... قال صلّى الله عليه وسلّم : (**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل : لو أنّي فعلت كذا كان كذا ، ولكن قل : قدّر الله وما شاء فعل**)[2])[3] وهذا هو عين منهج السّلف الصالح في باب القدر وابن حبّان فيه منهم بحمد الله تعالى .

---

[1] ملخّصاً من الفتاوى ٨ / ٦٦ ـ ٧٠ .

[2] أخرجه مسلم في القدر باب الأمر بالقوّة وترك العجز عن أبي هريرة رضي الله عنه .

[3] باختصار من الفتاوى ٨ / ٧٦ ـ ٧٧ .

المبحث الثّاني : عقيدته في المشيئة

قال ابن حبّان : " ذِكرُ الإخبار بأنّ كلّ شيءٍ بمشيئة ا لله جلّ وعلا وقدرته سواء كان محبوباً أو مكروهاً " ، ثم ساق حديث عبد ا لله بن عمر رضي ا لله عنهما مرفوعاً : (**كلُّ شيءٍ بقدر حتى العجْز والكيس**)[1].

تعليق :

ذكرنا فيما سبق أنّ القدريّة الأولى تعلّقت بدعتها بإنكار عموم وشمول علم ا لله تعالى ، وكتابة المقادير في اللّوح المحفوظ ، وأنكرت تبعاً لذلك عموم الخلق والمشيئة ، ولكنّ المتأخّرين من القدريّة وعلى رأسهم المعتزلة اقرّوا بعلم ا لله وكتابته ، ولكنّهم تكلّموا في عموم المشيئة والخلق ، وقد ردّ ابن حبّان بدعة القدريّة الأولى بإثبات علم ا لله تعالى وشموله فيما سبق ، وهاهو يؤكّد على أصلٍ في باب القدر ، يفنّد بدعة القدريّة المتأخّرة ، الّذين قالوا : إنّ ا لله تعالى لا يشاء المعاصي من العباد بل تقع دون مشيئته ، وأنّه تعالى لا يقدر على خلق المعاصي ولا يخلقها بل العباد يخلقون أفعالهم ، فأشركوا في الخلق وسُمّوا بذلك مجوس هذه الأمّة ،لأنّ المجوس أثبتوا خالقين ، خالقاً للخير ، وخالقاً للشّر ، فشابههم القدريّة فسُمّوا مجوساً ، وابن حبّان هنا يردّ قولهم بكلمات معدودة ويؤصّل منهج أهل السّنّة والجماعة .

فهو أوّلاً فسّر القدر في الحديث بأنّ المراد المشيئة والقدرة ، وإثبات كمال المشيئة وعمومها وكمال القدرة وشمولها ، هو الحقّ الّذي لامرية فيه، ومن خالف في ذلك لاشكّ أنّه اقتحم باباً من الشّر عظيماً ، وفتح على نفسه مسالك تنقطع دونها ظهور المراكب ، فهو كالمنبتّ لاظهراً أبقى ولاأرضاً قطع .

وا لله عز وجل وصف نفسه في كتابه بالمشيئة والقدرة التّامّة الّتي لايتخلف عنها شيء ، قال تعالى : ﴿**وهو على كلّ شيءٍ قدير**﴾ : **الحديد٢**

[1] الإحسان ١٤ / ١٧ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في القدر باب كلّ شيءٍ بقدر .

، **﴿ فلا أُقسم بربّ المشارق والمغارب إنّا لقادرون ﴾ : المعارج ٤٠**، **﴿ يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ : الرّوم ٥٤** ، **﴿ وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾ : الشّورى ٢٩** ، **﴿ وكان ربّك قديراً ﴾ : الفرقان ٥٤** ، ويعلّق سبحانه القدرة على المشيئة ، فلا يحجزه شيءٌ عن شيء ، كما قال : **﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ : يوسف ٥٦** ، **﴿ ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجلٍ مُسمّى ﴾ : الحج ٥** ، **﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكةً في الأرض يخلفون ﴾ : الزّخرف ٦٠**، **﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض ﴾ : سبأ ٩** ، **﴿ وا لله يختصّ برحمته من يشاء ﴾ : البقرة ١٠٥** ، **﴿ ما كانوا ليؤمنوا إلاّ أن يشاء ا لله ﴾ : الانعام ١١١** ، **﴿ قل إنّ ربّي يبسط الرّزق لمن يشاء ويقدر ﴾ : سبأ ٣٦** ، **﴿ وما تشاءون إلاّ أن يشاء ا لله ﴾ : الانسان ٣٠** ، **﴿ وما يذكرون إلاّ أن يشاء ا لله ﴾ : المدثر ٥٦** ، **﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ﴾ : الإسراء ١٦** ، **﴿ يريد ا لله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ : البقرة ١٨٥** ، **﴿ ولكنّ ا لله يفعل ما يريد ﴾ البقرة ٢٥٣** ، **﴿ يريد ا لله ليبيّن لكم ويهديكم سنن الّذين من قبلكم ﴾ : النّساء ٢٦** ، **﴿ إنّ ربّك فعّالٌ لما يريد ﴾ : هود ١٠٧** ، والآيات في ذلك أكثر من أن تُعدّ ، أنّ ا لله تعالى له القدرة الكاملة الّتي لا يستعصي عليها شيء ، فأمره بين الكاف والنّون ، وله المشيئة التّامّة الشّاملة ، الّتي لا يخرج عن مرادها ومقتضاها شيء ، فهو سبحانه ما شاء فعل وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وا لله عزّ وجلّ خالق كلّ شيء ، ولم يكن شيء من الأشياء إلاّ بمشيئته سبحانه ، وهو خالقه ، سواء كان هذا الشّيء محبوباً له أو مكروهاً ، من ذلك قوله تعالى: **﴿ ولو شاء ا لله ما اقتتلوا ولكنّ ا لله يفعل ما يريد ﴾ : البقرة ٢٥٣** ، وقوله تعالى : **﴿ وا لله خلقكم وما تعملون ﴾ : الصّافّات ٩٦** ، وقوله : **﴿ من يشإ ا لله يضلله ومن يشأ يجعله على صراطٍ مستقيم﴾ الأنعام ٣٩** ، وقوله: **﴿ إنّا كلّ شيءٍ خلقناه بقدر ﴾ : القمر ٤٩** ،وفي

خطبة الحاجة الّتي كان يستفتح بها رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**من يهد ا لله فلا مُضلّ له ، ومن يُضْلِل فلا هادي له**)[١] .

وروى الّلالكائي بسنده عن عمر بن الخطّاب رضي ا لله عنه أنّه قال وهو يخطب بالجابية :(من يضلل ا لله فلا هادي له،وكان الجاثليق بين يديه فقال : إنّ ا لله لا يُضلّ أحداً ، فسأل عمر عمّا يقول فأخبروه فقال : كذبت يا عدوّ ا لله، بل ا لله خلقك وا لله يُضلّك ثم يُميتك فيُدخلك النّار إن شاء ا لله)[٢] ،وروي كذلك عن أبي بكر رضي ا لله عنه أنّ رجلاً جاءه وقال له : (أرأيت الزّنا بقدر ؟ قال : نعم ، قال : فإنّ ا لله قدّره عليّ ثم يعذّبني ؟ قال : نعم يا ابن الخنا ، أما وا لله لو كان عندي إنسان لأمرته أن يجأ أنفك)[٣] .

وروي عن علي بن أبي طالب قوله :(وهم عبادك إن شئت أصلحتهم وإن شئت أفسدتهم)[٤] ،وعن ابن عباس أنّه كان يقول : (العجز والكيس بقدر)[٥] .

وروي عن اللّيث بن سعد قال : (قال غيلان لربيعة :يا أبا عثمان أيرضى ا لله عزّ وجلّ أن يُعصى ؟ فقال له ربيعة : أفيُعصى قسراً ؟)[٦] .

وقال ابن عباس : (الزّنا بقدر ، وشرب الخمر والسّرقة)[٧] .

وقال رجل لسالم بن عبد ا لله بن عمر : (يا أبا عبد ا لله : الزّنا بقدر ؟ قال : نعم قال : أكتبه ا لله عليّ ؟ قال : نعم ، قال : كتبه عليّ ويأخذ به؟ قال : فأخذ الحصا وضرب بها وجهه)[٨] .

---

(١) أخرجه أحمد ١ / ٣٩٢ ، وأبو داود في النّكاح باب خطبة النّكاح ، والتّرمذي في النّكاح باب ماجاء في خطبة النّكاح ، والنّسائي في الجمعة باب كيفيّة الخطبة ، وابن ماجة في النّكاح باب خطبة النّكاح عن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة ٤ / ٦٥٩ .

(٣) المصدر السّابق ٤ / ٦٦٣ .

(٤) المصدر السّابق ٤ / ٦٦٥ والمراد بالإفساد هنا هو أن يتركهم ا لله ويكلهم إلى أنفسهم ومن وُكل إلى نفسه فقد هلك ولاشكّ ولهذا كان رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم يدعو : (**ياحيّ ياقيّوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كلّه ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين**) .

(٥) المصدر السّابق ٤ ، ٦٦٩ وتعبير المبتدع بالرّضا يدلّ على خلطهم الإرادة أو المشيئة بالمحبّة والرّضا ، وظنّهم أنّ هذا يستلزم هذا ولذلك أجابه ربيعة بمقتضى مذهب أهل السّنّة أنّ كلّ شيء بإذنه وأنّ لازم مذهب المبتدعة أنّ ا لله يُعصى قسراً وقهراً.

(٦) المصدر السّابق ٤ / ٦٨٦ .

(٧) المصدر السّابق ٤ / ٦٩٧ .

(٨) المصدر السّابق ٤ / ٦٩٩ .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (لو أنّ الله عزّ وجلّ أراد أن لايُعصى لم يخلق إبليس ثمّ قرأ : ﴿ **ما أنتم عليه بفاتنين إلاّ من هو صال الجحيم** ﴾)[1] ، وقال الإمام أحمد رحمه الله : (والزّنا والسّرقة وشرب الخمر وقتل النّفس وأكل المال الحرام والذّنوب والمعاصي كلّها بقضاء وقدر من غير أن يكون لأحدٍ من الخلق على الله حجّة ، بل لله الحجّة البالغة على عباده)[2] .

وقد ضلّت فرقٌ وطوائف من النّاس في هذا الباب ، فخبطوا خبط عشواء ، وأنكروا عموم مشيئة الله تعالى وقالوا : إنّ الله تعالى لا يشاء المعاصي ولا يخلقها ، إذ كيف يريد المعاصي ويشاؤها ويخلقها ثم ينهانا عنها ويعذّبنا عليها ، وقالوا : إنّ المعاصي وكلّ ما يكره الله لا يشاؤه ، بل يشاؤه فاعله ويخلقه فاعله ، وفي هذا مصادمةٌ صريحة للكتاب العزيز الّذي جاء فيه : ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾ ، قال شارح الطّحاويّة : (فأمّا العدل فستروا تحته نفي القدر ، وقالوا : إنّ الله لايخلق الشّر ولا يقضي به ، إذ لو خلقه ثم يعذّبهم عليه يكون ذلك جَوْراً ، والله تعالى عادلٌ لا يجور)[3] .

وقال : (ومنشأ الضّلال من التّسوية بين المشيئة والإرادة ، وبين المحبّة والرّضى ، فسوّى بينهما الجبريّة والقدريّة ثمّ اختلفوا ، فقالت الجبريّة : الكون كلّه بقضاء الله **وقدره** فيكون محبوباً مرضياً له، وقالت القدريّة : ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضيّة له ، فليست مقدّرة ولا مقضيّة ، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه)[4] .

وأمّا أهل السّنّة فيفرّقون بين المشيئة والمحبّة ، وبيانه ما قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى : (وقد جاءت الإرادة في كتاب الله تعالى على نوعين : أحدهما : الإرادة الدّينيّة ،كما قال تعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر**

---

[1] السّنّة لعبدالله بن أحمد ٢ / ٤٢٥ .

[2] انظر الرّوايات عن الإمام في السّنّة للخلاّل ص ٥٤٠ ومابعدها .

[3] شرح الطّحاويّة ٢ / ٧٩٢ .

[4] شرح الطّحاويّة ١ / ٣٢٤ .

ولا يريد بكم العسر ﴾ ،والثّاني الإرادة الكونيّة ،كما قال : ﴿ **ولو شاء ا لله ما اقتتلوا ولكنّ ا لله يفعل ما يريد** ﴾)[1] .

وسُئل رحمه ا لله : هل أراد ا لله المعصية من خلقه أم لا ؟ فأجاب : (لفظ الإرادة مُجملٌ له معنيان : فيُقصد به المشيئة لما خلقه ، ويُقصد به المحبّة والرّضا لما أمر به ، فإن كان مقصود السّائل أنّه أحبّ المعاصي ورضي وأمر بها ، فلم يردها بهذا المعنى ، فإنّ ا لله لا يحبّ الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ولا يأمر بالفحشاء ، وإن أراد أنّها من جملة ما شاءه وخلقه ، فا لله خالق كلّ شيء ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا يكون في الوجود إلاّ ما شاء ا لله)[2] ، وقال أيضاً : (وقد ذكر ا لله في كتابه الفرق بين الإرادة والأمر والقضاء والإذن والتّحريم والبعث والإرسال والجعل والكلام ، بين الكوني الّذي خلقه وقدّره وقضاه ، وإن كان لا يأمر به ولا يحبّه ولا يثيب أصحابه ، ولا يجعلهم من أوليائه المتّقين ، وبين الدّيني الّذي أمر به وشرعه وأثاب فاعليه وأكرمهم وجعلهم من أوليائه المتّقين وحزبه المصلحين وجنده الغالبين ... فالإرادة الكونيّة هي مشيئة ا لله لما خلقه وجميع المخلوقات داخلةٌ في مشيئته وإرادته الكونيّة ، والإرادة الدينيّة هي المتضمّنة لمحبّته ورضاه ، المتناولة لما أمر به وجعله شرعاً وديناً)[3] .

وقال ابن القيّم رحمه ا لله : (وأمره سبحانه نوعان : كونيٌّ قدريّ ودينيٌّ شرعيّ ، ومشيئته سبحانه متعلّقةٌ بخلقه وأمره الكوني ، وتتعلّق بما يحبّ وما يكره ،كلّ ذلك داخلٌ تحت مشيئته ، كما خلق إبليس وهو يبغضه وخلق الشّياطين والكفّار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها ، فمشيئته سبحانه شاملةٌ لذلك كلّه ، أمّا محبّته ورضاه فمتعلّقةٌ بأمره الدّيني وشرعه الّذي شرعه على ألسنة رسله ، فما وُجد منه تعلّقت به المحبّة والمشيئة جميعاً ، فهو محبوبٌ للربّ واقعٌ بمشيئته كطاعات الملائكةوالأنبياء والمؤمنين ، وما لم

---

(1) الفتاوى ٨ / ٤٤٠ .
(2) الفتاوى ٨ / ١٥٩ .
(3) الفتاوى ١١ / ٢٦٥ - ٢٦٦ .

يوجد منه تعلّقت به محبّته وأمره الدّيني ولم تتعلّق به المشيئة ، وما وُجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلّقت به مشيئته ولم تتعلّق به محبّته ولا رضاه ولا أمره الدّيني ، وما لم يُوجد منها لم تتعلّق به مشيئته ولامحبّته ، فلفظ المشيئة كوني ، ولفظ المحبّة ديني شرعي ، ولفظ الإرادة ينقسم إلى إرادةٍ كونيّة ، فتكون هي المشيئة ، وإرادةٍ دينيّة فتكون هي المحبّة)[1] .

وهذا كلامٌ يُكتب بالذّهب ، ومنه تعرف أنّ ماشاءه الله وأراده إرادةً كونيّة لابدّ من وقوعه ، وقد يكون محبوباً وقد يكون مكروهاً له ، وما أراده سبحانه الإرادة الدّينيّة فقد يقع وقد لا يقع ، ولا يكون إلاّ محبوباً لله تعالى .

وإذا تأصّل لدينا أنّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، عرفنا شمول مشيئته سبحانه وقدرته على الخلق لكلّ شيء من الذّوات والأعيان والأفعال والأعراض والصّفات ، لا يتخلّف عن ذلك أحد من المخلوقين ، فأمره سبحانه بين الكاف والنّون ، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون ، وهو عين ما أكّده ابن حبّان في ترجمة هذه المسألة ، فهو موافقٌ في ذلك لأهل السّنّة والجماعة ، والله أعلم .

---

[1] شفاء العليل ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

المبحث الثّالث : عقيدته في الفطـرة

قال في النّهاية : (الفَطْر : الابتداء والاختراع ... والفِطْرة : الحالة منـه كالجِلْسة والرِّكْبة)[١] ، وقال في القاموس : (الفطْـر : الشّـق ... وفطـر ا لله الخلق : خَلَقَهم وبرأهم ، وفَطَر ا لله الأمر : ابتدأه وأنشأه)[٢].

ومعاني الفِطْرة في اللّغة تدور حول الابتداء والإنشاء الأوّل ، وقد جـاء لفظ الفطرة في الكتاب والسّـنّة ، فمـن ذلـك قولـه تعـالى : ﴿ **فـأقم وجهـك للدّين حنيفاً فطرة ا لله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلـق ا لله**﴾ : **الـرّوم ٣٠** : وقال صلّى ا لله عليه وسلّم في الحديث المشهور : (**كـلّ مولـود يُولـد على الفطرة**)[٣] ، وهذا الحديث من الأحـاديث الّـتي وقـع الخـلاف في المـراد منها بين أهل السّنّة وغيرهم، وأشـهر مـا قيـل فيـه ثلاثـة أقـوال ، **الأوّل:** أنّـه الإسلام ، وهو قول الجمهور وعامّة السّلف ، **والثاني:** أنّه فُطِر علـى مـا علـم ا لله منه من شقاوةٍ أو سعادة ، **والثالث** : أنّه فُطِـر علـى الإقراروالمعرفـة بـا لله تعالى فما من مولود إلاّ ويقرّ بوجـود ا لله ، وهـو مفطـورٌ علـى ذلـك ، وابـن حبّان رحمه ا لله تعالى تعرّض لهذا الحديث في كتابه الصّحيح :

فقال بعد سياقه حديـث أبـي هريـرة رضـي ا لله عنـه مرفوعـاً : (**كـلّ مولودٍ يُولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسّانه**)[٤] ، قـال : " قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : **كلّ مولودٍ يُولد على الفطرة** ، أراد به الفطـرة الّتي فطره ا لله عليها جلّ وعلا يوم أخرجهم من صلب آدم لقوله جـلّ وعـلا : ﴿ **فطرة ا لله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق ا لله** ﴾ يقول : لا تبديـل لتلك الخلقة الّتي خلقهم لها إمّا للجنّة وإمّا للنّار ، ألا ترى أنّ غلام الخضر قال

---

[١] النّهاية لابن الأثير ٣ / ٤٥٧ ، وانظر تهذيب اللّغة ١٣ / ٣٢٥ .

[٢] القاموس المحيط ٢ / ١٥٧ .

[٣] أخرجه البخاري في الجنائز باب إذا أسلم الصّبيّ ثمّ مات هل يُصلّى عليه ، ومسلم في القدر با ب معنى كلّ مولود يُولد على الفطرة وغيرهم بألفاظ متقاربة في بعضها العطف بالواو وفي بعضها بـ (أو) .

[٤] تقدّم قريباً .

صلّى الله عليه وسلّم : (**طبعه الله يوم طبعه كافراً**)[1] وهو بين أبوين مؤمنين ، فأعلم الله ذلك عبده الخضر و لم يعلم كليمه موسى "[2] .

وقال ايضاً بعد أن ساق الحديث من طريق آخر : " قوله صلّى الله عليه وسلّم : **فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه** ، ممّا نقول في كتبنا : إنّ العرب تضيف الفعل إلى الآمر كما تضيفه إلى الفاعل ، فأطلق صلّى الله عليه وسلّم اسم التهوّد والتنصّر والتمجّس على من أمر ولده بشيءٍ منها بلفظ الفعل ، لا أنّ المشركين هم الّذين يهوّدون أولادهم وينصّرونهم ويمجّسونهم دون قضاء الله تعالى في سابق علمه في عبيده "[3] .

وساق حديث عائشة رضي الله عنها قالت : (تُوفّي صبيّ فقلت : طوبى له عصفورٌ من عصافير الجنّة ، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : (**أو لاتدرين أنّ الله خلق الجنّة وخلق النّار ، فخلق لهذه أهلاً ولهذه أهلاً**) ، ثمّ قال : " أراد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بقوله هذا ترك التّزكية لأحد مات على الإسلام ولئلاّ يُشهد بالجنّة لأحد ، وإن عُرف منه إتيان الطّاعات والانتهاء عن المزجورات ليكون القوم أحرص على الخير وأخوف من الرّب "[4] .

كما ساق حديث الأسود بن سريع قال : أفضى بهم القتل إلى قتل الذّرّية فبلغ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : (**أو ليس خياركم أولاد المشركين ، ما من مولودٍ يُولد إلاّعلى فطرة الإسلام**) ، ثمّ قال :" ... أراد به : الفطرة الّتي يعتقدها أهل الإسلام الّتي ذكرناها قبل ، حيث أخرج الخلق من صلب آدم ، فإقرار المرء بتلك الفطرة من الإسلام ،فنسب الفطرة إلى الإسلام عند الاعتقاد على سبيل المجاورة "[5] .

---

(1) أخرجه مسلم في القدر باب معنى كلّ مولود يولد على الفطرة عن أبي بن كعب رضي الله عنه .

(2) الإحسان ١ / ٣٣٧ ـ ٣٣٨ .

(3) الإحسان ١ / ٣٣٩ .

(4) الإحسان ١ / ٣٤٩ ، والحديث أخرجه مسلم في القدر باب معنى كلّ مولود يولد على الفطرة .

(5) الإحسان ١ / ٣٤١ ـ ٣٤٢ وحديث الأسود أخرجه أيضاً أحمد ٣ / ٤٣٥ ، وعبدالرّزّاق في المصنّف ح٢٠٠٩٠ ، والحاكم ٢ / ١٢٣ ، وغيرهم وصحّحه الحاكم ووافقه الذّهبي ، وله شواهد كثيرة عن أبي هريرة وغيره ، وفي بعضها قول الصّحابة : إنّهم أولاد المشركين وردّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بما ذُكر .

تعليق :

حديث : (**كلّ مولود يُولد على الفطرة**) أحتجّ به القدريّة على مذهبهم فقالوا : كلّ مولود يُولد على الإسلام ، والله تعالى لا يضلّ أحداً وإنّما أبواه يضلاّنه ، وهذا الاحتجاج سبّب تبايناً لدى أئمّة أهل السّنّة — كردّ فعل — في تحديد المراد بالفطرة في الحديث ، قال ابن القيم رحمه الله : (ولمّا صار القدريّة يحتجّون بهذا الحديث على قولهم صار النّاس يتأوّلونه على تأويلات يخرجونه بها عن مقتضاه)[1] .

فمن قائل : إنّها المعرفة ، ومن قائل : إنّها الإقرار ، ومن قائل : إنّها ابتداء خلق المولود في بطن أمّه ، وغير ذلك ، إلاّ أنّ أصحّ ما قيل في معناها : أنّها فطرة الإسلام أي دين الإسلام ، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى : (وهذا الحديث يُروى بألفاظ يفسّر بعضها بعضاً ، ففي الصّحيحين واللّفظ للبخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : (**ما من مولود إلاّ على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسّانه ،كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء ؟**) ، ثمّ يقول أبو هريرة: اقرؤوا : { **فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم** } ، قالوا يا رسول الله : أفرأيت من يموت صغيراً ؟ قال : (**الله أعلمُ بما كانوا عاملين**) ، وفي الصّحيح من رواية الأعمش :(**ما من مولودٍ إلاّ وهو على الملّة**) ، وفي رواية أبي معاوية : (**إلاّ على هذه الملّة حتى يبيّن عنه لسانه**)[2] فهذا صريحٌ في أنّه يُولد على ملّة الإسلام كما فسّره ابن شهاب، واستشهاد أبي هريرة راوي الحديث)[3] .

وقال ابن عبد البر رحمه الله في معرض ذكر الأقوال في الحديث : (وقال آخرون : الفطرة ههنا الإسلام ، قالوا : وهو المعروف عند عامّة السّلف من أهل العلم بالتّأويل ، وقد أجمعوا في قول الله تعالى : { **فِطرة الله**

---

[1] شفاء العليل ص ٥٦٦ .

[2] انظر هذه الرّوايات في صحيح مسلم كتاب القدر باب معنى كلّ مولود يولد على الفطرة .

[3] درء تعارض العقل والنّقل ٨ / ٣٦٥ — ٣٦٦ ، بتصرّف .

الّتي فطر النّاس عليها ﴾ على أن قالوا : فطرة الله : دين الله الإسلام ، واحتجّوا بقول أبي هريرة في الحديث : واقرؤوا إن شئتم : ﴿ **فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها** ﴾ .

وذكروا عن عكرمة [١] ومجاهد[٢] والحسن والضّحّاك[٣] وقتادة [٤] في قول الله جلّ وعلا : ﴿ **فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها** ﴾ قالوا : دين الإسلام ، ﴿ **لا تبديل لخلق الله** ﴾ قالوا : لدين الله ، واحتجّوا بحديث عياض بن حمار مرفوعاً : (**ألا أحدّثكم بما حدّثني الله في الكتاب : إنّ الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين**)[٥] واحتجّوا بقوله صلّى الله عليه وسلّم : (**خمسٌ من الفطرة**)[٦] فذكر منهنّ قصّ الشّارب والاختتان ، وهي من سنن الإسلام : وممّن ذهب إلى ذلك أبوهريرة وابن شهاب)[٧] .

وأمّا قول عبد الله بن المبارك ورواية عن الإمام أحمد : إنّ الفطرة : هي ما علم الله منهم من سعادة وشقاوة ، فقال شيخ الإسلام ابن تيميّة : (أحمد لم يذكر العهد الأوّل وإنّما قال : الفطرة الأولى الّتي فطر النّاس عليها ، وهي الدين ، وقد قال في غير موضع : إنّ الكافر إذا مات أبواه أو أحدهما حُكم بإسلامه واستدلّ بهذا الحديث : (**كلّ مولود يُولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسّانه**)، فدلّ على أنّه فسّر الحديث : بأنّه يُولد على فطرة الإسلام كما جاء ذلك مصرّحاً به في الحديث ، ولو لم يكن كذلك لما صحّ استدلاله بالحديث .

وقوله في موضع آخر : يُولد على ما فُطر عليه من شقاوةٍ وسعادة ،لا ينافي ذلك ، فإنّ الله تعالى قدّر الشّقاوة والسّعادة وكتبها ، وقدّر أنّها تكون

---

(١) الحافظ المفسّر أبو عبدالله القرشي مولاهم البربري الأصل ، مولى ابن عبّاس توفّي سنة ١٠٤هـ وقيل ١٠٥ هـ ، السّير ٥ /١٢

(٢) مجاهد بن جبر أبوالحجّاج المكّي الشّيخ المفسّر ، أخذ عن ابن عبّاس ، قيل : كان أعلم النّاس بالتّفسير ، توفّي سنة ١٠٤هـ ، وقيل : ١٠٥ ، وقيل غير ذلك ، السّير ٤ / ٤٤٩ .

(٣) الضّحّاك بن مزاحم الهلالي أبو محمّد صاحب التّفسير ، كان من أوعية العلم ، توفّي سنة ١٠٢هـ وقيل غيره ، السّير ٤/٥٩٨.

(٤) بن دِعامة بن قتادة بن عزيز أبو الخطّاب السّدوسي البصري الضّرير الأكمه ، حافظ العصر ، قدوة المفسّرين والمحدّثين ، كان من أوعية العلم وممّن يُضرب به المثل في قوّة الحفظ ، توفّي سنة١١٨هـ ، السّير ٥ / ٢٦٩ .

(٥) أخرجه مسلم بلفظ مقارب في الجنّة باب الصّفات الّتي يعرف بها في الدّنيا أهل الجنّة من أهل النّار .

(٦) أخرجه البخاري في اللّباس باب تقليم الأظافر ومسلم في الطّهارة باب خصال الفطرة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٧) هداية المستفيد من كتاب التّمهيد ٥ / ٤٤٠ ـ ٤٤٣ ، باختصار .

بالأسباب الّتي تحصل بها كفعل الأبوين ، فتهويد الأبوين وتنصيرهما هو ممّا قدّره الله تعالى)[١] .

وقال أيضاً : (وإنّما قال الأئمّة : على ما فُطر عليه من شقاء وسعادة، لأنّ القدريّة كانوا يحتجّون بهذا الحديث على أنّ الكفر والمعاصي ليس بقدر الله بل ممّا فعله الناس ، ولهذا قالوا لمالك بن أنس : إنّ القدريّة يحتجّون علينا بأوّل الحديث ، فقال : احتجّوا عليهم بآخره وهو قوله : (**الله أعلم بما كانوا عاملين**) [٢] فبيّن الأئمّة أنّه لا حجّة للقدريّة فيه ، بأنّهم لا يقولون إنّ نفس الأبويين خلقا تهوّده وتنصّره ، بل هو تهوّد وتنصّر باختياره ، ولكن كانا سبباً في ذلك بالتّعليم والتّلقين ، فإذا أُضيف إليهما بهذا الاعتبار ، فلأن يُضاف إلى الله الّذي هو خالق كلّ شيءٍ بطريق الأولى ،لأنّ الله وإن خلقه مولوداً على الفطرة سليماً ، فقد قدّر عليه ما سيكون بعد ذلك من تعبيره وعلم ذلك ،كما في الحديث الصّحيح:(**إنّ الغلام الّذي قتله الخضر ، طُبع يوم طُبع كافراً ، ولو بلغ لأرهق أبويه طغياناً وكفراً**))[٣] .

وكذلك استدلّوا بحديث الأسود بن سريع الذي تقدّم ذِكرُه:(**أو ليس خياركم أولاد المشركين**) ، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة : (فخطبته لهم بهذا الحديث عقب نهيه لهم عن قتل أولاد المشركين ، وقوله لهم : أو ليس خياركم أولاد المشركين ، يبيّن أنّه أراد أنّهم وُلدوا غير كفّار ، ثمّ الكفر طرأ بعد ذلك ، ولو كان أراد أنّ المولود حين يُولد يكون كافراً أو مسلماً على ما سبق له القدر ، لم يكن فيما ذكره حجّة على ماقصده صلّى الله عليه وسلّم من نهيه لهم عن قتل أولاد المشركين)[٤] .

وقال أيضاً : (الدّلائل على أنّه أراد فطرة الإسلام كثيرة : كألفاظ الحديث كقوله : على هذه الملّة ، ومثل تفسير أبي هريرة وغيره من رواة الحديث بذلك وهم أعلم بما سمعوا ، وأيضاً فإنّه لو لم يكن المُراد بالفطرة

---

[١] درء تعارض العقل والنّقل ٨ / ٣٦١ - ٣٦٢ .

[٢] أخرجه أبوداود في السّنّة باب ذراري المشركين ، واللالكائي ٤ / ٥٦٥ .

[٣] درء تعارض العقل والنّقل ٨ / ٣٦٢ - ٣٦٣ ، باختصار ، والحديث تقدّم أوّل المبحث ص ٣٤٠.

[٤] درء تعارض العقل والنّقل ٨ / ٣٦٤ .

الإسلام لما سألوا عقب ذلك : أرأيت من يموت من أطفال المشركين وهو صغير ؟ ، لأنّه لو لم يكن هناك ما يغيّر تلك الفطرة لما سألوه ، والعلم القديم لا يتغيّر ، وأيضاً أنّه شبّه ذلك بالبهيمة الّتي تُولد مجتمعة الخلق لا نقص فيها ثمّ تُجدع بعد ذلك ، فعلم أنّ التّغيير ورادٌ بعد ذلك ، وأيضاً فإنّ الحديث مطابقٌ للقرآن ، لقوله تعالى :﴿ **فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها** ﴾ وهذا يعمّ جميع النّاس كلّهم على فطرته المذكورة ، وفطرة الله أضافها إليه إضافة مدح لا إضافة ذم ، فعُلم أنّها فطرةٌ محمودة لا مذمومة)[1] .

وأغلب الأقوال في الفطرة ترجع إلى تقرير قولين : الأوّل : أنّه الإسلام والثّاني : أنّه فُطر على ماسبق في علم الله من شقاوة وسعادة ، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة : (أئمّة السّنّة مقصودهم أنّ الخلق سائرون إلى ما سبق به علم الله منهم من إيمان وكفر)[2] ،وقال ابن القيم : (قال شيخنا : أصل مقصود الأئمّة صحيح ، وهو منع احتجاج القدريّة بهذا الحديث على نفي القدر ، لكن لا يُحتاج مع ذلك أن يُفسّر القرآن والحديث إلاّ بما هو مُراد الله ورسوله ويجب أن يُتبع في ذلك ما دلّ عليه الدّليل)[3] .

إذا عُرف هذا تبيّن لنا وجه ترجيح ابن حبّان في المراد من الحديث أنّه على ماسبق في علم الله تعالى من شقاوة وسعادة ، وهو مسبوقٌ في هذا بما رُوي عن ابن المبارك وأحمد وغيرهما ممّن تصبّ أقوالهم في مصبٍّ واحد ، وهو إثبات علم الله السّابق وقدره في الشّقاوة والسّعادة ، وهذا المعنى وإن كان صحيحاً في نفسه ولا يُعارض القول بأنّ المراد بالفطرة هو الإسلام ، إلاّ أنّ تفسير الحديث به لا يقوى على النّهوض أمام الأدلّة الأخرى الثّابتة في تفسير الفطرة بالإسلام ، أو دين الإسلام ، أو الملّة : ولذلك احتجّ ابن حبّان على قوله بحديث غلام الخضر ، وقوله أيضاً : إنّ المُراد بقوله صلّى الله عليه وسلّم : يهوّدانه ، ويمجّسانه أنّهم يأمرانه بذلك على عادة العرب في إضافة

---

(1) المصدر السّابق ٨ / ٣٧١ - ٣٧٢ ، باختصار .

(2) المصدر السّابق ٨ / ٣٨٩ .

(3) شفاء العليل ص ٥٧٨ .

الفعل إلى الآمر به ، وفي هذا يردّ ابن حبّان على القدريّة الّتي تزعم أنّ الله لا يُضلّ أحداً ، ولا يخلق فعل عباده ،ولكنّهم يستأنفون أفعالهم ويخلقونها ، وهذا الكلام منه في ردّ استدلال القدريّة بالحديث جيّد ، وقد بيّنه شيخ الإسلام ابن تيميّة في قوله : (فالقدريّة من المعتزلة وغيرهم يقولون :كلّ مولود يُولد على الإسلام والله لا يضلّ أحداً ، ولكنّ أبواه يضلّانه ، والحديث حجّةٌ عليهم من وجهين ، **أحدهما** : أنّه عند المعتزلة ونحوهم من المتكلّمين لم يُولد على الإسلام أصلاً ولا جعل الله أحداً مسلماً ولا كافراً ،ولكنّ هذا أحدث لنفسه الكفر ، وهذا أحدث لنفسه الإسلام ، والله لم يفعل واحداً منهما عندهم ، بلا نزاع عند القدريّة ، ولكن هو دعاهما إلى الإسلام وأزاح علّتهما وأعطاهما قدرةً مماثلة فيهما تصلح للإيمان والكفر ، ولم يختصّ المؤمن بسبب يقتضي حصول الإيمان ، فإنّ ذلك عندهم غير مقدور ، ولو كان مقدوراً لكان ظلماً ، وهذا قول عامّة المعتزلة وإن كان بعض متأخّريهم كأبي الحسين[1] يقول : إنّه خصّ المؤمن بداعي الإيمان ، ويقول : عند الدّاعي والقدرة يجب وجود الإيمان : فهذا في الحقيقة موافقٌ لأهل السّنّة .

الوجه الثّاني : أنّهم يقولون : إنّ معرفة الله لا تحصل إلاّ بالنّظر المشروط بالعقل ، فيستحيل أن تكون المعرفة عندهم ضروريّة ، وأن تكون من فعل الله تعالى ، وإن احتجّت القدريّة بقوله : فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه ، من جهة كونه أضاف التّغيير إلى الأبويين ، فيُقال لهم : أنتم تقولون : إنّه لا يقدر : لا الله ولا أحدٌ من مخلوقاته على أن يجعلهما يهوديّين أو نصرانيّين أو مجوسيّين ، بل هما فعلا ذلك بأنفسهما بلا قدرة من غيرهما ولا فعل من غيرهما ، فحينئذٍ لا حجّة لكم في قوله : (**فأبواه يهوّدانه**)، وأهل السّنّة متّفقون على أنّ غير الله لا يقدر على جعل الهدى والضّلال في قلب أحد ،فقد اتّفقت الأمّة على أنّ المراد بذلك : دعوة الأبويين لهما إلى ذلك ، وترغيبهما فيه وتربيتهما عليه ، ونحو ذلك ممّا يفعل المعلّم المربّي مع من

[1] محمّد بن عليّ بن الطّيّب البصري شيخ المعتزلة ، صاحب كتاب المعتمد في أصول الفقه ، توفّي سنة ٤٣٦ هـ ، السّير ٥٨٧/١٧ .

يعلّمه ويربّيه ، وذكر الأبوين على الغالب ، إذ لكلّ طفلٍ أبوان ، وإلاّ فقد يقع ذلك من أحد الأبوين ، وقد يقع من غير الأبوين حقيقةً وحكماً)[١] .

فإذا تبيّن بطلان قول القدريّة في معنى الحديث ، واستدلالهم به ، دون الحاجة إلى الخروج بمعنى الحديث عمّا أراد الله ورسوله ، وعرفنا أنّ الفطرة هي دين الإسلام ، فلا يشكل علينا قول ابن عبد البر : (يستحيل أن تكون الفطرة المذكورة الإسلام ، لأنّ الإسلام والإيمان قولٌ باللّسان واعتقادٌ بالقلب وعملٌ بالجوارح ، وهذا معدومٌ من الطّفل)[٢] ، قال ابن القيم : (وممّا ينبغي علمه أنّه إذا قيل : إنّه وُلد على الفطرة أو على الإسلام أوعلى هذه الملّة أو خُلق حنيفاً ، فليس المراد به أنّه حين خرج من بطن أمّه يعلم هذا الدّين ويريده ، فإنّ الله تعالى يقول : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمّهاتكم لا تعلمون شيئاً** ﴾ ، ولكنّ فطرته موجبةٌ مقتضيةٌ للإسلام لقربه ، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه ومحبّته وإخلاص الدّين له ، وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئاً بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المُعارض ، فالمُراد أنّ كلّ مولود يُولد على محبّته لفاطره وإقراره له بربوبيّته وادّعائه له بالعبوديّة ، فلو خُلّي وعدم المُعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره)[٣] ، وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة :(وأمّا من يقول : وُلدوا على فطرة الإسلام ، أو على الإقرار بالصّانع وإن لم يكن ذلك وحده ايماناً ، أو على المعرفة الأولى يوم أخذ الميثاق عليهم ، فهذه الثّلاثة لا منافاة بينها ، بل يحصل بها المقصود)[٤] ، وابن حبّان جَنح إلى قول ابن المبارك وغيره في تفسير الحديث، ومقصوده كما تقدّم دفع احتجاج القدريّة بهذا الحديث ، وهو نفس الدّافع الذي أدّى به إلى تأويل قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**ما من مولود إلاّ على فطرة الإسلام**) ، فقال : " إنّ المُراد الفطرة الّتي يعتقدها أهل الإسلام أضافها إليه على سبيل المجاورة " ،وهذا تأويلٌ بعيد مخالفٌ لأقوال عامّة السّلف

---

[١] درء تعارض العقل والنّقل ٨ / ٣٧٧ - ٣٧٩ .

[٢] هداية المستفيد ٥ / ٤٤٤ .

[٣] شفاء العليل ص ٥٦٨ - ٥٦٩ ، بتصرّف .

[٤] درء تعارض العقل والنّقل ٨ / ٤٥٤ .

الصّالح، وليس له مستندٌ شرعي ، ومخالفٌ أيضاً لروايات الحديث الّتي تفسّر المُراد ،كقوله صلّى الله عليه وسلّم :(علىالملّة) أو (على هذه الملّة) وغيرها، وردّ أقوال أهل البدع ليس مبرّراً لصرف النّصوص عن دلالاتها الرّاجحة ومراد الله ورسوله منها ،كما تقدّم من كلام شيخ الإسلام ابن تيميّة ، وكون المبتدعة قالوا بقول فلايكفي لردّه بمجرّد كونه رأياً لهم ، بل إن كان حقّاً أخذنا به ولايضيرنا أن ذهب إليه المبتدع ، وإن ذهب إليه المبتدع ليردّ به حقّاً بيّنّا ما في قوله من الخطأ وأخذنا بالحقّ كما فعل شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله في هذه المسألة ، حيث أبان وجه الحقّ في المراد من الحديث وبيّن بطلان استدلال القدريّة به على مذهبهم الرّديء .

وأخيراً فهذه خلاصة ما احتاج المقام إلى ذِكره في حديث الفطرة، وأقوال النّاس فيها أكثر من أن تُذكر في مثل هذا المقام ، وإنّما ذكرت الرّاجح من الأقوال ، مع القول الّذي رجّحه ابن حبّان ، لبيان موقعه من الصّواب والخطأ ، وأعرضت عن ذِكر باقي الأقوال والتّفصيلات في الحديث لأنّها خارجةٌ عن المقصود ، وفيما تمّ كفاية ، والله أعلم بالصواب .

المبحث الرّابع : رأيه في نصوص الوعـد والوعـيد

قال في القاموس :(وَعَدَه الأمر وبه ،يَعِدُ عِدَةً ووَعْداً وموعِداً وموْعِـدةً وموعوداً وموعودة وخيراً وشراً ، فـإذا أُسقطا قيـل في الخـير وعَـد وفي الشّـرّ أوعد ، وقالوا : أوعد الخير وبالشّر ... والوعيد : التّهديد والتّوعّد والتّهدّد)[1]

وقال ابن الأثير : (وقد تكرّر ذِكرُ الوعد والوعيد، فالوعد يُستعمل في الخير والشّر ، ويُقال : وعدته خيراً ووعدته شراً فـإذا أسقطوا الخـير والشّـر ، قالوا في الخير :الوعد والعِدة ، وفي الشّر : الإيعاد والوعيد)[2] .

المقصـود بـالوعد مـا وعـد ا لله عبـاده المؤمنـين مـن الثّـواب في الأولى والآخرة ، والمقصود بالوعيد ما توعّد ا لله به عباده الكافرين أو الفاسـقين مـن العقـاب في الأولى و الآخـرة ، والنّصوص الشّـرعيّة الّـتي جـاء فيهـا الوعـد والوعيد كانت مدار خلاف بين أهل السّنّة وبين المبتدعة من الخوارج والمعتزلة وكذلك المرجئة ، والبحـث فيهـا يشـبه البحـث في تكفـير مرتكـب الكبـيرة ، لكنّي أعدته هنا من حيث جواز خلف الوعد و الوعيد على ا لله تعالى [3] .

فالمعتزلة ومن وافقهم جنحوا إلى نصوص الوعيد ، وقـالوا : إنّ الخُلْـف فيها مذموم كما هو الخُلف في الوعد ، فا لله عزّ وجلّ واجبٌ عليه تعذيب من عصاه وإنزال وعيده به ،كما أنّه واجبٌ عليه إنجاز وعْـده لمـن أطاعـهوإثابتـه ، وأنّ الخُلْف في القسمين مذموم وقبيح في حقّ ا لله تعالى .[4]

وأمّا المرجئة فغلوا في نصوص الوعد وأهملوا نصوص الوعيـد ، فـتراهم دائماً يحتجّون بعموم أحاديث الشّهادتين والنّصوص الّتي فيهـا الرّجـاء ، وأهـل السّنّة بين هؤلاء وهؤلاء يصدّقـون بـالوعد والوعيـد ، وأنّ كلاهمـا مـن عنـد ا لله، ولكـنّ كلاهمـا مشـروطٌ بشـروط ، قـال شـيخ الإسـلام ابـن تيميّـة : (لاريب أنّ الكتاب والسّنّة فيهما وعد ووعيد ، وقد قـال ا لله تعـالى : ﴿ **إنّ**

[1] القاموس المحيط ١ / ٦٤٨ .

[2] النّهاية ٥ / ٢٠٦ .

[3] يدرج المعتزلة والأشاعرة هذه المسألة غالباً تحت بحثهم في مسألة التّحسين والتّقبيح العقلي وما يجوز على ا لله ومايمتنع ، وهذا يدخل في الكلام عن أفعال ا لله تعالى ، ومن هذه الحيثيّة كرّرت الكلام هنا في فصل القدر من حيث الأنسب .

(٤) انظر شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار ص ١٢٥ - ١٢٦ .

الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ ، ومثل هذا كثيرٌ في الكتاب والسّنّة ، والعبد عليه أن يصدّق بهذا وهذا ، لا يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، فهؤلاء المشركون أرادوا أن يصدّقوا بالوعد ويكذّبوا بالوعيد ، والحروريّة والمعتزلة أرادوا أن يصدّقوا بالوعيد دون الوعد وكلاهما أخطأ ، والّذي عليه أهل السّنّة والجماعة الإيمان بالوعد والوعيد، فكما أنّ ما توعّد الله به العبد من العقاب قد بيّن سبحانه أنّه مشروطٌ بأن لا يتوب ، فإن تاب تاب الله عليه ، وبأن لا يكون له حسناتٌ ماحية تمحو ذنوبه ، فإنّ الحسنات يذهبن السّيئات ، وبأن لا يشاء الله أن يغفر له ، وهكذا الوعد له تفسيرٌ وبيان ، فمن قال : لا اله إلاّ الله بلسانه وكذّب الرسول فهو كاذبٌ باتّفاق المسلمين ... ثمّ إن كان من أهل الكبائر فأمره إلى الله إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له)[1] .

وخلاصة مذهب أهل السّنّة في الوعد والوعيد : أنّ ما وعد الله عباده المؤمنين من الثّواب والجزاء الحسن فهو منجزه لا محالة وجوباً أوجبه هو على نفسه لا استحقاقاً ، فإنّ الإنسان لا يستحقّ بنفسه على الله شيئاً .

وما توعّد الله عباده من العقاب على معاصيه فجائزٌ على الله الخُلْف فيه تفضّلاً وتكرّماً منه سبحانه ، قال ابن القيم رحمه الله : (وإخلاف الوعيد لا يُذمّ ، بل يُمدح ، والله تعالى يجوز عليه إخلاف الوعيد ولا يجوز عليه إخلاف الوعد ، والفرق بينهما أنّ الوعيد حقّه ، فإخلافه عفوٌ وهِبة وإسقاط وذلك مُوجِب كرمِه وجودِه وإحسانه ، والوعد حقٌّ عليه أوجبه هو على نفسه ، والله لا يخلف الميعاد)[2] .

وأمّا ابن حبّان فقد توقّف كثيراً عند نصوص الوعد والوعيد ، فمن ذلك قوله بعد حديث معاذ بن جبل مرفوعاً : (**ما حقّ الله على العباد**)، قال ابن حبّان : " في هذا الخبر بيانٌ واضح أنّ بعض شعب الإيمان إذا أتى به المرء لا توجب له الجنّة في دائم الأوقات ، ألا تراه صلّى الله عليه وسلّم جعل

[1] الفتاوى ٨ / ٢٧٠ - ٢٧١ ، بتصرّف يسير .

[2] مدارج السّالكين ١ / ٣٩٦ .

حقّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وعبادة الله جلّ وعلا إقرارٌ باللّسان وتصديقٌ بالقلب وعمل بالأركان ، ففيما قلت أبين البيان بأنّ الجنّة لا تجب لمن أتىٰ ببعض شعب الإيمان في كلّ الأحوال بل يُستعمل كلّ جزءٍ في عموم ما ورد خطابه بحسب الحال فيه "[1] .

وقال أيضاً :" قوله صلّى الله عليه وسلّم :(**من مات من أمّتي لا يشرك با لله شيئاً دخل الجنّة**) يريد به إلاّ أن يرتكب شيئاً أوعدته عليه دخول النّار وله معنى آخر وهو : أنّ من لم يشرك با لله شيئاً ومات دخل الجنّة لا محالة ، وإن عُذّب قبل دخوله إيّاها مدّة معلومة "[2] .

وقال أيضاً بعد حديث الثّلاثة الّذين هم أوّل من تُسعّر بهم النّار : " ألفاظ الوعيد في الكتاب والسّنّة كلّها مقرونةٌ بشرط : وهو أن لا يتفضّل الله جلّ وعلا على مرتكب تلك الخصال بالعفو وغفران تلك الخصال ، دون العقوبة عليها ، وكلّ ما في الكتاب والسّنّة من ألفاظ الوعد مقرونةٌ بشرط وهو أن لا يرتكب عاملها ما يستوجب به العقوبة على ذلك الفعل حتّى يعاقب إن لم يتفضّل عليه بالعفو ، ثم يُعطى ذلك الثّواب الّذي وعد به من أجل ذلك الفعل "[3] .

وقال أيضاً : " قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**ليس منّي ولست منه**) يريد ليس مثلي ولست مثله في ذلك الفعل والعمل ... وقوله :(**لا يدخل الجنة لحمٌ نبت من سحت**) يريد به جنة دون جنة لأنّها جنان كثيرة "[4] .

وقال أيضاً بعد حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً : (**لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر ، ولا يدخل النّار من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان**) : " في هذا الخبر معنيان اثنان : أحدهما : لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر أراد

[1] الإحسان ١ / ٤٤٢ بتصرّف ، والحديث تقدّم تخريجه ص ٣١٩.

[2] الإحسان ١ / ٤٤٦ ، والحديث تقدّم ص ٢١٧بلفظ مقارب .

[3] الإحسان ٢ / ١٣٨ ـ ١٣٩ ، والحديث تقدّم ص ٥٤.

[4] الإحسان ٥ / ١٠ ـ ١١ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٣ / ٣٩٩ ، ٤ / ٤٢٢ والحاكم ٤ / ٤٢٢ ، وصحّحه ووافقه الذّهبي عن كعب بن عجرة رضي الله عنه .

جنّةً عالية يدخلها غير المتكبّرين ، وقولـه : لا يدخـل النّـار مـن كـان في قلبـه مثقال حبّة من خردل من إيمان أراد بها نـاراً سافلة يدخلهـا غـير المسـلمين ، والمعنى الثّاني : لا يدخل الجنّة أصلاً من كان في قلبه مثقـال حبـة مـن خـردل من كبر أراد بالكبر الشّرك ، إذ المشرك لا يدخل جنّةً من الجنان أصلاً ، وقوله : لا يدخل النّار من كان في قلبه مثقال حبّة خردل من إيمـان أراد علـى سـبيل الخلود ، حتى يصحّ المعنيان معاً "[1] .

وقال أيضاً بعد حديث أبـي ذر مرفوعـاً : **(وإن زنـى وإن سـرق)** : " أضمر في هذا الخبر شرطان أحدهما : أنّ من مات لا يشرك با لله شيئاً دخل الجنّة إن تفضّل ا لله جلّ وعلا عليه بالعفو عـن جناياتـه الّـتي لـه في دار الدّنيـا لأنّ المرء لايخلو من ارتكاب بعض ما حُظر عليه في الدّنيا ، والشّـرط الثـاني : من مات لا يشرك با لله شيئاً دخل الجنّة يريد بعد تعذيبه إيّاه في النّـار ـ نعـوذ با لله منها ـ إن لم يتفضّل عليه بـالعفو قبـل ذلـك لئـلاّ يبقـى في النّـار مـع مـن أشرك به في الدّنيا ، فهذان الشّرطان مُضمـران في هـذا الخبر، لا أنّ كـلّ مـن مات ولا يشرك با لله شيئاً دخل الجنّة لا محالة "[2] .

تعليق :

تقدّم قولنا : إنّ المعتزلة تمسّكت بنصوص الوعيد ، وقالت : إنّه لا يجوز علـى ا لله الخُلـف في الوعيـد كمـا لا ينبغـي لـه الخُلـف في الوعـد ، والمرجئـة تمسّكت بنصوص الوعد والرّجاء وأخذتها بعمومها وأهملت نصـوص الوعيـد وأوّلتها ، والحق هو قـول أهـل السّـنّة : إنّ النّصـوص سـواء نصـوص الوعـد أونصوص الوعيد مشروطةٌ بشروط كما تقدّم في كلام شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه ا لله ، وابن حبّان رحمه ا لله تعالى نهج هذا المنهج ، فهو يرى أنّ نصوص الوعد ، وكذلك الوعيد مشروطةٌ بشروط حتّى يتحقّق الوعد أو الوعيد .

وليـس مـن شـروط البيـان أن يذكـر الشّـرط إذا كـان معلومـاً عنـد المُخـاطب، فالعمومـات الّـتي ورد فيهـا أنّ مـن لم يشـرك بـا لله دخـل الجنـة

---

[1] الإحسان ١٢ / ٤٩٤ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه .

[2] الإحسان ٨ / ١١٩ ، والحديث تقدّم ص ٢١٧.

مشروطةٌ بشروط كالعفو عن الزّلات والتّجاوز عن السّيئات والافتداء من مظالم العباد وغير ذلك ، إذا حُمل الدّخول على الدّخول دون عذاب ، وأمّا إن حُمل على دخول الجنّة لا محالة وإن عُذّب فلا حاجة للشّرط هنا ، لأنّ النّص يصبح متحقّقاً فعلاً في أصحاب الشّهادتين ، وكذلك النّصوص الّتي فيها الوعيد بعدم دخول الجنّة كمن في قلبه كبر مثلاً مشروطةٌ بعدم تفضّل الله بالعفو أو أن يكون لدى العبد حسنات ترجُح على ذلك الذّنب ، وهذه الشّروط والقيود معلومةٌ من النّصوص الأخرى وقواعد الشّريعة ، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعليقاً على حديث:(**لا يدخل الجنّة من في قلبه ذرة من كبر**)[1] : (فقوله : لا يدخل الجنّة ، متضمّنٌ لكونه ليس من أهلها ولا مستحقاً لها ، لكن إن تاب ، أو كانت له حسناتٌ ماحيةُ لذنبه أو ابتلاه الله بمصائب كفّر بها خطاياه ونحو ذلك ، زال ثمرة هذا الكبر المانع له من دخول الجنّة فيدخلها ، أو غفر الله له بفضل رحمته ذلك الكبر من نفسه فلا يدخلها ومعه شيءٌ من الكبر ،ولهذا قال من قال في هذا الحديث وغيره : المنفي هو الدّخول المطلق الذي لا يكون معه عذاب ، لا الدّخول المقيّد الّذي يحصل لمن دخل النّار ثم دخل الجنّة فإنّه إذا أطلق في الحديث فلانٌ في الجنّة ،كان المفهوم أنّه يدخل الجنّة ولا يدخل النّار ، فإذا تبيّن هذا كان معناه من كان في قلبه ذرة من كبر ليس هو من أهل الجنّة ولا يدخلها بلا عذاب ، بل هو مستحقٌّ للعذاب لكِبْره ، كما يستحقّها غيره من أهل الكبائر ، ولكن قد يُعذّب في النّار ما شاء الله، فإنّه لا يُخلّد في النّار أحدٌ من أهل التّوحيد ، وعلى هذا فالحديث عامٌّ في المسلمين والكفّار .

وقول القائل : إنّ المسلمين يدخلون الجنّة بالإسلام ، فيُقال له : ليس كلّ المسلمين يدخلون الجنّة بلا عذاب ، بل أهل الوعيد يدخلون النّار ويمكثون فيها ما شاء الله ، مع كونهم ليسوا كفّاراً ، ومذهب أهل السّنّة أنّ فسّاق أهل الملّة ليسوا مخلّدين في النّار ،كما قالت الخوارج ، وليسوا كاملين

[1] أخرجه مسلم في الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

في الدّين والإيمان والطّاعة ، بل لهم حسنات وسيّئات يستحقّون بهذا العقاب وبهذا الثّواب)[1] .

وإذا ثبت أنّ ابن حبّان موافقٌ لأهل السّنّة في هذا الأصل ، فهو موافقٌ لهم بالضّرورة في جواز خُلف الوعيد على الله تعالى ، فإنّه جعل لإنفاذ الوعيد شروطاً تتحقّق وموانع تنتفي ، وهذا ضدّ قول أهل الاعتزال والخروج ، وقد جاء النّصّ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يؤيّد هذا المذهب ، وهو ما رواه أنس بن مالك عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : (**من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه له ، ومن وعده على عملٍ عقاباً فهو فيه بالخيار**)[2] وشواهده كثيرةٌ من الكتاب والسّنّة وهو مطابق لقول أهل السّنّة الّذين يرون أنّ العقاب مرتبط بالوعيد ، وهو إمّا وعيد الكفّار وهذا مُنجزٌ لا محالة ولا يخلف الله وعده فيهم إن ماتوا على كفرهم وشركهم لقوله تعالى : ﴿ **إنّ الله لا يغفر أن يُشرك به** ﴾ ، وإمّا وعيد العصاة من المؤمنين وهو مشروطٌ بعدم التّوبة ، وبأن لا يشاء الله أن يغفر له، فالوعيد حينئذٍ ينتفي بذلك أو بغيره أمّا من لم يصب شيئاً من ذلك ومات وهو عاصٍ فهو تحت المشيئة إن شاء عفا الله عنه وإن شاء عذّبه ، ولا يُعدّ هذا خُلفاً مذموماً عند العقلاء ، لما مرّ من أنّ خلف الوعيد من باب ترك استيفاء الحق وهو محمدة عندهم لا مذمّة .

وأخيراً فإنّ ابن حبّان أصاب منهج أهل السّنّة في نصوص الوعد والوعيد والتّعامل معها كما هو مذهب أهل السّنّة والجماعة .

---

[1] الفتاوى ٧ / ٦٧٧ - ٦٧٩ ، بتصرّف ، وانظر شرح الطّحاويّة ٣١٦ - ٣٢٤ .

[2] أخرجه أبويعلى وابن أبي عاصم في السّنّة ح٩٦١ ، والطّبراني في الأوسط ح٨٥١٦ ، وغيرهم من طرق عن أنس ، وأسانيده ضعيفة ، لكن قوّى أمره الألباني بالشّواهد فانظر الكلام عليه في السّلسلة الصّحيحة ٥ / ح٢٤٦٣ .

المبحث الخامس : عقيدته في المحو والإثبات أو (ردّ القدر بالدّعاء)

ثبت عند أهل السّنّة بالنّصوص القطعيّة أنّ الله عز وجل عِلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وأنّه تعالى كتب كلّ شيء هو كائنٌ إلى يوم القيامة في اللّوح المحفوظ ، وكتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة ، وأنّ مقادير الخلائق وصفاتهم وأفعالهم وغيرها لن تخالف ما قد كتبه الله تعالى ، ومن ذلك أرزاقهم وآجالهم ، قد وردت بعض النّصوص الّتي توهّم بعض النّاس أنّها تعارض هذا الأصل ، ومنها قوله تعالى : { **يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخّركم إلى أجلٍ مسمّى إنّ أجل الله إذا جاء لا يُؤخّر لو كنتم تعلمون**}: نوح٥، ومنها قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**لا يردّ القدر إلاّ الدّعاء و لايزيد في العمر إلاّ البر وإنّ العبد ليُحرم الرّزق بالذّنب يصيبه**)[1] ، وقوله عليه الصّلاة والسلام : (**من سرّه أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه**)[2] ، وفي الحقيقة إنّ تدبّر مثل هذه النصوص وفهمها على وجهها يُزيل الإشكال الوارد على كثيرٍ من النّاس .

وللأئمّة في معنى هذه النّصوص طريقتان : الأولى : حملها على ظاهرها، بأن من وصل الرحم مد في عمره وزيد له في رزقه ، وهذا لا ينافي أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ فالله عز وجل قدر المقادير بأسبابها وبدونها ، فكأنه سبحانه قدر أن العبد إن فعل السبب حصل له كذا ، وإن لم يفعل حصل له كذا، وكذلك هذه الأمور فإنها أسباب لزيادة العمر وزيادة الرزق وقد كتب الله أن العبد إذا وصل رحمه مثلا كان عمره ثمانين، وإن لم يصل فهو ستين ، وكذلك في الرزق ، والكل مكتوب في اللوح ، ولن يعدو العبد ما كتب له ، ولكن ما في علم الله عز وجل معروف ومحدد لا يتغير أبدا

(1) أخرجه أحمد ٥ / ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، وابن ماجة في المقدمة باب في القدر ، والحاكم ١ / ٤٩٣ ، وغيرهم عن ثوبان رضي الله عنه .

(2) أخرجه البخاري في الأدب باب من بسط له في الرزق لصلة الرحم ، ومسلم في البر والصلة باب صلة الرحم ، عن أنس رضي الله عنه مرفوعا .

فا لله علم سابقاً ما سيعمله عبده ، هل سيصل رحمه أم لا؟ وسيُزاد له في أجله أم لا؟ .

وهذه الزّيادة، هي بالنّسبة لما في علم الملك المُوكّل ، أوبالنّسبة لما في كتب الملائكة ، وأمّا بالنّسبة لعلم ا لله تعالى ، فلن يجاوز العبد ما علم ا لله عنه من الأجل والرّزق وسائر ما كُتب له ، قال ابن حجر رحمه ا لله : (ثانيهما : أنّ الزّيادة على حقيقتها ، وذلك بالنّسبة إلى علم الملك الموكّل بالعمر ، أمّا الأوّل الّذي دلّت عليه الآية [١] فبالنّسبة إلى علم ا لله ، كأن يُقال للملك مثلاً : إنّ عمر فلان مئةٌ إن وصل رحمه ، وستّون إن قطعها ، وقد سبق في علم ا لله أنّه يصل أو يقطع ، فالّذي في علم ا لله لايتقدّم ولايتأخّر ، والّذي في علم الملك هو الّذي يمكن فيه الزّيادة والنّقصان ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **يمحو ا لله مايشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب** ﴾ فالمحو والإثبات بالنّسبة لما في علم الملك وما في أمّ الكتاب هو الّذي في علم ا لله ، فلا محو فيه البتّة ، ويُقال له : القضاء المُبرم ، ويُقال للأوّل القضاء المعلّق)[٢].

والثّانية : هي حمل النّصوص على المجاز ، فزيادة العمر كناية عن البركة في العمر بسبب التّوفيق إلى الطّاعة واغتنام الأوقات بما ينفع في الآخرة ، وصيانتها عن الضّياع في ما لاينفع .

والزّيادة في الرّزق كناية عن البركة في الرّزق حتّى لكأنّه زيد فيه ، وقد يدخل في هذا قول من قال : إنّ المُراد بزيادة العمر ، أن تكون للرّجل ذرّيّةٌ صالحة فلا ينقطع ذكره في الأرض ، أو نفي الآفات في فهمه وعقله .[٣]

وابن حبّان رحمه ا لله تعالى ، سلك المسلك الثّاني ، فقد ساق حديث ثوبان مرفوعاً : (**إنّ الرّجل ليُحرم الرّزق بالذّنب يصيبه ...**) ، **ثمّ قال :** " ... لم يرد به عمومه ، وذاك أنّ الذّنب لايحرم الرّزق الّذي رُزق العبد ، بل يعكّر عليه صفاءه إذا فكّر في تعقيب الحالة فيه ، ودوام المرء على الدّعاء

---

[١] أي قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعةً ولا يستقدمون ﴾ .

[٢] الفتح ١٠ / ٤١٦ .

[٣] انظر فتح الباري ١٠ / ٤١٦ .

يطيّب له ورود القضاء ، فكأنّه ردّه لقلّة حسّه بألمه ، والبرّ يطيّب العيش حتّى كأنّه يُزاد في عمره بطيب عيشه ..."[1] .

وقال أيضاً : " ذكر خبر يوهم غير المتبحّر في صناعة الحديث أنّ الدّعاء يدفع القضاء السّابق " ، وساق حديث أبي هريرة أنّ رجلاً لُدغ ، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : (**إنّك لو كنت قلت حين أمسيت : أعوذ بكلمات التّامّات من شرّ ماخلق ، ماضرّك**) ثمّ قال ابن حبّان : " أراد أنّك لو قلت ماقلنا لم يضرّك ألم اللّدغ ، لأنّ الكلام الّذي قال يدفع قضاء الله عليه "[2].

تعليق :

هذا الّذي جنح إليه ابن حبّان ، ومن تقدّمه في تفسير الحديث وإن كان مقبولاً من حيث معناه ، إلاّ أنّه لاموجب لصرف الأحاديث عن ظاهرها إليه ، إذ ليس في هذه النّصوص مايعارض تقدير المقادير ، وعلم الله بها وكتابتها ، على الوجه الّذي ذكرناه أوّلاً ، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة : (الرّزق نوعان : أحدهما : ما علمه الله أنّه يرزقه فهذا لايتغيّر ، والثّاني : ماكتبه وأعلم به الملائكة ، فهذا يزيد وينقص بحسب الأسباب ، فإنّ العبد يأمر الله الملائكة أن تكتب له رزقاً ، وإن وصل رحمه زاده الله على ذلك ، كما ثبت في الصّحيح عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : (**من سرّه أن يُبسط له في رزقه ، ويُنسأ له في أثره ، فليصل رحمه**)[3] ، وكذلك عمر داود زاد ستّين سنة ، فجعله الله مئة بعد أن كان أربعين [4] ،ومن هذا الباب قول عمر رضي الله عنه : اللّهمّ إن كنت كتبتني شقيّاً فامحني واكتبني سعيداً ، فإنّك تمحو ماتشاء وتثبت [5] ، ومن هذا الباب قوله تعالى عن نوح : ﴿ **أن اعبدوا**

---

[1] الإحسان ٣ / ١٥٣ ـ ١٥٤ ، والحديث تقدّم تخريجه ص٣٥٤ .

[2] الإحسان ٣ / ٣١٠ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الذّكر والدّعاء باب التّعوّذ من سوء القضاء .

[3] تقدّم ص ٣٥٤.

[4] أخرجه التّرمذي في التّفسير باب ومن سورة المعوذتين ، والحاكم ١ / ٦٤ ،من حديث أبي هريرة وصحّحه ووافقه الذّهبي ، ورُوي من حديث ابن عبّاس أخرجه أحمد ١ / ٢٥١ ، ٢٩٩ ، ٣٧٦ ، وفيه أنّ عمره كان ستّين فزيد أربعين .وصحّحه الألباني ، انظر السّنّة لابن أبي عاصم ح٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

[5] أخرجه الطّبري ٧ / ٤٠١ عن عمر وعن غيره من الصّحابة والتّابعين .

ا لله واتّقوه وأطيعون ، يَغْفِرْ لكم من ذنوبكم ويُؤخّرْكم إلى أجلٍ مسمّى ﴾ ، والأسباب الّتي يحصل بها الرّزق ، هي من جملة ماقدّره ا لله وكتبه)[1] .

وقال أيضاً : (الأجل أجلان ، أجلٌ مطلق يعلمه ا لله ، وأجلٌ مقيّد ، وبهذا يتبيّن معنى قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**من سرّه أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه**) ، فإنّ ا لله أمر الملك أن يكتب له أجلاً، وقال : إن وصل رحمه زدته كذا وكذا ، والملك لا يعلم أيزداد أم لا ، لكنّ ا لله يعلم ما يستقرّ عليه الأمر ، فإذا جاء ذلك لا يتقدّم ولا يتأخّر)[2] .

وقال القرطبي رحمه ا لله تعالى : (قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **ويؤخّرْكم إلى أجلٍ مسمّى** ﴾ أي ينسىء في أعماركم ، ومعناه أنّ ا لله كان قضى قبل خلقهم أنّهم إن آمنوا بارك في أعمارهم ، وإن لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب)[3] .

ويدلّ على ذلك أيضاً حادثة عمر بن الخطاب المشّهورة لّما حدث الطّاعون بالشّام واستشار النّاس هل يعود بالجيش أم يدخلها ، وانتهى به الأمر إلى أن عاد إلى المدينة ،فلمّا قال له أبو عبيدة رضي ا لله عنه : (أفراراً من قدر ا لله ياأمير المؤمنين ؟ قال له : لو غيرك قالها ياأبا عبيدة ، نفرّ من قدر ا لله إلى قدر ا لله)[4] ، فهو هنا قد جعل السّبب والمسبّب من قدر ا لله تعالى ، ولاينافي ذلك أنّ ا لله عزّ وجل تقدّم في علمه أن يعمل أحد الأمرين ويصيبه أحد القدرين ، وما في علم ا لله لا يتغيّر .

ثمّ شيءٌ آخر يُضعف تفسير الحديث على القول بالمجاز ، وهو أنّ ما ذُكِر من البركة في العمر والرّزق يقال : هل البركة هذه كانت قد كُتبت في اللّوح وعلمها ا لله؟ فما قالوا فيها لزمهم مثله في زيادة العمر والرّزق ، فكلّ ذلك راجعٌ إلى الزّيادة عمّا كتبه ا لله وقدّره ، فقد يقول لهم قائل : إنّ صلة الرّحم لا تؤثّر فيما قدّر ا لله تعالى للعبد من البركة في عمره أو عدمها ، لأنّ

---

(1) الفتاوى ٨ / ٥٤٠ .

(2) الفتاوى ٨ / ٥١٧ .

(3) تفسير القرطبي ١٨ / ١٩٤ .

(4) تقدّم ص ٧٦ .

كلّ ذلك أيضاً مُقدّرٌ ومكتوب في اللّوح المحفوظ ،لا يزيد ولا ينقص ،وكلّ ذلك مردّه إلى أنّ العبد لا يجاوز ما قُدّر له .

وفي ظني أن أصل استبعاد القول بزيادة الأجل والرّزق هو عدم استيعاب العلاقة بين القدر والشّرع وبين القدر والأسباب ، فإنّ بعض النّاس يغفل عن أمرٍ مهم ، وهو أنّ أهل السّنّة والجماعة لما أثبتوا القدر وأنّ الله عزّ وجلّ كتب مقادير الخلائق وقضاها سبحانه ،لا يعني ذلك أنّها مجموعة من الحوادث تحدث شيئاً بعد شيء هكذا لا يضبطها إلاّ كونها مكتوبة في اللّوح، بل إنّ الله عزّ وجلّ قدّر المقادير وقدّر أنّها تكون بأسباب أو بدون أسباب، ورتّب على الأسباب مسبّباتها ، فقدّر أنّ من أكل شبع وأنّ فلاناً إن أكل شبع ، وعلم سبحانه قبل أن يخلقه أنّه سيأكل فيشبع ، أو لا يأكل فيجوع ، فلا ينافي ماكُتب في اللّوح من التّقدير أو القضاء المعلّق بشرط مباشرة السّبب، ماعلم الله أنّه سيقع .

و هكذا فإنّ الشّرع المطهّر وامتثال أوامره سببٌ في دخول الجنّة، وقد قدّر الله أنّ عبده زيداً إن امتثل أوامر الله دخل الجنّة ، وإن عصاه دخل النّار وعلم ربّنا جلّ وعلا قبل أن يخلق زيداً والقلم أنّ زيداً سيطيعه ويدخل الجنة ، أو يعصيه فيدخل النّار ، ولا ينافي هذا العلمَ المتحقّق ، ذلك القضاءُ المعلّق ، كما أنّه لايُفهم منه القول بالجبر .

وقس على ذلك مسألة العمر فإنّ الله قدّر أنّ صلة الرّحم سببٌ في زيادة العمر ، وقدّر أنّ، زيداً إن وصل رحمه فإنّ عمره خمسون ، وإن لم يصل رحمه فإنّ عمره أربعون ، وعلم جلّ وعلا قبل أن يخلق زيداً والقلم أنّ زيداً سيصل رحمه وسيكون عمره خمسين ، وسيموت في السّاعة الفلانيّة ، وهكذا سائر مقادير الله تعالى .

وبهذا ينضبط الأمر وتتحقّق العلاقة في منظومة القدر والسّبب ، وبذا نعرف أنّ ما ذهب إليه ابن حبّان وإن كان له سلف وخلف ، فهو خلاف الأَوْلى، لأنّه صرفٌ عن حقيقة اللّفظ بلا دليل ،هذا أوّلاً، وثانياً : أنّ ذلك يفتح باباً عريضاً لتأويل النّصوص بناءً على الوهَم والشّبهة .

وأمّا قول ابن حبّان : إنّ قول :(أعوذ بكلمـات ا لله التّامّـات) ، يمنـع ضرر اللّدغ ولا يمنع اللّدغ ، فما الفرق بين اللّدغ في نفسه وبين ألم اللّـدغ؟، أليس كلّ ذلك بقدر ا لله تعالى ، فـإذا سلّمت أنّ قـول هـذا الكـلام يمنـع ألم اللّدغ و لايكون في ذلك دفعٌ لقضاء ا لله ، فكذلـك قـول هـذا الكـلام يدفـع نفس اللّدغ دون أن يكون ذلك دفعاً لقضـاء ا لله ، ثـمّ إنّ نفـس القـول فيـه إجمال ، فإنّ مذهب الصّحابة وسلف هذه الأمّة أنّه يجوز دفـع قـدر ا لله بقـدر ا لله ، بمعنى ماتقدّم عن عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه ، لأنّ الأخذ بالسّـبب هو من قدر ا لله تعالى أيضاً ، فمدافعة القدر بـالقدر هـو الصّحيـح علـى هـذا المعنى ،كما قال عمر لأبي عبيدة :(أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان ، إحداهما خصبة والأخرى جدبة ، أليس إن رعيـت الخصبـة رعيتهـا بقدر ا لله ،وإن رعيت الجدبة رعيتهـا بقـدر ا لله)[1] ، ومثلـه قولـه صلّـى ا لله عليه وسلّم لّما سُئل : أرأيت أدويةً نتداوى بها ، ورقىً كنّـا نرقـي بهـا ، أتـردّ من قدر ا لله ؟ قال : (**هي من قدر ا لله**)[2]، أمّا دفـع القـدر بمعنـى القـدرة عليه أو محاولة منع ما قضى ا لله وقدّر ، فهذا لاشك في بطلانـه و لايقـول بـه من له مسكة من دين أو عقل .

إذا عُرف هذا فإنّ كلّ ماتقدّم إنّما هو من باب الأخذ بالأسباب ، وقد عرفنا أنّ مذهب السّلف الصّالح أنّ الأخذ بالأسباب لا ينافي الإيمان بالقدر فإنّ الدّعاء سببٌ جعله ا لله لمنع مـاقدّر ا لله تعـالى، والدّعـاء مـن قـدر ا لله ، والـبرّ وصلة الرّحم سبب في زيـادة العمـر والـرّزق وهـي مـن قـدر ا لله ، والذّنـوب والمعاصي أسباب لحرمان العبد ماقد قُدّر له ، وهي من قـدر ا لله تعـالى أيضـاً، فالأمر إذن يدور علـى دفـع القـدر بـالقدر ، وهـو مـاثبت عـن سـلف الأمّـة رحمهم ا لله مع الإيمـان واليقـين أنّ ماسبق في علـم ا لله عـزّ وجـلّ لا يتغـيّر و لايتبدّل و لا محو فيه ، وا لله أعلم بالصّواب .

---

[1] تقدّم ص ٧٦ وفيه قول عمر ((نفر من قدر الله إلى قدر الله)).

[2] تقدّم ص ٧٥ .

(الفصل السّابع)

موقف ابن حبّان من الفرق المخالفة

.. وفيه تمهيد وخمسة مباحث :

المبحث الأوّل : موقفه من الخوارج .

المبحث الثّاني : موقفه من المعتزلة .

المبحث الثّالث : موقفه من النّواصب .

المبحث الرّابع : موقفه من الرّافضة .

المبحث الخامس : موقفه من الصّوفيّة .

موقف ابن حبّان من الفرق المخالفة

تمهيد :

كان ابن حبّان رحمه الله على منهج أهل السّنّة في التّلقّي والاتباع ، موارده الكتاب والسّنّة وما ثبت عن صحابة رسول الله رضي الله عنهم ، وهو وإن خالف هذا المنهج أحياناً ، إلاّ أنّه في الجملة متّبع ، وقد حطّ كثيراً على المخالفين لأهل السّنّة في الأصول ، وعلى الّذين حادوا عن الكتاب والسّنّة في فقههم واجتهادهم ، أو تعاملوا معها كمصادر ثانويّة ، أو لجؤوا إلى تحريفها والتّنصّل من مدلولاتها إذا هي كانت مصادمةً لأصولهم ومذاهبهم ، سواء في ذلك أبواب الاعتقاد و أبواب الفقه وغيرها .

ذمّه للبدعة

أكّد ابن حبّان كثيراً تمسّكه بالسّنّة وذمّه للخروج عن هدي المصطفى صلّى الله عليه وسلّم في أيّ أمر من الأمور ، واعتبر مخالفته استدراكاً عليه بل ومجلبةً لسخط الله تعالى وعقوبته .

قال رحمه الله تعالى : " ذِكرُ ما يجب على المرء من لزوم السّنن وحفظه نفسه عن كلّ من يأباها من أهل البدع وإن حسّنوا ذلك في عينه وزيّنوه "[1].

وقال أيضاً : " ذكر الإخبار عمّا يجب على المرء من تحرّي استعمال السّنن في أفعاله ومجانبة كلّ بدعة تباينها وتضادّها " ، ثمّ ساق حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقول في خطبته : (. . **.أمّا بعد فإنّ خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمّد صلّى الله عليه وسلّم . .**)[2] .

---

[1] الإحسان ١ / ١٨٠ .

[2] الإحسان ١ / ١٨٦ ، والحديث تقدّم ص ٢٨ .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الزّجر عن الرّغبة عن سنن المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم في أقواله وأفعاله جميعاً " ، ثمّ ساق حديث الرّهط الّذين قال أحدهم : لاأتزوّج ، وقال الآخر : لاآكل اللّحم ، وقال الثّالث : لاأنام ، فقال صلّى ا لله عليه وسلّم لّما علم بأمرهم : (**من رغب عن سنّتي فليس منّي**)[(١)] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ نفي الإيمان عمّن لم يخضع لسنن رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم أو اعترض عليها بالمقايسات المقلوبة والمخترعات الدّاحضة " ، ثمّ ساق حديث اختصام الزّبير رضي ا لله عنه والأنصاري في شراج الحرّة ، واعتراض الأنصاري على حكمه صلّى ا لله عليه وسلّم[(٢)] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الخبر الدّال على أنّ من اعترض على السّنن بالتّأويلات المضمحلّة و لم ينقد لقبولها كان من أهل البدع " ، وساق حديث أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه في قصّة الخوارج[(٣)] .

وقال أيضاً : " ذكر الزّجر عن أن يُحدث المرء في أمور المسلمين ما لم يأذن به ا لله ولا رسوله صلّى ا لله عليه وسلّم " ، وساق حديث عائشة رضي ا لله عنها مرفوعاً : (**من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو ردٌّ**) ، ثمّ أعاده وترجم له بقوله : " ذكر البيان بأنّ كلّ من أحدث في دين ا لله حكماً ليس مرجعه إلى الكتاب والسّنّة فهو مردود غير مقبول "[(٤)] .

وقال أيضاً : " ذكر إيجاب دخول النّار لمن نسب الشّيء إلى المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم وهو غير عالم بصحّته " ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**من قال عليّ مالم أقل فليتبوّأ مقعده من النّار**)[(٥)] .

---

(١) الإحسان ١ / ١٩٠ ، والحديث تقدّم ص ٢٨ .

(٢) الإحسان ١ / ٢٠٣ ، والحديث تقدّم ص ٢٩ .

(٣) الإحسان ١ ، ٢٠٥ ، والحديث تقدّم ص ٢٩ .

(٤) الإحسان ١ / ٢٠٧ - ٢٠٩ ، والحديث تقدّم ص ٣٥ .

(٥) الإحسان ١ / ٢١٠ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في العلم باب إثم من كذب على النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم ، ومسلم في المقدّمة .

تعليق :

هذه النّصوص الّتي نقلناها عنه رحمه الله تدلّ دلالة قويّة على تمسّك ابن حبّان بمنهج أهل السّنّة في الاتباع ، شأنه في ذلك شأن سائر أهل الحديث ، شديد التّأثّر بالسّنّة ، حريصٌ كلّ الحرص أن لايدخل فيها ماليس منها ، عزيزٌ عليه أن يُعرض عنها ويُطلب الهدى في غيرها ، ولذلك كان شعار أهل الحديث وميزتهم عن غيرهم : تعظيمهم لما جاء به النّصُّ من الكتاب والسّنّة ، وهيبتهم الشّديدة من التّقديم بين يدي الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم ، وخوفهم من نسبة شيءٍ من الأقوال والأفعال إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بلا علم ، وهذا معروفٌ عنهم تطفح به كتب السّنّة والتّواريخ .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : (الاقتصاد في السّنّة خير من الاجتهاد في البدعة)[1] .

وكان ابن شهاب رحمه الله يقول : (كان من مضى من علمائنا يقول : الاعتصام بالسّنّة نجاة ، والعلم يُقبض سريعاً ، فنَعَشُ العلم ثبات الدّنيا والدّين ، وذهاب العلماء ذهاب ذلك كلّه)[2] .

وحدّث ابن أبي ذئب رحمه الله بحديث فقال له قائل : ياأبا الحارث أتأخذ بهذا ؟ فضرب صدره ،وصاح بالرّجل صياحاً كثيراً ونال منه وقال : (أُحدّثك عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتقول : تأخذ به! نعم آخذ به ، وذلك الفرض عليّ وعلى من سمعه ، إنّ الله تبارك وتعالى اختار محمّداً صلّى الله عليه وسلّم من النّاس فهداهم به وعلى يديه ، واختار لهم مااختار له على لسانه ، فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين لامخرج لمسلمٍ من ذلك)[3].

---

[1] شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة ١ / ٨٦ .

[2] المصدر نفسه ١ / ٨٨ ، ونَعَشُ العلم أي : حياته وازدهاره.

[3] الحجّة للأصبهاني ١ / ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

وكان السّلف الصّالح رحمهم الله تعالى يذمّون البدعة والمبتدع أشدّ الذّمّ ويقفون للبدع بالمرصاد ، منطلقهم في ذلك ذمّه صلّى الله عليه وسلّم للبدعة ووصفها بالضّلالة وأنّ البدعة أشدّ من سائر المعاصي .

قال الأوزاعي رحمه الله : (لقي إبليس جنوده فقال : من أين تأتون بني آدم ؟ فقالوا : من كلٍّ ، قال : هل تقدرون أن تأتوهم من قبل الاستغفار ؟ قالوا : إنّا نجده مقروناً بالتّوحيد ، فقال : لآتينّهم بذنب لايستغفرون منه ، قال : فبثّ فيهم الأهواء)[1] .

وقال سفيان الثّوري رحمه الله : (البدعة أحبّ إلى إبليس من المعصية ، والمعصية يُتاب منها ، والبدعة لايُتاب منها)[2] .

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول : (لاتجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ولا تسمعوا منهم)[3] .

وقال إبراهيم بن ميسرة رحمه الله : (من وقّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام)[4] .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : (أصول السّنّة عندنا : التّمسّك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، والاقتداء بهم وترك البدع ، وكلّ بدعة فهي ضلالة ، وترك الجلوس مع أصحاب الأهواء وترك المراء والجدال والخصومات في الدّين)[5] .

والآثار في هذا الباب أكثر من أن تُذكر في مثل هذا المقام ، ولم يتخلّف أحدٌ من علماء أهل السّنّة والجماعة عن التّأكيد على هذه المعاني ، وذمّ البدع والمبتدعة على وجه العموم والخصوص .

وقد أورد ابن حبّان في كتبه ذكر بعض أشهر الفرق المخالفة على سبيل الجرح تارة ، وتارة على سبيل ردّ أقوالهم المخالفة للسّنّة ، وهذه الفرق هي :

(1) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة ١ / ١٣١-١٣٢ .

(2) المصدر السّابق ١ / ١٣٢ .

(3) المصدر السّابق ١ / ١٣٣ .

(4) المصدر السّابق ١ / ١٣٩ .

(5) المصدر السّابق ١ / ١٥٦ .

الخوارج والمعتزلة والرّوافض والنّواصب والمرجئة والصّوفيّة ، ممّا يؤكّد أنّ خروج ابن حبّان عن منهج أهل السّنّة ، وتبنّيه آراء مخالفة لمنهجهم أحياناً ، كان بحسن نيّة واجتهاد في إصابة الحقّ ، وهو في ذلك بين أجر وأجرين إن شاء الله، وهذا هوبيان كلّ من تلك الفرق الّتي تعرّض لها رحمه الله .

المبحث الأوّل :موقفه من الخوارج

لفظ الخروج في أصله يدلّ على الانشقاق والاعتزال عن الجماعة ، وإن كان بهذا المعنى علماً على فئة معيّنة ظهرت في حقبة من أحقاب التّاريخ الإسلامي ، وكان سبب خروج هذه الفئة ، أنّه لمّا حصل الاختلاف بين عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما ، وقامت بينهما الحرب مع من شايعهما ، أوشك النّصر أن يكون حليف عليّ رضي الله عنه ، فلجأ معاوية إلى حيلة لوقف القتال ، فنادى هو وأصحابه إلى التّحاكم إلى كتاب الله ، ورفعوا المصاحف على أسنّة الرّماح ،أمّا عليٌّ فكان رضي الله عنه يرى مواصلة القتال ، وأمّا أصحابه فمنهم من رأى وقف القتال والنّزول على التّحكيم ، واستدلّ بقوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الّذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثمّ يتولّى فريقٌ منهم وهم معرضون** ﴾: **آل عمران ٢٣** ، ومنهم من مال إلى رأي عليّ رضي الله عنه ورأى عدم التّوقّف عن القتال ، ولكنّ الأوّلين كثيرون فأُجبر عليّ رضي الله عنه على التّوقّف ، وحصل ما حصل من تحكيم أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص رضي الله عنهما، فاتّفقا على عزل عليٍّ ومعاوية ، فلمّا ظهرا لإعلان الحكم ، عزل أبو موسى عليّاً ، وأمّا عمروٌ فأثبت معاوية ،كما ذكره ابن كثير ، عند ذلك اعتزلت فئة القتال مع الفريقين ، ومعظمهم من الّذين أصرّوا على وقف القتال فكفّروا عليّاً ومعاوية ومن معهما، وتجمّعوا بمكان يُقال له النّهروان ، فناظرهم عليّ رضي الله عنه وأرسل إليهم ابن عبّاس رضي الله عنهما وأرادهم على الرّجوع عن آرائهم والدّخول في جماعة المسلمين ، فرجع منهم من رجع وبقي أكثرهم مصرّين على الخروج ، وطلبوا منه التّوبة من الكفر - بزعمهم — واحتجّوا على إكفار الصّحابة بشبه واهية ، فلم يبدأهم عليٌّ بقتال حتّى بدأوا هم بقطع الطّريق واستحلال دماء المسلمين ، وسبي نسائهم ، وقتلوا عبد الله بن خبّاب ابن الأرتّ، وبقروا بطن جاريته عن طفلها ، فعند ذلك مال عليهم أسد قريش رضي الله عنه فأباد خضراءهم ، وقتلهم عن بكرة أبيهم

ولم ينجُ منهم إلاّ نفر أقلّ من العشرة ، وذلك في معركة النّهروان المشهورة عام ٣٧ هـ [(١)].

ولكنّ أولئك النّفر الّذين فرّوا كانوا نواة تجمّعات متلاحقة من هذه الفرقة الّتي مازالت شوكةً في جنب الدّولة الإسلاميّة منذ عهد بني أميّة ، ثمّ الدّولة العبّاسيّة ، وقصص الخلفاء والأمراء وحروبهم مع الخوارج ملأت كتب التّاريخ والأدب .

هذا ملخّص سبب خروج هذه الفرقة وظهورها في السّاحة الفكريّة والسّياسيّة ، وهي وإن كان خروجها في هذه الفترة ، إلاّ أنّ بعض المؤرّخين يعودون ببدء ظهورهم إلى زمن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، فقد ورد ذكرهم في أحاديث كثيرة صحيحة مشهورة ، حتّى قال الإمام أحمد : (صحّ الحديث فيهم من عشرة أوجه)[(٢)] ، وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله بعد أن ذكر عدد رواة حديث الخوارج : (فهؤلاء خمسة وعشرون نفساً من الصّحابة ، والطّرق إلى كثرتهم متعدّدة كعليّ وأبي سعيد وعبدالله بن عمر وأبي برزة وأبي ذر ، فيفيد مجموع خبرهما القطع بصحّة ذلك عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم)[(٣)] .

وممّا جاء فيهم مارواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : **بينا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقسم ، جاء عبدالله بن ذي الخويصرة التّميمي فقال : اعدل يارسول الله ، فقال : ويلك ، ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ قال عمر بن الخطّاب : دعني أضرب عنقه ، قال : دعه فإنّ له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدّين كما يمرق السّهم من الرّميّة ، ينظر في قذذه فلايوجد فيه شيء ، ثمّ ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ، ثمّ ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء ، ثمّ ينظر إلى نضيّه فلايوجد فيه شيء ، قد سبق الفرث والدّم ، آيتهم رجل إحدى يديه**

---

(١) انظر البداية والنّهاية ٧ / ٢٤٤ ـ ٢٩٤ ، حوادث سنة ٣٧ هـ .

(٢) السّنّة للخلاّل ١ / ١٤٥ غير أن ذلك لا يعني أن ظهورهم كان قبل زمن علي وقد قال صلى الله عليه وسلم (سيخرج).

(٣) فتح الباري ١٢ / ٣٠٢ .

ـ أو قال : ثدييه ـ مثل ثدي المرأة ، أو قال : مثل البضعة تدردر ، يخرجون على حين فرقة من النّاس ، قال أبوسعيد : أشهد أنّي سمعت هذا من النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وأشهد أنّ عليّاً قتلهم وأنا معه ، جيء بالرّجل على النّعت الّذي نعت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، فنزلت فيه : ﴿ **ومنهم من يلمزك في الصّدقات** ﴾[1] .

ومع ذلك فإنّ الخروج والخوارج ليس مذهباً محصوراً وُجد في زمن من الأزمان ، بل هو تيّار فكريّ عقدي لم يزل موجوداً منذ ظهورهم ، فكلّ من اعتنق أفكار الخوارج فهو خارجيّ أيّاً كان عصره [2] .

والخوارج عموماً يجمعهم عددٌ من المبادىء الّتي يلتقون عليها ومن أهمّها وأعظمها ، التّبرّؤ من عليّ ومعاوية وعثمان وتكفيرهم وكذلك سائر الصّحابة الّذين شاركوا في القتال ، وتكفير مرتكب الكبيرة بل يكفّرون كلّ من خالفهم في شيء من مذاهبهم ويوجبون على النّاس الهجرة إليهم ويكفّرون القعدة عن مشاركتهم ، ويوجبون الخروج على أئمّة الجور بالسّلاح ، ومن ثمّ استباحوا دماء المسلمين وأموالهم ونساءهم ، ولهم أقوال أخرى شاركوا بها بعض الفرق الأخرى ، وسأتناول هنا مذهبهم في الخروج على أئمّة الجور ، وتكفيرهم للمخالف ، وأمّا تكفيرهم للصّحابة فبطلانه وظهور فساده ومخالفته الصّريحة للكتاب والسّنّة تغني عن الخوض في الرّدّ عليه ، وأمّا تكفير مرتكب الكبيرة فقد سبق الكلام عليه في مسائل الإيمان [3] .

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدّين باب من ترك قتال الخوارج للتّألّف ، القذذ : ريش السّهم ، واحدتها قذّة ، والنّصل : رأس السّهم ، والرّصاف : عقبٌ يُلوى على مدخل النّصل فيه ، والنّضيّ : هو السّهم قبل أن يُنحت ، انظر النّهاية ، ٢ / ٢٢٧ ، و ٤ / ٢٨ ، و ٥ / ٧٣ .

(2) الملل والنّحل للشّهرستاني ١ / ١٠٥ .

(3) نشير هنا إلى أنّ الإباضيّة هي أقرب فرق الخوارج إلى أهل السّنّة من حيث اعتدال أفكارهم بالنّسبة لمن سواهم ، ومع أنّ رؤوس هذه الفرقة تنكر انتسابها إلى الخوارج ، إلاّ أنّ الشّواهد التّاريخيّة تثبت بما لايدع مجالاً للشّكّ ، أنّ الإباضيّة امتداد للخوارج ، مع اعتدال ملحوظ في بعض الجوانب الفكريّة ، الشّيء الّذي وفّر لهم بقاء واستقراراً على مدى الأزمنة الّتي عاشوا فيها ، تمكّنوا فيها من إثراء ساحتهم الفكريّة وتهذيب منهجهم المرّة بعد المرّة ولكنّهم مع ذلك ما زالوا يحتفظون بسمتهم الخارجيّة ، وتأثّرهم ببعض عقائد المعتزلة ، انظر دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ، الحديث . أحمد جلّي ص٨١ وما بعدها .

الخروج على الأئمّة بالسّلاح :

المقصود بأئمّة الجوْر : ولاة الأمر الّذين وُجدوا في منصب الولاية العظمى ، أو المقيّدة بأيّ طريقة كانت ، وكان من شأنهم أن جاروا وظلموا واستأثروا بالأموال العامّة والحقوق ، ولم يؤدّوا الأمانة الّتي تحمّلوها لمن تحت أيديهم من الرّعيّة ، ولم يقوموا بحقوقهم ، إلاّ أنّهم مع ذلك يشملهم اسم الإسلام ، فهم مسلمون في الجملة ، ولم يتلبّسوا بناقض : فدين الله المحكم الّذي جاء به محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم يأمر بالصّبر على جور الأئمّة وظلمهم ، والسّمع والطّاعة لهم في غير معصية ، مهما بلغ تعدّيهم وتجاوزهم ، ماداموا على الإسلام ، هذا الّذي أُثر عن عامّة الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم، وهومنهج أهل السّنّة والجماعة.

وهذا المنهج له أدلّته الكثيرة من الكتاب والسّنّة ، قال الله عزّ وجلّ : **﴿ ياأيّها الّذين آمنوا أطيعو الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم ﴾ : النّساء ٥٩.**

وقال صلّى الله عليه وسلّم لأبي ذر : (**اسمع وأطع ولو لعبدٍ حبشيّ كأنّ رأسه زبيبة**)[١] .

وقال أيضاً : (**إنّها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها ، فقالوا : يارسول الله ، كيف تأمر من أدرك ذلك منّا ؟ قال : تؤدّون الحقّ الّذي عليكم ، وتسألون الله الّذي لكم**)[٢] .

وقال عليه الصّلاة والسّلام : (**يكون بعدي أئمّةٌ لايهتدون بهداي ، ولايستنّون بسنّتي ، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشّياطين في جثمان إنس ، قال : قلت : كيف أصنع يارسول الله ؟ قال : تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع**)[٣] .

---

[١] أخرجه البخاري في الأحكام باب السّمع والطّاعة للإمام ، ومسلم في الإمارةباب وُجوب طاعة الأمراء في غير معصية ، عن أنس رضي الله عنه .

[٢] البخاري في الفتن باب قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : (**سترون بعدي أموراً تنكرونها**) ، ومسلم في الإمارةباب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأوّل فالأوّل عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

[٣] أخرجه مسلم في الإمارةباب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ، عن حذيفة رضي الله عنه .

والشّريعة الإسلاميّة الغرّاء حين أحكمت هذا الحكم وأكّدت عليه ، فلما فيه من حفظ دماء المسلمين وأموالهم ، فإنّ الخروج على الإمام أو الأمير يعني قيام فتن لانهاية لها ، واختلاط الحابل بالنّابل ، وفقدان الثّقة بين الحاكم والمحكوم ، واستحلال الدّماء والأموال والأعراض في سبيل القضاء على مفسدة ، لاتلبث أن ينهيها الله من عنده ، فيجرّ هذا الخروج إلى مفاسد أضعاف ماهو مراد من الخروج ، وفي هذا منافاة للأصول العامّة في إنكار المنكر ، وللفقه الشّرعي السّلفي الّذي يُقدّم درء المفاسد على جلب المصالح ، ودفع أعظم المفسدتين بأدناهما .

وهذا الّذي ذكرناه هو منهج أهل السّنّة والجماعة ، وما حدث من بعض علماء أهل السّنّة من الخروج على بعض الولاة لايعدو أن يكون اجتهاداً منهم حكمته الظّروف الّتي أحاطت بهم ، وإلاّ فالتّاريخ شاهدٌ لصحّة منهج أهل السّنّة ، فكم من دمٍ سُفك ، وكم من عرض انتُهِك ، وكم من أموال استُبيحت بتأويل الخروج ، أو قمع الخارجين .

أمّا الخوارج فإنّهم يرون الخروج على أئمّة الجور أهمّ أصول الدّيانة [(١)] ، ومثلهم المعتزلة ، ويسمّون ذلك : الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، ويستدلّون له بأدلّة عامّة من الكتاب والسّنّة ، كقوله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ : آل عمران ١٠٤، وقوله صلّى الله عليه وسلّم : (**من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه**)[(٢)] ، وقوله : (**إنّ النّاس إذا رأوا الظّالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم الله بعذاب من عنده**).[(٣)]

وهذه العمومات لا يُسلّم لهم الاستدلال بها ، لما ورد في خصوص الأئمّة من النّصوص الّتي تُعتبر نصّاً قاطعاً في المسألة ، قدّمنا بعضها ، ونذكر هنا قول

---

(١) انظر مقالات الإسلاميّين ١ / ٢٠٤ ، والفصل لابن حزم ٥ / ٢٠ .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان باب بيان كون النّهي عن المنكر من الإيمان ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) أخرجه أحمد ١ / ٢ ، ٥ ، وأبوداود في الملاحم باب الأمر والنّهي ، والتّرمذي في الفتن باب ماجاء في نزول العذاب إذا لم يُغيّر المنكر ، وابن ماجة في الفتن باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، عن أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه .

عبادة بن الصّامت رضي الله عنه : (بايعنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على السّمع والطّاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى أَثَرَةٍ علينا ، وعلى أن لاننازع الأمر أهله إلاّ أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان)[1] ، وقوله صلّى الله عليه وسلّم : (**من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر ، فإنّه من فارق الجماعة شبراً فمات ، مات ميتةً جاهليّة**)[2] .

وفي حديث عوف بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : (**خيار أئمّتكم الّذين تحبّونهم ويحبّونكم ، وتصلّون عليهم ويصلّون عليكم ، وشرار أئمّتكم الّذين تلعنونهم ويلعنونكم ، وتبغضونهم ويبغضونكم ، قلنا : يارسول الله ، أفلا ننابذهم ؟ قال : لا ما أقاموا فيكم الصّلاة ، ألا من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ، ولاينزعنّ يداً من طاعة**)[3] .

إذا عُرف هذا بطُلت تمويهات الخوارج والمعتزلة ، وشرود ابن حزم ومن وافقه بالأدلّة وذهابهم بها مذهباً بعيداً عن الصّواب ، ومحاولة الاستدلال بالأدلّة العامّة في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وتحريم الظّلم ، وعلى فضيلة القيام بالاحتساب على الأئمّة ونصحهم ، كلّ ذلك مقيّد ومشروط بشروط شرعيّة ، أهمّها أن لايترتّب على العمل حصول مفسدة أعظم ، أو القضاء على مصلحة ظاهرة راجحة ، قال الإمام أحمد رحمه الله : (والجهاد ماضٍ قائمٌ مع الأئمّة برّوا أو فجروا لايبطله جور جائر ولا عدل عادل ، والجمعة والعيدان والحجّ مع السّلطان وإن لم يكونوا بررة عدولاً أتقياء ، ودفع الصّدقات والخراج والعشور والفيء والغنائم إلى الأمراء عدلوا فيها أم جاروا ، والانقياد إلى من ولاّه الله أمركم لاتنزع يداً من طاعته ، ولا تخرج عليه بسيفك حتّى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً ، ولاتخرج على السّلطان ، وتسمع

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام باب كيف يبايع الإمام النّاس ، ومسلم في الإمارةباب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام باب السّمع والطّاعة للإمام مالم تكن معصية ، ومسلم في الإمارةباب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارةباب خيار الأئمّة وشرارهم .

وتطيع ، ولاتنكث بيعة ، فمن فعل فهو مبتدعٌ مخالفٌ مفارقٌ للجماعة ، وإن أمرك السّلطان بأمر هو معصية فليس لك أن تطيعه البتّة ، وليس لك أن تخرج عليه وتمنعه حقّه)[1] .

وينبغي الإشارة هنا إلى أنّه ينبغي التّفريق بين الخروج من أجل تغيير الحكم أو الحاكم ، وبين قتال الطّائفة أو الرّجل من النّاس دفاعاً عن نفسه وعرضه ، فلو حاول وال من الولاة الاعتداء على فرد أو جماعة في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم ظلماً وعدواناً ، فيُشرع لهم في هذه الحالة أن يدفعوا عن أنفسهم بما يندفع به شرّه ولو كان لايندفع إلاّ بالسّيف ، فهذا لايُعدُّ خروجاً بل هو دفاع عن النّفس ، وهو داخل في قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**من قُتل دون ماله فهو شهيد**)[2] ، وهو فهم عبدا لله بن عمرو رضي ا لله عنه ، فإنّ عامل معاوية على مكّة والمدينة، وهو عنبسة بن أبي سفيان أراد أن يخرق حائطاً لآل عمرو بن العاص ، فخرج إليه عبدا لله بمواليه ليقاتله ، ويُشكل عليه أنّ ابن حجر حكى عن ابن المنذر أنّ علماء الحديث كالمجمعين على استثناء السّلطان ، للأدلّة الواردة في الصّبر على أذاه[3] ، ولكنّ الّذي يظهر من الأدلّة المذكورة أنّها لاتعارض ما ذهب إليه ابن عمرو ، لأنّ المحذور هو الخروج على الولاة لتغييرهم ، فالمراد هو نفس السّلطان ، وأمّا في ردّ الظّلم عن النّفس ، فالمراد دفع الصّائل ، ولايقول أحد بحرمة الدّفاع عن النّفس ضدّ من أراد الاعتداء عليه ، خصوصاً أنّ المفاسد الّتي في الخروج لاتتحقّق هنا لأنّ الأمر في هذه الحال حقّ شخصي لايتعدّى ضرره إلاّ على المُعتدى عليه إن هو أصرّ على الدّفاع عن نفسه ، وهو قادر على ردّه عن نفسه ،بعكس الخروج ففتنته عامّة ، إلاّ أن يرى المظلوم أنّ في دفاعه عن نفسه فتحاً لباب فتنة أعظم ، فحينئذٍ قد يُشرع له الصّبر ، كما فعل عثمان بن عفّان رضي ا لله عنه ،

---

(1) طبقات الحنابلة ١ / ٢٦ ـ ٢٧ .

(2) أخرجه البخاري في المظالم باب من قتل دون ماله .

(3) الفتح ٥ / ١٢٤ .

والأمر محتمل ، وإن كان ترجيح الصّبر على الظّلم هو الأولى ، لما فيه من درء المفسدة المحتملة [1] ، والله تعالى أعلم بالصّواب.

تكفير المخالف :

وأمّا تكفير المخالف فهو منهج عامّة الفرق المخالفة لأهل السّنّة والجماعة ، ولكنّ سلفهم في هذا المنهج هم الخوارج ، فهم الّذين رسموا الطّريق لمن بعدهم ، وهم أشدّ أهل البدع تمسّكاً به ، وأكتفي هنا بنقل كلام شيخ الإسلام ابن تيميّة بهذا الخصوص ، قال رحمه الله : (والخوارج هم أوّل من كفّر المسلمين ، يكفّرون بالذّنوب ويكفّرون من خالفهم في بدعتهم ، ويستحلّون دمه وماله ، وهذه حال أهل البدع ، يبتدعون بدعةً ويكفّرون من خالفهم فيها ...ولايجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه كالمسائل الّتي تنازع فيها أهل القبلة ...والخوارج المارقون الّذين أمر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بقتالهم وقاتلهم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، واتّفق على قتالهم أئمّة الدّين ، ولم يكفّرهم عليّ وسعد بن أبي وقّاص رضي الله عنهما وغيرهما من الصّحابة ، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم ... وإذا كان هؤلاء الّذين ثبت ضلالهم بالنّص والإجماع لم يكفروا ، مع أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقتالهم ، فكيف بالطّوائف المختلفين الّذين أشتبه عليهم الحقّ في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم ، فلا يحلّ لأحدٍ من هذه الطّوائف أن تكفّر الأخرى ولا تستحلّ دمها ومالها ... فكيف إذا كانت المُكفِّرة لها مبتدعةً أيضاً ...والأصل أنّ دماء المسلمين وأموالهم محرّمة من بعضهم على بعض ، لاتحلّ إلاّ بإذن الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم ...وإذا كان المسلم متأوّلاً في القتال والتّكفير لم يكفر بذلك ، كما قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه لحاطب بن أبي بلتعة : دعني يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق [2] ، وفي حديث الإفك قال أسيد بن الحضير لسعد بن عبادة

---

[1] وفي كلتا الحالتين فإنّ المدافع عن نفسه لايكون خارجيّاً بحال من الأحوال ، وبذلك تعرف خطأ من عدّ المدافعين عن أعراضهم وأنفسهم ضدّ طغاة الأرض خوارج .

[2] أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة أحد ، ومسلم في فضائل الصّحابة باب من فضائل أهل بدر ، وحاطب هو ابن أبي بلتعة عمرو بن عمير بن سلمة ، من مشاهير المهاجرين ، شهد بدراً والمشاهد ، توفّي سنة ٣٠ هـ ، الإصابة ٢ / ٤.

: إنّك منافق تجادل عن المنافقين[١] ، ولم يكفّر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لاهذا ولا هذا بل شهد للجميع بالجنّة ...وهكذا السّلف قاتل بعضهم بعضاً من أهل الجمل وصفّين ونحوهم وكلّهم مسلمون مؤمنون ...وكانوا مع اقتتالهم يوالي بعضهم بعضاً موالاة المؤمنين ، ولايعادون كمعاداة الكفّار ، فيقبل بعضهم شهادة بعض ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض)[٢] .

وقد عرّض ابن حبّان بذكر الخوارج الحروريّة عند إيراده الأخبار الواردة فيهم ، قال رحمه الله : " ذِكرُ الإخبار عن خروج الحروريّة الّتي خرجت في أوّل الإسلام " ، وساق حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : (**يخرج قوم فيكم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، وعملكم مع عملهم ، يقرؤون القرآن لايجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدّين كما يمرق السّهم من الرّميّة**)[٣] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار بأنّ الحروريّة هم من شرار الخلق عند الله جلّ وعلا " ، وساق الحديث المتقدّم من رواية أبي ذر وفيه : (**هم شرّ الخلق والخليقة**)[٤] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الأمر بقتل الحروريّة إذا خرجت تريد شقّ عصا المسلمين " ، وساق حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بمعنى حديث أبي سعيد وفيه : (**فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنّ قتلهم أجرٌ لمن قتلهم يوم القيامة**)[٥] .

---

[١] أخرجه البخاري في المغازي باب حديث الإفك ، ومسلم في التّوبة باب حديث الإفك .

[٢] الفتاوى ٣ / ٢٧٨ - ٢٨٨ ، ملخّصاً .

[٣] الإحسان ١٥ / ١٣٢ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في استتابة المرتدّين باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجّة عليهم ، ومسلم في الزّكاة باب ذكر الخوارج وصفاتهم .

[٤] الإحسان ١٥ / ١٣٥ والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الزّكاة باب الخوارج شرّ الخلق والخليقة .

[٥] الإحسان ١٥ / ١٣٦ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في فضائل القرآن باب إثم من راءى بقراءة القرآن ، ومسلم في الزّكاة باب التّحريض على قتل الخوارج .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار عن خروج أهل النّهروان على الإمام وشقّ عصا المسلمين " ، وساق حديث أبي سعيد المتقدّم بلفظ مختصر [1] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار عن وصف الشّيء الّذي يُستدلّ به على مروق أهل النّهروان من الإسلام " ، ثمّ ساق حديث أبي سعيد المتقدّم ذكره وفيه : (**يمرقون من الإسلام كما يمرق السّهم من الرّميّة ينظر إلى نصْله فلا يوجد فيه شيء ، ثمّ ينظر إلى رِصافه فلا يوجد فيه شيء ، ثمّ ينظر إلى نَضيّه فلايوجد فيه شيء ، ثمّ ينظر إلى قَذَذِه فلايوجد فيه شيء ، سبق الفرث والدّم ، آيتهم رجل إحدى يديه : أو قال : ثدييه : مثل ثدي المرأة ، أو قال: مثل البضعة تدردر ، يخرجون على حين فرقة من النّاس**)[2] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الإخبار بأنّ الخوارج من أبغض خلق ا لله جلّ وعلا إليه " ، وساق حديث أبي رافع مولى رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم عن الحروريّة لّما خرجت على عليّ وفيه أنّهم من أبغض خلق ا لله إليه [3] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ الزّجر عن الخروج على الأئمّة بالسّلاح وإن جاروا"، وساق حديث سلمة بن الأكوع مرفوعاً : (**من حمل علينا السّلاح فليس منّا**)[4] .

وفي ترجمة أخرى لنفس الحديث قال:" ذِكرُ ما يجب على المرء من ترك الخروج على الأمراء وإن جاروا "[5] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الزّجر عن الخروج على أمراء السّوء وإن جاروا بعد أن يكره بالجنان ما يأتون " ، وساق حديث عوف بن مالك مرفوعاً وفيه: (**ألا ومن له والٍ فيراه يأتي شيئاً من معصية ا لله فليكره ما يأتي من معصية ا لله ولا ينزع يداً من طاعة**)[6] .

---

(1) الإحسان ١٥ / ١٣٨ .

(2) الإحسان ١٥ / ١٤٠ - ١٤١ والحديث تقدّم ص٣٦٦-٣٦٧.

(3) الإحسان ١٥ / ٣٨٧ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الزّكاة باب التّحريض على قتل الخوارج .

(4) الإحسان ١٠ / ٤٤٨ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الإيمان باب قول النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم : (**من حمل علينا السّلاح فليس منّا**) .

(5) الإحسان ١٠ / ٤٥٠ .

(6) الإحسان ١٠ / ٤٤٩ ، والحديث تقدّم ص٣٧٠.

تعليق :

هذا ماأورده ابن حبّان عن الحروريّة بوجه عام ، والأحاديث الّتي ذكرها كلّها صحيحة مخرّجة في كتب السّنّة المشهورة كالصّحيحين وغيرهما ، ومنهج أهل السّنّة أنّ الخوارج من أهل البدع الخارجين على السّنّة لا شكّ في ذلك ولاريب ، وقد اختلفوا هل هم كفّار خارجون عن الثّنتين وسبعين فرقة أم أنّهم يشملهم حكم الإسلام ولايكفّرون ؟ .

الّذي عليه الجمهور وهو مذهب الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم على الصّحيح أنّهم ليسوا بكفّار [1] ، بل هم فسّاقٌ ببدعتهم ، وقد حاول بعض من كتب عنهم تكفيرهم* واتّخذهم قنطرةً إلى إلغاء الجهل والتّأويل كعذر مانع من الحكم بالكفر على المعيّن ، وهي محاولة بائسة ، وذلك أنّ هذه الأحكام العامّة وإن صحّت من حيث عدم قبول عذر الجهل لمن وقع في المكفّرات بعد قيام الحجّة ، إلاّ أنّ الّذي لامحيد عنه أنّ الله عزّ وجلّ لا يعذّب من بذل وسعه وطاقته في إصابة الحقّ ، حتّى لو أوقعه اجتهاده في المخالفة أيّاً كانت ، ولو كانت في ظاهرها كفراً با لله تعالى ، والنّصوص في إعذار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للمتأوّلين كثيرة، كإعذاره لأسامة لمّا قتل المشرك الّذي أسلم خوف القتل [2] ، وعذره صلّى الله عليه وسلّم للّذين قالوا له : اجعل لنا ذات أنواط [3] ، ومنها عذره لمن سجد له ظنّاً منه أنّ ذلك من تعظيم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الواجب [4] ، ومنها قصّة الرّجل الّذي شكّ في قدرة الله جلّ وعلا وأمر أولاده أن يحرقوه ، فغفر الله له لخوفه من الله[5] ، والمجال هنا ليس مجال تفصيل هذه المسألة وإنّما المراد أنّ تكلّف الاستدلال على كفر الخوارج واتّخاذ ذلك دليلاً على عدم العذر بالجهل لايصحّ ، وما

---

(1) انظر فتح الباري ١٢ / ٢٩٩ ، وما بعدها، والفتاوى ٣ / ٢٨٢ .

(2) أخرجه البخاري في الدّيّات باب ﴿ومن أحياها﴾ ومسلم في الإيمان باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال : لاإله إلاّ الله .

(3) أخرجه أحمد ٥ / ٢١٨ ، والتّرمذي في الفتن باب ماجاء لتركبنّ سنن من كان قبلكم عن أبي واقد اللّيثي ، وصحّحه الألباني في السّنّة لابن أبي عاصم ح٧٦ .

(4) ورد عن معاذ رضي الله عنه وقيس بن سعد ، انظر كفاية الكلام عن طرقه واسانيده في الإرواء للألباني ح١٩٩٨ .

(5) تقدّم ص٢٢٤ .

أجمل ماروى الذّهبي رحمه ا لله عن زاهر بن أحمد السّرخسي قال : لّما قرب حضور أجل أبي الحسن الأشعري في داري*ببغداد ، دعاني فأتيته فقال : اشهد عليّ أنّي لاأكفّر أحداً من أهل القبلة ، لأنّ الكلّ يشيرون إلى معبودٍ واحد ، وإنّما هذا كلّه اختلاف العبارات ، قال الذّهبي : وبنحو هذا أدين ، وكذا كان شيخنا ابن تيميّة في أواخر أيّامه يقول : أنا لاأكفّر أحداً من الأمّة .

ويقول : قال النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم : (**لايحافظ على الوضوء إلاّ مؤمن)** [1] ، فمن لازم الصّلوات بوضوء فهو مسلم)[2] ، ولايُفهم من كلام هؤلاء الأئمّة الجبال أنّهم لايكفّرون أهل البدع الغليظة كالتّجهّم وغلاة القدريّة وغلاة المرجئة ، وغلاة الرّافضة الّذين في أقوالهم من الكفر الصّريح ما هو معلوم من الدّين بالضّرورة ، وإنّما مرادهم البدع الّتي فيها اشتباه وأمرها محتمل ، كبدع الخوارج والمعتزلة والأشاعرة والكلاّبيّة، وبهذا فإنّ الخوارج على الصّحيح ليسوا بكفّار ، وإنّما هم فسّاق ببدعتهم ، ولهذا لّما سُئل عليّ بن أبي طالب رضي ا لله عنه عنهم : أكفّارٌ هم ؟ قال : من الشّرك فرّوا ، وقال : إخواننا بغوا علينا [3] .

ولاشكّ أنّ الأحاديث الّتي ساقها ابن حبّان دالّةٌ على عظم بدعتهم وخطورتها ، ولذلك أغلظ رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم القول فيهم ، وأمر بقتلهم وقتالهم ، وجعل من قتلوه شهيداً ، ، ومن قتلهم كان له الأجر العظيم عند ا لله تعالى يوم القيامة .

وأمّا ابن حبّان فيُفهم من قوله : " ذكر الأمر الّذي يُستدلّ به على مروق أهل النّهروان من الإسلام " أنّه يرى كفرهم وخروجهم عن الإسلام ، وهذه مسألة فيها ما قدّمنا ذكره ، وممّن يُفهم من تصرّفه القول بكفرهم ، الإمام البخاري رحمه ا لله حيث قال في ترجمة الباب : (باب قتل الخوارج والملحدين

[1] أخرجه أحمد ٥ / ٢٨٢ ، ، ٢٧٦ ، وابن ماجة في الطّهارة باب المحافظة على الوضوء ، والحاكم ١ / ١٣٠ عن ثوبان رضي ا لله عنه وصحّحه الألباني في صحيح التّرغيب ١ / ١٥٨ .

[2] السّير ١٥ / ٨٨ .

[3] مصنّف ابن أبي شيبة ح٣٧٩٢٩ .

* كذا في السير ولعله (في داره) .

بعد إقامة الحجّة عليهم)[١] ، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : (وهو مقتضى صنيع البخاري حيث قرنهم بالملحدين ، وأفرد عنهم المتأوّلين بترجمة)[٢] .

وكذلك ذهب إلى كفرهم القاضي بن العربي المالكي في شرح التّرمذي حيث قال رحمه الله : (الصّحيح أنّهم كفّار)[٣] ، وكذلك تقيّ الدّين السّبكي[٤] .

واستدلّ ابن حبّان على مروقهم من الإسلام : كما عبّر هو : بما استدلّ غيره ، وهو قوله صلّى الله عليه وسلّم في الحديث :(**يمرقون من الإسلام كما يمرق السّهم من الرّميّة**) ، والأظهر أنّ المراد منه أنّهم لايفقهون من الإسلام والعلم شيئاً ، أي لايتعلّق بهم من أثر العلم والفقه في الدّين شيء .

قال البغوي رحمه الله : (يمرقون من الدّين : أي من طاعة الأئمّة، والدّين الطّاعة ، وهذا نعت الخوارج الّذين لايدينون للأئمّة ويستعرضون النّاس بالسّيف)[٥] .

ولهذا رفض الإمام أحمد القول بكفرهم ، واكتفى بما لفظ به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، فقد سُئل رحمه الله عنهم ، أكفّار هم ؟ قال : (هم مارقة مرقوا من الدّين ، وقيل له : يكفرون وترى قتالهم ؟ قال : اعفني من هذا وقل كما جاء فيهم الحديث)[٦] .

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله : (فإنّ الأمّة متّفقون على ذمّ الخوارج وتضليلهم ، وإنّما تنازعوا في تكفيرهم على قولين مشهورين في مذهب مالك وأحمد ، وفي مذهب الشّافعي نزاعٌ أيضاً في كفرهم ، ولهذا كان فيهم وجهان في مذهب أحمد وغيره على الطّريقة الأولى، أحدهما : أنّهم بغاة ، والثّاني : أنّهم كفّار كالمرتدّين يجوز قتلهم ابتداءً وقتل أسيرهم ...

---

(١) كتاب استتابة المرتدّين .

(٢) فتح الباري ١٢ / ٢٩٩ .

(٣) عارضة الأحوذي ٥ / ١٤٦ .

(٤) الفتح ١٢ / ٣٠٠ .

(٥) شرح السّنّة ١٠ / ٢٢٦ .

(٦) السّنّة للخلاّل ١ / ١٤٥ - ١٤٦ .

فكلام عليّ وغيره في الخوارج يقتضي أنّهم ليسوا كفّاراً كالمرتدّين عن أصل الإسلام ، وهذا هو المنصوص عن الأئمّة كأحمد وغيره)[1] .

وكلام الشّافعي في الأمّ يدلّ على اختياره عدم كفرهم حيث يقول من كلام طويل : (ولو أنّ قوماً أظهروا قول الخوارج واعتزلوا جماعات النّاس وكفّروهم ، لم يحلل بذلك قتالهم لأنّهم على حرمة الإيمان ، ولم يصيروا إلى الحال الّتي أمر الله عزّ وجلّ بقتالهم فيها) ثمّ استدلّ بقصّة عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه معهم [2] .

والنّصوص الشّرعيّة تدلّ على ذلك ، فإنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يصرّح بكفرهم ، ولو كان المراد بالمروق الكفر لما منع خالداً وعمر رضي الله عنهما من قتل رأسهم وإمامهم ، بل منعهم بعصمة دمه بالإيمان الظّاهر ، وإن كان قد يأتي من الخارجي مايخرجه عن الملّة ، إلاّ أنّ الأحكام العامّة تختلف عن الحكم على معيّن ، والحكم بدخول النّار والوعيد لهم بها أعمّ من دعوى الكفر وهذا معلوم لاشكّ فيه .

قال الإمام الذّهبي رحمه الله : (بلى الخوارج كلاب النّار وشرّ قتلى تحت أديم السّماء لأنّهم مرقوا من الإسلام ، ثمّ لاندري مصيرهم إلى ماذا ، ولانحكم عليهم بخلود النّار ، بل نقف)[3] ، وقال أيضاً : (فالخوارج كلاب النّار ، وقد مرقوا من الدّين ، ومع هذا فلانقطع لهم بخلود النّار كما نقطع به لعبدة الأصنام والصّلبان)[4] .

وبهذا يتّضح أنّ ابن حبّان وافق أهل السّنّة والجماعة في النّهي عن الخروج على أئمّة الجور ، والأمر بلزوم طاعتهم في غير معصية الله، وأمّا القول بكفر الخوارج فهو مخالفٌ للصّواب ، وابن حبّان إن كان يرى كفرهم فله سلف ، والمسألة فيها خلاف ، والنّصوص تحتمله ، وإن كان الوقوف على النّصّ أولى من خوض مفازة التّكفير ، والله أعلم .

---

(1) الفتاوى ٢٨ / ٥١٨ .
(2) الأم ٤ / ٣٠٩ .
(3) السّير ١ / ٦٣ .
(4) السّير ٣ / ١٢٨ .

المبحث الثّاني : موقفه من المعتزلة

الاعتزال لغةً : التّنحّي والانفراد عن الغير [١] ، والمعتزلة : هي الفرقة الّتي ظهرت في أوائل القرن الثّاني ، وسلكت المنهج العقلي في بحث العقائد والأصول الإسلاميّة .

وأوّل من عُرف بالاعتزال أو مؤسّس هذه المدرسة هو واصل بن عطاء الغزّال[٢] الّذي اعتزل مجلس الحسن البصري رحمه الله وأخذ يقرّر مذهبه في حكم مرتكب الكبيرة ، فقال الحسن رحمه الله : (اعتزلنا واصل)[٣] فسُمّوا بذلك ، وهذا هو أشهر وأقوى الأقوال في سبب تسميتهم بذلك .

والرّجل الثّاني في هذه الفرقة هو عمرو بن عبيد[٤] الّذي تبع واصلاً ، بل بلغ من إعجاب واصل به أن زوّجه أخته ، ثمّ بدأت هذه الدّعوة تتوسّع ، وهي من أخبث الفرق الّتي ظهرت في تاريخ المسلمين من ناحية أصل أصولها وهو تحكيم العقل ، وتجاوزوا الحدّ في ذلك حتّى في جانب ما يجوز على الله وما يجب عليه وما لاينبغي له عزّ وجلّ ، ولذلك تصدّى لهم علماء أهل السّنّة وأوضعوا خلالهم ، وخاضوا معهم حروباً لاهوادة فيها ، لجأ المعتزلة في بعض مراحلها إلى الاستعانة بالسّيف ، إلاّ أنّ العقيدة كانت أقوى ، وثبت أهل السّنّة على الحقّ ثبوت الجبال الرّاسيات ، وهيّأ الله تعالى لها أسداً وإماماً ثبّت الله به غيره ، وهو الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله الّذي راوده ثلاثة من الخلفاء عن عقيدته، إلاّ أنّه ثبت وقاوم حتّى أظهره الله عليهم ، ونصره الله وأيّده برابعهم الّذي نصر مذهب أهل السّنّة وقمع أهل البدعة وهو الخليفة المتوكّل رحمه الله .

---

(١) القاموس المحيط ٤ / ٢٢ ـ ٢٣ ، ولسان العرب ١١ / ٤٤٠ .

(٢) واصل بن عطاء الغزّال أبوحذيفة المخزومي ، مولاهم البصري البليغ الأفوه ، توفّي سنة ١٣١هـ ، السّير ٥/٤٦٤ .

(٣) الملل والنّحل ١/٢٢، والفرق بين الفرق ص١٥ .

(٤) عمرو بن عبيد أبو عثمان البصري الزّاهد العابد كبير المعتزلة ، زوّجه واصلٌ أخته ، توفّي سنة ١٤٤هـ، السّير ٦ /١٠٤.

والمعتزلة فرقٌ كثيرة ذكرها أصحاب كتب المقالات والفرق ، وهي وإن كانت قد اندثرت كفرقة ، إلاّ أنّ الفكر الاعتزالي متفرّقاً ما زال موجوداً وله من ينصره وينشره .

والمعتزلة على اختلافهم يجتمعون على خمسة أصول لايختلف فيها منهم اثنان : **الأوّل** : التّوحيد ، ويقصدون به نفي الصّفات عن ا لله تعالى .

الثّاني : العدل ، ويقصدون به إنكار خلق ا لله للشّر أو لأفعال العباد .

الثّالث : الوعد والوعيد ، ويقصدون به أنّ ا لله يجب عليه إثابة المطيع ، وعقاب العاصي ، ولايجوز عليه إخلاف وعده ووعيده .

الرّابع : المنزلة بين المنزلتين ، ويقصدون به أنّ مرتكب الكبيرة لايُحكم له بكفرٍ ولاإيمان ، بل هو في منزلةٍ بين الإيمان وبين الكفر ، وفي الآخرة هو مخلّد في النّار .

الخامس : الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، ويقصدون به وجوب الخروج على أئمّة الجور بالسّيف [1] ، وقد سبق الكلام عن أصولهم هذه في أماكنها من الرّسالة ، ويلاحظ أنّهم يسمّون كلّ بدعة من بدعهم باسم شرعي ، إمعاناً في التّضليل ، حتّى إنّهم يسمّون أنفسهم بالموحّدين[2] ! .

وقد اتّفق أهل السّنّة والجماعة على ذمّ المعتزلة وأصولهم البدعيّة ، وضلّلوهم وهجروهم وحذّروا منهم ومن مجالستهم ، وكان السّلف يطلقون عليهم أحياناً لفظ الجهميّة لجحدهم الصّفات، وأحياناً القدريّة لإنكارهم خلق ا لله لأفعال العباد وشمول مشيئته سبحانه .

وأمّا ابن حبّان رحمه ا لله فقد بان موقفُه من المعتزلة من خلال ردّه لبعض أقوالهم ، ومن خلال جرحه لمن رُمي بشيء من لوث الإعتزال .

---

(1) انظر الملل والنّحل ١ / ٣٨ ، والفرق بين الفرق ص٩٣ومابعدها ، ومع أنّ شريعة الأمر بالمعروف لها مكانتها العظمى في عقيدة أهل الإسلام عموماً وأهل السّنّة خصوصاً ، وقد ورد في فضلها من الآيات والأحاديث الّتي لاتُحصى ، إلاّ أنّ المعتزلة يصرفونها إلى المعنى الّذي يريدون وهو وجوب الخروج على الأئمّة ، وأهل السّنّة مع إقرارهم بأهمّيّتها إلاّ أنّهم يؤمنون بكلّ ماورد عن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم ، ومن ذلك أمره بالصّبر على جور الأئمّة ماداموا مسلمين ، وهذا الأمر يخصّص النّصوص العامّة الّتي تحثّ على الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر .

(2) الملل والنّحل ١ / ٣٨ ، وكذلك يطلقون على أنفسهم أنّهم أهل العدل .

وقد ردّ عليهم رحمه الله دعواهم خلق القرآن حيث أورد حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما مرفوعاً :(**القرآن شافع وما حلٌ مصدّق من جعله أمامه قاده إلى الجنّة**) ، ثمّ قال : " هذا خبرٌ يوهم من جهل صناعة العلم أنّ القرآن مجعول مربوب وليس كذلك ، ولكنّه ممّا نقول في كتبنا: أنّ العرب في لغتها تطلق اسم الشّيء على سببه كما تطلق السّبب على الشّيء ، فلمّا كان العمل بالقرآن قاد صاحبه إلى الجنّة أطلق اسم ذلك الشّيء الّذي هو العمل بالقرآن على سببه الّذي هو القرآن ، لأنّ القرآن يكون مخلوقاً "[(١)] .

كما ردّ عليهم إنكار رؤية المؤمنين ربّهم في الآخرة حيث قال : " ذكر البيان بأنّ رؤية المؤمنين ربّهم في المعاد من الزّيادة الّتي وعد الله جلّ وعلا عباده على الحسنى الّتي يعطيهم إيّاها " ، ثمّ قال بعد سوق الحديث على ذلك: " هذه الأخبار يدفعها من ليس العلم صناعته ..." ثمّ استدلّ لثبوت الرّؤية وقال : " لاينكر هذا الأمر إلاّ من جهل صناعة العلم ومُني بالرّأي المنكوس والقياس المنحوس "[(٢)] .

وقال أيضاً : " ذكر الخبر المدحض من زعم أنّ رؤية المؤمنين لربّهم في المعاد إنّما هي بقلوبهم دون أبصارهم "[(٣)].

كما ردّعليهم القول بتخليد أهل الكبائر في النّار في قوله : " ذكر البيان بأنّ قول المنادي : (ياأهل النّار لاموت) إنّما يكون بعد خروج الموحّدين منها "[(٤)] .

وقال أيضاً : " ذكر الخبر المدحض قول من زعم أنّ من أُدخل النّار نعوذ بالله منها من هذه الأمّة يخلد فيها من غير خروج منها "[(٥)] .

وقال في كتابه المجروحين في بيان أنواع الضّعفاء والمجروحين : " النّوع التّاسع عشر : ومنهم المبتدع إذا كان داعية يدعو النّاس إلى بدعته حتّى صار

---

(١) الإحسان ١ / ٣٢٣ ، والحديث تقدّم ص١٤٣ .

(٢) الإحسان ١٦ / ٤٧١ - ٤٧٧ .

(٣) الإحسان ١٦ / ٤٧٨ .

(٤) الإحسان ١٦ / ٥١٧ .

(٥) الإحسان ١٦ / ٥٢٨ .

إماماً يُقتدى به في بدعته ، ويُرجع إليه في ضلالتــه كغيـلان وعمـرو بـن عبيـد ..." ثمّ ذكر بعض الآثار عن حال عمـرو بـن عبيـد [١] ، وقـال في ترجمتـه : " أحدث ما أحدث مـن البـدع واعـتزل مجلس الحسـن ومعـه جماعـة فسُـمّوا المعتزلة ، وكان عمرو بن عبيد داعيـةً إلى الاعـتزال ، ويشـتم أصحـاب محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم ، ويكذب مع ذلك في الحديث توهّماً لاتعمّداً "[٢] .

تعليق :

وافق ابن حبّان منهج أهل السّنّة والجماعة في تبديع المعتزلة واعتبارهـم من الفرق المخالفة للسّنّة ، وهذا واضحٌ من كلامه عن عمـرو بـن عبيـد وغـيره ، ووصفه لهم بالجهل ، وردّه لبعض مااشتهروا به من البدع الكـبرى ، كـالقول بخلق القرآن ، وإنكار رؤية المؤمنـين ربّهـم جـلّ وعـلا يـوم القيامـة، وجـواز الخروج بالسّيف على الأئمّة وقد تقدّم ذكر تلك المسائل مفصّلة في أماكنها في الرّسالة .

قال الثّوري رحمه الله : (لاينفعك ما كتبت حتّـى تـرى الصّـلاة خلـف كلّ برٍّ وفاجر ، والجهادَ ماض إلى يوم القيامة ، والصّبرَ تحـت لـواء السّـلطان جار أم عدل)[٣] .

وسُئل أبو ثور[٤] عن القدريّة فقال : (القدريّـة مـن قـال : لم يخلـق الله أفاعيل العباد ، وإنّ المعاصي لم يقدّرها الله علـى العبـاد و لم يخلقهـا ، فهـؤلاء القدريّة لايُصلّى خلفهم ولايُعاد مريضهم ولايُشهد جنـائزهم ويُسـتتابون فـإن تابوا وإلاّ ضُربت أعناقهم) ، وسُئل رحمه الله عن الصّلاة خلف مـن يقـول : القرآن مخلوق ، فقال : (هذا كافرٌ بقوله ، لايُصلّى خلفه ، وذلك أنّ القـرآن كلام الله لااختلاف فيه بين أهل العلم)[٥] .

---

[١] المجروحين ١ / ٨١ - ٨٣ .

[٢] المجروحين ٢ / ١٩ ، وفيه نسبة اعتزال مجلس الحسن إلى عمرو بن عبيد ، والمشهور أنّ الّذي اعتزل مجلس الحسن وقال الحسن فيه ما قال هو واصل بن عطاء فلعلّه وهم من ابن حبّان ، أو أنّه قصد أنّه اعتزل مع واصل فالله أعلم .

[٣] شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة ١ / ١٥١ .

[٤] إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي الفقيه ، إمامٌ حافظٌ حجّةٌ مجتهد ، توفّي سنة ٢٤٠هـ ، السّير ١٢ / ٧٢ .

[٥] شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة ١ / ١٧٢.

وعن أبي حاتم وأبي زرعة الرّازيّين: (القدريّة المبتدعة ضلاّل : ومن زعم أنّ القرآن مخلوق فهو كافرٌ با لله العظيم كفراً ينقل عن الملّة)[١] .

وقيل لعبدا لله بن إدريس[٢] : يا أبا محمّد ، إنّ أناساً يقولون : القرآن مخلوق ، قال : من ؟ اليهود ، قال : لا ، قال : فمن ؟ النّصارى ، قال : لا ، قال : فمن ؟ المجوس ، قال : لا ، قال : فمن هم ؟ قال : الموحّدون : قال : كذبوا ليس هؤلاء من الموحّدين ، هؤلاء زنادقة فمن زعم أنّ القرآن مخلوق فقد زعم أنّ ا لله مخلوق ، ومن زعم أنّ ا لله مخلوق فقد كفر ، هؤلاء زنادقة)[٣] .

وقال الإمام أحمد رحمه ا لله : (والمعتزلة هم الّذين يقولون بقول القدريّة ويكذّبون بعذاب القبر والشّفاعة والحوض ، ويزعمون أنّ أعمال العباد ليست في اللّوح المحفوظ)[٤] ، والآثار في ذمّ المعتزلة كثيرة ، وفيما ذكرنا كفاية ، وا لله تعالى أعلم .

---

[١] شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة ١ / ١٧٨.

[٢] ابن يزيد بن عبدالرّحمن ، أبو محمّد الأودي الكوفي ، الإمام الحافظ المقرىء ، توفّي سنة ٩٢هـ ، السّير ٩/٤٢ .

[٣] شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة ١ / ١٧٩ .

[٤] طبقات الحنابلة ١ / ٣٢ .

المبحث الثّالث : موقفه من النّواصب

سبق أن ذكرنا في الكلام عن الخوارج ، تلك الفتنة الّتي حدثت في آخر عهد الصّحابة بين الخليفةالرّاشد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، ومن قبل ذلك ماحصل مع الخليفة الشّهيد عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، وذكرنا أنّ تلك الفتنة كانت سبباً في نشأة الخوارج ، ونذكرهنا أنّها أيضاً كانت سبباً في ظهور اتّجاهين متضادّين ينطلقان من موقفهما من آل البيت ، ومن عليّ وفاطمة وذرّيّتهما بالذّات ، وهذان الاتّجاهان هما التّشيّع الموالي لآل البيت ، والنّصب الّذي ناصب عليّاً وشيعته العداء .

قال في القاموس المحيط : (النّواصب والنّاصبة وأهل النّصب المتديّنون ببغضة عليّ رضي الله عنه لأنّهم نصبوا له أي عادوه)[1] .

والنّصب عموماً لم تتكوّن له فرقة تتبنّاه وتدعو إليه ، وإنّما هو اتّجاه نفسي وُجد كردّ فعل لما حدث أثناء الفتنة ، والّذين اتّخذوا النّصب ديناً هم الخوارج ، وكذلك الجهلة من شيعة معاوية حتّى بلغ بهم سبّه ولعنه على المنابر في الجمعات والمحافل ، وتالله إنّها لإحدى الكبر أن يُشتم ابن عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وختنه وزوج سيّدة نساء العالمين وأوّل من آمن من الصّبيان ، ولكنّها الفتنة ، والفتنة تُعمي القلوب والأبصار .

وذمّ أهل السّنّة للنّصب والنّاصبة كثير ، مشهورٌ في تراث أهل السّنّة ، ويكفيهم خزياً وعاراً أنّهم عارضوا الصّحيح المشهور ممّا جاء في فضل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وذرّيّته .

وأمّا ابن حبّان رحمه الله فقد ردّ على النّواصب من ثلاثة وجوه :

أوّلها : إثبات أنّ عليّاً رضي الله عنه كان في تلك الوقعة على الحق .

الثّاني : ذِكرُ فضائل عليٍّ رضي الله عنه وإثبات أنّ محبّته من الإيمان .

---

[1] القاموس ١ / ٢٩٦.

الثّالث : إثبات أنّ مبغض عليٍّ رضي ا لله عنه من أهل النّار فضلاً عن سابّه وشاتمه .

قال رحمه ا لله : " ذِكرُ الخبر الدّالّ على أنّ عليّ بن أبي طالب رضي ا لله عنه كان في تلك الوقعة على الحق " ، ثمّ ساق حديث أمّ سلمة رضي ا لله عنها مرفوعاً : (**تقتل عمّاراً الفئة الباغية**)[1] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ الخبر الدّالّ على أنّ عمّار بن ياسر رضي ا لله عنه ومن كان معه كانوا على الحقّ في تلك الأيّام " ، ثمّ ساق حديث أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**ويح ابن سميّة تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنّة ويدعونه إلى النّار**)[2]وكان عمّارٌ رضي ا لله عنه مع عليّ.

وقال أيضاً :" ذِكرُ الخبر الدّالّ على أنّ محبّة المرء عليّ ابن أبي طالب رضي ا لله عنه من الإيمان " ، وساق قوله رضي ا لله عنه : (والّذي فلق الحبّة وذرأ النّسمة إنّه لعهد النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم إليّ أنّه لايحبّني إلاّ مؤمن ولايبغضني إلاّ منافق)[3] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ مغفرة ا لله جلّ وعلا ذنوب عليّ ابن أبي طالب رضي ا لله عنه " ، ثمّ ساق حديث عليٍّ قال : قال لي رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**ياعليّ ! ألا أعلّمك كلمات إذا قلتهنّ غُفر لك مع أنّه مغفور لك : لاإله إلاّ ا لله العليّ العظيم ...**)[4] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ البيان بأنّ عليّ ابن أبي طالب رضي ا لله عنه كان ناصر كلّ من ناصر رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم " ، وساق حديث بريدة رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**من كنت وليّه فعليّ وليّه**)[5] .

---

[1] الإحسان ١٥ / ١٣٠-١٣١، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الفتن باب لاتقوم السّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيقول : ياليتني مكانك .

[2] الإحسان ١٥/ ٥٥٣ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد٣/ ٢٢ ، ٢٨ وإسناده صحيح .

[3] الإحسان ١٥ / ٣٦٧ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الإيمان باب الدّليل على أنّ حبّ الأنصار وعليّ من الإيمان .

[4] الإحسان ١٥ / ٣٧١-٣٧٢ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ١ / ٩٢ ، ١٥٨ ، والتّرمذي في الدّعوات باب ٨١ ، والحاكم ٣/ ١٣٨ ،وغيرهم وصحّحه الحاكم ووافقه الذّهبي .

[5] الإحسان ١٥ / ٣٧٥ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٥ / ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، والحاكم ٢ / ١٢٩-١٣٠ ، وصحّحه ووافقه الذّهبي .

وقال : " ذِكرُ دعاء المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بالولاية لمن والى عليّاً، والمعاداة لمن عادى عليّاً " ، ثمّ ساق قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**من كنت مولاه فإنّ هذا مولاه ــ يعني عليّاً ــ اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه**)[1] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ محبّة عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه اللهَ ورسولَه" ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم خيبر: (**لأدفعنّ الرّاية اليوم إلى رجلٍ يحبّ اللهَ ورسولَه فتطاول القوم ، فقال : أين علي ؟ فقالوا : يشتكي عينه ، فدعاه فبزق في كفيه ومسح بهما عين علي ثم دفع إليه الراية ففتح الله عليه**)[2] .

وقال أيضا :" ذكر إثبات محبة الله جل وعلا و رسول الله صلى الله عليه وسلم علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وقد فعل " ، ثم ساق الحديث السابق من رواية سلمة بن الأكوع رضي الله عنه بزيادة (**...ويحبه الله ورسوله ...**)[3] .

وقال بعد سوق عدة أحاديث في فضل فاطمة والحسن والحسين : " ذكر الخبر المصرح بأن هؤلاء الأربع الذين تقدم ذكرهم أهل بيت المصطفى صلى الله عليه وسلم " ، ثم ساق حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس في بيت علي وأجلس عليا عن يساره وفاطمة عن يمينه ، وحسنا وحسينا بين يديه وقال : (**{ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا } ، اللهم هؤلاء أهل بيتي**)[4] .

---

(١) الإحسان ١٥/ ٣٧٥ـــ٣٧٦ ، والحديث أخرجه أيضا أحمد ٤ / ٣٧٠ ، والحاكم ٣ / ١٠٩ ، وصححه ووافقه الذهبي .

(٢) الإحسان ١٥ / ٣٧٩ ، والحديث إسناده صحيح وهو من مسند سهل بن سعد عند البخاري في فضائل الصحابة باب مناقب علي بن أبي طالب ، ومسلم في في فضائل الصحابة باب من فضائل علي بن أبي طالب .

(٣) الإحسان ١٥ / ٣٨٢ ، والحديث أخرجه أيضا مسلم في الجهاد باب غزوة ذي قرد وغيرها .

(٤) الإحسان ١٥ / ٤٣٢ ـــ ٤٣٣ ، والحديث أخرجه أيضا أحمد ٤ / ١٠٧ ، وابن جرير في تفسير الآية ، والحاكم ٣ / ١٤٧ وغيرهم ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

وقال أيضاً :" ذِكرُ إيجاب الخلـود في النّـار لمبغـض أهـل بيـت المصطفـى صلّى ا لله عليه وسلّم " ، ثمّ ساق حديث أبي سعيد الخـدري رضـي ا لله عنـه مرفوعاً : (**والّذي نفسي بيـده لايبغضنـا أهـل البيـت رجـل إلاّ أدخلـه ا لله النّار**)[1] .

تعليق :

يتبيّن ممّا تقدّم نقله عن ابن حبّان موالاته الشّديدة لأهل البيت وتوسّعه في إظهـار فضـائلهم رضـي ا لله عنهـم ، وتنويـع الـدّلالات علـى علـوّ شـأنهم ومكـانتهم ، كـلّ ذلـك دفعـاً في صـدور النّاصبـة والخـوارج ومـن هـم علـى شاكلتهم ممّن امتلأت قلوبهـم مـن بغـض علـيّ والحقـد عليـه وعلـى ذرّيّتـه ، واتّخذوا ذلك دينـاً يتقرّبـون بـه إلى ا لله ، والعجـب كـلّ العجـب ممّـن يتّخـذ سخط ا لله وموجباته قربة إليه سبحانه وتعالى .

وفضائل عليّ رضي ا لله عنه وأهـل بيتـه معروفـة مشـهورة لاينكرهـا إلاّ جاهل مغرق في الجهل أو عاقّ مستكبر ، وقد أورد ابن حبّان منها قدراً كبـيراً نقلت بعضاً منها فيما تقدّم وتركت أكثرها خشية الإطالة ، قـال الحـافظ ابـن حجـر رحمـه ا لله : (قـــال أحمـــد وإسمـــاعيل القـاضي والنّســائي وأبوعلــي النّيسابوري : لم يرد في حقّ أحدٍ من الصّحابة بالأسانيد الجياد أكثر ممّا جاء في عليّ وكان السّبب في ذلك أنّه تأخّر ووقع الاختلاف في زمانه ، وخروج مـن خرج عليه ، فكان ذلك سبباً لانتشار مناقبـه مـن كـثرة مـن كـان يبيّنهـا مـن الصّحابة ردّاً على من خالفه ، فكان النّاس طائفتين لكنّ المبتدعة قليلـة جـدّاً ، ثمّ كان من أمر عليّ ما كان فنجمت طائفة أخرى حاربوه ثمّ اشتدّ الخطـب فتنقّصوه واتّخذوا لعنه على المنابر سنّة ووافقهـم الخـوارج علـى بغضـه وزادوا حتّى كفّروه ، مضموماً ذلك منهـم إلى عثمـان ، فصـار النّـاس في حـقّ علـيّ ثلاثة: أهل السّنّة ، والمبتدعة من الخوارج والمحاربين له من بني أميّة واتبـاعهم ،

---

[1] الإحسان ١٥ / ٤٣٥ ، والحديث أخرجه أيضاً الحاكم ٣ / ١٥٠ وصحّحه وسكت الذّهبي ، وإسناد الحاكم قوي فالحديث بهما صحيح .

فاحتاج أهل السّنّة إلى بثّ فضائله فكثر النّاقل لذلك لكثرة من يخالف ذلك)[١] .

وعن طلحة بن مصرّف : (كان يُقال : بُغض بني هاشم نفاق)[٢] .

وقال عليٌّ رضي الله عنه : (يهلك فيّ رجلان ، مفْرِطٌ في حبّي ومفْرِطٌ في بغضي)[٣] .

وابن حبّان رحمه الله تعالى موافقٌ لما عليه أهل السّنّة والجماعة في موقفه من عليّ رضي الله عنه وممّن ناصبه البغض والعداوة ، و يُؤخذ عليه أنّه حكم بالخلود على مبغض أهل البيت في النّار ، مع أنّ الحديث الّذي استدلّ به ليس فيه إلاّ الوعيد بدخول النّار ، والدّخول أعمّ من الخلود ، إلاّ إن كان يرى رحمه الله أنّ مبغض أهل البيت كافر ، وهذا في الحقيقة لايبعد إذ يستحيل أن يكون في قلب عبد ذرّة من إيمان وهو مع هذا مبغضٌ لآل البيت ، بل لا يكون ذلك إلاّ من منافق يبغض النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، ومن هنا قد يكون للحكم بالتّكفير وجه ، وأمّا الحكم بالتّكفير على من أبغض أحد أفراد أهل البيت ، فالقول بخلود المبغض في النّار لا يسنده الدّليل ، والله تعالى أعلم.

---

(١) الفتح ٧ / ٧١ .

(٢) شرح أصول أهل السّنّة ٧ / ١٢٦٦ ، وفي مصنّف ابن أبي شيبة ح٣٢٣٦٨: الأنصار بدل بني هاشم .

(٣) مصنّف ابن أبي شيبة ح٣٢١٢٥ .

المبحث الرّابع : موقفه من الرّافضة

قال صاحب القاموس : (رفضه ويرفِضه ويرفُضه رفْضاً ورَفَضاً ، تركه ...والرّوافض كلّ جند تركوا قائدهم ، والرّافضة الفرقة منهم ، وفرقة من الشّيعة بايعوا زيد بن عليّ ثمّ قالوا له : تبرّأ من الشّيخين ، فأبى وقال : كانا وزيري جدّي ، فتركوه ورفضوه وارفضّوا عنه ، والنّسبة رافضيّ)[1] .

فمدار الرّفض لغةً على التّرك ومنه سُمّيت الرّافضة باسمها ، والشّيعة كلفظة تدلّ على القوم والأصحاب والأعوان والأتباع ، وهو علمٌ على الّذين شايعوا عليّاً رضي الله عنه إبّان الفتنة ، وكان معناها في بداية الأمر لايتعدّى المعنى اللّغوي ، إلاّ أنّها بمرور الزّمن تحوّرت لتتّخذ مدلولاً فكريّاً ومنهجاً عقائدياً يزداد تعقيده كلّما تطاول به الزّمن ، واشتدّت عليه وطأة المخالفين له فكريّاً وسياسيّاً .

والشّيعة كفرقة : هم الّذين غلوا في محبّة آل البيت وأدخلوا في محبّتهم الواجبة ما لاأصل له ، كما أنّهم تميّزوا بقولهم : إنّ الإمامة ليست من المصالح العامّة الّتي تُفوّض إلى نظر الأمّة ، ويتعيّن القائم بها بتعيينهم ، بل هي ركن الدّين وقاعدة الإسلام ، ولايجوز لنبيّ إغفاله أو تفويضه للأمّة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم .

وظهور التّشيّع كان على مراحل وأطوار ، والّذي يترجّح بالنّظر إلى المواد التّاريخيّة أنّه لايمكن القول ببداية حقيقيّة له ، لأنّ التّشيّع لم يكن مذهباً واحداً ، بل اتّخذا أطواراً مختلفة ومرّ بمراحل متعدّدة ، فكان لكلّ عصرٍ نوعٌ من التّشيّع ولكلّ طائفة شيعيّة لون من التّشيّع .

وقد اتّصل التّشيّع ببعض الفلسفات والأديان السّابقة فاتّخذ أشكالاً وتبنّى عقائد تنوّعت بتنوّع المصادر الّتي أُخذت عنها .

[1] القاموس ٢ / ٤٨٨-٤٨٩ .

إلاّ أنّه يمكن القول أنّ لفظة الشّيعي استخدمت لفترة بمعناها اللّغوي أثناء عهد الخليفة الرّاشد عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه وبعده وكان من هؤلاء الشّيعة من يرى أنّه أفضل من عثمان ، ولكن لم يصل الحدّ بهم إلى تفضيله على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ثمّ بعد ذلك بدأ التّشيّع يتّسع ليدخل فيه تفضيله على الشّيخين ، ثمّ أولويّته بالخلافة مع صحّة إمامة الشّيخين ، ثمّ القول ببطلان إمامتهما ثمّ بغضهما ثمّ سبّهما بل وتكفيرهما ومن معهما من الصّحابة إلاّ نفراً يسيراً ، وأثناء ذلك كلّه حصر الإمامة في أولاد فاطمة ، والقول بأنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أوصى بالإمامة لعليّ ولكنّ الصّحابة غصبوه إيّاها ، وغير ذلك من العقائد الأخرى الّتي تمتاز بالتّنكّر لكلّ ما هو سنّة متّبعة ، والطّعن حتّى في ثبوت القرآن كما هو في أيدي أهل السّنّة[1] ، بل بلغ بهم مخالفة أهل السّنّة أن مسحوا على الرّجلين في الوضوء ، وأخّروا الفطر وعجّلوا الإمساك وقالوا بالمتعة ، إضافة إلى بعض العقائد الّتي تولّدت من جرّاء الضغط السّياسي الّذي مورس عليهم من قبل السّلاطين كقولهم بالتّقية الّتي أغلق بها الشّيطان عليهم كلّ سبيل للهداية ، ونزع بها كلّ خيوط الثّقة بينهم وبين مخالفيهم [2]، وبنظرة فاحصة لفرق الشّيعة واتّجاهاتهم يمكن تقسيمهم إلى ثلاثة اتجاهات [3]:

(1) انظر مختصر التحفة الاثني عشرية ص٣٠ـــ٣١ وهو في الكافي للكليني ١ / ٤١٤ نقلا عن دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين لأحمد جلي ص٢٢٧ .

(2) انظر الشيعة والتصحيح للموسوي .

(3) ذكر هذا التقسيم د أحمد جلي في كتابه دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين لأحمد جلي ص ص١٥١ ، ١٧٨ .

الأوّل : غلاة الشّيعة الّذين غلو في أئمّتهم مـــن آل البيـــت وغـــيرهم فجعلوهـم في مقام الأنبياء أو الآلهة ، ومنهم الكيسانيّة المختاريّـــة والغرابيّـــة والخشبيّة والنّصيريّة والإسماعيليّة الباطنيّة وغيرهم .

الثّاني : الشّيعة الزّيديّة وهم الّذين ينتسبون إلى زيد بن عليّ بن الحســين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، المتوفّى سنة ١٢٢هـــ ، وهم أقـــرب فرق الشّيعة اعتدالاً وقرباً من منهج أهل السّنّة ، ومن أهمّ مبادئـــهم اعتقـــاد أوّلويّة عليّ بالخلافة ، وأنّه أفضل من الشّيخين ، مع صحّة إمامتهما والـتّرضّي عليهما ، ويعتقدون جواز إمامة المفضول في وجود الفاضل ، وأنكروا ماعليـه الرّوافض من القول بعصمة الأئمّة والرّجعة والتّقيّة وسبّ الصّحابة رضـــي الله عنهم [1].

الثّالث : الإماميّة الاثناعشريّة، وإليها تنسب عامّة عقائد الشّيعة المنحرفة الّتي تميّزهم عن غيرهم ،كالقول بعصمة الأئمّة والرّجعة والتّقيّة والمتعـــة وبطـــلان إمامة الشّيخين وسبّهما والتّبرّي منهما ، بل ومن سائر الصّحابة إلاّ نفراً يسـيراً ، بل وحتّى الطّعن في القرآن والسّنّة ، وسوق الإمامة في أولاد فاطمة رضـــي الله عنها إلى اثني عشر إماماً آخرهم محمّد بن الحسن العسكري الغائب المزعوم ، ولذلك تُسمّى بالشّيعة الإماميّة الاثني عشريّة [2] .

وابن حبّان رحمه الله ردّ على الرّافضة في بعض انحرافاتهم ، وقدح كثـــيراً من الرّواة بالرّفض وحمل عليهم به في كتابه المجروحين .

قال رحمه الله : " ذِكرُ الخبر المدحض قول من زعـــم أنّ أولاد فاطمـــة رضي الله عنها لايضرّهم ارتكاب الحوبات في الدّنيا رضي الله عنها وعن بعلها وعن ولدها وقد فعل " ، وساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : لمّـــا نزلت هذه الآية { **وأنذر عشيرتك الأقربين** } جمع رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم قريشاً فقال : (**يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النّار فإنّي لاأملك**

---

(٢) انظر الشيعة والتشيع ص٤٠٢ والسير ٥/٢٩٨.

(١) انظر مقالات الإسلاميّين ١ / ٦٦ ، ٨٨ وما بعدها ، والملل والنّحل للشّهرستاني ١٤٤/١ ومابعدها، والفصل لابن حـــزم ٥/ ٣٥ ومابعدها ، والفرق بين الفرق للبغدادي ١٥ــ١٧.

لاأملك لكم ضرّاً ولا نفعاً ... يا فاطمة بنت محمّد أنقذي نفسك من النّار فإنّي لاأملك لك ضرّاً ولا نفعاً) ثمّ قال ابن حبّان : " هذا منسوخ ، إذ فيه أنّه لايشفع لأحد واختيار الشّفاعة كانت بالمدينة بعده "[(١)] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ الخبر الدّال على أنّ أولياء المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم هم المتّقون دون أقربائه إذا كانوا فجره " ، ثمّ ساق حديث معاذ عنه صلّى ا لله عليه وسلّم أنّه قال : (**إنّ أهل بيتي هؤلاء يرون أنّهم أولى النّاس بي وإنّ أولى النّاس بي المتّقون من كانوا وحيث كانوا**)[(٢)] .

وقال : " ذِكرُ الخبر المدحض قول من زعم أنّ الفرض على المتوضّىء في وضوئه المسح على الرّجلين دون الغسل " ، ثمّ ساق حديث عليّ بن أبي طالب رضي ا لله عنه في وصف وضوء النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم[(٣)] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ العلّة الّتي من أجلها كان يمسح عليّ بن أبي طالب رجليه في وضوئه " ، ثمّ روى عن عليّ رضي ا لله عنه أنّه توضّأ ومسح على قدميه وقال : (هذا وضوء من لم يحدث)[(٤)] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ الخبر المدحض قول من زعم أنّ المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم أوصى إلى عليّ بن أبي طالب رضي ا لله عنه في علّته " ، وساق حديث عائشة رضي ا لله عنها أنّها قالت : (يزعمون أنّ رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم أوصى إلى عليّ ، ولقد دعا بطست فبال فيه ، وإنّه لعلى صدري فانخنث فمات وما أشعر به)[(٥)] .

وقال : " ذِكرُ الخبر المدحض قول من زعم أنّ المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم أوصى إلى عليّ أو أسرّ إليه بأشياء أخفاها عن غيره " ، وساق حديث

---

(١) الإحسان ٢ / ٤١٢ ـ ٤١٤ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الوصايا باب هل يدخل النّساء والولد في الأقارب ، ومسلم في الإيمان باب في قوله تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ .

(٢) الإحسان ٢ / ٤١٤ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٥ / ٢٣٥ ، والطّبراني في الكبير ٢٠ / ح٢٤١.

(٣) الإحسان ٣ / ٣٣٧ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ١ / ١٢٢ ، ١٢٥ أبوداود في الطّهارة باب صفة وضوء النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم ، والتّرمذي في الطّهارة باب ماجاء في وضوء النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم كيف كان ، والنّسائي في الطّهارة باب بأيّ اليدين يستنثر .

(٤) الإحسان ٣ / ٣٣٩ ـ ٣٤٠ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الأشربة باب الشّرب قائماً .

(٥) الإحسان ١٤ / ٥٦٩ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في المغازي باب مرض النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم ووفاته ، ومسلم في الوصيّة باب ترك الوصيّة لمن ليس له شيء يوصي فيه .

أبي الطّفيل قال : سُئل عليّ : أخصّكم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بشيء ؟ قال : ما خصّنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بشيء لم يعمّم به النّاس كافّة إلاّ ماكان في قراب سيفي هذا ، فأخرج صحيفة **مكتوبة** : (**لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من سرق منار الأرض ، لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى محدثاً**)[1] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ الخبر المدحض قول من زعم أنّ عائشة رضي الله عنها زوجة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم في الدّنيا لا في الآخرة " ، وروى عن عائشة قولها : جاء بي جبريل عليه السّلام إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في خرقة حرير وقال : (هذه زوجتك في الدّنيا والآخرة)[2] .

تعليق :

تعرّض ابن حبّان فيما سبق لبعض انحرافات الرّافضة الّتي خالفوا فيها المسلمين ، * وهذا بيانها :

- ادّعاؤهم العصمة لآل البيت وأنّهم مغفور لهم .
- ادّعاؤهم أنّ آل البيت هم أولى النّاس بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبالتّالي بكلّ خصائص الموالاة والإمامة .
- دعواهم أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أوصى بالخلافة لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .
- دعواهم أنه صلّى الله عليه وسلّم خصّه بعلوم دون غيره .
- قدحهم في أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها وزعمهم أنّها ليست زوجه في الآخرة .
- تعبّدهم بالمسح على الرّجلين في الوضوء وزعمهم أنه الفرض دون الغسل .

---

[1] الإحسان ١٤ / ٥٧٠ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الأضاحي باب تحريم الذّبح لغير الله ولعن فاعله .

[2] الإحسان ١٦ / ٦ ، والحديث أخرجه أيضاً التّرمذي في المناقب باب فضل عائشة ، وأخرجه من قول الرّسول صلّى الله عليه وسلّم البخاري في النّكاح باب نكاح الأبكار ، ومسلم في فضائل الصّحابة باب في فضل عائشة رضي الله عنها .

* تجدر الإشارة هنا إلى أنّ ابن حبّان رحمه الله لايتعرّض لشيء من انحرافات الفرق إلاّ إذا ساق حديثاً يردّ تلك البدعة أو ذلك الانحراف ، لأنّ الكتاب كتاب حديث وليس الرّدّ على الفرق همّته فليُتنبّه لذلك .

وليس المجال هنا مجال الإفاضة في الرّدّ عليهم ، إذ بيان فساد أقوالهم هـذه معلوم بضرورة الشّرع والعقل ، وقد أورد ابن حبّان من النّصوص الصّريحة الصّحيحة ما يكفي لردّ بدعهم تلك ، وهو ردّ أهل السّنّة الّذين ليس معهم لردّ الباطل إلاّ نصوص الوحيين ، خصوصاً إذا كان الباطل من الوضوح بحيث يكفي حكايته عن تكلّف الرّد عليه ، وسيأتي الكلام عن خلافة عليّ رضي الله عنه ، وقد وافق في كلّ ماتقدّم أهل السّنّة والجماعة الّذين وقفوا في وجه الرّفض منذ بدايته الأولى وبيّنوا زيفه وبعده عن النّصوص من القرآن والسّنّة ، وتعمّد الرّافضة مخالفة المسلمين في كلّ ما هو من خصائص السّنّة المحمّدية على صاحبها أفضل الصّلاة وأتمّ التّسليم .

كما أنّ الرّافضة كانوا وما زالوا شوكة في جنب هذه الأمّة فهم عون كلّ من أراد أهل الإسلام بسوء ، وهم الثّغرة الّتي منها يتسلّل المتربّصون بهذه الأمّة ، وهم العيون الّتي يرى بها العدوّ مالا يرى بعينه ، كجُرحٍ لا يبرأ ، ومرضٍ عضال أعيا الطّبيب دواؤه ، فإلى الله المشتكى وهو الموعد .

سُئل الإمام أحمد رحمه الله عن جار رافضي ، يُسلّم عليه ؟ قال : لا ولايردّ عليه [1] .

وقال مالك رحمه الله : (الّذي يشتم أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليس له سهم أو قال : نصيب من الإسلام) [2] .

وقال في رجل شتم رجلاً من أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : (مأراه على الإسلام) [3] .

وقال الشّعبي رحمه الله : (درست الأهواء فلم أر أحمق من الخشبيّة [4] ، ولو كانوا من الدّواب كانوا حمراً ، ولو كانوا من الطّير كانوا رخماً ، ثمّ قال : أحذّركم الأهواء المضلّة وشرّها الرّافضة ، وذلك أنّ منهم يهوداً يعمصون

---

(1) السّنّة للخلاّل ٣ / ٤٩٤ .

(2) السّنّة للخلاّل ٣ / ٤٥٣ .

(3) السّنّة للخلاّل ٣ / ٤٩٣ .

(4) فرقة من فرق الرّافضة ترى عدم القتال والجهاد إلاّ مع الإمام الغائب إذا ظهر ، ويتّخذون سيوفاً من خشب ولذا سُمّيت بالخشبيّة .

الإسلام ليتجاوز بضلالتهم ، وقال : لم يدخلوا الإسلام رغبة فيه ولا رهبة من الله ، ولكن مقتاً لأهل الإسلام وبغياً عليهم)[1] .

وقال أبوعبيد القاسم بن سلام : (عاشرت النّاس وكلّمت أهل الكلام وكذا ، فما رأيت أوسخ وسخاً ولا أقذر قذراً ، ولاأضعف حجّةً ولا أحمق من الرّافضة)[2] .

وقال علقمة : (لقد هلك قوم من هذه الأمّة برأيهم في عليّ كما هلكت النّصارى في عيسى بن مريم)[3] .

وقال القاضي أبوبكر بن العربي رحمه الله : (وأكثر الملحدة على التّعلّق بآل البيت ، وتقْدِمة عليّ رضي الله عنه على جميع الخلق حتّى إنّ الرّافضة انقسمت إلى عشرين فرقة أعظمهم بأساً الّذين يقولون : إنّ عليّاً هو الله ، والغرابية يقولون : إنّه رسول الله لكنّ جبريل عدل بالرّسالة منه إلى محمّد صلّى الله عليه وسلّم حميّةً منه معه ، في كفر بارد ، لاتسخّنه إلاّ حرارة السّيف ، فأمّا دفء المناظرة فلايؤثّر فيه)[4] .

---

(1) السّنّة للخلاّل ٣ / ٤٩٧، والرّخم طائر يقتات القاذورات ، ويعمصون مثل يعمسون : أي يخفون ويغطّون تهذيب اللّغة ٢ / ٥٩ ، والقاموس ٢ / ٣٣٩ وكأنّ مراده أنّهم يتلبّسون الإسلام ويتصنّعون التّقى .

(2) السّنّة للخلاّل٣ / ٤٩٩ .

(3) السّنّة للخلاّل٣ / ٢٩١ .

(4) العواصم ص ٢٥٩ .

المبحث الخامس : موقفه من الصّوفيّة

اختلف أهل التّاريخ ، والّذين كتبوا في الفرق في سبب تسمية الصّوفيّة بهذا الاسم ، فمن قائل : إنّه نسبةُ إلى لبس الصّوف ، ومن قائل : إنّه نسبةٌ إلى أهل الصُّفّة ، ومن قائل : إنّها مُعرّبة عن لفظة فارسيّة بمعنى الحكمة [١] ، وأيّاً كان الصّواب من ذلك ، وبغضّ النّظر عن سبب نشأة التّصوّف ونيّة أصحابه فإنّ الّذي يهمّنا أنّ التّصوّف أصبح اتّجاهاً ضخماً يضمّ تحته أنواعاً لا حصر لها من العقائد الباطلة الّتي يصل بعضها إلى الكفر با لله تعالى ، ويشمل كمّاً هائلاً من العبادات والأنساك والرّياضات والأخلاق الّتي لاصلة لها بدين الإسلام ، وإنّما هي مأخوذةٌ عن الأديان والفلسفات الضّالّة الفارغة من كلّ معنى شرعي مستقى من الوحي ، كالهندوسيّة والبوذيّة والإغريقيّة والنّصرانيّة، فهي مزيجٌ من الباطل مشوبٌ ببعض الحقّ ، وبسبب هذا القليل من الحقّ ، وبسبب أنّ التّصوّف في بادىء الأمر كان يتّخذ طابع الزّهد الشّرعي والبعد عن ملذّات الدّنيا والتفرّغ للعبادة والتّنسّك والرّياضات الرّوحيّة ، فقد انطلى باطله على العامّة ، بل وعلى كثير من المنتسبين إلى العلم ، وأيّدوه بما فيه من البعد والشّطط وتأوّلوا لباطله التّاويلات البعيدة ، حتّى أصبح التّصوّف معولاً فاعلاً في هدم الإسلام ، لايغفل عنه كلّ من أرّخ وحلّل الأسباب الّتي أدّت إلى سقوط الأمّة ورقدتها ورجوعها إلى ذيل الأمم[٢] ، ولذلك فإنّ من الصّعب الحكم على الصّوفيّة بحكم عام ، إلاّ أنّ الأصل الّذي لايخالف فيه أحد ، أنّ كلّ ما خالف هدي النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم فلا يمكن أن يكون فيه من المصالح ما يبرّر شرعيّته ، وإلاّ لكان الشّرع أسبق إلى الدّلالة إليه ، حتّى لو كانت المخالفة في مجرّد الاسم ، فإنّ الأسماء والألفاظ ليست من همل الشّريعة ، بل الشّرع أولى المسمّيات والألفاظ أهمّية عظيمة ،

---

[١] انظر تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ١٨٥- ١٨٦ ، ومجموع الفتاوى ١١ / ٥ - ٧ ، ومقدّمة ابن خلدون ص٤٦٧ .

[٢] انظر للفائدة ما كتبه الأستاذ علي الزّهراني في رسالته القيّمة (الانحرافات العقديّة والعلميّة في القرنين الثّالث عشر والرّابع عشر) ص ٤٣٥ وما بعدها .

ولهذا فإنّ ابتكار اسم التّصوّف والصّوفيّة وإطلاقه على طائفة من النّاس عُرفوا بالزّهد وتميّزوا ببعض الطّقوس ـ ولو كانت مشروعة ـ هي بداية خطّ الانحراف الّذي أخذ في الاتّساع حتّى أصبح مرتعاً يرتع فيه كلّ من أراد أن يُدخِل في الإسلام ماليس منه .

والتّصوّف على درجات :

فمنه تصوّف الغلاة الّذي بلغ بأصحابه القول بوحدة الوجود ، وهو اعتقاد أنّ كلّ مافي الوجود هو الله بذاته جلّ وعلا ، والقول بالحلول والاتّحاد ، وهو أنّ الله تعالى حلّ في بعض مخلوقاته أو كلّها كما يحلّ الماء في الكأس ، أو اتّحد بها كما يتّحد الماء باللّبن ، أو الغلوّ في الأولياء والصّالحين لدرجة اعتقاد أنّ بيدهم التّصرّف في الكون وإلباسهم بعض خصائص الرّبوبيّة ، أو صرف بعض العبادات لهم ، وغير ذلك من الاعتقادات الّتي تصل بصاحبها إلى الكفر .

ومنه تصوّفٌ لايصل بصاحبه إلى الكفر ولكنّه مغرق في الضّلال والبدعة كأهل العبادات المخترعة وأصحاب الطّرق والصّلاة والدّعاء عند القبور والموالد واستحضار الجنّ والتّعبّد بالتّبذّل والخوض في القاذورات وتعذيب النّفس وغير ذلك .

ومنه تصوّف يقتصر على الزّهد والبعد عن النّاس والانقطاع عنهم والسّياحة في الأرض والأذكار غير المشروعة وترك التّكسب ، والإعراض عن بعض المباحات ، وكلّ هذا مخالفةٌ للسّنّة وبعدٌ عن طريق المصطفى صلّى الله عليه وسلّم .

وابن حبّان رحمه الله بفطرته السّلفيّة ومشربه السّنّي ، شارك في نقد بعض بدع الصّوفيّة الّتي تعتبر من القسم الثّالث وهي خفيفة بالنّسبة لغيرها .

قال رحمه الله تعالى : " ذِكرُ الإخبار عمّا يجب على المرء من لزوم هدي المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بترك الانزعاج عمّا أُبيح من هذه الدّنيا له بإغضائه " ، ثمّ ساق حديث عثمان بن مظعون رضي الله عنه وشكوى

زوجته منه ، وقول النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم له : (**إنّ الرّهبانيّة لم تُكتب علينا**)[١].

وقال أيضاً :" ذِكرُ الخبر المدحض قول من قال من المتصوّفة بإبطال الكسب " ، وساق حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**كان زكريّا نجّاراً**)[٢] .

وقال : " ذِكرُ البيان بأنّ الأنبياء لم تكن تأنف من العمل ضدّ قول من كره الكسب وحظره " ، وساق حديث جابر بن عبدا لله رضي ا لله عنهما وفيه قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**وهل من نبيّ إلاّ قد رعاها**) أي الغنم[٣] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ الخبر المدحض قول من زعم من المتصوّفة أنّ الأكل على المائدة من الإسراف " ، وساق قول ابن عبّاس رضي ا لله عنهما في الضّبّ (أُكل على مائدة رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم ولو كان حراماً لم يُؤكل عليها)[٤] ، وقال أيضاً :" ذِكرُ خبر يدحض قول الجهلة من المتصوّفة أنّ الأكل على المائدة ليست سنّة " ، وساق قول ابن عبّاس المتقدّم[٥] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ الخبر المدحض قول من كره من المتصوّفة أكل العسل والحلوى مخافة أن لايقوم بشكره " ، وساق حديث عائشة رضي ا لله عنها قالت :(كان نبيّ ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم يحبّ الحلواء والعسل)[٦] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ الإباحة للمرء أكل اللّحوم والدّجاج ضدّ قول من زعم أنّ ذلك من الإسراف " ، وساق حديث أبي قلابة أنّه كان عند أبي

---

[١] الإحسان ١ / ١٨٥ ، والحديث تقدّم ص٢٨.

[٢] الإحسان ١١ / ٥٤٢ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الفضائل باب من فضائل زكريّا عليه السّلام .

[٣] الإحسان ١١ / ٥٤٣ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الأنبياء باب ﴿ **يعكفون على أصنامٍ لهم** ﴾ ، ومسلم في الأشربة باب فضيلة الأسود من الكباث .

[٤] الإحسان ١٢ / ٢٥ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الهبة باب قبول الهديّة ، ومسلم في الصّيد باب إباحة الصّيد .

[٥] الإحسان ١٢ / ٢٦ ـ ٢٧ قال القرطبي : (المائدة : الخوان الّذي عليه الطّعام ، قال قطرب : لاتكون المائدة مائدة حتّى يكون عليها طعام ، فإن لم يكن قيل : خِوان ... سُمّيت مائدة لأنّها تطعم وتعطي ما عليها من طعام ، من : ماد عبده إذا أطعمه وأعطاه) الجامع لأحكام القرآن ج٦ / ٢٣٧ .

[٦] الإحسان ١٢ / ٥٩ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الأطعمة باب الحلواء والعسل ، ومسلم في الطّلاق باب وجوب الكفّارة على من حرّم امرأته .

موسى الأشعري فدعا بمائدة عليها لحم دجاج وقال : (رأيت رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم يأكل منه)[1] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ إباحة الشّرب في الأقداح ضدّ قول من كرهه من المتصوّفة " ، وساق حديث جابر وفيه أنّ النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم شرب في قدح [2] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ إباحة لبس المرء العمائم السُّود ضدّ قول من كرهه من المتصوّفة " ، وساق حديث جابر رضي ا لله عنهما قال : (دخل رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم مكّة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء)[3] .

تعليق :

ذكرنا أنّ التّصوّف اتّخذ من الزّهد والبعد عن ملذّات الدّنيا شعاراً له ، والزّهد بلاشكّ من سيما الصّالحين ، ولكن ما حقيقة الزّهد ؟ هل هو مجرّد طقوس ومظاهر يظهر بها العبد مبتعداً عن الدّنيا ؟.

إنّ حقيقة الزّهد أن يُخرج العبد الدّنيا من قلبه ، فلا يكون له بها تعلّق ، فلا يعلّق بها رجاءً ، ولايجعلها مقصداً لعمل يعمله ، ولاضير بعد ذلك أن يحوز ا لله له الدّنيا في يده ، أو أن يحرمه منها ، ما دام استوى عنده الطّرفان ، فلايفرح بإقبالها ، ولايحزن لإدبارها ، وقد كان بعض أكابر أصحاب النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم من الأثرياء حتّى قدّرت ثروة بعضهم عند موته (بالملايين)[4] ، ومع ذلك كانوا أزهد النّاس وأخشع النّاس وأعلم النّاس ، وما كان أحدهم يبالي بمئات الألوف أن ينفقها في لحظة مادام ذلك في سبيل ا لله ، وما ذلك إلاّ أنّهم أخرجوا الدّنيا من قلوبهم وجعلوها في أيديهم ، وأهلكوها في سبيل ا لله ، بدلاً من أن تهلكهم ، وهذا هو الزّهد الحقيقي ، لا

---

(1) الإحسان ١٢ / ٦٠ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الأيمان والنّذور باب لاتحلفوابآبائكم ، ومسلم في الأيمان باب ندب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها ، وفيه قصّة .

(2) الإحسان ١٢ / ١٣٤ ، والحديث أخرجه ايضاً البخاري في الأشربة باب شرب الماء باللّبن .

(3) الإحسان ١٢ / ٢٤٣ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الحج باب جواز دخول مكّة بغير إحرام .

(4) هذه الكلمة غير عربيّة ، وإنّما استعملتها لكثرة استعمالها ولبيان ثراء بعضهم ، انظر مثلاً ترجمة عبدالرّحمن بن عوف في السّير ١ / ٦٨وخبر ميراث الزّبير في البخاري في فرض الخمس باب بركة الغازي بماله حيّاً أو ميّتاً .

زهد الصّوف والجوع والفقر والمسكنةوالتّضاعف ، وإنّما زهد القوّة والإخلاص ، حتّى حُكي عن بعض السّلف ، أنّه كان حين يُزار يفرش بيته بالفاخر من الفراش ، ويلبس أحسن الثّياب حتّى لايُذكر بالزّهد .

قال ابن الجوزي رحمه الله : (كانت النّسبة في زمن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الإيمان والإسلام ، ثمّ حدث اسم زاهد وعابد ، ثمّ نشأ أقوامٌ تعلّقوا بالزّهد والتّعبّد ، واتّخذوا في ذلك طريقةً تفرّدوا بها وأخلاقاً تخلّقوا بها ، وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مئتين ، وقد كان أوائل الصّوفيّة يقرّون بأنّ التّعويل على الكتاب والسّنّة ، وإنّما لبّسْ عليهم إبليس لقلّة علمهم ، وهذا كان أصل تلبيسه عليهم ، وهو أنّه صدّهم عن العلم ، فتخبّطوا في الظّلمات ، وأباحوا لأنفسهم أنواعاً من الفسق والمجون ، والرّياضات الباطلة وحمّلوا أنفسهم ما لم يكلّفهم الله من الجوع والعطش والقعود عن الكسب وترك النّكاح والتّعبد بالقذر وسماع الغناء ومصاحبة الغلمان وتقبيلهم ومعاشرة النّساء الأجنبيّات ، وغير ذلك من صنوف الجهل والخسران ، فالتّصوّف مذهب معروف يزيد على الزّهد ، ويدلّ على الفرق بينهما أنّ الزّهد لم يذمّه أحد وقد ذمّوا التّصوّف وعابوه)(1).

وقال ابن القيّم : (ومن كيده : أمرهم بلزوم زيٍّ واحد ولِبسةٍ واحدة وهيئة ومشية معيّنة ، وطريقةٍ مخترعة ، ويفرض عليهم ذلك بحيث يلزمونه كلزوم الفرائض ، ويقدحون فيمن خرج عنه ويذمّونه ، وهؤلاء اشتغلوا بحفظ الرّسوم عن الشّريعة والحقيقة ، فصاروا واقفين مع الرّسوم المبتدعة ، ليسوا مع أهل الفقه ، ولا أهل الحقائق ، ومن تأمّل هدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسيرته وجده مناقضاً لهدي هؤلاء ، فإنّه كان يلبس القميص تارة ، والقباء تارة ، والجبّة تارة ، والإزار والرّداء تارة ، ويركب البعير وحده ، ومردفاً لغيره ، ويركب الفرس ، مسرجاً وعرياناً ، ويركب الحمار ويأكل ما حضر ، ويجلس على الأرض تارة ، وعلى الحصير تارة وعلى البساط تارة ،

(1) مُلخّصاً من تلبيس إبليس ١٨٥ ـ ١٩٤ .

ويمشي وحده تارة ، ومع أصحابه تارة ، وهديه عدم التّكلّف ، وعدم التّقيّد بغير مايأمره به ربّه ، فبين هديه وهدي هؤلاء بون بعيد)[1] .

وابن حبّان رحمه الله أحسن في ردّ ترّهات الصّوفيّة وترفّعهم عمّا أباح الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم ، زعماً منهم بأنّ ذلك زهد ، أو أنّهم لايقدرون على شكره ، ومن ترفّع عمّا فعله النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قدحاً في نفس الفعل لالسبب عارض فقد قدح في مقامه صلّى الله عليه وسلّم وهوالزّاهد الأكمل صلوات ربّي عليه وسلامه ، فلم يُؤثر عنه أنّه ردّ موجوداً من طعام أو لباس بحجّةٍ من حجج الصّوفيّة ، كما لم يُؤثر عنه أنّه تكلّف مفقوداً ، بل حاله الوسط كما روي عنه صلّى الله عليه وسلّم : (**أجوع يوماً فأصبر ، وأشبع يوماً فأشكر**)[2] ، وهذا هو الّذي عليه الزّاهدون من أهل السّنّة وأهل الحديث ومن سار على نهج المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم وابن حبّان واحد منهم ، والله أعلم .

---

[1] إغاثة اللّهفان ١ / ١٩٥ - ١٩٦ . بتصرّف يسير .

[2] أخرجه أحمد ٥ / ٢٥٤ ، والتّرمذي في الزّهد باب ماجاء في الكفاف والصّبرعليه ، وحسّنه ، وفي إسناده عليّ بن زيد وهو ضعيف كما قال التّرمذي والحافظ في التّقريب .

(الفصل الثّامن)

عقيدة ابن حبّان في الإمامة والأئمّة

.. وفيه تمهيد ومبحثان :

المبحث الأوّل : عقيدته في الإمامة وحقوق الأئمّة .

المبحث الثّاني : رأيه في إمامة الخلفاء الأربعة ، وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأوّل : رأيه في خلافة أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه .

المطلب الثّاني : رأيه في خلافة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه .

المطلب الثّالث : رأيه في خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه .

المطلب الرّابع : رأيه في خلافة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

عقيدة ابن حبّان في الإمامة والأئمّة

الإمامة لغةً : مصدرٌ من الفعل (أمّ)، يُقال : أمّهم وأمّ بهم : تقدّمهم ، وهي الإمامة ، والإمام كلّ ماائتُمّ به من رئيس وغيره .

وقال ابن منظور : (الإمام كلّ من ائتمّ به قوم كانوا على الصّراط المستقيم أو كانوا ضالّين ، والجمع أئمّة)[١] .

والمقصود من البحث هي الإمامة العظمى أو الخلافة ، وأفضل ماقيل في تعريفها ماذكره ابن خلدون رحمه الله حيث قال : (هي حمل الكافّة على مقتضى النّظر الشّرعي في مصالحهم الأخرويّةوالدّنيويّة الرّاجعة إليها ... فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشّرع في حراسة الدّين وسياسة الدّنيا به)[٢] .

والإمام هو الخليفة وهو أمير المؤمنين ، فقدسمّاه الصّحابة يوم السّقيفة أميراً ، [٣] وجاء في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه مرفوعاً: (**وعليكم بسنّة الخلفاء الرّاشدين المهديّين من بعدي**)[٤] ، وقال صلّى الله عليه وسلّم : (**الأئمّة من قريش**)[٥] .

والإمامة واجبة على الأمّة ، لم يخالف في هذا إلاّ شواذّ الخوارج المعتزلة ، قال ابن حزم رحمه الله : (اتّفق جميع أهل السّنّة وجميع المرجئة وجميع الشّيعة وجميع الخوارج[٦] على وجوب الإمامة ، وأنّ الأمّة واجبٌ عليها الانقياد لإمامٍ عادلٍ ، يقيم أحكام الله فيهم ويسوسهم بأحكام الشّريعة)[٧] .

وقال القرطبي رحمه الله : (لاخلاف في وجوب ذلك بين الأمّة ولابين الأئمّة)[٨] .

---

[١] لسان العرب ١٢ / ٢٤ .

[٢] مقدّمة ابن خلدون ص ١٩٠ .

[٣] تقدّم تخريجه ص١٩.

[٤] تقدّم ص ١٩.

[٥] تقدّم ص ١٩.

[٦] إلاّ من شذّ منهم .

[٧] الفصل ٤ / ٨٧ .

[٨] الجامع لأحكام القرآن ١ / ١٨٢ .

وقال القاضي أبو يعلى رحمه الله : (الإمامة واجبة ، وقد قال الإمام أحمد : الفتنة إذا لم يكن إمام يقوم بأمر النّاس ... وطريق وجوبها السّمع لا العقل)[1] .

وقد أجمع الصّحابة رضي الله عنهم على وجوب الإمامة ووجه ذلك أنّهم لّما اجتمعوا في السّقيفة وتحاوروا وتبادلوا الآراء فيمن تكون الإمامة ، لم يقل واحد منهم : إنّ الإمامة غير واجبة فلا داعي لهذا الاختلاف ، بل اختلافهم فيمن تكون ، ومسارعتهم لذلك حتّى قبل دفن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم دليلٌ على إجماعهم على الوجوب لم يخالف فيه أحد منهم .

وقد ضلّ في الإمامة والأئمّة كثير من النّاس : فمن ذلك ضلال الشّيعة في جعل الإمامة أصل الدّين وأهمّ مهمّات الملّة بحيث أصبحت قضيّتهم الكبرى وجعلوا تولية الإمام أمراً واجباً على النّبيّ بيانه ، ولايجوز تركه للأمّة بل هو ممّا بُعث به النّبيّ ، بل هو المحور الّذي تدور عليه عقائدهم ولأجله تكلّفوا الضّلال في سائر أبواب الاعتقاد .

ومن ذلك ضلال البعض في الأئمّة ، فلايرعى لهم حقّاً ، ولايصون لهم حرمة ، ويرى الخروج عليهم لأتفه الأسباب ، وأعراضهم مرتع خصب له يرتع فيه كيف شاء ومتى شاء .

ومنهم من يغلو في تعظيم حرمتهم وحقّهم حتّى يصل به الحال أن يتكلّف تصحيح باطلهم وتسويغ ماهم عليه من الضّلال ، بل يصل الحال ببعضهم أن يتّخذهم مشرّعين من دون الله تعالى .

ومذهب أهل السّنّة والجماعة هو الصّواب وهوالملّة الوسط بين تلك المذاهب كلّها ، فالإمامة عندهم واجبة بالشّرع إذ عليها تقوم مصالح البشر في الدّنيا وبها يُقام الشّرع وتُحمى الأنفس والأعراض ، ولكنّها ليست أصل هذا الدّين ، فتشريعها وحماية جانبها كلّ ذلك يدخل في باب الضّرورات الّتي لابدّ للبشر منها لتنظيم شؤون دنياهم بمقتضى ماأنزل الله على نبيّه صلّى الله عليه

[1] الأحكام السّلطانيّة ص ١٩ .

وسلّم ، وا لله عزّ وجلّ علّق دخول الجنّة على التّوحيد ومعرفة النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم لا على معرفة أحكام الإمامة والأئمّة .

كماأنّ الأئمّة ابتداءً واختياراً لهم شروط فمنها القرشيّة والدّيانة والقوّة والاجتهاد والعقل والحرّيّة ، وغير ذلك ، أمّا إذا تولّى الخلافة بالقوّة ، فلا يبقى من تلك الشّروط سوى الإسلام [1] ، وتجب له سائر حقوق الأئمّة من السّمع والطّاعة في المعروف وكفّ اللّسان والسيفّ عنه إلاّ النّصيحة بالّتي هي أحسن ، والإنكار عليه باللّسان فقط ، وأمّا الخروج عليه والاستهانة به والتّحقير من شأنه على الملأ فتلك سيما أهل البدع .

ومسائل الإمامة والأئمّة كثيرة ، تعرّض ابن حبّان لبعضها ، فتكلّم عن حقوق الأئمّة ، وحكم الخروج عليهم ، وتكلّم عن خلافة الخلفاء الأربعة ، وغير ذلك من مسائل الإمامة ، وهذا بيانها .

---

[1] انظر الإمامة العظمى للدّميجي ص٢٢٢- ٢٢٥ ، ٢٣٣ .

المبحث الأوّل

حقوق الأئمّة عند ابن حبّان وموقفه من الخروج عليهم

تكلّم ابن حبّان عن حقوق الرّعيّة ،وما يجب على الأئمّة من العدل بين من وُلّوا عليهم ، مع لزوم الدّيانة والصّيانة عن مخالفة الشّريعة ، وساق كمّاً من النّصوص عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في معنى ما ذكر ، وهذا القدر ممّا يجب على الأئمّة لايكاد يختلف فيه اثنان ، بل هو ممّا اتّفق عليه سائر المسلمين ، بل وسائر العقلاء ، إذ العدل والمساواة والرّأفة والشّفقة ممّا يجب توفّره في كلّ من تولّى أمر جماعة من النّاس قلّوا أم كثروا ، وعلى العدل قامت السّماوات والأرض ، حتّى قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله : (أمور النّاس تستقيم في الدّنيا مع العدل الّذي فيه الاشتراك في الإثم ، أكثر ممّا تستقيم مع الظّلم في الحقوق وإن لم تشترك في الإثم ... إنّ الله يقيم الدّولة العادلة ولو كانت كافرة ، ولايقيم الدّولة الظّالمة ولو كانت مسلمة ... الدّنيا تدوم مع العدل والكفر ، ولاتدوم مع الظّلم والإسلام)[1] .

ومن هذا المنطلق فلاداعي للإطالة في ذِكر ماقرّره ابن حبّان في ذلك لخروجه عمّا نحن فيه ، ولكنّا سنذكر ما قرّره في حقوق الأئمّة وحكم الخروج عليهم ، إذ فيها وقع الخلاف بين أهل السّنّة وبين بعض الفرق المخالفة :

قال رحمه الله : " ذِكرُ ما يستحبّ للإمام أخذ البيعة من النّاس على شرائط معلومة " ، ثمّ ساق حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : (بايعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة والنّصح لكلّ مسلم)[2] .

---

(1) الفتاوى ٢٨ / ١٤٦ .

(2) الإحسان ١٠/٤١١ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الإيمان باب قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : (الدّين النّصيحة) ، ومسلم في الإيمان باب بيان أنّ الدّين النّصيحة .

وقال أيضاً :" ذِكرُ السّبب الّذي عليه تقع البيعة من الرّعيّة على الأئمّـة " ، وساق حديث ابن عمر رضي ا لله عنهما قال : (كنّـا إذا بايعنـا رسـول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم يُلقّننا : **على السّمع والطّاعة فيما استطعنا**)[1] .

وقـال أيضـاً :" ذِكـرُ الإخبـار عمّـا يجب علـى المرء عنـد بيعـة الأمـراء والخلفاء" ، وساق حديث أبي هريرة رضـي ا لله عنـه قـال : قـال رسـول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**إنّ بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلّما مات نبيّ قام نبي ّ، وإنّه ليس بعدي نبيّ ، فقال رجل : مـايكون بعـدك يارسـول ا لله ؟ قال : خلفاء ويكثرون ، قال : فكيـف تأمرنـا يارسـول ا لله ؟ قـال : أدّوا بيعة الأوّل فالأوّل ، وأدّوا إليهم مالهم ، فـإنّ ا لله سـائلهم عـن الّـذي لكم**)[2] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ نفي إيجاب الطّاعة للمرء إذا دعا إلى معصية ا لله جـلّ وعلا " ، وساق حديث عليّ بـن أبـي طـالب رضـي ا لله عنـه في الّـذي أمر أصحابه بالوثوب في النّار ، فأبى بعضهم وهمّ بعضهـم بـالوقوع فيهـا ، فقـال لهم رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**لاطاعة في معصية ا لله ، إنّما الطّاعة في المعروف**)[3] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ الزّجر عن طاعة المرء لمن دعاه إلى معصية الباري جلّ وعلا " ، وساق حديث عليّ رضـي ا لله عنـه مرفوعـاً : (**لاطاعـة لبشـر في معصية ا لله جلّ وعلا**)[4] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الزّجر عن ترك اعتقاد المـرء الإمـام الّـذي يطيـع ا لله جلّ وعلا في أسبابه " ، ثمّ ساق حديث معاوية رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**من مات وليس له إمام ، مات ميتةً جاهليّة**) ثـمّ قـال : " قولـه صلّـى ا لله عليـه

---

[1] الإحسان ١٠/٤١٦ ، والحديث أخرجه البخاري في الأحكام باب كيف يبايع الإمام النّاس ، ومسلم في الإمارةباب البيعة على السّمع والطّاعة فيما استطاع .

[2] الإحسان ١٠ / ٤١٩ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الأنبياء بـاب مـاذكر عـن بـني إسرائيل ، ومسـلم في الإمارةبـاب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأوّل فالأوّل .

[3] الإحسان ١٠ / ٤٢٩ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في أخبار الآحاد باب ماجاء في إجازة خبر الواحد الصّدوق ، ومسلم في الإمارةباب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية .

[4] الإحسان ١٠ / ٤٣٠ ، وهو مكرّر الّذي قبله مختصراً .

وسلّم : **مات ميتةً جاهليّة** ، معناه : من مـات و لم يعتقـد أنّ لـه إماماً يدعـو النّاس إلى طاعة ا لله حتّى يكون قوام الإسلام به عند الحوادث والنّوازل مقتنعاً في الانقياد على من ليس نعته ما وصفنـا مـات ميتـة جاهليّـة ، وقـال : ظـاهر الخبر أنّ من مات وليس له إمام يريد به النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم مـات ميتـةً جاهليّة ، لأنّ إمام أهل الأرض في الدّنيـا رسـول ا لله صلّى ا لله عليـه وسـلّم فمن لم يعلم إمامته أو اعتقد إماماً غيره مؤثراً قوله على قوله ثمّ مـات ، مـات ميتة جاهليّة)[1] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ إثبات موت الجاهليّة بالمفارق جماعة المسـلمين " ثـمّ ساق قول عبد ا لله بن عمر رضي ا لله عنهما لعبدا لله بن مطيع لّمـا أبـى البيعـة ليزيد بن معاوية في وقعة الحرّة : جئت لأكلّمك كلمتين سمعتهمـا مـن رسـول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم ، سمعت رسول ا لله صلّى ا لله عليـه وسـلّم يقـول : (**من نزع يداً من طاعة لم تكن له حجّـةٌ يـوم القيامـة ، ومـن مـات مفـارق الجماعة فإنّه يموت موتة الجاهليّة**)[2] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ الإخبار بـأنّ على المرء عنـد ظهورالجـور أداء الحـقّ الّذي عليه دون الامتناع على الأمراء " ، وساق حديث ابن مسعود رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**إنّها ستكون أثرة وأمور تنكرونها ، قالوا : يارسول ا لله فما تأمرنا ؟ قال : تُؤدّون الحقّ الّذي عليكم وتسألون الّذي لكم**)[3] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ البيان بأنّ الحـقّ إنّمـا يجب للأمـراء علـى الرّعيّـة إذا رعوهم في الأسباب والأوقات " ، وساق حديث أبـي هريـرة رضـي ا لله عنـه

---

(1) الإحسان ١٠/ ٤٣٤ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٤ / ٩٦ ، والطّبراني ١٧/ح٧٦٩، وإسناده حسن ، وبشـواهده يصحّ ، منها حديث أبي هريرة أخرجه مسلم في الإمارةباب وجوب ملازمة جماعة المسلمين ، وحديث ابـن عمر أخرجـه مسلم في الإمارةباب وجوب ملازمة جماعة المسلمين .

(2) الإحسان ١٠ /٤٣٩ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في الإمارة باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن .

(3) الإحسان ١٠/٤٤٧ ، والحديث أخرجه البخاري في المناقب باب علامات النّبوّة في الإسلام ، ومسلم في الإمارةبـاب وجـوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأوّل فالأوّل .

مرفوعاً : (**إنّ لقريش عليكم حقّاً ماحكموا فعدلوا وائتُمنوا فأدّوا واستُرحموا فرحموا**)[١] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ الزّجر عن الخروج على الأئمّة بالسّلاح وإن جاروا" ، وساق حديث سلمة بن الأكوع مرفوعاً : (**من حمل علينا السّلاح فليس منّا**)[٢] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ الزّجر عن الخروج على أمراء السّوء وإن جاروا بعد أن يكره بالخلد مايأتون " ، وساق حديث عوف بن مالك رضي ا لله عنه وفيه : (**ألا ومن له والٍ فيراه يأتي شيئاً من معصية ا لله فليكره مايأتي من معصية ا لله ولاينزع يداً من طاعته**)[٣] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ مايجب على المرء من ترك الخروج على الأمراء وإن جاروا "[٤] .

تعليق :

هذه التّراجم الّتي ساقها ابن حبّان تدلّ على موافقته للصّحيح من منهج أهل السّنّة والجماعة من طاعة الأئمّة وتوقيرهم وحفظ حقوقهم وأدائها لهم ، ابتداءً من البيعة الصّادقة على السّمع والطّاعة في المنشط والمكره إلاّ في معصية، وعدم نزع اليد من الطّاعة في المعروف وعدم نكث البيعة ومفارقة جماعة المسلمين ، والدّعاء لهم والصّلاة والحجّ والجهاد معهم وتحت رايتهم وإن جاروا واستبدّوا بالحقوق ، فإنّ تلك الحقوق سيسألهم ا لله عنها .

والبيعة سنّة رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم ، وعليها مضى الأئمّة من الخلفاء الرّاشدين ومن بعدهم ، ولايجب أن تؤخذ من آحاد النّاس ، بل الواجب أن يبايع وجوه النّاس ورؤساؤهم ففيهم كفاية عمّن تحتهم ، ولذلك كان رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم يختار النّقباء والرّؤساء لمبايعته ، وكذلك

[١] الإحسان ١٠/٤٤٥ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٢ / ٢٧٠ ، وعبدالرّزّاق في المصنّف ح١٩٩٠٢ ، والطّبراني في الأوسط ح٢٩٨٨ ، وأخرجه عن أنس أيضاً ح٢١٧١ .

[٢] الإحسان ١٠ / ٤٤٨ ، والحديث تقدّم ص٣٧٤.

[٣] الإحسان ١٠ / ٤٤٩ ، والحديث تقدّم ص ٣٧٠.

[٤] الإحسان ١٠ / ٤٥٠ .

كان يصنع مع الوفود ، حيث يقدُم عليه من كلّ قبيلة وجهة وفْدٌ ينوب عمّن وراءهم في البيعة ، وهذا كافٍ في المقصود ، ومن لم يقابل الإمام فالبيعة حاصلة له إذا أدّاها بقلبه ، أو أدّاها عنه من هو فوقه ، فالنّاس تبع لعلمائهم ورؤسائهم الّذين هم أهل الحلّ والعقد ، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله : (بل الإمامة عندهم ـ أي أهل السّنّة ـ تثبت بموافقة أهل الشّوكة عليها ، ولايصير الرّجل إماماً حتّى يوافقه أهل الشّوكة عليها ، الّذين يحصل بطاعتهم له مقصود الإمامة ... فالإمامة ملكٌ وسلطان والملك لايصير ملكاً بموافقة اثنين أو أربعة ، إلاّ أن تكون موافقة هؤلاء تقتضي موافقة غيرهم ... ولو قُدّر أنّ عُمر وطائفة معه بايعوه ـ أي أبي بكر ـ وامتنع سائر الصّحابة عن البيعة لم يصر بذلك إماماً ، وإنّما صار إماماً بمبايعة جمهور الصّحابة الّذين هم أهل الشّوكة، ولهذا لم يضرّ تخلّف سعد بن عبادة لأنّ ذلك لايقدح في مقصود الولاية فإنّ المقصود حصول القدرة والسّلطان اللّذين بهما تحصل مصالح الإمامة ، وذلك قد حصل بموافقة الجمهور على ذلك)[1] .

كذلك فإنّ التّخلّف عن البيعة مخالفٌ للنّصّ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومنهج الصّحابة الكرام .

وقد تبيّن من النّصوص أنّ مفارقة الإمام الّذي اجتمع عليه النّاس ، ومفارقة هذه الجماعة هو من سمات الجاهليّة الّتي جاء الإسلام بضدّها ، فأوجب على النّاس نصب الأمراء وطاعتهم وعدم التّفرّق عنهم والانفراد دونهم ، فمن فعل ذلك فمات فقد مات كما يموت أهل الجاهليّة ، وأمّا ما فسّر ابن حبّان به الحديث من أنّ المقصود به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فهو بعيد ، قال الإمام أحمد وقد سُئل عن الحديث : (تدري من الإمام ؟ : الإمام الّذي يُجمع عليه المسلمون كلّهم يقول : هذا إمام فهذا معناه)[2] .

كما أنّ الواجب على المسلم عند الفتن ووطأة أمراء الجور اجتنابهم وعدم العمل معهم حتّى لايكون في ذلك مدعاة لطاعتهم في معصية الله

---

[1] منهاج السّنّة ١/٥٣٠ . بتصرّف يسير .

[2] السّنّة للخلاّل ١ / ٨١ .

تعالى، وليس ذلك من الخروج عليهم ، فإنّ الخروج المنهي عنه والّذي هو من سيما أهل البدع : هو الخروج بالسّلاح والتّعرّض للولاة وعمّالهم بالسّيف ، فأمّا النّصح لهم وإنكار المنكر عليهم ، واعتزالهم عند الفتنة ، فهو منهج المسلم الباحث عن السّلامة من حقوق النّاس وهو الدّيوان الّذي لايتركه الله أبداً .

وقد سبق الكلام عن الخروج وموقفه منه عند حديثنا عن الخوارج ، فلاداعي لإعادته هنا .

قال عبادة بن الصّامت رضي الله عنه : (عليك بالسّمع والطّاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرةٍ عليك ولاتنازع الأمر أهله ، إلاّ أن يأمروك بمعصية الله بواحاً)[1] .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يصلّي مع ابن الزّبير ومع الحجّاج وكان أبوأيّوب الأنصاري يغزو مع يزيد بن معاوية .[2]

وقال الإمام أحمد رحمه الله وقد سُئل عن طاعة السّلطان : (عافا الله السّلطان ، تنبغي سبحان الله ، السّلطان ؟)، وقال في حديث أبي هريرة رضي الله عنه (**أعطوهم حقّهم الّذي جعل الله لهم ،فإنّ الله سائلهم عمّا استرعاهم**) : ماأحسن هذا الحديث ، كأنّه أعجبه ، وهو قول أهل السّنّة أو كما قال)[3].

وقال لرسول الخليفة المتوكّل : (أرى طاعته في العسر واليسر والمنشط والمكره والأثرة)[4] .

وهكذا كان الأئمّة في طاعة الأمراء والدّعاء لهم ومعونتهم على البرّ والنّصح لهم والوفاء ببيعتهم ما لم يؤمروا بمعصية ، حتّى وإن جاروا وظلموا ما لم يظهر منهم الكفر البواح وعلى هذا كان ابن حبّان رحمه الله ، وقد وُفّق فيما استدلّ به من النّصوص ، إلاّ ما بيّنّا من تفسيره لحديث من مات وليس في عنقه بيعة ، والله تعالى أعلم .

---

[1] شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة ٧/ ١٢٢٨ .

[2] المصدر نفسه ٧/ ١٢٢٨ .

[3] السّنّة للخلاّل ١ / ٧٩ .

[4] السّنّة للخلاّل ١ / ٨٢ .

المبحث الثّاني

آراؤه في إمامة الخلفاء الأربعة الرّاشدين

لم تختلف الأمّة على فضل أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه وصحّة خلافته وأنّه أفضل هذه الأمّة بعد نبيّها صلّى الله عليه وسلّم .

ولّما حدثت الفتنة ، وأذكى نارها ابن السوداء اليهودي : عبدالله بن سبأ[1] وأشياعه ، وحدث الرّفض ، كان ممّا أنتجه الطّعن في خلافة أبي بكر الصّدّيق وعمر بن الخطّاب وعثمّان بن عفّان رضي الله عنهم أجمعين .

واتّخذ الرّفض من بغض الشّيخين والتّبرّي منهما ، والوقيعة فيهما شعاراً، حتّى وصل الحال ببعضهم إلى تكفيرهما عياذاً بالله ، فقام أهل السّنّة بالرّد على الرّافضة والدّفع في حلوقهم بالبراهين السّاطعة والأنوار النّبوية الّتي تدلّ من كان له قلبٌ وعقلٌ أنّ أفضل هذه الأمّة بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبوبكر ثمّ عمر ثمّ عثمان رضي الله عن الجميع ، وأنّ خلافتهم صحيحةٌ ثابتةٌ بإجماع الأمّة لايمتري في ذلك مسلم ولايتشكّك فيه مؤمن .

إلاّ أنّ الجدال بين أهل السّنّة وبين الرّافضة تولّد عنه بعض المسائل : من ذلك : هل خلافة أبي بكر رضي الله عنه كانت بالنّصّ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أم كانت بالشّورى وإجماع الصّحابة ، وإذا كانت بالنّصّ هل هو جليّ أم بالإشارة والتّلميح والدّلالة ؟ .

وقد تكلّم ابن حبّان رحمه الله عن فضائل الخلفاء الأربعة ، وعن خلافة كلّ واحد منهم ، ونبدأ بمن بدأ الله به ورسوله .

---

[1] اليهودي أوّل من ادّعى التّبرّؤ من الخلفاء الثّلاثة قبل علي ، وزعم اغتصابهم للإمامة ، وأوّل من قال بإلاهيّته ، ورجعته ، وأصحابه يُقال لهم السّبئيّة ، وقد حرّقهم عليٌّ بالنّار لّما قالوا له : أنت هو ، وانظر أخباره وفتنته في كتاب الشّيعة والتّشيّع لمؤلّفه الأستاذ إحسان إلهي ظهير رحمه الله ،ص ٤٨ ـ ٧٧ .

المطلب الأوّل

رأيه في خلافة أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه

قال رحمه ا لله : " ذِكرُ إثبات المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم الأخوّة والصّحبة لأبي بكر رضوان ا لله عليه " ، ثمّ ساق حديث عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه عن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم : (**لو كنت متّخذاً خليلاً لاتّخذت أبابكر خليلاً ، ولكنّه أخي وصاحبي**)[1].

وقال أيضاً : " ذِكرُ البيان بأنّ أبابكر رضي ا لله عنه كان من أمنّ النّاس على رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم بماله ونفسه " ، وساق حديث ابن عبّاس رضي ا لله عنهما مرفوعاً : (**إنّه ليس أحد من النّاس أمنّ عليّ بنفسه وماله من أبي بكر ، سدّوا عنّي كلّ خوخة في المسجد غير خوخة أبي بكر**)[2].

وقال أيضاً : " ذِكرُ البيان بأنّ أبابكر الصّدّيق رضي ا لله عنه كان أحبّ النّاس إلى رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم " ، وساق حديث عمر بن الخطّاب رضي ا لله عنه قال : (كان أبوبكر أحبّنا إلى رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم وكان خيرنا وسيّدنا)[3] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ البيان بأنّ أبابكر رضي ا لله عنه يُدعى يوم القيامة من جميع أبواب الجنّة إلى الجنّة لأخذه الحظّ الوافر من كلّ طاعة في الدّنيا " ، وساق حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه في ذِكر أبواب الجنّة ، وفيه : (**فقال أبوبكر : يارسول ا لله ، هل يُدعى أحد من تلك الأبواب كلّها ؟ قال رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم : نعم وأرجو أن تكون منهم**)[4] .

---

[1] الإحسان ١٥/٢٧٢ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في فضائل الصّحابة باب من فضائل أبي بكر الصّدّيق رضي ا لله عنه .

[2] الإحسان ١٥ / ٢٧٥ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في الصّلاة باب الخوخة الممرّ في المسجد .

[3] الإحسان ١٥/٢٧٨ ، والأثر أخرجه أيضاً البخاري في فضائل الصّحابة باب قول النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم : (**لوكنت متّخذاً خليلاً** ...) .في قصّة السّقيفة .

[4] الإحسان ١٥/٢٨٢ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في فضائل الصّحابة باب قول النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم : (**لو كنت متّخذاً خليلاً** ..) ، ومسلم في الزّكاة باب من جمع الصّدقة وأعمال البر .

وقال أيضاً :" ذِكرُ الخبر الدّال على أنّ الخليفة بعد رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم كان أبوبكر الصّدّيق رضي ا لله عنه " ، وساق حديث جبير بن مطعم عن أبيه أنّ امرأةً أتت النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم تسأله شيئاً ، فقال لها: **(ارجعي إليّ ، فقالت له : يارسول ا لله فإن رجعت فلم أجدك ـ تعرّض بالموت ـ قال صلّى ا لله عليه وسلّم : إن لم تجديني فالقي أبابكر)**[1] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ خبر فيه كالدّليل على أنّ الخليفة بعد رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم كان أبوبكر رضي ا لله عنه دون غيره من أصحابه " ، وساق حديث عائشة رضي ا لله عنها في مرض النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم وأمره أبابكر بالصّلاة بالنّاس .[2]

وقال بعد حديث:**(سدّوا كلّ خوخة في المسجد غير خوخة أبي بكر)** :" فيه دليلٌ على أنّ الخليفة بعد رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم كان أبوبكر، إذ المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم حسم عن النّاس كلّهم أطماعهم في أن يكونوا خلفاء بعده غير أبي بكر بقوله:**(سدّوا عنّي كلّ خوخة في المسجد غير خوخة أبي بكر)** رضي ا لله عنه "[3] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ إرادة المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم كتبة الكتاب لأمّته لئلاّ يضلّوا بعده " ، وساق حديث ابن عبّاس رضي ا لله عنهما قال : (لّما حُضر النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطّاب رضي ا لله عنه ، فقال صلّى ا لله عليه وسلّم : **أكتب لكم كتاباً لاتضلّوا بعده أبداً** ، فاختلف أهل البيت واختصموا هل يكتب صلّى ا لله عليه وسلّم أولا ، فقال رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم لهم : **قوموا**)[4] .

---

(1) الإحسان ٢٩١/١٥ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في فضائل الصّحابة باب قول النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم : **(لو كنت متّخذاً خليلاً ..)** ، ومسلم في فضائل الصّحابة باب من فضائل أبي بكر الصّدّيق رضي ا لله عنه .

(2) الإحسان ٢٩٣/١٥ ، والحديث أخرجه البخاري في الصّلاة باب الرّجل يأتمّ بالإمام ، ويأتمّ النّاس بالمأموم ، ومسلم في الصّلاة باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر .

(3) الإحسان ٢٧٦/١٥ ، والحديث تقدّم تخريجه ص٤١٢.

(4) الإحسان ٥٦٣/١٤، والحديث أخرجه البخاري في المغازي باب مرض النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم ووفاته ، ومسلم في الوصيّة باب ترك الوصيّة لمن ليس له شيءٌ يوصي فيه .

ثمّ قال : " ذِكرُ إشارة المصطفى صلّى ا لله عليه وسلّم إلى ماأشار به في أبي بكر الصّدّيق رضي ا لله عنه " ، وساق حديث عائشة رضي ا لله عنها أنّ رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم قال لها في مرضه : (**ادعي لي أبابكر أباك حتّى أكتب ، فإنّي أخاف أن يتمنّى متمنٍّ ويقول أنا أولى ، ويأبى ا لله والمؤمنون إلاّ أبابكر**)[1] .

تعليق :

تكلّم ابن حبّان فيما تقدّم عن فضل أبي بكر الصّدّيق ، وإن كان لم يأت بنصوص واضحة في أنّه خير هذه الأمّة بعد رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم ، ولكنّ ماساقه يدلّ على اعتقاده ذلك ، حتّى إنّه رحمه ا لله يرى أنّ خلافة أبي بكر كانت نصّيّة عن النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم ، وفي هذا مسألتان ، الأولى : أنّ أبا بكر هو خير هذه الأمّة بعد رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم ، والثّانية : أنّ خلافة أبي بكر رضي ا لله عنه صحيحة وهل كانت بالنّصّ أم بالاختيار؟

أمّا تفضيل أبي بكر على سائر الأمّة فهو منهج أهل السّنّة وأعني بهم من سوى الشّيعة ، والأحاديث الّتي ساقها ابن حبّان تدلّ على ذلك ، ويدلّ عليه أيضاً قوله صلّى ا لله عليه وسلّم : (**اقتدوا باللّذين من بعدي أبي بكر وعمر**)[2] .

وقال ابن عمر رضي ا لله عنهما : (كنا نقول و رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم حيّ : أفضل أمّة النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم بعده : أبوبكر ثمّ عمر ثمّ عثمان)[3] ، وهذا إجماعٌ من الصّحابة رضي ا لله عنهم .

وأمّا خلافة أبي بكر رضي ا لله عنه ففي هذه المسألة خلاف عند أهل السّنّة في طريقة إقرارها كما أشرنا قبلُ ، وقد ذهب إلى أنّها نصّيّة كثير من

---

[1] الإحسان ١٤ / ٥٦٤ـ ٥٦٥ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في المرضى باب مارخّص للمريض أن يقول : إنّي وجع ، ومسلم في فضائل الصّحابة باب من فضائل أبي بكر الصّدّيق رضي ا لله عنه .

[2] أخرجه أحمد ٥ / ٣٨٢ ، ٣٨٢ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، والتّرمذي في المناقب باب مناقب أبي بكر وعمر ، وابن ماجة في المقدّمة ح٩٧ ، والحاكم ٣ / ٧٥ ،وغيرهم من حديث حذيفة رضي ا لله عنهما ا لله عنه ، وصحّحه الحاكم والذّهبي والألباني في السّلسلة الصّحيحة ح١٢٣٣ .

[3] أخرجه البخاري في الفضائل باب فضل أبي بكر بعد النّبيّ ، وأبوداود في السّنّة باب في التّفضيل .

أهل الحديث من الخلف والسّلف منهم الحسن البصري وهو رواية عن الإمام أحمد رحمه الله وقال هؤلاء : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نصّ عليه نصّاً خفيّاً وأشار إليه إشارة ، وذهب ابن حزم وبعض أهل الحديث إلى أنّه نصّ على أبي بكر رضي الله عنه نصاً جليّاً وعهد إليه بأمر الخلافة ، واستدلّ هؤلاء بأحاديث تقديمه صلّى الله عليه وسلّم لأبي بكر في الصّلاة بالنّاس ، وحديث: (**لايبقينّ في المسجد خوخة إلاّ سُدّت إلاّ خوخة أبي بكر**) ، وحديث المرأة الّتي قالت له : فإن لم أجدك ؟ فقال لها : (**إن لم تجديني فأتي أبابكر**) ، وحديث عائشة أنّه قال لها : (**ادعي لي أباك أكتب كتاباً ، فإنّي أخاف أن يتمنّى مُتمنٍّ ، ويأبى الله والمؤمنون إلاّ أبا بكر**) ، وحديث (**اقتدوا بالّذين من بعدي : أبي بكر وعمر**)[1] .

وبما في الصّحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (**بينا أنا نائم رأيتني على قليبٍ عليها دلو فنزعت منها ماشاء الله ، ثمّ أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له ، ثمّ استحالت غرباً فأخذها ابن الخطّاب فلم أر عبقريّاً من النّاس يفري فرِيّه حتّى ضرب النّاس بعطن**)[2] .

وكذلك قوله صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه : (**من رأى منكم رؤيا ؟ فقال رجل : أنا رأيت كأنّ ميزاناً أُنزل من السّماء فوُزنت أنت وأبوبكر فرجحت أنت بأبي بكر ،ثمّ وُزن أبوبكر وعمر فرجح أبوبكر ، ووُزن عمر وعثمان فرجح عمر ، ثمّ رُفع الميزان فرأيت الكراهة في وجه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم**)[3] .

---

(1) تقدّم تخريج هذه الآحاديث قريباً في أوّل المطلب .

(2) أخرجه البخاري في فلضائل الصّحابة باب قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : (**لوكنت متّخذاً خليلاً ..**) ومسلم في فضائل الصّحابة باب من فضائل عمر رضي الله عنه .

(3) أخرجه أحمد ٥ / ٤٤ ، ٥٠ ، وأبوداود في السّنّة باب في الخلفاء والتّرمذي في الرّؤيا باب رؤيا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الميزان والدّلو ، والحاكم ٣ / ٧٠ - ٧١ ، وغيرهم من حديث أبي بكرة رضي الله عنه وصحّحه الألباني في السّنّة لابن أبي عاصم ح١١٣١ ، ١١٣٥ .

وغير ذلك من النّصوص فقال الحسن ومن معه إنّ هذا نصٌّ خفي وإشارة ، وقال ابن حزم ومن معه إنّ هذا نصٌّ جليّ .

وذهب كثير من العلماء والمعتزلة والأشاعرة إلى أنّ خلافة أبي بكر الصّدّيق ثبتت بالاختيار واستدلّوا على ذلك بقول عمر رضي الله عنه : (إن أستخلف فقد استخلف من هو خير منّي يعني أبا بكر ، وإن لاأستخلف فلم يستخلف من هو خير منّي يعني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم)[1] .

وبما روي عن عائشة رضي الله عنها أنّها سُئلت : من كان رسول الله مستخلفاً لو استخلف ؟ فقالت : (أبوبكر ثمّ عمر ثمّ أبو عبيدة)[2] .

والصّحيح مارجّحه شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله حيث قال بعد سرد الأقوال : (والتّحقيق أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم دلّ المسلمين على استخلاف أبي بكر وأرشدهم إليه بأمور متعدّدة من أقواله وأفعاله ، وأخبر بخلافته إخبار راضٍ بذلك حامدٍ له ، وعزم أن يكتب بذلك عهداً ثمّ علم أنّ المسلمين يجتمعون عليه فترك الكتاب اكتفاءً بذلك ، فلو كان التّعيين ممّا يشتبه على الأمّة لبيّنه بياناً قاطعاً للعذر ، لكن لمّا دلّهم دلالات متعدّدة على أنّ أبابكر هو المتعيّن وفهموا ذلك حصل المقصود ، ومثل هذه الأمور كلّما تدبّرها العالم وتدبّر النّصوص الثّابتة وسير الصّحابة ، حصل له علوم ضروريّة لايمكنه دفعها عن قلبه أنّه كان من الأمور المشهورة عند المسلمين أنّ أبابكر مقدّم على غيره وأنّه كان عندهم أحقّ بخلافة النّبوّة ، وأنّ الأمر في ذلك ظاهر عندهم ليس فيه اشتباه عليهم ، ولهذا قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : **يأبى الله والمؤمنون إلاّ أبا بكر** ، ومعلومٌ أنّ هذا العلم الّذي عندهم بفضله وتقدّمه إنّما استفادوه من النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأمورٍ سمعوها وعاينوها وحصل بها لهم من العلم ماعلموا به أنّ الصّدّيق أحقّ الأمّة بخلافة نبيّهم ، وأفضلهم عند نبيّهم ، وأنّه ليس فيهم من يشابهه حتّى يحتاج في ذلك إلى مناظرة ، فخلافة أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه دلّت النّصوص الصّحيحة

---

[1] أخرجه البخاري في الأحكام باب الاستخلاف ومسلم في الإمارةباب الاستخلاف وتركه .

[2] أخرجه مسلم في فضائل الصّحابة باب من فضائل أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه .

على صحّتها وثبوتها ورضا الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم بها ، وانعقدت بمبايعة المسلمين له واختيارهم إيّاه اختياراً استندوا فيه إلى ماعلموه من تفضيل الله و رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأنّه أحقّهم بهذا الأمر عند الله ورسوله ، فصارت ثابتةً بالنّصّ والإجماع جميعاً .

ولكنّ النّصّ دلّ على رضا الله ورسوله بها وأنّها حقّ وأنّ الله أمر بها وقدّرها ، وأنّ المؤمنين يختارونها ، وكان هذا أبلغ من مجرّد العهد بها ، لأنّه حينئذٍ كان يكون طريق ثبوتها مجرّد العهد .

وأمّا إذا كان المسلمون قد اختاروه من غير عهد ، ودلّت النّصوص على صوابهم فيما فعلوه ، ورضا الله ورسوله بذلك ، كان ذلك دليلاً على أنّ الصّدّيق كان فيه من الفضائل الّتي بان بها عن غيره ، ماعلم المسلمون به أنّه أحقّهم بالخلافة ، وأنّ ذلك لايحتاج فيه إلى عهد خاص)[1] .

وهذا التّحقيق لامزيد عليه ، وممّا يؤيّد أنّ النّصّوص المرويّة لاتُعتبر نصّاً جليّاً في استخلاف أبي بكر رضي الله عنه ، أنّ الصّحابة يوم السّقيفة اختلفوا فيمن يكون الأمر بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومع ذلك لم يحتجّ محتجٌّ بمثل هذه النّصوص لقطع الخلاف بينهم ، وهذا إجماع منهم على أنّ المراد من تلك النّصوص جميعها ليس النّصّ والتّعيين لأبي بكر وإلاّ فيستحيل أن تكون تلك النّصوص كلّها تدلّ على تعيين أبي بكر والدّلالة عليه شخصاً للخلافة ثمّ لايكون من الصّحابة وهم متوافرون من يفهم منها مافهمه من قال بالنّصّ الجليّ ، وهذا الّذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيميّة فيه جمع بين قول من ذهب إلى أنّها ثبتت بالنّصّ الخفي والإشارة وقول من ذهب إلى أنّها ثبتت بالاختيار ، فهي في ظاهرها كانت بالاختيار ولكن لم يكن لأصحابه صلّى الله عليه وسلّم أن يحيدوا عن أبي بكر الصّدّيق بعد كلّ ماثبت في حقّه رضي الله عنه .

وكلام ابن حبّان لايُفهم المراد منه على وجه الدّقّة ، هل هو النّصّ الجلي كقول ابن حزم ومن وافقه ، أم الإشارة والدّلالة كقول الحسن ومن

---

[1] منهاج السّنّة ١/٥١٦ ـ ٥٢٥ .

وافقه ، وفي كلا الحالين فالصّحيح ماقدّمنا ، والخلاف داخل دائرة أهل السّـنّة ، ولكلّ قول مستند من النّصوص الشّرعيّة وكلّها تصبّ في مصبّ واحد وهو صحّة خلافته رضي الله عنه وأنّه أولى النّـاس بهـا بعـد رسـول الله صلّـى الله عليه وسلّم .

المطلب الثّاني

رأيه في خلافة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه

الخليفة الرّاشد عمر بن الخطّاب رضي ا لله عنه ، الرّجل الثّاني بعد رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم في الفضل ، اتّفقت الأمّة كلّها غير الرّافضة على فضله وسابقته وأنّه خير الأمّة بعد رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم وأبي بكر الصّدّيق رضي ا لله عنه .

وقد حاول الرّافضة الطّعن في إسلامه وفي صحّة خلافته أسوةً بأبي بكر رضي ا لله عنهما وزعموا أنّ الصّحابة ومنهم الشّيخان تآمروا على غصب الخلافة من عليّ بن أبي طالب رضي ا لله عنه ، وهي محاولة باءت بالفشل الذّريع لمصادمتها النّصوص الصّحيحة المشهورة والصّريحة الّتي تكذّبهم في دعواهم وتبيّن فضله ومكانته من رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم .

وقد بيّن ابن حبّان رحمه ا لله زيف هذه الدّعاوى ، وسرد النّصوص الدّالّة على فضله ومكانته وصحّة خلافته .

قال رحمه ا لله : " ذِكرُ البيان بأنّ المسلمين كانوا في عزّةٍ لم يكونوا في مثلها عند إسلام عمر رضي ا لله عنه " ، وساق حديث عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه قال : (مازلنا أعزّة منذ أسلم عمر)[1] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ إثبات الجنّة لعمر بن الخطّاب رضي ا لله عنه " ، وساق حديث بن مسعود رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**عمر بن الخطّاب من أهل الجنّة**)[2].

وقال أيضاً :" ذِكرُ البيان بأنّ عمر بن الخطّاب رضي ا لله عنه كان من أحبّ أصحاب رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم إليه بعد أبي بكر ." ثمّ ساق حديث عمرو بن العاص رضي ا لله عنه قال : قلت : (**يارسول ا لله أيّ النّاس أحبّ إليك ؟ قال : عائشة ، قلت : فمن الرّجال ؟ قال : أبوها**

---

(1) الإحسان ١٥ /٣٠٤ ، والحديث أخرجه البخاري في فضائل الصّحابة باب مناقب عمر بن الخطّاب رضي ا لله عنه .

(2) الإحسان ١٥/٣٠٨ ، والحديث في إسناده ضعف ، وقدكرّره المؤلّف ١٥ / ٣٣١ ، بإسناد صحيح .

أبوبكر ، قلت : ثمّ من ؟ قال : ثمّ عمر بن الخطّاب ، ثمّ عدّ رجالاً)[1].

وقال أيضاً :" ذِكرُ البيان بأنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه كان أحبّ النّاس إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد أبي بكر رضي الله عنه"، وساق نفس الحديث .[2]

وقال أيضاً :" ذِكرُ إخبار المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أمّته بدين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه " ثمّ ساق حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : (**بينما أنا نائم رأيت النّاس يُعرضون عليّ وعليهم قمص ، منها مايبلغ الثّديين ، ومنها ماهو أسفل من ذلك ، وعُرض عليّ عمر وعليه قميص يجرّه ، فقال من حوله : ماأوّلت يانبيّ الله ذلك ؟ قال : الدّين)**[3].

وقال أيضاً : " ذِكرُ رضا المصطفى صلّى الله عليه وسلّم عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه عند فراقه الدّنيا " ، ثمّ ساق حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله لعمر لمّا طُعن : (وتوُفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو عنك راضٍ)[4] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ الخبر الدّالّ على أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه كان من المُحدَّثين في هذه الأمّة " ، وساق حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : (**قد كان يكون في الأمم مُحدَّثون ، فإن يكن في أمّتي أحد فهو عمر بن الخطّاب)**[5] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ الخبر الدّالّ على أنّ الخليفة بعد أبي بكر كان عمر رضي الله عنه " ، وساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : (**بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو**

---

[1] الإحسان ١٥/٣٠٩ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في فضائل الصّحابة باب قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : (لو كنت متّخذاً خليلاً) ، ومسلم في فضائل الصّحابة باب من فضائل أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه .

[2] الإحسان ١٥/٣٢٦ .

[3] الإحسان ١٥/٣١٣ ـ ٣١٤ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في التّعبير باب القمص في المنام ، ومسلم في فضائل الصّحابة باب من فضائل عمر رضي الله عنه .

[4] الإحسان ١٥/٣١٤ـ٣١٥ ، وقول ابن عبّاس أخرجه الحاكم ٣ / ٩٢ ، وإسناده مقارب .

[5] الإحسان ١٥/٣١٧ ، والحديث أخرجه مسلم في فضائل الصّحابة باب من فضائل عمر رضي الله عنه .

فنزعت منها ماشاء ا لله ، ثمّ أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعه ضعف وا لله يغفرله ، ثمّ استحالت غرباً فأخذها ابن الخطّاب فلم أر عبقريّاً من النّاس يفري فرِيّه حتّى ضرب النّاس بعطن) ، ثمّ قال : " رؤيا النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم وحي ، فأرى ا لله جلّ وعلا صفيّه صلّى ا لله عليه وسلّم في منامه كأنّه على قليب ، والقليب في انتفاع المسلمين به ، كأمر المسلمين ، ثمّ قال : فنزعت منها ماشاء ا لله ثمّ أخذ منّي ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين ، يريد أمر المسلمين فالذّنوبان كانا خلافة أبي بكر رضي ا لله عنه سنتين وأيّاماً ، ثمّ قال : ثمّ أخذها عمر بن الخطّاب ، فصحّ بما ذكرت استخلاف عمر بعد أبي بكر رضي ا لله عنهما بدليل السّنّة المصرّحة الّتي ذكرناها "[1] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ البيان بأنّ الصّدّيق والفاروق يكونان في الجنّة سيّدا كهول الأمم فيها " ثمّ ساق حديث أبي جحيفة مرفوعاً : (**أبوبكر وعمر سيّدا كهول أهل الجنّة من الأوّلين والآخرين ، إلاّ النّبيّين والمرسلين**)[2] .

تعليق :

واضح ممّا سبق أنّ ابن حبّان يمعن في بيان فضل الشّيخين ومنهما عمر بن الخطّاب وقد توسّع في ذِكر فضائله رضي ا لله عنه ، وهو بذلك يدفع في حلوق الرّافضة الّذين خالفوا إجماع المسلمين في إمامة الشّيخين ، وأبغضوهما، بل وكفّروهما وتبرؤوا منهما .

وسائر المسلمين على صحّة خلافة عمر وأنّه أفضل هذه الأمّة بعد رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم وأبي بكر رضي ا لله عنه ، وأنّه أولى بالخلافة من غيره ، بالنّصّ الثّابت عن رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم في فضله رضي ا لله عنه .

---

(1) الإحسان ١٥/٣٢٢-٣٢٤ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في فضائل الصّحابة باب قول النّبيّ صلّى ا لله عليه وسلّم : (**لوكنت متّخذاً خليلاً**) ومسلم في فضائل الصّحابة باب من فضائل عمر رضي ا لله عنه .

(2) الإحسان ١٥/٣٣٠ ، والحديث ، أخرجه أيضاً ابن ماجة في المقدّمة ح١٠٠ ، وله شواهد من حديث عليّ وأنس وأبي هريرة وأبي سعيد ، وإسناده صحيح .

وابن حبّان أشار إلى أنّه كان أحقّ بالخلافة من غيره بقوله : " ذِكرُ الخبر الدّال على أنّ الخليفة بعد أبي بكر كان عمر رضي الله عنهما " واستدلّ بحديث رؤيا القليب ، وهو استدلال صحيح من حيث إنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم دلّ أمّته وحثّهم على استخلاف عمر بعد أبي بكر رضي الله عنه بما ثبت من الأحاديث في فضله ، وقد صحّ عنه صلّى الله عليه وسلّم قوله : (**اقتدوا باللّذين من بعدي أبي بكر وعمر**)[1] ، وقد تكوّن بذلك علوم يقينيّة عند الأمّة أنّ أولى النّاس بالخلافة بعد أبي بكر عمر رضي الله عنه ، وقد فهم ذلك جيّداً أبوبكر رضي الله عنه فاستخلفه ، وقال لمن راجعه : (أبا لله تخوّفني ؟ أقول : اللّهمّ إنّي استخلفت عليهم خير أهلك)[2] .

وعلى ذلك تتابعت أجيال المسلمين ، ماخلا الرّافضة الّتي رفضت الكتاب والسّنّة والعقل والجماعة ، ورفضت كلّ ما يخالف هواها الهاوي في الضّلال ، المغرق في الحقد والبغض لصحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وقد وافق ابن حبّان أهل السّنّة والجماعة في كلّ ماتقدّم من أفضليّة عمر على سائر الأمّة بعد أبي بكر ، وصحّة خلافته رضي الله عنه ، وأنّه كان أحقّهم بها ، وهو مقتضى النّصّ من الكتاب والسّنّة ، رحمه الله رحمة واسعة.

---

(1) تقدّم ص٤١٤.

(2) الإمامة للأصبهاني ص٢٨١، و الطّبقات لابن سعد ٢٠٧/٣ وفيه أنّ القائل له طلحة وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما.

المطلب الثّالث

رأيه في خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه

هو ذو النّورين (*) ، وزوج البنتين ، عثمان بن عفّان بن أبي العاص بن أميّة القرشي الأموي أمير المؤمنين ، وثالث الخلفاء الرّاشدين ، الإمام الشّهيد رضي الله عنه وأرضاه .

حدثت في عهده الفتنة وتآلب عليه أهل الخروج وتآمر عليه المتآمرون من أشياع ابن اليهوديّة وغيرهم فقتلوه في أبشع قصص القتل الّتي سطّرها التّاريخ ، ممّا يدلّ على أنّ المنفّذين مجموعات رُبّيت على الخيانة ، وغُذّيت بالحقد ، حتّى لم يستجيبوا لنداء عقل ، ولاوازع تقوى ، ولا تحرّك في قلوبهم إيمانٌ أو رحمة لشيخ جاوز الثمّانين ، وهم يعلمون أنّ أصحابه لو قاموا في وجوههم ما وصلوا له ، ولكنّه أبى أن تُراق قطرة من دم بسببه رضي الله عنه.

وقد اشترك الرّافضة والخوارج على ذمّ عثمان وتكفيره والتّبرؤ منه ، وقذفوه بالعظائم رضي الله عنه ، وأمّا ابن حبّان رحمه الله فقد نقل من النّصوص ماستدلّ به على فضله وسابقته وأنّه أفضل الأمّة بعد الشّيخين رضي الله عنهم أجمعين ، وبيّن أنه كان أولى النّاس وأحقّهم بالخلافة بعد عمر رضي الله عنه .

قال رحمه الله : " ذِكرُ تعظيم المصطفى صلّى الله عليه وسلّم عثمان إذ الملائكة كانت تعظّمه " ثمّ ساق حديث عائشة رضي الله عنها وفيه :(**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة**)[1].

وقال أيضاً :" ذِكرُ أمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يُبشّر عثمان بن عفّان بالجنّة " ، وساق حديث أبي موسى أنّ رسول الله صلّى الله عليه

(*) سُمّي بذي النّورين لأنّه تزوّج ببنتي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رقيّة وأمّ كلثوم ، طبقات ابن سعد ٤١/٣ .

(1) الإحسان ٣٣٦/١٥ ، والحديث أخرجه أيضاً مسلم في فضائل الصّحابة باب فضائل عثمان بن عفّان رضي الله عنه .

وسلّم كان في حائط فاستفتح عليه رجل فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : (**افتح له وبشّره بالجنّة**) فإذا هو عثمان.[1]

وقال : " ذِكرُ الخبر الدّال على أنّ الخليفة بعد عمر بن الخطّاب عثمان بن عفّان رضي الله عنهما " ثمّ ساق حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنّه كان يحدّث أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : (**إنّي أُريت الّليلة رجلٌ صالح أنّ أبابكر نيط برسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونيط عمر بأبي بكر ونيط عثمان بعمر**) قال جابر : فلمّا قمنا من عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قلنا : أمّا الرّجل الصّالح فرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأمّا ما ذُكِر من نوط بعضهم ببعض ، فهم ولاة هذا الأمر الّذي بعث الله به نبيّه صلّى الله عليه وسلّم .[2]

وقال أيضاً : " ذِكرُ الخبر الدّال على أنّ عثمان بن عفّان عند وقوع الفتن كان على الحق " ، وساق حديث مرّة البهزي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذكر الفتن فقالوا : نصنع ماذا يانبيّ الله ؟ قال : (**عليكم بهذا وأصحابه**) فإذا الرّجل : عثمان بن عفّان رضي الله عنه .[3]

وقال أيضاً :" ذِكرُ رضا المصطفى صلّى الله عليه وسلّم عن عثمان بن عفّان رضي الله عنه عند خروجه من الدّنيا " ، وساق حديث مقتل عمر رضي الله عنه وفيه أنّه قيل له ، استخلف ياأمير المؤمنين ، فقال : (ماأرى أحداً أحقّ بهذا الأمر من هؤلاء النّفر الّذين تُوفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو عنهم راضٍ)، فذكر منهم عثمان رضي الله عنه.[4]

---

[1] الإحسان ١٥ /٣٤٠ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في فضائل الصّحابة باب مناقب عثمان بن عفّان ، ومسلم في فضائل الصّحابة باب فضائل عثمان بن عفّان .

[2] الإحسان ١٥ / ٣٤٣ ، والحديث أخرجه أحمد ٣ / ٣٥٥ ، وأبوداود في السّنّة باب في الخلفاء ، والحاكم ٣ /٧١ ، وصحّحه ووافقه الذّهبي ، وفي لفظ آخر : (**أُري الّليلة رجل صالح**) ، وأشار الألباني إلى ضعفه في السّنّة لابن أبي عاصم ح١١٣٤ ، لأنّ مداره على عمرو بن أبّان بن عثمان بن عفّان ، وهو مجهول وسماعه من جابر فيه شكّ.

[3] الإحسان ١٥ / ٣٤٤ ، والحديث أخرجه أحمد ٤ / ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٥ / ٣٣ ، ٣٥ ، والتّرمذي في المناقب باب مناقب عثمان بن عفّان والطّبراني في الكبير ٢٠ / ح٧٥١ ، ٧٥٢ وغيرهم ، قال التّرمذي : هذا حديث حسنٌ صحيح .

[4] الإحسان ١٥/٣٥٠ ، والحديث أخرجه أيضاً البخاري في فضائل الصّحابة باب قصّة البيعة .

وقال أيضاً : " ذِكرُ مغفرة الله جلّ وعلا لعثمان بن عفّان رضي الله عنه بتسبيله رومة " ، ثمّ ساق حديث الأحنف بن قيس ، وفيه قول عثمان للصّحابة : (أنشدكم بالله الّذي لاإله إلاّ هو ، أتعلمون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : **من يبتاع رومة غفر الله له** ؟ فابتعتها بكذا وكذا ثمّ أتيته فقلت : قد ابتعتها فقال : **اجعلها سقاية للمسلمين وأجرها لك** ، فقالوا: اللهمّ نعم)[1] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الخبر المدحض قول من زعم أنّ بشرى عثمان بن عفّان بالجنّة كان ذلك في الوقت الّذي قال ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل أن يلي الخلافة ، وكان منه ما كان " ، وساق حديث أبي موسى المتقدّم وفيه قوله صلّى الله عليه وسلّم عن عثمان رضي الله عنه : (**ائذن له وبشّره بالجنّة على بلوى شديدة تصيبه**)[2] .

تعليق :

افتأت الخوارج على عثمان رضي الله عنه مظالم إمّا مكذوبة مختلقة ، وإمّا اجتهادات هي من باب النّظر في المصالح ، لايُعاب فاعلها ، بل هي من صلاحيّات وليّ الأمر الّتي فعلها من هو خير من عثمان ويفعلها من هو دونه ، غير أنّ الحقد والحسد ، والكيد للإسلام يجعل الحسن قبيحاً .

قال ابن العربي رحمه الله : (ولمّا صحّت إمامته قُتل مظلوماً ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، ما نصب حرباً ، ولاجيّش عسكراً ، ولاسعى إلى فتنة، ولادعا إلى بيعة ، ولاحاربه ولانازعه من هو من أضرابه وأشكاله ، ولاكان يرجوها لنفسه ... وقد سمّوا من قام عليه ، فوجدناهم أهل أغراض سوء ، حيل بينهم وبينها ... ولو أراد عثمان لكان مستنصراً بالصّحابة ، ولنصروه في لحظة ، وأراد الصّحابة إليهم ، فأوعز إليهم عثمان لايقاتل أحد بسببه أبداً ،

---

[1] الإحسان ٣٦٢/١٥ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ١ / ٧٠ ، والنّسائي في الأحباس باب وقف المساجد ، وإسناده حسن .

[2] الإحسان ١٥ / ٣٤٠ والحديث تقدّم ص٤٢٤.

فاستسلم وأسلموه برضاه ، فلم يأت عثمان منكراً لا في أوّل الأمر ولا في آخره ، وكلّ ما سمعت من خبر باطل إيّاك أن تلتفت إليه)[1] .

ولو كان المجال يتّسع لفصّلت في ذكر تلك التّهم وذكر ردود أهل السّنّة عليها .

وقد ردّ عليهم رحمه الله في دعوى أنّ النّصوص في فضائل عثمان إنّما كانت قبل أن يلي الخلافة ، ولذلك يتولاّه الخوارج إلى أن غيّر وبدّل ـ زعموا قبّحهم الله ـ فذكر النّصّ القاطع أنّ بشراه بالجنّةوالشّهادة محفوظةٌ محكمة إلى أن يموت ، بل إنّ الشّهادة كانت بسبب تلك الفتنة العظيمة كما أخبر بذلك الصّادق المصدوق صلّى الله عليه وسلّم .

والّذي يتبيّن من استعراض نصوص السّيرة وأحاديث المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ، أنّه عليه الصّلاة والسّلام قد دلّ الأمّة قبل أن يموت على الخلفاء الأربعة ، وأنّه كان يعلم صلّى الله عليه وسلّم من سيلي هذا الأمر بعده ، يدلّ على ذلك حديث الرّؤيا ، وكذلك قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**عليكم بسنّة الخلفاء الرّاشدين المهديّين من بعدي**) ، فلو لم يكن يعرفهم ما حثّ المسلمين باتّباع سنّتهم ، وكذلك حديث:(**تدور رحى الإسلام على ستّ وثلاثين**)[2] وقوله : (**الخلافة ثلاثون سنة**)[3] ، ومن ذلك نعرف أنّ كلام شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله المتقدّم في ذِكر خلافة أبي بكر رضي الله عنه منطبقٌ على خلافة الأربعة ، وقد ذكر الأصبهاني أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه كان يعلم أنّ الخليفة بعده عثمان رضي الله عنه ، فقد روى عن حارثة بن مضرّب قوله : (حججت مع عمر أوّل خلافة عمر فلم يشكّ أنّ الخليفة بعده عثمان بن عفّان رضي الله عنه)[4] .

---

(1) العواصم ص٧٥ .

(2) أخرجه أحمد ١ / ٣٩٠ ، وأبوداود في الفتن باب ذكر الفتن ودلائلها ، وغيرهم عن عبدا لله بن مسعود .

(3) أخرجه أحمد ٥ / ٢٢١ ، وابوداود في السّنّة باب في الخلفاء ، والتّرمذي في الفتن باب ماجاء في الخلافة ،والحاكم ٣ / ٧١ ، وغيرهم عن سفينة مولى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وصحّحه الألباني في السّلسلة الصّحيحة ح٤٥٩ .

(4) الإمامة لأبي نعيم ص٣٠٦ .

وكذلك روى عن حذيفة قوله : (إنّي لواقفٌ مع عمر تمسّ ركبتي ركبته فقال : من ترى قومك مؤمّرون ؟ ، قال : إنّ النّاس قد أسندوا أمرهم إلى ابن عفّان)[1] .

وهذا الأمر كان متقرّراً عند الصّحابة لاشكّ ولاريب ، وقد سبق قول ابن عمر رضي الله عنهما أنّهم كانوا يقولون ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم حيّ : أبو بكر ثمّ عمر ثمّ عثمان ، وكان عليّ رضي الله عنه يقول عن عثمان : (لقد كان أوصلنا للرّحم)[2] ، وقال أيضاً : (عثمان كان خيرنا وأفقهنا)[3] .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (أمّرنا خير من بقي و لم نأله)، وقال أيضا: (ماآلوناكم عن أعلاها فوقاً أو ذي فوق)[4] .

وفي قصّة استخلافه رضي الله عنه قول عبدالرّحمن بن عوف على ملإٍ من الصّحابة : (ياعليّ إنّي نظرت في أمر النّاس فلم أرهم يعدلون بعثمان)[5] .

ولذلك أجمعت الأمّة على استخلاف عثمان و لم يُختلف عليه كما اختلف على غيره ، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله : (عثمان لم يصر إماماً باختيار بعضهم ، بل بمبايعة النّاس له ، وجميع المسلمين بايعوا عثمان بن عفّان ، و لم يتخلّف عن بيعته أحد ، قال الإمام أحمد رحمه الله : ما كان في القوم أوكد بيعةً من عثمان ، كانت بإجماعهم)[6] .

وكونه رضي الله عنه كان على الحقّ إبّان الفتنة لايُخالف فيه إلاّ ذووا الحماقة والبدعة ، ويكفي أنّ الصّحابة أجمعوا على فضله وبراءته وأنّه لم يشارك أحد منهم في فتنته ، قال القاضي ابن العربي رحمه الله : (وبه يتبيّن أنّ أحداً من الصّحابة لم يسع عليه ولاقعد عنه ولكنّه ألقى بيده إلى المصيبة...

(1) الإمامة ٣٠٦ .
(2) الإمامة ص ٣٠٧ .
(3) الإمامة ص ٣٠٨ .
(4) الإمامة ٣٠٧ .
(5) فتح الباري١٣/١٩٣ .
(6) منهاج السّنّة ١/٥٣٢ .

فالّذي ينخل من ذلك أنّ عثمان مظلومٌ محجوجٌ بغير حجّة ، وأنّ الصّحابة برآء من دمه بأجمعهم لأنّهم أتوا إرادته وسلّموا له رأيه في إسلام نفسه)[1] .

وبهذا يتّضح موافقة ابن حبّان لماعليه أهل السّنّة والجماعة من موالاة عثمان وأنّه خير هذه الأمّة بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين ، وأنّ خلافته صحيحة ثابتةبإجماع الصّحابة وأنّ هذه الأحكام ثابتةٌ له يلقى الله عليها ، خلاف ماعليه الخوارج كلاب النّار، وبالتّالي فهو خيّر من عليّ رضي الله عنه بشهادته هو ، خلاف ماعليه الرّوافض عليهم لعائن الله المتتابعة ، ورضي الله عن صحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أجمعين .

---

(١) العواصم /١٤٣-١٤٥ .

المطلب الرّابع

رأيه في خلافة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه

هو عليّ بن أبي طالب بن عبدالمطّلب بن هاشم بن عبد منـاف ، الإمـام الخليفة الرّاشد ، أسد قريـش ، وابـن عـمّ رسـول الله صلّـى الله عليـه وسـلّم وزوج فاطمةالزّهراء بنت محمّد رضي الله عنها ، ومناقبه أكثر من أن تُحصى.

كان عليّ رضي الله عنه المحور الّذي تدور عليه أغلـب عقـائد الشّـيعة ، من حيث الغلوّ في محبّته ، والغلوّ في بغض من اختلف معه بل وكلّ من سواه ، كما كان مهلكـةً للغـالين في بغضـه وعداوتـه مـن الخـوارج والنّواصـب وغيرهـم .

أمّا الشّيعة فزعمت أنّه خير الأمّة وأفضلها بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ومنهم من صعد به فوق مرتبة النّبوّة ، ومنهم من ارتقى به إلى درجـة الألوهيّة نعوذ بالله من الخذلان .

وزعموا فيما زعموا أنّه الخليفة بعـد رسـول الله صلّـى الله عليـه وسـلّم بالنّصّ والوصيّة ، وأنّ الصّحابة غصبوه إيّاها ظلماً منهم وقالوا ببطـلان إمامـة الخلفاء قبله ، وكفّروا الصّحابة بناءً عليه ، ومنهم من ادّعـى خيانـة جـبريل في الرّسالة حيث صرفها لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم وهي أصلاً لعليّ نعـوذ بـالله تعالى من الكفر .

وزعموا كذلك أنّ عليّاً وأهل بيته اختُصّوا بأشياء مـن دون النّـاس منهـا الإمامة فجعلوها في أولاده ، وادّعوا عصمة الأئمّة وادّعوا كذلـك لهـم علومـاً لدنيّة ، وأنّ لهم الطّاعة المطلقة كطاعة الأنبيـاء سـواء بسـواء ، وأشياء أخـرى يطول المقام بذكرها .

وأمّا الخوارج فقالوا بنـاءً علـى مـاحدث أيّام الفتنـة بـين معاويـة وعلـيّ بكفره رضي الله عنه وأنه بدّل وغيّر إذ محا نفسه من أمرة المؤمنين ، والنّاصبـة

كذلك ناصبوه العداوة ولعنوه وسبّوه ، وصدق رضي الله عنه حين قال : (يهلك فيّ رجلان ، مُفرط في حبّي ، ومفرط في بغضي)[1] .

وأمّا أهل السّنّة الأمّة الوسط فتقول : إنّه أمير المؤمنين حقّاً ، وإمام المسلمين صدقاً ، وهو خير هذه الأمّة بعد عثمان رضي الله عنه : على خلاف بينهم في الوقوف على عثمان ، وأنّه رضي الله عنه كان على الحقّ فيما شجر بينه وبين معاوية رضي الله عنه وإن كان ترك القتال أولى .

وابن حبّان رحمه الله أكّد على هذه المعاني فكان من أهل السّنّة حقّاً وصدقاً ، قال رحمه الله : " ذِكرُ البيان بأنّ أذى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه مقرون بأذى المصطفى صلّى الله عليه وسلّم " ، وساق حديث عمرو بن شماس رضي الله عنه قال : (**قال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : قد آذيتني ، قلت : يا رسول الله ماأحبّ أن أوذيك ، قال : من آذى عليّاً فقد آذاني**)[2] .

قال رحمه الله : " ذِكرُ الخبر الدّالّ على أنّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه كان في تلك الوقعة على الحق " ، ثمّ ساق حديث أمّ سلمة رضي الله عنها مرفوعاً :(**تقتل عمّاراً الفئة الباغية**)[3] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الخبر الدّالّ على أنّ عمّار بن ياسر رضي الله عنه ومن كان معه كانوا على الحقّ في تلك الأيّام " ، ثمّ ساق حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً :(**ويح ابن سميّة تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنّة ويدعونه إلى النّار**)[4] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ الخبر الدّالّ على أنّ محبّة المرء عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه من الإيمان " ، وساق قوله رضي الله عنه : (والّذي فلق الحبّة

(1) تقدّم ص٣٨٨.

(2) الإحسان ١٥/٣٦٥ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٣ / ٤٨٣ ، والحاكم ٣ / ١٢٢ ، وله شواهد يصحّ بها ، انظر السّلسلة الصّحيحة للألباني ٥ / ح٢٢٩٥ .

(3) الإحسان ١٥ / ١٣٠ ، والحديث تقدّم ص٣٨٥.

(4) الإحسان ١٥ / ٥٥٣ ، والحديث تقدّم ص ٣٨٥.

وذرأ النّسمة إنّه لعهد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إليّ أنّه لايحبّني إلاّ مؤمن ولايبغضني إلاّ منافق)[1] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ مغفرة الله جلّ وعلا ذنوب عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه " ، ثمّ ساق حديث عليٍّ قال : قال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : (**ياعليّ ! ألا أعلّمك كلمات إذا قلتهنّ غُفر لك مع أنّه مغفورٌ لك : لاإله إلاّ الله العليّ العظيم ...**)[2] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ البيان بأنّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه كان ناصر كلّ من ناصر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم " ، وساق حديث بريدة رضي الله عنه مرفوعاً : (**من كنت وليّه فعليٌّ وليّه**)[3] .

وقال : " ذِكرُ دعاء المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بالولاية لمن والى عليّاً ، والمعاداة لمن عادى عليّاً " ، ثمّ ساق قوله صلّى الله عليه وسلّم : (**من كنت مولاه فإنّ هذا مولاه : يعني عليّاً : اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه**)[4] .

وقال أيضاً : " ذِكرُ محبّة عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه الله ورسولَه" ، ثمّ ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : (**لأدفعنّ الرّاية اليوم إلى رجل يحبّ الله ورسولَه فتطاول القوم ، فقال : أين عليّ ؟ فقالوا : يشتكي عينه ، فدعاه فبزق في كفّيه ومسح بهما عين عليّ ثمّ دفع إليه الرّاية ففتح الله عليه**)[5] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ إثبات محبّة الله جلّ وعلا و رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وقد فعل " ، ثمّ ساق الحديث

---

(1) الإحسان ١٥ / ٣٦٧ ، والحديث تقدّم ص٣٨٥.

(2) الإحسان ١٥ / ٣٧١-٣٧٢ ، والحديث تقدّم ص٣٨٥.

(3) الإحسان ١٥ / ٣٧٣ ، والحديث تقدّم ص٣٨٥.

(4) الإحسان ١٥ / ٢٧٦ - ١٧٦ ، والحديث تقدّم ص٣٨٦.

(5) الإحسان ١٥ / ٣٧٩ ، والحديث تقدّم ص٣٨٦.

السّابق من رواية سلمة بن الأكوع رضي الله عنه بزيادة:(**ويحبّه الله ورسوله**)[1] .

وقال بعد سوق عدّة أحاديث في فضل فاطمة والحسن والحسين : " ذِكرُ الخبر المصرّح بأنّ هؤلاء الأربع الّذين تقدّم ذكرهم أهل بيت المصطفى صلّى الله عليه وسلّم " ، ثمّ ساق حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم جلس في بيت عليّ وأجلس عليّاً عن يساره وفاطمة عن يمينه ، وحسناً وحسيناً بين يديه وقال : (﴿ **إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً** ﴾ **اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي**)[2] .

وقال أيضاً :" ذِكرُ قتال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على تأويل القرآن كقتال المصطفى صلّى الله عليه وسلّم على تنزيله " ، وساق حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : (**إنّ منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله ، قال أبوبكر : أنا هو يارسول الله؟ قال : لا ، قال عمر : أنا هو يارسول الله؟، قال : لا ، ولكن خاصف النّعل**) وكان أعطى عليّاً نعله ليخصفه.[3]

وقال أيضاً :" ذِكرُ الخبر الدّال على أنّ الخليفة بعد عثمان بن عفّان كان عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليهما ورحمته وقد فعل " وساق حديث سفينة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : (**الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثمّ تكون ملكاً**) قال : أمسك خلافة أبي بكر رضي الله عنه سنتين ، وعمر رضي الله عنه عشراً ، وعثمان رضي الله عنه اثنتي عشرة ، وعليٌّ رضي الله عنه ستّاً . قال علي بن الجعد : قلت لحمّاد : سفينةالقائل : أمسك ؟ قال : نعم .[4]

---

[1] الإحسان ١٥ / ٣٨٠ ، والحديث تقدّم ص٣٨٦.

[2] الإحسان ١٥ / ٤٣٢ ، والحديث أخرجه أخرجه أيضاً أحمد ٤ / ١٠٧ ، والطّبراني ٢٢/ ح١٦٠ ، والحاكم ١٤٧ ، وصحّحه الحاكم ووافقه الذّهبي .

[3] الإحسان ٣٨٥/١٥ ، والحديث أخرجه أحمد ٣ / ٣١ ، ٣٣ ، والحاكم ٣ / ١٢٢ ـ ١٢٣ وصحّحه وسكت عنه الذّهبي .

[4] الإحسان ١٥ / ٣٩٢ ، والحديث تقدّم ص٤٢٦.

تعليق :

سبق أن ذكرنا هذه التّعليقات في معرض الحديث عن النّواصب ، وقد أعدناها هنا ، لأنّا بصدد الحديث عن صحّة خلافته رضي الله عنه ، وأنّه أفضل الأمّة بعد عثمان على الصّحيح ، وأنّه كان أحقّ بالخلافة من غيره بعد عثمان رضي الله عنهما ، وأنّه كان على الحقّ فيما نازعه عليه من خالفه ، وإن كان النّصّ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيه أنّه أدنى للحقّ ، وتعبيره صلّى الله عليه وسلّم أدقّ، قال القاضي ابن العربي رحمه الله : (والّذي تثلج به صدوركم أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ذكر الفتن وأشار وبيّن ، وأنذر الخوارج وقال : **تقتلهم أدنى الطّائفتين إلى الحقّ** ، فبيّن أنّ كلّ طائفة تتعلّق بالحقّ ولكنّ طائفة عليّ أدنى إليه)[1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة بعد أن ذكر أقوال النّاس فيمن المصيب من عليّ ومعاوية رضي الله عنهما : (وهذه الأقوال ذكرها أبو عبدالله بن حامد عن أصحاب الإمام أحمد رحمه الله ، لكنّ المنصوص عنه نفسه وعن أمثاله من الأئمّة أنّ ترك القتال كان خيراً من فعله وأنّه قتال فتنة ، ولهذا كان عمران بن حصين رضي الله عنه ينهى عن بيع السّلاح فيه ويقول : لايُباع السّلاح في الفتنة ، وهذا قول سعد بن أبي وقّاص ومحمّد بن مسلمة وابن عمر وأسامة بن زيد رضي الله عنهم وأكثر من بقي من السّابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار وهو قول أكثر أئمّة الفقه والحديث)[2] .

وهذا يبين لك الصّحيح الّذي لامناص عنه ، فإنّ قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إنّ عليّاً أولى بالحقّ لايلزم أنّ قتاله لمعاوية كان أفضل ، بل حقن دماء المسلمين خير من الفتنة الّتي تُقطع فيها السّبل وتتعطّل الفتوحات وتنكشف الثّغور وتتوقّف الدّعوة ، ولهذا وصف النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الحسن بن عليّ وصفاً مشعراً بالمدح على فعله حيث قال : (**إنّ ابني هذا**

---

(١) العواصم ١٧٢ .

(٢) منهاج السّنة ٣٩٢/٤ .

سيّد وسيصلح ا لله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)[1] ، فتنازله رضي ا لله عنه عن الإمامة لمعاوية أمر أثنى به عليه الجميع إلاّ الحقدة من الشّيعة .

ومع هذا فعليٌّ رضي ا لله عنه اجتهد وكان لـه الحقّ في قتال معاوية إذ أبى الخضوع ومبايعة عليّ وهو الإمام الّذي اجتمعت عليه الأكابر من أصحاب رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم ومن كان بالمدينة .

ومعاوية رضي ا لله عنه نحبّه ولانسبّه ، ونترضّى عليه ، ونقول المقاتِل والمقاتَل مجتهدان وكلاهما أراد الحقّ وكم من مريد لـه لم يصبه ،والمجتهد في إصابة الحقّ بين أجرٍ وأجرين .

وكلّ ماجاءت به الشّيعة في ذمّه ومحاولة التّنقّص من قدره سقطٌ لايقوم في وجه لحظة من لحظات معاوية في صحبة رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم وجهاده معه رضي ا لله عنه وأرضاه .

وإذ قد وضح السّبيل فقد عُلم أنّ ابن حبّان وافق أهل السّنّة في موقفه من خلافة عليّ رضي ا لله عنه وصحّتها خلاف ماعليه الخوارج وغيرهم ، ولكنّه كان أيضاً على منهج السّلف في موقفه من معاوية فلم يتعرّض له بل ترضّى عليه وذكر حديثاً في فضله وهو حديث العرباض بن سارية رضي ا لله عنه مرفوعاً : (**اللّهمّ علّم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب)**[2] .

---

[1] أخرجه البخاري في المناقب باب علامات النّبوّة في الإسلام عن أبي بكرة رضي ا لله عنه .

[2] الإحسان ١٩١/١٦ ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد ٤ / ١٢٧ ، والطّبراني ١٩ / ح١٠٦٥ ، وغيرهم بأسانيد لاتخلو من ضعف .

الخاتمة

اختم هذه الرّحلة الشّيّقة مع الشّيخ الحافظ ابن حبّان رحمه الله في مسائله واجتهاداته في مجال الاعتقاد ، بما توصّلت إليه من نتائج ، ومأأدّى إليه جهدي من توصيات ، أمّا بالنّسبة للأولى فقد بحثت في الرّسالة ثمان وستّين مسألة في العقيدة إضافةً إلى دراسة منهجه في التّلقّي والاتّباع ، وموقفه من الفرق المخالفة .

وقد ذكرت أنّ ابن حبّان خالف منهج أهل السّنّة مخالفةً صريحةً وواضحةً في إحدى عشرة مسألة ، تسع منها في باب الأسماء والصفات ، وبناءً عليه توصلت إلى الآتي :

أولاً : أن ابن حبان رحمه الله كان من أهل الحديث وأن منهجه في التلقي والاتباع هو الأخذ من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومأأجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم .

ثانياً : أنه رحمه الله كان موافقاً لأهل السنة والجماعة في سائر أبواب الاعتقاد ، عدا باب الأسماء والصفات ، فقد وقع له فيه اضطرابٌ بين الإثبات والتّأويل .

ثالثاً : مال ابن حبان إلى تأويل صفة العجب والضحك والتقرب والمعية والنفس والبش والساق والشكر وكذلك حديث : (خلق الله آدم على صورته) ، وهذه الاجتهادات كلها كانت مبنيّةً على قوله : (إن الألفاظ النبوية التي أتت بها إنما المراد منها مخاطبة الناس بما يعرفون من الألفاظ) وهو كلام مبهم قد يفهم منه أن تلك الألفاظ لا تتضمن صفات رب العالمين وإنما المراد منها فقط تفهيم المخاطبين ، وبناء وعليه فقد حررت تصرفه مع كل نص جاء بإثبات صفة ، فوجدت أنه تارةً يجنح بكلامه إلى الإثبات وتارةً إلى التأويل .

رابعاً : خالف أهل السنة في تحسينه قصدَ قبور الصالحين من أجل الدعاء عندها ، وهي البدعة التي انتشرت في تلك الأزمنة و لم يسلم منها إلا من رحمه

الله من أهل السّنّة المتمسّكين بما ورد عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، ومال أيضاً إلى استحباب التّبرّك بذوات الصّالحين خلاف الرّاجح من مذهب أهل السّنّة .

خامساً : ذهب إلى قريب من مذهب الأشاعرة في الكرامات ، وردّ القول بكفر تارك الصّلاة مستدلاً بأدلّة يغلب عليها البعد والغرابة .

سادساً : مال أيضاً إلى تفسير الفطرة خلاف تفسيرأهل السّنّة ، وهذا التّفسير مع أنّه مرويّ عن بعض أهل السّنّة كابن المبارك إلاّ أنّه تفسير خطأ ولاشكّ كما هو مبيّن في موضعه من الرّسالة ، والّذي حدى بابن حبّان ومن سبقه إلى ذلك مابيّنه شيخ الإسلام رحمه الله وهو أنّ مراد الأئمّة من تفسير الفطرة بهذا التّفسير هو ردّ مذهب القدريّة في القدر وهو أنّ الله لايعلم المعاصي ولايريدها و لم يكتب أهل النّار في النّار قبل أن يخلقهم .

سابعاً : أنّ سبب ما وقع من ابن حبّان من اجتهادات خاطئة في باب الأسماء والصّفات هو احتدام المعارك الكلاميّة بين الأشاعرة والكلاّبيّة وبين المعتزلة من جهة ، وبين الحنابلة والأشاعرة والكلاّبيّة من جهة أخرى ، إضافة إلى انعدام التّمايز إلى حدّ كبير بين الأشاعرة والحنابلة لفترة طويلة حتّى عهد القشيري وابن فورك ، ممّا تسبّب في اختلاط المفاهيم والتّصوّرات في هذا الباب ، وهو السّبب نفسه تقريباً الّذي أوقع غيره من العلماءفي الاضطراب.

ثامناً : أنّ ابن حبّان لم يسر على طريقة واحدة في باب الأسماء والصّفات ، ولذلك لاأرى عدّه من الأشاعرة ، خصوصاً وأنّه فارقهم في سائر الأبواب الأخرى ، مثل باب الإيمان والقدر والتّوحيد ، وبهذا فإنّه معدود ـ حسب ماتوصّلت إليه ـ من أهل السّنّة ، وكونه وقع في خطإٍ وافق فيه الأشاعرة لايبرّر عدّه منهم ، ولو أنّ كلّ عالم أخطأ في مسألة وافق فيها إحدى الفرق عُدّ منهم لم يبق لنا من علماء السّنّة إلاّ القلّة .

()()()()()()()()()()()()()()()()()

أمّا التّوصيات فإنّي أوصي بما يلي :

أوّلاً : التّوسّع في دراسة مناهج الأئمّة في باب الاعتقاد ، فإنّ في ذلك توسيعاً لدائرة الصّواب وتضييقاً على الخطإ في أبواب العقيدة .

ثانياً : عدم التّسرّع في تصنيف العلماء وخصوصاً الّذين خدموا السّنّة حتّى يتمّ دراسة أقوالهم بالتّفصيل ليُعرف خلافهم وموافقتهم ، ويكون الحكم على مناهجهم بالموافقة أ والمخالفة صادراً عن علم لاعن مجرّد الظّن .

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

فهرس الآثار

فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس الفرق والجماعات

فهرس الأماكن والبقاع

فهرس الألفاظ الغريبة

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

- أ -

- **الإبانة عن أصول الدّيانة** :عليّ بن إسماعيل الأشعري ، ط الخامسة ١٤٠٩هـ ، الجامعة الإسلاميّة .
- **الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية** :عبيدالله بن محمّد بن بطّة العكبري ، ط الأولى ١٤٠٩هـ ، دار الرّاية ، ت : رضا بن نعسان معطي .
- **اجتماع الجيوش الإسلاميّة على غزو المعطّلة والجهميّة** : محمّد بن قيّم الجوزيّة ، ط الأولى ١٤٠٤هـ ، دار الكتب العلميّ .
- **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان** :عليّ بن بلبان الفارسي ، ط الأولى ١٤١٢هـ ، مؤسّسة الرّسالة ، ت : شعيب الأرناؤوط .
- **إحكام الأحكام في أصول الأحكام** :عليّ بن حزم الأندلسي ، ط الأولى ١٤٠٤هـ ، دار الحديث .
- **الأحكام السّلطانيّة** : محمّد بن الحسين الفرّاء الحنبلي ، ط بدون ، ت : محمّد حامد الفقي .
- **الإحكام في أصول الأحكام** :عليّ بن محمّد الآمدي ، ط الثّانية ١٤٠٢هـ ، المكتب الإسلامي ، تعليق : عبدالرّزّاق عفيفي .
- **الأدب المفرد** : محمّد بن إسماعيل البخاري ، ط بدون (قديمة) دار الكتب العلميّة .
- **الإرشاد إلى قواطع الأدلّة في أصول الاعتقاد** :عبدالملك بن عبدالله الجويني ، ط ١٣٦٩ ، مكتبة الخانجي ، ت : محمّد يوسف موسى ورفيقه .
- **إرشاد السّاري لشرح صحيح البخاري** :أحمد بن محمّد القسطلاّني ، ط السّادسة ١٣٠٤هـ ، دار إحياء التّراث العربي.
- **إرشاد الفحول** :محمّد بن عليّ الشّوكاني ، ط الثّانية ١٤١٣هـ ، مؤسّسة الكتب الثّقافيّة ، ت : محمّد سعيد البدري .
- **إرواء الغليل بتخريج أحاديث منار السّبيل** :محمّد ناصر الدّين الألباني ، ط الثّانية ١٤٠٥هـ ، المكتب الإسلامي .
- **الأسماء والصّفات** :أحمد بن الحسين البيهقي ، ط بدون ، دار الفكر ، تعليق : محمّد الكوثري .
- **الإصابة في تمييز الصّحابة** :أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني ، ط الأولى ١٤١٢هـ ، دار الجيل ، ت : علي محمّد البجاوي .
- **أصول الحديث** :محمّد عجاج الخطيب ، ط الرّابعة ١٤٠١هـ ، دار المعرفة .
- **أصول الدّين** : عبدالقاهر بن طاهر البغدادي ، ط الأولى ١٣٤٦هـ .
- **الاعتصام** : إبراهيم بن موسى الشّاطبي ، ط الأولى ١٤٠٨هـ ، دار الكتب العلميّة ، ت : أحمد عبدالشّافي .
- **الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرّشاد** :أحمد بن الحسين البيهقي ، ط ١٤٠٣هـ ، عالم الكتب ، ت : كمال يوسف.
- **الأعلام** :خير الدّين الزّركلي ، ط الثّامنة ١٩٨٩م ، دار العلم للملايين .
- **اعلام الموقّعين** :محمّد بن قيّم الجوزيّة ، ط بدون ، مكتبة ابن تيميّة بالقاهرة ، ت : عبدالرّحمن الوكيل .
- **إغاثة اللّهفان في مصائد الشّيطان** : محمّد بن قيّم الجوزيّة ، ط الأولى ١٤٠٧هـ ، المكتب الإسلامي ، ت : محمّد عفيفي .

- **اقتضاء الصّراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم** :أحمد بن عبدالحليم بن تيميّة ، ط بدون ، دار المعرفة ، ت : محمّد حامد الفقي.

- **الأم** :محمّد بن إدريس الشّافعي ، ط الأولى ١٤١٣هـ ، دار الكتب العلميّة ، ت : محمود مطرجي .

- **الإمامة العظمى عند أهل السّنّة والجماعة** : عبدالله بن سليمان الدّميجي ، ط الأولى ١٤٠٧هـ ، دار طيبة للنّشر والتّوزيع .

- **الإمامة والرّدّ على الرّافضة** :أحمد بن عبدالله الأصبهاني ، ط الثّالثة ١٤١٥هـ ، مكتبة العلوم والحكم ، ت : علي بن محمّد ناصر فقيهي .

- **الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولايجوز الجهل به** :محمّد بن الطّيّب الباقلاّني ، ط ١٩٦٣م ، مؤسّسة الخانجي .

- **الإيمان** : محمّد بن إسحاق بن منده ، ط الثّانية ١٤٠٦هـ ، مؤسّسة الرّسالة ، ت : علي بن محمّد ناصر فقيهي.

- **الإيمان لأبي عبيد** :القاسم بن سلام ، ضمن مجموعة من كنوز السّنّة ط الثّانية ١٤٠٥هـ ، دار الأرقم ، ت : محمّد ناصر الدّين الألباني .

- ب -

- **الباعث على إنكار البدع والحوادث** :عبدالرّحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة ، ط الأولى ١٤١٠هـ ، دار الرّاية ، ت : مشهور حسن سلمان .

- **بحوث في تاريخ السّنّة المشرّفة** : د . أكرم ضياء العمري ، ط الرّابعة ١٤٠٥هـ .

- **البداية والنّهاية** : أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، ط ١٤١٤هـ دار الحديث بالقاهرة ، ت : أحمد عبدالوهّاب فتيح.

- **البدر الطّالع بمحاسن من بعد القرن السّابع** :محمّد بن علي الشّوكاني ، ط بدون ، دار الكتاب الإسلامي .

- **بذل المجهود في حلّ أبي داود** :خليل أحمد السّهارنفوري ، ط بدون ، دار الكتب العلميّة .

- ت -

- **تأويل مختلف الحديث** :عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، ط بدون ، دار الكتاب العربي .

- **التّاريخ الإسلامي** : محمود شاكر ، ط الرّابعة ١٤١١هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

- **تاريخ بغداد** : أحمد بن عليّ الخطيب البغدادي ، ط بدون ، دار الكتاب العربي بيروت.

- **تحفة الأحوذي بشرح جامع التّرمذي** :محمّد عبدالرّحمن بن عبدالرّحيم المباركفوري ، ط الأولى ١٤١٠هـ ، دار الكتب العلميّة .

- **تدريب الرّاوي في شرح تقريب النّواوي** :جلال الدّين السّيوطي ، ط الثّانية ١٣٨٥هـ ، دار الكتب الحديثة ، ت : عبدالوهّاب عبد اللّطيف .

- **التّدمريّة** :أحمد بن عبدالحليم ابن تيميّة ، ط الأولى ١٤٠٥هـ ، ت : محمّد عودة السّعوي .

- **تدوين السّنّة** : د. محمّد بن مطر الزّهراني ، ط الأولى ، مكتبة الصّدّيق بالطّائف .

- **تذكرة الحفّاظ** :محمّد بن أحمد الذّهبي ، ط بدون ، دار إحياء التّراث العربي .

- **التّذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة** :محمّد بن أحمد القرطبي ، ط بدون ، دار الفكر بيروت .

- **تفسير القرآن العظيم** : إسماعيل بن كثير القرشي ، ط الثّانية ١٤٠٧هـ ، دار المعرفة بيروت .

- **تقريب التّهذيب** :أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني ، ط الأولى ١٤٠٦هـ ، دار الرّشيد ، ت : محمّد عوّامة

- **تلبيس إبليس** :عبدالرّحمن بن الجوزي ، ط الثّانية ١٤٠٧هـ ، دار الكتب العلميّة .

- **التّلخيص الحبير** :أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني ط ١٣٨٤هـ ، مطبعة الطّباعة الفنّيّة ، ت : عبدالله هاشم اليماني .

- **التّنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل** :عبدالرّحمن بن يحيى المعلّمي ، ط الثّانية ١٤٠٦هـ ، المكتب الإسلامي .

- **تهذيب التّهذيب** :أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني ، ط حيدر آباد / الهند ١٣٢٧هـ.

- **تهذيب الكمال في أسماء الرّجال** :أبو الحجّاج يوسف المزّي ، ط الأولى ١٤١٣هـ ، مؤسّسة الرّسالة ، ت : بشّار عوّاد معروف .

- **تهذيب اللّغة** :الأزهري ، ط ، ت : عبدالسّلام هارون .

- **التّوحيد وصفات ربّ العالمين** :محمّد بن إسحاق بن خزيمة ، ط الأولى ١٤٠٨هـ ، دار الرّشد ، ت : عبدالعزيز بن إبراهيم الشّهوان .

- **توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار** :محمّد بن إسماعيل الصّنعاني ، ط بدون ، المكتبة السّلفيّة بالمدينة النّبويّة ، ت : محمّد محيي الدّين عبدالحميد .

- **تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التّوحيد** :سليمان بن عبدالله بن محمّد بن عبدالوهّاب ، ط السّابعة ١٤٠٨هـ ، المكتب الإسلامي .

- ث -

- **الثّقات** :محمّد بن حبّان البستي ، ط الأولى ١٣٩٥هـ ، مؤسّسة الكتب الثّقافيّة .

- ج -

- **الجامع** :محمّد بن عيسى التّرمذي ، ط الأولى ١٤٠٨هـ ، دار الكتب العلميّة ، ت : أحمد شاكر .

- **جامع البيان في تفسير القرآن** :محمّد بن جرير الطّبري ، ط الأولى ١٤١٢هـ ، دار الكتب العلميّة .

- **جامع الرّسائل** :أحمد بن عبدالحليم بن تيميّة ، ط الثّانية ١٤٠٥هـ ، مطبعة المدني ، جمع : محمّد رشاد سالم .

- **جامع العلوم والحكم** :عبدالرّحمن بن شهاب الدّين المعروف بابن رجب ، ط الأولى ١٤١١هـ ، مؤسّسة الرّسالة ، ت : شعيب الأرناؤوط ورفيقه .

- **الجامع لأحكام القرآن** :محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، ط الأولى ١٤٠٨هـ ، دار الكتب العلميّة .

- ح -

- **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح** :محمّد بن أبي بكر بن القيّم ، ط الأولى ١٤٠٣هـ ، دار الكتب العلميّة .

- **حاشية كتاب التّوحيد** :عبدالرّحمن بن قاسم النّجدي ، ط الثّالثة ١٤٠٨هـ .

- **الحجّة في بيان المحجّة** :اسماعيل بن محمّد بن الفضل الأصبهاني ، ط الأولى ١٤١١هـ ، دار الرّاية ، ت : محمّد ربيع هادي المدخلي ورفيقه .

- **حلية ألأولياء وطبقات الأصفياء** :أحمد بن عبدالله الأصفهاني ، ط بدون ، دار الفكر .

- د -

- **درء تعارض العقل والنّقل** :أحمد بن عبدالحليم ابن تيميّة ، ط بدون ، دار الكنوز الأدبيّة ، ت : محمّد رشاد سالم .

- **دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين** :محمّد أحمد حلّي ، ط الثّانية ١٤٠٨هـ ، مركز الملك فيصل للبحوث .

- **الدّرر الكامنة** : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، دار الجيل بيروت .

- ر -

- **ردّ الإمام الدّارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد** :عثمان بن سعيد الدّارمي ، ط بدون ، دار الكتب العلميّة ، ت : محمّد حامد الفقي .

- **الرّدّ على الجهميّة** :عثمان بن سعيد الدّارمي ، ط ضمن عقائد السّلف ، منشأة المعارف ، ت : علي النّشّار ورفيقه .

- **الرّوح** :محمّد بن قيّم الجوزيّة ، ط الثّالثة ١٤٠٨هـ ، دار الكتاب العربي ، ت : السيّد الجميلي .

- ز -

- زاد المعاد في هدي خير العباد :محمّد بن قيّم الجوزيّة ، ط الخامسة عشر ١٤٠٧هـ ، مؤسّسة الرّسالة ، ت : شعيب الأرناؤوط ورفيقه .

- زوائد الأجزاء المنثورة على الكتب السّتّة المشهورة : عبدالسّلام بن محمّد علّوش ، ط الأولى ١٤١٦هـ ، المكتب الإسلامي .

- س -

- سلسلة الأحاديث الصّحيحة :محمّد ناصر الدّين الألباني ، ط مختلفة ، المكتب الإسلامي ، مكتبة المعارف الرّياض .

- سلسلة الأحاديث الضّعيفة :محمّد ناصر الدّين الألباني ، ط مختلفة ، المكتب الإسلامي ، مكتبة المعارف الرّياض .

- السّنن :محمّد بن يزيد القزويني (ابن ماجة) ، ط ١٣٩٥هـ ، دار إحياء التّراث العربي، ت : محمّد فؤاد عبدالباقي .

- السّنن :أبو داود سليمان بن الأشعث السّجستاني ، ط الأولى ١٣٨٨هـ ، دار الحديث بيروت ، ت : عزّت عبيد الدّعّاس .

- السّنّة :عمرو بن أبي عاصم الشّيباني ، ط الثّانية ١٤٠٥هـ ، المكتب الإسلامي ، بتخريج محمّد ناصر الدّين الألباني .

- السّنّة :أحمد بن محمّد الخلاّل ، ط الأولى ١٤١٠هـ ، دار الرّاية ، ت : عطيّة الزّهراني.

- السّنّة :عبدالله بن أحمد بن حنبل ، ط الأولى ١٤٠٦هـ ، دار ابن القيّم ، ت : محمّد بن سعيد القحطاني .

- ش -

- شرح الأصول الخمسة : عبدالجبّار بن أحمد الهمداني ، ط الأولى ١٣٨٤هـ ، مكتبة وهبة ، ت : عبدالكريم عثمان .

- شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة :هبة الله بن الحسن بن منصور اللاّلكائي ، ط بدون ، دار طيبة للنّشر ، ت : أحمد سعد حمدان .

- شرح السّنّة :الحسين بن مسعود البغوي ، ط الأولى ١٤٠٠هـ ، المكتب الإسلامي ، ت : شعيب الأرناؤوط.

- شرح صحيح مسلم (بحاشية الصّحيح) :يحيى بن شرف النّووي ، ط بدون ، دار الرّيّان .

- شرح العقيدة الأصفهانيّة :أحمد بن عبدالحليم بن تيميّة ، ط الأولى ١٤١٥هـ ، مكتبة الرّشد بالرّياض .

- شرح العقيدة الطّحاويّة :عليّ بن عليّ بن أبي العزّ الدّمشقي ، ط الثّالثة ١٤١٢هـ ، ت : عبدالله بن عبدالمحسن التّركي ورفيقه .

- شرح العقيدة الواسطيّة :صالح بن فوزان الفوزان ، ط الرّابعة ١٤٠٧هـ ، مكتبة المعارف .

- شرح كتاب التّوحيد من صحيح البخاري :عبدالله بن محمّد الغنيمان ، ط الأولى ١٤٠٩هـ ، مكتبة لينة .

- شرح نونيّة ابن القيّم :محمّد خليل هرّاس ، ط ١٤٠٧هـ ، مكتبة ابن تيميّة .

- الشّرح والإبانة على أصول السّنّة والدّيانة :عبيدالله بن محمّد بن بطّة العكبري ، ط ١٤٠٤هـ، المكتبة الفيصليّة ، ت : رضا بن بن نعسان معطي .

- الشّريعة :محمّد بن الحسين الآجرّي ، ط الأولى ١٤١٦هـ ، دار الكتب العلميّة ، ت : محمّد بن الحسن إسماعيل .

- **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل** :محمّد ابن قيّم الجوزيّة ، ط بدون ، دار التّراث ، ت : الحسّاني حسن عبدالله.

- **الشّفا بتعريف أحوال المصطفى** : عياض بن موسى اليحصبي ، ط الأولى ١٤١٦هـ ، مؤسّسة الكتب الثّقافيّة ت : كمال بسيوني زغلول.

- **الشّيعة والتّشيّع** :إحسان إلهي ظهير ، ط الأولى ١٤٠٤هـ ، إدارة ترجمان السّنّة .

- ص -

- **الصّحاح** :إسماعيل بن حمّاد الجوهري ط بدون ، ت : أحمد عبدالغفور عطّار .

- **صحيح البخاري** :محمّد بن إسماعيل البخاري ، ط بدون ، دار إحياء التّراث العربي ، ت : أحمد شاكر .

- **صحيح التّرغيب والتّرهيب للمنذري** :محمّد ناصر الدّين الألباني ، ط الثّالثة ١٤٠٩هـ ، مكتبة المعارف .

- **صحيح مسلم** :مسلم بن الحجّاج القشيري ، ط بدون ، دار إحياء التّراث العربي ، بترتيب محمّد فؤاد عبدالباقي .

- **الصّواعق المرسلة على الجهميّة والمعطّلة** :محمّد بن أبي بكر قيّم الجوزيّة ، ط الأولى ١٤٠٨هـ ، دار العاصمة ، ت : علي بن محمّد الدّخيل الله .

- ض -

- **الضّعفاء** : محمّد بن عمرو العقيلي ،ط ١٤٠٤هـ ، دار الكتب العلميّة ، ت : عبدالمعطي قلعجي .

- ط -

- **طبقات الحنابلة** :محمّد بن أبي يعلى ، ط بدون ، دار المعرفة بيروت .

- **طبقات الشّافعيّة** : عثمان بن عبدالرّحمن الشّهرزوري .

- **طبقات الشّافعيّة الكبرى** :عبد الوهّاب بن علي بن عبدالكافي السّبكي ، ط الثّانية ١٤١٣هـ ، دار هجر للطّباعة والنّشر ، ت : عبدالفتّاح محمّد الحلو ورفيقه .

- **الطّبقات الكبرى** :محمّد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري ، ط الأولى ١٤١٠هـ ، دار الكتب العلميّة ، ت : محمّد عبدالقادر عطا.

- ع -

- **عارضة الأحوذي** : محمّد بن عبدالله بن العربي المالكي ، ط ١٤١٥هـ ، دار الفكر ، ت : صدقي جميل العطّار .

- **العلل الكبير** :محمّد بن عيسى التّرمذي ، ط الأولى ١٤٠٩هـ ، عالم الكتب ، ت : السّيّد صبحي السّامرّائي ورفاقه .

- **العلل الواردة في الأحاديث النّبويّة** :عليّ بن عمر الدّارقطني ، ط الأولى ١٤٠٥هـ ،دار طيبة ، ت : محفوظ زين الرّحمن السّلفي .

- **علماء نجد خلال ستّة قرون** :عبدالله بن عبدالرّحمن البسّام ، ط بدون ، مكتبة النّهضة بمكّة .

- غ -

- **غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام** :محمّد ناصر الدّين الألباني ، ط الثّالثة ١٤٠٥هـ ، المكتب الإسلامي .

- ف -

- **فتح الباري** :أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني ، ط بدون ، دار المعرفة بيروت ، ت : عبدالعزيز بن باز .

- **فتح ربّ البريّة بتلخيص الحمويّة** :محمّد بن صالح بن عثيمين ، ط الثّانية ١٤٠٦هـ ، دار طيبة بالرّياض .

- **فتح المجيد شرح كتاب التّوحيد** :عبدالرّحمن بن حسن آل الشّيخ ، ط الأولى ١٤٠٥هـ ، دار القلم بيروت .

- **الفرق بين الفرق** :عبدالقاهر البغدادي ، ط الخامسة ١٤٠٢هـ دار الآفاق الجديدة ، ت : لجنة .
- **الفصل في الملل والأهواء والنّحل** :عليّ بن أحمد بن حزم ، ط ١٤٠٥هـ ، دار الجيل بيروت ، ت : محمّد إبراهيم نصر ورفيقه .
- **فضائل القرآن** : إسماعيل بن كثير ، ط الأولى ١٤١٦هـ ، مكتبة ابن تيميّة ، ت : أبي إسحاق الحويني الأثري .
- **الفوائد** :محمّد بن أبي بكر الزّرعي ابن قيّم الجوزيّة ط الثّانية ١٤٠٨هـ ، مكتبة المؤيّد ، ت : بشير عيون.

- ق -

- **قاعدة جليلة في التّوسّل والوسيلة** :أحمد بن عبدالحليم بن تيميّة ، ط الأولى ١٤٠٩هـ ، مكتبة لينة ، ت : ربيع بن هادي المدخلي .
- **القاموس المحيط** :محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي ، ط الأولى ١٤١٢هـ ، دار إحياء التّراث العربي .
- **قواعد التّحديث من فنون مصطلح الحديث** :محمّد جمال الدّين القاسمي ، ط الأولى ١٤٠٧هـ ، دار النّفائس ، ت : محمّد بهجة البيطار .

- ك -

- **كتاب الصّمت وآداب اللّسان** :عبدالله بن محمّد بن أبي الدّنيا ، ط الأولى ١٤١٠هـ ، دار الكتاب العربي ، ت : أبي إسحاق الحويني الأثري
- **كشف الأستار عن زوائد البزّار** :علي بن أبي بكر الهيثمي ، ط الثّانية ١٤٠٤هـ ، مؤسّسة الرّسالة ، ت : حبيب الرّحمن الأعظمي .

- ل -

- **لسان العرب** :محمّد بن مكرم بن منظور المصري ، ط ١٣٧٥هـ ، دار صادر .
- **لوامع الأنوار البهيّة وسواطع الأسرار الأثريّة** :محمّد بن أحمد السّفّاريني ، ط بدون ، المكتب الإسلامي .

- م -

- **متن الكافية الشّافية في علم العربيّة** :محمّد بن عبدالله بن مالك ، ط بدون ، مطبعة الهلال بمصر .
- **المجتبى من السّنن** :أحمد بن شعيب النّسائي ، ط الثّانية ١٤٠٩هـ ، دار البشائر الإسلاميّة ، رقّمه واعتنى به : عبدالفتّاح أبو غدّة .
- **المجروحين من المحدّثين والضّعفاء والمتروكين** :محمّد بن حبّان البستيّ ، ط الثّانية ١٤٠٢هـ ، دار الوعي بحلب ، ت : محمود إبراهيم زايد .
- **مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد** :عليّ بن أبي بكر الهيثمي ، ط ١٤٠٦هـ ، مؤسّسة المعارف .
- **المجموع** : شرح المهذّب ، يحيى بن شرف النّووي ، ط بدون ، دار الفكر .
- **المجموع الثّمين من فتاوى الشّيخ محمّد بن عثيمين ج١و٢** :فهد بن ناصر السّليمان ، ط الأولى ، دار الوطن للنّشر .
- **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميّة** :أحمد بن عبدالحليم بن تيميّة ، ط بدون ، مكتبة ابن تيميّة ، جمع : عبدالرّحمن بن قاسم النّجدي .
- **مختار الصّحاح** : محمّد بن أبي بكر الرّازي ، ط بدون ، دار القلم بيروت .
- **مختصر التّحفة الاثني عشريّة** : أصله لشاه عبد العزيز الدّهلوي واختصره محمود شكري الآلوسي ، ط ١٣٧٣هـ ، المطبعة السّلفيّة .
- **مختصر الصّواعق المرسلة لابن القيّم** :محمّد بن الموصلي ، ط ١٤١٤هـ ، دار الحديث ، ت : سيّد إبراهيم .
- **مختصر فتاوى ابن تيميّة** :محمّد بن عليّ البعلي ، ط بدون ، دار الكتب العلميّة ، ت : عبدالمجيد سليم .

- **مدارج السّالكين** :محمّد بن أبي بكر الزّرعي ابن قيّم الجوزيّة ط الثّانية ١٤٠٨هـ،دار الكتب العلميّة.

- **مسائل الإمام أحمد** :رواية إسحاق بن إبراهيم بن هانيء ، ط الأولى ، المكتب الإسلامي ، ت : زهير الشّاويش .

- **المسائل والرّسائل المرويّة عن الإمام أحمد بن حنبل** :عبدالإله بن سلمان الأحمدي ، ط الأولى ١٤١٢هـ ، دار طيبة للنّشر بالرّياض

- **المستدرك على الصّحيحين** :محمّد بن عبدالله الحاكم ، ط بدون ، دار الكتب العلميّة .

- **المسند** :أحمد بن محمّد بن حنبل ، ط بدون ، المكتب الإسلامي .

- **مسند الشّهاب** :محمّد بن سلامة القضاعي ، ط الثّانية ١٤٠٧هـ ، مؤسّسة الرّسالة ، ت : حمدي عبدالمجيد السّلفي .

- **المسوّدة في أصول الفقه** :أحمد بن عبد الحليم بن عبد السّلام بن تيميّة ، وأبوه وجدّه ، ط بدون ، دار المدني ، ت : محمّد محيي الدّين عبدالحميد .

- **المشتبه في الرّجال** :محمّد بن أحمد الذّهبي ، ط الثّانية ١٩٨٧م ، الدّار العلميّة بدلهي الهند ، ت : علي محمّد البجاوي .

- **المصنّف** :عبدالرّزّاق بن همّام الصّنعاني ، ط الثّانية ١٤٠٣هـ ــ المكتب الإسلامي ، ت : حبيب الرّحمن الأعظمي .

- **المصنّف في الأحاديث والآثار** :عبدالله بن محمّد بن أبي شيبة ، ط الأولى ١٤١٦هـ ، دار الكتب العلميّة ، ت : محمّد عبدالسّلام شاهين .

- **معارج القبول بشرح سلّم الوصول** :حافظ بن أحمد الحكمي ، ط بدون ، دار الكتب العلميّة .

- **معالم السّنن (مع تهذيب ابن القيّم ومختصر السّنن للمنذري)** :محمّد بن سليمان الخطّابي ، ط ١٤٠٠هـ ، دار المعرفة بيروت ، ت: أحمد شاكر ورفيقه .

- **المعجم الأوسط** :سليمان بن أحمد الطّبراني ، ط ١٤١٥هـ ، دار الحرمين ، ت : طارق بن عوض الله بن محمّد ورفيقه .

- **معجم البلدان** :ياقوت بن عبد الله الحموي ، ط ١٣٩٩هـ ، دار إحياء التّراث العربي .

- **المعجم الكبير** :سليمان بن أحمد الطّبراني ، ط الثّانية ، دار إحياء التّراث العربي ، ت : حمدي عبدالمجيد السّلفي .

- **معجم المؤلّفين** :عمر رضا كحالة ، ط بدون ، دار إحياء التّراث العربي .

- **مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلّين** :عليّ بن إسماعيل الأشعري ، ط الثّانية ١٣٨٩هـ، مكتبة النّهضة ، ت : محمّد محيي الدّين عبدالحميد .

- **مقدّمة ابن خلدون** :ابن خلدون ، ط الخامسة ١٩٨٤م ، دار القلم بيروت .

- **الملل والنّحل** :محمّد بن عبدالكريم الشّهرستاني ، ط الأولى ١٤١٠هـ ، دار الكتب العلميّة ، صحّحه : أحمد فهمي محمّد .

- **المنار المنيف في الصّحيح والضّعيف** :محمّد بن قيّم الجوزيّة ، ط ١٣٩٠ ، مكتب المطبوعات الإسلاميّة ، ت : عبدالفتّاح أبو غدّة .

- **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك** :عبدالرّحمن بن عليّ بن الجوزي ، ط بدون ، دار الكتب العلميّة ، ت : محمّد عبدالقادر عطا ورفيقه .

- **منهاج السّنّة النّبويّة** :أحمد بن عبدالحليم ابن تيميّة ، ط الثّانية ١٤٠٩هـ ، مكتبة ابن تيميّة ، ت : محمّد رشاد سالم .

- **الموطّأ** :مالك بن أنس الأصبحي ، ط بدون ، دار إحياء الكتب العربيّة ، ت : محمّد فؤاد عبدالباقي .

- **ميزان الاعتدال** :محمّد بن أحمد الذّهبي ، ط بدون ، دار المعرفة : لبنان ، ت : علي محمّد البجاوي .

- ن -

- **النّجوم الزّاهرة** :جمال الدّين ابن تغري بردي ، ط ١٩٣٢م ، دار الكتب المصريّة .

- **نزهة الخاطر العاطر شرح روضة النّاظر** :عبدالقادر بن مصطفى بن بدران ، ط بدون ، دار الكتب العلميّة بيروت .

- **النّكت على مقدّمة ابن الصّلاح** :أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني ، ط الأولى ١٤٠٤هـ ، الجامعة الإسلاميّة، ت : ربيع بن هادي المدخلي .

- **النّهاية في غريب الحديث والأثر** : المبارك بن محمّد الجزري ابن الأثير ، ط بدون ، المكتبة الإسلاميّة ، ت : محمود محمّد الطّناحي .

- **النّهاية في الفتن والملاحم** :إسماعيل بن كثير ، ط الأولى ١٤٠٨هـ ، دار الكتب العلميّة ، ضبطه أحمد عبدالشّافي .

- **نيل الأوطار بشرح منتقى الأخبار** :محمّد بن علي الشّوكاني ، ط بدون ، دار الكتب العلميّة .

- هـ -

- **هداية المستفيد من كتب التّمهيد** :عطيّة محمّد سالم ، ط الأولى ١٤١٦هـ ، مكتبة الأوس للنّشر والتّوزيع .

- و -

- **الوافي بالوفيّات** : صلاح الدّين الصّفدي ، ط الثّانية ١٣٨١ هـ ، ت : هلموت ريتر .

فهرس الموضوعات